

هَذَا مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَهَذَا بَرَاهِينُ رِسَالَتِهِ

ح عبد الله عبد العزيز المصلح
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المصلح، عبد الله عبد العزيز
هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه براهين رسالته
عبد الله عبد العزيز المصلح - ، جدة
٩٨٨ ص ؛ ٢٤×١٧ سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٢٩١٨-٨-٨
١- السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩
ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٢٩١٨-٨-٨

الطبعة الثالثة
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م
طبعة مزيّدة ومنقّحة

رابطة العالم الإسلامي
Muslim World League
الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة
INTL. Commission on Scientific Signs
in the Quran and Sunnah



920010097	الرقم الموحد
012 5601038 هاتف - فاكس 0125601332	مكتة المكرمة
ص ب 5736 مكتة المكرمة 21955	
0126820328 هاتف - فاكس 0126920731	جدة
ص ب 112833 جدة 21371	

للمساهمة في إعادة طباعة كافة إصداراتنا رقم حساب الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بالبنك الأهلي

IBAN:SA 7510000000155055000109

وارسال سند الايداع أو التحويل على فاكس 00966125601038 - هاتف 00966125601332
وللتواصل E-Mail:Books@ejaz.org

هَذَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

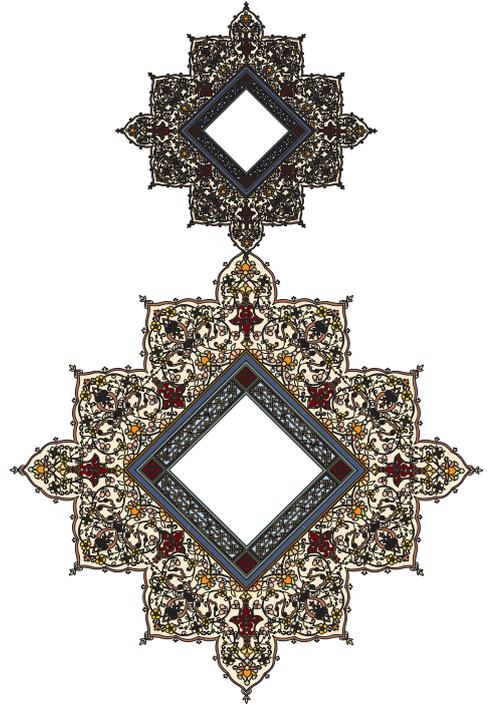
وَهَذَا بَرَاهِينُ زَيْنَالْتَرَا

الدُّكُورُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْغَرِيزِ الْمُصَلِّحِ

الْأَمِينِ الْعَامِرِ لِهَيْبَةِ الْعَالَمِيَّةِ لِأَعْمَارِ الْعُلَمَاءِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

بِرِابطةِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة الطبعة الثالثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ ..

لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ .

اللَّهُمَّ ..

لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ عَلَي نِعْمِكَ الَّتِي لَا تُحَدُّ وَلَا تُعَدُّ .

اللَّهُمَّ ..

صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَي أَشْرَفِ خَلْقِكَ، وَأَكْرَمِ رُسُلِكَ، نَبِينَا وَحَبِيبِنَا
وَقَائِدِنَا وَقُدْوَتِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمِينَ مُتَّصِلِينَ إِلَى أَنْ تَرْتِ
الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

أما بعد :

فهذا هو محمد ﷺ .. الذي أشرقت برسالته أنوار الإيمان.

هذا هو محمد ﷺ .. الذي أخرج الله به الإنسان من عبودية الإنسان والأوثان إلى عبودية الله الرحيم الرحمن.

هذا هو محمد ﷺ .. الذي صاغ الله به النفس السوية، وأنار به العقول الزكية، وصنع به مجتمع الفضيلة، فولدت برسالته الإنسانية من جديد، بعد أن تاهت في دروب الوثنية، والجهالة، والعسف، والظلم، وجور الإنسان على أخيه الإنسان، حتى عبّر عن هذا الصحابي الجليل ربي بن عامر رضي الله عنه قائلاً: «نحن قوم ابتعثنا الله؛ لنخرج من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

هذا هو محمد ﷺ .. سيرته منهج، وعمله عدل، وثباته على الحق قُدوة، ودعوته مناراً للسالكين السائرين في طريق من أنعم الله عليهم مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحجته حيّة مشهودة منظورة على مرّ العصور.

هذا هو محمد ﷺ .. دينه الحق: عقيدة، وعبادة، وآداباً، وأخلاقاً، وتنظيماً، لشؤون الحياة، منهجه محفوظ، وحجته ناطقة في انسجام جلي بين الآية المسطورة في القرآن والسنة، وبين الآية المنظورة في الكون والإنسان.

وفي هذا الكتاب الذي جعلت عنوانه **(هذا محمد رسول الله ﷺ .. وهذه براهين رسالته)** أقدم لكم خير الخلق وعلم الهدى، من أبان للناس الحق وجلى لهم الحجّة؛ فتركهم على البيضاء ليلها كنهأرها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

إنّ الدراسات المنصّفة لتاريخ البشرية قبل بعثة محمد ﷺ قد أجمعت على أنّ الوثنيّة والإلحاد أغارا على الدين الصّحيح وحقائقه النَّاصِعة حتّى أمسى الإنسان عبداً مسخراً لأدنى شيءٍ فيها - وهو الدّني استخلفه ربّه ليكون عبداً لله

حرًا لا يعبدُ سِواه - فما الَّذي تَبَقَّى بعد أن تُقَدَّسَ العُجول والأبقار والذوات والشهوات، وتُعَبَدَ الأخشاب والأحجار، وتعيشَ شعوبٌ من بني آدم على هذه الخرافات وتلك التفاهات؟!!

لقد ران على الأفئدة والعقول ظلامٌ حالِكٌ في غيبة أنوار التوحيد، واغتيلت معاني الرَّحمة حتَّى أضحت الأرض مَذَابَه يسودها الفتك والاغتيال، ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة، فأبى خيرٌ يُرجى في أحضان وثنيةٍ كَفَرَتْ بالله وعبدتِ الذاتَ وسلَّمت قيادها لترهات الدَّجالين؟!!

وفي خِضَمِّ هذه الأمواج المتلاطمة من الضَّلَال قبل بعثة محمدٍ ﷺ عمَّت النَّاس حيرةٌ أذهلت العقول، كما وصفها أميرُ الشعراء:

أتيتَ والنَّاسُ فوضى لا تَمُرُّ بهم إلا على صنمٍ قد هامَ في صنمٍ
فعاهلُ الرُّومِ يطغى في رعيتِهِ وعاهلُ الفرسِ من كبرِ أصمِّ عمي

لذا فإننا ندرك جليًا لماذا استحقت البشرية آنذاك المقت من بارئها كما جاء في الحديث: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب».. وهو مقتٌ مستحقٌ بسبب الشرود عن منهج الفطرة والتَّيه في دُروبِ الشُّرك.

ظَلَّت البشرية حقبَةً من الدَّهرِ تشرَّبَ أعناقها لنور الهداية من ربِّها، وتتوق أرواحها لهادٍ منقذٍ يضع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم؛ حتَّى بعث اللهُ لهم هذا النُّور من ذلك الغار الذي شعَّ منه الهدى، وأشرقت من جنَّباته الرحمة.

نعم.. لقد بعث اللهُ أنوار الهداية إلى البشرية قاطبةً من وادٍ غيرِ ذي زرع في (بكة) من بين مجاهل جبال تهامة التي انتشر فيها كما في غيرها الكثير من عُتُلِ الشُّرك وكهنته ممَّن بلغ الغرور به مبلغًا يسابق في عتوه وطغيانه فرعون الذي أغرقه الله.

واقتضت حكمة الله ورحمته بتلك البشرية التائهة أن بعث الله إليهم هذا النبيّ الأميّ، المحمود في صفاته، النادر بين لداته، المفضلّ على أقرانه من أنبياء الله ورسله، بما حباه الله من خلقٍ عظيم، ورحمةٍ سابغة، وحكمةٍ بالغة، وصفاتٍ جليلة؛ ليكون الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والمثّة من الله على خلقه، وكفى بالله عليمًا، وكفى بالله حكيماً.

إنّ قلة مال محمد ﷺ ويتمه التي ظنّها عبّاد اللّات والعزّى، وعبّاد ذواتهم وشهواتهم منقصة، كانت - مع شرف نسبه - سببًا في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات النّاس من مزايا، وإنّك حين تقرأ سيرة هذا الرجل العظيم قبل بعثته ستصل حتمًا إلى يقينٍ راسخٍ بأنّه صلى الله عليه وسلم كان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب والنظر السديد، صنعه الله على عينه، وأنه قبل رعي الغنم وبعده، وقبل ممارسة التجارة وبعدها، كان يعيش يقظ القلب في متاهات الحياة الجاهلية، ألمعيّ العقل بين جمهور السكارى والغافلين.

لذا فقد كان اصطفاء الله لمحمد ﷺ نعمةً لم تلبث روعتها أن تكشّفت عن قدراته التي منحه الله إيّاها، فصاغ هذا النبيّ الأميّ على عينه جيل الهدى والهداية (الجيل الفريد) الذي أهده رسولنا العظيم للبشرية إلى قيام الساعة.

لقد كانت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ أعظم منحة ربّانية عرفها العالم للتحرر: الروحيّ والعقليّ والماديّ من عبودية غير الله.

إنّ رسالة هذا شأنها جاءت لتعيد الحقّ إلى نصابه: حقّ الخالق وحقّ المخلوق، حقّ الخالق في عبادته وحده، وحقّ المخلوق في أن تخلصه من أغلال العبودية لغير ربّه، لكن الطغاة المتجبرين عبّاد الذوات والشهوات لا بدّ وأن يشرقوا بهذه الدعوة التي أرادها الله رحمةً للعالمين:

وَفَاضَ بِالنُّورِ فَآغْتَمَ الطُّغَاةُ بِهِ وَاللُّصُّ يَخْشَى سَطُوعَ الْكَوْكَبِ السَّارِي
وَالْوَعْيُ كَالنُّورِ يُخْزِي الظَّالِمِينَ كَمَا يُخْزِي لُصُوصَ الدُّجَى إِشْرَاقَ أَقْمَارِ

هل يظنُّ عاقلٌ أنَّ رسالةَ عَظِيمَةٍ هذا شأنها لن تجد عقولاً ضالَّةً ترفضها، أو قلوباً مريضةً تُحاربها رغم كلِّ ما فيها من الرحمة والعدل؛ ورغم كلِّ ما تقدَّمه من توازنٍ في التعامل مع مكونات الإنسان الثلاثة: الروح، العقل، الجسد، ومن انسجامٍ تامٍ بين مكونات الحياة الإنسانيَّة الخمسة: الفرد، الأسرة، المجتمع، الدولة، البيئَة؛ ورغم كلِّ ما سنَّته من سياسات راقية في مراعاةٍ مقامات الناس وإمكاناتهم وقدراتهم.

رغم كل ذلك، فإنَّ هذه الرسالة العظيمة وجدت عنتاً وأيَّ عنتٍ من الطغاة وأصحاب المصالح والشهوات، إلا أنَّ صاحب الرسالة العظمى كانت همَّته أكبر، وحرصه على البلاغ أعظم، حتَّى أظهره الله عليهم؛ لأنَّ مبدأ الحقِّ لا بدَّ وأن يعلو كما لا بدَّ وأن تسفل تُرَّهات الباطل.

آتاه الله قلباً رحيماً بأمته: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فقد كان حرصه على نجاتهم أضعاف حرصهم ودأبهم على هلاكه؛ لأنه رسول الرحمة وحامل لواء المحبة عليه أفضل الصلاة والسلام.

وإذا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ هذان في الدنيا هُمُ الرحماءُ
وإذا غَضِبْتَ فَإِنَّمَا هِيَ غَضَبَةٌ في الحقِّ لا ضِغْنٌ ولا بغضاءُ
وإذا رَضِيتَ فذاك في مرضاته ورضى الكثير تحلَّم ورياءُ

جاء محمد ﷺ بالمعجزة الخالدة .. القرآن الكريم.

رجلٌ عظيمٌ صنعه الله على عينه، يحمل في ثنايا صدره للعالمين كتاباً عظيم المصدّر معجز الآي، خضعت عقولُ أرباب الفصاحة، وصنَّاع البيان على أعتابه حتَّى عجزت عن القدرة على مجاراته فضلاً عن معارضته.

إنَّه القرآن العظيم. تسأله فيجيبك، وتحاوره فيقنعك. وهو شهيدٌ على هذه الأمة بتجدده عصرًا بعد عصر، وجيلًا إثر جيل، لأنه من عند الله لعباده بلاغًا وحبَّةً حيَّةً إلى يوم الدين.

إنَّ براعةَ التحدِّي وسرَّ روعته أن يعلوَّ المتحدِّي باقتدارٍ تلكَ القممِ الشامخةِ في مجالها، فينظر إليها من علوِّ أكثر شموخًا، وهذا شأنُ النبيِّ محمدٍ ﷺ مع أساطين البلاغة والبيان من قريش الذين أذهلهم ما جاء به هذا النبيِّ الأميِّ الذي يتحدَّاهم بكلامٍ لا قبلَ لهم بمجاراته، وهو الذي ما عُرف عنه شعرٌ ولا نظمٌ يفاخر به.

نعم.. لقد أبهرهم إعجازُ بيانِ القرآن العظيم وبيدعِ صنعِهِ الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربِّه، فتركهم في حيرتهم تائهين حتَّى قال كبيرهم الوليد بن المغيرة: «والله ما فيكم من رجلٍ أعلم بالأشعار منِّي، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجنِّ منِّي، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّه لمثمرٌ أعلاه مغدقٌ أسفله، وإنَّه ليعلو وما يُعلو، وإنَّه ليحطِّم ما تحته».

حسبك أنَّ أصدق دليلٍ على ربانيَّةِ مصدرِ هذا القرآن العظيم أنَّ الذي جاء به لم يكن ممَّن يقرأ أو يكتب، فهو أميٌّ في أمَّةٍ أميَّةٍ، ولن يجد من في عقله أثارة من حصافه، أو لمحة من ذكاء، أو قبس من الوعي بدًّا من التسليم بذلك.

لقد كانت أميَّة صاحب الرسالة أقوى حجَّةً في وجه من يتخرَّص كذبًا أو يتجرأ بالبهتان على أنَّ محمد بن عبد الله ﷺ قد خطَّه بيمينه ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا خُطْبَةٍ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأْرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إنَّ الغرض الأساسي من تقديم هذا الكتاب إلى الناس هو بيان براهين صدق النبيِّ محمد ﷺ، واستخلاص جوانب القدوة والأسوة الحسنة من أخلاق هذا النبيِّ العظيم، والرسول الرحيم، ومن سيرته صلى الله عليه وسلم، لذلك فقد

حرصت أن يعتني هذا الكتابُ بما يلي:

أولاً التعريف بالرسول محمد ﷺ حسب مراحل عمره مع التركيز على تجلية ما اختصت به حياته صلى الله عليه وسلم من شمولٍ وتوازن:

❁ فقد تناول البحث حياته صلى الله عليه وسلم في جوانبها الشخصية، وشمل روابطه الأسرية والاجتماعية، وتعاملاته الاقتصادية، وعلاقاته السياسية، فقد كان ﷺ بشراً رسولاً ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

❁ جرى عليه في حياته صلى الله عليه وسلم ما يجري على البشر؛ بل زادت معاناته كبشر عن المعتاد لدى البشر؛ ففي حالة المرض مثلاً كان يعاني ضعف ما يعانيه غيره، وقد أجاب ﷺ من سأله عن ذلك قائلاً: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم». متفق عليه.

❁ وكان يجوع حتى يشد الحَجَرَ على بطنه الشريف صلى الله عليه وسلم من شدة الجوع، وكان أشد ما يكون اهتماماً بحاجات الناس.

❁ وقد خَبِرَ فتنة المعاش وذاق أقدارها؛ ففي الجانب الأسري عاش العلاقات الأسرية بشتى أشكالها، وتحمل تبعاتها: زوجاً وأباً وصهراً وقريباً.

❁ وفي المجال الاجتماعي: كان جازاً ورفيقاً وصاحباً، وكذا مارس الشأن الاقتصادي، فاشترى وساوم ورهن.

❁ وفي الجانب السياسي: كان قائداً لأول دولة مسلمة، تولت إدارة شؤون الرعية، وحفظت مصالحهم، ونظمت علاقاتها الداخلية والخارجية، وأقامت العدل بين مواطنيها، ووفرت لهم الأمن والحماية على اختلاف مللهم ونحلهم، وقد خَبِرَ رسول الله ﷺ ذلك كله، واستفرغ وسعه

في اتخاذ الأسباب، وبذل جهده في التصدي للمعضلات، وحلّ المشكلات، ولم يتوان أو يتواكل؛ بل عزم وتوكل على الله حقّ توكله، وكان في ذلك كله قدوة حسنة صلى الله عليه وسلم لمن بعده من خلفائه الراشدين وأصحابه، وسائر المسلمين أجمعين.

❁ أما في جانب علاقته بربه ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وخشيته وافتقائه، وكثرة ذكره وشكره وحسن عبادته: فأمرٌ فوق ما يصفه الواصفون، يدلُّ على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «وَجَعَلْتُ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» رواه أبو دواد، والنسائي بإسناد صحيح.

❁ أمّا حرصه صلى الله عليه وسلم على دعوة الناس وهدايتهم: فقد بلغ حدّاً عاتبه عليه ربّه قائلاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بَيِّعْتَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

❁ أمّا حسن معاملته الناس، والصبر على أذاهم، والرفق بهم: فقد كانت مضرب الأمثال، ويكفي أنّ الله شهد بذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد اتّسمت حياته صلى الله عليه وسلم بالتوازن والاعتدال في شتى شؤونها؛ بحيث أعطى كلّ شيءٍ حقه الذي يستحقه دون أن يطغى جانب على جانب؛ فمثلاً: لم تصرفه عبادته لربّه وتعلّقه به عن الوفاء بالتكاليف الأسرية أو أداء الحقوق الاجتماعية، ولم يمنعه من الوفاء بذلك ثقل الرسالة وأعباء الدعوة والبلاغ وأداء الأمانة التي تنوء بحملها الجبال الراسيات، ولم تنسه قيادة الرجال في مواطن الجهاد عن ملاطفة الأهل والأصحاب، ومداعبة الكبار والصغار، ومؤانستهم وإدخال السرور عليهم، بل أعطى كلّاً حقه ومستحقّه.

ثانياً نظرة على سيرته ومسيرته صلى الله عليه وسلم :
وقد شملت ما يلي :

❁ التعريف بشخصية الرسول ﷺ الزكية منذ ميلاده صلى الله عليه وسلم مروراً بصباه، فشيبته المبكرة، حتى أوان بلوغه أشده حين بدأت إرهاصات النبوة، إلى أن نزل عليه الوحي من رب العالمين؛ بأنه النبي الخاتم الذي لا نبي بعده.

❁ شروعه في دعوة قومه بمكة المكرمة بدءاً بعشيرته الأقربين، ومراحل الدعوة بمكة المكرمة مروراً بالمرحلة الفردية ثم الجماعية، أو الدعوة السرية والجهرية، وما تلقاه صلى الله عليه وسلم من عنتٍ وشدّة، نتيجة عناد قريشٍ ومعارضتها للدين الجديد، واضطهادها لكل من أسلم واهتدى، وما أعقب ذلك من إذنٍ للمستضعفين من المسلمين بالهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة.

❁ الهجرة المباركة إلى المدينة، والتي بدأت معها مرحلة جديدة من حياة المسلمين، عندما وجدوا الملاذ الآمن في موطن إخوانهم الأنصار الذين أووهم، ونصروهم، وآثروهم بالغالي والنفيس.

❁ تأسيس أول دولة مسلمة بالمدينة المنورة على رأسها قيادة سياسية تمثّلت في شخص الرسول ﷺ يعاونه في إدارتها كبار أصحابه ﷺ، وما صاحب هذه المرحلة الجديدة من نشوء علاقات بينية بين مكونات المجتمع المدني، وما استلزمته الأوضاع الجديدة من عقد معاهدات، سواء ما تعلّق منها بتنظيم العلاقات داخل المدينة - فيما بين المسلمين أو مع غيرهم من أهل الكتاب والوثنيين - أم خارج المدينة مع القبائل التي تقطن قرب المدينة، أو على أطرافها.

وقد استعرض الكتاب جملةً من الأحداث والظروف، والأوضاع المتنوعة، التي عايشها المسلمون في المدينة المنورة.

❁ معاناة المسلمين من المنافقين واليهود، وقد أبان الكتاب عن جانب ممّا لاقاه المسلمون من المنافقين واليهود من مكائد ومؤامرات، وما واجهوه من أحداثٍ ومواقف من المشركين وأهل الكتاب داخل جزيرة العرب وعلى أطرافها في السلم والحرب.

❁ حروب المسلمين وانتصاراتهم وانكساراتهم، وما منَّ الله به على المسلمين من فتوح كان أعظمها فتح مكة المكرمة، وما غنموه من غنائم.

❁ دخول المسلمين في دين الله أفواجاً، إثر صلح الحديبية، واجتماعهم الحاشد على صعيدٍ واحد بعرفات بأعدادٍ غفيرة في حجة الوداع.

❁ الحدث الجلل، والمصابب الجسيم، الذي أحزن المسلمين حزناً شديداً وأصابهم بالذهول، عندما انتقل حبيبهم وقرّة عيونهم محمد ﷺ إلى جوار ربّه، بعد أن أدّى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقّ الجهاد، صلوات ربّي وسلامه عليه، وجزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته.

❁ ما تلا وفاة الرسول ﷺ من أحداثٍ ومواقف انتهت باختيار خليفة لرسول الله ﷺ اجتمعت عليه كلمة المسلمين، فاتّبع السيرة، وواصل بهم المسيرة، وثبت على الحق حتى أتاه اليقين، وانتقل إلى رحمة ربه راضياً مرضياً.

ثالثاً بيان ما يلزم من كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين :

إن كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين يتعيّن أن يكون رسولاً للعالمين جميعهم، جنّهم وإنسهم، فالناس جميعهم مشمولون بدعوته مهما كانت أجناسهم، أو اختلفت ألسنتهم، أو تنوّعت ألوانهم، وأنّى كان زمانهم ومكانهم، فالكلّ مشمولون بدعوته ﷺ، فمن رضي بدعوته فهو من أمة الإجابة التي هي خير

أُمَّة أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ ، ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، ومن أعرض عن الإسلام فيبقى في عداد أمة الدعوة .

رابعاً التنبيه ضمناً إلى أن دراسة السيرة النبوية بالمنهج الاستشراقي قد أدت في الجملة إلى نتائج عكسية لدى شريحة واسعة من القراء إزاء الرسول ﷺ ، أقلها أن يتوقف الأمر بهم عند حد الانبهار بشخصية الرسول ﷺ ، وتقدير ما حقته من نجاحات ، دون محاولة الإيمان به أو متابعتة - هذا بالنسبة لغير المسلمين - أما المثقفون المسلمون الذين أعجبوا بكتابات المستشرقين وتأثروا بها ، وتلقوا عنهم سيرة الرسول ﷺ ، فقد لوحظ على كثير منهم عدم الميل إلى الاقتداء به ﷺ ، والاهتداء بهديه ، إن لم يصل بهم الأمر إلى الدعوة إلى نبذ سيرته باعتبارها لم تعد صالحة لروح العصر .

خامساً التعريف بمجمل الحجج والبراهين الدالة على صدق رسالته ﷺ بغية أن يفهم القارئ الكريم بعض البراهين والاستدلالات والحجج الدالة على صدق الرسالة ، وتعريفه بالمعجزات التي أعطيت للنبي محمد ﷺ لتأييد رسالته .

سادساً تعريف القارئ بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، باعتباره نوعاً من أنواع الإعجاز القرآني ؛ ومداره حول إخبار القرآن الكريم ببعض الحقائق العلمية التي لم تكن معروفة زمن التنزيل ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] .

وقد أوردت ما يقرب من مائة من الشواهد والدلائل العلمية المعاصرة ضمن موضوعات مختلفة تؤكد مجتمعة صدق الرسالة ، وتنطق بأن الإسلام هو دين الله الحق ، وأن القرآن كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من رب العالمين لهداية الناس أجمعين إلى يوم الدين ..

وها هو القرآن العظيم.. تظهر اليوم كنوزه في عصر العلم.
حقائق علمية تنطق بها آياته البينات بلا تكلف أو تعسف، وإنما توافق واضح
مبرراً من التعارض، سليم من الخلل.

هذه هي الرسالة الخالدة، وذلك هو القرآن الحي، إنه يحدثنا اليوم بلسان زماننا
وهو (العلم) الذي يعتبر الشاهد الثقة والحجة الموثقة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ
قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، يحدثنا
بلسان القوم الذين يفهمون حديثه، يدعوهم إليه بلغة يدركون تفاصيلها، إنه لقرآن عظيم.
لذا.. فقد حرصنا أن نسير على نهج القرآن الكريم، وأن نتحدث إلى الناس
بلسان زمانهم، فخصصنا آخر فصل من فصول هذا الكتاب لتبيان مائة حقيقة علمية
كونية معاصرة تشهد في عصر (العلم) أن محمداً رسول الله ﷺ.

وقبل أن أنتهي من هذه المقدمة تجدر الإشارة إلى ما وفق الله إليه من قبول
لهذا الكتاب في طبعته الأولى وإقبال الناس عليه، والرغبات الكثيرة جداً التي ترد
إلينا لإعادة طباعته، بل وترجمته إلى اللغات العالمية الأكثر انتشاراً، كالإنجليزية
والفرنسية وغيرهما؛ لما وجدوا فيه من منهج مميز وأسلوب يناسب هذا العصر،
وهذا فضل الله من به علينا، فله الحمد والشكر سبحانه وتعالى، هو أهل الثناء
والحمد؛ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وها نحن الآن نحقق هذا الأمل وتلك الرغبات بإخراج الطبعة الثالثة من هذا
الكتاب، مزيدة ومنقحة، فنسأل الله أن يجعل لها مزيداً من القبول والانتشار،
خدمة لهذا الدين ولرسوله النبي الخاتم محمد ﷺ.

وقد امتازت هذه الطبعة بعدد من المميزات، نذكر منها :

✿ إعادة تبويب موضوعات الكتاب.

✿ إعادة صياغة بعض عناوين الموضوعات العلمية.

❁ إضافة نقولات من أقوال المفسرين لتوضيح معاني بعض النصوص ، وبيان وجه دلالتها.

❁ ضبط النصوص الحديثية وتخريج ما يحتاج منها إلى تخريج.

❁ إضافة ما يلزم من معلومات جديدة لتوضيح الأفكار ، وبيان المقصود منها.

❁ ضبط المصطلحات العلمية بعد الرجوع إلى مصادرها ومراجعتها.

❁ عرض الموضوعات العلمية في قالب يجمع بين الدلالة النصية في القرآن

والسنة - مدعمة بأقوال المفسرين والشارحين - وبين الحقائق العلمية لإبراز ما تضمَّنته من إعجاز علمي أو حكم تشريعية.

❁ صياغة خاتمة الكتاب صياغة جديدة تظهر أهم النتائج والتوصيات.

❁ تزويد الكتاب بفهرس تفصيلي للموضوعات وفق التبويب الجديد يكشف عن محتويات الكتاب.

وإليكم في خاتمة هذه المقدمة شهادة منصف من علماء هذا القرن هو:

البروفيسور «مايكل هارت» في مقدمة كتابه (العظماء المائة في التاريخ) يقول:

«إن اختياري محمداً، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء، ولكنَّه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدينيوي، فهناك رُسلٌ وأنبياءٌ وحكماءٌ بدأوا رسالاتٍ عظيمة، ولكنَّهم ماتوا دون إتمامها، كال المسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليها سواهم، كموسى في اليهودية، ولكن محمداً هو الوحيد الذي أتَمَّ رسالته الدينية، وتحدَّدت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته، ولأنَّه أقام إلى جانب الدين دولة جديدة، فإنَّه في هذا المجال الديني أيضاً وحدَّ القبائل في شعب، والشعوب في أُمَّة، ووضع لها كلَّ أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم. أيضاً في حياته، فهو الذي بدأ الرسالتين الدينية والدينيوية وأتمهما».

لقد آن الأوان لهذه البشرية في زماننا هذا الذي تعالت فيه نداءات الباطل وتنوعت فيه أساليب الإغواء والإغراء فتاهت بالإنسان دروب الضلال، حتى علت أصوات تطلب النجدة والغوث طالبة المنقذ من الضلال والمخرج لها ممًا تعانيه من الضنك والضيق والحيرة.

نعم.. لقد آن الأوان لهذه البشرية أن تفتح أقفال قلوبها لهدي النور المبين الذي جاء به محمد الأمين ﷺ، عندها فقط يجدون الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة. وفي الأخير، أحمد الله وأشكره على إحسانه وتوفيقه، الذي بفضلله ومنه تتم الصالحات، وأسأله تعالى أن يتقبل عملنا ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، وابتغاء مرضاته، وأن يحشرنا في زمرة سيدنا محمد ﷺ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا. إنه قريب مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاّ به. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدكتور/عبدالله بن عبدالعزيز المصلح

الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي
في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي

هدى محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم



القسم الأول

تأملات في سيرة نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم





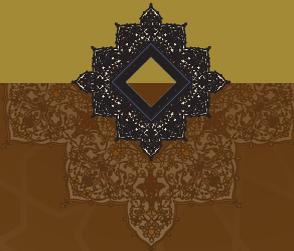
ويشتمل هذا القسم على فصول

الفصل الأول

تأملات في سيرة نبي الرحمة ﷺ

الفصل الثاني

نظرة على شخصيته ﷺ



هَذَا أَحْمَدُ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

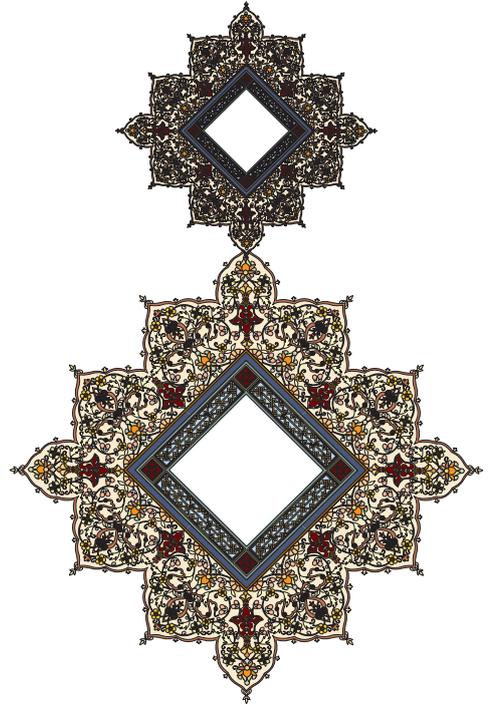


الفصل الأول

تأملات في سيرة نبي الرحمة
صلى الله عليه وسلم







نوطنة

يتعين على البشرية ...

إذا أرادت الرقي أن تستفيد من ماضيها، وما مرت به من تجارب في أي زمان ومكان كانت؛ وذلك لتتلافى تكرار ما وقع لها من أخطاء، وتستلهم من دروس الماضي ما ينير لها درب الحاضر وآفاق المستقبل .

وحاجة المسلمين في هذا العصر إلى تراثهم، لا تقل عن حاجتهم إلى ما جادت به الحضارة المعاصرة، من إبداعات، وإنجازات، إن لم تكن في بعض الجوانب تزيد.

إن في التراث الحضاري الإسلامي، من القيم الحضارية الجميلة الشيء الكثير، فحري بالأمّة الإسلامية أن تتعرف عليه، وتسعى لتثقيف أبنائها به، تمهيداً لإعادة إحيائه، والاستفادة منه في حاضرها .

وعلى الرغم من شغف البشرية بحاضرها الذي كاد ينسيها ماضيها الثري الغني، فلا أحسب أن أي عاقل منصف يُعرض عن الدعوة للاستفادة من تراثنا الجميل، أو يُعرض به، وبخاصة وهو يرى أن البشرية منهكة، رغم ما توافر لها من وسائل راحة، وأمان، تأنهت رغم ما توصلت إليه من تقنيات عزت على الحصر، متناحرة، وعوامل الالتقاء بين أفرادها أضعف عوامل الافتراق .

البشرية المعاصرة مدعوة بإلحاح أن تشفق على حالها، وتبحث في تراثها، لعلها تجد وسيلة تأخذ بيدها إلى عالم المحبة والتراحم والتسامح.

أحسب أن البشرية لا مناص لها من أن تتجه إلى الماضي، حيث كان عظماءها الذين مضوا مُلِكَ البشرية جمعاء، يحق للأجيال المتتابة أن تطلع على سيرهم، وتنهل من العلوم التي يمكن الاستفادة منها في محاصرة مظاهر الفِرقة، والاختلاف، وبث أسباب التراحم والالتقاء، وإن لم يكن هذا، فما فائدة أن تحتفظ البشرية بسيرة هؤلاء وتاريخهم، إذا لم تستفد منها.

إنَّ النَّاسَ، كَلَّ النَّاسَ، يحبون المواقف الصادقة، ويتفاعلون مع التصرفات الإيجابية المؤثرة، ويستجيبون للمشاعر الإنسانية، التي تبعث في النفس كوامن الخير، وتصرفهم عن بواعث الشر.

كثيرون أولئك الذين تعرضوا لمثل هذه الموضوعات، بغية بيانها للناس، وتزيينها في عيونهم، لتجد لها مكاناً في قلوبهم، وذلك قياماً بالواجب من هؤلاء، وأداءً للأمانة. كم من عظماء البشرية يستحق أن يُكتب تاريخه، ويدون كلامه لتكتحل به عيون القراء، والجواب بيقين: هو أن أولى العظماء وأجدرهم بأن تعرف سيرته الخالدة، والاهتداء بهديه هو الرحيم محمد بن عبد الله ﷺ.

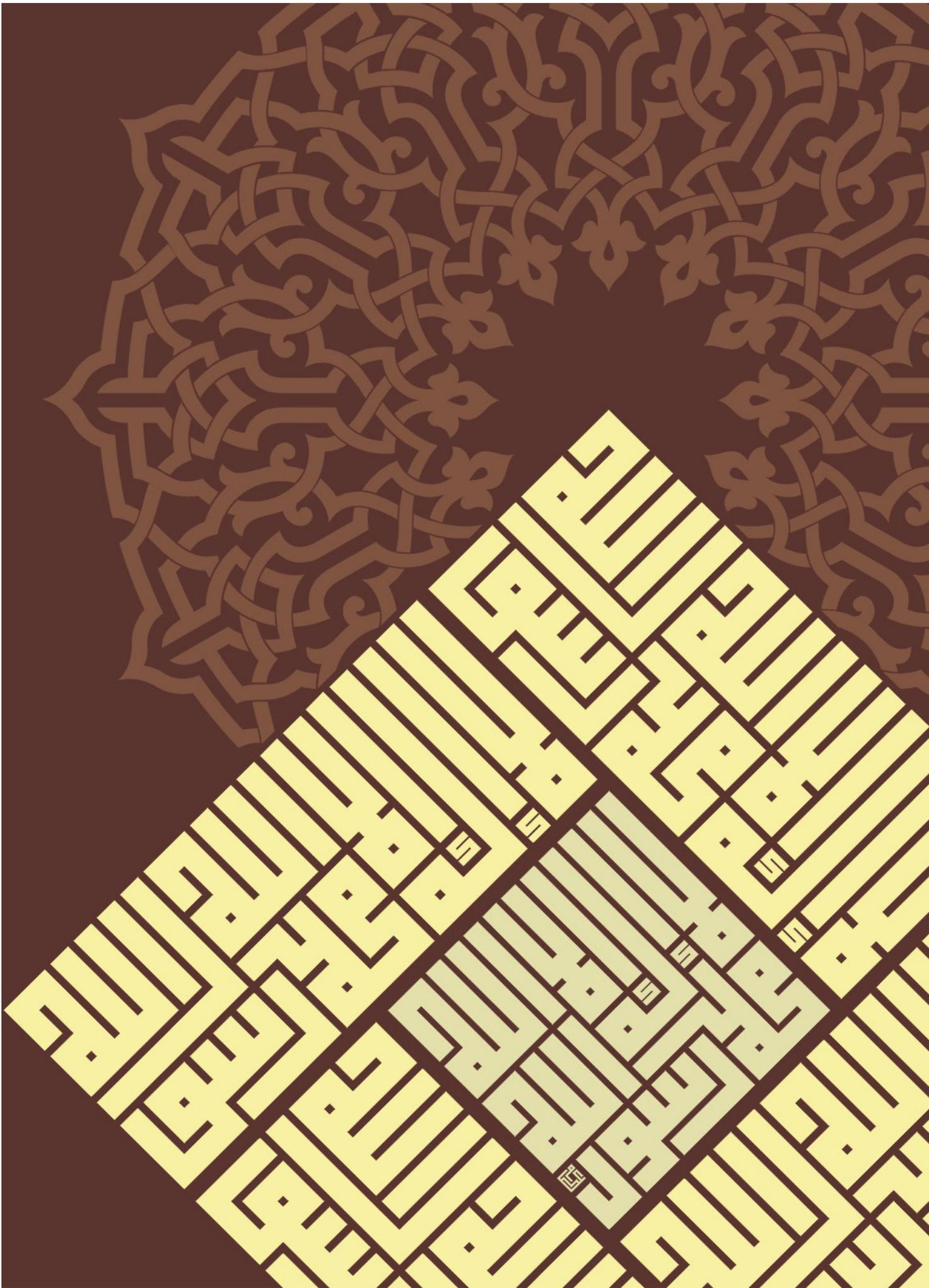
إن الحديث عن سيرة النبي محمد ﷺ ذو شجون، لا يتسع له المقام، ولا يأتي عليه الكلام، ولعل أجمع وصف وأصدق به هو الرحيم؛ فهو لا يفارق أقوال النبي ﷺ، ولا أفعاله، في كل أحواله، فهو الرحمة المهداة بكل مظاهرها.

وحيث عازمت على الكتابة عن النبي محمد ﷺ، وجدت أن أنسبها كتابةً تأملات في سيرة الرسول ﷺ تضمنت قصصاً، وأحداثاً، من سيرة النبي محمد ﷺ، قد لا تكون جديدة على فئات كثيرة، فقد مرت بهم فرادى، متناثرة، لكن الجديد المفيد، أن يصاغ الكتاب في شكل نظرية نبوية، أخلاقية، تكاملت في البناء، وتوازنت في الأنحاء، كانت الرحمة نقطة الارتكاز فيها.

حاولنا قدر استطاعتنا البحث عن المعلومة الصحيحة، نسوقها دليلاً، ولا نرضى عنها بديلاً، وإنه منهج يُملي علينا أن نقول، إن جلّ مباحث هذا القسم من الكتاب منقولٌ عن المصادر الأصلية التي تلقّتها الأجيالُ بالقبول، فقد نقلنا عنها، واستندنا عليها، ونحن ندللّ ونحلل.

ولقد رغبتنا أن لا نثقلَ الهامشَ بسرِّدِ المراجع وكثرةِ الإحالات، فاكتفينا بواحدٍ منها، وربما باثنين، حتى وإن ورد الحديث أو القصة في مراجع عدة. طفنا على حدائق ذات بهجة، جمعنا قدر استطاعتنا رحيق السيرة العطرة من كل زهرة، فيها مظهر من مظاهر رحمة النبي ﷺ بالبشر، قدمها للبشرية هدية.





المبحث
الأول

نظرة على حياته ﷺ

لقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ بالهدى والحق رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ليظهره على الدين كله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وفي هذا المبحث، سوف نعيش مع نبي الرحمة، في المراحل الأولى من حياته، محاولين إلقاء الضوء على بعض الجوانب المؤثرة في حياته.

نسب الرسول ﷺ:

إن النبي ﷺ أشرف الناس نسباً، وأكملهم خلقاً وخلقاً؛ فهو محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ولا خلاف أن (عدنان) من ولد إسماعيل عليه السلام^(١).

والده هو عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف؛ وكان جدُّه عبد المطلب قد نذر أن يذبح واحداً من أولاده إذا رزقه الله عشرة أبناء، فلما تم له ذلك أقرع بينهم، فخرجت القرعة على عبد الله، وكان أحبَّ أولاده إليه، فمَنَعته قريش وأخواله من بني مخزوم، وتمَّ فداؤه بمائة من الإبل.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٥٩/١، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٧٠/١.

ثم زوجه والده بعد ذلك من آمنّة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي من أفضل نساء قريش نسبًا وموضعًا.

وبعد فترة من زواجه خرج عبد الله متاجرًا إلى الشام، فمرض أثناء عودته، فنزل عند أخواله في المدينة، فتوفّي ودُفن في دار النابغة الجعديّ، وكان عمره خمسة وعشرين عامًا، قبل أن يولد الرسول ﷺ، كما توفيت والدته وهو في السادسة من عمره^(١).

وطيب المعدن والنسب الرفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور، ويجعله يهتم بمعاليها وفضائلها، والرسل والدعاة يحرصون على تزكية أنسابهم وطهر أصلابهم، ويُعرفون عند الناس بذلك؛ فيحمدونهم ويثقون بهم^(٢).

نشأته ودعوته ﷺ:

وُلد النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ سنة ٥٧٠ لميلاد السيد المسيح، وهذا ما ورد في أغلب المصادر التاريخية الموثوق بها، وإن كان بعض العلماء يرى أن النَّبِيَّ ﷺ ولد سنة ٥٧١، فلا أعدُّ هذا خلافًا، إذ يبدو لي أنه ولد في أواخر سنة ٥٧٠.

كانت ولادته في مكة المكرمة، وهي مدينة قديمة، تقع في الجزيرة العربية من قارة آسيا، تُوفي والده وأمه حاملًا به، فولد يتيماً، ولما ولدته أمه، وكان ابنها الوحيد، قامت على رعايته إلى أن توفيت، وكان عمره ست سنوات، ثم كفله بعدها جدُّه عبد المطلب، ولما بلغ محمد ﷺ الثامنة من عمره، تُوفي جدُّه، فضمّه عمُّه أبو طالب، إلى أولاده، وصار يرعاه كأنه واحدٌ منهم.

لَمَّا شارف محمد ﷺ على سنّ الشباب، بدأ يعمل، ليعيل نفسه، فاشتغل

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/١٥٦، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/٤٥٨.

(٢) انظر: فقه السيرة للبطوي، ص ٤٥. انظر: وقفات تربوية مع السيرة، أحمد فريد، ص ٤.

في رعاية الغنم لأهل مكة^(١)، ثم عملَ بعد ذلك في التجارة، وسافر خارج الجزيرة العربية، وكان معروفًا بين قومه، منذ نعومة أظفاره، بالصادق الأمين.

كان يتاجر بأموالِ امرأةٍ شريفةٍ كريمةٍ، من سيدات مجتمع قريش، وهي خديجة بنتُ خويلد، وقدَّر الله أن يتزوجها، وكان عمرها آنذاك، أربعين سنةً، وعمرُ النبي ﷺ خمسةً وعشرون عامًا.

كان له أربع بنات، وولدان، كلُّهم من زوجته خديجة، وقد عاشت حتى بلغت خمسةً وستين عامًا، ولم يكن عنده زوجةٌ غيرها طوال حياتها. تُوفي أولادُه، وبناته جميعًا في حياته، إلا بنتًا واحدة، وهي فاطمة، فقد توفيت بعده بستة أشهر.

لقد عاش النبي ﷺ حياته كلها، بسيطًا في طعامه وشرابه ولباسه، كانت تمرُّ عليه بعضُ الأيام، لا يجد ما يأكله، لا هو ولا أهل بيته، وكان متواضعًا، قريبًا إلى الناس جميعًا، يحبُّهم ويحبُّونه^(٢).

نزول الوحي:

لما بلغ النبي محمد ﷺ سنَّ الأربعين، أنزل الله تعالى عليه رسالة الإسلام، وبدأ يدعو الناس إليها، ومكث في مكة ثلاث عشرة سنةً، ثم انتقل إلى المدينة، وهي بلدةٌ تبعد قرابة ٥٠٠ كم عن مكة، بعد أن آمن به أكثرُ أهلها وعُرفوا في التاريخ الإسلامي باسم الأنصار.

أولُ ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبَّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه - يتعبَّد فيه - الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود

(١) انظر: صحيح البخاري، حديث رقم (٢٢٦٢).

(٢) لمزيد من المعلومات، تراجع الكتب التالية، على سبيل المثال، البداية والنهاية لابن كثير، زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية.

لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ.

قال: «ما أنا بقارئ».

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

قلت: «ما أنا بقارئ».

قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ،

فقلت: «ما أنا بقارئ».

فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿**اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي**
خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝﴾ [العلق: ١-٣].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: «ما لي؟» فأخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيت على نفسي».

فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق؛ فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟».

قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشأ ورقة أن توفي^(١) ثم فتر الوحي أيامًا ليذهب ما واجه النبي ﷺ من الروح، وليتشوق إلى العود بقي رسول الله ﷺ فيها كثيرًا محزونًا، فلما حصل له ذلك، وأخذ يرتقب مجيء الوحي أكرمه الله بالوحي مرة ثانية^(٢).

روى البخاري عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ، يُحدث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي، سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري قبل السماء، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراءٍ، قاعدٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فجثتُ منه رعبًا، حتى هويتُ إلى الأرض، فجثتُ أهلي فقلت: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوني»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْدُرُ ۝ فَمُ فَاَنْذِرْ ۝﴾ - إلى قوله - ﴿فَأَهْجُرْ﴾. قال أبو سلمة: «.. ثم حمي الوحي وتتابع»^(٣).



(١) انظر: صحيح البخاري، حديث رقم (٣) وحديث رقم (٤٩٥٣)، وصحيح مسلم، حديث رقم (١٦٠).
 (٢) انظر: صحيح البخاري، حديث رقم (٤)، وصحيح مسلم، حديث رقم (١٦١).
 (٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٢٦).

المبحث الثاني

جهاد الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى

بدأ رسول الله ﷺ الدعوة إلى الله سرًا، ولم يعلنها إلا بعد مُضيّ سنوات، كما قال ربنا على لسان نبيّه نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٩].

المرحلة الأولى: (الدعوة إلى الله إسرارًا):

قام رسول الله ﷺ بعد نزول آيات سورة المدثر، بعرض الإسلام أولاً على ألق الناس به من أهل بيته، وكل من توسّم فيه الخير، فأسلمت زوجته النبيّ ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وابن عمّه علي بن أبي طالب، وكان صبيًا يعيش في كفالة الرسول ﷺ، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق، ثم تتابع كثيرون، وهكذا مرّت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورةً على الأفراد، ولم يجهز بها النبيّ ﷺ في المجامع والنوادي.

المرحلة الثانية: (الدعوة إلى الله إعلانًا وجهارًا):

وأوّل ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فدعا رسول الله ﷺ عشيرته بني هاشم، بعد نزول هذه الآية، فجاؤوا ومعهم نفرٌ من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين

رجالاً^(١)، ولما تمَّ هذا الإنذارُ انفضَّ النَّاسُ وتفرَّقوا، ولا يُذكر عنهم أيُّ ردةٍ فعلٍ، سوى أن أبا لهبٍ واجهَ النَّبِيَّ ﷺ بالسوء، وقال: تَبَّ لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ٨].

ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فقام ﷺ يجهراً بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونوادبهم^(٢).

وخوفاً من أن يتأثر أحدٌ بالنبيِّ ﷺ في موسم الحجِّ أجمعت قريشٌ على اتهام النبيِّ ﷺ بأنه ساحرٌ، أمَّا رسول الله ﷺ فصار يخرجُ لدعوة الناس إلى الله في أسواق عكاظٍ ومجنته وذي المجاز، وكان أبو لهب وراءه يلاحقه قائلاً: لا تطيعوه فإنه صابئٌ كذابٌ^(٣)، وما هي إلا فترةٌ وجيزةٌ حتى انتشر ذكره ﷺ في بلاد العرب كلها.

أساليب محاربة الدعوة الإسلامية:

لما فرغت قريشٌ من الحج شرعت في مجابهة الرسول ﷺ بأساليبٍ تمكَّنها من القضاء على الدعوة الإسلامية الفتية، ومن هذه الأساليب:

١) السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب:

فكانوا ينادونه بالمجنون: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، ووصموه بالسحر والكذب ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سَجِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

(١) انظر: فتح الباري شرح الحديث (٤٧٧١)، وانظر قول أبي لهب في صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٧٢)، وصحيح مسلم، حديث رقم (٢٠٨).

(٢) سيرة ابن إسحاق.

(٣) انظر: صحيح بن حيان، حديث رقم (٦٥٦٢) وهو صحيح، وهناك تخريجه الكامل.

إثارة الشبهات ونشر الدعايات الكاذبة :



فكانوا يقولون عن القرآن كما قص القرآن على لسانهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أفتَرَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] .

﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] .

وقالوا أيضا عن القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءآخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤] أي اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه.

وقالوا عن الرسول ﷺ، وهو يقرأ القرآن إنما يعلمه بشر ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] .

صدُّ الناس عن سماع القرآن الكريم :



وقد وصف القرآن الكريم حالهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، ومعارضته بالأساطير والحكايات، كما كان يفعل النضير بن الحارث، عندما كان يدعو الناس ليقص عليهم أخبار اسفنديار وغيره، بقصد الشغب والحيلولة دون سماعهم القرآن الكريم من رسول الله ﷺ، (انظر تفسير هذه الآية).

ولمَّا رأى المشركون أن هذه الأساليب لم تجد نفعا في إيقاف الدعوة الإسلامية، قرَّروا القيام بتعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقضَّ كلُّ سيِّدٍ على من اختار من عبيده طريق الإيمان.

وكان عمُّ عثمان بن عفان يلفه في حصيرٍ من سعف النَّخِيلِ، ثم يدخنه من تحته، وكان أبو جهل إذا سمع برجلٍ قد أسلم له شرفٌ ومنعةٌ أبَّه وأخزاه،

وتوعده بالخسارة الفادحة في المال والجاه، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به، وكان صهيب بن سنان الرومي يُعذَّب حتى يفقد وعيه، ولا يدرى ما يقول. ومات بعضهم تحت وطأة التعذيب، كياسر أبي عمار، وقتل أبو جهل سمية زوجة ياسر، وكانت أول شهيدة في الإسلام^(١).

قريش تهدد أبو طالب عم رسول الله ﷺ:

مشى رجالاً من أشرف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضللّ آباءنا، فإما أن تكفّه عنّا، وإما أن تُخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهر دين الله ويدعو إليه.

ولكن لم تصبر قريش طويلاً حين رأتها ﷺ ماضياً في عمله ودعوته إلى الله، بل أكثرت ذكره وتذامرت^(٢) فيه، فقررت مراجعة أبي طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنّا قد استنهييناك ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنّا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

فعظّم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأبى عليّ وعلى نفسك، ولا تُحمّلني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمّه خاذله، وأنه ضعّف عن نصرته، فقال: « يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر

(١) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام، ص ٦٧.

(٢) التذامرت، هو التحاض على القتال، أي حض بعضهم بعضاً على حربه وعداوته.

في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يُظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته»، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشيء أبداً.

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماضٍ في عمله، ذهبوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب، إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذ فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجلٌ برجلٍ، فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً.

فقررت قريش سلوك سبيل الاعتداء على الرسول ﷺ، وكان أبو لهب على رأسهم، وكانت امرأة أبي لهب - أم جميل - تحمل الشوك، وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط لسانها في ذمه، وتثير حرباً شعواءً على النبي ﷺ؛ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب.

وكان أحدهم يطرح عليه عليه ﷺ رحمة الشاة وهو يصلي، وآخر يطرحها في برمته إذا نصبت له، وكان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين حكيمتين كان لهما أثرهما في تسيير الدعوة، وهما:

١. اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزاً للدعوة ومقرّاً للتربية.
٢. أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

اجتماع المسلمين برسول الله ﷺ في دار الأرقم:

كانت هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين قريش ومجالسهم، فاختارها الرسول ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرّاً، فيتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ وليؤدّي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله، وهم في أمنٍ وسلامٍ، وليدخل من يدخل في الإسلام، ولا يعلم به

الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة^(١).

الهجرة إلى الحبشة، وملاحقة المشركين للمهاجرين:

كانت بداية الاعتداءات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة، بدأت ضعيفةً، ثم لم تزل تشتدُّ حتى تفاقمت في أواسط السنة الخامسة، فنزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست ضيقةً ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فأمر الرسول ﷺ المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم، وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم، وفيه جمعٌ كبيرٌ من قريشٍ، فقرأ سورة النجم حتى قوله تعالى: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوهُ﴾ [النجم: ٦٢] ثم سجد، فلم يتمالك أحدٌ نفسه حتى خرَّ ساجدًا^(٢).

وبلغ الخبر إلى مهاجري الحبشة، بأن قريشًا أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوالٍ من السنة نفسها، فلما كانوا دون مكة ساعةً من نهارٍ، وعرفوا جليّة الأمر، رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحدٌ إلا مستخفيًا، أو في جوار رجلٍ من قريشٍ، واستعد المسلمون للهجرة مرةً أخرى، فهاجر من الرجال ثلاثةً وثمانون رجلاً، وثمانٍ عشرة أو تسع عشرة امرأةً.

أرسلت قريشٌ عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفةً للنجاشي ولبطارفته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزودوهما بالحجج التي يُطردُ بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقا مع البطارقة أن يسيروا على النجاشي بإقصائهم، حضرا إلى النجاشي، وقدما له الهدايا ثم كلماه .

(١) سيرة ابن إسحاق.

(٢) انظر: صحيح البخاري، حديث رقم (٤٨٦٢)، حديث رقم (٤٨٦٣).

فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضَوَى إلى بلدك غلمانُ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم؛ لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيًّا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة: صدقا أيُّها الملك، فأسلِمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

فأرسل إلى المسلمين ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان، فقال لهم النجاشيُّ: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحدٍ من هذه الملل؟

قال جعفر بن أبي طالب - وكان هو المتكلم عن المسلمين -:

أيها الملك كُنَّا قومًا أهل جاهليَّة؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيءُ الجوار، ويأكل منَّا القويُّ الضعيف .

فكُنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منَّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كُنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا .

وأمرنا بالصَّلَاة والزَّكَاة والصَّيَام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدَّقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله .

فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردُّونا إلى عبادة الأوثان

من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث .

فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترتناك على من سواك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشيُّ: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفرٌ: نعم. فقال له النجاشيُّ: فاقرأه عليّ.

فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ فبكى والله النجاشيُّ حتى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت صحفهم بالدموع، حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال لهم النجاشيُّ: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا .

فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبي ربيعة: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن عمراً أصرَّ على رأيه.

فلما كان الغدُ قال للنجاشيُّ: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابنِ مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم النجاشيُّ يسألهم عن قولهم في المسيح ففزعوا، ولكنهم أجمعوا على الصدق، كائنًا ما كانت النتيجة، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفرٌ: نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشيُّ عودًا من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسى ابنُ مريم ما قلتَ هذا العود، ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم الآمنون بأرضي، من سبَّكم غريم - ثلاثا -، ما أحبُّ أن لي جبلاً من ذهبٍ وإنِّي آذيت رجلاً منكم .

ثم قال لحاشيته: رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني رشوة حين ردَّ عليَّ مُلكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع النَّاسَ فيَّ، فأطيعهم فيه.

ولما أخفق المشركون في مكيدتهم، اشتدَّت ضراوتهم وانقضوا على بقية المسلمين، ومدّوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء.

وخلال هذا الجو الملبّد بغيوم الظلم والعدوان ظهر برق أضواء الطريق، وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب، في أواخر السنة السادسة من النبوة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فغيّر المشركون تفكيرهم في تعاملهم مع النَّبِيِّ ﷺ والمؤمنين، واختاروا أسلوب المساوماتِ وتقديم الرغائب والمغريات.

فقد أرسلت قريشُ عتبة بن ربيعة إلى النَّبِيِّ ﷺ وعرض عليه المال، والسيادة، والمُلك أو المعالجة إن كان مريضاً!

فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَم﴾ ① تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴿فصلت: ١-٥﴾.

ثم مضى رسولُ الله ﷺ فيها، يقرؤها عليه ^(١).

فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، يسمعُ منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك» ^(٢).

(١) سيرة ابن إسحاق.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦١، ط سادسة - مطبعة السنة - القاهرة ١٤٠٩-١٩٨٩.

حصار بني هاشم في الشعب (المقاطعة العامة) :

دعا أبو طالب أقاربه لنصرة النبي ﷺ، فاجتمعت قريش وأجمعوا أمرهم على أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهد وموآثق:

أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل .

فأمرهم أبو طالب أن يدخلوا شعبه، فلبثوا فيه ثلاث سنين، واشتدّ عليهم البلاء، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعاماً يدخل مكة، ولا بيعاً إلا بادروا فاشتروه، ومنعوه أن يصل شيء منه إلى بني هاشم حتى كان يسمع أصوات نسائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، واشتدوا على من أسلم، ممن لم يدخل الشعب، فأوثقوهم وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزلاً شديداً.

ثم بعد ذلك مشى هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وكان يصل بني هاشم في الشعب خفيةً بالليل بالطعام - مشى إلى زهير بن أبي أمية المخزومي - وانضم إليهما أبو البخري بن هشام، وزمعة بن الأسود، والمطعم بن عدي، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة .

وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فأكلت ما فيها إلا ذكر الله سبحانه، فذكر ذلك لعمة، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قال كذا وكذا، فإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقاً رجعتن عن قطعيتنا، فوافقوا، ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر، فقالوا: هذا سحرٌ من صاحبكم، فارتكسوا وعادوا إلى شر ما هم عليه، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب^(١).

(١) سيرة ابن إسحاق.

عام الحزن:

ألم المرض بأبي طالب، فكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر، وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين توفيت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في الخمسين من عمره .

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه .

فخرج إلى الطائف رجاء أن يستجيبوا لدعوته، أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم ير من يؤويه ولم ير ناصرًا، بل آذوه أشدَّ الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه منه.

وفي شوال من هذه السنة (سنة ١٠ من النبوة) تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة، وكانت ممن أسلم قديمًا، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة.

المرحلة الثالثة: الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى خارج مكة:

في شوال سنة عشر من النبوة خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا، سارها ماشيًا على قدميه جيئةً وذهابًا، ومعه مولاة زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجبه واحدة منها.

وأقام النبي صلى الله عليه وسلم بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم.

فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صفيين وجعلوا يرمونه بالحجارة، ويسبونه بكلمات سفية، ورجموا عراقبيه، حتى اختضب نعلاه بالدماء^(١).

(١) سيرة ابن إسحاق.

وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجَاجٌ في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، على ثلاثة أميالٍ من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه.

وأتى الرسول ﷺ إلى حُبَلَةٍ من عنب، فجلس تحت ظلِّها إلى جدارٍ، ودعا قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقَلَّةَ حِيلَتِي، وهوانِي على النَّاسِ، يا أرحمَ الرَّاحِمِينَ، أنت ربُّ المُسْتَضَعْفِينَ، وأنت ربِّي، إلى من تَكَلَّمُنِي؟ إلى بعيد يَجْهَمُنِي؟ أم إلى عدوِّ مَلَكَته أُمْرِي؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سَخَطُكَ، لك العُتْبِيُّ حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له: عدَّاس، وقالوا له: خذ قِطْفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل.

فلما وضعه بين يدي الرسول ﷺ مدَّ يده إليه قائلاً: «باسم الله» ثم أكل، فقال عدَّاس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له الرسول ﷺ: «من أيِّ البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: أنا نصرانيٌّ من أهل نِيَّوَى. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى». قال له: وما يدريك ما يونس بن مَتَّى؟

قال الرسول ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبيٌّ».

فأكبَّ عداسٌ على رأس الرسول ﷺ ويديه ورجليه يقبلها. ورجع الرسول ﷺ إلى مكة محزونًا، فبعث الله إليه جبريل ومعه مَلَكُ الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشيين على أهل مكة، فقال النَّبِيُّ ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً.

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص ٨٩.

وفي ذي القعدة سنة عشر من البعثة عاد الرسول ﷺ إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، وكان ممن يُسمى من القبائل: بنو عامر بن صعصعة، ومُحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعَبَس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وکلب، والحارث بن كعب، وعُدرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد.

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج الرسول ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها وهي بنت ست سنين، وبنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين^(١).

الإسراء والمعراج:

أسري بالرسول ﷺ إلى بيت المقدس راکباً على البراق، صحبة جبريل عليه السلام، وبعد أن صلى بالأنبياء إماماً عرج به إلى السماء الدنيا، فرأى فيها آدم ورأى أرواح السعداء عن يمينه والأشقياء عن شماله.

ثم عرج به إلى السماء الثانية، فرأى فيها عيسى ويحيى، عليهما السلام، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيها يوسف عليه السلام، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس عليه السلام، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون عليه السلام، ثم عرج به إلى السماء السادسة فرأى فيها موسى عليه السلام. فلما جاوزه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل من أمتي.

ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى. ثم رفع إلى البيت المعمور فرأى هناك جبريل في صورته، له ستمائة جناح، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿٣٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿﴾ [النجم: ١٣-١٤]^(٢)،

(١) سيرة ابن إسحاق. (٢) انظر: صحيح مسلم، حديث رقم (١٧٤ و ١٧٥)

وكلمه ربه وفرض عليه الصلاة، فكانت قرّة عين الرسول ﷺ.

فما أصبح الصباح إلا ورسول الله ﷺ في مكة بين قومه، يخبرهم بأنه قد أُسري به إلى بيت المقدس، وعُرج به إلى السماء، فاشتد تكذيبهم له، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس فجلاه الله له حتى عاينه، وجعل يُخبرهم به، ولا يستطيعون أن يردّوا عليه شيئاً^(١)، وأخبرهم بما رأى عن غيرهم التي رأها في مسراه ومرجعه، وعن وقت قدومها، وعن البعير الذي يقدمها، فكان كما قال، فلم يزداهم ذلك إلا ثبوراً^(٢).

بيعة العقبة الأولى:

لقي الرسول ﷺ في الموسم عند العقبة: ستة نفرٍ من الأنصار، كلهم من الخزرج، منهم أسعد بن زرارة، وجابر بن عبد الله بن رثاب السلميّ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، ثم رجعوا إلى المدينة، فدعوا إلى الإسلام حتى انتشر الإسلام فيها، ولم تبق دأراً إلا دخلها^(٣).

فلما كان العام المقبل: جاء منهم اثنا عشر رجلاً - الستة الأولُ خلا جابراً - ومعهم: عبادة بن الصامت، وأبو الهيثم بن التيهان وغيرهم.

وكان الستة الأولون قد قالوا له لما أسلموا - إن بين قومنا من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسندعوهم إلى أمرك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزُّ منك^(٤).

(١) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام ص ٨٤

(٢) سيرة ابن هشام، وانظر: صحيح البخاري - الحديث رقم (٣٨٨٧)، وصحيح مسلم الحديث رقم (١٦٢ و١٦٤).

(٣) عماد الدين خليل دراسة في السيرة ص ١٦٣.

(٤) سيرة ابن إسحاق.

فلما انصرفوا بعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام.

بيعة العقبة الثانية:

في موسم الحج، في السنة الثالثة عشرة من النبوة، حضر لأداء مناسك الحج بضعٌ وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب، أو كانوا في الطريق -: حتى متى نترك رسول الله ﷺ، يطوف ويتردد في جبال مكة ويخاف؟.

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرّية، أدت إلى اتفاق الفريقين: على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق، في الشعب الذي عند العقبة، قرب الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع في سرّية تامّة في ظلام الليل.

يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه: خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي وعدنا فيها رسول الله ﷺ بلقيائه، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيّد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا -.

فكلّمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيّد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غدًا. ثم دعونا إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيبًا.

قال كعب: فمننا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلّل تسلّل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نساءنا؛ نُسَيبة بنت كعب - أم عمارة - من بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بني سلمة .

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمّه: العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وبايعوه ﷺ:

❁ على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

❁ وعلى النفقة في العسر واليسر.

❁ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

❁ وعلى أن يقوموا في الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم.

❁ وعلى أن ينصروا النبي ﷺ إذا قدم إليهم، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، ولهم الجنة^(١).

وبعد أن تمت البيعة أمرهم رسول الله ﷺ أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً (زعيمًا) يكونون كفلاء عن قومهم في تنفيذ بنود البيعة، فتم اختيار تسعة رجال من الخزرج وثلاثة من الأوس.



(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ص ١٦٤.

المبحث الثالث

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة

مطلع الهجرة:

وأذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة فبادروا إليها، وأول من خرج: أبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة، ولكنها حبست عنه سنة، وحيل بينها وبين ولدها، ثم خرجت بعد هي وولدها إلى المدينة .

ثم خرجوا أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً، ولم يبق منهم بمكة أحدٌ إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي، أقاما بأمر رسول الله ﷺ ومن احتبسه المشركون كرهاً، وأعدَّ رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعدَّ أبو بكر جهازه^(١).

هجرة النبي ﷺ:

لما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا بأهلهم إلى المدينة عرفوا أن الدار دار منعة، وأن القوم أهل حلقة وبأسٍ، فخافوا خروج رسول الله ﷺ فيشتدُّ أمره عليهم، فاجتمعوا في دار الندوة، وحضرهم إبليس في صورة شيخٍ من أهل نجد، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ فأشار كلُّ منهم برأي، والشيخ يرذُّه ولا يرضاه، إلى أن قال أبو جهل: قد فرق لي فيه برأيي، ما أراكم وقعتم عليه، قالوا: ما هو؟

قال: أرى أن نأخذ من كلِّ قبيلةٍ من قريش غلاماً جلدًا، ثم نعطيه سيفًا صارمًا،

(١) سيرة ابن إسحاق.

ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ولا يمكنها معاداة القبائل كلها ونسوق ديته.

فقال الشيخ: لله در هذا الفتى! هذا والله الرأي، فتفرقوا على ذلك.

فجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة. وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصف النهار - في ساعة لم يكن يأتيه فيها - متقنعا فقال: «أخرج من عندك»: فقال: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: «نعم»، فقال أبو بكر: فخذ - بأبي أنت وأمي - إحدى راحلتي هاتين، فقال: «بالثمن»، وأمر عليا أن يبيت تلك الليلة على فراشه^(١).

واجتمع أولئك نفر يتطلعون من صير الباب، ويرصدونه يريدون بياته، ويأتمرون: أيهم يكون أشقاها؟ فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من البطحاء، فذرها على رؤوسهم، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، وأنزل الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِيَنَّكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة في بيت أبي بكر ليلا، فجاء رجل فرأى القوم ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً ﷺ، قال: خبئتم وخسرتم، قد والله مرَّ بكم، ودَّرَّ التراب على رؤوسكم، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم. فلما أصبحوا، قام علي ﷺ عن الفراش، فسأله عن محمد ﷺ فقال: لا علم لي به.

ومضى رسول الله ﷺ وأبو بكر حتى دخلا غار ثور، فنسجت العنكبوت على بابه.

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٦٤.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي، وكان هادياً ماهراً - وكان على دين قومه - وأمناه على ذلك، وسلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث، وجدت قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافة، حتى انتهوا إلى باب الغار، فوقفوا عليه، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١) لا تحزن إن الله معنا». وكانا يسمعان كلامهم، إلا أن الله عمى عليهم أمرهما، وعامر بن فهيرة يرمى غنماً لأبي بكر، ويتسمع ما يقال عنهما بمكة، ثم يأتيهما بالخبر ليلاً، فإذا كان السحر سرح مع الناس.

قالت عائشة: فجهزناهما أحسن جهاز، وصنعنا لهما سفرةً في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها، فأوكت به فم الجراب، وقطعت الأخرى عصاماً للقربة؛ فبذلك لُقت ذات النطاقين.

وبعد ثلاثة أيام حين عرف النبي ﷺ أنه قد سكن الناس عن طلبه، تحرّك نحو يثرب يغدُّ السير، ولا يعبأ بمشقة، مستعيناً بالله واثقاً من نصره. وقد تبعهم سراقة بن مالك «فلما دنا، دعا عليه رسول الله ﷺ فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه، ووثب عنه، وقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادعُ الله أن يخلعني ممّا أنا فيه، ولك عليّ أن أعميه على من ورائي»^(٢).

قال سراقة: «فوقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عليهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ... فسألت رسول الله ﷺ أن يكتب لي كتاب موادةٍ آمن به، فأمر عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، فكتب لي في رقعة من أدّم»^(٣).

(١) انظر: صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٨١).

(٢) صحيح مسلم ٢٣١١/٤، حديث رقم (٢٠٠٩) وانظر صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦١٥) وأحمد رقم (٣).

(٣) المستدرک - كتاب الهجرة ٧/٣ وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وصل الرسول ﷺ (قباء)، وأقام بها عدة أيام، وكان أول عمل قام به هو كسرُ الأصنام^(١)، ثم أسس مسجدَهم، ثم خرج يومَ الجمعة، فأدركته صلاة الظهر في بطن وادي (رانوناء)، فكانت أول صلاة جمعة في الإسلام.

وخرج مسلمو يثرب بزيتهم وسلاحهم يستقبلون رسولَ الله ﷺ، ويحيطون بركبِهِ، وكلُّ يريد أن يتطلَّع إليه، ويملاً عينيه من هذا الرجل الذي آمن به وأحبَّه^(٢). وما كان يمرُّ رسول الله ﷺ بمنزل أحدٍ من المسلمين إلَّا ويأخذ بزمام ناقته، ويعرض عليه المقام عنده، وهو يقابلهم بطلاقة الوجه والبشر، وتجنباً من إحراج أحدٍ منهم، كان ﷺ يقول: «خلُّوا الناقةَ إنَّها مأمورة».

وأخيراً بركت الناقة عند مربدٍ لغلامين يتيمين من بني النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري، فأسرعت زوجته فأدخلت رحل رسول الله ﷺ في دارها، فنزل عندهم رسول الله ﷺ، إلى أن تمَّ بناءُ المسجد النبويّ وبيته ﷺ^(٣). وقد غيرَ النبيّ ﷺ اسم يثرب إلى (طيبة)^(٤). وأعتبرت هجرته إليها بداية للتأريخ الإسلامي^(٥).

بناء المسجد النبويّ:

لقد اجتاز النبيّ ﷺ بالمسلمين دائرة بناء الفرد، وبوصوله إلى يثرب شرع في التخطيط لتكوين الدولة التي تحكمها الشريعة الإسلامية السمحة، ومن ثمَّ بناء الحضارة الإسلامية، لتشمل كلَّ الإنسانية في مرحلة ما بعد الدولة.

(١) راجع الكامل في التأريخ: ٢ / ١٠٦.

(٢) البدء والتأريخ: ٤ / ١٧٦ - ١٧٧.

(٣) وصل النبيّ ﷺ مدينة يثرب في ١٢ ربيع الأول.

(٤) ابن خلدون: المقدمة / ٢٨٣، وتاج العروس: ٢ / ٨٥.

(٥) تاريخ الطبري: ٢ / ١١٠ - ١١٤.

ومن أولى العقبات التي واجهت تأسيس الدولة الإسلامية: وجود النظام القبليّ الذي كان يحكم العلاقات في مجتمع الجزيرة، كما أن ضعف المسلمين كان لا بد له من معالجة واقعية .

فكان المنطلق بناء المسجد؛ ليكون مكاناً لمهام متعددة، ومركزاً للسلطة المركزية التي تدير شؤون الدولة. وما أن اشترى رسول الله ﷺ الأرض المعدة لإقامة المسجد حتى شرع المسلمون في بناء المسجد بهمة وحماس .

وكان رسول ﷺ هو القدوة والأسوة، ومنبع الطاقة التي تُحرّك المسلمين في العمل، فشارك بنفسه في حمل الحجارة واللبن، وبينما هو ﷺ ذات مرة ينقل حجراً على بطنه، استقبله أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله أعطني أحمل عنك قال (صلى الله عليه وآله): «لا، اذهب فاحمل غيره».

وتمّ أيضاً بناء دارٍ للرسول ﷺ، ولأهل بيته، ولم يكن البناء ذا كلفة كبيرة، فقد كان زهيداً كحياتهم، ولم ينس النبي ﷺ الفقراء الذين لم يجدوا لهم مسكناً يأوون إليه، فألحق لهم مكاناً بجانب المسجد^(١).

وأصبح المسجد مرتكزاً في حياة المسلمين العبادية والحياتية، فعلاً في بناء الفرد والمجتمع.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

ثمّ خطا النبي ﷺ خطوةً أخرى، لإقامة الدولة الجديدة، والقضاء على بعض قيم النظام القبلي، من دون أن يمَسَّ القبيلة بشيء، مستثمرًا حالة التعاطف وحرارة الإيمان التي بدت من المسلمين .

فجعل أساس العلاقة بين الأفراد رابطة العقيدة والدين، متجاوزاً علاقة الدم والعصية، فأمر ﷺ المهاجرين والأنصار بالتآخي في الله، وأخذ كل رجل

(١) السيرة النبوية: ١ / ٤٩٦.

من الأنصار أخاً له من المهاجرين يشاركه الحياة .

وبذا طوت المدينة صفحةً داميةً من تأريخها، إذ كانت لا تخلو أيامها من صراعٍ مريعٍ بين الأوس والخزرج، يؤججه اليهود بخبثهم ودسائسهم، وانفتح على العالم عهدٌ جديدٌ من الحياة الإنسانية الراقية، حيث زرع الرسول ﷺ بذلك عنصرَ بقاءِ الأمة، وفاعليتها الإيمانية^(١).



أبعاد التآخي بين المسلمين

البعد الاقتصادي:

ومن أروع مظاهر رحمته ﷺ ما فعله مع المهاجرين من مكة إلى المدينة .. فقد واجهوا أزمة كبيرة حينما تركوا ديارهم وتجارتهم وأموالهم وذكرياتهم .. تركوا كل ذلك، وفرّوا إلى الله ورسوله، فكان لا بد من الوقوف إلى جوارهم في أزمتهم هذه .

فأول ما فعل أنه رفع من شأنهم وقدرهم، وأخبرهم أن هجرتهم هذه هجرة كريمة، لا يُنظر إليها بانتقاص، فهم ليسوا مجرد لاجئين إلى بلدٍ آخر، بل هم مجاهدون عظماء، وذكر ذلك في أحاديث شتى، لعل من أعظمها: أنه بشرهم أنهم أول من يجوز الصراط يوم القيامة، وذلك عندما سُئِلَ عن أول الناس إجازةً فقال: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ»^(١).

ثم قام بعمل فريد، ليس له مثيل في التاريخ، وهو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فتحمل الأنصار عبء المهاجرين، وكفلوهم في ديارهم، ووصل الأمر إلى التوارث بين الطائفتين، إلى أن نُسِخَ حُكْمُ التوارث بعد ذلك^(٢).

ومع أن وضع الأنصار كان أفضل، وأزمة المهاجرين كانت أشد، إلا أن الرسول ﷺ كان رحيماً بالأنصار كذلك، فلم يشأ أن يُثقل عليهم حتى مع رغبتهم في التضحية.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٣١٥).

(٢) انظر: صحيح البخاري، حديث رقم (٤٥٨٠).

قَالَتْ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ، قَالَ: «لا»، فَقَالُوا: تَكْفُونَا الْمَوُونَةَ، وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا^(١). قال الحافظ بن حجر: «المؤونة: أي العمل في البساتين من سقيها، والقيام عليها».

قال المهلب: «إنما قال لهم النبي ﷺ: «لا»، لأنه علم أن الفتوح ستفتح عليهم، فكره أن يخرج شيء من عقار الأنصار عنهم»^(٢). وعندما كانت تحدث بعض الغنائم، كان النبي ﷺ يوزع خمس هذه الغنائم على الفقراء.

فهذه فاطمة بنت رسول الله ﷺ سمعت أن النبي ﷺ وصل إليه سبي من الغنائم، فجاءت مع امرأة تطلبان خادماً من هذا السبي، فقال رسول الله ﷺ: «سبكن يتامى بدر»^(٣).

وفي رواية أخرى عن علي رضي الله عنه جاء فيها قوله: «... والله لا أعطيكم، وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، لكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»^(٤).

كما قام النبي ﷺ بتوزيع الأراضي التي يحصل عليها بدون قتال على فقراء المسلمين، فعندما غدر يهود بني النضير بالنبي ﷺ، وتحالفوا مع قريش، ونقضوا المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي ﷺ، عندما قدم المدينة (غدا النبي ﷺ على بني النضير بالكتائب... حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير...

فكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياه وخصه بها، فقال: **﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَا كِنَّ اللَّهُ يُسَلِّطُ**

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٣٢٥).

(٢) فتح الباري ٩-٨/٥

(٣) أبو داود، حديث رقم (٢٩٨٧) وأحمد، حديث رقم (٥٩٦)، قال الألباني: «صحيح»، الصحيحة ١٨٨٢.

(٤) مسند أحمد، الحديث رقم (٨٣٨) قال مخرجه: «إسناده حسن» وانظر تخريجه فيه مفصلاً.

رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿الحشر: ٦﴾، يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، وقسمها بينهم، وقسم لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما^(١).

وهنا كما يقول الحافظ ابن حجر: «آثر بها المهاجرين، وأمرهم أن يُعيدوا إلى الأنصار ما كانوا واسوهم به لما قدموا المدينة، ولا شيء لهم، فاستغنى الفريقان جميعاً بذلك»^(٢).

أما الأراضي التي كانت تفتح عنوة - كأرض خيبر - فإن أرضهم تصبح (لله) ورسوله وللمسلمين).

ومن ثم، فإنه في رواية أبي داوود (عن سهل بن أبي حثمة، قال: قسم رسول الله ﷺ خيبر نصفين: نصفاً لنوائبه وحاجته، ونصفاً بين المسلمين...)^(٣).

لكن كما في رواية بشير بن يسار: (... فلما صارت الأموال بيد النبي ﷺ والمسلمين، لم يكن لهم عمالٌ يكفونهم عملها، فدعا رسول الله ﷺ اليهود فعاملهم^(٤)، ... ولهم نصف الثمر. فقال لهم رسول الله ﷺ: «نقركم على ذلك ما شئنا...» فقرّوا بها حتى أجلاهم عمرٌ إلى تيماء وأريحاء^(٥).

ففي بداية قدوم المهاجرين كانوا بحاجة للعمل، ولكنه في آخر الأمر لم يكونوا بحاجة للعمل؛ لاستغنائهم ولمشاركتهم في الفتوح.

(١) أبو داوود، حديث رقم (٣٠٠٤)، قال الألباني: «حسن الإسناد».

(٢) فتح الباري ٢٢٨/٦ في شرح الحديث (٣١٢٨).

(٣) أبو داوود، حديث رقم (٣٠٠٣) بدون ذكر (المسلمين).

(٤) أبو داوود، حديث رقم (٣٠١٤)، قال الألباني: «حسن صحيح».

(٥) مسلم، حديث رقم (٥٥١).

البعد الاجتماعي ويتجلى في:

١ القضاء على الأمراض الاجتماعية المتأصلة في المجتمع، ومخلفات التنافر القبلي وإشاعة روح الحب والود والتآلف، لسد الثغرات؛ لئلا يستغلها المتآمرون على الإسلام، وتوفير الجهود والطاقات البشرية لخدمة الإسلام في مراحلها اللاحقة.

٢ إلغاء العادات القبلية الجاهلية، واستبدالها بالقيم الإسلامية.

٣ تهيئة المسلمين نفسياً وتربيتهم على التضحية والإيثار، للانفتاح على العالم، لنشر الرسالة الإسلامية، الذي يتطلب مرونة عالية، وقيماً رفيعة، يحتاج إليها الداعية المسلم.

البعد السياسي ومن مظاهره:

١ تكوين نسيج مترابط من المسلمين، يتحرك مستجيباً لأوامر الرسول والرسالة، كفرّد واحد، في ظرف تعددت فيه الجهات المعادية، ولم تتوقف عن دسائسها.

٢ تناقل الخبرات التنظيمية، ووسائل المقاومة والصمود، والتجربة الإيمانية، وطرق التحرك وسط المهاجرين والأنصار، إذ لم يعيش الأنصار تجربة المهاجرين ومحتنهم.

٣ بناء الفرد كخطوة من خطوات بناء الدولة وهيكلها الإداري.

٤ إشعار المسلمين بالقوة في الدفاع عن أنفسهم، وفق قيم الإسلام، بعيداً عن الروح القبلية والعنصرية.

معاهدة المدينة :

ولكي ينتقل النبي ﷺ بالمسلمين من حالة الصراع والمقاومة إلى مرحلة البناء وتطبيق الشريعة الإسلامية؛ كان لا بد من توفير أجواء الأمن والاستقرار - ولو نسبياً - فالصراعُ قد يعيقُ انتشارها في الوسطِ الجماهيريِّ.

وفي يثرب كانت قوى تنافس المسلمين في الوجود، فاليهودُ كانوا يشكّلون عبئاً كبيراً بقوّتهم الاقتصادية، وخبثهم السياسيّ المعروف، إضافةً إلى عدّتهم وعددهم الذي لا يُستهان به. والمشركون أيضاً قوّةٌ أخرى وإن ضعفَ دورهم بقدم النبي ﷺ والمهاجرين، ولكنه لم ينته تماماً - فجاملهم ﷺ وقابلهم بالحسنى.

وكان لا بد للنبي ﷺ أيضاً أن يحتوي وجود المنافقين، وفي خارج المدينة كانت قريش، وسائر القبائل المشركة تمثل تهديداً حقيقياً للكيان الإسلاميّ الفتيّ، وكان على الرسول ﷺ أن يستعدّ لمواجهةهم ودفع خطرهم.

وهنا تجلّت عظمة الرسول ﷺ ومقدرته السياسية في التعامل مع القوى المتعددة، مُظهراً النيات الحسنة والطيبة تجاه الآخرين، داعياً جميعهم إلى السلام والأمان.

وقد وُقِّعت بين المسلمين وغيرهم من يهودٍ ووثنيين معاهدة، انتظمتها صحيفةٌ، عُرِفَتْ بصحيفة المدينة، واعتبرت الجميع مواطنين في الدولة الإسلامية الفتية التي أسسها النبي ﷺ بالمدينة، يتمتع الجميع فيها بالحقوق الإنسانية على السواء.

ويمكن القول بأنّ الصحيفة كانت بمثابة أول مشروع دستوريّ يؤسّس لدولة إسلامية متحضرة في المدينة، تقدّم قيمها ومثلها إلى المجتمع العربيّ، ثمّ إلى المجتمع الإنساني.

وأهم ما تضمنته الصحيفة ما يلي :

إبراز وجود المجتمع المسلم، وإشعار الفرد المسلم بقوة انتمائه إليه: فقد جاء فيها: «إنهم أمة واحدة من دون الناس».



٢ الإبقاء على الوجود القبليّ: فقد جاء فيها: «أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ» مع تحجيم دوره وصلاحياته - لتخفيف العبء عن كاهل الدولة، بإشراك القبائل في بعض النشاطات الاجتماعية، فقد جاء في الصحيفة: «وإنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرَكُونَ مُفْرَحًا - أَي مَثَقَلًا بِدَيْنٍ وَالكَثِيرِ مِنَ الْعِيَالِ - بَيْنَهُمْ، أَنْ يَعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلِ»، والاستعانة به لحلّ جملة من المشكلات.

٣ التأكيد على حرية العقيدة: بالسماح لليهود بالبقاء على ديانتهم، وممارسة طقوسهم، واعتبارهم مواطنين في الدولة الإسلامية الجديدة^(١).

٤ ترسيخ دعائم الأمن في المدينة: بجعلها حرماً آمناً لا يجوز القتال فيه^(٢).

٥ إقرار سيادة الدولة والنظام الإسلامي، وإرجاع قرار الفصل في الخصومات إلى القيادة الإسلامية المتمثلة في شخص الرسول ﷺ^(٣).

٦ توسيع دائرة المجتمع السياسي: باعتبار أن المسلمين واليهود يتعايشون في نظام سياسي واحد، ويدافعون عنه^(٤).

(١) فقد جاء فيها: «لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم».

(٢) فقد جاء فيها: «وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة».

(٣) وجاء فيها: «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن أمره إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ».

(٤) فقد جاء فيها: «إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين» وكان لليهود نصيب من المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين.

الحثُّ على إشاعة روح التعاون بين أفراد المجتمع المسلم؛
كي يتجاوز الأزمات التي تعترضه^(١).

تأمر المنافقين واليهود على المسلمين:

اهتمَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببناء المجتمع المسلم، ومن هنا فرض الهجرة على كلِّ مسلمٍ
إلاَّ بعذر، وذلك لاستقطاب كلِّ الطاقات والكفاءات، وسحبها إلى المدينة.
وقد تمتعت المدينة في هذا العهد الجديد بحياة الأمن والاستقرار، فأصبح الأمر
مزعجاً لسائر القوى التي رفضت دعوة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولاً، ورأت فيه طرفاً يهدد
معتقداتها .

واليوم أصبح كياناً يرتقي بالإنسان نحو الفضائل، وقوة تنمو باطرادٍ لا يصدُّه
أحدٌ عن نشر رسالته، فأسلمت أعدادٌ كبيرةٌ منهم ومضى قسمٌ آخرٌ يخطط للابتعاد
عنه أو التحالف معه.

ومن جانب آخر: كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرصد حركة النفاق، ومساعي اليهود الحاقدة
لتقويض الكيان الإسلامي الفتِيّ بتمزيق صفوفه بالفرقة بين المسلمين.

ولم تمض فترة طويلة حتى دخل الإسلام في كل بيت من بيوت المدينة^(٢)،
واتسق النظام الاجتماعي العام تحت حكم الإسلام وقيادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي هذه
الفترة شرعت أحكام الزكاة والصيام وأحكام إقامة الحدود، كما شرع الأذان لإقامة
الصلاة وقبل ذلك كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أعدَّ منادياً ينادي للصلاة إذا جاء وقتها، ونزل
الوحي الإلهي يعلم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صيغة الأذان فدعا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه بلائاً وعلمه
كيفية الأذان.

(١) فقد جاء فيها: «وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يشرب».

(٢) السيرة النبوية: ١ / ٥٠٤.

التوجُّه نحو البيت الحرام في الصلاة:

وكان النبي ﷺ طوال فترة وجوده في مكة يتجّه في صلاته نحو بيت المقدس، ولم يغيّر من اتجاه صلاته بعد هجرته المباركة مدة سبعة عشر شهراً، ثم أمره الله أن يتجّه في صلاته نحو الكعبة.

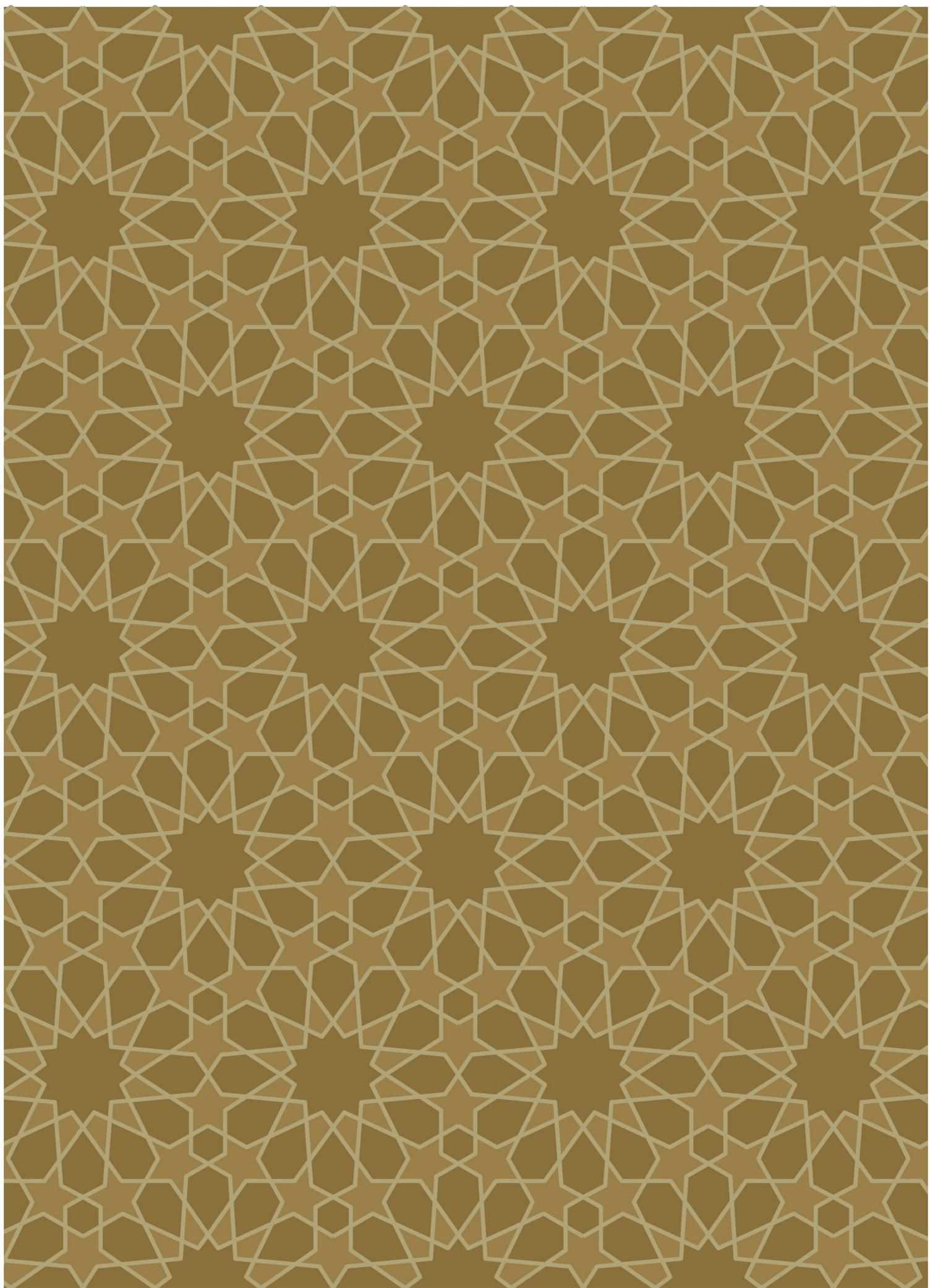
وقد أمعن اليهود في عدائهم للدين الإسلامي، واستهزئهم بالرسول ﷺ والرسالة، حتّى إنهم كانوا يفخرون على المسلمين بتبعيتهم لقبلة اليهود، فكان هذا يُحزن النبي ﷺ.

فعن البراء، قال: (لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، فَوُجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، وَصَلَّى مَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْعَصْرِ، ثُمَّ خَرَجَ فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ قَدْ وُجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَانْحَرَفُوا وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ^(١).

وقد كانت حادثة تحويل القبلة بمثابة اختبار للمسلمين، في مدى طاعتهم وانقيادهم لأوامر الرسول ﷺ، وتحديًا لعناد اليهود واستهزائهم، وردًا لكيدهم، كما كانت منطلقًا جديدًا من منطلقات بناء الشخصية المسلمة^(٢).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٧٢٥٢).

(٢) السيرة النبوية: ١/٥٩٨.



هدى محمد

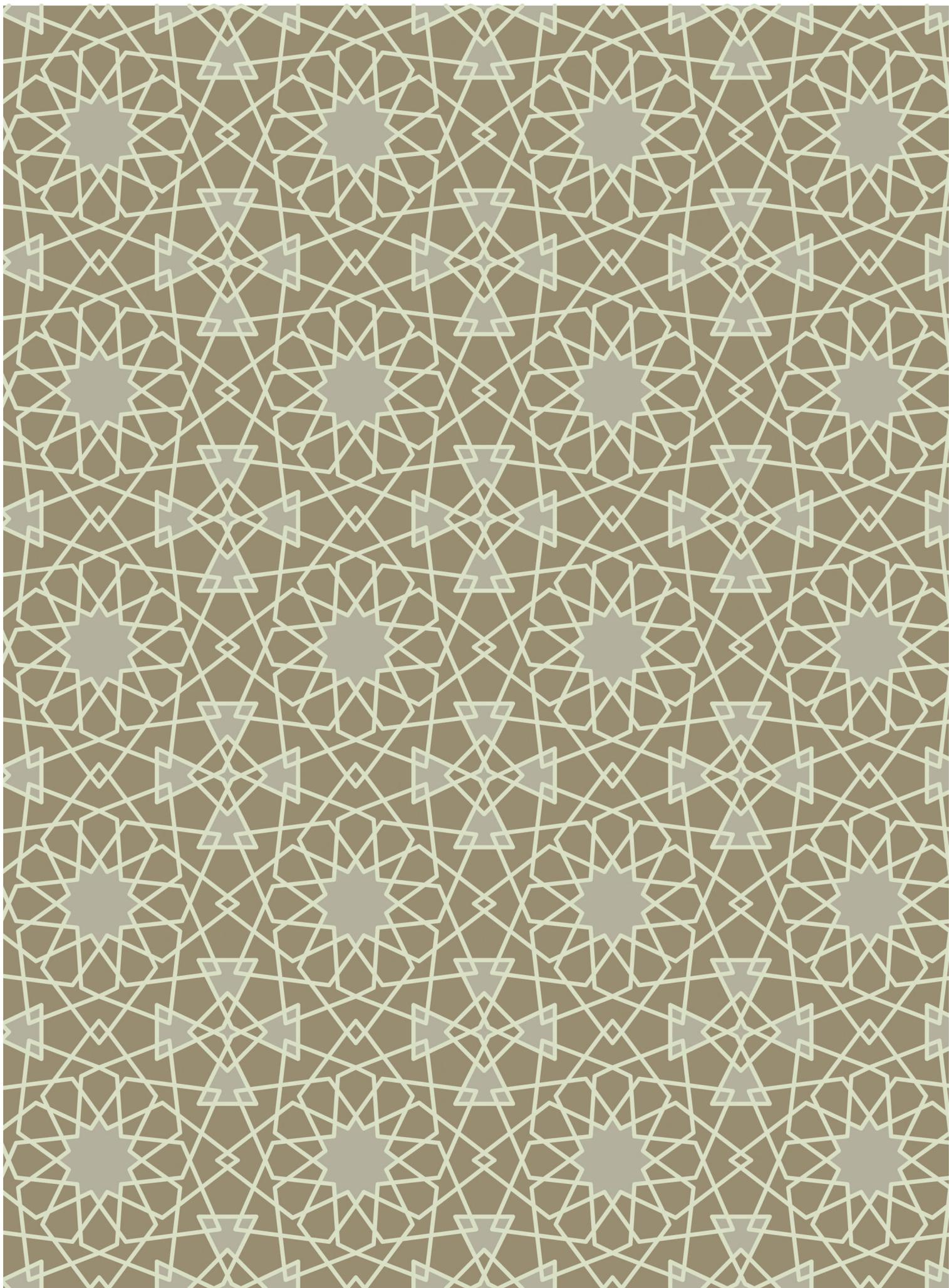
رسول الله صلى الله عليه وسلم



الفصل الثاني

نظرة على شخصية
صلى الله عليه وسلم





المبحث
الأول

صفاته ﷺ

كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا وخلُقًا، وألينهم كَفًّا، وأطيبهم ريحًا، وأكملهم عقلاً، وأحسنهم عشرةً، وأعلمهم بالله وأشدَّهم له خشيةً^(١)، وأشجع الناس، وأكرم الناس، وأحسنهم قضاءً، وأسمحهم معاملةً، وأكثرهم اجتهادًا في طاعة ربه، وأصبرهم وأقواهم تحمُّلاً، وأخشعهم لله قلبًا، وأرحمهم بعباد الله تعالى .

وأشدَّهم حياءً، ولا ينتقم لنفسه، ولا يغضبُ لها؛ ولكنه إذا انتهكت حرمت الله، فإنه ينتقم لله تعالى، وإذا غضب لله لم يقم لغضبه أحدٌ، والقويُّ والضعيفُ، والقريبُ والبعيدُ، والشريفُ وغيره عنده في الحق سواءٌ .

وما عاب طعامًا قطُّ إن اشتهاه أكله، وإن لم يشتهه تركه^(٢)، ويأكل من الطعام المباح ما تيسر، ولا يتكلفُ في ذلك، ويقبل الهديةً ويكافئُ عليها، ولا يقبلُ الصدقةَ، ويخصفُ نعليه ويرقعُ ثوبه^(٣)، ويخدمُ في مهنة أهله^(٤)، ويحلبُ شاته، ويخدمُ نفسه، وكان أشدَّ النَّاسِ تواضعًا.

(١) ولهذا قال عبد الله بن الشَّخِير: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء، أبو داود برقم ٩٠٤، وصححه الألباني في مختصر الشمائل برقم ٢٧٦، ومعنى: أزيز المرجل: أي غليان القدر.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٥٦٣)، وصحيح مسلم، حديث رقم (٢٠٦٤).

(٣) مسند أحمد ١٠٦/٦، وفي كتاب الزهد رقم (٧) وقال مخرجه: "حديث صحيح".

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٧٦) وأحمد ٤٩/٦ وفي الزهد رقم (٨).

ويجب الداعي: من غني أو فقير، أو دنيء أو شريف، فعن أنس: (أن يهودياً دعا رسول الله ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة فأجابه) (١)، وكان يحب المساكين، ويشهد جنازتهم، ويعود مرضاهم، ولا يحقر فقيراً لفقره، ولا يهاب ملكاً لمملكه، وكان يركب الفرس، والبعير، والحمار، والبغلة، ويردف خلفه، ولا يدع أحداً يمشي خلفه (٢).

وخاتمه فضة وفصه منه، يلبسه في خنصره الأيمن، وربما لبسه في الأيسر، وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع، وقد عرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض، ولكنه اختار الآخرة.

وكان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن (٣)، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق (٤)، ولا بالآدم (٥)، ولا بالجعد القَطَط (٦)، ولا بالسَّبَط (٧) (٨) (٩)، وكان ضخم القدمين حسن الوجه (٩)، أبيض مليح الوجه (١٠)، وكان رجلاً مربوعاً، بعيداً ما بين المنكبين،

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٦٩) وأحمد ٢١١/٣ وفي الزهد رقم (١٥)، قال ابن الأثير: "إهالة سنخة: كل شيء من الأدهان مما يؤتمد به، وقيل: هو ما أذيب من الألية والشحم... والسنخة: المتغيرة الريح" النهاية في غريب الحديث ٨٤/١.

(٢) أحمد ٣٠٢/٣، وابن ماجه برقم (٢٤٦)، والحاكم ٢٨١/٤، وابن حبان (٦٣١٢)، وانظر: الأحاديث الصحيحة برقم (١٥٥٧).

(٣) البائن: أي ليس بالطويل الطول الظاهر.

(٤) الأمهق: أي ليس بالأبيض شديد البياض، وإنما أبيض مشرب بالحمرة.

(٥) الآدم: الأسمر.

(٦) القَطَط: الشعر فيه التواء وانقباض.

(٧) السَّبَط: الشعر المسترسل.

(٨) مختصر شمائل الترمذي برقم (١)، وصححه الألباني. وهو في البخاري برقم (٣٥٤٩).

(٩) البخاري، حديث رقم (٥٩٠٧)، وحديث رقم (٥٩٠٨).

(١٠) مسلم، برقم (٢٣٤٠).

عظيمَ شعرِ الجُمَّةِ إلى شحمَتَي أذنيه، وفي وقتٍ إلى منكبيه، وفي وقوتٍ إلى نصفِ أذنيه .

كثَّ اللِّحية، شتَنَ الكَفَّينِ والقدمين^(١)، ضخَمَ الرأس، ضخَمَ الكراديس^(٢)، طويلَ المَسْرَبَةِ^(٣)، إذ مشى تكفأً تكفؤاً كأنما ينحطُّ من صبيبٍ^(٤)، لم يُرْ قبله ولا بعده مثله .

وكان عظيمَ الفمِّ، طويلَ شِقِّ العين، قليل لحمِ العقبِ، منظره أحسنُ من منظر القمرِ، وجُهوهُ مثل القمر، وخاتمُ النبوةِ بين كتفيه^(٥) غَدَّةٌ حمراءٌ مثل بيضة الحمامة، وقيل: الخاتمُ شعراتٌ مجتمعاتٌ بين كتفيه .

وكان يفرق رأسه، ويدهنُ، ويُعفي لحيته ولا يأخذُ منها شيئاً، ويُسرِّحها، ويأمرُ بتوفيرها وإيفائها، وإعفائها، وكان يأمرُ بالاكْتِحالِ بالإثمِدِ عند النوم، ويقول: «عليكم بالإثمِدِ عند النَّومِ؛ فإنه يجلو البصرَ ويُثبت الشعرَ»^(٦) .

وقال: «إن خيرَ أكحالكم الإثمِد، يجلو البصر، ويُثبت الشعر»^(٧) وكان قليلَ الشَّيبِ في رأسه وفي لحيته، إذا أدَّهن لم يُرْ شيبه، وإذا لم يدَّهن رُوي منه شيءٌ، كان شيبه نحواً من عشرين شيبهً بيضاءً^(٨) .

(١) عظيم الأصابع غليظها من الكفين والقدمين، انظر: رحمة للعالمين ٢/٤ .

(٢) الكراديس: رؤوس العظام .

(٣) المَسْرَبَةُ: الشعر الدقيق الذي يبدأ من الصدر وينتهي بالسرة .

(٤) الصبيب: انخفاض من الأرض .

(٥) انظر الترمذي، حديث رقم (٣٦٣٧) .

(٦) الترمذي في الشمائل، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، برقم ٤٣، ص ٤٥ .

(٧) الترمذي في الشمائل، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، برقم ٤٤، ص ٤٥ .

(٨) انظر صحيح مسلم (٢٣٤١-٢٣٤٤) .

وكان يقول: «شَيْبَتِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا» .

وفي لفظ: «شَيْبَتِي: هُوْدٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمسُ كُوْرَتْ»^(١) .

وشَيْبُهُ أَحْمَرٌ مَخْضُوبًا، وكان يُحِبُّ لبسَ القميصِ، والحَبْرَةَ^(٢)، وكان يلبسُ العمامةَ، وإزارَهُ إلى نصفِ ساقِهِ^(٣)، وكان يُحِبُّ الطَّيْبَ، ويقول: «طَيْبُ الرَّجَالِ ما ظَهَرَ رِيحُهُ وَخُفِي لَوْنُهُ، وَطَيْبُ النِّسَاءِ ما ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخُفِي رِيحُهُ»^(٤) .

وكان ﷺ يتجَمَّلُ للعيد والوفود، ويُحِبُّ النظافةَ، وكان يكرهُ أن يقومَ له أحدٌ؛ فلا يقوم له الصحابةُ؛ لعلمهم بكراهته لذلك^(٥)، وكان يُحِبُّ السَّوَاكَ، ويبدأ به إذا دخل بيته، ويشوصُ فاه بالسواك إذا قام من الليل، وكان ينام أوّل الليل، ثم يقوم يصلي، وكان يطيل صلاة الليل حتى تنتفخ قدماه، ثم يُوترُ آخر الليل قبل الفجر .

وكان يُحِبُّ أن يسمع القرآن من غيره، وكان يعودُ المرضى، ويشهدُ الجنائزَ ويصلي عليهم، وكان كثيرَ الحياء، وكان إذا كَرِهَ شيئاً عُرِفَ في وجهه، وكان يُحِبُّ السترَ، وكان يتوكَّلُ على الله حقَّ توكُّلِهِ؛ لأنَّه سيّد المتوكِّلين .

قال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فما بعثني في حاجةٍ لم أتمَّها إلا قال: «لَوْ قُضِيَ لَكَانَ» أو «لَوْ قُدِّرَ لَكَانَ»^(٦))، ومع هذا فقد كان يأخذ بالأَسباب .

وكان لا يغدرُ، وينهى عن الغدر، وقد حفظه الله تعالى من أمور الجاهلية

(١) مختصر الشمائل للترمذي، اختصره وصححه الألباني، برقم ٣٤، ٣٥ .

(٢) ثياب من نوع بُرُود اليمن، والبُرْد: ثوب مخطط، ومجبرة مزينة .

(٣) مختصر شمائل الترمذي، برقم ٩٧، وصححه الألباني .

(٤) مختصر شمائل الترمذي برقم ١٨٨، وصححه الألباني .

(٥) أحمد، ١٣٤/٣ .

(٦) أحمد، ٢٣١/٣، بإسناد صحيح على شرط مسلم وهو صحيح .

قبل الإسلام^(١)، ورعى الغنم في صغره وما من نبي إلا رعاها^(٢)، وكان الحجر يسلم عليه قبل البعثة^(٣).

ومن أسمائه ﷺ كما جاء في الحديث: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي^(٤)، وأنا العاقب»^(٥).

والعاقب الذي ليس بعده نبي، وقال ﷺ: «أنا محمد، وأحمد، والمُتَّقِي^(٦)، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»^(٧)، وكُنِيَّتُهُ أبو القاسم^(٨)، بعثه الله لِيَتَمَّ مكارم الأخلاق^(٩).

وكان كثير الذكر، دائم الفكر، ويقلُّ اللغو، ويطيلُ الصلاة، ويقصرُ الخطبة، ويحبُّ الطيب ولا يردُّه، ويكرهُ الروائح الكريهة، وكان أكثرُ الناس تبسُّماً، وضحكاً في أوقاتٍ حتى بدت نواجذه^(١٠).

(١) البخاري، برقم (٣٨٢٩)، وأحمد ٢٢٢/٤، حديث رقم (١٧٩٤٧).

(٢) البخاري، حديث رقم (٢٢٦٢)، ورقم (٣٤٠٦).

(٣) مسلم، برقم (٢٢٧٧).

(٤) أي يحشر الناس على أثره، النهاية.

(٥) صحيح البخاري، برقم (٣٥٣٢)، ومسلم، برقم (٢٣٥٤).

(٦) المقفي: الذي قفى آثار من سبقه من الأنبياء ثم قفينا على آثارهم برؤسنا... انظر: زاد المعاد، لابن القيم، ٩٤/١.

(٧) مسلم، برقم (٢٣٥٥)، وشمال الترمذي، برقم (٣١٦) «مختصر الألباني».

(٨) صحيح البخاري، برقم (٣٥٣٧)، ومسلم، حديث رقم (٢١٣١) (٢١٣٣).

(٩) أحمد، ٣٨١/٢، برقم (٨٩٥٢) قال مخرجه: «صحيح» وانظر تخريجه مفصلاً فيه.

(١٠) النواجذ: الأنياب، وقيل: هي الضواحك التي تبدو عند الضحك النهاية، ٢٠/٥.

قال جريرٌ: ما حجبني رسولُ الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رأني إلا تَبَسَّمَ في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبتُ على الخيل، فضربَ في صدري، وقال: «اللهم ثبته، واجعله هاديًا مهديًا»^(١) ويمزحُ ولا يقول إلا حقًا، ولا يجفو أحدًا، ويقبل عذر المعتذر إليه، وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهنَّ، ويتنفسُ في الشربِ ثلاثًا خارج الإناء، ويتكلَّمُ بجوامع الكلم، وإذا تكلمَّ تكلمَّ بكلامٍ بينَ فِصْلٍ، يحفظُهُ من جلس إليه، ويعيدُ الكلمة ثلاثًا إذا لم تفهم حتى تفهم عنه، ولا يتكلَّمُ من غير حاجة .

وقد جمع الله له مكارم الأخلاقِ ومحاسن الأفعال، فكانت معائبته تعريضًا، وكان يأمرُ بالرفق ويحثُّ عليه، وينهى عن العنف، ويحثُّ على العفو والصفح، والحلم، والأناة، وحسن الخلق ومكارم الأخلاق، وكان يحبُّ التيمُّنَ في طهوره وتنعُّله، وترجُّله، وفي شأنه كله، ونهى عن الترجُّل إلا غبًا، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذى، وإذا اضطجع اضطجع على جنبه الأيمن، ووضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن، ويقول أذكار النوم، وإذا عرس^(٢) قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه .

وكان مجلسه: مجلس علم، وحلم، وحياء، وأمانة، وصيانة، وصبر، وسكينة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا تُنتهك فيه الحرمات، يتفاضلون في مجلسه بالتقوى، ويتواضعون، ويوقِّرون الكبار، ويرحمون الصغار، ويؤثرون المحتاج، ويخرجون دعاة إلى الخير .

وكان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، وكان يمشي مع الأرملة والمسكين، والعبء، حتى يقضي لهم حاجاتهم.

(١) صحيح البخاري، برقم (٣٠٣٥-٣٠٣٦)، ورقم (٣٨٢٢)، ورقم (٦٠٩٠).

(٢) التعريس: نزول المسافر آخر الليل نزلةً للنوم والاستراحة. انظر: النهاية في غريب الحديث

ومرَّ على الصبيان يلعبون فسَلَّم عليهم، وكان لا يَصْفَح النَّساء غير المحارم، وكان يتألف أصحابه ويتفَقَّدهم، ويكرم كريم كلِّ قوم، ويُقبل بوجهه وحديثه على من يُحدِّثه، حتى على أشرِّ القوم يتألفهم بذلك.

وخدمه أنس رضي الله عنه عشرَ سنين قال: (فما قال لي أفَّ قط، وما قال لي لشيءٍ صنعتُه لِمَ صنعتَه، ولا لشيءٍ تركته لِمَ تركته، وكان من أحسن الناس خُلُقًا ولا مسسُتُ خزًّا، ولا حريًّا، ولا شيئًا كان ألينُ من كفِّ رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا شَمِمتُ مسكًا قط ولا عَطِرتًا أطيب من عَرَقِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله)^(١).

ولم يكن فاحشًا ولا مُتَفَحِّشًا ولا صحَّابًا^(٢)، ولا يُجزِي بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح^(٣) ويحلِّم، ولم يضرب خادمًا، ولا امرأةً، ولا شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى^(٤)، وما خيَّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه^(٥).

(١) البخاري، برقم (٣٥٦١)، ومسلم، برقم (٢٣٠٩)، والترمذي في مختصر الشمائل، واللفظ له، برقم (٢٩٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٥٥٩) والترمذي (٢٠١٦) بهذا اللفظ قال الألباني: "صحيح". الصَّخَّاب: الصخب والسخب: الضجة واضطراب الأصوات للخصام، فهو صلى الله عليه وآله لم يكن صخَّابًا في الأسواق ولا في غيرها النهاية ١٤/٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢٣٦/٦ وفي كتاب الزهد رقم (٦) والترمذي، حديث رقم (٢٠١٦)، وبنحوه أخرجه البخاري، حديث رقم (٤٨٣٨).

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٢٨).

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٥٦٠)، وصحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٢٧).

المبحث الثاني

أخلاقه ﷺ

إنَّ من ينظرُ في حياة النبيِّ ﷺ، ويقلِّب صفحات سيرته، فسيجدُه قد بلغ حدَّ الكمال الإنساني في الأخلاق الفاضلة والخلالِ الكريمة، ولن يعجزَ عن الحصولِ على أدلة قاطعةٍ تؤكد هذه الحقيقة، وقد توصلت إليها بعد قراءاتٍ كثيرةٍ متنوعةٍ، حرصتُ قبلها أن أكونَ خالي الذهنِ، في حدود الإمكان، انحيازًا منِّي للمعلومة الصحيحة.

كان النبيُّ محمدٌ ﷺ أشجعَ الناس، وأكثرهم حلمًا، وكان أكرمَ الناس^(١)، وأكثرهم زهدًا، وكان رحيماً، عادلاً، عفواً، صادقاً، عفيفاً، أميناً، وكان مهيباً، وكثيرَ التبسّم، متواضعاً، وكان صلباً في الحقِّ، وفي الوقت ذاته أشدَّ حياءً من فتاةٍ بريئة^(٢).

إن نظرة تأملية تحليلية لهذه الأخلاق، التي اجتمعت في شخصية النبيِّ محمد ﷺ تُبيِّنُ بجلاء، أنَّ العظمة إنما تكون حين تجتمع الأخلاقُ كُلُّها في شخصٍ واحدٍ، لأنَّ القيمَ المجزأة، لا يمكنها أن تصنع عظيمًا، ولا أن تسهمَ في سعادة البشرية.

ترجَّح لديَّ هذا الفهم أيضًا، حين استحضرت ما ذهب إليه بعضُ علماء الأخلاق، (من أن كلَّ خُلُقٍ يقوى بغيره من الأخلاق)^(٣).

(١) صحيح البخاري رقم (٦) بلفظ (أجود بالخير من الريح المرسلة).

(٢) انظر: صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٢٠)، وصحيح البخاري، حديث رقم (٣٥٦٢).

(٣) من قصص الشمائل، ص ٦١، أحمد عز الدين.

إن الدافع الكامن وراء تخلُّق النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بكلِّ هذه الأخلاق التي سبق عرضها بإيجاز هو النبوة، ذلك أن الله تعالى يتصفُ بصفات الكمال، كالرحمة، والكرم، والرافة، والعزة، والمغفرة. والنبيُّ ﷺ أكثرُ الناس تخلُّقًا بأخلاق الله تعالى.

فالتخلُّق النبويُّ لا اعتبار فيه لأمر دنيوي، كمنفعة شخصية، أو تأثر بيئية، أو تغير أحوالٍ.

ولقد أدرك ر. ف. بودلي هذه الحقيقة، دون أن يذكر سببها، حين قال: «أشكُّ فيما إذا كان هناك رجلٌ غير محمد تبدلت أحواله الخارجية، ذلك التبدل العظيم، ولم تبدل نفسه»^(١).

فثبات تلك الصفات السامية في شخصية رسول الله ﷺ كان دليلاً آخر على نبوته، وأنه رسول ربِّ العالمين.

يسهل تفهّم هذا الثبات، حين نستحضر أنّ هذه العظمة بكلِّ مظاهرها، هي من فيض النبوة، فإننا وإن كنا نقرُّ ونعترف، بأن النبيَّ محمدًا ﷺ كان قبل النبوة إنساناً نبيلًا، ذا أخلاقٍ كريمةٍ، ساميةٍ، إلا أنّ بروز عظمته، المتمثلة في اجتماع كلِّ الأخلاق الفاضلة في شخصه بتوازن فريدٍ من نوعه، كانت بسبب النبوة، كما أسلفنا.

لعلّ هذا الذي تقدّم، يفسّر لنا أيضًا، لم كانت أخلاق النبيِّ محمد ﷺ أخلاقًا باقيةً، دائمةً على مرِّ الدهور، حاضرةً في كلِّ زمانٍ، صالحةً لكلِّ مكانٍ، فهي لم تكن للعصر الذي نشأت فيه، ولم تختصَّ بالفئات التي كانت تعنيها أولّ الأمر، ولم تكن وليدة بيئة النبيِّ ﷺ.

كان النبيُّ محمد ﷺ يمارس هذه الأخلاق بأفعاله، أكثر من أقواله، وهو ما جعلها قريبةً من الناس، مألوفةً لديهم، ممكنةً التطبيق.

(١) الرسول حياة محمد، ص ١٤، ر. ف. بودلي.

ما من أخلاقٍ حسنةٍ تُعرف، ولا خلالٍ طيبةٍ تُذكر، إلا ولرسول الله ﷺ فيها أوفرُ الحظِّ والنصيب، وكيف لا يكون كذلك، وقد وصفه ربُّه سبحانه وتعالى قائلاً ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقد يكون أكثر ما تميَّز به ﷺ من بين جميع الأخلاق التي تحلَّى بها والتي كان لها أثرٌ على الناس هو خلقُ الرَّحمة، وصدقَ عزَّ من قائل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لقد كان لخلقِ الرحمة، الذي امتاز به النبي محمد ﷺ، وتميَّز به أثرٌ بارزٌ على البشرية قديماً وحديثاً، وسأقف وقفةً مع هذا الخلقِ العظيم، أتناوله فيها بشيءٍ من التفصيل والتحليل.

لقد سلكتُ ثلاثةً مسالك، للبحث عن خلقِ الرحمة من بين أخلاقيَّاته ﷺ وهي:

المسلك الأول: النظرُ المتأمل في القرآن الكريم: فقد وصف الله تعالى نفسه في القرآن، بهذه الصفة في آيات كثيرة، واشتقَّ الله من هذه الصفة اسمين له سبحانه، وردًا في آيات منها: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومنها: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

حيث أثبت الله تعالى لنفسه، صفة الرحمة، وسمَّى نفسه بالرحمن الرحيم، تفضلاً على الناس ورحمةً بهم، فأنزل إليهم ديناً وصفه الله بأنه رحمةً بهم، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

قال غيرٌ واحدٍ، من مفسري القرآن، إنَّ الرحمة هنا هي النبوة، والوحي، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]. يقول العلامة الشنقيطي: «والظاهر المتبادرُ

أنَّ المراد برحمة ربِّك: النبوة وإنزال الوحي، وإطلاق الرحمة على ذلك متعددٌ في القرآن^(١).

وصف القرآن الكريم، بعد ذلك النَّبِيِّ مُحَمَّدًا ﷺ بهذه الصفة، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿التوبة: ١٢٨، ١٢٩﴾.

بل إنَّ الله جعل النَّبِيِّ مُحَمَّدًا ﷺ هو الرحمة بِعَيْنِهَا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿الأنبياء: ١٠٧﴾.

لعله بعد هذا العرض، قد اتضح للقارئ، وجود تناسبٍ مبهرٍ، بين تلك الأوصاف، فالله الرحمن الرحيم بمخلوقاته، أنزل دينًا كلُّه رحمةٌ للعالمين جميعًا، فكان الأنسب، أن يكون النَّبِيُّ المرسل بهذا الدين رؤوفًا رحيمًا، فكان هذا النَّبِيُّ هو مُحَمَّدٌ ﷺ رحمةً مهداةً ونعمةً مسداةً.

إنَّ خُلُقَ الرحمة هذا مناسبٌ لتحقيق مراد الله تعالى، من إرسال الرسول ﷺ بهذا الدين، فقد أرسله مفضولًا على الرحمة، فكان رحمةً من الله بالأمّة، في تنفيذ شريعته^(٢).

الجدير بالملاحظة أن الله تعالى، لم يصف أحدًا من أنبيائه بوصف الرحمة، إِلَّا النَّبِيُّ مُحَمَّدًا ﷺ، فقد تحدّث القرآن عن خمسةٍ وعشرين نبيًا، ووصفهم بأجمل الأوصاف، وأكملها، وعظّم شأنهم، في كلِّ موضع ذكروا فيه، إِلَّا أنَّ أحدًا منهم، لم يوصف بهذه الصفة، على كثرة صفاتهم الحميدة.

(١) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج ٧، ص ١١١، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، ١٩٩٥ م، بيروت.

(٢) انظر التحرير والتنوير، ج ٤، ص ١٤٤-١٤٥ بتصرف، الطاهر ابن عاشور.

أراد الله تعالى لحكمة، أن يخصَّ النبيَّ محمدًا ﷺ بهذه الصفة، دون أن يشاركه فيها أحد، مع أهمية التأكيد على أن أنبياء الله جميعًا، رحماء في تعاملهم مع أقوامهم، وفي حرصهم على إيمانهم، ولكن حديثي هنا عن الوصف بعينه.

المسلك الثاني : النظر في سيرة النبيِّ محمدٍ ﷺ، وفي أقواله، وتوجيهاته، يؤكد أن صفة الرحمة، كانت حاضرةً في كلِّ ما صدر عن النبيِّ ﷺ، من قولٍ، أو فعلٍ، فهو الخُلُقُ الملازم لكلِّ حالٍ، بل هو المُهيمن عليه، والموجَّه له .

ولقد كان النبيُّ محمدٌ ﷺ مستحضرًا هذا الخُلُقُ، في كلِّ حركاته، وسكناته، يؤكد هذا قوله عن نفسه: «إنما أنا رحمةٌ مهداةٌ»^(١)، ولا أشك لحظةً أنه كان يستحضر على الدوام قول الله تعالى له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

المسلك الثالث : مفهوم الرحمة مناسب تمامًا لأن يتَّصف به نبينا محمد ﷺ، ويشهدُ لذلك تلك التعريفات التي أوردها العلماء لهذا الخُلُقُ، ومن ذلك قولهم: «الرحمة حالةٌ وجدانيةٌ، تعرِّضُ غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطافِ النفسانيِّ، الذي هو مبدأ الإحسان»^(٢).

ولعلَّ أوضحها، وأيسرها، قولهم: «هي رقةٌ يجدها المخلوقُ في قلبه، تحمله على العطفِ، والإحسانِ إلى مَنْ سواه، ومواساته، وتخفيفِ آلامه»^(٣)، وهي الرحمة التي يناسب أن يوصف بها المخلوق.

وما يسترعي الانتباه ما ذكره ابن القيم: «الرحمة صفةٌ تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة»

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، ج ١، ص ٣٥، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة رقم ٤٩٠.

(٢) الكليات ج ١ ص ٤٧١ أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٣) الرحمة في القرآن ص ٢٢ موسى عبده عسيري ط ١، ١٤١٢ هـ مكتبة الرشد، الرياض.

الحقيقية، فأرحم الناس من شقّ عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضارّ عنك^(١).

لقد أضاف ابنُ القيم بعداً جديداً لمفهوم الرحمة، وهو أنها تعني أن تُمارس الرحمة على من تحبّ، وإن لم يرحّب بهذا، كما يحصل مع الطبيبِ ومريضه.



(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ج ٢، ص ١٧٣، ابن قيم الجوزية، دار الفكر، بيروت.

المبحث الثالث

توازن شخصية الرسول واعتمادها

من يدرس شخصية الرسول ﷺ، يلفت نظره ذلك التوازن الدقيق بين معالمها، مما لا يمكن أن يجده في أي بشرٍ سواه، هذا التوازن - الذي يعدُّ من أبرز دلائل نبوته - يتمثل في الكم الهائل من السمائل ومحاسن الأخلاق التي اجتمعت في شخصيته، على نسقٍ متعادلٍ، لا تطغى صفةٌ على صفةٍ، ولا توظفُ صفةٌ في موقفٍ لا تحتاجه، ولا تليق به، بل لكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ حالةٍ لبسها.

حتى لا يستطيع ذو عقلٍ أن يقول: ليت ما أمرَ به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمرَ به، أو ليته زاد في عفوهِ أو نقصَ من عقابه؛ إذ كلُّ منه على أمانة أهل العقل، وفكر أهل النظر.

إنه الكمال البشري الذي يقود المسلمين إلى مزيدٍ من الإعجاب والحبِّ لرسولهم الكريم، مفاخرين الدنيا بأسرها أنهم أتباع سيّد البشر.

حقَّق التوازن الأخلاقي في شخصية الرسول أسمى غايته، فكان ذا نفسٍ سويةٍ، تتمتعُ بمثاليَّةٍ، يدركها من له أدنى معرفة بالسلوك النفسي وأبعاده، فما كان ﷺ بالكئيب العبوس الذي تنفر منه الطباع، ولا بالكثير الضحك الهزلي الذي تسقط مهابته من العيون.

ولم يكن حزنه وبكاؤه إلا ممَّا يُحزن ويُبكي منه العقلاء، في غير إفراطٍ ولا إسرافٍ.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما بكاءؤه فلم يكن بشهيقٍ ورفع صوتٍ، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملًا، ويسمع لصدره أزيزٌ، وكان بكاءؤه تارةً رحمةً

للميت، وتارةً خوفاً على أمته وشفقةً عليها، وتارةً من خشية الله، وتارةً عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياقٍ ومحبةٍ وإجلالٍ، مصاحبٌ للخوف والخشية، ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمةً له، وقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وبكى لما شاهد إحدى بناته، ونفسها تفيض، وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء، وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس وصلّى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في صلاته، وجعل ينفخ ويقول: «ربّ ألم تعذني ألا تعذبهم، وأنا فيهم، وهم يستغفرون ونحن نستغفرك». وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل^(١).

أمّا ضحكُه ﷺ: فكان يضحك مما يضحك منه، وهو ممّا يتعجب من مثله، ويستغرب وقوعه ويستندر، كما كان يداعب أصحابه.

وعن أنس بن مالك، أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فاستحمله، فقال رسول الله: «إنّ حاملوك على ولد ناقة». فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله: «وهل تلد الإبل إلا النوق»^(٢).

إضافة إلى المعنى الذي ذكرناه دلّ هذا الحديث: أنّه ﷺ كان يؤمّن لهم كفايتهم من المطعم والملبس والمسكن... إلخ، ويؤمّن وسيلة النقل لمن يحتاج إليها،

(١) ابن القيم: زاد المعاد الجزء الأول بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٦٨) ورواه الترمذي، حديث رقم (١٩٩١)، وأبو داود، حديث رقم (٤٩٩٨) (٤٩٩٩) وأحمد، حديث رقم (١٣٨١٧) وغيرهم، قال مخرجه: «إسناده صحيح».

فقد قال ﷺ: «حتى يصيب قوامًا من عيش»^(١)، أي ما يقوم بعيشه، حتى يصل إلى أول مراتب الغنى.

كان التوازن السلوكي في شخصيّة الرسول أحد دلائل نبوّته، فلقد جعل هذا التوازن من رسول الله القدوة العليا التي تمثّلت فيها كلّ جوانب الحياة؛ فهو الأبّ والزوج ورئيس الدولة، والقائد للجيش، والمحارب الشجاع.

كما كان المستشار والقاضي والمربي والمعلمّ والعبادّ والزاهد... إلى آخر صفاته ﷺ التي كانت من الثراء، بحيث استوعبت كلّ جوانب حياة البشر، الأمر الذي جعل من رسول الله ﷺ المثّل الكامل للناس كافّة، على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم، حتى تقوم الحجّة على الناس مرّتين: مرةً بالبيان النظريّ، ومرةً بالبيان العمليّ. وإليك بعض مظاهر هذا التوازن السلوكي:

شهدت البشرية في تاريخها الطويل انفصالاً بين المثّل والواقع، بين المقال والفعال، بين الدعوى والحقيقة، وكان دائماً المثال والمقال والدعوى أبرز من الواقع والفعال والحقيقة.

وهذا شيءٌ يعرفه من له أدنى معرفة بالتاريخ والحياة، غير أنّ هذه الظاهرة مفقودة في واقع الرّسل وأتباعهم، فهم وحدهم الذين دعوا الإنسانيّة إلى أعظم قمم السموّ، ومثّلوا بسلوكهم العمليّ هذه الذروة بشكلٍ رائعٍ مدهشٍ^(٢).

وظهور هذا التوازن في حياة رسول الله العمليّة كان على أعلى ما يخطر بقلب بشرٍ، فهو العابد والزاهد والمجاهد والزوج، والذي ما كان يأمرٌ بخيرٍ إلاّ كان أوّل آخذٍ به، ولا ينهى عن شرٍ إلاّ كان أوّل تاركٍ له.

فمن عبادته تقولُ السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان النَّبِيُّ ﷺ يقومُ من الليل حتى تنفطر

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٠٤٤).

(٢) سعيد حوى: الرسول ص ٥٥.

قدماء، فقلت له: لِمَ تصنعُ هذا يا رسول الله، وقد غُفِرَ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً^(١).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: «كان رسول الله يُفطرُ من الشهر حتى نظنّ ألا يصوم منه شيئاً، ويصوم حتى نظنّ أن لا يُفطر منه شيئاً، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائمًا إلا رأيته»^(٢).

وعن زهده يروي الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخلت عليّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش النبيّ عباءةً مثنيةً، فرجعت إلى منزلها، فبعثت بفراشٍ حشوّه الصوف، فدخل عليّ رسول الله فقال: ما هذا؟ فقلت: فلانة الأنصارية دخلت عليّ فرأت فراشك، فبعثت إليّ بهذا. فقال: رُدّيه. قالت: فلم أرْده، وأعجبني أن يكون في بيتي؟ حتى قال ذلك ثلاث مرات، ثم قال: يا عائشة، رُدّيه، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة. قالت: فردّته»^(٣).

وهو إمام الزاهدين الذي ما أكل على خوانٍ قطّ، وما رأى شاةً سميطاً قطّ، وما رأى منخلاً منذ أن بعثه الله إلى يوم قبض، ما أخذ من الدنيا شيئاً، ولا أخذت منه شيئاً، وصدق إذ يقول: «ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها»^(٤).

وأما عن شجاعته وجهاده، فيروي أنس رضي الله عنه قال: «كان النبيّ أحسنَ الناس وأجودَ الناس وأشجعَ الناس، ولقد فرغَ أهلُ المدينة ذات ليلةٍ فانطلق الناس قبل

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٤٨٣٦)، ومسلم، حديث رقم (٢٨١٩) و(٢٨٢٠).

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (١١٤١).

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٠٨٢)، وأخرجه أحمد في كتاب الزهد رقم (٧٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣٤٥/١)، والخطيب (١٠٢/١١).

(٤) أخرجه الترمذي أحمد، حديث رقم (٢٣٧٧) و(٣٧٤٦) وغيره، قال: قال مخرجه: «إسناده صحيح» وانظر تخريجه فيه مفصلاً.

الصوت، فاستقبلهم النبيُّ، قد سبق الناسَ إلى الصوت، وهو يقول: لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا، وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرِي ما عليه سِرْجٌ، في عُنُقِهِ سَيْفٌ، فقال: لقد وجدته بحرًّا»^(١).

وفي صحيح مسلم: «جاء رجلٌ إلى البراء، فقال: أكنتم وكيتم يومَ حنينٍ يا أبا عمار؟ فقال: أشهدُ على نبيِّ الله ﷺ ما ولى... دعا، واستنفر وهو يقول: أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابنُ عبدِ المطلب، اللهم نزل نصرك.

قال البراء: كئنا، والله إذا احمرَّ البأسُ نتقي به، وإنَّ الشجاعَ منا للذي يحاذي به، يعني النبيَّ ﷺ»^(٢).

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: كئنا إذا احمرَّ البأسُ ولقي القومُ القومَ، اتقينا برسولِ الله، فما يكون منا أحدٌ أدنى من القوم منه.

ولولا خوف الإطالة لسردنا شمائله ﷺ التي نادى بها، وعلمها أمته، وكان أولَ الممارسين العاملين لها.

الصدقُ صفةٌ أساسيةٌ لا بدَّ أن يتمتع بها صاحبُ الرسالة، هذا الصدقُ لا بدَّ أن يكون مطلقاً، لا يُتقَضُ في أيِّ حالٍ، بحيث لو امتحنَ صاحبُ الرسالة في كلِّ قول له، لكان مطابقاً للواقع، إذا وعدَ أو عاهدَ أو جدَّ أو داعبَ أو أخبرَ أو تنبأ.

وإذا انتقضت هذه الصفةُ أيَّ نقضٍ، فإنَّ دعوى الرسالة تنتقض من أساسها؛ لأنَّ الناسَ لا يثقون برسولٍ غير صادق، والرسولُ الصادق لا تجد في ثنايا كلامه شيئاً من الباطل في أيِّ حالٍ من الأحوال^(٣).

ولقد كان الصدقُ من أوضح السمات في شخصية رسول الله، وكفى دلالةً

(١) صحيح البخاري (٦٠٣٣).

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٦).

(٣) سعيد حوى: الرسول ص ٢٣.

على هذا الصدق أن قومه لقبوه بالصادق الأمين، بل إن أول انطباع يرسخ في نفس من يراه للمرة الأولى أنه من الصدّيقين .

فعن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي المدينة، انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، قال: فلما تبين وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام»^(١).

فهو الصادق في وعده وعهده؛ فعن عبد الله بن أبي الخنساء قال: بايعت النبي قبل أن يُبعث وبقيت له بقية، فواعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، فنسيت يومي والغد، فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه، فقال: «يا فتى، لقد شققت عليّ، أنا ها هنا منذ ثلاثٍ أنتظرك»^(٢).

وبعد غزوة حنين جلس رسول الله يقسم غنائم هوازن، فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعداً يا رسول الله. قال: «صدقت، فاحتكم ما شئت». قال: أحتكم ثمانين ضائنةً وراعيها. قال: «هي لك، واحتكمت سيراً»^(٣).

وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى في قصة إسلامه، أنه عندما كان مشركاً، تولّى مطالبة الرسول عن مكة في عمرة القضاء، بعد انقضاء الثلاثة أيام المتفق عليها، يقول حويطب: ولما قدم رسول الله لعمره القضاء، وخرجت قريش من مكة، كنت فيمن تخلف بمكة، أنا وسهيل بن عمرو، لكي نُخرج رسول الله إذا مضى الوقت، فلما انقضت الثلاثة أقبلت أنا وسهيل بن عمرو فقلنا: قد مضى

(١) مسند أحمد، حديث رقم (٢٣٧٨٤) قال مخرجه: «اسناده صحيح» انظر تخريجه مفصلاً.

(٢) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٩٩٦) قال الألباني: «ضعيف الإسناد» كما في ضعيف سنن أبي داود (١٠٦٢).

(٣) الرسول ﷺ: سعيد حوي ص ٣٧.

شرطك، فاخرج من بلدنا. فصاح: «يا بلال، لا تغب الشمس وواحد من المسلمين بمكة، ممن قدم معنا»^(١).

وما حدث أن وعد رسول الله أو عاهد فأخلف أو غدر، ولقد روى البخاري «أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن محمد: هل يغدر؟ أجاب: لا، فقال هرقل بعد ذلك: وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر»^(٢)، بل إنه لا يحدد عن الصدق ولا حتى مجاملة لأحد.

فعن عبدالله عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «كان رسول الله يقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم، يتألفهم بذلك، فكان يقبل بوجهه وحديثه علي، حتى ظننت أنني خير القوم، فقلت: يا رسول الله، أنا خير أم أبو بكر؟ فقال: أبو بكر. فقلت: يا رسول الله، أنا خير أم عمر؟ فقال: عمر، فقلت: أنا خير أم عثمان؟ فقال: عثمان. فلما سألت رسول الله فصدقني، فلوددت أنني لم أكن سألته»^(٣).

وحتى في أوقات الدعابة والمرح، حيث يتخفف الكثيرون من قواعد الانضباط، كان رسول الله الصادق في مزاحه؛ فعن أبي هريرة قال: «قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا! قال: إنني لا أقول إلا حقاً»^(٤).

من أبلغ وأجمع الكلمات التي وصفت أخلاق رسول الله، ما قالتها السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن».

ولقد كانت هذه الأخلاق من السمو والتوازن ما جعل تواضعه لا يغلب حلمه، ولا يغلب حلمه بره وكرمه، ولا يغلب بره وكرمه صبره... وهكذا في كل شمائله صلوات الله وسلامه عليه، هذا مع انعدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته.

فعن تواضعه: يروي أبو نعيم في دلائل النبوة عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول

(١) الحاكم ٤٩٢/٣.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٧).

(٣) مختصر الشمائل (٢٩٥).

(٤) سنن الترمذي، حديث رقم (١٩٩٠).

الله من أشدّ الناس لطفًا، والله ما كان يمتنع في غداة باردة، من عبدٍ ولا من أمةٍ ولا صبيٍّ، أن يأتيه بالماء، فيغسل وجهه وذراعيه، وما سأله سائلٌ قطّ إلا أصغى إليه أذنه، فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه، وما تناول أحدٌ بيده إلا ناوله إيّاها، فلم ينزع حتى يكون هو الذي ينزعها منه»^(١).

وعن حلمه: يقول حجة الإسلام الغزالي: «كان ﷺ أحلم الناس، وأرغبهم في العفو مع المقدرة»^(٢)، يروي البخاري يوم حنين، ورسول الله يقسم الغنائم، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجهه الله. فقلت - أي عبد الله راوي الحديث -: والله لأخبرن رسول الله. فأتيته فأخبرته، فقال: «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أودي بأكثر من هذا فصبر»^(٣).

وعن كرمه: يروي الشيخان عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «ما سئل رسول الله شيئًا قطّ فقال: لا»^(٤) وأخرج أحمد عن أنس أن رسول الله لم يسأل شيئًا على الإسلام إلا أعطاه، قال: «فأتاه رجلٌ فأمر له بشيء كثير بين جبلين من شاء الصدقة، فرجع الرجل إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة»^(٥).

وأخرج مسلم أنه في غزوة حنين: «وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة... وأن صفوان قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ»^(٦).

(١) حلية الأولياء ٣ / ٢٩.

(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٤٩٤ ط أولى - دار القلم والدار الشامية ٣ / ٤ / ١٩٩٣ م.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٣١٥٠).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٠٣٤)، ومسلم، حديث رقم (٢٣١١).

(٥) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣١٢) وأحمد ٣ / ١٧٥.

(٦) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣١٣) و(٢٣٢٧).

يقول حجة الإسلام الغزالي: «وكان أسخى الناس، لا يبيت عنده دينارٌ ولا درهمٌ، ولا يُسأل شيئاً إلا أعطاه»^(١).

وفي صحيح البخاري: «عن أنس، كنت أمشي مع النبي ﷺ، وعليه بُردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجذبه جذبةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفتُ إليه فضحك ثم أمر له بعطاء»^(٢).

وفي سنن النسائي وأبي داود: «عن رجل من بني أسدٍ قال: نزلت أنا وأهلي ببيقع الغرقد، فقالت لي أهلي: اذهب إلى رسول الله ﷺ، فسله لنا شيئاً نأكله، فذهبت إلى رسول الله ﷺ، فوجدت عنده رجلاً يسأله ورسولُ الله ﷺ يقول: لا أجد ما أعطيك، فوَلَّى الرجلُ عنه وهو مغضبٌ، وهو يقول: لعمرى إنك لتعطي من شئت، قال رسول الله ﷺ: إنه ليغضب عليَّ أن لا أجد ما أعطيه، من سأل منكم وله أوقيةٌ أو عدلها، فقد سأل إلحافاً.

قال الأسدِي: فقلت: للّقحة خيرٌ لنا من أوقية، والأوقية أربعون درهماً، فرجعت ولم أسأله، فقدم على رسول الله ﷺ بعد ذلك شعيرٌ وزبيبٌ، فقسّم لنا منه حتى أغنانا الله عز وجل»^(٣).

فرغم ما حباه الله به من الحلم والرفقة، إلا أنه الحلم والرفقة التي لا تُجاوز حدّها، فكان يغضبُ للحقِّ إذا انتهكت حرماً الله، فإذا غضب، فلا يقوم لغضبه شيءٌ حتى يهدمَ الباطل وينتهي، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس: عن جاهلٍ لا يعرف أدب الخطاب، أو مسيءٍ للأدب، أو منافقٍ يتظاهر بغير ما يبطن^(٤).

(١) إحياء علوم الدين ١/٤٩٠.

(٢) صحيح البخاري (٣١٤٩).

(٣) سنن النسائي، حديث رقم (٢٥٩٦) وأبو داود، حديث رقم (١٦٢٧)، قال الألباني: «صحيح».

(٤) سعيد حوى: الرسول ص ١٣٩.

ولمَّا نكثَ بنو قريظةَ العهدَ وتحالفوا مع الأحزاب على حرب المسلمين، ثمَّ ردَّ الله كيدهم في نحورهم، وأمکن الله رسوله منهم، رضوا بحكم سعد بن معاذ، كما رضيَّه رسول الله، فحكم سعدٌ أن تُقتلَ رجالُهم، وتسبى نساؤُهم وذرايرهم، فتَهَلَّلَ وجهُ الرسول، وقال: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك^(١) من فوق سبع سموات». فقتل رسولُ الله منهم في يومٍ واحدٍ أربعمئة رجل^(٢).

وروى ابن إسحاق في قصَّة أسرى غزوة بدر، قال: ومنهم أبو عزة الشاعر، كان محتاجًا ذا بناتٍ، فقال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مالٍ، وإنِّي لذو حاجةٍ وذو عيالٍ، فامنن عليَّ. فمنَّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه أن لا يظهر عليه أحدًا. فقال أبو عزة في ذلك شعرًا، يمدح به رسول الله ﷺ.

ثم إنَّ أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد عليه الرسول، ولعب المشركون بعقله فرجع إليهم، فلمَّا كان يوم أحدٍ أُسر، فسأل النبي أن يمنَّ عليه أيضًا، فقال النبي: «لا أدعك تمسحُ عارضيك وتقول: خدعتُ محمدًا مرَّتين»، ثم أمر به فضربت عنقه^(٣).

وعن المسور بن مخرمة، أنَّ عليَّ بن أبي طالب خطبَ بنت أبي جهل. وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ. فلمَّا سمعت بذلك فاطمة أتت النبي ﷺ فقالت له: إنَّ قومك يتحدثون أنك لا تغضبُ لبناتك. وهذا عليُّ ناكحُ ابنة أبي جهل.

قال المسورُ: فقام النبي ﷺ فسمعته حين تشهَّد. ثم قال: «أما بعد. فإنِّي أنكحتُ أبا العاص بن الربيع فحدَّثني فصدَّقني وإنَّ فاطمة بنت محمدٍ مضغةٌ مِنِّي، وإنَّما أكرهُ أن يفتنوها، وإنَّها والله لا تجتمع بنتُ رسول الله وبنْتُ عدوِّ الله،

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٧٦٨) ومسنَد أحمد، حديث رقم (١١١٧٠).

(٢) في تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٨٠.

(٣) قال الحافظ: «أخرج قصته ابن إسحاق في المغازي بغير إسناد». وقال ابن هشام في «تهذيب

السيرة»: «بلغني عن سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ قال... فتح الباري ١٠/٥٣٠.

عند رجلٍ واحدٍ أبداً». قال، فترك عليّ الخطبة^(١).

إنَّه اللَّيْنُ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ، وَالشَّدَّةُ فِي غَيْرِ عُنْفٍ^(٢)، فصلواتِ الله وسلامُهُ عليه. لقد سجَّل لنا التاريخُ سِيْرَ آلاَفِ المصلحينَ والزعماءِ الذين عاشوا مناظليْن من أجلِ فكرةٍ أو مبدأٍ أفاد شعوبهم أو الإنسانيةَ بعامَّةٍ، ولكن لم تجتمع كلُّ المبادئ الطيِّبةِ إلا في شخصِ الرسول، في البيتِ والقيادةِ والأخلاقِ والعبادةِ، وسائرِ أوجهِ الحياةِ التي استنارت بمبعثه، فصلواتِ الله وسلامه عليه في الأوَّلينَ والآخريْن.



(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٤٤٩).

(٢) انظر: غريب الحديث للخطابي (١٦٣/٢).

المبحث
الرابع

مظاهر رحمته ﷺ

لقد بدأ نبي الرحمة ﷺ منذ فجر دعوته، ينشر ثقافة الرحمة، بين الناس، على الرغم من أن البيئة الأولى التي عاش فيها ثلاث عشرة سنة يدعو فيها إلى الرحمة، كانت بيئة معادية له، فلم يكن للرحمة في قلوب المشركين بمكة مكانة تذكر، إلا مواقف محدّدة محاصرة، أملت على أصحابها القيم العربية التي لم تختف معالمها، على الرغم من شيوع ثقافات منافية لهذه القيم التي صارت غريبة، ولم يكن معه أعوان، باستثناء أفراد مضطهدين يزيدون كل يوم، على الرغم ممّا كانوا يتعرّضون له من ظلم، واضطهاد.

بدأت مظاهر رحمة نبي الرحمة ﷺ، بأتباعه وأعدائه على حدّ سواء، منذ اليوم الأوّل لدعوته، وهو ما استرعى انتباه الباحثين في سيرته، حين ألزم نفسه، وألزم أتباعه، بعدم الردّ على إساءات أعدائهم، وكان ينفذ بهذا توجيهات ربّه.

لقد كانت الرحمة منذ الأيام الأولى، حاضرة ظاهرة، في هذا المنهج، ليستقرّ في أذهان الناس جميعاً، أنّ كلمة الفصل للمبادئ، والصراع هو صراع معتقدات وحسب، والبقاء فيه للأصلح، دون مؤثّر خارجي، من قوّة أو غيرها من المؤثّرات، والنبي ﷺ عازم على هذا المنهج، وهو يعلم أنّ خصومه لن يوافقوه عليه.

كما أنّ النبي ﷺ رأى خيراً ورحمةً في هذا المنهج الذي يقوم على الصّبر، والصبر، والتسامح، لأنّ من آمن بالنبي، ومن كفر به، أبناء مجتمع واحد، تجمعهم صلات القربى، والجوار، وربّما يضمّمهم بيت واحد.

لقد كان من رحمة النبي ﷺ بهم جميعاً، أن نهى أتباعه عن القتال، والردّ بالمثل، حتى لا يقتل الأخ أخاه، أو الصديق صديقه، أو الجار جاره، ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

لقد استمر هذا المنهج الفريد، والغريب، على هذه البيئة سنواتٍ عديدة، فقد اعتاد الناس في هذه البيئات، أن يحلّوا مشاكلهم حتى اليسيرة بالقتال، وقد فكّر أعداء نبي الرحمة ﷺ في مكة بهذا الأمر .

وقالوا له صراحةً: (كأنك تريد أن يعظم بيننا الخلاف، حتى يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى)^(١)، أي يقضي بعضنا على بعض، حتى لا يكاد يبقى منّا أحدٌ .

لكنّهم لم يعلموا أن النبي ﷺ، يفكر بغير ما يفكرون به، ولديه منهج غير مألوف، سوف يشهره في وجوههم بدل السيوف.

قد أفصح النبي ﷺ عن هذا المنهج حين طلب منه أتباعه، أن يدافعوا عن أنفسهم، بسبب ما يتعرّضون له من أذى، فقد قالوا له، يا نبيّ الله كُنّا في عزّة ونحن مشركون، فلمّا آمنّا صرنا أذلةً، فقال لهم: إنني أمرت بالعتف، فلا تقاتلوا القوم^(٢).

وها هم اليوم جميعاً رضي من رضي، وكرة من كره أمام منهج جديد، يواجه الخلافات - ولو من طرف واحدٍ -، بالدعوة إلى الرحمة، والتسامح، والعتف.

لقد لفت النبي ﷺ بهذا انتباه البشرية، قديماً وحديثاً، إلى أنّ الرحمة كفيلاً بأن تهَيئ المناخ المناسب للحوار والتفاهم بين الناس، على الرغم ممّا بينهم من اختلاف في الآراء والأجناس. فإنّ الكراهية تعمي، وصوت القوّة يصمي، وعندها تسود شريعة الغاب.

(١) البداية والنهاية ج٣، ص ٦٨.

(٢) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج١، ص ١٥٨.

لم يكن خلق الرحمة في نبي الرحمة ﷺ سلوكاً شخصياً وحسب، دونما التفاتٍ منه إلى المحيطين به، كما هو حال بعض العظماء، حين جعلوا من الأخلاق الحميدة، صفاتٍ شخصيةً، امتازوا بها عن أبناء مجتمعاتهم الذين استمروا على ما هم عليه مثل زهدٍ بوذا مثلاً، حتى قد يُتوهم أنّها أخلاق نخبةٍ لا صلة للعامة بها، وهم غير مطالبين بالتمثل بها.

فقد تخلّق النبي ﷺ بهذا الخلق، ثم أمر به الناس، وتعهده بأقواله وأفعاله، حتى أمكن القول بلا تردد: إنّ نبي الرحمة ﷺ بهذا التصرف أوجد بيئةً ينمو فيها خلق الرحمة، وتنتشر فيها بالتدرج ثقافة التراحم، بغية أن تصبح الرحمة خلقاً جماعياً، بعد أن كانت خلقاً فردياً - لدى قلة منهم - ضعيفاً منزوياً .

ألا يمكن القول إنّ سلوك نبي الرحمة يُعدُّ رسالةً إلى المصلحين والعقلاء، داخل المجتمعات البشرية، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، تحمل في طياتها ضرورة أن يقوم هؤلاء بالدعوة إلى الفضائل التي يحملونها، وبذل غاية الجهد في سبيل إقناع الناس بها، وأن لا يقنعوا بالإيمان بها هم، ثم تركّ الناس على ما هم عليه.

لقد اجتهد نبي الرحمة ﷺ أيّما اجتهاد، في ترسيخ هذا الخلق، على الرغم ممّا لاقى هو وأصحابه، في سبيل هذا، من أذى، ومشقّة، وتعسفٍ، من قبل أعداءٍ عُتاةٍ قساةٍ في طبعهم، اعترضوا على شخصه، واعترضوا على مبادئ دعوته، واعترضوا على أتباعه.

وضع أعداؤه في مكة، القاذورات على رأسه، وهو ساجدٌ، حتى إنّهُ لم يتمكّن من رفعها، فجاءت ابنته فرفعتها، وتعرّض للضرب في إحدى المرّات، وبصق عليه أحدهم، وكانوا دائمي السخرية منه^(١).

كما عدّبو أتباعه، بأبشع صور التعذيب، فقد قتلوا سمية بنت خباط،

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٦٨.

بعد تعذيبها، وكانت أول من ضحّت بنفسها في الإسلام، وقُتلت في سبيل تعاليم دين الرحمة، ثم مات زوجها ياسرٌ تحت التعذيب، وتعدّدت صور التعذيب، وامتدّت إلى فتراتٍ طويلةٍ .

ونورد هنا صورةً من صور التعذيب، التي حصلت لامرأةٍ على يد أهل مكة، وهذه المرأة هي أمّ سلمة، التي صارت فيما بعد زوجةً للنبيِّ ﷺ بعد وفاة زوجها، فقد ذكرت طرفاً من قصّتها هذه، أدعها تقصّها عليكم:

«قالت: لما قرى أبو سلمة الهجرة - تعني زوجها -، حملني أنا وابني سلمة على بعيرٍ لنا، وخرج بنا إلى المدينة، فاعترضه رجالٌ من بني المغيرة، وهم أهلي، وقالوا له: لا ندعك تخرج بابتنتنا، وأخذوني منه، ومعني ابني، فلما رأى بنو عبد الأسد - وهم أهل زوجي - ما صنع أهلي، قالوا: والله لا نترك ابنتنا عندها، إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني بينهم، حتى خلعوا يده، وظفر به أهل زوجي، بنو عبد الأسد، وانطلق بي أهلي بنو المغيرة، ففرّق بيني وبين زوجي، وبين ابني الصغير، بعد أن خلعت يده، فكنت أخرج كلّ يومٍ إلى أطراف مكة، فما أزال أبكي من الصباح حتى المساء سنّة، أو قريباً منها»^(١).

كان الرّد من نبيِّ الرحمة ﷺ الدعوة إلى التسامح والتراحم، وهو أمرٌ شاقٌّ على النفوس، وكان للقرآن الذي ينزل بمكة آنذاك دورٌ في نشر ثقافة الرحمة، فقد كان يحثُّ على الصبر، ويقصُّ على المسلمين أخبار من سبقهم، من المؤمنين من الأمم السابقة، ليخفّف عنهم .

إن ممّا يُلفت الانتباه أيضاً، أنّ القرآن لم يتضمّن قطّ الدعوة إلى قطع صلة الرحم، بين من أسلم ومن بقي على كفره، ولم يأذن بلعنهم، أو ترك البرّ والإحسان بهؤلاء الذين يحاربون النبيَّ ﷺ، ويعدّون أتباعه .

(١) مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٤٧٧.

ربّما نذهب بعيداً إن قلنا: إنّ ظاهرة التسامح والعتفو، كانت أكثر وضوحاً في دعوة النبيّ محمد ﷺ من دعوة المسيح عليه السلام؛ لأنّ نبيّ الرحمة ﷺ حصل بينه وبين خصومه عداوةً ظاهرةً، وطالب أتباعه منه مراراً بالسماح لهم بمقاتلة عدوهم، لكنّه أصرَّ على التمسُّك بهذا الخلق وألزم به أتباعه .

وكان يُصِرُّ على وجوب التخلُّقِ بخُلُقِ الرحمة، رغم الاستفزازات الكثيرة، التي صدرت من أعدائه في مكة، ورغم ما تعرَّض له أتباعه من تعذيب.

إنّها رسالةٌ إلى أولئك الذين أسأؤوا فهم نبيّ الرحمة ﷺ، حين توهموا أن دعوته نقيضةٌ لدعوة المسيح، ولقد أعجبتني عبارةً للكاتب الإنجليزي الكبير برنارد شو، حين وقف على هذه الحقيقة، فقال: «لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً، فرأيتُه بعيداً عن مخاصمة المسيح»^(١).

ويستمرُّ الأمر على حاله: نبيُّ الرحمة ﷺ يواجه أعداءه بالعتفو والرحمة، وهم يواجهونه ويواجهون أتباعه بالقسوة، التي كانت أشدَّ مظاهرها، بعد مرور سبع سنواتٍ على دعوته، حين قرَّر أعداؤه في مكة محاصرة النبيّ ﷺ وأتباعه، وكلُّ من يقف معه من أقاربه، في وادٍ يُعرف بشعب أبي طالب؛ بغية عزلهم عن العالم الخارجي، ومقاطعتهم اقتصادياً واجتماعياً.

لقد نجحوا في هذا واستمرَّ العزل، والحصار، ثلاث سنواتٍ، كانت جدًّا قاسيةً، ومروعةً على النبيّ ﷺ ومن معه^(٢)، والنبيُّ لم يُغيَّر ولم يبدل في سلوكه، حينئذٍ بدأت تظهر ثمار الرحمة، التي وضع بذرتها في تلك البيئة، ورعاها حقَّ رعايتها، بأقواله، وأفعاله .

فقد تحركت الرحمة، في قلوب عددٍ من كبار المعارضين له، وقرَّروا إنهاء الحصار، وإلغاء العزلة.

(١) حسين حسيني معدي، الرسول في عيون غربية منصفة ص ٧٠.

(٢) السيرة النبوية ج ١ ص ٤٣٠.

خرج نبيُّ الرحمة ﷺ ومن معه منتصرين، حين تعاطف معهم كثيرٌ من الناس داخل مكة وخارجها، بسبب ما أصابهم، وشعر أعداؤه بالحرَج والهزيمة، لأنَّ قسوتهم هُزمت أمام رحمة النبيِّ ﷺ ومسالمته، فكانت نتائج هذه القسوة عكسيَّةً عليهم.

لقد أوجد نبيُّ الرحمة ﷺ بيئةً تنمو فيها الرحمة، لتصبح ثقافةً تنتشر بين الناس، ونجح في جعل الرحمة وسيلةً للحفاظ على أصحابه، واستخدامها سلاحًا، انتصر فيه على أعدائه في مواطنَ عدَّةٍ، كما رأيتم، وهو مسلِّكٌ لم يكن معروفًا لدى الناس من قبل .

فقد ذكرَ رواةُ الحديث حديثًا، أجمعوا على صحَّته، جاء فيه: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ مَلَكًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ﷺ بَعْدَ أَنْ اشْتَدَّ تَكْذِيبُ قَوْمِهِ لَهُ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَهْلِكَهُمْ جَمِيعًا، فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ هَذَا بِشِدَّةٍ»^(١).

«وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ أَنْ رَجَعَ مِنَ الطَّائِفِ حَزِينًا، بِسَبَبِ مَا أَصَابَهُ مِنْ أَهْلِهَا، أَرْسَلَ اللَّهُ جَبْرِيْلَ مَعَ مَلِكِ الْجِبَالِ، فَقَالَ الْمَلِكُ، لَوْ شِئْتَ يَا مُحَمَّدُ أَطْبِقْ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» .

فلو كان تبدُّل الموقف منوطًا بالقوَّة، لتبدَّل موقفُ النبيِّ ﷺ حالًا، بعد أن أمدَّه الله تعالى بهذه القوَّة الخارقة.

سعى نبيُّ الرحمة ﷺ منذ بداية أمره، إلى وضع معالم، لما يمكن أن تسمَّى بمصطلحات العصر (نظريَّة أخلاقيَّة في مجال الرحمة)، وهذا ظاهرٌ من خلال الأقوال والممارسات التي صدرت عنه، وأحسبُ أنَّي قادرٌ على بيانها من خلال المظاهر التالية:

(١) وأصل الحديث في مسلم، وهو طويل، انظر أصل الحديث في صحيح مسلم، باب ما لقي النبيُّ من أذى، حديث رقم (١٧٩٥).

لقد كان يذكرُّ أتباعه على الدوام، بأنَّ الله تعالى رحمنٌ رحيمٌ، وحسبنا أن نعرف أن المسلم يردّد: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] في اليوم قرابة ثلاثين مرّةً، في صلوات الفرض والتطوّع، عندما يقرأ الفاتحة في كلّ ركعة من صلاته، والتذكير برحمة الله، يحمل المسلم على التخلُّق بها .

ومن مظاهر رحمته سبحانه بمخلوقاته جميعاً، أنّه أنزل من السماء جزءاً من رحمته إلى الأرض، من أجل هذه المخلوقات، يقول النبيُّ ﷺ: «جعل الله الرحمة في مائة جزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها خشيةً أن تصيبه»^(١).

إنّ في التنويه برحمة الفرس لولدها، إشارةً لطيفةً إلى تراحم الحيوانات، والناس أولى وأحوج لهذا التراحم، لأنهم أشدُّ فتكاً ببعضهم حين تغيب الرحمة، وتحلّ القوة والكراهية .

وقد حرص نبيُّ الرحمة ﷺ على تذكير أتباعه بمنزلة الرحمة، وأهميتها، والتأكيد على أنّها ليست خلقاً تكميلياً جمالياً، بل هي خلقٌ لازمٌ واجبٌ، فكان مما قاله في هذا المقام: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»^(٢)، وقال لهم أيضاً: «الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء»^(٣).

مما يحسّن التنويه إليه، في هذا المقام، أنّ النبيَّ ﷺ كان يسعى إلى نشر ثقافة الرحمة على أوسع نطاقٍ، بين الناس، ولم يكتفِ من أصحابه بالرحمة الخاصة، التي تكون لا محالة بين أبناء الأسرة الواحدة، وبين الأقارب، والأصدقاء الخُصّ، فهذه رحمةٌ محمودة، ولكن يحتمل أن يكون لها دوافع أخرى.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٠٠٠).

(٢) صحيح مسلم الحديث، حديث رقم (٣٢١٩).

(٣) رواه الترمذي، حديث رقم (١٩٢٤)، قال الألباني: «صحيح».

ها هو النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبيل هذا المفهوم، يقول لأصحابه: «لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»^(١)، وهذا توجيهٌ حسنٌ، يسهم في نشر ثقافة الرحمة بين الناس، من حيث هي خلقٌ مستحبٌ، وقيمةٌ إنسانيةٌ عظيمةٌ.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفاضل بين أصحابه، بقَدْرِ تمثُل الرحمة في نفوسهم، ويجعلها ميزةً لهم، فها هو يقول: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»^(٢)، ويقول النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موطن آخر: «أرحم هذه الأمة بها أبو بكر»^(٣).

وهذا تنويهُ من النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنزلة الرحمة، وبقيمتها حين كشف لأصحابه، أنَّها من مسوِّغات تفضيل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعليهم جميعاً.

وكانت ممارسة نبي الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الخلق، في شؤون حياته كلها، دونما تكلفٍ أو تصنع، فقد زار قبر أمه، وجلس عنده، فبكى بكاءً شديداً، والصحابة حوله^(٤).

وذكر أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد الصحابة المقرَّبين منه، قال: «كنا عند النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه، وتخبره أنَّ صبيّاً لها، أو ابناً لها في الموت، فقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارجع إليها فأخبرها أنَّ الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجلٍ مسمًى، فمُرَّها فلتصبر ولتحتسب، فعاد الشخص وقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّها قد أقسمت لتأتيها.

(١) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، انظر المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح، ص ٧٧٩.

(٢) حديث صحيح، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ٣، ص ٢٢٣.

(٣) حديث صحيح، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٢٣.

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم (٩٧٦).

قال: فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، وانطلقت معهم، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شتة^(١)، ففاضت عينا الرسول ﷺ، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء^(٢).

إن سؤال هذا الصحابي الذي يحمل شيئاً من التعجب، ليدل على أن الثقافة السائدة آنذاك تستهجن أن يبكي العظيم، لأنه قد يصغر في عين قومه، فوجدها النبي ﷺ فرصة مواتية لتصحيح المفاهيم.

لقد صعب على النبي ﷺ أن يحضر هذا الموقف؛ لأنه لا يحتمل أمثاله، رحمة منه بهذا الطفل، ورحمة منه بأمه، ولكن لما حضر بكى لهذا الموقف المؤثر، وبعض أصحابه ينظرون إليه، فوجدها فرصة مناسبة ليبين لهم أن هذا الموقف يستدعي البكاء الدال على الرحمة، والله الرحيم يكافئ الرحيم من عباده فيرحمه.

وعندما توفي ولده إبراهيم دمعت عيناه لفراقه^(٣)، إضافة إلى مواقف أخرى تكرر منه ذلك، والصحابة ينظرون، ويشاركونه البكاء فيها، بكل عفوية وصدق. إنها دعوات واضحة من النبي ﷺ إلى ضرورة التفاعل الإيجابي، مع المواقف بما يناسبها، وإلى التحذير من الاتصاف باللامبالاة، والقسوة والجمود.

ونذكر في هذا المقام شهادتين لاثنتين من كبار زعماء العرب الذين كانوا من أشد خصوم نبي الرحمة ﷺ، وقد شهدا هذه الشهادة قبل إسلامهما، وهما أبو سفيان بن حرب، وعروة بن مسعود الثقفي.

(١) السنة: قرية الماء.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٩٢٣).

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣١٥).

فقد قال الأول: « ما رأيت من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً^(١)، أمّا عروة الثقفي فقد قال ما نصُّه، وهو يخاطب قريشاً: « والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قطُّ يعظّمه أصحابه مثل ما يعظّم أصحابُ محمدٍ محمداً^(٢)».

لهذا الحبِّ، آثاره وثماره، فلقد كان أصحابه شديدي الحرص على متابعتهم، فيما يصدر عنه، من قولٍ أو فعلٍ، وكانت لديهم رغبةً شديدةً في التشبُّه به، في كلِّ أحواله، وأحسب أن خُلِقَ الرحمة في طبيعتها. فقد حذّر أتباعه من قسوة القلب، وعَرَّضَ بمن يُعَرِّضُ عن الرحمة، وشدّد عليه بالقول، مهما كانت منزلته.

رحمته ﷺ بأتباعه:

لم يستغلَّ نبيُّ الرحمة ﷺ أصحابه الاستغلال الذي يؤدِّي إلى تحميلهم ما لا طاقة لهم به، ولم يكن ينظر إليهم على أنَّهم وقودٌ لمعركة، أو وسائل لتحقيق أهدافٍ رحمةً بهم؛ لأنَّهم بالنسبة إليه هم المعركة التي يقاتل من أجلها، وما هم بوقودٍ لها، وهم الهدف، وما كانوا يوماً وسيلةً بيده، بالمعنى الذي نرى آثاره السلبية في سيرٍ كثيرٍ من القادة العظماء.

فإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فإنَّه كان شديد الحرص على التخفيف عنهم، وإظهار رحمته بهم، في كلِّ أمورهم اليومية، على الرغم من شعوره الأكيد بشدَّة محبة أصحابه له، وقوَّة رغبتهم في طاعته، ومتابعتهم في كلِّ ما يصدر عنه، من أقوالٍ أو أفعالٍ.

لقد جعل الرحمة بكلِّ مظاهرها سمةً بارزةً في كلِّ شؤون حياتهم، سواءً ما اتصل بها بعلاقاتهم مع ربِّهم سبحانه وتعالى، أو بعلاقاتهم مع النبيِّ ﷺ،

(١) انظر سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٤٥، طبقات ابن سعد، ج ٢، ص ٥٦.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٧٣٢).

أو بعلاقات بعضهم مع بعض، أو حتى بعلاقاتهم مع أقاربهم من غير المسلمين. إنَّ أوَّل مظاهر هذه الرحمة هو الترغيب فيها، عبر نصوص واضحة دائمة، ليستقرَّ في الأذهان، وعلى مرَّ الأزمان، أنَّها هي طوقُ النجاة، وليس لأحدٍ تجاوزها، أو تجاهلها. وقد يتعذَّر علينا إيراد النصوص جميعها، ولكن حسبنا ما يتَّسع له المقام.

فمنها قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وإثبات اليسر، ودفع العسر، من أبرز مظاهر الرحمة.

وكذا قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وأية رحمة أعظم، وأظهر من تلك التي تؤدِّي إلى رفع الحرج، والضيِّق، عن أتباع نبيِّ الرحمة ﷺ.

والتخفيف من الله تعالى رحمةً ظاهرةً: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، أيًّا كانت صور هذا التخفيف ومظاهره.

ولقد أبلغ الله تعالى المسلمين، والنبيَّ ﷺ من قبل، بأنَّ نبيَّهم رؤوفٌ رحيمٌ بهم، في قوله تعالى في وصف النبيِّ الكريم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

يقول أهل التفسير، في معنى هذه الآية: الرأفة هي دفع المضارِّ، والرحمة هي جلب المسارِّ، بمعنى أنَّ الرأفة مقدمةٌ، فهي من باب التحلية، ثم تكون الرحمة التي تجلب النفع، فهي إذن من باب التحلية^(١)، والمراد بالتحلية إزالة الشوائب والأضرار، والمراد بالتحلية تزيين النفس بالخير وما ينفعها.

وقال بعضهم، الفرق بين الرأفة، والرحمة، أنَّ الرأفة مبالغةٌ، فهي رحمةٌ خاصَّةٌ، وهي دفع المكروه، وإزالة الضرر، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ

(١) انظر: أبا البقاء الكفوي، الكلبيات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ج ١، ص ٤٧١.

في دين الله ﴿النور: ٢﴾، أما الرحمة: فاسمٌ جامعٌ يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإفضال والإنعام^(١).

لقد جمع الله تعالى لنبِيِّ الرحمة ﷺ هذين الوصفين، بهذا الأسلوب، ليكشف بجلاء عن الحكمة البالغة، التي من أجلها وصف بهما النبي ﷺ، وأنهما وصفان يعثان الأمن والطمأنينة، في نفوس أتباع النبي، لأنهم يشعرون أنهم يعيشون في كنف من كلفه ربه أن يكون رؤوفاً رحيماً، وأن يعمل بمقتضى هذين الوصفين، فيدفع عن أتباعه الضرر والأذى والحرَج، ويجلب لهم الأمن والخير والسعادة.

لقد استشعر النبي ﷺ هذا المعنى العظيم، وهذا الوصف الكريم، فقالها صراحةً لأصحابه: «إنما أنا رحمةٌ مهداة»^(٢).

وأنا أرى أن كلمة (مهداة) في هذا الحديث، تُشعر الإنسان بجمال الرحمة، وبمدى حاجة البشرية إليها، حتى كأنها ممَّا يُهدى لمن يُحبُّ، فالله يحبُّ خلقه، ولهذا أهدى إليهم النبي محمدًا ﷺ الذي استحضر هذا المعنى العظيم، وعمل على تطبيقه، ويؤكدُ النبي ﷺ هذا الوصف في موطنٍ آخر فقال: «وإنما بعثتُ رحمةً»^(٣).

هذان الحديثان الصحيحان يدلان أن ثمة اتحاداً، أو تلازماً، لا ينفك بين الرحمة بكلِّ مظاهرها، وبين شخصِ نبِيِّ الرحمة ﷺ فلا يتصور والحالة هذه، أن يصدرَ عنه قولٌ، أو فعلٌ، لا تكون الرحمة أبرز سماته.

إن هذه الرحمة، بكلِّ صورها، ومظاهرها، ليست خاصةً بتلك الفئة التي تحيط بالنبي ﷺ، إذ قد يُنوّهم أنه خصَّهم بهذا الوضع المتميّز، لاعتبارات

(١) انظر التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤٤١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک، ج ١، ص ٣٥، سبق تخريجه وأصله في صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٥٥) بلفظ: «أنا نبي الرحمة».

(٣) رواه مسلم، حديث رقم (٢٥٩٩).

لا تخفى، تملئها الصحة والمعاشة، والرغبة في استبقائهم، والإفادة منهم، وما شابهها .

إنَّ كلُّ ما نَعِمَ به أصحابه من رحمة، كان لكلِّ من جاء بعدهم النصيب الأوفى منه، وهذا ما تؤكده عموميات الأقوال والتوجيهات والأفعال .

ولقد حدث مرّة أنّ بعضهم سأل النبي ﷺ عن هذه المسألة بالذات، فكان سؤاله نعمةً لأنَّ الجواب جاء بشريّ.

وبيان هذا، أنّ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، أصاب من امرأةٍ قُبلةً، فأتى النبيّ، فأخبره، فأنزل الله عز وجل ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤، ١١٥]، فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا؟ قال: «لجميع أمّتي كلهم»^(١).

إنَّ النبيّ ﷺ بهذا الإعلان الذي يفيض رحمةً، ليؤكد أنّ شفقتة على أتباعه عبر مئات السنين القادمة، لا تقلُّ عن شفقتة ورحمته بأولئك الذين يعيشون معه، ويشاهدونه صباح مساء.

صاحبت الرحمة تكاليف العبادة كلّها، وكانت الرحمة تحدّد طبيعة هذه العبادات، وتوجّهها.

إنَّ الرحمة قد تُسقط التكليف كليّةً عن الشخص، وتعفيه منه، فإنَّ فريضة الجهاد، تُسقط عن أصحاب الأعذار، كالمريض والأعمى والأعرج .

وهذا الحكم يسجّله قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

(١) أخرجه البخاري، حديث رقم (٥٢٦)، وانظر الروايات من طرق «عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن عبدالله بن مسعود» تفسير الطبري: جامع البيان ١٢/١٣٤-١٣٥.

وكذلك يَسْقُطُ الْحَجُّ، وهو الركن الخامس، عن الذي لا يستطيع أداءه، وهو ما بيّنه قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

كما يسقط حكم التحريم، عن الأشياء المحرّمة، عند الضرورة، (فالضرورات تبيح المحظورات)، بشرط عدم نقصانها عنها، ليخرج ما لو كان الميّت نيّاً فإنّه لا يحلُّ أكله للمضطر؛ لأنّ حرّمته أعظم في نظر الشرع من مهجة المضطرّ، وما لو أكره على القتل أو الزنا، فلا يباح واحدٌ منهما بالإكراه؛ لما فيه من المفسدة التي تقابل حفظ مهجة المكره، أو تزيد^(١).

فمن لم يجد إلاّ الطعام المحرّم، والشراب المحرّم، إن لم يتناوله عرض نفسه للهلاك، فله أن يأكل منه، ويشرب، وفي بيان هذا الحكم يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، إنها الرحمة تكمن وراء هذه الأحكام، ولكن لا يحلُّ له تناول ذلك، وهو يجد ما لا.

إنّ الرحمة قد تُسقط جزءاً من التكليف، مثل قصر الصلاة للمسافر، فإنّ الصلاة الرباعية، تصبح ثنائية: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

وإنّ الرحمة قد تُرجى القيام بهذا التكليف، إلى وقتٍ مناسبٍ لظروف الشخص المكلف به، مثل الصيام بالنسبة للمريض والمسافر، فحيث إنّه شاقٌّ على هذين الصنفين، فإنّ الله رحمةً منه أذن للمسافر وللمريض أن يؤخّرا الصوم إلى وقتٍ، تزول فيه الأسباب التي يشقُّ معها أداء هذا الركن.

وإنّ الرحمة تتجلّى عند استبدال عملٍ يسيرٍ بآخر عسيرٍ، فالمسافر الذي لا يجد

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨٤، ط أولى، دار الكتب العلمية ٣/٤/١٩٨٣م.

ماءً للتطهر به، والمريض الذي لا يستطيع استعمال الماء نظرًا لوضعه الصحي، أجاز الشرع لهما التيمم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

كذلك بالنسبة إلى الصيام، فإن عجز الشخص المكلف عن الصيام، إمَّا لكبر سنه، أو لمرض دائم يلازمه، يقدم طعامًا لأحد المساكين، عن كلِّ يوم صيام، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ولا يخفى علينا ما في هذه المراتب من مظاهر للرحمة، بادية للعيان، بل إننا نعتقد أنَّ الرحمة كانت وراء كلِّ هذه الأحكام، التي يُسرُّ بها الإنسان. إنَّ الحاجة تدعو إلى بيان أنَّ رحمة النبي ﷺ، إنما هي بناءً متكامل الأركان، له أسسه ومظاهره، ويحمل في داخله عوامل بقاءه، ويغري الناس في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى التوجُّه إليه، والتفاعل معه.

بخلاف ما رأينا من مظاهر رحمة، ارتبطت ببعض العظماء، والتي لم تعد أن تكون كلمة عابرة، أو موقفًا أنيًّا، أو سلوكًا شخصيًا، لا تقوى على البقاء، ولا تسهم في البناء الحضاري للبشرية.

وتحسُّن الإشارة هنا، إلى أنَّ النبي ﷺ لم يكتفِ ببيان هذه الأحكام لأتباعه، وإنَّما حرص على الترغيب فيها، بالقول، حين قال لأصحابه، وهم يسألونه عن إحدى الرخص في العبادات: «صدقةٌ تصدق بها عليكم فاقبلوا صدقته»^(١).

وبالفعل كذلك، حين كان مسافرًا مع أصحابه في رمضان، فدعا بماء، فرفعه

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٦٨٦).

بيديه إلى أعلى، حتى يراه الناس، ثم شرب منه. وكأنَّ الهدف ترغيب النفوس، وحمْلُها على الرحمة حملاً؛ لتصبح سجيّة لها.

إنَّ هذا المنهج، الذي سلكه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نابعٌ من شدّة رحمته بأصحابه، وبمن سيأتي بعدهم، حتى لا يشدّد أحدٌ على نفسه، ويتوهّم أن ترك هذه الرخص أفضل.

وهو ما دفع النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عدم الاقتصار على بيان الحكم فقط، وإنما تابع تنفيذه بوسائل عدّة، وغضب أحياناً، وعتب على من لا ينعم بهذه الرحمة المهداة من الله الرحيم على لسان نبيّه الذي هو رحمة مهداة أيضاً، وهل تهدي الرحمة إلا ممّن هو رحمة.

رأى نبيُّ الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً كبيراً في السن، يمشي بصعوبة، وهو يتوكأ على ولديه، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما بال هذا الشيخ؟» قالوا: لقد نذر وقرّر أن يحجّ ماشياً، فأنكر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المسلك، وقال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنيّ، وأمره أن يركب»^(١).

ثمَّ إنَّ يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إنَّ الله يقول: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]، وقد أمن الناس. فقال له عمر: عجبْتُ ممّا عجبت منه، فسألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «صدقة تصدّق بها عليكم، فاقبلوا صدقته»^(٢).

ذلك أنَّ التخفيف في بداية الأمر من عدد ركعات الصلاة، كان بسبب خوف المسلمين من أعدائهم في أثناء السفر، أو القتال.

كان بعض الصحابة يتوقّع أن يلغى هذا الحكم بعد أن زال خطر أعدائهم،

(١) رواه البخاري، حديث رقم (١٨٦٥)، وهو بنحوه في صحيح مسلم، حديث رقم (١٦٤٣).

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٦٨٦).

وأصبحوا آمنين ، لأنَّ الأصل أن تزول رخص الأحكام بزوال عللها^(١).

لكنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لهم ، حتى بعد الأمن ، وزوال الخطر ، فإنَّ الحكم باق على حاله ، صدقةٌ من ربكم ، وهديةٌ لكم رحمة منه ، وهو ما يؤكِّد أنَّ الرحمة مقصودةٌ لذاتها في التكاليف الشرعية.

إنَّ التدرج في التشريع من أبرز مظاهر الرحمة ، التي تشد الانتباه وتشير الإعجاب في سيرة نبي الرحمة ﷺ ، فإنَّ فِعْلَ (دَرَجَ) في اللغة يعني : البدء بالمشي قليلاً قليلاً ، ولهذا يقولون درجَ الطفل ، عندما يبدأ يتعلم المشي ، ويخطو خطواته الأولى ببطءٍ وحذر^(٢).

من هذه الدلالة ، نأخذ المعنى الذي نقصده ، فنعني به (التقدّم بالمدعو شيئاً فشيئاً للبلوغ به إلى غاية ما طلب منه ، وفق طرقٍ مشروعةٍ مخصوصةٍ)^(٣).

والمتابع لتوجيهات نبي الرحمة ﷺ لأتباعه ، يرى بكلِّ وضوحٍ منهج التدرُّج هذا ، فلقد كان يأخذ بأيديهم ، كما تأخذ الأم الحنون بيد ولدها ، وهي تعلِّمه المشي في خطواته الأولى.

إذا كانت الرحمةُ هي التي دفعت الأمَّ إلى التلطف مع ولدها ، وهي تعلِّمه المشي خوفاً عليه ، وترفقاً به ، وهذا لا خلاف فيه بين الناس جميعاً ، فاعلموا أن الرحمة نفسها هي التي حملت النَّبِيَّ ﷺ على أن يتدرَّج مع أصحابه في الأحكام.

ليس يخفى علينا أنَّ العادة عندما تتحكَّم في الإنسان ، يكون من العسير عليه التخلص منها ، أو حتى إدخال تعديلات عليها ، ويبدو أن الأمر كما قال

(١) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام ٤/٢ دار الكتب العلمية.

(٢) انظر المعجم الوسيط، ج ١، ص ٢٧٧، د. إبراهيم أنيس وآخرون بتصرف.

(٣) التدرج في دعوة النَّبِيِّ ﷺ، ص ١٧، إبراهيم المطلق، ط ١، ١٤١٧، مركز البحوث والدراسات الإسلامية.

بعض من كتب في علم الأخلاق: بأنَّ العادة تغرس جذورها عميقةً في الجهاز العصبي^(٤).

وهذا يعني أنَّ التدرّج في التشريع، هو تدرّج في التربية الأخلاقية. فقد جاء نبيّ الرحمة ﷺ بهذا الدين، وما تضمنه من تكاليف، وتوجيهات، والبشرية كلّها أسيرة عاداتٍ، وضحية شهوات، شبَّ على بعضها الصغير، وشاب عليها الكبير. فكان لا بدَّ والحالة هذه، من أخذ هذا الوضع بعين الاعتبار، حين العمل على تصحيح المسار، الذي كانت تسلكه البشرية التائهة بلا وعي.

ولمّا كان يصعب علينا تتبع مظاهر التدرج في المنهج النبويّ، لكثرتها وتنوعها، فإني استأذنكم في الاختصار على قضية واحدة، وأحسبها دليلاً واضحاً، على ما ذهبنا إليه، تلكم هي قضيةُ تحريم الخمر.

إنَّ الخمر آفة كلِّ عصر، فالخمر عادةٌ سيئةٌ، بكلِّ المقاييس، لم تكد تسلّم منها المجتمعاتُ منذ القدم، فقد تنقلت على مدى الزمن، من جيل إلى جيل، وغرست جذورها عميقةً في الجهاز العصبي، بل وفي كيان أولئك الذين مردوا عليها، وأدمنوها^(٥).

ظهر نبيّ الرحمة ﷺ في بيئته، تعظم الخمر وتفاخر بتعاطيه، ويمكن القول: بأنّه لم يكدّ يسلم أحد من رجالها من تعاطي الخمر، إلّا أشخاصاً معدودين على الأصابع، حفظ التاريخ لنا ذكرهم، بسبب مخالفتهم لقومهم، وخروجهم على المألوف في حياتهم.

وأحفظ من هؤلاء أبا بكر الصديق رضي الله عنه، الخليفة الأول للنبي ﷺ، فإنّه لم يشرب الخمر في حياته، لا في جاهلية، ولا في إسلام.

(٤) دستور الأخلاق في القرآن، ص ٨٣، د. دراز.

(٥) دستور الأخلاق في القرآن، ص ٨٣، د. دراز.

ولا أدلُّ على تمكُّن الخمر من النفوس، وتحكُّمها في مدمنيها، من قصة الشاعر الكبير الأعشى، فقد أُعجب بدعوة نبيِّ الرحمة ﷺ وقرَّر السفر إليه، وإعلان إسلامه، فخشيت قريشُ إن أسلم أن يمدح النبيَّ ﷺ بقصيدة، تجعل الناس يسارعون إلى الإيمان به، لشهرة هذا الشاعر.

فقرَّر أهل قريش، إغراءه حتى يعدل عن رأيه، فقابله أبو سفيان، زعيم قريش آنذاك .

وقال له: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردت صاحبكم هذا لأسلم .

قال أبو سفيان: إنَّه يحرم عليك أمورًا إن أسلمت، قال: ما هي؟.

قال: الزنا .

قال: لا حاجة لي به .

قال: ثم ماذا؟.

قال: يحرم عليك القمار .

قال: لعلِّي إن لقيته آخذ منه ما يعوضني عن القمار .

قال: وينهى عن الربا.

قال: ما دنت ولا أدنت، فلا يعنيني هذا الأمر.

قال أبو سفيان: فإنه يحرم الخمر .

وهنا توقَّف الأعشى، وقال: أوه، أرجع إلى بلدي، فأشربها بقيَّة السنة، ثم آتته، فعاد إلى بلده، فمات في الطريق^(١).

إنَّ الله تعالى الرحيم بخلقه، ينزل على نبيِّ الرحمة ﷺ دينًا، تكون

(١) انظر البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٥٠.

من أبرز غاياته، تحريم الخمر، ولكن ما السبيل إلى تحريمه، وتخليص المجتمع من أضراره، التي لا تعد ولا تحصى؟.

الرحمة تقتضي تحريمه، والرحمة نفسها تدعو إلى النظر في مكانة الخمر في نفوس الناس، فكان لا بد من اتباع خطة محكمة في سبيل تحقيق هذا الهدف السامي، لا يكون من معالمها إصدار حكم فوري، وقطعي بتحريمها، إذ لو حصل هذا، لما أمكن حمل الناس على العمل به.

وهذا ما أدركته السيدة عائشة زوج النبي ﷺ حين قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه - أي من القرآن - سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً...»^(١).

يكشف لنا حديث السيدة عائشة، عن أمر ذي أهمية، ظاهرة يشهد له الواقع، وتؤيده الوقائع، وهو تأخر نزول الآيات التي تتضمن الحديث عن التكاليف، والحلال والحرام، إلى أن تمكن الإيمان من النفوس، واطمأن الناس إلى هذا الدين، واستشعرت قلوبهم مدى رحمة النبي ﷺ بهم، وشدة حرصه عليهم.

كثر الحديث في بداية نزول القرآن، عن الثواب والعقاب، فرغب في خمر الجنة، وحببه إلى النفوس، حين وصفه القرآن بأنه يخلو من السلبيات الموجودة في خمر الدنيا، قال تعالى: ﴿ فِي جَنَّاتٍ التَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَدَّةٍ لِّلشَّرِبِينَ ﴿٤٦﴾ [الصفات: ٤٣-٤٦].

فالخمر في الجنة لا تذهب بالعقول، ولا تُفسد الأجسام، ولا تغتال صاحبها، وتقتضي عليه^(٢)، فهي في الجنة شرابٌ لذيذٌ: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٩٣).

(٢) محاسن التأويل، ج ٨، ص ٨٩ بتصرف، جمال الدين القاسمي، ٢٠٠٣م، دار الحديث، القاهرة، تحقيق أحمد بن علي وحمدي صبح.

مِنْ مَاءٍ غَيْرِ عَاسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَدَّةٍ ﴿[محمد: ١٥] .

والملاحظ هنا أن الآيات مدحت خمر الجنة، لكنّها لم تدمّ خمر الدنيا، ولعلّها تركت المقارنة لأصحاب النبي ﷺ الذين يسمعون هذا الكلام. خطأ القرآن الكريم بعد هذا خطوةً أخرى، ونرى كثيراً من العلماء يعدونها الخطوة الأولى في رحلة التحريم.

يقول العلامة دراز: «تمت الخطوة الأولى في هذه الطريق في كلمة نزلت بمكة، كلمة واحدة مسّت المسألة مسّاً رقيقاً .

فمن بين الخيرات التي استودعها الله في الطبيعة، يذكر القرآن «ثمرات النخيل والأعناب» ويضيف إليها: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

فهو لم يقصد إلا إلى الموازنة، بين السكرِ والثمرات الأخرى، التي يصفها بأنّها حسنة، دون أن يصف هذا السكر نفسه، وبذلك صار لدى المؤمنين دافع إلى الإحساس ببعض التحرّج والوسوسة تجاه هذا النوع من الشراب^(١).

وقد وُظف القرآن الكريم حادثة، ذكرها أهل الحديث والتفسير^(٢) مفادها أن الصحابيَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه صنع طعاماً، ودعا الناس إليه، وقدم إليهم خمراً فشربوا، ثم حانت الصلاة فقدّموا أحدهم ليصلي بهم، فأخطأ في قراءة القرآن، بسبب شربه للخمر، فأنزل الله تعالى عندها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

فالله تعالى لم يوجّه في هذه المرحلة إلى عدم الشرب، وإنما نهى عن القرب من الصلاة حال الشرب.

(١) دستور الأخلاق، ص ٨٣، مرجع سابق.

(٢) الترمذي - كتاب التفسير - حديث رقم (٣٠٢٦)، قال الألباني: «صحيح».

جاءت هكذا الخطوة الثانية، لمحاصرة الخمر، وتضييق الوقت على من يرغب في تناولها، فإنَّ الصلوات لم يعد يناسبها شرب الخمر، والصلوات تكاد تغطي اليوم واللييلة .

(وهكذا كان هذا التحريم الجزئي، غير المباشر منهجاً علمياً لتوسيع فترات انقطاع التأثير الكحولي، وفي نفس الوقت تقليل رواج الأشربة، وتجريدها من سوقها بالتدرُّج، دون إحداث أزمة اقتصادية، بالتحريم الشامل المفاجئ)^(١).

بدأت علاقة الصحابة بالخمر في الانحسار، بعد أن جعلها القرآن مضادةً للصلاة، وبعد ما فرض عليها من حصار، مما جعل بعضهم يتساءل عن حكمها، فجاء الجواب من الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

هذا النصُّ القرآني صريح، في أن مضارَّ الخمر أكثر من منفعه، واسمحوا لي أن أذكر لفتاتٍ جميلةً في هذه الآية .

فقد قدّم الإثم على النفع، كأنه هو الأصل، ووصف الإثم بأنه كبير، ولم يصف المنافع بشيء، وهذه نفحاتٌ من رحمتٍ، لأنها تُسهّم في التنفير من الخمر. وبدأ أن الأمر يتضح لدى الصحابة، وبدأ ينمو لديهم شعورٌ، بالنفور من الخمر، ما دامت هذه حالها، وكانوا يتوقعون في أية لحظة حكماً صريحاً بتحريمها، بعد ما تقدم من إرهاصات، حتى وجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة الثاني للنبي نفسه، وهو يرفع صوته بالدعاء قائلاً: (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً)^(٢).

لقد دلّت بعض الروايات أن الصحابة بدأوا بالتخلُّص من الخمر قبل نزول تحريمها، حتى قال عبد الله بن عمر: (لقد حرّمت الخمر وما بالمدينة منها

(١) دستور الأخلاق، ص ٨٤، ٨٥، د. دراز.

(٢) انظر التحرير والتنوير، ج ٧، ص ٢١.

شيء^(١)، وهو قطعاً لا يقصد التعميم الكامل، ولكن يفهم منه أنّ الخمر لم يُعد لها وجود، كما كانت من ذي قبل، كأنّهم اجتنبوها قبل أن يُطلب منهم هذا.

بدأ الصحابة وكأنّهم على موعدٍ مع حكمٍ ما، قادم إليهم، وقد تهيأت نفوسهم لقبوله، بل تشوق إليه، وكأنّها تطالب به، إنه التحريم.

وقد كان فعلاً حين نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

لقد تمّ التحريم، وتمّ الاجتناب، بطريقة غاية في العجب، آية في دقة التنفيذ، وسرعة الاستجابة.

وينقل لنا الصحابيُّ أنس بن مالك الصورة كاملةً، لهذا الحدث العجيب المهيّب، قال ﷺ: «كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح، وأبا طلحة الأنصاريّ، وأبيّ بن كعبٍ شراباً من فضيخٍ وتمر، قال: فجاءهم آت، فقال: إن الخمر قد حرّمت، فقال أبو طلحة: يا أنس، قم إلى هذه الجرارِ فاكسرها، قال: فقامت إلى مهراسٍ - يعني حجراً - لنا فضربتها بأسفلها حتى كسرت»^(٢).

وفي روايةٍ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً: ألا إنّ الخمر قد حرّمت، فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة^(٣).

وللعلامة الدكتور دراز تعليقٌ جميلٌ، فيقول: «هذا المسلك اليسير المتدرّج، يدعونا إلى أن نتذكر الطريقة التي استخدمها الأطباء المهرة، لعلاج مرضٍ مزمنٍ، بل أن نتذكر بصفةٍ عامة، المنهج الذي تلجأ إليه الأمهات لفظام أولادهنّ الرضع.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٥٧٩).

(٢) رواه مالك في الموطأ ٢/٨٤٦، حديث رقم (١٣).

(٣) انظر البخاري، كتاب المظالم، حديث رقم (٢٤٦٤).

ذلك أنّ هذه الوسائل، التي خلت من العنف، والمفاجأة، تدعو الجهاز الهضمي إلى أن يغير نظامه شيئاً فشيئاً، ابتداءً من أخفّ الأطعمة، حتى أعسرها، ماراً بجميع الدرجات الوسيطة .

ألا ما أعظم رحمة الله، التي ترفقت بالعباد، على نحوٍ لم يبلغه فنُّ العلاج، ولا حنان الأمهات^(١) .

ما أجمل هذا القول، وما أصدقّه .

وفي صورة مقابلة، فقد صدر سنة ١٩٣٣، قانون تحريم الخمر في أمريكا، وألحق بالدستور المادة الثامنة عشرة الإصلاحية، التي تتضمن هذا التحريم، والإجراءات التي ينبغي اتخاذها لتنفيذه، وما إن صدر القانون حتى نشطت تجارة الخمر السريّة.

صارت تباع أنواع من الخمر مضرّة بالحياة، وانتشرت الأماكن السريّة التي تصنعها، وتبيعها، وازدادت مراكز البيع غير القانوني، فقبل قانون التحريم، كان عدد مصانع الخمر قرابة أربعمئة مصنع، وبعد سبعة أعوام من تحريمه، صار عدد هذه المصانع قرابة ثمانين ألف مصنع.

وانتشر شرب الخمر بين جميع فئات الشعب، وشمل جميع مناطق البلاد، بما فيها القرى، والأرياف، وتضاعدت أرقام الجرائم، والحانات.

وفقاً لإحصاءات ديوان القضاء الأمريكي، فقد تمّ تنفيذ حكم الإعدام في قرابة مئتي شخص، وزادت الجرائم بين الأطفال، حتى أعلن قضاة أمريكا: أنه لم يكن من المعهود سابقاً أن يُقبض على هذا العدد من الأطفال في حالة السكر، ولقد دلت تقارير الشرطة أنّ عدد المدمنين من الأطفال، ارتفع إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل التحريم، وتضاعف عدد الوفيات .

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص ٨٥.

وعلى أثر هذا الفشل، ونتيجةً لهذه الخسائر في الأرواح والأموال، تراجعت الدولة عن القانون، وسمحت بإنتاج الخمر، التي تقل نسبة الكحول فيها عن ٣٣٪.

ثم صدر في السنة نفسها، إعلانٌ رسميٌّ، ألغيت بموجبه المادة الثامنة عشرة، التي تحرم الخمر، وعاد الخمر كما كان، بعد تجربة فاشلة، خاضتها الحكومة الأمريكية، بكل إمكاناتها، مدّة أربعة عشر عامًا^(١).

وقد علّق أحدُ العلماء الأمريكيّين على هذا بقوله: " إنَّ قرارَ منع الخمر لم يُلغَ على أساس أنّ الخمرَ جيدةٌ، أو سيئةٌ ضارةٌ أو غير ضارة، إنّ القرارَ أُلغِيَ على أساسٍ واقعيٍّ هو أنّ المنع قد فشل^(٢)."

وإذا كانت الرحمةُ قد ظهرت جليًّا في التدرّج في تحريم الخمر، فإن الرحمة نفسها كانت أظهر في التحريم نفسه، فقد اكتشف العلماء الأضرار المرعبة التي تحدثها الخمر بالجسم، وبعض هذه الأضرار:

❁ إتلافُ خلايا المخ.

❁ إتلاف الكبد.

❁ هبوطُ عملية التنفس.

❁ انخفاضُ المناعة في الجسم.

❁ تؤدي إلى هشاشة العظام.

❁ الإصابة بقرحة المعدة والسرطان.

وغيرُ هذا من الأمراض الصحية التي لا يتسع المقام لسردها، إضافةً إلى الأضرار الاجتماعية والاقتصادية التي لا تخفى علينا، فكان هذا التحريم رحمةً بالناس.

(١) انظر: الخمر في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، ص ١٧٢، د. فكري عكار، ط ١، ١٩٧٧ م.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٥

إنَّ البشرية المعاصرة بحاجة ماسة إلى سيف الرحمة - المصاحب للتدرج - ،
الذي شهره النبي محمد ﷺ في وجه الخمر، حتى قضى عليها بكل لطفٍ ومحبةٍ.
إنَّ التدرج بالتشريعات والأحكام، كان سمةً بارزةً من سمات هذا الدين،
الذي بعث به النبي محمد ﷺ، فهو لم يقتصر على الخمر فقط، فقد كان التدرج
في أحكام أخرى مثل الصيام، والزكاة، وبعض المعاملات ومنها الربا .

كما يرى بعض العلماء أنَّ الصيام في أول الأمر كان اختياريًا، ثمَّ لَمَّا تَعَوَّد
الناس عليه، صار ملزمًا لهم، وأصبح الصيام فرضًا في قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ
مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والزكاة كذلك كانت في العهد المكي مطلقَةً من القيود، وكانت موكولةً
إلى إيمان الناس وشعورهم بواجب الأخوة نحو إخوانهم المؤمنين، فقد تدعو
الحاجة في ذلك إلى إخراج القليل من المال، وقد تدعو الحاجة إلى بذل الكثير^(١).
قال الشاطبي: «فإذا تعين جائعٌ فهو مأمورٌ بإطعامه وسدَّ خلته، بمقتضى ذلك
الإطلاق، فإن أطعمه ما لا يرفع الجوع عنه فالطلب باق عليه»^(٢).

وقال أيضاً: «فإنَّ التنزيلَ المكيَّ أمر فيه لمطلق إنفاق المال... ولم يبيِّن الواجب
من غيره، بل وكلَّ إلى اجتهاد المنفق، علماً بأن في المال حقاً سوى الزكاة، وهو
لا يتعيَّن تحقيقاً، وإنما فيه الاجتهاد»^(٣).

ثمَّ في السنة الثانية من الهجرة، صارت الزكاة فرضاً وركناً من أركان الإسلام،
بحدودها وشروطها، وأنصبتها، ومستحقيها.

(١) فقه الزكاة، ج ١، ص ٧٧ بتصرف، د. يوسف القرضاوي.

(٢) انظر: الموافقات في أصول الشريعة ١/١٥٧.

(٣) انظر: الموافقات في أصول الشريعة ٤/٢٤٠.

وهكذا تبدو الرحمة مصاحبةً لهذه الأحكام، والتشريعات، وكانت حاضرةً في كلِّ خطوةٍ خطاها النبيُّ محمدٌ ﷺ وهو يأخذ بيد البشرية للبلوغ بها إلى السموِّ الأخلاقيِّ.

ولا يخفى علينا ذلك التلازم والتكامل بين رحمة الله تعالى، حين شرع هذه الأحكام الرحيمة، وبين رحمة النبيِّ ﷺ الذي تلقاها، ليعملَ على تنفيذها بكلِّ لطفٍ ورحمةٍ .



المبحث الخامس

غزوات الرسول ﷺ وسراياه

بعد أن استقرَّ النَّبِيُّ ﷺ والمسلمون في المدينة، بدأ يتحرَّكُ بخطىٍ واثقةٍ، نحو بناء القوَّة اللازمة؛ لتحمي المجتمع الإسلاميَّ الفتِيَّ، والدولة الإسلامية الحاضرة للمسلمين، في واقع، تحكمه القوَّة، ويسود فيه الأقوياء .

وقد جاء تحرُّكه ليؤكِّد لكلِّ القوى المؤثِّرة في الجزيرة بل وخارجها - كالروم وفارس - إصراره على نشر الرسالة الإسلامية، وبناء الحضارة وفق تعاليم السماء . وكان للمسلمين من أدوات البناء ما لم يملكه غيرهم، فهم أصحاب عقيدة وفكرٍ، وطلابُ حقٍّ وعدلٍ، ومشرِّعو سلام وأمانٍ، وأهلُ سيفٍ وقاتلٍ .

وقد توفَّع رسول الله ﷺ أن قريشاً، ومن نصب له العدا، سيلجؤون لمحاولة استئصال المسلمين، ولو بعد حين، فكان طلبه من الأنصار في بيعة العقبة الثانية النصرَةَ والقتالَ .

كما أنَّ قريشاً هي التي تمادت في التعدي والظلم، بل وخرجت تتبَّع النبي ﷺ والمسلمين للقضاء عليهم، وفي مكة صادرت الأملاك ونهبت البيوتَ .

وكانت الرغبة لدى النبي ﷺ والمسلمين - المهاجرين خصوصاً - أن تدخل قريشٌ في الإسلام طواعيةً أو أن لا تمضي في غيِّها على أقلِّ تقدير .

من هنا بدأ النبي ﷺ يبعث (السرايا)، وهي عبارة عن مجموعاتٍ صغيرة تتحرَّك لتعلن عن وجودها وعدم استسلامها .

وإذا نظرنا إلى عدتها البسيطة، وعددها القليل الذي لا يتجاوز الستين فرداً،

وكلُّهم من المهاجرين، وليس فيهم من الأنصار الذين بايعوا على القتال والنصرة، ندرك أنَّها لم تكن مرشحةً للقتال، وإنَّما كانت هذه السرايا وسيلةً للضغط على قريش اقتصادياً^(١) أيضاً، لعلَّها تسمع نداء الحقِّ بأذن صاغية، وبقلب مفتوح، أو تهادنُ المسلمين فلا تتعرض لهم؛ لينتشر الإسلام في أطراف أخرى. وفي الوقت نفسه كان ينبغي إشعارُ اليهود والمنافقين بقوة الإسلام وهيبة المسلمين.

وهكذا بعد مضيِّ سبعة أشهرٍ على الهجرة المباركة، انطلقت أوَّلُ سريةٍ، وكان عدد أفرادها ثلاثين رجلاً، بقيادة حمزة عمِّ النَّبيِّ (صلى الله عليه وآله). ثمَّ تلتها سريةٌ أخرى بقيادة عبيدة بن الحارث. وسريةٌ ثالثةٌ بقيادة سعد بن أبي وقاصٍ.

وخرج النَّبيُّ ﷺ في صفر من العام الثاني للهجرة، على رأسِ مجموعة من أتباعه لاعتراض قوافل قريش، ولكن لم يحصل الصدام بين الطرفين في حركته نحو الأبواء وبُواط.

وفي خروجه إلى ذي العشيرة، فقد وادعَ بني مُدَلج وحلفاءهم من بني ضمرة. وتحركَ النَّبيُّ ﷺ لردِّ الاعتبار، ومعاينة المعتدي، حين أغار كرزُ بن جابر الفهريُّ على أطراف المدينة، لسلب الإبل والمواشي، فخرج النَّبيُّ ﷺ لملاحقته، وخلف زيد بن حارثة على المدينة^(٢).

وانطلق النَّبيُّ ﷺ في حركته العسكرية، من مفهوم الجهاد والتضحية من أجل الدين، بدلاً عن مفهوم العصبية والثأر، محترماً أعراف وتقاليد الصلح والموادعة وحرمة الأشهر الحرم، وجاءت غزواته التي قادها وسراياه التي بعثها على النحو التالي:

(١) المغازي: ١١/١ - ١٢.

(٢) راجع السيرة النبوية: ١ / ٤٩٤.

جدول غزوات الرسول ﷺ وسراياه

اسم الغزوة	تاريخها	مكانها
الأبواء	صفر ٢هـ	ودان
بُواط	ربيع أول ٢هـ	بُواط
العشيرة	جمادى الثانية ٢هـ	العشيرة
بدر الأولى	ربيع الأول ٢هـ	سَفَوَان
بدر الكبرى	رمضان ٢هـ	بدر
بنو سليم	محرم ٢هـ	قرقرة القدر
بنو قينقاع	شوال ٢هـ	المدينة
السويق	ذو الحجة ٢هـ	قرقرة القدر
ذو أمر	محرم ٣هـ	ذو أمر
بُحْران	ربيع أول ٣هـ	بحران
أحد	شوال ٣هـ	جبل أحد
حمراء الأسد	شوال ٣هـ	حمراء الأسد
بنو النضير	ربيع أول ٤هـ	ضواحي المدينة
بدر الآخرة	ذو القعدة ٤هـ	بدر
دومة الجندل	ربيع أول ٥هـ	دومة الجندل
بنو المصطلق	شعبان ٥هـ	المريسيع
الخدق	شوال ٥هـ	المدينة
بنو قريظة	ذو الحجة ٥هـ	ضواحي المدينة
بنو لحيان	ربيع الأول ٦هـ	غزان
ذو قرد	ربيع الآخرة ٦هـ	ذو قرد
الحديبية	ذو القعدة ٦هـ	الحديبية
ذات الرقاع	محرم ٧هـ	نخلة
خيبر	محرم ٧هـ	خيبر
عمرة القضاء	ذو الحجة ٧هـ	مكة
فتح مكة	رمضان ٨هـ	مكة
حنين	شوال ٨هـ	حنين
الطائف	شوال ٨هـ	الطائف
تبوك	رجب ٩هـ	تبوك

جدول توزيع غزوات الرسول على سنوات جهاده

السنة	الغزوة
العام الثاني للهجرة	بواط العشيرة بدر الأولى بدر الكبرى بنو سليم بنو قينقاع السويق
العام الثالث للهجرة	ذو أمر بحران أحد حمراء الأسد
العام الرابع للهجرة	بنو النضير ذات الرقاع بدر الآخرة
العام الخامس للهجرة	دومة الجندل بنو المصطلق الخنديق بنو قريظة
العام السادس للهجرة	بنو لحيان ذو قرد الحديبية
العام السابع للهجرة	خيبر عمرة القضاء
العام الثامن للهجرة	فتح مكة حنين الطائف
العام التاسع للهجرة	تبوك

فوائد الغزوات والسرايا :

وبنظرة عامة على هذه السرايا والغزوات، نجد أنه لم يحدث قتالٌ تقريباً في معظمها، ومع ذلك فهي لم تخلُ من فائدة، بل كان فيها فوائدٌ جمّةٌ.

أولاً كسرت حاجزاً نفسياً، كان عند المسلمين، من جرّاء المنع من القتال لمدة ١٤ سنةً بالتمام والكمال، فالمسلمون أمروا بعدم حمل السيف في وجه من يظلمهم طيلة هذه المدة، وترك الدفاع عن النفس كلّ هذه الفترة قد يورثُ ضعفاً في النفس أو شعوراً بقلّة الحيلة، وقد يقود إلى إلف الذلِّ والهوان.

فجاءت هذه السرايا والغزوات البسيطةً نسبيّاً، كوسيلةٍ متدرجةٍ للصعود بنفسيات الصحابة، من حالة الاستكانة إلى حالة الاستنفار والنهوض، ومن حالة الصبر على عدم الدفاع، إلى حالة الصبر على تبعات الهجوم.

لقد نقلت هذه السرايا والغزوات جيل المهاجرين من كونهم مجرد جماعةٍ مضطهدةٍ إلى كونهم دولةً ممكنةً، لها جيشٌ، ينفذ خططها، ويحافظ على أمنها، ويُرهب أعداءها، ويحفظ كرامتها. لقد كانت نقلةً نفسيةً رائعةً.

ثانياً درّبت الصحابة على فنون القتال، وركوب الخيل، والحرب على الإبل، والمناورة والخطة والتحرّك والترقب.

نعم هؤلاء من الفرسان، والعرب بصفةٍ عامةٍ كانوا يركبون الخيل والإبل، ويحاربون بالسيف والدرع، لكن لإتقان مهارةٍ معينةٍ لا بد من تدريبٍ، وخاصّةً أنّ المسألة ليست مجرد مسابقة أو استعراض، إنّما هي حياة أو موت. والأمر إنّما يتعلّق ببقاء أمةٍ وعلوّها أو زوالها وفنائها.

ثالثاً عرّفت المسلمين الدروب والطرق حول المدينة المنورة، وبذلك أدركوا نقاط القوّة والضعف في المنطقة، وعرّفتهم ديار القبائل المحيطة وقوتها.

ولا ننسى أنّ المهاجرين الذين يمثلون العنصر الوحيد في هذه الجيوش ليسوا من أهل المدينة، وإنّما عاشوا حياتهم بكاملها في مكة، بعيداً عن هذه البقاع بنحو خمسمائة كيلو متر تقريباً.

رابعاً أشعرت هذه الدوريات العسكرية المتكررة القبائل المحيطة بقوة المسلمين، وكشفت جرأتهم في مواجهة قريش أكبر القبائل العربية وأقواها .

ولا شك أنّ هذا الأمر قد أدخل الرهبة في قلوب هذه القبائل وخاصة الأعراب، فعملت للمسلمين حساباً، وأدركوا أنّ موازين القوى في المنطقة في طريقها للتغيّر.

خامساً مكنت المسلمين من بعض المعاهدات مع بعض قبائل المنطقة، والتي هي عبارة عن معاهدات حُسنِ جوارٍ، بل ودفاع مشترك.

فعلى سبيل المثال: عقد رسولُ الله ﷺ معاهدةً مع قبيلة بني ضمرة، وذلك في غزوة الأبواء، كما عقد معاهدةً مع قبيلة بني مدلج، وذلك في غزوة ذي العشيرة. ولا شك أنّ هذه المعاهدات زادت من قوّة المسلمين، ورسّخت أقدامهم في المنطقة.

سادساً كانت بمنزلة إعلانٍ إسلاميٍّ صريحٍ للحرب على أهل مكة الكافرين، وكانت مكة قد أعلنت الحرب من قديمٍ على المسلمين، لكن هذا هو الإعلان الرسمي الأوّل على مكة، ولا شك أنّه سيُلقي بظلاله على العلاقة بين الدولتين .

فهي لن تستمرّ على وضعها السابق كعلاقة ظالمٍ بمظلومٍ، أو كعلاقة مستبدٍ بمقهورٍ، إنّما ستصبح من الآن فصاعداً علاقةً دولةٍ بدولةٍ أخرى تكافئها وتناظرها، ومن المؤكد أنّ هذا سيؤثر سلباً في نفسيّات أهل مكة، وهم يشاهدون قوّة المسلمين تتنامى، وأعدادهم تتزايد، وجرأتهم تزيد.

وقفه مع رحمته ﷺ في الجهاد:

قد يستغرب المرء الحديث عن الرحمة في الجهاد، وما هو في تصوّر الناس إلا القتال والعنف في أقسى صورته، وقد يكون هذا الأمر صحيحاً عند الحديث عن القتال في أيّ حضارة أو تشريع غير حضارة الإسلام وشريعته .

ولعلّ هذا يصدق مع أيّ زعيمٍ أو قائدٍ غير رسول ﷺ؛ لأنّ رحمة الإسلام ورحمة الرسول ﷺ شملت أيضاً ميدان الجهاد، وعمّت المسلمين وغير المسلمين، وشواهد ذلك كثيرةٌ ودلائله ظاهرةٌ.

والجهاد عبادةٌ، وأيُّ عبادة؟ إنه من أرقى أنواع العبادات في الإسلام، ومن أعلاها منزلةً ومكانةً.. فمن الناس من يظنّ أنّ العبادة هي الصلاة والصوم والزكاة والحجّ ونحو ذلك من شعائرٍ وحسب، ولا ينظرون إلى العبادة بمفهومها الشامل الواسع الذي ينتظم كلّ صغيرة وكبيرة في الحياة..

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وانظر إلى الحوار اللطيف الذي حصل بين رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل رضي الله عنه، وفيه يوضح مكانة عباداتٍ كثيرةٍ في الإسلام ومنها الجهاد.

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَيَّ مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ» .

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ، الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» قَالَ: ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَدِرْزَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَىٰ

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ». ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: «تَكَلَّمْتُكَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»^(١).

فالجهد ليس فقط عبادة، ولكنه ذروة سنن الإسلام، والأحاديث في فضله يصعب حصرها.. والمسلم في جهاده يضحّي بنفسه، لينقذ الكافر من عذاب النار والخلود فيها، فهي نظرة رحمة، لا حقدٍ وانتقام.

ومع أهميّة الجهاد، وأهميّة احتياج الأمة إليه؛ للذود عن أراضيها وحرمانها، ولردّ الظلم ودفعه، إلا أنّ الرسول كان يتعامل مع المجاهدين والأمة بصفة عامة بشيءٍ عظيمٍ من الرحمة، فيقدّر ظروفهم، ويخفّف عنهم، ويرحمهم ويرفق بهم، مع أن الموقف قد يكون حرجاً لدرجة لا تسمح - في عُرْفٍ كثيرٍ من الناس - برفق أو رحمة!!

ومن أجمل ما نجده في حياته متعلّقاً بهذه الجزئية عدم خروجه بنفسه في كلّ المعارك الإسلامية، فكان يخرج في بعضها، وهو ما عُرِفَ في السيرة بالغزوات، وكان لا يخرج في بعضها الآخر، وهو ما عُرِفَ في السيرة بالسرايا..

فلماذا لم يخرج في كلّ المعارك مع اشتياقه للتضحية والبذل في سبيل الله؟! يجيب عن ذلك رسول الله بنفسه فيقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ،

(١) الترمذي، حديث رقم (٢٦١٦) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد، حديث رقم (٢٢٠١٦)، قال مخرجه: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين» انظر: تخريجه فيه مفصلاً، قال الألباني: «صحيح».

مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْرُؤُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»^(١).

فانظر إلى رحمته بالمسلمين المطالبين بالجهاد، فإنه يرفع عنهم الحرج الذي يحصل بالخروج في كلِّ مرّة، لأنهم سيضطرون للخروج اتباعاً له، فيقرّر عدم الخروج - مع رغبته فيه - لأجل رحمتهم والرفق بهم!

ثمَّ إنه يرفض أن يخرج معه ضعيفاً إلى القتالِ رحمة به، مع أنَّ المسلمين كثيراً ما كانوا قلةً، ويحتاجون إلى كلِّ عونٍ، لكنَّه كان رحيماً بضعفاء أمته، ولا يقبل أن يشقَّ عليهم حتى لو رغبوا هم في ذلك، اللهم إلا إن أصروا، ورأى منهم رسول الله بعض القدرة على القتال..

وقد رأينا في حجة النبي كيف أنه أجاب بالرفض على سؤال أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الخاص بالجهاد.. قالت عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ أَفَلَا نُجَاهِدُ؟ قَالَ: «لَا، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ»^(٢).

وهذه رحمةً بالنساء، وكيف أنه لم يقبل الأطفال الصغار في الحرب رحمةً بهم، وإرجاعه لبعض الشباب؛ لكونهم يقومون برعاية آبائهم الكبار، وهكذا.. أما موقفه مع عمرو بن الجموح رضي الله عنه وأولاده؛ فمِمَّا يدلُّ على سعة رحمته، ليس من رؤية واحدة، ولكن من عدة رؤى مختلفة..

لَمَّا نَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ النَّاسَ إِلَى بَدْرٍ، أَرَادَ عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ رضي الله عنه الْخُرُوجَ مَعَهُمْ، فَمَنَعَهُ بَنُوهُ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ لَشِدَّةِ عَرَجِهِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ لِبَنِيهِ: مَنَعْتُمُونِي الْخُرُوجَ إِلَى بَدْرٍ، فَلَا تَمْنَعُونِي الْخُرُوجَ إِلَى أُحُدٍ؛ فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَذَرَكَ.

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب تَمَنَّى الشَّهَادَةِ، حديث رقم (٢٧٩٧).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (١٥٢٠).

فأتى رسول الله؛ فقال: يا رسول الله: إنَّ بَنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، والله إنِّي لأرجو أن أظأ بعرجتي هذه في الجنة! .
فقال رسول الله: «أمَّا أنت فقد عذرك الله، ولا جهاد عليك»، وقال لبنيه: «لا عليكم أن لا تمنعوه لعلَّ الله أن يرزقه الشهادة».

فأخذ سلاحه وولَّى، وقال: اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي خائبًا. فلما قتل يوم أحد جاءت زوجته هند بنت عمرو عمة جابر بن عبد الله؛ فحملته، وحملت أخاها عبد الله بن عمرو بن حرام فدُفِنَا في قبرٍ واحد؛ فقال رسول الله: «والذي نفسي بيده لقد رأيته يظأ الجنة بعرجته»^(١).

إنَّ الرحمة هنا مُرَكَّبَةٌ ومتعددة، ففي البداية رحيم به؛ فلا يريد المشقَّة له لعرجه، فيعفيه من أمر الجهاد ويرحمه بالمنع، وهو في ذات الوقت رحيم بعائلته أن تُفجَع فيه بموته، وخاصةً أنَّ أربعةً من أبنائه قد خرجوا للجهاد فليبق هو لرعاية مصالح بيتهم .

ثمَّ عندما وجد اشتياقه للجهاد، رحم شوقه هذا ورغبته، وقدَّر موقفه، وأحسَّ بمشاعره، فقبل منه، بل وتوسَّط عند أبنائه، وهوَّن عليهم .

ولمَّا استشهد عمرو بن الجموح رضي الله عنه بشرَّهم بمصيره لئلا يجزع أبنائه، ولكيلا يندموا على خروجه..إنها رحمة متتالية متتابعة مع أنَّ الأمر مختصُّ بجهادٍ و قتالٍ..

وكان يخاف على جنوده من شدَّة الإرهاق والتعب، وذلك رحمةً بهم، ومن ذلك ما فعله في غزوة فتح مكة، وكانت في رمضان، وصام رسول الله والمؤمنون، ثم بلغه أنَّ الناس أُرهِقُوا من الصيام، وكان ذلك بعد العصر، فماذا فعل رسول الله؟! .

يروى جابر بن عبد الله رضي الله عنه فيقول: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ فَصَامَ النَّاسُ، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ

(١) الإصابة، الترجمة (٥٧٩٧)، وأسد الغابة ٣/٧٠٢.

حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ؛ ثُمَّ شَرِبَ فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ الْعَصَاةُ أُولَئِكَ الْعَصَاةُ»^(١).

يا لها من رحمة بالغة!! إنه لم يشأ أن يسمح بالإفطار للناس بينما يتم هو صومه، لئلا يقع الناس في حرج، فبدأ هو بنقض صيامه والإفطار على ماء، ليكون قدوة لهم في ذلك، وأفطر معه معظم المسلمين، ولكن بقيت طائفة تريد أن تتم صومها، فلما بلغه ذلك، قال: «أُولَئِكَ الْعَصَاةُ!!» .

لقد قال في حقهم هذه الكلمات؛ لأنهم لا يرحمون أنفسهم، ولا يرحمون من سيقلدهم في ذلك الأمر، أو على الأقل يتحرّج من إفطاره في وجود الصائمين..

إن رحمة شملت الجيش بكامله، حتى أراد لهم الراحة، فلا يجمع عليهم مشقة الجهاد وجهد الصيام، فإذا علمت أن كل ذلك كان بعد صلاة العصر، أدركت مدى رحمة التي لم يشأ أن يؤخّر لانقضاء هذه المدة القليلة المتبقية على المغرب، رافةً بجيشه، ورفقاً بأمته..

وكان يهتم بجراح جنوده وجيشه، ويحرص على مداواتها بيده إن استطاع، وقد رُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله^(٢) فحسمه^(٣) النبي بيده بمشقص^(٤)، ثم ورمت فحسمه الثانية^(٥).

وعندما تفاقم الجرح، ولم يستطع رسول الله أن يفعل شيئاً، أوكل أمره علاجه إلى ربيعة رضي الله عنه، وكانت مشهورةً بإتقانها للطب والعلاج، وضرب له خيمةً في المسجد، وكان يعود فيها بنفسه^(٦).

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١١١٤). (٢) أكحله: عرق في وسط الذراع.

(٣) حسمه: كواه ليقف النزيف. (٤) مشقص: سهم بطرف حاد عريض.

(٥) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٢٠٨).

(٦) الإصابة، الترجمة (٣٢٠٠)، أسد الغابة ٢/٢٣٩.

وكان يحزنُ على أصحابه المجاهدين إن أصابهم ألمٌ أو قتل، وكان من رحمته أنه يبكي عليهم، مع أنهم شهداء، ومع أنه رأسُ الدولة، وسيتأثر الناسُ بكائه، ولكنها كانت رحمةً في قلبه..

يروى أنسُ بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ؛ فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، وَإِنَّ عَيْنِي رَسُولِ اللَّهِ لَتَذْرِفَانِ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيْفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»^(١) وكان الذي أخذها خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ عَيْرِ إِمْرَةٍ فَفُتِحَ لَهُ.

وفي هذا الحديث دليلٌ من أدلة النبوة، وهو إخبار الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بخبر غيبي^(٢). وكان يحرص على راحة جنوده النفسية، وذلك بالاطمئنان على عائلاتهم أثناء خروج الجنود للقتال، فكان يرثي وينصح ويُعلم أمته أن ترعى أسرار المجاهدين، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»^(٣).

بل كان يتفقد بنفسه شؤون أهالي الشهداء والمجاهدين وذويهم، ليشعر المجاهد أنه إذا مات، فهناك من يهتم بعائلته ويرعاها، ومن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه من أن النبي لم يكن يدخل بيتًا بالمدينة غير بيت أم سليم إلا على أزواجه فقليل له فقال: «إِنِّي أَرْحَمُهَا قُتِلَ أَخُوهَا مَعِيَ»^(٤).

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على أم سليم لأنها كانت خالته إمامًا من الرضاع أو من النسب على خلاف بين العلماء، فتحل له الخلوة بها^(٥).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٢٦٢). (٢) انظر فتح الباري شرح حديث رقم (٤٢٦٢).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٨٤٣). (٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٨٤٤).

(٥) النووي: شرح صحيح مسلم ١٠/١٦.

وهكذا رحمته تشمل المجاهد وأسرتَه مِمَّا يُخَفِّفُ كَثِيرًا من أعباء الجهاد .

ونختم هذا الموضوع بأمر عجيبٍ، ورحمة نادرة من رحماته، وهي رحمته بالفارين من أرض القتال، فالفراؤ من الزحف كبيرة من الكبائر كما يعلم الجميع، وذكره رسول الله تصريحًا عندما قال: «اجْتَنِبُوا السَّعَ الْمُؤَبَّاتِ»^(١). وذكر منها: «وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ»^(٢).

ومع ذلك فإنَّ رسول الله ﷺ كان يُفَرِّقُ بين مَنْ كان عادته الفرار، ومَنْ حدث ذلك منه كحدثٍ عارضٍ لا يتكرر، فهذا النوع الأخير كان يرحمه ويرفق به، ولا يشير إلى سلبياته.

وقد حدث فراؤ عددٍ لا بأس به من المسلمين بعد موقعة أحد، ولم تنقل كتب السنَّة أو السيرة أيَّ لوم أو عتابٍ من رسول الله ﷺ لأولئك الفارين، بل إنه حَفَّزَهُم ونَشَطَهُم للخروج في اليوم التالي لأحدٍ لمطاردة المشركين، ولم يقبل أن يأخذ معه غير أهل أحد، في إشارة واضحة إلى أنه يثقُ فيهم، ويعتمد عليهم، ويعلم أن ما حدث بالأمس في أحد كان هفوةً عابرةً، وخطأً لن يتكرَّرَ، ومن ثمَّ فقد أَدَّان مؤدَّن رسول الله بطلب العدو، وأن لا يخرج معهم إلا مَنْ حضر بالأمس^(٣).

كذلك في أعقاب غزوة مؤتة، انسحب الجيش الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد ﷺ؛ لأنَّ القوتين كانتا غير متساويتين مطلقًا، فجيش الرومان أكثر من ستين ضعفًا للجيش المسلم .

ويروي عبد الله بن عمر ﷺ ظروف هذا الانسحاب، وردَّ فعل أهل المدينة له، وكذلك ردَّ فعل الرسول ﷺ فيقول: بَعَثْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَحَاصَ^(٤) النَّاسُ

(١) الموبقات: المهلكات. (٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٧٦٦).

(٣) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٥٧/٢، ابن هشام: السيرة النبوية ٥٢/٤.

(٤) فحاص الناس أي: انحرفوا وانهزموا.

حَيْصَةً وَكُنْتُ فِيمَنْ حَاصَ فَقُلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ؟ وَقَدْ فَرَزْنَا مِنَ الرَّحْفِ وَبُونَا بِالْغَضَبِ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَبِتْنَا ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ، وَإِلَّا ذَهَبْنَا فَأَتَيْنَاهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ، فَخَرَجَ فَقَالَ: مَنْ الْقَوْمُ؟ قَالَ: فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ قَالَ: «لَا بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ»^(١)، وَأَنَا فَتَكُم»^(٢).

لقد قدر رسول الله ظرفهم، وعذرهم، ورحمهم، بل إنه لم يكتفِ بذلك، بل مدحهم وأثنى عليهم!! فهل رأى التاريخ مثل ذلك من الرحمة؟! وهل رفع قائد من عزيمة جنده - حتى في حال الفرار - مثلما فعل رسول الله؟!.

محمد ﷺ المحارب النبيل:

لقد ثبت لديّ أنّ النبي ﷺ أذن بالقتال لأصحابه بعد مرور خمسة عشر عاماً على دعوته، فإنّ القتال شرع في السنة الثانية من الهجرة، على قول أكثر العلماء^(٣). وهذا يعني أنّ السنوات التي حارب فيها ثمان سنوات فقط، لأنّ دعوة النبي ﷺ كما لا يخفى، كانت ثلاثة وعشرين عاماً.

إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الثقافة السائدة آنذاك، تنصّ على حرمة القتال في الأشهر الحُرْم، وهي أربعة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وكانت هذه الثقافة محلّ احترام المسلمين وخصومهم، إذا أخذنا هذا بعين الاعتبار، كما أسلفت يسقط من الثمان سنوات قرابة ثلاث سنوات، وهي مجموع أربعة أشهر من كل سنة على مدى ثماني سنوات، فتكون المدة الإجمالية

(١) العَكَارُونَ الكرارون، أي: العائدون للقتال. انظر: مشكل الآثار للطحاوي ٣٥٧/٢.

(٢) الترمذي، حديث رقم (١٧١٦) وقال: «حديث حسن»، وأحمد، حديث رقم (٥٣٨٤).

(٣) حديث القرآن عن غزوات الرسول، ج ١، ص ٤٣.

التي يمكن للنبي ﷺ أن يقاتل فيها عدوه هي خمس سنوات فقط من سيرته الطويلة التي امتدت ثلاثة وعشرين عاماً كما أسلفت.

إن عدد المعارك التي خاضها النبي ﷺ، بلغ تسع معارك فقط، إضافةً إلى نشاطات قتالية محدودة، كان يكلف بها أعداداً من أصحابه؛ لإنجاز مهام محدّدة، لم يكن في أغلبها قتلٌ أو قتال.

لقد اجتهد عدد من العلماء في إحصاء الخسائر البشرية للمعارك التي حصلت في عهد النبي ﷺ، وحصل تضاربٌ في الأرقام التي وردت عنهم، وكان أعلى هذه الأرقام لا يزيد على ١٠٤٨ شخصاً من الأطراف جميعها، ولعلّ ثمة اعتبارات كان لها أثرٌ في إحصاء كلِّ باحث، ولكن ثبت لديّ أنّ العدد لا يتجاوز المئات، على أعلى تقدير، خلال ثماني سنوات، وفي تسع معارك، وعددٍ من الحملات الصغيرة المحددة.

أمّا ونحن في مجال ذكر الأرقام، فلا بأس أن نذكر عددَ من قُتلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية فقط .

ففي الحرب العالمية الأولى التي قامت بين عامي ١٩١٤م إلى ١٩١٨م، تمّ استعمال الأسلحة الكيميائية، في تلك الحرب لأول مرة، ولم يحرك العالم عدداً من الجنود، مثلما حرّك في الحرب العالمية الأولى، وتمّ قصف المدنيين، من الجو لأول مرة في التاريخ، وتمّ إبادة ما يربو عن تسعة ملايين من العساكر، وسبعة ملايين من المدنيين.

الحرب العالمية الثانية، بدأت في عام ١٩٣٧م، في آسيا، وفي عام ١٩٣٩م في أوروبا، وانتهت الحرب في عام ١٩٤٥م، باستسلام اليابان، تعدّ الحرب العالمية الثانية من الحروب الشمولية، وأكثرها كلفةً في تاريخ البشرية، لاتساع بقعة الحرب، وتعدّد مسرح المعارك، فكانت دولٌ كثيرة، طرفاً من أطراف النزاع، فقد حصدت الحرب العالمية الثانية زهاء ٦٠ مليون نفس بشرية، بين عسكري ومدني: (٢٥ مليون عسكري، ٣٧ مليون مدني).

وبكلِّ أسفٍ وألمٍ فإنَّ ٧٧ مليون شخص قتلوا في حربين فقط، خلال ١٢ عامًا تقريبًا، منهم ٤٤ مليون مدني، يعني أكثر من ثلثي القتلى من المدنيين.

وبينما في عصر الرحمة في عهد النبي ﷺ قُتل قرابة ١٠٠٠ شخص من أتباع النبي وخصومه، لا يكاد يوجد بينهم مدني، في تسع معارك كبيرة، ومواجهات صغيرة، على مدى ٢٣ سنة من مواجهة النبي ﷺ لخصومه.

يقول الدكتور نعوم تشومسكي بعد الدهول الذي أصابه من هذه الأرقام: «لقد انتزعت هذه الحقائق من التاريخ، وعلى المرء أن يصرخ بها، ويعلنها على رؤوس الأشهاد»^(١).

إنَّ النبي ﷺ كان يتجنَّب القتال ما وجد إلى ذلك سبيلًا، اجتناب القويِّ القادر، لعلمه أنَّ دعوته حقَّت وتحقَّق نجاحات كثيرة، دونما حاجةٍ إلى قتال، وهذه حقيقة أكَّدها خمس عشرة سنة مضت دون قتال، وكانت زاخرة بالإنجازات.

ولا بأس أن نمثِّل لصحَّة هذا التوجُّه، بما حصل في أوَّل معركة خاضها النبي ﷺ مع خصومه من أهل مكة، فقد خرج لا يريد قتالًا، وهذه حقيقة سجَّلها القرآن الكريم، حين قال في شأنه وشأن أصحابه: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، فكشفت هذه الآية، عن عدم رغبة النبي ﷺ في القتال لكنَّه لمَّا وصل اضطر إليها، ولم يجد منها بدًّا، وما كان للنبي ﷺ أن يهرب من وجه عدوِّه بحالٍ.

وتمنَّى قبيل بدء المعركة بساعات، أن تؤوب قريش إلى رشدها، وتعدلَّ عن المواجهة، ويدلُّ على هذا بوضوح قول النبي ﷺ قبل بدء المعركة بساعات لمن معه: «إن كان عند أحدٍ من القوم خيرٌ فهو عند صاحب الجمل الأحمر،

(١) الإرهاب والإرهاب المضاد، ص ١٤.

إن يطيعوه يرشدوا»^(١). ويعني به عتبة بن ربيعة، الذي كان يسعى لإفناع قريش بالعدول عن الحرب، لكنه لم يتمكن، وغلبه على رأيه أبو جهل وأضرابه.

كان أحياناً يغيّر طريقه تجنّباً للقتال، كما حصل حين توجه مع أصحابه إلى أداء العمرة، وكان يجعل بينه وبين خصومه وسيطاً ليقنعهم بأضرار الحرب، ورغبته في السلام، وهو ما حصل قبيل صلح الحديبية^(٢).

وكان النبي ﷺ يفضل عقد المعاهدات مع خصومه، ويسارع في إبرامها ليغلق الباب أمام الحرب، وتكاد المعاهدات تبلغ عدد الغزوات، وما هذا إلا لحرصه على تجنّب الحرب.

كان النبي ﷺ إذا اضطر إلى القتال، فلا يقاتل إلا دفاعاً عن النفس أو الأرض، حتى وإن بدأ هو بالقتال، فإذا سمع بخطر داهم، أو بلغه أن قوماً يعدّون العدة لقتاله، سعى لقتالهم، وهو بهذا يلتزم التوجيه القرآني الواضح: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وكان النبي ﷺ يمنع خروج الأطفال معه إلى القتال، فقد حدث أن النبي ﷺ لما خرج إلى معركة بدر، نظر إلى الجيش، وإذا فيه غلامان صغيران، هما عبد الله بن عمر، والبراء بن عازب، فأمرهما النبي ﷺ بالعودة إلى المدينة^(٣).

كما خرج من معركة أحد خمسة عشر صبياً وأعادهم إلى بيوتهم، مع أنّهما حاولا الوقوف على رؤوس الأصابع والتطاول ليبدوا كبيرين، ولكن لم تفلح خطتهما، فقد أصرّ النبي ﷺ على عودتهما، مع أنه لم يكن يجزم بأنه سوف يقاتل، ولكن تحسباً لوقوع قتال، كان لا بدّ من تجنّب الأطفال هذه المخاطر رحمةً بهم.

(١) السيرة النبوية دروس وعبر، ج ٢، ص ١٦، الصلابي.

(٢) انظر في هذا المعنى، صحيح البخاري، حديث رقم (٢٧٣١).

(٣) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج ٢، ص ١٢٤، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٨٣.

فقد كان نبيُّ الرحمة ﷺ، حريصاً على الأطفال عموماً، وليس على أطفال المسلمين فقط، فقد نهى بشدّة، أن يُقتلَ أحدٌ من أطفال الأعداء، حين قال لخالد بن الوليد ﷺ، أحد قوّاده: «لا يقتلنَّ امرأةً ولا عسيفاً»^(١) أي خادماً.

يُفهم من هذا المسلك أنّ النبيّ ﷺ لم يكن يقاتل أفراداً، وإنّما كان يقاتل سلطةً، إذا تُركت فقد تشكّل خطراً على الإسلام وأهله، فكان لا بدّ من إزالتها، لفتح المجال أمام الأفراد؛ لاتخاذ ما يناسبهم من قرار، ومنحهم فرصة الاختيار دونما مؤثراتٍ خارجيةٍ .

يقول الأستاذ العقاد: «إنّ الإسلام إنّما يعابُ عليه، أن يحاربَ بالسيف فكرةً، يمكن أن تُحاربَ بالبرهان، والإقناع، ولكن لا يعابُ عليه أن يحاربَ بالسيف سلطةً تقف في طريقه، وتحول بينه وبين أسمع المستعدين للإصغاء إليه؛ لأنّ السلطة لا تُزال إلاّ بالسلطة، ولا غنى في إخضاعها عن القوة»^(٢).

إنّ المبادئ تحتاج إلى قوة، تُساندها في مواطن كثيرة، لا لفرضها على الناس، ولكن لحمايتها، وإزالة العقبات من أمامها.

إنّ الغرب لم يلتزموا بالمنهج الذي وضعه السيّد المسيح عليه الصلاة والسلام، والقائم على أنّ من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ولقد شهد التاريخ على مدى عدة قرون، حروباً باسم المسيح، وهو منها براءٌ، راح ضحيتها ملايين البشر، وليس من أحد ينكر هذه الحقائق المؤلمة، ولا أودّ التوسّع في هذه القضية.

(١) أخرجه أبو داوود، حديث رقم (٢٦٦٩) وأحمد، حديث رقم (١٥٩٩٢)، قال مخرجه: «صحيح لغيره، وهذا إسناده حسن»، وانظر صحيح البخاري، حديث رقم (٣٠١٥) ومسلم، حديث رقم (١٧٤٤)، وأحمد، حديث رقم (٤٧٣٩) أيضاً.

(٢) عبقرية محمد، ص ٤٥، العقاد.

كان للنبي ﷺ نظامٌ متميزٌ في تجهيز الجيش، لمواجهة خصومه، فلم يكن يُجبر أحداً على الخروج معه، وكان يأذن لمن يريد التخلف عنه حين يبدي أعذاراً شخصية، حتى وصل الأمر إلى أن يعاتبه الله تعالى قائلاً له: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، كأن النبي ﷺ توسع في قبول الأعذار، حتى استغلها من لا عذر له أصلاً، وهم المنافقون، فجاء العتاب ليظهر الصادق من الكاذب.

لا يتعارض هذا التصرف مع رغبته في خروج أصحابه معه إذا خرج، ولقد بدا منهم الحرص الشديد على الخروج معه، حتى إنه كان يحدث خلاف بين الابن وأبيه في أيهما يخرج لرغبة الاثنين في مرافقة النبي ﷺ، كما حصل مع سعد بن خيثمة، وأبيه يوم بدر^(١)، وكما حصل أيضاً خلاف بين أبي أمامة وخاله في أيهما يبقى مع أم أبي أمامة المريضة.

إن الخروج عن رغبة واختيار، غير الإكراه على الخروج، دونما اعتبار لظروف، وهو الذي نراه في الجيوش المتحضرة في الوقت الحاضر، حين يساق الجنود إلى المعارك سوقاً، وأكثرهم لها كارهون.

اتضح هذا المسلك جلياً، أيضاً حين طلب النبي ﷺ من أحد القادة، وهو عبد الله بن جحش، أن لا يُكره أحداً على السير معه، فقد كتب له كتاباً، جاء فيه: «سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته، ولا تُكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك»^(٢).

كان النبي ﷺ يأذن لأفراد بالتخلف عن الخروج للقتال معه، لأسباب شخصية ذكرنا بعضها، وكان أحياناً يطلب من بعضهم التخلف، كما حصل مع عثمان بن عفان رضي الله عنه،

(١) السيرة النبوية، ج ١، ص ٥٤، الصلابي.

(٢) عبقرية محمد، ص ٦٠، العقاد.

فقد أمره أن يتخلف عنه بسبب مرض زوجته^(١)، وأذن لأبي أمامة، بل طلب منه أيضاً أن يتخلف عنه ليبقى بجانب أمه المريضة، ومثل هذا كثير.

إنَّ هذه السلوكيات عندما يجتمع بعضها إلى بعض، تشكّل معلماً بارزاً، يدلُّ بوضوح على أنَّ القتال لم يكن هدفاً ملحقاً للنبي ﷺ ولا غايةً في حدِّ ذاته، فإنَّه لم يكن يوماً متعطشاً لقتل، أو قتالٍ، ولم يرغب عنه لحظةً، أنه أرسل رحمةً للناس، وأنه سوف يستعين بهذه الرحمة أكثر من استعانه بالسلاح، لمواجهة خصومه في بعض الميادين، وقد حصل هذا بالفعل.

إنَّ مقولة علماء الأخلاق (إنَّ الأخلاقية تعني: فنُّ السيطرة على الأهواء) تتحقّق بجلاءً في الفلسفة القتالية لدى النبي محمد ﷺ، فأين هو من كثيرٍ من القادة العظام، الذين عرفتهم البشرية، أمثال الإسكندر المقدوني، وهولاكو، و نابليون، وهتلر، وغيرهم ممن لا نستحضر ذكرهم.

لقد قاتل هؤلاء جميعاً أناساً لا يوجد بينهم وبين هؤلاء القادة قضية، ولا خصومة أصلاً، لكن الدوافع الدنيوية، كالشهرة، والمصالح العامة والخاصة، جعلت هؤلاء القادة يدخلون أرضاً ليست أرضهم، ويقاتلون أناساً أبرياء، ليسوا خصوماً لهم، وكانت النتيجة قتل مئات الألوف، وتدمير مئات المدن، والمحصّلة النهائية مزيدٌ من القتل والدمار وعدم الاستقرار.

أمّا النبي محمد ﷺ: فإن قاتل، فإنَّه يقاتل من قاتلوه، وقاتلوا أتباعه، وأخرجوهم من أرضهم، وأخذوا أموالهم، فإنَّه في عرف الشرائع جميعها، محقٌّ فيما يصنع، ومع هذا لم يصدر منه تصرفٌ واحدٌ يدلُّ على أنه صاحب شهوة، أو باحث عن شهرة في هذا الميدان.

لقد دعا كلُّ من المسيح عليه الصلاة والسلام، والنبي محمد ﷺ إلى الرحمة،

(١) انظر صحيح البخاري، باب مناقب عثمان، حديث رقم (٣٦٩٨).

والتسامح بين الناس، وأحسنا أيّما إحسان، لكنّ المسيح عليه الصلاة والسلام لم يتمكّن من نشر ما يدعو إليه، ولا من تحقيقه على أرض الواقع، على الهيئة التي كان يريدّها، لأنّه لم يجد قوّة تحمي الرحمة، وتفسح الطريق لها لتصل إلى الناس جميعاً، بسبب عداوة اليهود له، ووجود سلطة الرومان القاسية .

بيد أنّ النّبّي محمداً ﷺ وجد هذه القوّة، وأزال بها العقبات التي تقف في وجه انتشار هذه المبادئ السامية، فكان استخدام النّبّي ﷺ للقوّة في بعض المواطن، دليلاً على شدّة حرصه على نشر ثقافة الرحمة، والتسامح والعدل والإحسان، وإلّا كان بإمكانه أن يدعو إلى هذه الأخلاق، كما دعا غيره ممّن سبقه من العظماء، ثم يترك الناس وشأنهم، من شاء تخلّق بها، ومن شاء أعرض عنها، وعمل بنقيضها.

ما كان لنبيّ الرحمة المرسل رحمةً للناس أن يسلك هذا المسلك بحالٍ؛ لأنّ البشرية ستكون الضحية، والإنسانية ستدفع الثمن غالباً، لقد كان قتال النّبّي ﷺ رحمة، كي تسود بين الناس الرحمة، بلا عقباتٍ أو حدود.

يقول المستشرق الأسبانيّ جان ليك: « لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن ممّا وصفها الله بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، كان محمدٌ رحمةً حقيقيةً»^(١).

ويقول الفيلسوف الإنجليزيّ توماس كارليل: « لدى محمد ذلك الرجل الكبير العظيم النفس، المملوءة رحمةً وخيراً وحناناً، أفكار غير الطمع الدنيويّ ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه»^(٢).

ويقول كارليل أيضاً: « لم تخلُ الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب

(١) انظر: عبقرية محمد.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٢.

من مشاهد قوّة، ولكنّها كذلك لم تخلُ من دلائل رحمةٍ وكرمٍ وغفرانٍ، وكان محمدٌ لا يعتذر من الأولى، ولا يفتخر بالثانية^(١).

ويقول المفكر اللورد هدلي، وهو يعلّق على معاملة النبي ﷺ لأسرى معركة بدر: «أفلا يدلُّ هذا على أنّ محمدًا لم يكن متصفاً بالقسوة، ولا متعظشاً للدماء، كما يقول خصومه، بل كان دائماً يعمل على حقن الدماء قدر المستطاع^(٢)».

ويقول العلامة الألماني برتلي سانت هيلر: «كان النبي داعياً إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفاً، ورحيماً، حتى مع أعدائه، وإنّ في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات، التي تحملها النفس البشرية، وهما العدالة، والرحمة^(٣)».

ما زال الحديث موصولاً، بممارسة النبي ﷺ الرحمة بكلّ مظاهرها، ولكن في ميدانٍ آخر، يوم أن كثُر أتباعه، وعظمت قوّته، وتتابعت انتصاراته، في هذه الأجواء ظهرت صورٌ للرحمة باهرةً من النبي ﷺ لأعدائه الذين كانوا يناصرونه العدا، كانت موضع إعجابٍ، وربّما تعجّب.

إنّ النبي محمدًا ﷺ كان في مكة، نبياً متسامحاً، ولمّا ذهب إلى المدينة، صار حاكماً ورئيساً لدولة، يتصرّف كما يتصرّف الزعماء^(٤).

ومع تذكّرنا لما حصل له في مكة، حين أقدمت قريشٌ على عزل النبي ﷺ وأتباعه وأقربائه، في وادٍ يسمّى شعب أبي طالب، مدة ثلاث سنوات، وكيف منعوا عنهم الطعام، وحرّموا الاتصال بهم، حتى أشرفوا على الهلاك، هم ونساؤهم وأطفالهم، وربّما أكل بعضهم الحشرات، والديدان من شدّة الجوع^(٥).

(١) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٤) الرسول في عيون الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص ٢٩٢، الشيباني.

(٥) السيرة النبوية، ص ٢١٧ فما بعدها، د. مهدي رزق الله.

وتمضي الأيام، ويهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ويقوم دولة قوية يُحسب لها ألف حساب، وإذا بثمامة بن أثالٍ زعيم بني حنيفة من بلاد نجد يدخل في الإسلام، ويقرّر من نفسه دعم موقف النبي ﷺ وإضعاف أعدائه في مكة، فيتخذ قرارًا بوقف تصدير القمح إلى قريش، ومعلوم أنّ مكة ليست أرضًا زراعية.

بدأ الرعب يدبّ في قلوب أهل مكة، حين هاجمهم شبح الجوع، فكتبوا إلى النبي ﷺ، وقيل أرسلوا إليه وفدًا، يرجونه أن يتدخل لدى ثمامة ليعاود تصدير القمح إليهم.

كان أهل مكة يعلمون أنّ النبي ﷺ لم يكن في يوم من الأيام، قاسي القلب، ولهذا قصده، في هذا الطلب، رغم خصومتهم له.

كأنّي بالنبيّ محمد ﷺ تعود به الذاكرة إلى سنوات خلت، يوم أن حوصر هو وأتباعه وأهله من هؤلاء الذين يرجونه الآن ويذكرونه بما بينهم من رحم، هذه الرحم التي غابت عنهم يوم أن حاصروه ومن معه، وإذا بالرحمة تتحرّك، ويكتب النبيّ ﷺ إلى ثمامة أن يعود إلى ما كان عليه من تصدير القمح إلى قريش.

كان بمقدور النبيّ ﷺ أن يعاملهم بالمثل، ويتركهم يعانون من الجوع، بخاصّة أنّه لا يد له في هذا الأمر، فإنّه لم يأمر به، ولم يستشره ثمامة حين منع القمح عنهم.

لقد أبت رحمة النبيّ ﷺ أن يعامل قريشًا بالمثل، وهو قادرٌ على هذا، ويتكرّر المشهد، حين أصاب قريشًا جذبٌ شديدٌ، كادت تهلك من الجوع، وإذا بهم يرسلون وفدًا يطلبون من النبيّ ﷺ أن يدعو الله ليرفع عنهم هذا الجذب. ويستجيب النبيّ ﷺ لطلبهم هذا، ويدعو الله ربّه، وتتحقق الاستجابة، ويزول عن قريش هذا البأس الشديد^(١).

(١) تفسير الطبري، ج ٩، ص ٢٣٥، معالم التنزيل، ج ١، ص ٤٢٥، البغوي.

ينتاب المرء وهو يعيش مع هذه المواقف، شعورٌ ممزوجٌ بالعجب والسخرية من قريش، وربما بالضحك أيضاً، فإنَّ خصوم النبي ﷺ هؤلاء يعترفون برحمته، ويشاهدون مظاهرها، ويعلمون أنَّ النبي ﷺ يقدم الرحمة في كلِّ موطنٍ، ولهذا جاؤوا إليه يتوسَّلون أن يعمل على رفع شبح الجوع عنهم، وعن نساءهم، وأطفالهم، عن طريق الدعاء، ومن خلال التوسط لدى ثمامة .

لقد كانوا على يقينٍ أنَّه فاعلٌ ما طلبوا، ولقد فعل، ومع هذا استمرُّوا في عداوتهم، وهنا أعود وأذكركم بمقولة الأستاذ العقاد، إنَّ الناس اجترؤوا على العظمة بقدر حاجتهم إليها^(١).

لقد مارس النبي ﷺ الرحمة في بيئةٍ تفتقدها، لكنَّه نجح في توظيفها لحلِّ مشاكله مع خصومه، إن هذه الرحمة ما زالت مفقودةً ومعيبةً في بيئات معاصرة، هناك من يحول دون ممارسة الناس للرحمة، والشعور بها، والسعادة بممارستها، حين يزيِّن لهم المتلاعبون بالعقول، والعاثون بالعواطف، أن مصلحة هؤلاء الناس لا تتحقَّق إلا بالقتل والتدمير، وأنَّ أمنهم مهدَّد ما لم يتمَّ الذهاب شرقاً وغرباً للقتل والتدمير.

ألا يمكن لمن أوتي قوَّةً ومالاً وإمكانات أن يحلَّ مشاكله إن وجدت - عن طريق المحبَّة والرحمة، وعندها يسعدُّ القويُّ حين يمارس الرحمة، ويسعدُّ الضعيف حين ينعم بأثارها الطيِّبة.

لقد قدَّم النبي ﷺ نماذج للإنسانية، ستكون سعيدةً للغاية لو أخذت بها. أذكر في هذا المقام عبارةً جميلةً قالها ديكارت، جاء فيها: أنَّ النبلاءُ أسياد غضبهم، وأنَّ المتعجرف عبدٌ لرغباته^(٢)، أيُّ نبلٍ أعظم من هذا، حين ترى الرحمة توجَّه

(١) عبقرية محمد، ص ١٣، العقاد.

(٢) انفعالات النفس، ص ٩٨ - ٩٩، ديكارت.

مواقف النبي ﷺ مع أشد أعدائه، صدق علماء الأخلاق، حين قالوا: إن الرحمة ليست مجرد كلمة أو شعور يتتاب المرء، وإنما هي سلوك، وواقع له مظهره^(١).

وتمضي الأيام، ولا تتعظ قريش، ولا تقدّر مواقف النبي ﷺ؛ فلما حصل صلح الحديبية بين النبي ﷺ، وبين قريش، وضعت قريش شرطاً صعباً على المسلمين شعروا أن فيه إهانة لهم.

ومقتضى هذا الشرط: إذا خرج أحد من أهل مكة مسلماً، ولحق بالنبي ﷺ في المدينة فيجب على النبي ﷺ أن يرده إلى أهله في مكة، والعكس لا يكون كذلك، فيوافق النبي ﷺ على هذا الشرط الشديد على النفوس.

أسلم عددٌ من شباب مكة، أمثال أبي بصير وأبي جندل، ولحقوا بالنبي ﷺ في المدينة، فطلبت قريش ردهم إليها، فطلب منهم النبي ﷺ أن يغادروا المدينة تنفيذاً لشرط المعاهدة.

خرج هؤلاء الفتية الذين آمنوا برّبهم من المدينة، لكنهم لم يرجعوا إلى مكة، وإنما تجمّعوا، وكانوا أقل من مئة بقليل، في منطقة بين مكة والمدينة تسمى العيص، وصاروا يعترضون تجارة قريش المتجهة إلى الشام، فيقتلون من فيها من الرجال، ويأخذون الأموال، حتى كادت تتعطل تجارة أهل مكة، وشعروا أنهم في وضع سيء جداً لا يحسدون عليه.

ومرّة أخرى يرسل أهل مكة إلى النبي ﷺ وفداً يتوسّل إليه أن يرحم حالهم، وأن يطلب من هذه المجموعة أن تأتي إليه إلى المدينة، ويعلن خصوم النبي ﷺ هؤلاء على الملأ أنهم تخلّوا عن شرطهم، وإذا بالنبي ﷺ يستجيب لهذا الرجاء، ويرحم حالهم، ويطلب من هذه المجموعة أن تترك موقعها وتأتي إلى المدينة^(٢).

(١) دستور الأخلاق، ص ٢١٣، د. دراز.

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب الشروط، حديث رقم (٢٧٣٢).

لقد واجهت قريشُ النبيَّ ﷺ ومن معه بكبريائها وبشروطها التعسفيَّة، وإذا بها تُهزم، وتأتي إليه ذليلةً، وإذا بالنبيِّ يردُّ عليهم المواجهة بالرحمة، حين يشعر بأحوالهم المعيشية السيئة بسبب تعطل تجارتهم، فيطلب عدم التعرض لهم.

إنَّ النبيَّ محمدًا ﷺ حارب أعداءه بالرحمة، وانتصر عليهم في مواطن عدَّة، بتلك الرحمة، وحاربهم كذلك بالتفضُّل عليهم، وعدم معاملتهم بالمثل، ورغبتهم بالدخول في الإسلام، من خلال ممارسته للرحمة .

فهذا الحارث بن هشام يوم فتح مكة - وقد أعطاه النبيُّ ﷺ الأمان - قال: وجعلت أستحي أن يراني رسول الله ﷺ، وأذكر رؤيته إيَّاي في كلِّ موطنٍ من المشركين، ثم أذكر برَّه ورحمته، فألقاهُ وهو داخلُ المسجد، فتلقَّاني بالبشر.. فسلمت عليه، وشهدت شهادة الحق، فقال: «الحمد لله الذي هدانا لهذا، ما كان مثلك يجهل الإسلام...»^(١).

وهناك حادثة شهيرة تؤكد بوضوح وجلاء ما ذكر آنفًا، مرَّت ثماني سنواتٍ على إخراج النبيِّ ﷺ وأصحابه من مكة، حين تركوها مكرهين، بسبب اضطهاد كفَّار قريشٍ لهم، تركوها ولم يتمكَّن أحدٌ منهم أن يأخذ معه شيئًا من أمواله.

لقد وصفهم القرآن وصفًا مؤثِّرًا حين قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

بعد هذه السنوات الثمان، عاد النبيُّ ﷺ إلى مكة، ومعه عشرة آلاف من أصحابه بكامل عدَّتهم وعتادهم، دخلها على رأس هذه القوَّة العظيمة، وليس يدور في ذهنه إلا الرحمة، وهو في طريقه إلى مكة .

بلغ النبيُّ ﷺ أنَّ أحد قادته العسكريين، وهو سعد بن عبادة، قال: اليوم يومٌ

(١) المستدرک، ج ٣، ص ٢٧٧، الحاكم.

الملحمة، اليوم تستحلُّ الحرمة، فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بل اليوم يوم المرحمة»، وأخذ راية القيادة منه، وسلَّمها لابنه قيس بن سعد^(١).

ويستوقفنا هذا التصرف الحكيم الرحيم، حين أخذ الراية من سعدٍ وأعطاه لابنه، فلو أعطاه لشخصٍ آخر لتأثر ولحزن، أمَّا أن يأخذها ولده، فهذا أمر يسرُّ الأب كثيراً، ويسرُّ الابن كذلك، فكان هذا التصرف رحمةً من النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوالد وبالولد، بل بأهل مكة كلِّهم، إنَّها الرحمة الحاضرة في كلِّ المواقف صغيرها وكبيرها.

يدخل النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، ويجد أهلها مجتمعين حول الكعبة ينتظرون مصيرهم، وما عسى أن يفعل بهم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم الذين آذوه وأخرجوه، وقتلوا أشخاصاً من أحبِّ الناس إليه، وإذا بالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لهم: «ما ترون أنِّي فاعلٌ بكم؟» قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريم، فقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم»^(٢).

يرى فلاسفة الغرب، من أمثال هوبز ونيثشه - الذين بنوا الأخلاق على دعائم القوَّة - أنَّ الرحمة حميدةٌ، لأنَّها مظهرٌ من مظاهر قوَّة الشخص، الذي يرحم من هو أضعف منه، وبينت على استعلائه على أن يلقي الضعيف بما يلاقي به الأنداد الأقوياء^(٣).

لو اطلع هؤلاء على سيرة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لربَّما أعادوا صياغة هذه النظرية، لأنَّهم سوف يرون أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يلاقي الأقوياء الأنداد بالرحمة أيضاً، كما يلاقي

(١) السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢، ص ٤٧٧، د. أكرم العمري، وانظر: صحيح البخاري، حديث رقم (٤٢٨٠)، وفتح الباري ٩/٨.

(٢) انظر السيرة النبوية، ص ٥٦٩، د. مهدي رزق الله، وانظر المجتمع المدني، ص ١٧٩، د. العمري.

(٣) أخلاق النبي، ص ٤٠، د. الحوفي، مرجع سابق.

الضعفاء، وهذا ظاهرٌ من مواقف كثيرةٍ مرّت بنا، وهو ما يصعبُ على كثيرين استيعابه، لأنّه مسلكٌ غير مألوف في سير غالبية العظماء.

الرحمةُ لا غير، كان لها كلمة الفصل، الرحمة التي وسعت أهل مكة جميعًا، باستثناء ستّةٍ أو سبعة أشخاص، أهدر النبي ﷺ دمهم لشدة عداوتهم للإسلام وأهله، ثمّ ما لبث أن عفا عن أكثرهم، حين كلمه بعض أصحابه بشأنهم^(١).

الكاتب والمؤرّخ «واشنطن ايرفنج» الذي يُعدُّ من أوائل العلماء الأمريكيّين الذين عنوا بالحضارة الإسلامية وتاريخها - تابع أحداث فتح مكة، واستوقفه عفو النبيّ عن الدّ خصومه، فعلق عليه قائلاً: «كانت تصرّفات الرسول ﷺ في أعقاب فتح مكة تدلُّ على أنّه نبيٌّ مرسلٌ، لا على أنّه قائدٌ مظفرٌ، فقد أبدى رحمةً وشفقةً على مواطنيه، برغم أنّه أصبح في مركزٍ قويٍّ، ولكنّه توجّ نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو^(٢)».

من المؤكّد أنّ هناك دافعًا قويًّا، يكمن وراء هذه الرحمة، إضافةً إلى ما سبق ذكره، إنّهُ الحبّ، نعم، إنّهُ الحبّ، فقد ثبت لي، أنّ النبيّ ﷺ كان يحبُّ مخلوقات الله جميعًا. المؤمن والكافر والحيوان والطيور.

إنّ الحبّ الصادق، يأتي بالعجائب، وليس من شكّ في حبّ النبيّ ﷺ لأتباعه، أمّا حبّه للخير للكافرين، فقد شهد به القرآن الكريم حين يقول الله لنبيّه: ﴿لَعَلَّكَ بِنِجْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، أي كأنك تريد أن تهلك نفسك من شدة الحزن والأسى، لأنّ هؤلاء الكفار لم يؤمنوا.

لقد اشتدّ حزنه كثيرًا، وبان أسفه شفقةً منه على هؤلاء، ورحمةً منه بحالهم، لأنّه يعلم مصيرهم، إن ماتوا على الكفر، حتّى قال الله له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ

(١) انظر تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) حياة محمد، ص ٢٣٣، واشنطنجتون، مرجع سابق.

عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ ﴿٨﴾ [فاطر: ٨]، أي ارحم نفسك يا محمد، ولا يكن حزنك بهذا الشكل، فقد أدّيت ما عليك، ولم تقصّر معهم أبداً.

في هذه الساعات التاريخية، وعلى الرغم من تتابع الأحداث، تتحرك رحمة النبي ﷺ تجاه أحد أصحابه المقربين، إنه بلال بن رباح رضي الله عنه، الذي كان عبداً في مكة، يعذب فيها على رمالها الحارة بسبب إيمانه، وهو يردد أحد أحدى.

ها هو النبي ﷺ يرحم حاله، وكأنه ينظر إلى شريط الذكريات الذي يستعرضه بلال، وهو يدخل مكة بعد سنواتٍ من مغادرته لها، وإذا بالنبي ﷺ يطلب من بلال أن يصعد على ظهر الكعبة ليؤذن للصلاة.

بلالٌ فوق الكعبة يرفع صوته بالأذان، ويردد كلمة التوحيد، التي عذب من أجلها، إنه تكريمٌ ما بعده تكريم، إنها الرحمة من النبي ﷺ لبلالٍ ليردّ له كرامته، ويعيد له اعتباره في مجتمع طالما ظلمه، وقسا عليه.

إذا كانت رحمة النبي ﷺ لبلالٍ تُثير الإعجاب، فإن رحمته بأبي سفيان تثير العجب، ناصب أبو سفيان النبي ﷺ العداء منذ بداية الدعوة، وكان يتزعم قريشاً في حربها للنبي ﷺ وأصحابه، فلما أحضر أبو سفيان بين يدي النبي ﷺ، قبيل دخوله إلى مكة، أراد النبي ﷺ أن يحفظ له شيئاً من كبريائه، رحمةً به.

أعلن النبي ﷺ لأهل مكة أن مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن^(١)، فكان لها أثرٌ في جبر خاطره، وحفظ شيءٍ من ماء وجهه، أمام أهل مكة؛ لأنّ هذه الساعات كانت بداية النهاية لزعامه أبي سفيان.

فرأى النبي ﷺ أنه محتاجٌ للرحمة في هذا الموقف، وهو ما كان، ولعلّ هذا الموقف الرحيم، من النبي ﷺ كان وراء إسلام أبي سفيان، وأدّى ذلك إلى حسن إسلامه أيضاً في نفسه وأسرته.

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢، ص ٤٧٩، العمري.

وبعد فتح مكة وقعت حادثةٌ تشهد بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم تكن تدفعه انتصاراته العظيمة إلى الإصرار على تحقيق المزيد منها، وإزالة آيةِ قوَّةٍ ما زالت أمامه، بأيِّ ثمنٍ كان، كما لم يكن يستغلُّ حبَّ أصحابه، ولا رغبتهم في القتال، لتحقيق شهرة، أو حسم معركةٍ .

حاصر النَّبِيُّ ﷺ والمسلمون الطائف فترة من الزمن، وكانت حصونهم منيعةً قويَّةً، وأصيب عدد من المسلمين عند أسوار الطائف، فرحم النَّبِيُّ ﷺ حالهم، وأمر الجيش بفكِّ الحصار والرحيل، فضجَّ الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف، وأراد النَّبِيُّ ﷺ أن يُشعرهم أنه إنما اتخذ هذا القرار رحمةً بهم فحسب، فقال لهم: «لا بأس اغدوا على القتال»، فغدوا فأصابت المسلمين جراحاتٌ، فقال النَّبِيُّ ﷺ بعدها: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله»، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله يضحك، فقالوا له: يا رسول الله أدعُ على ثقيفٍ، فقال: «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم»^(١).

لقد كان للرحمة أثرٌ بارز في تغيير سير الأحداث، فهذه المعركة حصلت بعد فتح مكة، وبعد أن أصبحت القوَّة كُلُّها بيد النَّبِيِّ ﷺ، فكان من المتوقع من منظور عسكريٍّ أن يُصرَّ النَّبِيُّ ﷺ على هزيمة ثقيف، مهما كلف الأمر من خسائر، إذ لا يعقل أن يكسب معركة العاصمة مكة، وتستسلم له قريشٌ بأكملها، ويقف على أبواب الطائف عاجزًا عن فتحها، وتبقى قبيلةٌ ثقيفٍ خارجةً عن طوعه.

بيد أنَّ النَّبِيَّ ﷺ استحضر الرحمة بأتباعه، بسبب ما أصابهم من جراحات، ولم يلتفت إلى رغبتهم في القتال، فهم لهم حساباتهم، والنبيُّ له حسابٌ واحدٌ، وهو الرحمة بهم، وكذا الرحمة بأعدائهم أهل الطائف.

إذ كان يتوقَّع النَّبِيُّ ﷺ أن يستسلموا وأن يسلموا، فالمسألة مسألة وقتٍ فقط، فلم القتال والقتل إذا؟ إنَّ الرحمة في هذا الميدان أولى، ولقد كان ما توقَّعه

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ٣/٤٩٧، السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢، ص ٥١١.

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جاء أهل الطائف مسلمين طائعين، وكفى الله الجميع شرَّ مزيدٍ من القتال.

هذه جولةٌ سريعةٌ، على مظاهر الرحمة في مواطن الحرب والقتال، في سيرة نبيِّ الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحسبُها تحمل رسائل حانيةً إلى الناس كلِّ الناس.

الرسالة الأولى مفادها: الحوارُ أولاً، والرحمةُ أولاً، ولتكن الحرب آخر ما يلجأ إليه، كما فعل نبيُّ الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والرسالة الثانية مفادها: إن كان ولا بدَّ من الحرب، فلتكن حرباً رحيمةً، كما كانت حروب نبيِّ الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يكون الأطفال والنساء وقوداً لها، ولا حتى بعض من يحضرها، وليكن ضحاياها قلةً قليلةً.

والرسالة الثالثة مفادها: لتكن الحرب وسيلةً للتقريب بين الناس، وإزالة الحواجز، وتلك هي نتائج حروب نبيِّ الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أن تكون سبباً لمزيد فرقة، ولا لبث كراهية، ولا سبباً لحروبٍ أخرى، لا يعلم لها نهاية.

إنَّ كلَّ موقفٍ مرَّ بنا، وإن بدا أنَّه فرديٌّ أو عابر، إلاَّ أنَّه مظهرٌ من مظاهر رحمة النبيِّ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للبشرية، وحين يضع هذا الموقف بين أيدي البشرية، وحين يلزم أتباعه بها، فإنَّه يكون قد وضع سياسةً عامةً للبشر جميعاً، هدفها التقارب والتعاون.

لقد نجح النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تحقيق هذه الأهداف، ونجح أتباعه في الالتزام بها، وفي ممارستها.

والبشرية كلها مدعوةٌ إلى تأملها، لعلها تنتفع بها، فهي كما قلنا، صارت مناراتٍ عالميةً، لا يحدها زمان ولا مكان، وليست ملكاً لبيئةٍ أو جنسٍ بعينه.

المبحث
السادسنظرة على علاقته
بالمسلمين

رفقه ﷺ بالمرأة:

ولا أدلّ على العناية التي حظيت بها المرأة من قبل رسول الله ﷺ، من معرفتنا بأنّ النسخة الوحيدة المعتمدة من القرآن الكريم، كانت محفوظةً عند السيّدة حفصة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ وابنة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

لقد كان للمرأة في سيرة النبي ﷺ مساحةً كبيرةً في حياته، واهتماماته، لا يزاحمها فيها أحدٌ، حتى في الأوقات الحرجة، وأشدّ ما يثير الإعجاب هنا: أنّ المرأة نفسها شعرت بأنّ لها مكانةً في قلب النبي ﷺ ومنزلةً أكبر من تلك التي يمنحها لها أقرب الناس إليها.

ذهبت امرأةٌ إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها وتبته همومها، وذهبت أخرى تشتكي أباهما، وثالثةٌ اشتكت أخاها، ورابعةٌ اشتكت إليه قريبها، إنّها وقائع تكشف عن مدى ثقة النساء بالنبي ﷺ، وعن علمهنّ بسعة صدره تجاه مشاكلهنّ، وعن تعاطفه معهنّ، ورحمته بهنّ.

ولنتوقّف عند قصّة إحداهنّ وما جرى لها وكيف عالج الرسول ﷺ مشكلتها، فهذه جميلة بنت سلول رضي الله عنها، صلّت مع النبي ﷺ صلاة الفجر، ثم خرجت وانتظرتة قريباً من باب بيته، فلمّا رآها، قال: «من؟، جميلة؟» قالت: نعم يا رسول الله، قال: «ما وراءك؟» قالت: زوجي ثابت يا رسول الله، قال لها: «ما شأنه»، قالت: لا أعيب عليه شيئاً في خلقه، ودينه، ولكني لا أحبه، ولا أطيعه.

قال لها: «وما ذاك؟»، كأنه يوّد أن يعرف السبب إذا أمكن ذلك. قالت له بكلّ صراحة: لقد نظرت يا رسول الله من نافذة بيتي فرأيتك قادمًا مع أربعة من الرجال، وإذا به أقصرهم، وأشدّهم سوادًا، وأقبحهم منظرًا، فكرهته. فلمّا سمع كلامها هذا، ما زاد على أن قال لها: «أتردّين عليه حديقته؟»، يقصد المهر الذي دفعه لها، قالت: نعم. فأمره فطلّقها^(١).

يا لها من حادثةٍ عجيبةٍ، ما بال هذه المرأة لم تشتك زوجها إلى أبيها، أو أخيها، أحسب أنّها لا تجرؤ أن تقول لهما ما قالت للنبيّ محمد ﷺ، فهو لا يخلو من إحراج لها، ويجعلها عرضةً للوم أو عتاب، لأنّه تصرّف لا يليق بالمرأة في عرف المجتمع.

نظرت جميلة حولها، للبحث عمّن تبثُّ له همومها وشعورها الأنثوي، فلم تجد غير النبيّ محمد ﷺ، ولقد كان عند حسن ظنّها، وهو كذلك، فإنّه لم يعاتبها على صنيعها، بل لم ينصحها بالعدول عن رغبتها بفراق ثابت، واكتفى بالإشارة إلى حقّ زوجها رحمةً به، إذ لا يعقل أن يخسر زوجته، ويخسر معها حديقته.

لقد رحم النبيّ ﷺ حالها، وتفهم شعورها، ولم يغب عن خاطره أيضًا أن يستحضر رحمته هذه، وهو يكلم زوجها ثابتًا بالأمر، فقد استدعاه النبيّ ﷺ وقال له: «يا ثابت، جاءني جميلة، وأنا أطلب منك أن تطلّقها»، وتأخذ حديقتك، قال: أفعل يا رسول الله^(٢).

(١) رواه البخاري وغيره بروايات متعددة، انظر البخاري، باب الخلع، حديث رقم (٥٢٧٣) إلى حديث رقم (٥٢٧٧).

(٢) في مرسل أبي الزبير عن الدار قطني والبيهقي ٣١٤/٧: «... فأخذ ماله وخلي سبيلها، فلمّا بلغ ذلك ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، قال: قد قبلت قضاء رسول الله ﷺ...»، قال الحافظ ابن حجر: «ورجال إسناده ثقات»، فتح الباري ٤٠٢/٩.

الجدير بالملاحظة هنا: أنَّ ثابت هذا كان الناطق الرسمي باسم النَّبِيِّ ﷺ في مصطلحات عصرنا، لقد كان خطيب النَّبِيِّ ﷺ في المحافل العامة، أما أبو جميلة زوجته فهو عبد الله بن أبي بن سلول، أحد زعماء قومه، قبل مجيء النَّبِيِّ ﷺ إلى المدينة، وأشدَّ خصوم النَّبِيِّ ﷺ في المدينة على الإطلاق .

وكانت رحمة النَّبِيِّ ﷺ في هذا الموطن فوق كل اعتبار. فلم ينتصر لزوجها ثابتٍ، رغم قربه منه، ومحَبَّتَه له، ولم ينتقم من أبيها عبد الله بن سلول، رغم عداوته له، فلم يلتفت في تلك الساعة إلا إلى المرأة جميلة فقط فأنصفها. هذه واحدة أخرى تشتكي، أباهَا إلى النَّبِيِّ ﷺ، إنها خنساء بنت خدام، فقد جاءت إلى النَّبِيِّ ﷺ تشتكي أباهَا، قائلة: إِنَّهُ زَوَّجَهَا مِنْ شَخْصٍ لَا تَحِبُّهُ، وَلَمْ يَأْخُذْ بِرَأْيِهَا، فَأَبْطَلَ النَّبِيُّ ﷺ النِّكَاحَ مَبَاشَرَةً دُونَ مَا نَقَّاشَ^(١).

لقد أكَّد النَّبِيُّ ﷺ بهذا التصرف، أنَّ عهد العبودية للفتاة من قبل أبيها، أو غيره، قد ذهب دونما رجعة، ولهذا أبطل هذا النكاح، رحمةً منه بهذه الفتاة، لأنَّه تصوَّر كيف ستكون حياتها مع زوج لا تحبُّه.

أما هند بنت عتبة، فقد جاءت إلى النَّبِيِّ ﷺ تشتكي إليه بخل زوجها أبي سفيان، قائلة: ليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه، وهو لا يعلم، فقال لها النَّبِيُّ ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»^(٢).

فإنَّ رحمة النَّبِيِّ ﷺ تأبى عليه أن تعيش في كنفه امرأة تعاني هي وولدها، ضيق العيش، وزوجها قادرٌ على أن ينفق عليهما، لكنَّه يبخل.

وامرأة أخرى تفرُّ من قومها - وكانوا يضايقونها، لأنها مسلمةٌ وهم كفَّارٌ - إلى النَّبِيِّ ﷺ، إنها أمُّ كلثوم بنت عقبة، فقد غادرت مكة مهاجرةً إلى المدينة،

(١) انظر صحيح البخاري، حديث رقم (٥١٣٨).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٣٦٤)، وصحيح مسلم، حديث رقم (١٧١٤).

بعد أن وقع النبي ﷺ المعاهدة مع قريش، والتي كان من ضمنها أن يرد النبي ﷺ من يأتيه مسلماً من أهل مكة.

ولمّا جاءت أمّ كلثوم مسلمةً لم يردّها النبي ﷺ بنصر القرآن الكريم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجَّرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وتمّ استثناء النساء من هذا الشرط، وقال لقريش إنّما الشرط في الرجال، رحمةً بهنّ، وتقديرًا لحالهنّ، رغم أنف قريش^(١).

أمّا أمّ هانئ، بنت عمّ النبي ﷺ، وأخت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي أخاها علياً حيث لم يُقم لها أيّ اعتبار، حين أراد يوم فتح مكة أن يقتل اثنين من أقارب زوجها استجارا بها، ودخلا بيتها. فأغلقت عليهما باب بيتها.

جاءت إلى النبي ﷺ مسرعةً، وقالت له، وهي غاضبة: إن ابن أمي هذا، وتقصد أخاها علياً، لكنّها لم تشر إليه بالأخوة، لأنّها غاضبةٌ منه، إنّه يريد أن يقتل من استجارا بي، وطلبا الحماية مني، فما كان من النبي ﷺ إلا أن تبسّم، وقال لها: «قد أجرنا من أجرت يا أمّ هانئ»، فجير خاطرهما، ولبيّ طلبها^(٢).

فخرجت من عنده وهي مسرورةٌ فخورةٌ بما حققت، ولعلّها لا تدري أنّ رحمة النبي ﷺ بالمرأة وحرصه على أن يردّها الاعتبار الذي فقدته في الجاهلية، كان السبب فيما حصلت عليه من تلبيةٍ لطلبها.

حظيت المرأة بنظرةٍ حانيةٍ من النبي ﷺ، لم تحظ بها في تاريخها الطويل، وكان النبي ﷺ وهو يقف إلى جانب المرأة يهدم أعرافاً، عاشت عليها المجتمعات قروناً، ولم يألُ جهداً في وضع المرأة الموضوع اللائق بها، مستخدماً وسائل عدّة، لأنّه كان يرحم حالها الذي آلت إليه.

(١) انظر: تفسير الطبري ٦٩/٢٨ دار الفكر.

(٢) انظر صحيح البخاري، حديث رقم (٣١٧١).

بدأت معاملته الحسنة مع أهل بيته، وحثَّ الناس على هذه المعاملة، فكان مما قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(١) ونقلت عنه زوجته عائشة، أنه «ما ضرب شيئاً بيده، لا امرأةً ولا خادماً»^(٢).

هذه رسالة رحمةٍ يبعثها النبي محمد ﷺ إلى كلِّ زوج، وأبٍ، بل إلى كلِّ رجلٍ، وإلى البشر جميعاً، فعن الأسود قال: سألت عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله، قالت: «كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة، قام إلى الصلاة»^(٣).

كان النبي ﷺ يرحم نساءه، ويساعدهنَّ في أعمال البيت، لشعوره بحاجة الزوجة إلى هذا العون، وهذا العمل لا يتنافى مع العظمة، ولا مع الرجولة، كما يتوهم بعض الأزواج، وأرجو من النساء أن لا يثرن مشاكل في البيت بعد معرفتهنَّ بهذه المواقف؛ لأنَّ مكارم الأخلاق تنبع من ذات الإنسان ولا تُفرض عليه.

حثَّ النبي ﷺ على ملاطفة المرأة، وملاعبتها، حتى قال: «كلُّ شيءٍ ليس من ذكر الله عزَّ وجلَّ لهوٌ وسهوٌ، إلاَّ أربع خصالٍ»، وذكر منها «ملاعببة الرجل امرأته، والسباحة»^(٤).

الأعجب من ذلك التوجيه النبويِّ الرائع الذي وجَّهه النبي ﷺ إلى الرجال، وكان أوَّل من عمل به، وهو عدم الدخول على الزوجات فجأةً، بعد المجيء من السفر.

فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبي ﷺ قال: «لا تطرقوا النساء، وأرسل من يؤذن الناس أنه قادمُ الغد»^(٥) ليلبغ الزوجات أنَّ الأزواج قدموا من السفر.

(١) رواه الترمذي، حديث رقم (٣٨٩٥)، وهو صحيح، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ١، ص ٥٧٥.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٢٨). (٣) رواه البخاري، حديث رقم (٦٠٣٩).

(٤) رواه النسائي في سننه الكبرى، حديث رقم (٨٨٩٠).

(٥) حديث صحيح، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ٧، ص ٢٢٣، الألباني.

وكان النبي ﷺ يتوجّه هو وأصحابه إلى المسجد، يصلي فيه قليلاً، ثم يتوجّه هو وأصحابه إلى بيوت الزوجات، اللاتي ما إن يسمعن بمقدم الأزواج، حتى تُبادر كلٌ واحدةٍ منهنّ بتهيئة نفسها لزوجها، وهذا من النبي ﷺ قمةٌ في الذوق وغاية الرحمة والتلطف، ويُعدّ من التصرفات الراقية في هذا العصر.

وكان النبي ﷺ يلاعب نساءه، وتروي لنا أمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها لنا هذه القصة، حين تقول: خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جاريةٌ لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال للناس: «تقدّموا»، فتقدّموا، ثم قال لي: «تعالى حتى أسابِقك»، فسابقته فسابقته، فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدنت، ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدّموا»، فتقدّموا، ثم قال لي: «تعالى حتى أسابِقك»، فسابقته فسابقني، فجعل يضحك، ويقول: «هذه بتلك»^(١).

قد يكون من العسير تفهّم واستيعاب هذه المواقف النبوية مع النساء من قبل أولئك، الذين جعلوا في أذهانهم مواصفات للعظمة، من خلال زهد بوذا، وهجرانه لزوجته، أو من خلال احتقار بعض العظماء للمرأة وتجاهلها، والنظر إليها على أنّها مجرد أداة للمتعة، أو آلة للإنجاب، ولهذا لا ينبغي التشاغل بها كما مرّ بنا سابقاً.

إنّ النبي ﷺ نظر إلى المرأة على أنّها نصف الدنيا، حين عدّ النساء شقائق الرجال، فقال: «النساء شقائق الرجال»^(٢).

ومن أجمل ما وصف به النبي ﷺ النساء وصفه إياهنّ بالقوارير، والقوارير جمع قارورة، وهي الإناء من الزجاج، وهو عرضة للكسر، بسبب رقته وضعفه، وهذا يقتضي معاملته بلطف والترفق به، وهكذا كان ينظر النبي ﷺ إلى النساء.

(١) رواه أبو داود، برقم ٢٥٧٨.

(٢) رواه أبو داود، ح ٢٣٦، قال الألباني: «حسن»، وانظر مسند أحمد ٢٦١٩٥، وتخريجه مفصلاً فيه.

تحدّث أنس بن مالك ، قال : كان النبي ﷺ في بعض أسفاره ، ومعه غلامٌ أسودٌ يقال له ، أنجشة ، يحدو بهنّ وكان حسن الصوت ، أي : ينشد ، فقال له رسول الله ﷺ : «رويدك يا أنجشة ، لا تكسر القوارير . . . يعني : ضعفة النساء»^(١).

قال بعض الشراح ، إنّ أنجشة كان حسن الصوت ، وكان يحدو بهن ، وينشد شيئاً من الشعر ، وربّما فيه بعض الغزل ، فلم يأمن النبي ﷺ أن تتأثر النساء بما يسمعن ، لحسن صوت أنجشة ، ولأثر الكلام الذي يقوله ، فطلب منه الكفّ عن هذا رحمةً منه بالنساء^(٢).

وهذه أسماء بنت عميس ، تأتي إلى النبي ﷺ تستشيريه في مسألة جدّ شخصية ، بشأن زواجها ، فقد تقدم لها اثنان من الصحابة ، هما معاوية وأبو جهم ، فرغبت في أخذ رأي النبي ﷺ وتوجيهه . فقال لها : «لا هذا ولا ذاك ، فإنّ معاوية لا مال عنده ، وأما أبو جهم فهو شديدٌ في معاملة النساء ، وأشير عليك أن تتزوّجي أسامة بن زيد»^(٣) ، فأخذت بمشورة النبي ﷺ وتزوّجته .

إنّ النبي ﷺ رحم أسماء وأشفق عليها ، حين نصحها بعدم الزواج من معاوية ، بسبب فقره ، حتى لا تعيش حياةً صعبةً ، كما رحمها مرة أخرى ، حين نصحها بعدم الزواج من أبي جهم ، فإنّه وإن كان ذا مال ، إلا أنّه قاسٍ في معاملة النساء ، ولا يرضى لها النبي ﷺ الحياة مع زوج هذه صفته .

هذا موقف يستدعي التأمل ، ويثير الإعجاب ، فإن هذه المرأة تعلم ، كما تعلم غيرها من النساء كثرة المهام الجسام المنوطة بالنبي ﷺ . ومع هذا كان لديهن شعور بأن النبي ﷺ سوف يقطع لهن جزءاً من وقته .

(١) رواه البخاري ، حديث رقم (٦٢١١) ، ومسلم ، حديث رقم (٢٣٢٣) .

(٢) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٨١٨٠) .

(٣) رواه مسلم ، حديث رقم (١٤٨٠) .

وهذه زينب زوج الصحابي المقرب من النَّبِيِّ ﷺ عبد الله بن مسعود، تأتي تستشير النَّبِيَّ ﷺ في أمر، فيرى أن استشارتها نابعة من رحمة كامنة في نفسها، فيفسح لها المجال، لممارسة هذه الرحمة بكل طمأنينة .

فقد رغبت أن تتصدق بشيء من مالها، ولكنها في الوقت نفسه، ترى أن زوجها وابنها بحاجة إلى هذه الصدقة، فيتجاذبها شعوران، شعور بالرغبة في التصدق على بعض الفقراء، رغبة في الأجر، وشعور آخر بدفع هذا المال إلى زوجها وابنها رحمةً منها بهما.

فما كان أمامها إلا أن قصدت بيت النَّبِيِّ ﷺ، تسأله عن هذا النوع من الصدقة، فقرأ النَّبِيُّ ﷺ رسالتها، كما يقولون، وأخبرها أن لها في صدقتها هذه أجرين، أجر القرابة وأجر الصدقة^(١). فرجعت مسرورة بهذا التوجيه النبوي، الذي بث فيه النَّبِيُّ ﷺ الرحمة بين أفراد الأسرة الواحدة، وجعل لهذه المرأة الفاضلة مخرجاً حسناً في هذا الأمر الذي كان يشغل بالها.

يتفطن نبي الرحمة ﷺ إلى بعض النساء اللاتي لا يملكن الملابس المناسبة لحضور بعض المناسبات، كالأعياد، فيقول لأم عطية^(٢) وقد تحدثت معه في هذا الأمر، لتلبس المرأة أختها من ملابسها، وهذه لفظة حانية من قلب رحيم، نفذ ببصيرته إلى عالم المرأة، فوجه هذا التوجيه الحكيم، الذي جبر فيه خاطر بعض النساء، ورفع عنهن الحرج، وسن بين النساء سنة لطيفة يحسن بالنساء التنبه إليها.

وعندما فتح النَّبِيُّ ﷺ مكة، هرب منها عكرمة بن أبي جهل، ابن أشهر خصومه، وهام على وجهه، قاصداً جهة اليمن، وإذا بزوجته أم حكيم، وكانت

(١) أصل الحديث متفق عليه، فقد أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، حديث رقم (١٤٦٦)، ومسلم في كتاب الزكاة، حديث رقم (١٠٠٠).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٥١).

قد أسلمت. تذهب إلى النبي ﷺ وتتوسل إليه أن يعفو عن عكرمة، وتقول له: يا رسول الله، قد هرب منك عكرمة إلى اليمن، وخاف أن تقتله، فأمنه، فرحم النبي ﷺ حالها وقدر وضعها، فقال لها بلا تردد: «هو آمن».

خرجت أم حكيم في أثر زوجها، فأدركتها، وقد ركب البحر، فقالت له: يا ابن عم جئتك من عند أوصل الناس، وأرحم الناس، وخير الناس، فلا تهلك نفسك. عاد عكرمة مع زوجته، البارّة الوفيّة أم حكيم، فدخل على النبي ﷺ، وهي معه، فلمّا دخل عكرمة على النبي ﷺ، قام النبي ﷺ مسرعاً إليه ومرحباً به، لشدة سروره بقدمه. فقال عكرمة: يا محمد إنّ هذه أخبرتني أنك أمتني. فقال النبي ﷺ: «صدقت، أنت آمن»، فأسلم وحسن إسلامه^(١).

كان من منهج النبي ﷺ أن يوسّع دائرة الرحمة هذه، ليتعامل بها أصحابه مع النساء، لأنّه يرغب في نشر ثقافة الرحمة بالمرأة على أوسع نطاق، وهو ما تمثّل في طلبه من بعض أصحابه التخلف عنه في سفر، أو قتال لرعاية النساء رحمةً بهنّ، وتقديرًا منه لظروفهنّ.

فقد أذن لعددٍ من أصحابه، بالتخلف عن القتال معه، بل طلب منهم هذا، بسبب ظروف زوجاتهم، فقد تخلف عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه بسبب مرض زوجته^(٢).

وأذن لأبي طلحة رضي الله عنه أن يتخلف عنه في المسير ليبقى بجانب زوجته، التي كانت على وشك الولادة^(٣). كذلك طلب من أبي أمامة أن يبقى مع أمّه المريضة، ولا يخرج معه للقتال.

(١) انظر: المستدرک علی الصحیحین ٣/٢٤١-٢٤٢.

(٢) صحیح البخاری، حدیث رقم (٣٦٩٨).

(٣) المرأة في العهد النبوي، ص ١٦٣.

وردَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هاجر إليه، دون إذن أبويه، بخاصة عندما علم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه أن أمّه بكت لفراقه، وقدم على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلٌ يطلب البيعة على الهجرة، فقال: وما جئتك حتى أبكيْتُ والديَّ، فقال: «ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما»^(١). وكان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يواسي النساء اللاتي فقدن أحد أقاربهن في قتالٍ مع النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان يُكثر الدخول على بيت أمِّ سليم، فقيل له: لم تخص أمَّ سليم، فقال: «إني أرحمها، قُتل أخوها معي»^(٢).

رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبنات:

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرحم الناس بالبنات، إذ الإساءة إليهنَّ أكثر. ومن أشدَّ الإساءات أن بعضهم كانوا يئدون بناتهم ويضيقون بولادتهنَّ، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥١﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

فقد جاء قيس بن عاصم التميميُّ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إنِّي وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعتق عن كلِّ واحدةٍ رقبةً»، قال: إنِّي صاحب إبلى، قال: «فأهد عن كلِّ واحدةٍ بدنة»^(٣).

وجاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقصَّ عليه ما كان له مع بنته، حين كان يئدها، فلم يملك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه، وأمطرت عينه وإبلاً من الدموع حتى أخضلت لحيته.

فقد روى الدارمي أن رجلاً أتى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي فلما أجابت، وكانت مسرورةً بدعائي إذا دعوتها.

(١) السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٢، الصلابي.

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٢٤٥٥).

(٣) البزار: كشف الأستار رقم ٢٢٨٠، والطبراني ٣٣٧/١٨.

فدعوتها يومًا، فاتبعني، فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول يا أبتاه أبتاه! فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه.

فقال له رجلٌ من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ، فقال له: «كفَّ فإنه يسأل عما أهمه»، ثم قال له: «أعد عليّ حديثك»، فأعاده فبكى حتى وكفَّ الدمع من عينيه على لحيته، ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا فاستأنف عملك»^(١).

شدّد النبي ﷺ في ذلك، حتى انقلب المجتمع رأساً على عقب، وأصبح الذين يئدون بناتهم يتخاصمون في تربية اليتامى.

ففي حديث صلح الحديبية، عن البراء أن النبي ﷺ دخل مكة: «اعتمر النبي ﷺ... فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام».

يقول البراء: «فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليّاً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعتهم ابنة حمزة: ياعمّ ياعمّ؛ فتناولها علي، فأخذها بيدها، وقال لفاطمة عليها السلام، دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها عليٌّ وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أحقّ بها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، ففضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخاله بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مئّي وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»^(٢).

وقد حرص النبي ﷺ على تربية البنات خاصّة، وبشّر بشارات عظيمة عليها. وفي ذلك أحاديث كثيرة لا يسع لها هذا المقام، منها: قول النبي ﷺ: «من ابتلي

(١) سنن الدارمي ١٤/١، حديث رقم (٢).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٦٩٩).

من هذه البنات بشيءٍ كُنَّ له سترًا من النار»^(١).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو وضَمَّ أصابعه»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال ثلاث بناتٍ فأدبهنَّ وزوجهنَّ وأحسن إليهنَّ فله الجنة»^(٣).

«وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له أنثى، فلم يتدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها - يعني الذكور - أدخله الله الجنة»^(٤).

ترخيصه ﷺ للبنات بالغناء الذي لا معصية فيه :

فمن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ، وعندني جاريتان تغنيان بغناء بُعات، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، فدخل أبو بكر فانتهرني^(٥) وقال: مزمارُ الشيطان عند رسول الله ﷺ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما».

وفي رواية فانتهرهما أبو بكر فكشف رسول الله ﷺ عنه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»^(٦).

وكان يردف الجواري كذلك، قد أخرج محمد بن إسحاق في السيرة عن امرأة من بنى غفار قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ في نسوةٍ من بني غفار: فقلنا يا رسول الله!

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٦٢٩)، وصحيح مسلم، حديث رقم (١٤٧).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٦٣١).

(٣) سنن أبي داود، حديث رقم (٥١٤٧)، قال الألباني: «ضعيف».

(٤) مسند أحمد، حديث رقم (١٩٥٧)، سنن أبي داود، حديث رقم (٥١٤٦)، قال الألباني: «ضعيف».

(٥) فانتهرني: زجرني زجرًا شديدًا.

(٦) سيرة ابن هشام ٣/٢٩١، انظر: صحيح البخاري، حديث رقم (٩٨٧) و(٣٥٢٩)،

وصحيح مسلم، حديث رقم (٨٩٢).

قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا، وهو يسير إلى خيبر، فنداوي الجرحى ونُعين المسلمين بما استطعنا، فقال: «على بركة الله»، قالت: فخرجنا معه، وكنت جاريةً حديثةً، فأردفني رسول الله ﷺ على حقة رحله، فذكر الحديث بطوله^(١).

عنايته ﷺ بالأطفال:

أعطى الإسلام اهتمامًا بالغًا بالطفولة، وحفظ للطفل حياته منذ تكوُّنه جنينًا وأولاه الرعاية والعناية صغيرًا، وحظر على الوالدين أن يهملوا تربيته.

وقد ترك لنا رسولنا الكريم إرثًا كبيرًا من المواقف والقصص والأحداث التي تعلمنا التعامل مع الأطفال، وعدم اعتبارهم قصيرًا بعيدين عن إدراك ما يحدث حولهم من أمور، والباحث في هذا الإرث يجد مدرسة متكاملة المناهج، ثابتة المبادئ، راسخة الأصول في التربية والتنشئة الصالحة.

فقد كان النبي ﷺ شديد الاهتمام بالأطفال؛ ولذلك فقد دعا إلى تأديبهم، وغرس الأخلاق الكريمة في نفوسهم، وحثَّ على رحمتهم والشفقة عليهم، فقال ﷺ: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حقَّ كبيرنا، فليس منَّا»^(٢).

ولقد كان ﷺ على عظيم قدره، وعلو منزلته، هو الذي يبدأ بالسلام على الأطفال حبًا لهم، ورفقًا بهم، وتلطُّفًا معهم، ولإشعارهم بمكانتهم وإعطائهم الثقة بأنفسهم، وقد مدحهم وأثنى عليهم، كما فعل مع ابن عمر رضي الله عنهما^(٣).

وقد كان لا يكثر عتابهم، ويعذرهم ويرفق بهم؛ كما فعل مع أنس بن مالك رضي الله عنه. وكان لا يأنف من الأكل معهم، ومع ذلك لو رأى منهم مخالفةً للأدب، نصحهم وأمرهم بما يصلحهم.

(١) سيرة ابن اسحاق ص ٣١٣.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، حديث رقم (٤٩٤٣)، قال الألباني: «صحيح».

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٣٧٤٠-٣٧٤١).

فقد نصح عمر بن أبي سلمة بأداب الطعام بلين ورفق ورحمة، لَمَّا رَأَى مِنْهُ مخالفة الأَدب^(١)، وكان يوصيهم بالخير، ويعلمهم التوحيد والدين، فلم يكن رِفْقُهُ وشفقته العظيمة عليهم بمانعة له من نصحتهم وإرشادهم وإصلاحهم، فقد أوصى ابن عباس رضي الله عنهما فقال له: «احفظ الله يحفظك . . . إذا سألت فاسأل الله . . .»^(٢).

وكلُّ هذا الاهتمام منه صلى الله عليه وسلم بالأطفال، جاء لعلمه بأنهم في أشدِّ الحاجة إلى الرعاية والعطف والحنو أكثر من غيرهم، وذلك لتنمية ثقة الطفل بنفسه حتى ينشأ قويا ثابت الشخصية، مَرِحًا عَطُوفًا على غيره، عضواً فَعَالًا في مجتمعه^(٣).

وسنورد بعضًا من النماذج الجليلة، والمواقف الشريفة، والأساليب الحكيمة من تعامل النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مع الأطفال، وكيف كان تواضعه، وحبُّه لهم، ورحمته بهم، وشفقته عليهم، والغرض من ذلك تحفيز القلوب، وحثُّها على التَّأْسِّي بقدوتنا وإمامنا محمد بن عبد الله - عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم -، فمن تلك النماذج المشرقة ما يلي:

تبريكة صلى الله عليه وسلم على الأطفال وتحنيكهم والدعاء لهم:

كان النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يوتى بالصبيان، فيُبْرِك عليهم، ويحنِّكهم، ويدعو لهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتى بالصبيان، فيبْرِك عليهم، ويحنِّكهم، ويدعو لهم»^(٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب الأَطْعَمَة، حديث رقم (٥٣٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٥٩)، حديث رقم (٢٥١٦)، قال الألباني: «صحيح».

(٣) راجع «مبدأ الرفق في التعامل مع المتعلمين من منظور التربية الإسلامية»، ص (١٢٣) - (١٢٤) لصالح بن سليمان المطلق.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات (١١/١٥٥)، حديث رقم (٦٣٥٥).

عن عائشة «أن النبي ﷺ وضع صبيًا في حجره يحنّكه، فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه»^(١).

يقول ابن حجر - رحمه الله - في الفتح: ومن فوائد هذا الحديث: «الرفق بالأطفال، والصبر على ما يحدث منهم، وعدم مؤاخذتهم، لعدم تكليفهم»^(٢).

وعن أنس قال: ذهبتُ بعبد الله بن أبي طلحة الأنصاري إلى رسول الله ﷺ حين ولد، ورسول الله ﷺ في عباءة يهنأُ بعيرًا له فقال: «هل معك تمر؟» فقلت: نعم. فناولته تمرات، فألقاهن في فيه، فلاكهنَّ ثم فغَرَ فا الصبيِّ فمَجَّه في فيه، فجعل الصبيُّ يتلمَّظُه، فقال رسول الله ﷺ: «حُبُّ الأنصارِ التمر» وسمَّاه عبد الله^(٣).

وعن أنس قال: غدوت إلى رسول الله ﷺ بعبد الله بن أبي طلحة ليحنّكه، فوافيته في يده الميسم، يسمُّ إبل الصدقة^(٤).

سلامه ﷺ على الأطفال، والمسحُ على رؤوسهم:

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار، ويُسلمُ على صبيانهم ويمسحُ على رؤوسهم^(٥).

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: مسح رسول الله ﷺ بيده على رأسي، قال: أظنُّه قال ثلاثاً، فلما مسح قال: «اللهم اخلف جعفرًا في ولده»^(٦).. وقال الذهبي: صحيح.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٠٠٢).

(٢) فتح الباري (٤٣٤/١٠).

(٣) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله (٣/١٦٨٩)، حديث رقم (٢١١٤).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الزكاة (٣/٣٦٦)، حديث رقم (١٥٠٢).

(٥) رواه النسائي وابن حبان وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع، حديث رقم (٤٩٤٧).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک (١/٣٧٢).

وعن مصعب بن عبد الله قال: عبد الله بن ثعلبة ولد قبل الهجرة بأربع سنين، وحُمِلَ إلى رسول الله ﷺ فمسح وجهه، وبرك عليه عام الفتح، وتوفي الرسول ﷺ وهو ابن أربع عشرة^(١). ومن هذه الأحاديث نعرف كيف كان النبي ﷺ يُشعرُ هؤلاء الصغار بلذة الرحمة والحنان، والحبِّ والعطف، وذلك بالمسح على رؤوسهم، الأمر الذي يشعر الطفل بوجوده، وحبِّ الكبار له، واهتمامهم به.

وعن جابر بن سمرة قال: صليت مع الرسول ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله، وخرجتُ معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم واحداً واحداً، قال: وأما أنا فمسح خدي، قال: فوجدتُ ليدِهِ بردًا أو ريحًا، كأنما أخرجها من جُونةٍ عطارٍ^(٢).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ على غلمانٍ يلعبون فسلم عليهم^(٣).

لقد كان ﷺ بهذا الأسلوب يُدخلُ السرور والفرح إلى نفوس هؤلاء الناشئة، ويعطيهم الدفعة المعنوية في التعود على محادثة الكبار، والأخذ والعطاء معهم، وهذا من حكمته ﷺ.

وعن أنسٍ قال: انتهى إلينا رسول الله ﷺ، وأنا غلامٌ في الغلمان، فسلم علينا، ثم أخذ بيدي فأرسلني برسالة، وقعد في ظلِّ جدارٍ - أو قال إلى جدارٍ - حتى رجعت إليه^(٤).

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢٧٩/٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل (١٨١٤/٤)، حديث رقم (٢٣٢٩).

(٣) رواه أبو داود كتاب الأدب، حديث رقم (٥٢٠٢)، قال الألباني: "صحيح".

(٤) رواه أبو داود، حديث رقم (٥٢٠٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، حديث رقم (٤٣٣٥).

مداعبته ﷺ الصغار وملاطفتهم:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول: «يا زوينب، يا زوينب» مراراً^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان الرسول ﷺ ليُدلّع لسانه للحسين بن علي، فيرى الصبيّ حمرةً لسانه، فيبهشُ إليه، أي يسرع إليه^(٢).

وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فدُعينا إلى الطعام، فإذا الحسينُ يلعب في الطريق مع صبيانٍ، فأسرع النبيُّ ﷺ أمام القوم، ثمّ بسط يده فجعل - الغلام - يفرُّها هنا وهناك، فيضاحكُه رسول الله ﷺ، حتى أخذَه فجعل إحدى يديه في ذقنه، والأخرى بين رأسه وأذنيه، ثم اعتنقه وقبله، ثمّ قال: «حسينٌ مِنِّي وأنا منه، أحبُّ الله من أحبِّه، الحسنُ والحسينُ سبطان من الأسباط»^(٣).

وروى البخاري في الأدب المفرد والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أذناي هاتان وبصرت عيناي هاتان، والرسولُ ﷺ أخذ بيديه جميعاً، بكفِّي الحسن والحسين، وقدميه على قدم رسول الله ﷺ، والرسولُ ﷺ يقول: «ارقه» قال: فرقى الغلام، حتى وضع قدميه على صدر الرسول ﷺ ثم قال الرسول ﷺ: «افتح فاك»، ثمّ قبله، ثمّ قال: «اللهم إني أحبُّه فأحبِّه»^(٤).

وقد وقف بين يديه ذات مرة محمود بن الربيع، وهو ابنُ خمس سنين، فمَجَّ ﷺ في وجهه مَجَّةً من ماء، من دلوٍ يمازحه بها، فكان ذلك من البركة،

(١) رواه الضياء المقدسي، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢١٤١).

(٢) رواه أبو الشيخ في كتاب «أخلاق النبي ﷺ وآدابه»، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٧٠).

(٣) الطبراني في الكبير ٣/٣٢، (٢٥٨٦) وانظر تخريجه الكامل فيه.

(٤) اللفظ الأخير في البخاري، كتاب المناقب (٧/٩٤)، حديث رقم (٣٧٤٩).

أنه لما كبر لم يبق في ذهنه من ذكر رؤية النَّبِيِّ إِلَّا تلك المَجَّة، فَعُدَّ بها من الصحابة^(١).

ودخلت عليه ربيته زينب بنت أم سلمة، وهو في مغتسله، فنضح الماء في وجهها، فكان في ذلك من البركة في وجهها أنه لم يتغير، فكان ماء الشباب ثابتاً في وجهها ظاهراً في رونقها، وهي عجوزٌ كبيرة^(٢).

وعن أنس قال: كان رسولُ الله ﷺ يدخلُ علينا، وكان لي أخٌ صغيرٌ، وكان له نُعْرٌ نلعب به، فمات، فدخل النبي ﷺ ذات يوم فرآه حزينا فقال: «ما شأنُ أبي عمير حزينا؟» فقالوا: مات نُعْرُه الذي كان يلعب به يا رسول الله، فقال: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟ أبا عمير ما فعل النغير؟»^(٣).

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في الفتح: «إنَّ هذا الحديث فيه جواز الممازحة وتكرير المزاح، وأنها إباحةٌ سنَّةٌ لا رخصة، وأنَّ مَمازحة الصبي الذي لم يميز جائزٌ؛ وتكرير زيارة الممزوح معه، وفيه ترك التكبر والترفع، ومنه التلطف بالصديق، صغيراً كان أو كبيراً، والسؤال عن حاله»^(٤).

وفي هذا الحديث من الفوائد التربوية الشيء الكثير، فمنها:

على الرغم من حجم الدعوة التي يقوم بها الرسول ﷺ، ورغم كثرة المشاغل التي تواجهه، والأعمال التي يقوم بها: من عبادةٍ وتربيةٍ وجهادٍ وتسيير أمور الدولة الإسلامية إلا أنه جعل له وقتاً، لتربية أطفال المسلمين، وهذا الوقت المستقطع يعتبر بحد ذاته مكسباً تربوياً.



(١) صحيح البخاري، كتاب العلم رقم (٧٧).

(٢) راجع «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٣٥٤/٢).

(٣) مسند أحمد (١٤٠٧١)، قال مخرجه: «إسناده صحيح على شرط مسلم...»، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٤٧)، وأبو داود (٤٩٦٩)، وغيرهم، قال الألباني: «صحيح».

(٤) فتح الباري (٥٨٤/١٠).

استخدامُ الرَّسُولِ ﷺ أسلوبَ التكنية للطفل الصغير، فقال له: يا أبا عمير!، وهذه التكنية تشعره: بأنه مقدَّرٌ ومحترمٌ من الكبار؛ فيتطلَّعُ إلى معالي الأمور.



تضمنت عبارته توجيهاتٍ تربويةٍ عظيمةٍ، وهي:



✿ العبارة قصيرةٌ من حيث عدد الكلمات؛ حيث كان عدد الكلمات ستَّ كلمات وعدد أحرفها اثني عشر، وتلك الكلمات مناسبةٌ لسنِّ الصغير.

✿ الجملة سهلةُ النطق، وخاليةٌ من الكلمات الصعبة، فمن السهل أن ينطق الصغيرُ بها؛ يا..أبا.. عمير.. ما.. فعل.. التَّغْيِيرِ...

✿ الجملة سهلةُ الاستيعاب، ومضمونها معروفٌ؛ من الإمكان أن يستوعبها الطفلُ ويعرفَ مضمونها.

✿ الجملة سهلةُ الحفظ، لوجودِ السجع، والسجعُ محبَّبٌ لنفسِ الطفل، ويستجيبُ له استجابةً تلقائيةً، يعبر عنها بابتسامَةٍ وضحكةٍ.

✿ فواصلُ الجملة مناسبةٌ لِنَفْسِ الطفل؛ نلاحظ في الجملة أن فواصلها مناسبة للوقت الزمني الذي يردُّه الطفل، فالجملة تبدأ: يا أبا عمير! هذا المقدار مناسبٌ لِنَفْسِ الطفل. ما فعلَ النغير، هذا المقدار مناسبٌ لِنَفْسِ الطفل. بداية الجملة: نداء - سكتة - استراحة - استفهام أُغْلِقَتِ الجملة. يا أبا عمير ما فعلَ النغير!؟

✿ تَنَزَّلُ الرَّسُولُ ﷺ إلى المستوى العقليِّ للطفل (أبا عمير)، وهذا من شأنه إدخال السرورِ في نفسِ الطفل وأهله، ويُعتبر ذلك سلوكاً تربوياً ودعويّاً، حيث تزداد محبةُ أهلِ الطفل لرسولِ الله ﷺ، وأيضاً يُثْمِرُ التفاعل بين الرَّسُولِ ﷺ والطفل.

ولعلَّ من الأمراض النفسيَّة التي تصيب الشباب، ولها امتدادٌ إلى أيَّام طفولتهم، حرمانهم من عطف والديهم فيصابون بأمراض: كالانطواء، التوحُّد، الغيرة، التبرير، وغيرها.

❁ عندما يكبرُ (أبو عمير) ويعلم بأنَّ رسول الله ﷺ قد داعبه، فإنَّ ذلك يدعو إلى ازدياد محبَّته لرسول الله ﷺ، ومنها تنهياً نفسه لتلقِّي الجوانب التربوية، والعبادية، والجهادية من الرسول ﷺ.

وهذا ما وجدناه في وقتنا الحاضر عندما يقوم بتعليمنا مدرسٌ، وهو بلا شكَّ سيترك أثراً في نفوسنا، وخاصَّةً عندما يكون دَمَتْ الأخلاق متديناً يحبُّ التلاميذ، ويقدرهم ويشجِّعهم على تلقي العلوم، وعندما نراه بعد عدَّة سنوات؛ فإنَّنا نقدِّره ونحترمه ونودُّ خدمته، وذلك ناتج عن جذور العلاقة السابقة.

ولهذا تبقى العلاقة بين المدرِّس والتلميذ مستمرةً قلبياً وفكرياً، لعدة سنوات، لوجود جسرِ المحبَّة والألفة^(١).

رحمته ﷺ بالأطفال:

كان النَّبيُّ رحيماً لَيْنَ الجانب^(٢) وما أبلغ ما قاله أنس بن مالك وهو يصف رحمة رسول الله بالأطفال: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ»^(٣).

وإنَّ الإنسانَ لَيَعْجَبُ حقاً من رؤية مواقف رحمته بالأطفال، ويزداد العجب عندما تنظر إلى حجم المسؤوليات الملقاة على عاتقه، وهو يُدير الدولة، ويقود

(١) راجع «من أساليب الرُّسُول في التربية دراسة تحليلية» لنجيب خالد العامر، ص(٩٦) وما بعدها.

(٢) كارين أرمسترونج «سيرة النَّبيِّ محمد - كتاب سطور» ١٩٩٨، ترجمة: فاطمة نصر، محمد عناني.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، حديث رقم (٢٣١٦).

الجوش، ويحكم بين الناس، ويتفاوض مع الوفود، ويتعامل مع الأصحاب، ويشرف على كل صغيرة وكبيرة في حياة المسلمين، ويتلقى الوحي من رب العالمين، ويصل به إلى كل من يستطيع، حتى يرسل الرسائل إلى ملوك العالم، وزعمائه، يدعوهم إلى الإسلام!!

ثم إنَّ العجب يزداد ويزداد حتى يبلغ الذروة، عندما تعلم أن رحمته هذه كانت في بيئته، ليس فيها حقاً لصغير، بل يعتبرون أنَّ رحمة الصغير لون من ألوان الضعف غير مقبول، حتى يفتخر الرجل بأنه لا يرحم أبناءه!.

قَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرة من الولد، ما قبَّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله فقال: «من لا يرحم لا يُرحم»^(١).

إنَّ الأقرع كان يظنُّ: أنَّه من الرجولة والفحولة أن يقسو القلب ويتحجر، حتى لا يرحم صغيراً، ولا يقبل طفلاً، لكن رسول الله ردَّ عليه بالردِّ المفحم، ولم يكن ردّاً خاصّاً بموقفه فقط، بل أسس لقاعدة من القواعد الإسلامية الثابتة.. إنه قال له في إيجاز: «من لا يرحم لا يُرحم!».

لقد كان رسول الله ﷺ لا يصبر على بكاء طفل، ولا على ألمه.. يروي أبو قتادة «أنَّ رسول الله كان يصلي، وهو حاملُ أُمّامة بنت زينب بنت رسول الله، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها»^(٢).

إنَّه هنا في أعظم شعائر الإسلام، وهي الصلاة، ومع ذلك فهو لا يصبر على بكاء الطفلة أُمّامة حفيدته، فيحملها حتى في أثناء الصلاة!! .

بل إنَّ رحمته كانت تجعله يطيل أو يقصّر من صلاته، بحسب ما يريح الأطفال،

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب، حديث رقم (٥٩٩٧).

(٢) صحيح البخاري: كتاب أبواب سترة المصلي، حديث رقم (٥١٦).

فنحن نراه في موقفٍ عجيب، يطيل السجود في صلاة الجماعة على غير عادته، وذلك حتى لا يزعج طفلاً! (١). وعلى النقيض من هذا نجده يسرع في صلاته في ظروف أخرى لكي يرحم طفلاً آخر (٢).

ها هو رسول الله يُكَيِّف - بلا تعنتٍ ولا تشدُّدٍ - صلاته وصلاة المسلمين، لكي يرحم الطفل الصغير، وكذلك ليرحم أمه! .

وفي مواقف أخرى من السيرة تجد رسول الله يفرغ من أوقاته ليلعب مع الأطفال، فهذا أسامة بن زيد يروي، فيقول: كان رسول الله يأخذني، فيُقْعِدُنِي على فخذه ويُقْعِدُ الحسَنَ على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا» (٣).

وكان رسول الله يولي أهمية خاصة لرعاية البنات، وذلك لعلمه أن قلوب الناس تميل بشكل أكبر للذكور من الأولاد، وخاصة في هذه البيئة العربية، فكان يُعْظِمُ جدًّا من أجر الذي يربِّيهنَّ.. قال رسول الله: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ» (٤).

وكان من رحمته بالأطفال أنه لا يكلفهم ما لا يطيقون، وقد جاءه أطفالٌ يوم أُحُدٍ يريدون الخروج معه للقتال، فردَّهم لصغر سنِّهم، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظهير، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وسعد بن حبة، وغيرهم (٥).

(١) النسائي، حديث رقم (١١٤١)، قال الألباني: «صحيح» .

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأذان، حديث رقم (٧٠٩).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب، حديث رقم (٦٠٠٣).

(٤) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، حديث رقم (٢٦٣١).

(٥) المباركفوري: الرحيق المختوم ص ٢٢٨.

وقارن هذا بالأعداد الهائلة من الأطفال الذين يستخدمون الآن في الحروب في بقاع كثيرة من العالم.. فقد ذكرت هيئة الأمم المتحدة أن هناك أكثر من ثلاثمائة ألف طفلٍ مجنَّدٍ في عشرين دولةً، يمارسون القتال بالإكراه^(١).

رحمته ﷺ بالأيتام:

وإذا كانت كلُّ هذه الرحمة بعموم الأطفال، فلا شك أن رعايته للأطفال اليتامى كانت أعظم وأشد.. فمن أقواله، وهو يشجع المسلمين على رعاية اليتامى.. قال: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَقَالَ: بِأَصْبَعِيهِ السَّبَّابَةِ وَالْوَسْطَى»^(٢). وقال أيضاً: «مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبْوَيْنِ مُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، حَتَّى يَسْتَعْنِيَ عَنْهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ»^(٣).

وقد حذّر رسول الله ﷺ من ظلم اليتامى، أو استغلال ضعفهم، وأكل أموالهم، قائلاً: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(٤).

وخشيةً على مال اليتيم أن تأكله الزكاة، أو يقلل نتيجة اختلاف القيمة مع مرور الزمان، نبه قائلاً: «أَلَا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ، فَلْيَتَجَرَّ فِيهِ، وَلَا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ»^(٥).

(١) تقرير الحالة الاجتماعية الصادر عن الأمم المتحدة ٢٠٠٥، ص ١٢١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، حديث رقم (٦٠٠٥).

(٣) أحمد، حديث رقم (١٩٠٢٥).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الوصايا، حديث رقم (٢٧٦٦).

(٥) الترمذي، حديث رقم (٦٤١)، وقال: «في إسناده مقال، لأنَّ المثنى بن الصباح يضعف الحديث»، قال الألباني: «ضعيف».

رحمته ﷺ بالمصابين:

لا يخلو إنسان من مصيبة، كمرضٍ يصيبه أو يصيب حبيباً له، وكموتٍ قريبٍ، أو دينٍ مع إفسار، وهكذا، ولما كانت المصائب تُضعف المصابين بها، وكثيراً ما تأتي مفاجئة للإنسان، فإنَّ رحمة رسول الله ﷺ كانت سريعاً ما تتحرك تجاه هؤلاء.

يلخص ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه بقوله: «إِنَّا - وَاللَّهِ - قَدْ صَحَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتَّبِعُ جَنَائِزَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ»^(١).

ومن أهمِّ الأزمات التي لا يسلم منها بشرٌ أزمة المرض، وكان الرسول ﷺ إذا سمع بمريضٍ أسرع لعيادته في بيته، مع كثرة همومه ومشاغله، ولم تكن زيارته هذه مُتكلفةً أو اضطرارية، إنَّما كان يشعر بواجبه ناحية هذا المريض..

كيف لا، وهو الذي جعل زيارة المريض حقاً من حقوقه؟! قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ»^(٢).

وكان يهدف من وراء زيارته لأمرٍ شتّى، فهو يُظهر له - دون تكلفٍ - مُواساته له، وحرصه عليه، وحبّه له، فيُسعد ذلك المريضَ وأهله، ويهونُ أزمته ومرضه. وكان حريصاً على التخفيف على المريض، وعدم تعريضه لخطرٍ أو أزمةٍ أكبر، وكان يُبدي الكثير من الغضب إذا رأى من يتشدّد في حكم من الأحكام مع مريضٍ.

(١) أحمد، حديث رقم (٥٠٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده حسن».

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (١٢٤٠).

ومن ذلك ما يرويه جابر بن عبد الله ﷺ فيقول: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منّا حجرٌ؛ فشجّه في رأسه، ثم احتلم؛ فسأل أصحابه؛ فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصةً وأنت تقدر على الماء فاغسل فمات .

فلما قدمنا على النبيّ أُخبرَ بذلك فقال: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَّمَمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصَبَ - شَكَ مُوسَى - عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»^(١).

بل إن رسول الله كان يلبي حاجة المريض، ويسير معه حتى يقضي حاجته، ولقد جاءت ذات مرة امرأة في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: «يَا أُمَّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السَّكِّ شِئْتِ؛ حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ». فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها^(٢).

ومن الأزمات أيضاً التي كان يهتم رسول الله بها أزمة وفاة إنسان، وكان رسول الله - من رحمته - يرحم أقارب الميت في أمور لا يعيرها الناس اهتماماً، ولكنها تترك أثراً طيباً في النفوس، ومن ذلك إعداد الطعام لهم.

روى عبد الله بن جعفر ﷺ فقال: لَمَّا جَاءَ نَعِي جَعْفَرِ قَالَ النَّبِيُّ: «اصْنَعُوا لَأَلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَقَدْ آتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ»^(٣).

وهذا عكس ما اشتهر بين الناس من أنّ أهل الميت هم الذين يصنعون طعاماً لزوارهم، بل إنّ صناعة أهل الميت للطعام للضيوف خلاف واضح للسنة، فقد قال جرير بن عبد الله ﷺ: «كُنَّا نَعُدُّ الاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ الْمَيِّتِ، وَصِنْعَةَ الطَّعَامِ مِنَ النِّيَاحَةِ»^(٤).

(١) أبو داود، حديث رقم (٣٣٦)، قال الألباني: «حسن» .

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٢٦).

(٣) أبو داود، حديث رقم (٣١٣٢)، وابن ماجه، حديث رقم (١٦١٠)، قال الألباني: «حسن» .

(٤) النياحة: البكاء بصوت مع ترديد عبارات السخط. ابن ماجه، حديث رقم (١٦١٢)، قال في الزوائد: «إسناده صحيح...» .

وكان يعلم أنّ النساء يصيبنّ الجزع أكثر من الرجال، فكان يحرص على تذكيرهنّ بالصبر عند المصائب..

يروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النساء قلن للنبيّ: غلبنا عليك الرجال؛ فاجعل لنا يوماً من نفسك؛ فوعدهنّ يوماً لقيهنّ فيه؛ فوعظهنّ وأمرهنّ، فكان فيما قال لهنّ: «مَا مِنْكُمْ امْرَأَةٌ تَقْدُمُ ثَلَاثَةَ مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: وَائْتَيْنِ، فَقَالَ: وَائْتَيْنِ»^(١).

ومع كونه يمنع الناس من الجزع، وفقد الصبر، إلا أنه كان واقعياً يُقدّر ألم الناس ويعذرهم، ومن ثمّ يقبل بكائهم وحزنهم دون إفراط.

يروى جابر بن عبد الله رضي الله عنه فيقول: لَمَّا قُتِلَ أَبِي جَعَلَتْ أَكْشَفَ الثَّوْبِ عَنْ وَجْهِهِ وَأَبْكِي، وَيَنْهَوْنِي عَنْهُ، وَالنَّبِيُّ لَا يَنْهَانِي، فَجَعَلْتُ عَمَّتِي فَاطِمَةَ تَبْكِي؛ فَقَالَ النَّبِيُّ: «تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ، مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ»^(٢).

ولم تكن وقفات رسول الله مع الصحابة عند المرض أو الوفاة فقط، بل كانت في أيّ أزمة، ولو كانت عابرة، يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ فِي ثِمَارِ ابْتِاعِهَا؛ فَكَثُرَ دَيْنُهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ»، فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِعُرْمَائِهِ: «خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلا يَسْ لَكُمْ إِلا ذَلِكَ»^(٣).

رحمته صلى الله عليه وآله بالسنين:

إذا كان المسنُّ يزداد خبرةً ودرايةً وحكمةً، وربّما يغدو أكثر مآلاً وجاهاً، إلا أنه بتقدّم العمر يزداد ضعفاً في بدنه، ونقصاً في صحته ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

(١) صحيح البخاري: كتاب العلم، حديث رقم (١٠١).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، حديث رقم (١٢٤٤).

(٣) صحيح مسلم كتاب المساقاة، حديث رقم (١٥٥٦).

مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفِ قُوَّةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ [الروم: ٥٤]، ومراعاةً لحاله قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسَطِ»^(١).

وهو هنا في هذه الكلمات الرقيقة يرفع من قيمة الشيخ الكبير، حتى يجعله مع حامل القرآن، ومع الحاكم العادل مع عظم قدرهما، وسمو مكانتهما..

وجاء شيخ ذات يوم يريد النبي، فأبطأ القوم أن يُوسِّعوا له، فَرَقَّ له رسول الله وَرَحِمَهُ، وقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ حَقَّ كَبِيرَنَا»^(٢).

إنه يقول: إن الذي لا يرحم الصغير ولا يوقر الكبير ليس منا نحن المسلمين، أي أنه لا يتَّصف بصفاتنا، ولا يعمل بأعمالنا، ولا يتخلَّق بأخلاقنا.. وما أحسب أن قانوناً في العالم - غير الإسلام - قد جعل احترام الكبير، وتوقيره جزءاً من اهتماماته.

وما أروع ما قاله لأبي بكر الصديق ﷺ، يوم فتح مكة، حين أتى بأبيه: أبي قحافة، وكان شيخاً كبيراً مسنناً لئس لم بين يدي رسول الله في البيت الحرام، فقال: «هَلَّا تَرَكَتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ فِيهِ»^(٣).

إنه القائد المنتصر الذي يدخل مكة فاتحاً، وأبو قحافة شيخٌ كبيرٌ تأخَّرَ إسلامه أكثر من عشرين عاماً، ومع ذلك يزوره رسول الله ﷺ، وهو الرسول الزعيم المنتصر!

(١) البخاري في الأدب المفرد (٣٥٧)، قال الألباني: «حسن».

(٢) أحمد، حديث رقم (٦٧٣٣)، والحاكم (١٧٨/٤)، قال مخرجه: «حديث صحيح».

(٣) أحمد، حديث رقم (٢٦٩٥٦)، وابن حبان، حديث رقم (٧٢٠٨)، والحاكم (٤٧-٤٦/٣)، قال مخرجه المسند: «إسناده حسن»، انظر: تخريجه فيه مفصلاً.

هذه هي منزلة كبار السن في عين رسول الله.. بل إنه يرفض أن تطول الصلاة الجماعية - مع حُبِّه لها وتعظيمه لقدرها - لأنَّ ذلك قد يشقُّ على كبير السنِّ وغيره من أصحاب الحاجات، وهذا دليل على نظرتِه الشمولية لمسألة الرحمة، ودليل على اتساع أفقه، وإدراكه لحقيقة الإسلام، وإنَّه في الأساس رحمةٌ للناس وليس مشقة وعذاباً لهم .

نَلْحُظُ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ مَوْقِفِ فَرِيدٍ، رَوَاهُ أَبُو مَسْعُودِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِيهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لِأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يَطِيلُ بِنَا، فَمَا رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مِنْكُمْ مُتَّفَرِّقِينَ فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ»^(١).

رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ:

وإذا كانت كلُّ هذه الرحمة لعموم كبار السنِّ، فإنَّها ولا شكَّ أعظم وأجلُّ في حقِّ الوالدين.. إنَّ الأبوين في كثير من بلاد العالم - الذي يسمُّونه متحضراً في زماننا - لا يجدان رعايةً ولا عوناً من أبنائهم بعد أن يتقدم بهما العمر، وتضعف أبدانهم.

لكنَّ الأمر ليس كذلك عند رسول الله، فقد جاء رجلٌ إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، من أحقَّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمَّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمَّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمَّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمَّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمَّكَ.»^(٢).

فأحقُّ الناس بالصحبة: ليس الصديق ولا الحاكم ولا صاحب العمل ولا غير هؤلاء، إنما أحقُّ الناس بالصحبة الأمُّ ثمَّ الأبُّ، وقدَّم الأمُّ ثلاثاً لضعفها وشدَّة احتياجها وبخاصة عند كبرها..

(١) صحيح البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، حديث رقم (٧٠٢).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٥٤٨).

هذه هي رحمته بالأم والأب، ولُيُقارن أهل الأرض بين هذه الرحمة وما يحدث في العالم أجمع!.. بل إنه في موقف آخر يقول ما يتفطر له القلب رقةً وتأثراً!! لقد جاءه رجل يقول له: إنني جئت أبايعك على الهجرة، ولقد تركت أبويَّ يبكيان، فقال رسول الله: «ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما»^(١).

يا لرحمتك يا رسول الله!! فالرجل جاء يبائع على الهجرة، والأمر جدٌ خطير، ومع ذلك فالرسول يهتم - ليس فقط برضا والديه وراحتهما - بل وبضحكهما وسرورهما!! هذه هي رؤيته لكبار السن في أمته، وهذه هي رؤيته للواجب نحو الوالدين، وإذا كان هناك في العالم من يدعي أن قانونه يشبه - ولو من بعيد - قانون رسول الله، فإنني على يقين أنه لن يوجد من يدعي أن هناك من طبّق على أرض الواقع ما طبّقه رسول الله من مواقف الرحمة، ومن مظاهر الرعاية لحقوق الوالدين!!

رحمته ﷺ بذوي الاحتياجات الخاصة:

جعل النبي للمرضى وذوي الاحتياجات الخاصة الحق في التداوي؛ لأن سلامة البدن ظاهراً وباطناً مقصدٌ من مقاصد الإسلام؛ لذلك قال للأعراب عندما سألوه عن التداوي: «تداؤوا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غير داء واحد الهرم...»^(٢).

كذلك لم يكن يمانع أن تعالج المرأة المسلمة رجلاً من المسلمين؛ حيث جعل رسول الله رُفيدة - وهي امرأة من قبيلة أسلم - تُعالج سعد بن معاذ، حين أصابه سهمٌ بالخندق، وكانت ﷺ تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعةٌ من المسلمين^(٣).

(١) أبو داود، حديث رقم (٢٥٢٨)، والنسائي، حديث رقم (٤١٦٣)، وابن ماجه، حديث رقم (٢٧٨٢)، قال الألباني: «صحيح».

(٢) أبو داود، كتاب الطب، حديث رقم (٣٨٥٥)، قال الألباني: «صحيح».

(٣) البخاري: الأدب المفرد ٥٤٦/٢، حديث رقم (١١٢٩)، قال الألباني: «صحيح» - الصحيحة (١١٥٨).

ثم ها هو رسول الله يتعامل مع عمرو بن الجموح رضي الله عنه تعاملًا راقياً؛ وقد كان أعرج شديد العرج من ذوي الاحتياجات الخاصة، إلا أن ذلك لم يكن مانعاً له من حصوله على أعلى درجات التكريم؛ لهمة العالية، وبذله الواسع في سبيل الله . وكان لعمرو بن الجموح بنون أربعة - مثل الأسد - يشهدون المشاهد مع رسول الله، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إنني لأرجو أن أطا بعرجتي هذه في الجنة. فقال رسول الله مخاطباً عمراً: «أَمَا أَنْتَ فَقَدْ عَدْرَكَ اللَّهُ فَلَا جِهَادَ عَلَيْكَ». وقال لبنيه: «مَا عَلَيْكُمْ أَلَّا تَمْنَعُوهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ شَهَادَةً». فخرج مع النبي فقتل يوم أحد، ثم قال عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ مِنْكُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، مِنْهُمْ: عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِي الْجَنَّةِ بِعَرْجَتِهِ»^(١).

رحمته صلوات الله عليه بالعمال والخدم:

كانت سيرة رسول الله صلوات الله عليه خير شاهدٍ على عظمة النظرة الإسلامية للخدم والعمال، وكانت إقراراً من رسول الله صلوات الله عليه لحقوقهم مع التكريم لهم، فقد دعا رسول الله أصحاب الأعمال إلى معاملتهم معاملة إنسانية كريمة، وإلى الشفقة عليهم، والبر بهم، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون من الأعمال .

فقال رسول الله: «... إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»^(٢).

(١) ابن حبان عن جابر بن عبد الله (٧٠٢٤).

(٢) صحيح البخاري عن أبي ذر: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، ومسلم: كتاب الأيمان والندور، باب إطعام المملوك مما يأكل، حديث رقم (١٦٦١).

فجاء تصريح رسول الله: «إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ»؛ ليرتفع بدرجة العامل الخادم إلى درجة الأخ! ولتصبح هذه الضوابط العامة التي توفر الحياة الكريمة نبراساً لبني الإنسان عموماً.

وألزم كذلك صاحب العمل أن يُوفِّيَ للعامل والخادم أجره المكافئ لجُهدِه دون ظلمٍ أو مماطلة، فقال رسول الله: «أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرْقُهُ»^(١). وحذّر رسول الله ﷺ من ظلمهم فقال: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: «وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكِ»^(٢).

ومن حقهم أيضاً أن تُحَفَظَ حقوقهم المائيّة من العَبْنِ، والظلم، والاستغلال؛ لذلك قال رسول الله في الحديث القدسيّ عن ربِّ العرّة جل وعلا: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»^(٣).

لِيَعْلَمَ كُلُّ مَنْ ظَلَمَ عَامِلاً أَوْ خَادِماً، أن الله رقيبٌ عليه، وخصمٌ له يوم القيامة. كما يجب على صاحب العمل عدم إرهاق العامل إرهاقاً يضرُّ بصحّته، ويجعله عاجزاً عن العمل، ولقد قال رسول الله في ذلك: «مَا خَفَّفْتُ عَنْ خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ، كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مَوَازِينِكَ»^(٤).

ومن الحقوق التي تُعتبر علامةً مضيئةً في الشريعة الإسلاميّة حقُّ الخادم في التواضع معه، وفي ذلك يُرْعَبُ الرسول أمّته قائلاً: «مَا اسْتَكْبَرَ مَنْ أَكَلَ مَعَهُ

(١) ابن ماجه عن عبد الله بن عمر، حديث رقم (٢٤٤٣)، قال الألباني: «صحيح».

(٢) النسائي، حديث رقم (٥٤١٩)، وأحمد، حديث رقم (٢٢٢٣٩)، قال الألباني: «صحيح».

(٣) صحيح البخاري عن أبي هريرة: كتاب البيوع، حديث رقم (٢٢٢٧).

(٤) ابن حبان عن عمرو بن حريث، حديث رقم (٤٣١٤).

خَادِمُهُ، وَرَكَبَ الْحِمَارَ بِالْأَسْوَاقِ، وَاعْتَقَلَ الشَّاةَ فَحَلَبَهَا»^(١).

وكان رسول الله يهتمُّ برعاية خَدَمِهِ إلى الدرجة التي يحرص فيها على زواجهم؛ فعن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنتُ أخدم النَّبِيَّ فقال لي النَّبِيُّ: «يَا رِبِيعَةُ، أَلَا تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج؛ ما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. قال: «فأعرض عني».

ثم قال لي بعد ذلك: «يَا رِبِيعَةُ، أَلَا تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج، وما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. فأعرض عني.

وقال: ثم راجعتُ نفسي، فقلتُ: والله يا رسول الله أنت أعلم بما يُصلحني في الدنيا والآخرة. قال: وأنا أقول في نفسي: لئن قال لي الثالثة لأقولن: نعم.

قال: فقال لي الثالثة: «يَا رِبِيعَةُ، أَلَا تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: بلى يا رسول الله، مُرِنِي بما شئتَ، أو بما أحببت. قال: «انْطَلِقْ إِلَى آلِ فُلَانٍ». إلى حيٍّ من الأنصار...^(٢) فلما أخبرهم أكرموه وزوَّجوه.

وقد شملت رحمته ﷺ الخدم وامتدت إلى غير المؤمنين به أصلاً، وذلك كما فعل مع الغلام اليهودي الذي كان يعمل عنده خادماً، فقد مرض الغلام مرضاً شديداً، فظَلَّ النَّبِيُّ يزوره ويتعهَّده، حتى إذا شارف على الموت عاده وجلس عند رأسه، ثم دعاه إلى الإسلام، فنظر الغلام إلى أبيه متسائلاً، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فأسلم، ثم فاضت رُوحه، فخرج النَّبِيُّ وهو يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(٣).

(١) الأدب المفرد للبخاري، حديث رقم (٥٥٠) قال الألباني: «حسن»، الصحيحة (٢٢١٨).

(٢) الحاكم (١٧٢/٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٣) صحيح البخاري عن أنس بن مالك: كتاب الجنائز، إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، حديث رقم (١٣٥٦).

هذه بعض مظاهر رحمته ﷺ بالخدم والعمّال التي أصّلها بالقول والعمل في زمنٍ، ذاقوا فيه من الظلم والقهر ألوانا.

رحمته ﷺ بالحيوان:

شملت رحمة الرسول ﷺ الحيوان، فجعل له حقوقا ومن أهم الحقوق التي أصّلها رسول الله للحيوان عدم إيذائه؛ فقد روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله مرّ على حمار قد وُسم في وجهه، فقال: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ»^(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لَعَنَ النَّبِيُّ مَنْ مَثَلَ بِالْحَيَوَانِ»^(٢). وهذا يعني أن إيذاء الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يُعتبر جريمة في نظر الشريعة الإسلامية.

وكذلك شرع رسول الله في تأصيله لحقوق الحيوان: تحريم حبسه وتجويعه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٣).

وروى سهل بن الحنظلية قال: مرّ رسول الله ببعيرٍ قد لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فقال: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُّوهَا صَالِحَةً»^(٤).

ونهى رسول الله عن اتخاذ الحيوان غرضًا، فهذا هو ذا ابن عمر يمرُّ بفتيانٍ من قريش قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه، فقال لهم: لعن الله من فعل هذا؛ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا^(٥).

(١) صحيح مسلم: كتاب اللباس والزينة، حديث رقم (٢١١٧).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الذبائح والصيد، حديث رقم (٥٥١٥).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المساقاة، حديث رقم (٣٣١٩).

(٤) أبو داود: كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٥٤٨)، قال الألباني: «صحيح».

(٥) صحيح مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، حديث رقم (١٩٥٨).

ومن أهم ما أصَّله رسول الله من حقوق الحيوان كذلك ما كان من وجوب الرحمة والرفق به، وقد تجسَّد ذلك في قول رسول الله: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا، فَتَزَلَّ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي. فَتَزَلَّ الْبَيْرُ، فَمَلَأَ حُقْفَهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(١).

ومن مظاهر شفقة رسول الله ورحمته كذلك ما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنه قائلاً: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي سَفَرٍ، فَاذْهَبْنَا لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمْرَةَ مَعَهَا فَرْحَانٌ، فَأَخَذْنَا فَرْحِيهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةَ فَجَعَلَتْ تُعْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوْا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»^(٢).

كما أمرنا رسول الله أن نختار للدوابِّ المَرَاعِي الخِصْبَةَ، وإن لم توجد فعلى أصحاب هذه الدوابِّ أن ينتقلوا بها إلى مكان آخر.

يقول رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيَرْضَى بِهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ، فَإِذَا رَكَبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْعُجْمَ فَأَنْزِلُوهَا مَنَازِلَهَا، فَإِنْ كَانَتْ الْأَرْضُ جَدْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِنَفْسِكُمْ...»^(٣). أي أسرعوا بها للنجاة من تلك الأرض ما دامت قادرة.

على أن هناك درجةً أخرى أعلى من الرحمة، وأثمن، أوجبها رسول الله في معاملة الحيوان، وهي: الإحسان إليه واحترام مشاعره.

(١) صحيح البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأدب، حديث رقم (٦٠٠٩).

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذر، حديث رقم (٥٢٦٨)، قال الألباني: «صحيح».

(٣) الموطأ، رواية يحيى الليثي عن خالد بن معدان يرفعه: كتاب الاستئذان (٩٧٩/٢).

وإنَّ أعظمَ تطبيقٍ لهذا الخُلُق حينَ ينهَى رسولُ الله عن تعذيبه أثناء الذَّبْح لأكل لحمه، سواءً كان التعذيب جسدياً بسوء اقتياده للذبح، أو برداءة آلة الذبح، أو كان التعذيب نفسياً برؤية السكِّين؛ ومن ثمَّ يجمع عليه أكثر من مؤتة! .

فقد روى شَدَّاد بن أوس قال: ثَبَّانِ حَفِظْتُهُمَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»^(١). وهكذا حُقَّ للحيوان أن ينعم بالأمن والأمان، والراحة والاطمئنان في بيئة علا فيها قول رسول الله، وطُبِّقت فيها أفعاله.

رحمته ﷺ بالبيئة:

جاءت رؤية رسول الله للبيئة تأكيداً لتلك النظرة القرآنيَّة الشاملة للكون، التي تقوم على أن هناك صلةً أساسيةً وارتباطاً متبادلاً بين الإنسان وعناصر الطبيعة، ونقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة، أو استنزفه استنزافاً، فإن العالم برُمته سوف يُضَارُّ أضراراً مباشرة .

ومن ثمَّ وضع رسول الله قاعدةً عامَّةً لكلِّ البشر الذين يحيون على ظهر الأرض، وهي عدم إحداث ضرر من أي نوع لهذا الكون، فقال رسول الله: «لا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ...»^(٢). كما نجد رسول الله يحذّر من تلويث البيئة، فيقول: «اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ: الْبِرَّازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةَ الطَّرِيقِ، وَالظَّلَّ»^(٣).

وجعل رسول الله إمطة الأذى من حقوق الطريق، فقال رسول الله لصحابته الذين يُريدون الجلوس في الطريق: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ». فقالوا:

(١) صحيح مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، حديث رقم (١٩٥٥).

(٢) أحمد عن ابن عباس، حديث رقم (٢٨٦٥)، وهو حديث حسن... وله طرق يقوي بعضها بعضاً «جامع العلوم والحكم، الحديث (٣٢)»... .

(٣) أبو داود عن معاذ بن جبل: كتاب الطهارة، حديث رقم (٢٦)، قال الألباني: «حسن» .

ما لنا بدُّ، إنما هي مجالسنا نتحدَّث فيها. فقال لهم: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا». قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «... وَكَفْتُ الْأَذَى...»^(١). وكفُّ الأذى كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ ما فيه إيذاء الناس ممَّن يستعملون الشوارع والطرقات.

كما نجد رسول الله يربط بين ثواب الله، والمحافظة على البيئة، فيقول: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا التُّخَاعَةَ تُكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ»^(٢).

ويأمرنا رسول الله صراحةً بنظافة المساكن، فيقول: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ... فَتَنْظِفُوا أَفْنِيَّتِكُمْ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»^(٣).

فما أروع التعاليم النبويَّة التي تحثُّ على الحياة الطيِّبة الخالية من أيِّ نوع من أنواع الملوِّثات؛ فتحافظ بذلك على راحة الإنسان النفسيَّة والصحيَّة.

ومن حُبِّ رسول الله للبيئة ونظافتها نجد رسول الله يتذوَّق الجمال ويحثُّ عليه؛ لذلك قال رسول الله للصحابيِّ الذي سأله قائلاً: أَمِنَ الْكِبْرُ أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنًا: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٤). ولا شكَّ أنَّ من الجمال الحرصَ على حماية البيئة التي خلقها الله تعالى لتبقى زاهيةً بهيجةً.

(١) صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري: كتاب المظالم، حديث رقم (٢٤٦٥).

(٢) صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٥٣).

(٣) الترمذي عن سعد بن أبي وقاص: كتاب الأدب، حديث رقم (٢٧٩٩)، قال الألباني: ضعيف، وقال الترمذي، وخالد بن إلياس يضعف.

(٤) صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود: كتاب الإيمان، حديث رقم (٩١).

كما نجد في إرشاد رسول الله إلى حُبِّ الروائح الطيبة وإشاعتها بين الناس، وتهاديها، وتجميل البيئة بها؛ حفاظاً للبيئة من التلوث؛ حيث قال رسول الله: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رِيحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرَّيْحِ»^(١).

وَيُرْغَبُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّتَهُ فِي غَرْسِ الْأَرْضِ وَزِرَاعَتِهَا، فيقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَزُرُّهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٢). كما يُلْفِتُ الْأَنْظَارَ إِلَى الْمَكَاسِبِ الَّتِي يَجْنِيهَا الْإِنْسَانُ مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْبُورِ؛ إِذْ جَعَلَ زَرْعَ شَجْرَةٍ، أَوْ غَرْسَ بَذْرَةٍ، أَوْ سَقَى أَرْضَ عَطَشَى مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ مِنْهَا - يَعْنِي أَجْرًا - وَمَا أَكَلَتِ الْعَوَافِي مِنْهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٣).

ويخصُّ الماءَ بالذكرَ باعتباره أحدَ أهمِّ الثروات البيئية الطبيعية، فكان الاقتصاد في الماء والمحافظة على طهارته قضيتين مهمتين عند رسول الله، ونرى رسول الله حتى عندما يكون الماء متوفرًا ينصح بالاعتدال في استعماله.

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو، من أنَّ النَّبِيَّ ﷺ مرَّ بسعدٍ وهو يتوضأ، فقال: «مَا هَذَا السَّرْفُ يَا سَعْدُ؟» قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»^(٤).

كما نهى رسول الله عن تلويث المياه، وذلك بمنع التبول في الماء الراكد^(٥).

(١) صحيح مسلم عن أبي هريرة: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، حديث رقم (٢٢٥٣).

(٢) صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب المساقاة، حديث رقم (١٥٥٢).

(٣) أخرجه أحمد، حديث رقم (١٤٢٦٩) وراجع تخريجه الكامل عنده.

(٤) ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم (٤٢٥)، قال الألباني: (ضعيف)، وفي الزوائد: (.. لضعف حي بن عبدالله وابن لهيعة).

(٥) صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب الطهارة، حديث رقم (٢٨١).

هذه هي النظرة النبوية الشاملة للبيئة، التي مفادها: بأن البيئة بجوانبها المختلفة يتفاعل ويتكامل ويتعاون بعضها مع بعض، وَفَقَ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْكُونِ الَّذِي خَلَقَهُ سبحانه وتعالى في أحسن صورة.



المبحث
السابعنظرة على علاقاته
بغير المسلمين

الرسول ﷺ واليهود:

منذ قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة واتخاذها دارًا للإسلام والمسلمين، حرص على تنظيم العلاقة بين المسلمين وبين اليهود باعتبارهم مواطنين ومكوّنًا من مكونات المجتمع المدني، له حقوقه وخصوصياته .

وقد وقّع معهم ﷺ معاهدةً تبيّن حقوقهم وواجباتهم، وبنى علاقته معهم على أساس التعايش الإنساني، والتعاون المشترك من أجل المصلحة العامة، وتركهم يحتكمون إلى شريعتهم، وحمّى خصوصياتهم .

ومن ثمّ لم يكن الثناء على بعضهم أو الاعتراف بوجودهم مجرد تجميلٍ سياسيٍّ للواقع الذي يعيشه المسلمون، بل كان حقيقةً قائمة، أفرزت مواقف إيجابية كثيرة، بل أنتجت تشريعاتٍ في غاية الأهمية، كان لها أكبر الأثر في تسهيل مهمة التعايش بين الأديان، والثقافات المختلفة داخل المجتمع الواحد.

وبذلك يتبيّن لنا أنّ رسول ﷺ قد أكّد على التعايش الإنساني مع اليهود، من أول يوم دخل فيه المدينة المنورة، بل قام بعقد معاهداتٍ مهمّةٍ معهم، ولم يشأ لهذه المعاهدات أن تنقضي أو تلغى أبدًا، وإنّما كان النقض والغدر يأتي دائمًا من قبِل اليهود.

وقد ظل النبيُّ محافظًا على مبدأ التعايش السلمي، والاعتراف بالآخرين، ما دام لم يحدث منهم اعتداء وظلم أو تهديد خطير، بل إنه كان يتجاوز كثيرًا عن تعديّاتٍ غير مقبولةٍ من أجل أن تنعم المدينة بالاستقرار.

ولم يُعَيِّرِ الرسول هذا النهج إلى آخر حياته، حتى إنه قام بعمل قد يستغربه الكثيرون، وهو أنه اشترى طعامًا من يهوديٍّ إلى أجلٍ، وَرَهْنَهُ دِرْعًا مِنْ حَدِيدٍ^(١)!!
ووجه الاستغراب: أَنَّ الصحابة الأغنياء كانوا كُثْرًا في المدينة المنورة، ولم يكن عندهم أغلى من رسول الله، فكان من الميسور أن يُهدَى إليه الطعام، أو على الأقل أن يقترض منهم، أو يرهن درعه عند أحدهم .

ولكن الواضح من الموقف أنه فعل ذلك للتنبيه على جوازه للمسلمين، ولتوجيه المسلمين إلى جعل العلاقة بينهم وبين اليهود طبيعيةً، ما داموا يحترمون جوار المسلمين، ولا يعتدون على حرمتهم، ولو وصل الحد إلى رهن الدرع، وهو سلاح عسكري مُهِمٌّ كما هو معلوم، ولكن تصرفه كان لإثبات حسن النية.

رسول الله ﷺ والنصارى:

وكما فعل رسول الله ﷺ مع يهود، عامل النصارى على أنهم أهل كتاب، وعقد معهم معاهدات في أكثر من مناسبة، مع اختلافه معهم في كثير من الأصول والفروع الاعتقادية، إذ إن بعض معتقداتهم لا يحتمل إلا الشرك الصريح بالله، ومع ذلك لم يُكْرِهُهُمْ على تغيير دينهم، وعلى الرغم من خوفه على مصيرهم إلا أنه لم يتجاوز فيهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] .

فالمساحة المتاحة له معهم هي دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وجدالهم بالتي هي أحسن، وبعد ذلك يُتركون وشأنهم ليختاروا ما أرادوا، ومن هذا المنطلق قبل رسول الله أن يبقى اليهود على يهوديتهم، وأن يبقى النصارى على نصرانيتهم، وأن يستمر التعامل بصورة سلمية طيبة بين الطوائف كلها.

(١) البخاري عن السيدة عائشة ل: كتاب الرهن، باب من رهن درعه، حديث رقم (٢٥٠٩).

إنَّ المبدأ العام واضح ، وهو أنَّه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وأنَّ الذي يُسلم دون رغبة حقيقية لا ينفع نفسه ولا مجتمعه .

فلا معنى - إذا - لقبول إسلام من أسلم ظاهريًا وهو يبطن الكفر في داخله ، ولا معنى أيضًا لاستمرار الصراع والتنافر.

فلتكن الحياة الطبيعية الهادئة مع الطوائف غير المسلمة ، حتى يأتي يوم يحكم فيه الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الحجاثية: ١٧].

بل إنَّ الرسول قَبَلَ في شطرٍ كبير من حياته أن يتعايش مع المشركين ، ونزلت الآيات تترى على هذا النحو في مكة المكرمة.. قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقال أيضًا: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقال سبحانه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

لقد كان هذا نهجه في مكة ، ولكنهم حاربوه واضطهدوه وأخرجوا أصحابه ، وطاردهم ، وضيّقوا عليهم كل سبيل ، فلم يكن بدُّ من القتال والمقاومة.

منهجه ﷺ في التعامل مع النصارى:

غلب على حياة الرسول الله ﷺ وعلى أقواله وأفعاله جانبُ التبشير ، ولم يكن يخرج عن هذا المنهج بالرغم من قسوة المشركين عليه.

روى ربيعة بن عبّاد الديلي - وكان جاهليًا ثم أسلم - قال: رأيت رسول الله ﷺ بصَرَ عيني بسوق ذي المجاز يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا».

ويدخل في فجاجها^(١) والناس مُتَقَصِّفُونَ^(٢) عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت، يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا».

إلا أن وراءه رجلاً أحول وَضِيءَ الوجه ذا غَدِيرَتَيْنِ، يقول: إِنَّهُ صَابِئٌ كاذِبٌ. فقلتُ: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة. قلتُ: من هذا الذي يُكذِّبه؟ قالوا: عمّه أبو لهب^(٣).

فالرسول لم يخرج عن أدبه في المعاملة حتى مع السفاهة الواضحة لأبي جهل وأبي لهب، وظلَّ على منهج التبشير يدعو الناس إلى الفلاح والنجاة، بل إنه كان يبشِّرهم بمُلْكِ الدنيا قبل نعيم الآخرة، إن هم آمنوا بالله ولم يشركوا به شيئاً.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «مرض أبو طالب فجاءته قريشٌ وجاءه النبي صلى الله عليه وسلم، وعند أبي طالب مجلسٌ رجلٍ، فقام أبو جهل كي يمنعه، وشكَّوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: «إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُوَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْحِزْبِيَّة».

قال: كلمة واحدة؟! قال: «كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ». قال: «يَا عَمَّ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فقالوا: إلهاً واحداً؟! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق.

قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آخْتِلَافٌ﴾ [سورة ص: ٧] ^(٤).

(١) الفجاج: جمع الفَجَّ، وهو الطريق الواسع والمكان البعيد. ابن منظور: لسان العرب، مادة فجع ٣٣٨/٢.

(٢) المتقصفون: المزدحمون والمجتمعون. ابن منظور: لسان العرب، مادة قصف ٢٨٣/٩.

(٣) أحمد (١٦٠٢٠ - ١٦٠٢٧)، و(٣٤١)، وراجع هناك تخريجه وتصحيحه.

(٤) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة ص، حديث رقم (٣٢٣٢)، وقال: «هذا حديث حسن».

فهو لا يعبس في وجوههم، ولا يقاطع مجالسهم، ولا ينظر لهم نظرة المتكبر المعرض، إنما يتلطف إليهم ويتودد، ويبشّرهم بمُلك الدنيا ونعيم الآخرة.

ولا شك أيضًا أنّ الرسول ﷺ تعامل في حياته مع كل الطوائف التي من المحتمل أن يتعامل معها المسلمون، ومر بكل الظروف التي من الممكن أن تمر بها الأمة الإسلامية .

فمن ظروف حرب إلى ظروف سلم، ومن أيام غنى إلى أيام فقر، ومن فترات قوّة، إلى فترات ضعف.

وتمثّل السيرة النبوية إعجازًا إلهيًا واضحًا جليًا في كونها تطبيقًا عمليًا للدين الإسلامي في وقت وجيز، لم يتجاوز ثلاثًا وعشرين سنة؛ حتى يتحقق التوجيه الرباني الحكيم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد تعامل رسول الله مع كل الأمور التي واجهته بطريقة فذّة، وأسلوب حكيم، وقد حفظت لنا السنة المُطَهَّرة كنوزًا ثمينة من فنون التعامل، ومن آداب العلاقات .

وبرز في كل جانب من جوانب حياته العنصر الأخلاقي، كعنصر في سلوكه وتصرفاته ولا يخلو قول أو فعل لرسول الله من خُلُقٍ كريم، وأدبٍ رفيع، ووَصَل - بلا مبالغة - إلى قمة الكمال البشري، وهذا الذي نستطيع أن نفهمه من قوله: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتُمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

وهكذا فلا يخلو موقفٌ ولا حدثٌ ولا قولٌ، ولا ردُّ فعلٍ من بروزٍ واضح لهذه الأخلاق الحميدة، حتى في المواقف التي يصعب فيها تصور الأخلاق كعاملٍ مؤثّرٍ، وذلك كأمر الحرب والسياسة، والتعامل مع الظالمين والفاستين والمحاربين للمسلمين والمتربّصين بهم.

(١) السلسلة الصحيحة (٤٥).

لقد كانت معضلةً حقيقيةً عند كثير من المتعاملين بالسياسة أن تنضبط تعاملاتهم بقيم أخلاقية وضوابط إنسانية، ولكن الدارس للسيرة النبوية، المتمعن في مواقفها يجد هذه القيم وتلك الضوابط الأخلاقية واضحة في كل مواقف السيرة بلا استثناء. ولا غرو في ذلك، فهذا الخلق هو الذي وصفه الله بالخلق العظيم، حيث قال يخاطبه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ومن هنا فإنَّ السيرة النبوية معينٌ تُرَّ لا ينضب؛ في الجانب النظري، وفي الجانب التطبيقي.

لقد أثبت رسول الله أن الأحكام الشرعية والمثل الراقية التي جاءت في كتاب الله قابلة للتطبيق، وأنها الأصلح لتنظيم حياة البشر أجمعين، وأنها النور المبين لمن أراد الهداية بصدق.

كما كانت حياته ترجمة صادقة لكل أمر إلهي، وقد صدقت ووفقت أم المؤمنين عائشة في وصف أخلاقه ﷺ عندما قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(١).

إنها صفحة بيضاء نقية، ما أحسب أن الفلاسفة والمنظرين والمفكرين قد تصوروا مرةً أنها يمكن أن تكون واقعاً حياً بين الناس، حتى إن أفلاطون في جمهوريته والفارابي في مدينته الفاضلة، وتوماس مور في مدينته الفاضلة الثانية (اليوتوبيا) لم يصلوا في التنظير إلى مثقال ذرة مما كان عليه رسولنا ﷺ في الواقع.

ونقتصر في الحديث هنا على تعامل الرسول ﷺ مع غير المسلمين من المسالمين المعاهدين، الذين يعيشون في المجتمع المسلم.

عدله مع المخالفين له :

إذا كانت صور عدل الرسول ﷺ التي مرّت بنا فيما سبق مع المسلمين تُشير دهشتنا، فالعجب كلّ العجب من عدله رسول الله عندما يحكم بين مسلم وغير

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨).

مسلم؛ فالعدل عنده أمرٌ مُطلق، لا علاقة له بالأديان والأجناس والعصبيات والمصالح المتعارضة، وغير ذلك من الروابط الأرضية والعلاقات الدنيوية.

وأمثال هذه المواقف في السيرة النبوية كثيرةٌ نذكر منها: عندما سرق رجلٌ من المسلمين من إحدى قبائل الأنصار من بني أبيرق بن ظفر بن الحارث، وكان اسمه في رواية: «طعمة بن أبيرق»، وفي رواية أخرى: «بشير بن أبيرق».

وكان هذا الرجل قد سرق درعًا من جارٍ له مسلم يقال له: «قتادة بن النعمان»، وأخفى الدرع في جراب فيه دقيقٌ، فلمّا حمله جعل الدقيق ينتثر من خرقٍ في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجلٍ من اليهود يقال له: «زيد بن السمين»، فالتصّت الدرع عند «طعمة» فحلف بالله ما أخذها، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق في داخل داره.

فلمّا حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي، فوجدوا الدرع عنده، فقال اليهودي: دفعها إليّ طعمة بن أبيرق!! فجاء بنو ظفر - وهم قوم طعمة - إلى رسول الله، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم، فهّم رسول الله أن يعاقب اليهودي، فأنزل الله هذه الآيات من سورة النساء: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ١٥٥ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٥٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَيْمًا ١٥٧ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٥٨ هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٥٩ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٦٠ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿﴾ [النساء ١٥٥-١٦٠] (١).

(١) الترمذي عن قتادة بن النعمان ٣٠٣٦ قال الألباني (حسن).

لقد اعتقد رسول الله أنَّ السارق هو اليهوديُّ لوجود القرائن ضدَّه، ولكن الوحي نزل بخلاف ذلك؛ فلم يكتفِ شيئاً - وحاشاه - بل قام وأعلن بوضوح وصراحةً أن اليهوديَّ بريء، وأن السارق مسلمٌ.

وليس الأمر هيناً؛ حيث إن التبرئة تأتي في حقِّ يهوديٍّ اجتمع قومه من اليهود على تكذيب الإسلام، والكيد له، والطعن في رسوله، وبثِّ الفرقة بين أتباعه.. ومع ذلك، فكل هذه السلبيات والخلفيات لا تبرِّر اتهام يهوديٍّ بغير حق.

وهذا الاتهام في حق رجل مسلم من إحدى قبائل الأنصار، وما أدراك من هم الأنصار!! هم الذين آووا ونصروا، وهم كَرِشُ الرسول ﷺ وعييته^(١)، وهم أهل دار الإسلام، وعلى أكتافهم قامت الدولة الإسلامية، ولكن كلُّ هذا ليس مبرِّراً لتبرئة سارقٍ منهم، ولو كان على حساب يهودي.

إضافةً إلى أنَّ هذا الموقف قد يُعطي مساحةً جديدةً لليهود، يكيلون فيها التُّهم والادعاءات للمسلمين: فما هم المسلمون يسرقون، وما هم يرمون الأبرياء بالتُّهم، وما هم يجتمعون على نصرة ظالم، وما هم يكذبون.

إنَّها مساحةٌ واسعةٌ قد أُتيحت لليهود؛ ليواصلوا طعنهم في جسد الأمة الإسلامية، ومع كل ذلك كان لا بُدَّ من إحقاق الحقِّ وإقامة العدل.

إنَّ الأمر لم يكن مجرد تبرئة رجل وإدانة آخر، (إنَّما كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة؛ لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية، وهي لا تقوم بالخلافة في الأرض، ولا تنهض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهجٌ فريدٌ متفوقٌ على كل ما تعرف البشرية، وحتى يثبت هذا المنهج في حياتها الواقعية، وحتى يُمحصَّ كيانها تمحيصاً شديداً، وتُنقَضَ عنه كلُّ خبيثة من ضعف البشر، ومن رواسب الجاهلية، وحتى يقام فيها ميزانُ العدل - لتحكم به بين الناس -

(١) كرشى وعييتي: أي بطاتي وخاصتي. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١٢١/٧، وصحيح البخاري، حديث رقم (٣٧٩٩).

مجردًا من جميع الاعتبارات الأرضية، والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التي يراها الناس شيئًا كبيرًا لا يقدرّون على تجاهله!)^(١).

فهل هناك مثل هذه المواقف في تاريخ أمة غير أمة الإسلام؟ هل بلغ أيُّ قائدٍ من قوَّاد الأرض مثلما بلغ رسولنا من التجرُّد للحق، وإظهار العدل وتطبيقه، ومن السماحة والأمانة في التعامل مع غير أتباع دينه؟!

ومن الجدير بالذكر في القصة السابقة أن نذكر أن هذا المسلم الذي قام بالسرقة - واتَّهم بها اليهودي - كان من المنافقين الذين ظهر نفاقهم وتأكَّد بعد هذه الحادثة.

وهذا واضح فيما رواه الترمذي عن قتادة بن النعمان، قال: كان أهل بيتٍ منا يقال لهم بنو أبيرق: بشرٌ وبشيرٌ ومبشرٌ، وكان بشيرٌ رجلاً منافقًا، يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا.

فإذا سمع أصحاب رسول الله ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث - أو كما قال الرجل - وقالوا: ابن الأبيرق قالها.

قال: وكان أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنَّما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطةٌ من الشام من الدرْمك^(٢) ابتاع الرجل منها، فخص بها نفسه، وأما العيال فإنَّما طعامهم التمر والشعير .

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/٧٥٣.

(٢) ضَافِطَةٌ مِنَ الدَّرْمَكِ: الضَّافِطُ وَالضَّفَّاطُ: الَّذِي يَجْلِبُ الطَّعَامَ وَالْمَتَاعَ إِلَى الْمُدُنِ. وَالْمُكَارِي: الَّذِي يُكْرِي الْأَحْمَالَ، وَكَانُوا يَوْمئِذٍ قَوْمًا مِنَ الْأَنْبَاطِ يَحْمِلُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ الدَّقِيقَ وَالزَّيْتِ. وَالدَّرْمَكُ: هُوَ الدَّقِيقُ الْأَبْيَضُ.

والمقصود: بضاعة من الشام فيها هذا النوع من الدقيق. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٢٠١.

فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمِّي رفاعة بن زيد حملاً من الدرملك فجعله في مشربة^(١) له، وفي المشربة سلاح: درعٌ وسيف، فعدى عليه من تحت البيت فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح.

فلما أصبح أتاني عمِّي رفاعة، فقال: يا ابن أخي، إنه قد عدى علينا في ليلتنا هذه، ونقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا وسلاحنا.

فتحسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار -: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل - رجلاً منّا له صلاح وإسلام - فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟! فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة. قالوا: إليك عتاً أيّها الرجل، فما أنت بصاحبها.

فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمِّي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله، فقلت: إن أهل بيت منّا أهل جفاء، عمدوا إلى عمِّي رفاعة بن زيد، فنقبوا مشربةً له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردّوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي: «سَأْمُرُ فِي ذَلِكَ».

فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك؛ فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار، فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمّه عمدوا إلى أهل بيت منّا أهل إسلامٍ وصلاحٍ يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت.

قال قتادة: فأتيت رسول الله فكلمته، فقال: «عَمَدَتِ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ».

قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي، ولم أكلم رسول الله

(١) مشربة: الغرفة والعلية. المباركفوري: تحفة الأحوذى ٣١٤/٨.

في ذلك، فأتاني عمي رفاعه فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله، فقال: الله المستعان.

فلم يلبث أن نزل القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

فلما نزل القرآن أتى رسول الله بالسلاح، فردّه إلى رفاعه، فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد عمي أو عشي في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيتّه بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله.

فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشيرٌ بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية فأنزل الله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [١١٥] إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٥-١١٦].

فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت رضي الله عنه بأبياتٍ من شعره، فأخذت رحله فوضعت على رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطح ثم قالت: أهديت لي شعر حسان؟! ما كنت تأتيني بخير^(١)، بل إنه - في بعض الروايات - هرب إلى مكة مرتدّاً، ومات بها^(٢).

وإذا كان هذا الحكم العادل قد جاء في حق اليهودي على حساب مسلمٍ ضعيف الإيمان مذذب العقيدة، فإن هذا الحكم لم يصدر لشك في إيمان المسلم وعقيدته، بل كان سيصدر مهما كان المخطئ؛ لأن الشريعة لا تُحابي أحداً، والرسول لا يجامل أصحابه ومعارفه.

(١) الترمذي، حديث رقم (٣٠٣٦)، قال الألباني: «حسن».

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/٤٠٦، ٤٠٧.

قصة جابر بن عبد الله واليهودي:

ولإيضاح هذا المعنى أكثر، وتأكيد بصورة أعمق، نراجع هذه القصة العجيبة التي حدثت بين يهودي، وأحد الصحابة المقربين جداً إلى قلب رسول الله، وهو جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنه^(١)، وهو من الصحابة الكرام الذين حضروا بيعة العقبة الثانية في طفولته مع أبيه «عبد الله بن حرام» رضي الله عنه، وشهد المشاهد كلها ابتداءً من أحدٍ والتي بعدها.

يروى جابر بن عبد الله رضي الله عنه فيقول: «كان بالمدينة يهودي، وكان يُسلفني في تَمْرِي إلى الجِداد^(٢) - وكانت لجابر الأرض التي بطريق رومة - فجلستُ، فخلا عاماً، فجاءني اليهودي عند الجِداد، ولم أجدّ منها شيئاً، فجعلتُ أستنظره إلى قابل^(٣) فيأبى، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لأصحابه: «امشوا نَسْتَنْظِرْ لِحَابِرٍ مِنَ الْيَهُودِيِّ».

فجاءوني في نخلي، فجعل النبي يُكَلِّمُ اليهودي، فيقول: أبا القاسم، لا أنظرُه. فلما رأى النبي قام فطاف في النخل، ثم جاءه فكلمه فأبى، فقمْتُ فجئتُ بقليل رطبٍ فوضعتُه بين يدي النبي، فأكل ثم قال: «أَيْنَ عَرِيشِكَ^(٤) يَا جَابِرُ؟» فأخبرته، فقال: «أَفْرَشُ لِي فِيهِ». فَفَرَشْتُهُ، فدخل فرقد ثم استيقظ، فجئته بقبضة أخرى، فأكل منها ثم قام فكلم اليهودي فأبى عليه.

فقام في الرطاب في النَّخْلِ الثَّانِيَةِ، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «يَا جَابِرُ، جُدَّ وَأَقْضِ». فوقف في الجِداد فجددت منها ما قضيتُه، وفضلَ منه، فخرجت حتى جئتُ النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الرازي: مفاتيح الغيب ٣٦٩/٥.

(٢) الجِداد: زمن قطع النخل. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٥٦٧/٩.

(٣) أستنظره إلى قابل: أي أستمهله إلى عام ثانٍ. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٥٦٨/٩.

(٤) عريشك: أي المكان الذي اتخذته في البستان، لتستظلَّ به وتقبل فيه. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٥٦٨/٩.

فبشّرته، فقال: «أشهدُ أنني رسولُ الله»^(١).

فهذه قصة المعجزة العجيبة يستدين فيها جابر بن عبد الله ﷺ من يهودي، فيأتي ميعادُ سداد الدين، وليس مع جابر بن عبد الله ﷺ ما يقضي به دينه، فجعل يطلبُ من اليهودي أن يؤخره عامًا حتى يستطيع السداد - وكان جابر بن عبد الله ﷺ من الفقراء المدينين - لكن اليهوديَّ أبى وأصرَّ على أن يأخذ دينه في مواعده .

فأخبر جابر بن عبد الله ﷺ رسولَ الله ﷺ بالأمر، وطلب منه أن يتوسطَ بينه وبين اليهودي، وقام رسول الله ﷺ بالفعل، بل أخذ معه بعضًا من أصحابه، وذهب إلى اليهودي يستشفعُ لجابرٍ.

فيقول جابر ﷺ: فجعل رسول الله يكلمُ اليهوديَّ. أي أنه أكثرُ في الكلام والاستشفاع عنده، لكن اليهودي رفض بكل وسيلة، وكان مصرًّا على قوله: أبا القاسم، لا أنظره ..

هذا موقف يقع فيه أحدُ الأصدقاء المقربين إلى قلب من يحكم المدينة المنورة بكاملها، في أزمة، مع أحد رعايا هذه المدينة، وهو اليهودي، إنه يريد تأجيل سداد الدين، وليس المماطلة فيه، أو التفاوضي عنه، والرسول بنفسه يستشفعُ له، ولكنَّ اليهودي يرفض، ومع ذلك لم يجبر زعيمُ الأمة الإسلامية وقائدُ المسلمين ورسول ربِّ العالمين ذاك اليهوديَّ أو يُكرِّهه على قبولِ استشفاعه!

لم ينظر رسول الله ﷺ هنا إلى صورته التي قد يستضعفها المراقبون والمحللون للموقف، ولم ينظر إلى حبه لجابر بن عبد الله وقربه من قلبه، ولم ينظر إلى تاريخ اليهود العدائي مع المسلمين؛ لم ينظر إلى كل هذه الاعتبارات ولا إلى غيرها، إنما نظر فقط إلى إقامة العدل في أسمى صورته.

إنَّ الحق مع اليهودي، والسداد واجبٌ، والاستشفاعُ مرفوضٌ من صاحب

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٤٤٣).

الحق، فليكن السداد، وليكن الإنصاف لليهودي غير المسلم، ولو كان من صحابي جليل وابن صحابي جليل.

إن هذا لم يكن تكلفاً من الرسول، ولا تجملاً منه، إنما كان التطبيق الطبيعي لقواعد الدين؛ إن الشفقة على جابر لفقره لم تكن مبرراً للجور على اليهودي.

عدله ﷺ مع المسيئين:

من صور عدل الرسول الباهرة أنه كان لا يتجاوز في العقاب مهما كان الجرم شنيعاً، ومهما كان تجاوز الآخرين في حقه وحق المسلمين عظيماً.

يروى أبي بن كعب رضي الله عنه: أنه لما كان يوم أحد أُصيب^(١) من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة، فمَثَلُوا بهم؛ فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُرِيَنَّ^(٢) عليهم.

فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله: كُفُّوا عَنِ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً^(٣).

فمع شدة مصاب يوم أحد، ومع شدة ألم رسول الله، إلا أنه يطبق شرع الله؛ فلا يسمح بتجاوز، ولا يقبل بتعد، ولا يتمناه.

موقفه ﷺ مع رسولي مسيئة الكذاب:

ومن صور عدله الرائعة أيضاً أنه لم يكن ليندفع إلى ظلم حتى مع شدة كراهيته أحياناً لشخص ما، وهو بذلك يطبق الآية الكريمة الجامعة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

(١) أي: استشهد.

(٢) أي: لنزيدن في القتل عن هذا العدد.

(٣) الترمذي عن أبي بن كعب، حديث رقم (٣١٢٩)، وابن حبان، حديث رقم (٤٨٧)، وحسنه الترمذي.

ومن هذا ما رأيناه منه وهو يتحدث مع رسوليّ مسيلمة الكذاب، فهذان الرسولان جهرا بأنهما يؤمنان بمسيلمة الكذاب، ويتبعانه في دينه، وهذا يعني أنهما من المرتدّين الذين تحل دماؤهم.. وقد قال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالشَّيْبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١).

فهذا حكم الذي ارتدّ عن دينه وترك الجماعة.. وهذان لم يرتدّا فقط، ولم يكتفيا بترك الجماعة، ولكنهما يقومان بفتنة الناس، والدعوة إلى اتباع مسيلمة، بل جاءا يساومان رسول الله على اقتسام النبوة أو تداولها، فلو سار الإنسان مع هواه، دون مراعاة للشرع، ولا لمطلق العدل، لكان قتلها أمرا وارداً..

لكنّ رسول الله في هذا الموقف العجيب حقن دماءهما؛ لأنهما من الرسل، والرسل - عُرُفًا - لَا تُقْتَلُ، والشرع يُقرّ ذلك العرف ويؤكدّه.. لقد قال رسول الله مخاطبًا الرسولين المرتدّين: «أَمَّا وَاللَّهِ! لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»^(٢).

إن ردة هذين الرسولين، وكفرهما وخطورة أمرهما لم تدفعه إلى ظلمهما أو إلى التعدي عليهما، بل أمتنهما وتعامل معهما بمنتهى الرقي، وعاش مؤكداً على هذا المنهج القويم حتى مع مخالفه وأعدائه.

بل إن مسيلمة الكذاب نفسه لما ظفر بأحد رسل المسلمين، وهو حبيب بن زيد رضي الله عنه أمر بتقطيعه عضواً عضواً، حتى لقي حبيب ربّه شهيداً؛ لتظهر الصورة أكثر وضوحاً، ويعرف الجميع الفرق الشاسع بين المنهج الإسلاميّ والمنهج الأخرى، وليدرك كلُّ مُطلع المسافات الهائلة بين قانون السماء وقوانين الأرض.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٨٧٨).

(٢) الحاكم ١٤٣/٢، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

عدله مع المتآمرين على اغتياله :

ويجدر بنا - في ختام حديثنا المهم من فصول سيرة الرسول مع غير المسلمين ، ومنهجه العادل في التعامل معهم - أن نعرض لموقف أخير ، لعله - بلا مبالغة - أعجب من كل ما سبق !!

ألا وهو موقفه من اليهود الذين دسوا له السم ؛ ليقتلوه بعد فتح خيبر ، يروي أبو هريرة رضي الله عنه فيقول : «لما فُتحت خيبر أُهديت للنبي شاة فيها سم ، فقال النبي : اجتمعوا لي من كان ها هنا من يهود . فجمعوا له ، فقال : إني سأئلكم عن شيء فهل أنتم صادقون عنه؟ فقالوا : نعم . قال لهم النبي : من أبوكم؟ قالوا : فلان .

فقال : كذبتكم ، بل أبوكم فلان . قالوا : صدقت . قال : فهل أنتم صادقون عن شيء إن سألت عنده؟ فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفت في أينا . فقال لهم : من أهل النار؟ قالوا : نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها . فقال النبي : احسبوا فيها ! والله لا نخلفكم فيها أبدا .

ثم قال : هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟ . فقالوا : نعم يا أبا القاسم . قال : هل جعلتكم في هذه الشاة سماء؟ قالوا : نعم !! قال : ما حملكم على ذلك؟ قالوا : أردنا إن كنت كاذبا نستريح ، وإن كنت نبيا لم يضررك»^(١) .

لقد قام رسول الله بتحقيق هادئ غير منفعل مع اليهود الذين دبّروا مؤامرة اغتياله ، وأقام عليهم الحجّة حتى اعترفوا بألستهم بأنهم دبّروا محاولة القتل ، واكتشف أن هذه المجموعة من اليهود قد أمرت إحدى نساء اليهود لتضع السم بنفسها في الشاة ، ثم تقدمها إلى رسول الله . فالرجال هم الذين أمروا ، والتي نفذت الأمر ، وباشرت الفعل هي المرأة .

وقبل أن تعرف رد فعله لهذه المؤامرة توقف لحظات مع واقع غيره من الزعماء

(١) صحيح البخاري ، حديث رقم (٣١٦٨) .

والرؤساء والملوك، وردود أفعالهم لمن دبّر مؤامراتٍ لاغتيالهم...!! إن أبسط ما يمكن تخيُّله في هذه اللحظات أن يُقتل الذي باشر الفعل، والذي أمر به، والذي علم به، والذي رضي به.. وقد يؤخذ عمومُ أهلِ البلدة أو المدينة بفعل هذا الجاني.. هذا هو الواقع فعلاً دون مبالغة.

فماذا كان حالُ رسولنا؟! لقد قال الصحابة ﷺ لرسولنا: ألا تقتلها؟! فرفض، قال الحافظ البيهقي: «.. أجاب السهيلي: .. إنما تركها، لأنه كان لا ينتقم لنفسه»^(١)، ففي صحيح البخاري «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم الله بها»^(٢).

لقد قَبِلَ حُجَّتَهُمْ مع أنَّ أحداً منهم لم يؤمن؛ مما يوضح أنهم لم يفعلوا ذلك أملاً في ظهور الحقيقة، ولكن فعلوا ذلك حسداً من عند أنفسهم، وبغضاً لرسول الله.

ومع كل ذلك، لم يعاقبهم غير أن أحد الصحابة، وهو بشر بن البراء بن معمر، كان قد أكل مع رسول الله من الشاة المسمومة، فمات مقتولاً بسُمِّها، فهنا أمر رسول الله بقتل المرأة قصاصاً، ولم يُقتل معها أحدٌ من أهل خيبر.

يقول القاضي عياض - رحمه الله -: «لم يقتلها رسول الله أولاً حين أُطْلِع على سُمِّها، وقيل له: اقتلها، فقال: لا، فلما مات بشر بن البراء من ذلك سلّمها لأوليائه، فقتلوا قصاصاً»^(٣).

تُرى ماذا كان عليه تعاملُ قُودِ العالم في التاريخ، وماذا يكون تعاملهم في الواقع مع مَنْ يدبّرون مؤامراتٍ لقتلهم؟! وماذا سيكون ردُّ فعل هؤلاء الزعماء عند مقتل أصحابهم وأحبابهم؟! عند القياس سيزولُ الالتباسُ!! وعند المقارنة ستتضح المفارقة!! ولنا في التاريخ عبر.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٥٦٠).

(٢) دلائل النبوة ٥٤٨/٢. (٣) النووي: شرح مسلم ١٧٩/١٤.

إنه لا ينبغي لأحد من أهل الأرض - كائناً من كان - أن يقارن أخلاق أحدٍ بأخلاق الرسول ﷺ؛ فأخلاق عموم البشر شيءٌ، وأخلاق النبوة شيءٌ آخرٌ تماماً.

القضاء لليهودي على مسلم يمينه فقط:

من أوضح صور عدل الرسول ﷺ عدله في تعامله مع غير المسلمين؛ حيث إنه لم يكن يحكم على أحدهم إلا ببينة، مهما كان المدعي قريباً منه..

فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ». قَالَ: فَقَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ: أَلَكِ بَيِّنَةٌ؟ قُلْتُ: لَا. فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: احْلِفْ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(١).

إنه اختصام بين رجلين: أحدهما من صحابة الرسول والآخر يهودي.. فيأتيان إلى رسول الله ليحكم بينهما، فلا يجد أمامه إلا أن يطبق الشرع فيهما دون محاباة ولا تحيز، والشرع يلزم المدعي - وهو الأشعث بن قيس رضي الله عنه - بالبينة أو الدليل، فإن فشل في الإتيان بالدليل فيكفي أن يحلف المدعى عليه - وهو اليهودي - على أنه لم يفعل ما يتهمه به المدعي، فيصدق في ذلك؛ وذلك مصداقاً لقول رسول الله: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»^(٢).

ويفعل رسول الله ﷺ ذلك مع علمه أن اليهود لا يتورعون عن الكذب؛ فهم لا يكذبون على الخلق فقط، ولكن يفترون الكذب على الله.. يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٤١٦).

(٢) رواه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني ٨٤٤، وأصله في الترمذي، حديث رقم (١٣٤١).

ويتأزم الموقفُ عندما يتبين أن الصحابي ليس معه بينةٌ، ويصبح الأمر كله رهناً بحلف اليهودي، ويشعر الصحابي بخيبة الأمل؛ لأنه يعلم أن اليهودي سيحلفُ كذباً دون تردد، فلا يملك له رسولُ الله شيئاً، ولا يجد أمامه إلا أن يترك المجال لليهودي!!

أليس هذا هو العدلَ المطلقَ الذي لا يتوقع أحدٌ من البشر أن يكون مُطَبَّقاً في واقع الناس؟ إنه الإسلام.. دين الله، يحكم حياة الناس في الأرض. وإنه رسولنا.. أعظم الخلق خُلُقاً وأدباً!!

رفضه ﷺ دعوى مسلم على يهودي لعدم البينة:

لم تكن هذه هي المرة الوحيدة في حياته التي يرفض فيها دعوى مسلم ضد يهودي لغياب البينة، فقد حدث ما هو أشدُّ من الاختصام على قطعةٍ من الأرض، وحدث ما لا يسته ظروفٌ أصعبُ من ظروف هذه القصة، وكان ردُّ فعله واحداً في القصتين؛ لأن مرجعيته ثابتة، والدين والخُلُق والعدل عنده قضايا لا تتجزأ..

روى سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه أَنَّ «نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خَيْبَرَ، فَتَفَرَّقُوا فِيهَا، وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلًا، وَقَالُوا لِلَّذِي وَجَدَ فِيهِمْ: قَدْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا. قَالُوا: مَا قَتَلْنَا وَلَا عَلِمْنَا قَاتِلًا.

فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلًا. فَقَالَ: الْكُبْرُ الْكُبْرُ^(١). فَقَالَ لَهُمْ: تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَيَّ مَنْ قَتَلَهُ؟ قَالُوا: مَا لَنَا بَيِّنَةٌ!! قَالَ: فَيَحْلِفُونَ. قَالُوا: لَا نَرْضَى بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ. فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُبْطِلَ دَمَهُ، فَوَدَّاهُ مِائَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ».

لقد حدثت هذه القصة في زمن الصلح مع اليهود، وذلك كما جاء في رواية

(١) الكبر الكبير: أي قدّموا في الكلام أكبركم. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري

مسلم «وهي يومئذ صلح»، وهذا يعني أن القصة تمت بعد هزيمة اليهود في خيبر، وقبولهم الصلح مع رسول الله؛ أي أن اليهود كانوا في موقفٍ ضعف، والمسلمين في موضع قوة، ويستطيع المسلمون أن يفرضوا رأيهم بالقوة إن أرادوا.

وفي هذه الظروف قُتل أنصاريٌّ خزرجيٌّ اسمه عبدُ الله بن سهل رضي الله عنه، كما في رواية مسلم، وتم هذا القتل في أرض اليهود، والاحتمال الأكبر والأعظم أن يكون القاتل من اليهود. ومع ذلك فليس هناك بينة على هذا الظن، والأمر في مجال الشك والظن، وهذا لا يُفلح في الدعوى؛ ولذلك لم يعاقب رسول الله اليهود بأيِّ صورة من صور العقاب، بل عرض فقط أن يحلفوا على أنهم لم يفعلوا!

وقد أُسقط في يد الأنصار؛ فهم يعلمون أن اليهود لا يبالون بحلف كاذب، وعلموا أن حقهم سيضيع، لكن الرسول لم يتأثر حكمه بحزن الأنصار، ولا رغبتهم غير المؤيَّدة بدليل، فرفض أن يغرم اليهود دية، أو أن يقتل منهم أحدًا، أو أن يُنزل عليهم أيِّ صورة من صور العقاب، فشر الأنصار بالغبن؛ لكونهم لم يُعَوِّضوا عن قتلهم.

وهنا يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يتخيله أحدٌ، فيتولى بنفسه دفع الدية من أموال المسلمين؛ لكي يهدئ من روع الأنصار، ودون أن يظلم اليهود.. فليتحمل بيت مال المسلمين الدية في سبيل ألا يُطبَّق حدٌّ فيه شُبُهَةٌ على يهودي!!

يقول العلامة الإمام النووي تعليقًا على هذا الحدث: «إنما وداه رسول الله (أي دفع ديته)؛ قطعًا للنزاع، وإصلاحًا لذات البين»^(١). إنه يريد أن يُغلق الباب تمامًا؛ فيُنسي الأنصار هذه القضية بعد أخذ الدية، ويأمن اليهود من أي تعدٍّ عليهم؛ انتقامًا للقتل، ألا ما أروع هذا الموقف وأعجبه!!

(١) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/١٤٧.

عدله مع مسيلمة الكذاب مع علمه بخطورته على المسلمين:

وأعظم من هذا الموقف وأروع ما كان من رسول الله مع مسيلمة الحنفي، وهو الذي عُرف بعد ذلك بمسيلمة الكذاب.. عندما جاء مع وفد بني حنيفة إلى المدينة المنورة في العام التاسع من الهجرة^(١).

فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ فَجَعَلَ يَقُولُ: إِنَّ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ. وَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ. فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَفِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ قِطْعَةٌ جَرِيدٍ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوا أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَنْ أُدْبِرْتَ لِعَقْرِنَكَ اللَّهُ، وَإِنِّي لَأَرَاكَ الَّذِي أُرَيْتُ فِيكَ مَا رَأَيْتُ».

فَأَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سَوَارِينَ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأُوجِي إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ: أَنْ انْفُخْتُهُمَا، فَانْفُخْتُهُمَا، فَطَارَا، فَأَوْلَتْهُمَا كَذَابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي. أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيُّ، وَالْآخَرُ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ صَاحِبُ الْيَمَامَةِ»^(٢).

إن رسول الله يرى إنساناً يرفض مبايعته على الإسلام إلا بشرط، وقد بايع قومه أجمعون، ثم إن رسول الله كان قد رأى رؤيا - ورؤيا الأنبياء حق - أن هذا الرجل سيدعي النبوة من بعده، وهو يعلم خطورة هذا الأمر، ومدى الفتنة التي من الممكن أن تحدث من جرّاء انتشار دعوته، وذيوع صيته .

وبرغم كل هذه الأحداث الخطيرة، وبرغم قوة الرسول ﷺ والمسلمين في ذلك الوقت، وضعف بني حنيفة والعرب بصفة عامة، برغم كل هذه الملاسات

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٤٨/٥.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٣٧٣-٤٣٧٥).

إلا أن رسول الله لم يتخذ ضده أي إجراء عقابي أو ردعي، ولم يقيد حريته، ولم يحد من حركته.

وقد كان ذلك؛ لأنه لا يريد أن يُصدر عليه حكماً نتيجة رؤيا أو وحي؛ لأن مسيلمة لا يؤمن بالوحي أصلاً، وهو ما زال على شركه، ومن ثم لا يصدر ضده حكم إلا بيينة مادية، ودليل يراه مسيلمة يثبت أن هذا سيحدث في المستقبل.. ولأن هذا الدليل غير موجود بهذه الصفة، فقد ترك رسول الله مسيلمة سالمًا، مع علمه ويقينه بالفتنة التي ستحدث بعد ذلك.

إنه العدل في أرقى صورته، بل إنه لا مجال للمقارنة بينه وبين صور العدل الأخرى الموجودة على سطح الأرض.



المبحث
الثامن

شهادة

غير المسلمين بفضلهم ﷺ

لم يشهد بصدق الرسول ﷺ أحبابه ولا المؤمنون به فقط، بل شهد له من حاربه سنواتٍ طوَالاً، فقلوبُ هؤلاء الزعماء الكفرة في مكة ومن حولها من الأعراب كانت موقنةً بأن محمداً رسول الله صادقٌ غيرُ كذوب؛ فقد عايشوه أربعين عاماً قبل الرسالة، فلم يعهدوا عليه كذباً، أو خيانةً، أو سوءاً في الخلق أو المعاملة، ولكنهم لم يؤمنوا به؛ لمصالح خاصةٍ عندهم.

وعندما منَّ الله على رسوله ﷺ، واصطفاه للقيام بأمر الدعوة إليه سبحانه وتعالى، فقام يدعو الناس في السرِّ والعلن؛ فإذا بالقوم ينقلبون على أعقابهم؛ فكذبوا رسالته، وعذبوا أصحابه، حتى أُخرج من مكة مُكرهاً، بعدما تأمروا على قتله.

أولاً: شهادات المشركين للرسول ﷺ:

❁ شهادة أبي سفيان بن حرب:

ومع كل هذا العنتِ والمشقة والتعذيب والتنكيل إلا أن أعداءه قد شهدوا بصدق دعوته في مواطن كثيرة؛ وخيرُ شاهد على ذلك حديثُ أبي سفيان بن حرب - الذي كان معادياً لرسول الله ﷺ في أول الأمر - مع هرقلٍ عظيم الروم .

فقد روى عبدُ الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب قد أخبره: «أن هرقلَ أرسل إليه في ركبٍ من قريش، وكانوا تُجَّاراً بالشام في المدة^(١) التي كان رسول الله

(١) المدة: يعني مدة الصلح بالحديبية، وكانت في سنة ست من الهجرة، وكانت مدتها عشر سنين. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/٣٤.

مَادَّ^(١) فِيهَا أَبَا سَفِيَانَ وَكَفَارَ قَرِيشٍ، فَأَتَتْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءٍ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عِظْمَاءُ الرُّومِ .

ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجَمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سَفِيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجَمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ! لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثُرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَّبْتُ عَنْهُ^(٢).

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَأَشْرَافَ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلِ ضَعْفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلِ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخِطَةً لَدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذْبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مَدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةً أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالِكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ؛ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ

(١) مَادَّ فِيهَا أَبَا سَفِيَانَ: أَيُّ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَدَّةً صَالِحَةً. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري

٣٥/١ ط دار المعرفة بيروت ١٣٩٧

(٢) يَأْثُرُوا عَلَيَّ كَذِبًا أَيُّ: يَنْقُلُوا عَلَيَّ الْكَذْبَ لِكَذْبَتِ عَلَيْهِ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَقْبِحُونَ الْكَذْبَ؛ إِذَا بِالْأَخْذِ عَنِ الشَّرْعِ السَّابِقِ، أَوْ بِالْعَرَفِ. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣٥/١.

وحده، ولا تُشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قُلْ له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب من قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك: هل كان من آباءه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آباءه من ملكٍ قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يعذر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه...»^(١).

وفي هذا دليل واضح على صدق نبوة الرسول ﷺ، فكل ما أخبر به أبو سفيان واقع قد رآه بعينه وعاشه بعقله وجوارحه.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٧).

❁ شهادة أبي جهل لعنه الله للرسول ﷺ:

ولم تكن شهادة أبي سفيان بن حرب الشهادة الوحيدة من عَدُوِّ عاصر رسول الله ﷺ، فأنصفه، ولا من هرقل الذي يتزعم دولة كبيرة حاربت المسلمين ردحًا من الزمن، بل كانت هناك شهادات من أعداء آخرين لا يَقْلُونَ عداوةً لرسول الله عنهما، بل يُعَدُّون من أكثر أعداء رسول الله كُرْهًا له، وحقًا عليه، وسعيًا لقتله ومحوه من بين ظهرانيهم..

إنه أبو جهل الذي بلغت عداوته لرسول الله الذروة؛ فهو الذي أصرَّ على إشعال نيران الحرب بين الكافرين والمسلمين في غزوة بدر، وجَرَّه كِبْرُه وجبروته لحتفه ومصرعه.

لقد شهد هذا العَدُوُّ لرسول الله بالصدق والنبوة؛ فقد سأل المِسْوَرُ بن مخزومة خاله أبا جهل عن حقيقة محمد، إذ قال: يا خالي، هل كنتم تَتَّهَمُونَ محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يابن أختي، والله! لقد كان محمد فينا وهو شابُّ يُدْعَى الأمين، فما جَرَّبْنَا عليه كذبًا قطُّ. قال: يا خال، فما لكم لا تَتَّبِعُونَهُ؟ قال: يابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسَقَوْا وسَقَيْنَا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثبنا^(١) على الرُّكْبِ كُنَّا كَفَرَسِي رِهَانٍ^(٢)، قالوا: مَتَّأ نبي. فمتى نُدرِكُ مثل هذه؟!

وقال: الأخنسُ بن شريق يومَ بدر لأبي جهل: يا أبا الحكم، أَخْبِرْنِي عن محمد؛ أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش أحدٌ غيري وغيرك

(١) تجاثبنا: أي جلسنا على الرُّكْبِ للخصومة. وفي الروض الأنف: تجاذبنا على الركب: وقع في الجمهرة الجاذي: المقعي على قدميه. قال: وربما جعلوا الجاذي والجاثي سواء. انظر: السهيلي: الروض الأنف ١١٠/٣، وانظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جثا ١٣١/١٤، ومادة جذا ١٣٦/١٤.

(٢) كَفَرَسِي رِهَانٍ: يُضْرَبُ للمتساويين في الفضل، وقيل: للمتناصبين. انظر: الضبي: الأمثال ١١/١.

يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إنَّ محمدًا لصادقٌ، وما كذب محمدٌ قطُّ، ولكن إذا ذهبَ بنو قُصَيِّ باللواء والحجابه والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟^(١).

إن الاعترافين السابقين لأبي جهل - وهو العدوُّ الأوَّلُ للدعوة الإسلامية - لدليلٌ واضح على صدق بُبُوَّة محمد؛ فأبو جهل لا يُنازع محمدًا ﷺ اعتقادًا منه بأنه كاذب أو مُدَّع، بل يُنازعه لأجل عصبية زائفة، تجعل الاعترافَ بمحمد ﷺ ونبُوَّتِه أمرًا بالغ الصعوبة والتعقيد؛ إذ الاعترافُ بنبُوَّتِه سيجعل كفة بني هاشم راجحةً قويةً على سائر بطون قريش، وهو الأمر الذي يرفضه أبو جهل رفضًا قاطعًا.

❁ شهادة قريش للرسول ﷺ:

بل وقد اعترفت قريشٌ بسائر بطونها بأنه صادق أمين، وهل يستقيم لأيِّ أحد من الناس أن تجتمع القبيلةُ بكاملها على صدقه وأمانته، رغم الاختلافات الاجتماعية والنفسية بين أفرادها الكثيرين .

ففي يومٍ من الأيام خرج رسول الله حتَّى صعد الصَّفَا، فهتف: «يَا صَبَاحَاهُ» فقالوا من هذا؟ فاجتمعوا إليه قال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُتِّمُ مُصَدِّقِيَّ؟» قالوا: ما جَرَبْنَا عَلَيْكَ كَذْبًا. قال: «فَأِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فقال أبو لهب: تَبًّا لَكَ! مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟..^(٢).

إن قريشًا كلَّها قد شهدت واعترفت بصدق محمد ﷺ، فلمَّا أخبرهم بحقيقة دعوته ورسالته، نكصوا على أعقابهم^(٣)؛ تقليدًا لأبائهم، وخوفًا على مناصبهم

(١) ابن القيم: هداية الحيارى ص ٥٠، ٥١.

(٢) صحيح البخاري عن ابن عباس، حديث رقم (٤٩٧١).

(٣) نكصَ على عقبيه: رجع عما كان عليه من الخير، ولا يقال ذلك إلا في الرجوع عن الخير خاصَّة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نكص ١٠١/٧.

وتجارتهم وأموالهم، فكان هذا الموقف - وغيره من المواقف الكثيرة بين رسول الله وبين كفار قريش - دليلاً، يحمل في طياته اعترافاً منهم بصدقه، ومن ثمَّ صدق دعوته وبُؤوته.

❁ شهادة زعماء بعض يهود بصدق نبوة محمد ﷺ سرّاً:

كما اعترف زعماء اليهود بصدق نبوة محمد ﷺ، وهذا ما تقصّه أمُّ المؤمنين صفيّة بنتُ حُيَيِّ بنِ أخطبَ زعيم يهود بني قريظة، فتقول: «كنت أحبُّ ولدِ أبي إليه، وإلى عمِّي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدِمَ رسول الله المدينة، ونزل قُبَاء، في بني عمرو بن عوفٍ، غدا عليه أبي، حُيَيُّ بنُ أخطبَ، وعمِّي أبو ياسر بن أخطب، مُعَلَّسَيْنِ^(١).

قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كألين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قالت: فَهَشِشْتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمِّ. قالت: وسمعت عمِّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حُيَيِّ بنِ أخطبَ: أهو هو^(٢)؟ قال: نعم والله! قال: أَتَعْرِفُهُ وَتُثَبِّتُهُ؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ^(٣).



(١) العَلَسُ: ظلام آخر الليل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة غلس ١٥٦/٦.

(٢) يقصد بذلك رسول الله.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٥١٧/١.

ثانياً: شهادة النصارى بنبوة الرسول ﷺ:

✽ اعتراف نصارى نجران ضمناً بنبوته ﷺ:

وما أجمل أن نختم مقالنا هذا باعتراف نصارى نجران بنبوة محمد ﷺ، عندما رفضوا مباهلة^(١) رسول الله الذي امثل لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فخرج إليهم رسول الله ومعه عليّ والحسن والحسين وفاطمة، ودعاهم للمباهلة فقالوا: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. فانصرفوا عنه، ثم خلّوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خير صاحبكم^(٢)، ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبيّاً قط فبقي كبيرهم، ولا تبت صغيروهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم^(٣).

إن أول جملة قالها الراهب النصراني الشهير «بحيرا» حين رأى محمداً ﷺ في رحلته الأولى إلى الشام مع أبي طالب: «هذا سيد العالمين! هذا رسول رب العالمين! هذا يبعثه الله رحمة للعالمين!»^(٤).

(١) المباهلة: الملاعنة، يقال: باهلت فلاناً أي لاعتته. ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بهل ٧١/١١.

(٢) يقصد عيسى عليه السلام. (٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/٥٨٤.

(٤) انظر الترمذي، حديث رقم (٣٦٢٠)، والحاكم: المستدرک على الصحيحين ٢/٦١٥.

وإن في ذلك لدلالة بينة على ما كان يتدارسه الرهبان والقساوسة في الأناجيل، حيث صفة الرحمة التي سجلتها الكتب السماوية السابقة في محمد ﷺ.

ثالثاً: إنصاف بعض علماء الغرب للرسول ﷺ:

لقد أنصف كثير من الغربيين محمداً ﷺ، وكان هذا الإنصاف ناتجاً عن دراسة موضوعية مستفيضة لسيرة وحياء رسول الله، وقد اكتملت في هذه الدراسة عناصر المنهج العلمي الحديث القائم على الملاحظة والتجربة والاستقصاء، وجاءت النتائج إيجابية تجاه رسول الله، وأصبحت شهاداتهم برهاناً يهتدي به الباحثون عن الحقيقة في الغرب.

فمن أنصف رسولَ الله الشاعر الفرنسي لامارتين؛ حيث يقول: «أترون أن محمداً كان صاحب خداع وتدليس، وصاحب باطل وكذب؟! كلا، بعدما وعينا تاريخه، ودرسنا حياته، فإن الخداع والتدليس والباطل والإفك.. كل تلك الصفات هي ألصق بمن وصف محمداً بها»^(١).

يقول توماس كارليل: «لسنا نعدُّ محمداً قُطُّ رجلاً كاذباً متصنعاً، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بُغية، أو يطمع إلى درجة مُلك، أو سلطان، أو غير ذلك من الحقائق والصغائر، وما الرسالة التي أداها إلا حقٌّ صراحٌ، وما كلمته إلا صوتٌ صادقٌ صادرٌ من العالم المجهول، كلا، ما محمد بالكاذب ولا الملقق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تَفَطَّرَ عنها قلبُ الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع»^(٢).

ويقول عالم الاجتماع غوستاف لوبون: «إنني لا أدعو إلى بدعة مُحدثة، ولا إلى ضلالة مستهجنة، بل إلى دين عربي قد أوحاه الله إلى نبيه محمد، فكان أميناً على بثِّ دعوته بين قبائل، تلهت بعبادة الأحجار والأصنام، وتلدذت بترهات الجاهلية،

(١) لامارتين: السفر إلى الشرق ص ٨٤.

(٢) توماس كارليل: الأبطال ص ٥٨-٦٠.

فجمع صفوفهم بعد أن كانت مبعثرة، ووحد كلمتهم بعد أن كانت متفرقة، ووجه أنظارهم لعبادة الخالق، فكان خير البرية على الإطلاق حباً ونسباً وزعامة ونبوة .

هذا هو محمد الذي اعتنق شريعته أربعمئة مليون مسلم، منتشرين في أنحاء المعمورة، يُرتلون قرآناً عربياً مبيناً^(١).

ويقول غوستاف لوبون في موضع آخر: « فرسول كهذا جديرٌ باتِّباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته؛ إذ إنها دعوةٌ شريفةٌ، قوامها معرفة الخالق، والحضُّ على الخير، والردُّ عن المنكر، بل كلُّ ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى^(٢) .

ولا يُخفي المفكر البريطاني لين بول تأثره بمحمد، فيقول: « إن محمداً كان يُصنَّفُ بكثير من الصفات؛ كاللطف والشجاعة وكرم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تُطبعه هذه الصفات في نفسه، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن غير ميلٍ أو هوى، كيف لا؟! وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته سنوات بصبر وجلد عظيمين .

ومع ذلك فقد بلغ من نُبله أنه لم يكن يسحبُ يده من يدِ مصافحه حتى لو كان يصفح طفلاً! وأنه لم يمرَّ بجماعة يوماً من الأيام - رجالاً كانوا أم أطفالاً - دون أن يُسلمَ عليهم، وعلى شفثيه ابتساماً حلوة، وبنعمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعيها، وتجذب القلوب إلى صاحبها جذباً!^(٣) .

(١) هذا التعداد الذي ذكره غوستاف لوبون كان وقت إصداره لكتابه (حضارة العرب)، عام ١٨٨٤م، أما الآن عام ٢٠٠٨م فقد تجاوز عدد المسلمين في العالم ١,٣ مليار نسمة. انظر: جريدة الشرق الأوسط، على الرابط.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٦٧.

(٣) لين بول: رسالة في تاريخ العرب، نقلاً عن: عفيف عبد الفتاح طيارة: روح الدين الإسلامي ص ٤٣٨.

ويتحدّث الأديب الإنجليزي جورج برنارد شو قائلاً: «لقد درست محمداً باعتبارَه رجلاً مدهشاً، فرأيتَه بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يُدعى منقداً الإنسانية، وأوربا في العصر الراهن بدأت تعشق عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعَد من ذلك؛ فتعرف بقدرَة هذه العقيدة على حلِّ مشكلاتها، فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي»^(١).

ويقول المستشرق الإنجليزي الكبير وليم موير: «امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتمّ من الأعمال ما أدهش الألباب، لم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق الحسنة، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد»^(٢)..

«ومهما يكن هناك من أمرٍ، فإن محمداً أسمى من أن ينتهي إليه الواصفُ، وخبيرٌ به مَنْ أمعن النظر في تاريخه المجيد، وذلك التاريخ الذي ترك محمداً في طليعة الرسل ومفكري العالم»^(٣).

ويقول المستشرق الأمريكي الكبير واشنجتون إرفنج: «كانت تصرفات الرسول في أعقاب فتح مكة تدلُّ على أنه نبيٌّ مرسل، لا على أنه قائدٌ مطلقٌ؛ فقد أبدى رحمةً وشفقةً على مواطنيه، برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توجَّح نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»^(٤).

ويقول رئيس الوزراء الهندي الأسبق جواهر لال نهرو: «كان محمد كمؤسسي الأديان الأخرى، ناقماً على كثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في عصره،

(١) حسين حسيني معدي: الرسول في عيون غربية منصفة ص ٧٠.

(٢) وليم موير: حياة محمد ص ٣١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠.

(٤) واشنجتون إرفنج: حياة محمد ص ٧٢.

وكان للدين الذي بشر به - بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة - تجاوبٌ لدى الناس في البلدان المجاورة؛ لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين، والقساوسة المستبدين .

لقد تعبَ الناسُ من النظام القديم، وتاقوا إلى نظام جديد، فكان الإسلامُ فرصتهم الذهبية؛ لأنه أصلح الكثير من أحوالهم، ورفع عنهم كابوسَ الضيم والظلم^(١).

ويقول المؤرخ البلجيكي جورج سارتون^(١): «وخلاصة القول... إنه لم يُنحَ لنبي من قبل ولا من بعد أن ينتصر انتصاراً تاماً كانتصار محمد^(٢)».

يقول المستشرق آرثر جيلمان: «لقد اتفق المؤرخون على أنَّ محمدًا ﷺ كان ممتازاً بين قومه بأخلاق جميلة؛ من صدق الحديث، والأمانة، والكرم، وحسن الشمائل، والتواضع.. وكان لا يشرب الأشرطة المسكرة، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً^(٣)».

ويقول كارل بروكلمان: «لم تُشبَّ محمدًا ﷺ شائبةً من قريبٍ أو بعيدٍ؛ فعندما كان صبيّاً وشابّاً عاش فوق مستوى الشبهات التي كان يعيشها أقرانه من بني جنسه وقومه^(٤)».

(١) جورج سارتون George Sarton (١٨٨٤ - ١٩٥٦م): بلجيكي الأصل، متخصص في العلوم الطبيعية والرياضية، درس العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٣١ - ١٩٣٢م، وألقى محاضرات حول فضل العرب على الفكر الإنساني. أبرز إنتاجه (المدخل إلى تاريخ العلم). انظر: نجيب العقيلي: المستشرقون ٣/١٤٧، ١٤٨.

(٢) سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ص ٢٨-٣٠.

(٣) آرثر جيلمان: الشرق، ص ١١٧.

(٤) نقلاً عن محمد عثمان عثمان: في كتابه (محمد في الآداب العالمية المنصفة) ص ١١٠.

ويتحدث توماس كارليل عن نبينا محمد ﷺ قائلاً: "لوحظ على محمد ﷺ منذ (صباه) أنه كان شاباً مفكراً، وقد سمّاه رفاقؤه الأمين - رجل الصدق والوفاء - الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمةً بليغةً.."

وإني لأعرف عنه ﷺ أنه كان كثير الصمت، يسكتُ حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لب! وقد رأيناه ﷺ طول حياته رجلاً راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهم، كريماً بَرّاً رؤوفاً تقياً فاضلاً حرّاً، رجلاً شديد الجِدِّ مخلصاً، وهو مع ذلك سهل الجانب لِينُ العريكة، جَمُّ البشر والطلاقة، حميدُ العشرة، حلُوُ الإيناس، بل ربما مازح وداعب .

وكان على العموم تضيئُ وجهه ابتسامةً مشرقةً من فؤادٍ صادقٍ.. وكان ذكيّ اللبِّ، شهيمَ الفؤادِ.. عظيمًا بفطرته، لم تثقفهُ مدرسة، ولا هذبهُ معلمٌ، وهو غنيٌّ عن ذلك.. فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء^(١).

ويتحدثُ الباحثُ البلجيكيُّ ألفرد الفانز عن أخلاق محمد ﷺ فيقول: "شبَّ محمد ﷺ حتى بلغ، فكان أعظمَ الناس مروءة وحلمًا وأمانة، وأحسنهم جوابًا، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم عن الفحش، حتى عُرف في قومه بالأمين .

وبلغت أمانته وأخلاقه المرضية خديجة بنت خويلد القرشية، وكانت ذات مال، فعرضت عليه خروجه إلى الشام في تجارة لها مع غلامها ميسرة، فخرج وربح كثيرًا، وعاد إلى مكة وأخبرها ميسرة بكراماته، فعرضت نفسها عليه وهي أيمٌ، ولها أربعون سنةً، فأصدقها عشرين بكرّةً، وتزوجها وله خمس وعشرون سنةً، ثم بقيت معه حتى ماتت^(٢).

(١) توماس كارليل: الأبطال، ص ٥٠، ٥١.

(٢) انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ص ١٧.

ويتحدث الباحث الروسي آرلونوف، عن نبي الرحمة، ويقول: «اشتهر ﷺ بدمائة الأخلاق، ولين العريكة، والتواضع، وحسن المعاملة مع الناس.

قضى محمد ﷺ أربعين سنة مع الناس بسلام وطمأنينة، وكان جميع أقاربه يحبونه حباً جمّاً، وأهل مدينته يحترمونه احتراماً عظيماً، لما عليه من المبادئ القويمة، والأخلاق الكريمة، وشرف النفس، والنزاهة»^(١).

يقول الكاتب الأمريكي واشنجتون إيرفنج (١٧٨٣-١٨٥٩م): «كان محمد ﷺ خاتم النبيين، وأعظم الرسل الذين بعثهم الله؛ ليدعوا الناس إلى عبادة الله»^(٢).

ويثبت «مارسيل بوازار» نبوة محمد ﷺ، بأسلوب عقلائي وعلمي، بكلمات بليغة فيقول: «منذ استقر النبي محمد ﷺ في المدينة، غدت حياته جزءاً لا ينفصل من التاريخ الإسلامي. فقد نقلت إلينا أفعاله وتصرفاته في أدق تفاصيلها.. ولما كان منظمًا شديد الحيوية، فقد أثبت نضاله في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الجيني، وفي بث الدعوة..

وعلى الرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة، قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبان قيامه، وجسدت المناخ الروحي للإسلام..»^(٣).

ويضيف قائلاً: «وكما يُظهرُ التاريخُ محمدًا ﷺ قائدًا عظيمًا ملأ قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجلَ دولة، صريحًا قوي الشكيمة، له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة، وتعطي كلَّ صاحبِ حقٍّ حقه.

(١) آرلونوف: مقالة «النبي محمد»، مجلة الثقافة الروسية، ج ٧، عدد ٩.

(٢) واشنجتون إيرفنج: حياة محمد، ص ٧٢.

(٣) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٦.

ولقد استطاع بدبلوماسيته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية، عن طريق المعاهدات، في الوقت الذي كان النصر العسكري قد بدأ يحالفه.

وإذا تذكرنا أخيراً على الصعيد النفساني هشاشة السلطان الذي كان يتمتع به زعيمٌ من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص: أنه لا بد أن يكون محمد ﷺ الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به، إنساناً فوق مستوى البشر حقاً، وأنه لا بد أن يكون نبياً حقيقياً من أنبياء الله^(١).

أما إميل درمنغم، فيدلل على نبوة محمد ﷺ، من خلال حادث وفاة إبراهيم بن رسول الله، فيقول: «.. ولد لمحمد ﷺ، (من مارية القبطية) ابنه إبراهيم، فمات طفلاً، فحزن عليه كثيراً ولحده بيده وبكاه، ووافق موته كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمداً ﷺ كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك؛ فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد..». فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال..»^(٢).

يقول لايتنر: «بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول: بأن ما علمه محمد ﷺ ليس اقتباساً، بل قد أوحى إليه به، ولا ريب بذلك، طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيزٍ عليم.

وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان توضيح الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، وإيمان القلب الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائل لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد ﷺ، وأنه قد أوحى إليه^(٣).

(١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٦.

(٢) إميل درمنغم: حياة محمد، ص ٣١٨. (٣) لايتنر: دين الإسلام، ص ٤.

أما الكاتبة الإيطالية لورافيشيا فاغلييري، فتقول: «حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبيَّ الله ﷺ ببعض التهم المفتراة. لقد نسوا أن محمداً ﷺ كان قبل أن يستهلَّ رسالته، موضع الإجلال العظيم من مواطنيه؛ بسبب أمانته وطهارة حياته.

ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل؛ كيف جاز أن يقوى محمدٌ ﷺ على تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك رجلاً كاذباً؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثُّه - وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة - حثاً موصولاً؟ كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً؟ كيف وُفقَ إلى أن يواصلَ هذا الصراعَ أكثر من عشر سنوات، في مكة، في نجاح قليل جداً، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمناً إيماناً عميقاً بصدق رسالته؟

كيف جاز أن يؤمن به هذا العددُ الكبيرُ من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد، ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلَّفٍ في كثرته من الأرقاء، والعُتقاء، والفقراء المعدمين، إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقولَ أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكادُ ينعقد الإجماعُ على أن صدقَ محمدٍ ﷺ كان عميقاً وأكيداً^(١).

ويكشف المفكرُ البريطاني روم لاندو زيفَ المكذبين لنبوة محمد ﷺ بقوله: «كانت مهمة محمد ﷺ هائلةً! كانت مهمةً ليست في ميسور دجال تحدوه دوافعُ أنانية، وهو الوصف الذي رمى به بعضُ الكتاب الغربيين المبكرين محمداً العربي ﷺ...»

(١) لورافيشيا فاغلييري: دفاع عن الإسلام، ص ٣٧، ٣٨.

إن الإخلاص الذي تَكشَف عنه محمدٌ ﷺ في أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمان كامل في ما أنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد ﷺ بأيّ ضرب من الخداع المتعمد.

ولم يعرف التاريخ قط أيّ تلفيقٍ ديني متعمدٍ استطاع أن يعمرَ طويلاً. والإسلام لم يعمرَ حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب، في كل عام أتباعاً جديداً. وصفحاتُ التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحداً على محتمال كان لرسالته الفضلُ في خلقِ إمبراطورية من إمبراطوريات العالم، وحضارةٍ من أكثر الحضارات نبلاً! (١)٤.

ويقول العلامةُ الإنجليزي دُرّاني^(٢)، مشيراً إلى خُلُقِ الرحمة في النبي ﷺ: «أستطيع أن أقولَ بكل قوة: إنه لا يوجد مسلمٌ جديدٌ واحد، لا يحمل في نفسه العرفانَ بالجميل لسيدنا محمد ﷺ؛ لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام.. فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمةً لنا، وحباً بنا، حتى نفتني أثره ﷺ! (٣)٤».

يقول الدكتور جان ليك في كتابه (العرب): «وحياةُ محمد ﷺ التاريخية لا يمكن أن توصفَ بأحسنَ مما وصفها الله.. بألفاظٍ قليلة، بينَ بها سببَ بعث النبي ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقد برهن بنفسه على أن لديه أعظمَ الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاجٍ إلى المساعدة».

كان محمدٌ ﷺ رحمةً حقيقةً لليتامى، والفقراء، وابنِ السبيل، والمنكوبين،

(١) انظر: أرنولد توينبي: الإسلام والعرب والمستقبل، ص ٣٣، ٣٤.

(٢) الدكتور م. ج. دُرّاني: سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانياً في فترة مبكرة من حياته وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى ردحاً من حياته في كنيسة إنكلترا، حيث عمل قسيساً منذ عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٦٣ حيث عاد إلى الإسلام.

(٣) انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٤ / ٢٧ - ٢٨.

والضعفاء، والعمال، وأصحاب الكدِّ والعناء، وإني بلهفة وشوق.. أصلي عليه وعلى أتباعه!»^(١).

ويتحدث جيمس متشنر عن بعض صور الرحمة في شخص النبي ﷺ، مشيرًا إلى بساطة النبي ﷺ، وإنسانيته، ونبله، وحزمه، فيقول متشنر: «إن محمدًا ﷺ هذا الرجل الملهم، الذي أقام الإسلام، ولد في قبيلة عربية تعبد الأصنام، ولد يتيمًا محبًا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين.

وقد أحدث محمد ﷺ بشخصيته الخارقة للعادة ثورةً في شبه الجزيرة العربية، وفي الشرق كله، فقد حطَّم الأصنام بيديه، وأقام دينًا يدعو إلى الله وحده، ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء، ونادى بالعدالة الاجتماعية، وقد عُرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكمًا بأمره، أو قديسًا، ولكنه أصرَّ على أنه ليس إلا عبدًا من عباد الله، أرسله إلى العالم منذرًا وبشيرًا»^(٢).

لقد أبرزت هذه الشهادات بعضًا من جوانب عظمة الرسول محمد، التي يُقرُّ بها كلُّ من يعايشه، أو يقرأ قسطًا من حياته، وتكمن هذه العظمة في أنه كان حاملَ رسالة سماوية شمولية، تهدف أساسًا إلى إصلاح حياة البشرية عامةً.

ولعله يجدر التنبيه في هذا المقام إلى دوافع المستشرقين الذين عُنوا بدراسة السيرة النبوية، مهما تعددت مناهجهم أو تفاوتت مواقفهم - لكونها في حقيقة الأمر تسعى إلى تحطيم الأنموذج الأعلى للإسلام، وهو (محمد ﷺ) وتشويهه، أو على الأقل إثارة الشكوك حوله، وضرب مصداقية كونه خاتم الأنبياء والمرسلين الذي يجب أتباعه، وإزالة الوثاقة عن أعماله وتصرفاته، ليصدوا بذلك الناس عن أتباعه والاكتفاء بالإعجاب بشخصيته.

(١) جان ليك «العرب»، ص ٤٣.

(٢) انظر: حسين الشيخ خضر الظالمي: قالوا في الاسلام ص ٥٠.

وحتى من وُصفوا من المستشرقين بأنهم منصفون، كبعض المستشرقين المعاصرين، أمثال منتغمري وات وأمثلة، تجدهم - عندما يُبدون تقديرهم لشخصية الرسول ﷺ إذعاناً للحقائق التاريخية الدامغة التي لا مفرّ منها - إنما يقدمونه كشخصية بشرية عبقرية فذة، متعددة المواهب والقدرات، حققت نجاحاً تاريخياً، يستحق المدح والإشادة، دون أدنى علاقةٍ لذلك بالوحي والرسالة.

ومن أساليبهم الخفية التي قد لا يتفطن لها الكثير من قرائهم: أنهم عندما يشيرون جواً مفعماً بعبارات الإطراء والإشادة والتبجيل والتقدير لشخصية الرسول ﷺ، في الوقت نفسه يشوشون على قرائهم، ويصرفونهم عن الإيمان به، أو الاقتداء به، عندما ينكرون - أو على أقل تقدير - أخصّ خصائص محمد ﷺ، وهو كونه رسولَ الله للعالمين كافةً، يُبلّغ ما يوحي إليه من ربه .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وأنه لا ينطق عن الهوى، وأنه لا نجاة إلا في اتباع دينه ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] .

ولا شك أن دراسة السيرة النبوية بالمنهج الاستشراقي، يؤدي في الجملة إلى نتائج عكسية لدى شريحة واسعة من القراء، إزاء الرسول ﷺ، أقلها أن يتوقف الأمر بهم عند حدّ الانبهار بشخصية الرسول ﷺ، وتقدير ما حققه من نجاحات، دون محاولة الإيمان به ومتابعته على أقصى تقدير، - هذا بالنسبة لغير المسلمين - .

أما من تلقى سيرته ﷺ من كتابات أمثال هؤلاء المستشرقين من المسلمين، فذلك يؤدي بهم إلى افتقاد الدافع إلى الاقتداء به، والاهتداء بهديه، وهو أمرٌ ملاحظ لدى كثير من المثقفين المسلمين الذين أعجبوا بكتابات المستشرقين وتأثروا بها.





هدى محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم



الفصل الثالث

محمد صلى الله عليه وسلم الرسول والقائد



رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم



المبحث
الأولكبار مساعدي رسول الله
في إدارة الدولة

بدأ الرسول ﷺ منذ دخوله المدينة يسعى إلى إنجاز المهمة الملقاة على عاتقه، في مطلع المرحلة الجديدة من الدعوة الإسلامية، والتي تستهدف بناء الدولة الإسلامية على أسس واضحة، وتهيئة كافة الشروط والمتطلبات لتحقيق الأهداف. ترجع الأسس العامة لإدارة البلدان إلى ما بعد فتح مكة (سنة ٨ هـ)؛ إذ امتدت دولة الإسلام تدريجياً إلى المناطق المجاورة، إلى أن شملت مكة ثم بلاد الحجاز، والجزيرة العربية كافة.

كانت للرسول ﷺ الرئاسة العامة في أمور الدين والدنيا، وسلطاته الإدارية تشمل الدولة كلها، فيما يتعلق بتحديد الأهداف، ورسم السياسات العامة.

لقد شارك الرسول ﷺ في إدارة الدولة مجموعة من خيرة الصحابة الذين يُشهد لهم بالعقل والفضل والبصيرة، واختير هؤلاء الرجال من أولئك السابقين إلى الإسلام، والذين لهم نفوذ وقوة في أقوامهم، وجاء في مقدمة هؤلاء العاملين في الميدان الإداري سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار^(١)، ويلاحظ أن بعض المصادر أطلقت عليهم اسم النقباء، في حين أطلق عليهم بعض المحدثين اسم «مجلس الشورى» أو «مجلس النقباء»^(٢)، ويبدو أن إطلاق هذا المصطلح جاء متأخرًا. فلم يكن هناك مجلس ثابت له قواعد ومواعيد محددة.

(١) أحمد، المسند، حديث رقم (٦٦٥).

(٢) عبد القادر مصطفى، الوظيفة العامة في النظام الإسلامي (ص ٢٥).

فكان النبي ﷺ يستشير الواحد بالرأي فيراه صواباً فيأخذُ به، وإن كان يخالفُ رأيه، كما حصل مع الحباب بن المنذر، في اختيار موقع القتال في بدر^(١)، وكما أشار سلمانُ الفارسيُّ على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فأخذ برأيه وأمرَ بالحفر^(٢).

وكان النبي ﷺ يستشير الاثنين والثلاثة، فكان غالباً ما يستشير أبا بكر، وعمر بن الخطاب، وكما فعل في غزوة الأحزاب^(٣)، إذ استشار سعدَ بن معاذٍ، وسعدَ بن عبادَةَ، واستشار أسامةَ بن زيد، وعليَّ بن أبي طالب في فراق أهله.

وكذلك كان النبي ﷺ يستشير الحاضرين، فيروي ابنُ إسحاق أن النبي ﷺ قال لجيشه يومَ بدرٍ: «أشيروا علي أيها الناس...»^(٤).

وذكرت المصادرُ أن النبي ﷺ استشار جمهورَ الناس عن طريق ممثلين عنهم، كما حدث بعد غزوة حنين، إذ قدِمَ وفدٌ هوازنَ إلى النبي ﷺ مسلماً، فطلب النبي ﷺ من الناس أن يعطوا رأيهم في رد المغنم التي غنموها، فاختلف الناس^(٥)، فقال النبي ﷺ لهم: «إنا لا ندري مَنْ أذنَ منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفعَ إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا^(٦).

فكانت الشورى قاعدة حكم النبي ﷺ كما أشارت الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

(١) ابن هشام، السيرة (م ١، ص ٦٢٠). (٢) الطبري، تاريخ (ج ٢، ص ٦١٥).
(٣) ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ٦٩). (٤) البلاذري، أنساب (ج ١، ص ٢٩٣).
(٥) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٤٨٩). (٦) ابن هشام، السيرة (م ١، ص ٦١٥).

وقد أطلقت بعض المصادر على أولئك الذين استشارهم النبي ﷺ بشكل كبير اسم «الوزراء»، فقال الحاكم: «كان أبو بكر الصديق من النبي ﷺ مكان الوزير فكان يشاوره في جميع أموره»^(١).

ونجد رواية أخرى عند الترمذي، تقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا له وزيران من أهل السماء، ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر»^(٢).

وقد يتبادر إلى الذهن أن الوزارة كوظيفة إدارية كانت معروفة في زمن الرسول ﷺ، ولكن يبدو أن ما ورد من روايات في ذلك لم تعد كونها معاني عامة لكلمة وزير المعروفة قديما، والتي وردت على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلِ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ ۝ هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩-٣٠]^(٣).

أما الوزارة كوظيفة إدارية ثابتة فنشأت فيما بعد، وتبلورت في زمن العباسيين، ولذا قال الحاكم عبارته الدقيقة: «كان أبو بكر.. مكان الوزير»^(٤) فهو يعمل عمل الوزير دون أن يسمى وزيرا.

قال ابن خلدون: «كان يشاور أصحابه، ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها من كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره، ولم يكن لفظ الوزير يُعرف بين المسلمين؛ لذهاب الملك بسداجة الإسلام».

وبهذا المعنى كان أبو بكر يُفوض عن النبي ﷺ في بعض القضايا، فقد

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص ٦٠).

(٢) الترمذي، الصحيح، حديث رقم (٣٦٨٠) وحسنه.

(٣) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية (ص ٤٠).

(٤) الحاكم، المستدرک (ج ٣، ص ٦٣).

أتت امرأة النبي ﷺ، وطلبت أن تعود، فقال لها النبي ﷺ: «إن لم تجدني فأتي أبا بكر»^(١).. ويفيد النص أن أبا بكر كان يفوض من قبل النبي ﷺ، في تصريف شؤون الدولة، وتلبية حاجات المواطنين.

الوظائف الإدارية المرتبطة برئيس الدولة:

لقد أشارت المصادر إلى مجموعة من الوظائف الإدارية المرتبطة برئيس الدولة منها: أن بعض المسلمين كان يعمل حاجباً لرسول الله، فكان يقوم هؤلاء بالإذن عليه في بعض الأوقات، وهناك إشارات تبين أن سفينة، ورباحاً الأسود من موالي رسول الله، وأنس بن مالك قاموا بهذه المهمة بتكليف من الرسول ﷺ^(٢). ولكن يلاحظ أن «الحجابه» هذه لم تكن لها مراسيم وأعراف أو أنظمة معقدة. بل كان هؤلاء يتطوعون في الإذن على رسول الله، في الأوقات التي كان يحب أن يخلو فيها بنفسه في المسجد، أو في حجرة من حجرات أزواجه. وقد وجدت هناك وظيفة «أمين السر»، وارتبطت بشكل كبير بالإدارة العليا للدولة، ممثلة برسول الله ﷺ، وتشير روايات المصادر أن هذه الوظيفة كانت طيلة فترة، الرسالة لحذيفة بن اليمان فيروي الترمذي: «أن حذيفة بن اليمان كان صاحب سر رسول الله ﷺ؛ لقربه منه، وثقته به، وعلو منزلته عنده»^(٣). ومن هنا فقد انفرد حذيفة في معرفة كثير من الأسرار التي لم يعلمها غيره، خاصة معرفة أسماء المنافقين وأخبارهم، ومعرفة أخبار الفتن التي تقع بين المسلمين^(٤).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦٥٩).

(٢) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية (ج ١، ص ٥١).

(٣) قال الأصفهاني: «الوزير من الوزر وهو الملجأ الذي يُلْتَجأ إليه، والوزير: المتحمل ثقل أميره وشغله»، انظر: الأصفهاني، المفردات (ص ٥٢١).

(٤) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٢٢٣).

وكانت هناك وظائف إدارية ذات طبيعة إعلامية، وهي وظيفة «الشعراء والخطباء»: فكان هؤلاء يذودون عن رسول الله ﷺ بألسنتهم، ويعييون على قريش عبادتهم للأصنام، ويردّون على شعراء المشركين وخطبائهم، وبذلك كانوا يمثلون بشعرهم حرباً إعلامية شديدة التأثير، في بيئة قبلية، احتل الشعراء والبلغاء فيها مكانة خاصة.

وكان من أشهر هؤلاء حسان بن ثابت. وكان النبي ﷺ يشجعه، لما يشعر به من أهمية دوره في إبراز محاسن الإسلام، والذود عن حرّماته، فيروي البخاري أن النبي ﷺ قال لحسان: «أهجّهم وروح القدس معك»^(١).

الإدارة العسكرية:

كان على المقاتل ابتداءً أن يعدّ نفسه للجهاد، فيشتري جملة أو حصانه، ويشتري سلاحه، ويحمل معه إذا خرج للقتال زاده ومتاعه، وفي غزوة بدر أمر الرسول ﷺ من كان ظهره حاضرًا بالخروج معه^(٢).

وذكر عمرو بن العاص قال: إنه بعث إلي النبي ﷺ فقال: «خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني»، فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك» وكان النبي ﷺ يأمر أهله أن يجهزوه عندما يخرج للجهاد^(٣).

لقد كانت قلة إمكانات المسلمين تجعل بعض السرايا تخرج على الأقدام، ومن ذلك ما ورد في قول سعد بن أبي وقاص عن سرية الخرار: «فخرجنا على أقدامنا»، وهذا ما حصل في غزوة ذي العشيرة (٢هـ) إذ كان البعير يتعاقبه الرجلان والثلاثة^(٤)، وكان المقاتل يستعير - أحياناً - سلاحه من أحد الموسرين

(١) ابن خلدون، المقدمة (ص ٢٣٧).

(٢) مسلم، الصحيح (ج ٣، ص ١٥١٠). ابن كثير، البداية والنهاية (ج ٣، ص ٢٧٧).

(٣) الطبري، تاريخ (ج ٣، ص ١٠١)، (ابن إسحاق).

(٤) ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ٩، ١٠). وانظر: ابن هشام، السيرة (م ١، ص ٥٩٩).

على أن يكونَ له النصفُ من الغنيمة، وكان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر لمن لا يجد ما يتجهز به أن يأخذَ جهازَ من لا يخرج إلى الجهاد؛ بسبب مرض أو غيره .

فذكر أن فتى من الأنصار قال: يارسول الله، إني أريد الجهادَ وليس لي مال أتجهزُ به، قال: «أذهب إلى فلان الأنصاري فإنه قد تجهز ومَرَضَ، فقل: إن رسول الله يقرئك السلام، ويقول لك: ادفَع إليَّ ما تجهزتَ به»، فقال له ذلك فقال: يا فلانة ادفعي إليه ما جهزتنى به، ولا تحبسي عنه شيئاً، فإنك والله إن حبستِ عنه شيئاً، لا يبارك الله لك فيه، قال عفان: «أن فتى من أسلم»^(١).

وكان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحضُّ الموسرين على تجهيزِ غيرهم من الفقراء، فقال: «من جهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلَّفَ غازياً في أهله بخير فقد غزا» فاستجاب المسلمون لذلك، ففي تبوكَ تصدَّقَ عثمانُ بألف دينار، وقدم ثلاثمائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها، فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ضرَّ عثمانَ ما فعل بعد ذلك»^(٢).

وكان يامين بن عمير بن كعب النضري صحابي زود اثنين من البكائين بناضح له في تبوك. وكذلك حمل العباس منهم رجلين وحمل عثمان ثلاثة، وتبرع عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار وهي نصف ماله، وتبرع أبو بكر بماله البالغ أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بنصف ماله، وتبرع طلحةُ في غزواتٍ مختلفة حتى سماه الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلحةَ الجودِ، أو طلحةَ الخير^(٣) وغير ذلك الكثير.

وأوقف بعضُ المسلمين أموالهم في سبيل الله، وصاروا يوقفون الخيلَ وغيرها من الدواب في سبيل الله، وقد تحول دَوْرُ المسلمين - عند الحاجة - إلى تبنِّي مسؤولية تحمُّلِ أعباء النفقة على الجيش وتجهيزه، وكان النساءُ في غزوة تبوكَ تبرعن بحليهن، حتى كنَّ ينزعنها ويقدمنها تطوعاً في سبيل الله .

(١) ابن سعد، الطبقات (ج ٤، ص ٤٧). وانظر: عواد، الجيش والقتال (ص ١٠١).

(٢) الواقدي، المغازي (ج ٣، ص ٩٩١). ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٥١٨).

(٣) اليعقوبي، تاريخ (ج ٢، ص ٦٧). وانظر: عواد الجيش والقتال (ص ١٠١).

فقد قالت أمُّ سنانِ الأَسلميةُ: لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدي رسول الله ﷺ، في بيت عائشة، فيه مسكٌ ومعاضدٌ وخلاخلُ وأقرطَةٌ وخواتيمٌ، وقد ملئ بما بعثت به النساءُ، لِيُعِنَّ في جهازِهَم^(١).

وشكلت الغنائمُ جزءًا رئيسيًا في تجهيز المقاتلة، وإمدادهم بالسلاح وغيره، وكان المسلمون في بدر، ما رجح أحدُهم يريد أن يركبَ إلا وجد ظهرًا، حتى حصل بعضهم على البعير والبعيرين، وألبس مَنْ كان عاريًا، وأصابوا طعامًا من أزوادهم، وأصابوا فداءً الأسرى الذي أغنى كلَّ عائل.

وقال عبد الرحمن بن عوف: «حتى إذا كان يوم بدر مررتُ بأمية بن خلف واقفًا، ومعه ابنته عليٌّ أخذُ بيده، ومعها أدراعٌ قد استلبتها»^(٢).

وأخذ النبي ﷺ سلاحًا كثيرًا من بني قينقاع، وفي بني النضير وجد من الحلقة خمسين درعًا، وخمسين بيضةً وثلاثمائة وأربعين سيفًا، وفي بني قريظة غنمَ المسلمون ألفًا وخمسمائة سيفٍ، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترسٍ وجحفة. وصالح أهل خيبر على أن له الحلقة وسائر السلاح^(٣).

القيادة:

كان النبي ﷺ يتولى قيادة المقاتلة بنفسه، أو يولي واحدًا من أصحابه، وتَرِدُ إشاراتٌ أنه كان يُطلق على من يتولى هذه المهمة لقبَ «أمير»، فقد لَقَّبَ عبد الله بن جحش في سرية نخلة بأمير المؤمنين^(٤)، وحصل زيدُ بن حارثة على لقب أمير في سريته إلى القردة، وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير....

(١) المقرئزي، إمتاع الأسماع (ج ١، ص ٤٤٧).

(٢) الأصفهاني، حلية الأولياء (ج ٨، ص ٣٧٥).

(٣) البلاذري، فتوح البلدان (ص ٣٤). الطبري، تاريخ الطبري (ج ٢، ص ١١٠).

(٤) الواقدى، المغازي (ج ١، ص ١٩). ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ١١).

وقد كانوا في الجاهلية يدعون النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمير مكة وأمير الحجاز. وكان الصحابة يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية^(١). ويلاحظ أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تجاوز عن بعض الصفات التي كانت مطلوبة في القائد عند القبيلة العربية قبل الإسلام، فلم تُعد القيادة وقفًا على شيوخ القبائل، بل صارت مفتوحةً للجميع حسب القدرة والكفاءة.

وكذلك تجاوز النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن السُّنِّ، فقد استعمل أسامة بن زيد، وهو ابن ثماني عشرة سنة على سرية كان فيها أبو بكر وعمر^(٢). وكان هناك من طعن في إمارة أسامة؛ وذلك لصغر سنه، وكونه من الموالي، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليقٌ للإمارة وكان أبوه خليقًا لها»^(٣) وقال: «إني لأؤمِّرُ الرجلَ على القوم فيهم من هو خيرٌ منه؛ لأنه أيقظ عينًا وأبصرُ بالحرب»^(٤).

وأبقى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المؤهلات القيادية الأخرى كالشجاعة، ويتضح ذلك من وصف علي بن أبي طالب شجاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر بقوله: «كنا إذا حمي الوطيسُ واحمرتُ الحدقُ اتقيننا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدو منه»^(٥).

ويفترض في الأمير أن يكونَ من أهل الصبر والتحمل، فيذكر سعد بن أبي وقاص أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم نخلة: «لأبعثنَّ عليكم رجالاً أصبركم على الجوع والعطش» فبعث علينا عبد الله بن جحش، فكان أولَ أمير في الإسلام^(٦).

(١) السيوطي تاريخ الخلفاء، ص ١١٢. (٢) ابن خلدون، المقدمة (ص ٢٢٧).

(٣) الواقدي، المغازي (ج ١، ص ١٩)؛ ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ١١).

(٤) ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ١٩٠، ١٩١).

(٥) الطبري، تاريخ الطبري (ج ٢، ص ٢٧٠) وهذا يدل على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يترك عريشة القيادة ويباشر القتال بنفسه.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية (ج ٣، ص ٢٤٨)؛ ابن حجر، الإصابة (ج ٢، ص ٢٨٧).

ويشترط في الأمير كذلك الكفاءة والخبرة بشؤون الحرب، وقد طبق الرسول ﷺ هذا المبدأ فأمر عمرو بن العاص على سرية فيها أبو بكر وعمر^(١)، «وأمر النبي ﷺ مرة عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل استعطافاً لأقاربه الذين بعثه إليهم على من هم أفضل منه .

وأمر أسامة بن زيد لأجل ثأر أبيه؛ ولذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة، مع أنه قد يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والإيمان.

وهكذا أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ ما زال يستعمل خالداً في حرب أهل الردة، وفي فتوح العراق والشام، وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى، فلم يعزله من أجلها، بل عاتبه عليها؛ لرجحان المصلحة على المفسدة في بقاءه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه؛ لأن المتولي الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين؛ فينبغي أن يكون خلقاً نائبه يميل إلى الشدة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة؛ فينبغي أن يكون خلقاً نائبه يميل إلى اللين ليعتدل الأمر، ولهذا كان أبو بكر الصديق ﷺ يؤثر استنابة خالدٍ.

وكان عمر بن الخطاب يؤثر عزل خالد واستنابة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ؛ لأن خالداً كان شديداً كعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة كان ليناً كأبي بكر.

وكان الأصلح لكل منهما أن يولي من ولاه ليكون أمره معتدلاً ويكون بذلك من خلفاء رسول الله ﷺ الذي هو معتدل حتى قال النبي ﷺ: «أنا نبي الرحمة، أنا نبي الملحمة» وأمه وسط، قال الله تعالى فيهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]»^(٢).

ولقد أضاف الإسلام إلى مؤهلات الإمارة التقوى، والسبق إلى الإسلام، فترد

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي (ج ٢، ص ٦٤)؛ النويري، نهاية الأرب (ج ٦، ص ١٥٢).

(٢) ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، (ص ١٥، ١٦).

الإشارة إلى أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على سرية أو صاه في خاصته بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً.

وعند ظهور الإسلام كان الرسول ﷺ - الرئيس الأعلى للجماعة الإسلامية - يخرج إلى القتال بنفسه، أو يؤمر أحد أصحابه ويزودهم بتوجيهاته.

ومن ذلك ما كتبه لعبد الله بن جحش في سرية نخلة، وقد أمر النبي ﷺ أسامة بن زيد، حين بعثه إلى الشام: «أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء، والداروم من أرض فلسطين..»^(١).

وكانت الوحدة الصغرى في القيادة «العرفاء»، وقد وردت أول إشارة لها في غزوة حنين، حيث جعل الرسول ﷺ الناس في حنين عرفات: على كل عشرة عريفاً. وأشار النبي ﷺ إلى أهمية العرفاء فقال: «إن العرافة حق، ولا بد للناس من العرفاء..»، وكان العريف مسؤولاً عن شؤون عرفته تجاه الأمير^(٢).

وكانت رتبة «النقيب» من الرتب التي ظهرت في هذه الفترة، وكان القرآن قد أشار إليها في معرض حديثه عن بني إسرائيل، وفي بيعة العقبة الثانية طلب النبي ﷺ ممن اجتمع لديه أن يخرجوا اثني عشر نقيباً، كي يتحملوا مسؤولية البيعة والدعوة في المدينة^(٣).

وظهرت رتبة قيادية أخرى، هي رتبة «أمير التعبئة»، ففي غزوة الفتح جعل الرسول ﷺ من جيشه عدة أقسام، ثم وضع على كل قسم منهم أميراً، كان يتلقى تعليماته من رسول الله ﷺ.

(١) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٢٧٨)؛ الطبري، تاريخ (ج ٣، ص ١٨٤).

(٢) الواقدى، المغازي (ج ٣، ص ٩٥٢). وانظر: الشافعي، الأم (ج ٤، ص ١٥٨).

(٣) ابن هشام، السيرة (م ١، ص ٤٤٣). ابن كثير، السيرة (ج ٢، ص ١٩٨).

وضع الزبير على فرقة، وأمره أن يدخل مكة من كداء، ووضع سعد بن عبادة على فرقة، وأمره أن يدخل من كدي، ووضع خالدًا على فرقة، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وكذلك أبو عبيدة دخل من أعلى مكة.

ويلاحظ أن النبي ﷺ ولى هؤلاء على جيشه وزودهم بالتعليمات الأولية، إلا أنه ترك لهم حرية الحركة في إدارة المعركة، ومواجهة المواقف، واتخاذ القرارات الملائمة لواقع الحال، دون الرجوع إلى القائد الأعلى للمقاتلة.

وكان على الأمير أن يقوم بالعناية بجنده، والرفق بهم في المسير، وعدم تكليفهم فوق طاقتهم، فكان الرسول ﷺ في أثناء سير المقاتلة يتقدم مرةً ويتأخر مرةً أخرى؛ لينظر في أمورهم، فيساعد المتأخر ويردف الراجل ويعفي الضعيف، وكان عليه أيضًا أن يشرف على عدة القتال وآلات الحرب وحال الجند، كما عليه أن يستشيرهم في المواقف الحرجة، كما فعل النبي ﷺ في بدر، وأحد، والخندق، وغيرها من المعارك.

ويقوم الأمير بإثارة حماس جنده وتشجيعهم على القتال، وترد في ذلك إشارة في القرآن، حيث قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] وقد قام النبي ﷺ بتحريض أصحابه على القتال في بدر^(١)، وقام أمراؤه بنفس الدور، فقد حرض عبد الله بن رواحة جنده في مؤتة، فقال: «والله يا قوم إن الذي تكرهون لهو الذي خرجتم تطلبون.. الشهادة»^(٢).

لقد كان للأمير مجموعة من الحقوق، منها: حق الطاعة على جنده، حيث ترد الآيات بذلك: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

(١) الواقدي، المغازي (ج ١، ص ٥٨). الطبري، تاريخ الطبري (ج ٢، ص ٢٨١).

(٢) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٣٧٥).

ويتضح ذلك من قول الرسول ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»^(١).

وحدد الرسول ﷺ هذه الطاعة بقوله: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره، إلا أن يؤمرَ بمعصية، فإن أمرَ بمعصية، فلا سمع ولا طاعة»^(٢).

وترد في هذا الباب قصةُ الأمير الذي بعثه النبي ﷺ على سرية، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب منهم، فأمرهم أن يجمعوا حطبًا ويوقدوا نارا فيلقوا أنفسهم فيها فرفضوا الأمر^(٣).

ويلاحظ أن جمعَ الحطبِ وإشعالَ النار من المباحات فأطاعوه في ذلك، أما إهلاك النفسِ بإلقائها في النار فمن المحرمات، فلم يطيعوه، وهذا يوضحُ حدودَ الطاعةِ وأصولها.

وكان عقدُ اللواءِ والراية من علامات تعيينِ الأمير^(٤)؛ فقد دفع النبي ﷺ في بدر لواءه لعلي بن أبي طالب، ودفع رايته إلى الحباب بن المنذر، ورايةً أخرى إلى سعد بن عباد^(٥)، وترد الإشاراتُ إلى عقد الرايات إلى جانب اللواء في أحد، وخيبر، وفتح مكة، حيث أفرد لكلِّ قبيلةٍ رايتهَا^(٦).

وكانت الراية تُدفع لخيرة الناس عقيدةً وتجربةً، ففي إحدى الوقائع أخذ النبي ﷺ الرايةَ فهزَّها ثم قال: «من يأخذها بحقها؟» فقال رجل: أنا، فقال: «امضِ» ثم

(١) أحمد، المسند (ج ٢، ص ٩٣، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٧٠).

(٢) مسلم، الصحيح (ج ٣، ص ١٤٦٩)، وصحيح البخاري، حديث رقم (٢٩٥٥).

(٣) الشيباني، شرح كتاب السير (ج ١، ص ١٦٦).

(٤) انظر: الصنعاني، المصنف (ج ٥، ص ٢٨٩).

(٥) ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ١٠٦).

(٦) ابن حجر، الفتح (ج ٦، ص ١٢٦).

جاء رجلٌ فقال: «امض . . .»^(١)، وفي هذا دلالة على دقة اختيار النبي ﷺ لحامل الراية .

وتشير المصادرُ إلى أن النبي ﷺ قال يومَ خيبر: «لأدفعنَّ الرايةَ غدًا إلى رجلٍ يحب الله ورسولَهُ ويحبه الله ورسولُهُ» فدفعها إلى علي بن أبي طالب، فانطلقت بها^(٢).

وفي مرحلة متأخرة كان النبي ﷺ إذا بعث قائداً يعقد له اللواء، ويسلمه له بعد تسمية الله، ثم ينصح له، فيركزه أمام المسجد، أو أمام بيته؛ ليجتمع عنده الخارجون للغزو بمتاعهم استعداداً للرحيل. فلما بعث أسامةً إلى البلقاء استدعاه النبي ﷺ وعقد له اللواء رمزاً للقيادة، فركزه بالجرفِ خارجَ المدينة، وعسكر الناسُ حوله.

فلما توفي الرسول ﷺ عاد أسامةٌ باللواء، وركزه أمام بيت النبي ﷺ، وظل هكذا حتى بويع لأبي بكر بالخلافة، فأمر أن يُركزَ اللواءُ أمامَ بيت أسامة ليمضي به^(٣).

وكان النبي ﷺ يستعرضُ أصحابه قبل الخروج إلى المعركة، أو في أثناء السير إلى الجهة التي يقصدها، فقد استعرض النبي ﷺ جنده في بدر وأحد^(٤)، فيرد صغار السن والضعاف. وقد ردَّ النبي ﷺ يوم أحد زيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم^(٥).

(١) انظر مسند أحمد، حديث رقم (١١١٢٢) بإسناد ضعيف؛ ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٣٣٤).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٩٧٥).

(٣) ابن حجر، الإصابة (ج ٢، ص ٧٨، ٧٩).

(٤) ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ١٢).

(٥) ابن حبان، الثقات (ج ١، ص ٢٢٤). ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٥٦٦).

وَذَكَرَ أَنَّ «النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» كَانَ يَعْضُ غُلَمَانَ الْأَنْصَارِ فِي كُلِّ عَامٍ قَمَرِيَّةً، وَعَرَضَ عَلَيْهِ سَمْرَةُ بْنُ جَنْدَبٍ فَرَدَّهُ، قَالَ سَمْرَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ أَجَزْتَ غُلَامًا وَرَدَدْتَنِي، وَلَوْ صَارَ عَنِي لَصَرَعْتَهُ، قَالَ: فَدُونِكَ فَصَارِعَهُ، قَالَ: فَصَارَعْتُهُ فَصَرَعْتُهُ، فَأَجَازَنِي فِي الْبَعْثِ».

إدارة العلاقات الخارجية الإسلامية:

كانت كلمة (سفارة)^(١) معروفةً في مكة قبل الإسلام، وكانت هذه الوظيفة لبني عدي، وتولاها منهم عمر بن الخطاب^(٢)، أما كلمة «دبلوماسية» فلم تعرف في صدر الإسلام، ويبدو أنها دخلت في معاجم اللغة في فترة متأخرة.

استُخدمت كلماتٌ معينة في عصر الرسالة، وهي «السفارة، الرسول، البريد» وكانت العلاقات التي أقامها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاصرةً ابتداءً على اللقاءات الشخصية، وإرسال الكتب، وإيفاد البعثات إلى القبائل وإلى الملوك للتعريف بالإسلام والدعوة إليه .

ومن هنا فإن وظيفة البريد (السفارة) كانت من الوظائف الإدارية الهامة التي لاقت اهتماماً كبيراً من جانب الدولة، وكان ما وصلنا من كتب ومواثيق ومعاهدات قام بإبرامها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تتجاوز المئتين وخمسين كتاباً^(٣).

وشملت معاهدات مع اليهود والنصارى، وعقود صلح بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقبائل، وكتب إقطاع وأمان، ورسائل دعوة إلى رؤساء القبائل والملوك والأمراء، مما

(١) عرفت السفارات في الجاهلية، ومن أشهرها سفارة عبد المطلب بن هاشم إلى أبرهة وهو في طريقه إلى مكة، ليفاوض على رد الإبل التي استولت عليها طلائع جيشه. انظر: ابن هشام، السيرة (م ١، ص ٤٨).

(٢) ابن الجوزي، سيرة عمر (ص ٦).

(٣) انظر هذه الوثائق في: مجموعة الوثائق السياسية (ص ١ - ٣٠٠) حميد الله.

يجعلنا نؤكد على أن سفارات الرسول ﷺ وكتبه كانت عملاً بديعاً من أعمال الدبلوماسية والعلاقات الدولية^(١).

وقد ذكرت المصادر أسماء هؤلاء الرسل الذين بعثهم النبي ﷺ إلى الملوك، وأرسل معهم كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام:

فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم^(٢).

وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس^(٣).

وعمر بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة^(٤).

وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر^(٥).

وعمر بن العاص إلى جيفر وعبد بن الجلندي ملكي عمان^(٦).

وسليط بن عمرو إلى ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي ملكي اليمامة.

(١) يزعم بعض المستشرقين أن هذه الكتب مزورة، ومن هؤلاء مرجليوث حيث يقول: «إن إخبار النبي عن مقتل كسرى ليس وحياً، إنما هو من عيون التي كانت تأتيه بالأخبار بسرعة» ويقول: «إن رسالة محمد إلى كسرى لم تسلّم إليه قط». ويقول وات: «إن إرسال الرسول للرسول (٦هـ) لا يمكننا أن نقبل هذه القضية كما هي؛ لأن محمداً كان رجل دولة حكيماً بعيد النظر ولم يفقد عقله بعد النجاح الذي حققه في الحديبية ودعوته هؤلاء في هذا الوقت يسيراً إليه أكثر مما يفيد». نقلاً عن وات، محمد في المدينة، (ص ٦٢).

(٢) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٦٠٧). ابن سعد، الطبقات (ج ١، ص ١٧٦).

(٣) مسلم بشرح النووي (ج ١٢ ص ١٠٣).

(٤) ابن سعد، الطبقات (ج ١، ص ٢٧).

(٥) البلاذري، أنساب (ج ١، ص ٥٣١).

(٦) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٦٠٧). خليفة، تاريخ خليفة (ج ١، ص ٦٣).

والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين^(١).
 وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك تخوم
 الشام^(٢) بعد صلح الحديبية^(٣).
 وكان المكسب الأكبر الذي حققه النبي ﷺ من مكاتباته تلك أنها جاءت حملة
 إعلامية على النطاق الدولي لإظهار أن الإسلام للناس كافة^(٤).
 وقد نهج النبي ﷺ في اختيار رسله أمراً لا يخرج عن المألوف والعرف الجاري
 لدى الدبلوماسية الحديثة، من تبادل السفراء، ومراعاة الأناقة، وجمال الخلق،
 والكفاءات الممتازة بصفاتهم ممثلين لأمتهم.
 ولذلك فإن النبي ﷺ بعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، ويشير إلى ذلك
 ابن قتيبة بقوله: «إن جبريل كان يجيء على صورة دحية الكلبي؛ لأن دحية كان من
 أجمل أهل زمانه، وأحسنهم صورة»^(٥)، وهذا يصدق على بقية رسله.
 فكان معاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن حذافة، وعمرو بن
 العاص وغيرهم من أعقل الصحابة وأجملهم صورة، وأحسنهم حديثاً، وأطلقهم
 لساناً وقوة حجة، وكان هؤلاء الرسل من أولئك المشهورين في المجتمع الإسلامي
 الذين نبهوا في العلم أو الكتابة أو الإدارة.
 وقد بلغ من حرص النبي ﷺ على قواعد الدبلوماسية هذه أن قال: «إن أبردتم
 إليّ بريدًا، فابعثوه حسن الوجه، حسن الاسم»^(٦).

(١) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٦٠٧). ابن سعد، الطبقات (ج ١، ص ٢٧٦).

(٢) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٦٠٧). ابن سعد، الطبقات (ج ١، ص ٢٧٦).

(٣) ابن حجر، الإصابة (ج ١، ص ٤٧٣).

(٤) عماد خليل، دراسة في السيرة (ص ٢٩٣). (٥) ابن قتيبة، المعارف (ص ٣٢٩).

(٦) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/١٨٢).

وعبر العرب عن هذه القواعد في أشعارهم وأقوالهم، فقال أحدهم:

إذا كنت في حاجة مرسلًا فأرسل حكيمًا ولا توصِه^(١)

وقال آخر:

إذا أرسلت في أمر رسولًا فأفهمه وأرسله أديبا

فإن ضيَّعت ذاك فلا تلمه على أن لم يكن عليم الغيوب^(٢)

وقد ضمنت الأعراف الدبلوماسية للسفراء بعضَ الحقوق، فهو يملك حقًّا يسمى «الأمان»، وهو اليوم يسمى الحصانة، وبذلك يكون أمانا هو وزوجه وأولاده، وأتباعه الدبلوماسيون، وتشير المصادر إلى ذلك في قصة الرسل الذين بعثهم مسيلمة إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: نشهد أن مسيلمة رسولُ الله، فقال الرسول ﷺ: «لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما»^(٣).

وهذا الحق ضروريٌّ، لتهيئة أفضل الظروف والضمانات لأعضاء البعثات الدبلوماسية، والتيسير عليهم في ممارسة وظائفهم، تقديرًا لدورهم الجليل في إنشاء العلاقات السياسية الدولية.

ويتضح هذا من قول السرخسي: «إذا وُجدَ الحربيُّ في دار الإسلام، فقال: أنا رسولٌ، فإن أخرج كتابا عُرِفَ أنه كتابٌ ملكهم كان آمنًا حتى يبلغَ رسالته ويرجع؛ لأن الرسل لم تزل آمنةً في الجاهلية والإسلام؛ وهذا لأن أمر القتال أو الصلح لا يتم إلا بالرسول؛ فلا بد من أمان الرسل ليتوصلَ إلى المقصود»^(٤).

(١) جواهر الأدب ٢/٢٦.

(٢) صلاح الدين المنجد، النظم الدبلوماسية في الإسلام، (ص ٢٨).

(٣) أحمد، المسند (١٥٩٨٩).

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (ج ٣، ص ١٣٨، ١٣٩).

وكان من حقوقهم أيضا ألا يحبسوا أو يمنعوا من الرجوع إلى قومهم، تذكر المصادر: أن قريشًا بعثت أبا رافع رسولا إلى رسول الله ﷺ، فوقع في نفسه الإسلام؛ فأراد أن يبقى في المدينة ولا يعود إلى مكة، فقال له النبي ﷺ: «إني لا أخيسُ بالعهد، ولا أحبسُ البردَ، ارجع إليهم، فإن كان الذي في قلبك الذي فيه الآن فارجع»، وهذا ما جعل ابن القيم يقول: «قوله: لا أحبسُ البردَ، إشعارٌ بأن هذا حكمٌ، يختص بالرسول مطلقاً»^(١).

ومما يدخل في إطار الحصانات الدبلوماسية ضمان حرية العبادة، للذين يأتون إلى الدولة من المبعوثين، فكان النبي ﷺ يأمر أصحابه ألا يتعرضوا إليهم، وهم يؤدون واجباتهم الدينية^(٢)، وكان هذا باعثاً على تقدير من الجهات المرسلة، ويتضح هذا الحق من خلال قصة وفد نصارى نجران، إذ كانوا يؤدون عباداتهم في مسجد رسول الله ﷺ.

وقد كان من عادة النبي ﷺ أن يتزيّن عند استقباله للوفود، فيذكر البخاري أن رجلا أهدى للنبي حلة، فقال له: «لتتجمل بها يا رسول الله للوفود»^(٣).

وكان النبي ﷺ يكرم الوفود ويبسط رداءه لبعضهم، ويشركهم في الجلوس إمعاناً في إزالة الدهشة، وإدخال المسرة، ذكر ابن ماجه، أنه لما وفد على النبي ﷺ زيد الخيل بسط له رداءه، وأجلسه عليه وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»^(٤) وفي هذا إشارة إلى أن التكريم كان على حسب درجات القوم ومنزلتهم.

(١) ابن القيم، زاد المعاد (ج ٣، ص ١٣٩).

(٢) مصطفى التازي، الحصانة الدبلوماسية في الإسلام، مؤتمر السيرة الثالث، (م ٦)، (ص ٦٥٧).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٩٤٨).

(٤) ابن ماجه، حديث رقم (٣٧١٢).

ويذكر ابنُ سعد أن النَّبِيَّ ﷺ خصص مكاناً ينزل فيه ضيوف رسولِ الله ﷺ، وكانت دارُ رملة بنتِ الحارث النجارية مكاناً معداً لاستقبال الوفود، وأطلق عليها بعضهم اسمَ «دار الضيفان»^(١).

وكانت «الجوائز» حقاً آخر يتمتع به السفراء عند استقبالهم ووداعهم، ويتضح هذا من قول ابن خلدون: «كان النَّبِيُّ ﷺ يحسن وفادة الوفود ويحسن جوائزهم، وهذا كان شأنه مع الوفود، ينزلهم إذا قدموا، ويجهزهم إذا رحلوا»^(٢).

ويشير ابنُ سعد إلى هذا التكريم بقوله: «إن وفد بني حنيفة أنزلوا في دار رملة بنت الحارث، وأجريت عليهم ضيافة، فكانوا يُؤْتون بغداءً وعشاءً: مرةً خبزاً ولحمًا، ومرةً خبزاً ولبنًا، ومرةً خبزاً وسمناً»^(٣).

وعند ما جاء وفدٌ ثقيف إلى رسولِ الله ﷺ، كان خالدُ بن سعيد يمشي بينهم وبين رسولِ الله ﷺ، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم، حتى يأكلَ منه خالدٌ^(٤).

ويذكر ابنُ إسحاق: «أن بلالا كان يأتيهم بفطرمهم وسحورهم في الأيام التي صاموها مع رسولِ الله ﷺ»^(٥).

(١) ابن سعد، الطبقات (ج ١، ص ٣١٦).

(٢) ابن خلدون، تاريخ (ج ٢، ص ٥٢).

(٣) ابن سعد، الطبقات (ج ١، ص ٣١٦).

(٤) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٥٤٠).

(٥) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٥٤٠، ٥٤١).

المبحث الثاني

تنظيم شؤون الدولة

تنظيم الاقتصاد:

أولى النبي ﷺ اهتمامًا كبيرًا للناحية الاقتصادية؛ لارتباطها بالكيان السياسي، وقد كانت قبائل اليهود تحتكر التجارة والأسواق، ويدهم عصب الاقتصاد في المدينة، ومثل هذا الوضع يجعلهم دولة داخل دولة، وكان هناك عدة أسواق^(١)، أشهرها: سوق بني قينقاع، وكان هذا السوق هو السوق الرئيسي للمدينة، وكان العرب (الأنصار) يتعاملون فيه بيعًا وشراء.

لقد تنبه النبي ﷺ إلى خطورة هذه السيطرة اليهودية، فكان لا بد من إجراء إداري سريع، يحول هذه السيطرة للأمة الجديدة، فيروى أن النبي ﷺ ذهب إلى أكبر سوق لليهود، فألقى عليه نظرة فاحصة، ثم بحث عن مكان آخر في المدينة، يعدل هذا السوق أو يفوقه في المساحة والمركز والنظام^(٢).

فقد روى ابن ماجه: «أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني رأيت موضعًا للسوق أفلا تنظر إليه؟ قال: بلى، فقام معه حتى جاء موضع السوق، فلما رآه

(١) منها سوق بزباله، وسوق بالجسر، وسوق بالصفاصف بالقصبة، وسوق في منطقة تسمى مزاحم، وهذه أسماء أماكن في المدينة المنورة. انظر: السهمودي، وفاء الوفا، (ج ١، ص ٥٣٩).

(٢) أحمد محمد، الجانب السياسي في حياة الرسول (ط ١) الكويت، دار القلم، (١٤٠٢ هـ)، (ص ٦٩).

أعجبه وركضَ برجليه، وقال: نعم سوقكم هذا، فلا ينتفض ولا يضربن عليكم خراج^(١).

ويُذكرُ أن النبي ﷺ ذهب ابتداءً إلى سوق النبط، فنظر إليه فقال: ليس لكم هذا بسوق، ثم رجع إلى هذه السوق فطاف به ثم قال: هذا سوقكم^(٢).

ويلاحظ أن النبي ﷺ كان يراقب الأسواق بنفسه، وقد طلب بعضُ الصحابة من الرسول ﷺ أن يسعّر للناس، ولكن الرسول امتنع من ذلك، فقد مرَّ النبي ﷺ برجل يبيع طعامًا في السوق بسعر أرفع^(٣) من سعر السوق، فقال: «تبيع في سوقنا بسعر، هو أرفع من سعرنّا؟!» قال: نعم يا رسول الله، قال: «صبراً واحتساباً؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «أبشروا فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، وإن المحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله»^(٤).

واستطاع المسلمون بحسن تعاملهم أن يحولوا الناس من سوق اليهود إلى سوقهم، مما جعل كعب بن الأشرف اليهودي يدخل إلى سوق المسلمين ويقطع أطنابها^(٥)، فقال رسول الله ﷺ: «لا جرم لأنقلتها إلى موضع هو أغبط له من هذا»، فنقلها من موضع بقيع الزبير إلى سوق المدينة^(٦).

ولعل هذا الأسلوب التهجُّمي الصارم الذي اتبعه كعب بن الأشرف كان في أوائل أشهر الهجرة، حيث لا يزال لليهود نفوذٌ قويٌّ، ويلاحظ أيضاً: أن كعب بن الأشرف شعر أن مصالح اليهود الاقتصادية قد أصبحت في خطر، نتيجة منافسة السوق الجديد.

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية (ج ٢، ص ١٦٣).

(٢) ابن ماجه، حديث رقم (٢٢٣٣). (٣) أرفع: أي أقل من سعر السوق.

(٤) السهمودي، وفاء الوفا (ج ١، ص ٥٤٦).

(٥) حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، الفقرات (٢٤ - ٢٧)، (ص ٦١).

(٦) العمري، المجتمع المدني، «خصائصه وتنظيماته الأولى»، (ص ١٢٩).

تنظيم الأموال العامة:

كانت الأموال التي ترد إلى بيت المال في عصر الرسول ﷺ إما نقديةً (ذهب، فضة، دينار، درهم)، وإما عينيةً (مزروعات، ثمار، حيوانات). ولكل صنف من هذه الأصناف مكانٌ خاص تحفظ فيه.

فأما «الأصول النقدية» فكانت تُحفظ في بيت النبي ﷺ، أو بيوت أصحابه، وتولى بعضُ الصحابة وظيفَةَ حفظِ هذه الأموال وكتابتها، فقد كان الزبير بن العوام، وجهيمُ بن الصلت كانا يكتبان أموالَ الصدقات^(١).

وقد حضَّ الإسلامُ بشكل كبير على التوثيق، والكتابة في الأموال الخاصة «كالدين»^(٢)، وهذا ينطبق بشكل أكثر أهميةً على أموال الدولة العامة .

فقد كان حنظلةُ بنُ الربيع كاتبُ رسول الله ﷺ يقوم بحفظ وتسجيل ما يرد إلى بيت المال من وارداتٍ، ثم يرفع تقريره عن محتويات بيت المال في مدة أقصاها ثلاثة أيام، فيقوم النبي ﷺ بتوزيعها «فلا يبيت وعنده شيء منه»^(٣).

كما أن النبي ﷺ صلى العصر ثم أسرع فدخل بيته، فلما سُئل عن سبب ذلك قال: «ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته»^(٤).

كما أن قوماً من مضر أتوا النبي ﷺ فتمعر وجهه لما رأى ما بهم من الفاقة، فدخل بيته فلم يجد شيئاً، ثم خطب الناس فطلب منهم التبرع لسد حاجتهم^(٥).

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف (ص ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) راجع آية الدين سورة البقرة (آية: ٢٨٢).

(٣) الجهشيارى، الوزراء الكتاب (ص ١٢، ١٣).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٨٥١).

(٥) الجهشيارى، الوزراء الكتاب (ص ١٢، ١٣).

وكان التوزيع يتمُّ بواسطة سجل تكتب فيه أسماء من يأخذون العطاء في المدينة، فقد ذكر الجاحظ: «أن حكيم بن حزام محا نفسه من الديوان بعد وفاة رسول الله ﷺ»^(١)، ويتضح ذلك من خلال ما ذكره ابن مالك الأشجعي: «أنه كان يدعى إلى العطاء من قبل عمار بن ياسر أيام رسول الله ﷺ»^(٢).

أما «الأموال العينية» فكانت تجمع في مكان خاص تحت إشراف الرسول ﷺ، فقد ورد «أن النبي ﷺ كان يستعمل دار رملة بنت الحارث كبيت للمال، يجمع فيه الأسرى والغنائم»^(٣)، ويقول دكين بن سعيد المازني: «أتينا النبي ﷺ وكنا أربعين راكبًا وأربعمائة، نسأله الطعام؛ فقال لعمر: اذهب فأعطيهم، فقال عمر: يا رسول الله، ما بقي إلا أصع من تمر ما أرى أن يقضي، قال: اذهب فأعطيهم، قال: سمعًا وطاعة، فارتقى بنا إلى عليّة فأخذ المفتاح من حجزته، ففتح»^(٤).

ويفيد النص أن فائض المواد الغذائية كانت تحفظ في عليّة للرسول. وكانت هذه العلية غرفة فوق مسجد وبيوت الرسول ﷺ، وكان يخلو فيها أحيانًا، وتشعر الرواية أن عمر كان يقوم بحفظ هذا الجزء من محتويات بيت المال.

وكان بلال بن رباح هو خازن رسول الله ﷺ^(٥)، وكان يجيز الوفود بأمر رسول الله ﷺ، ويزودهم بجوائز نقدية وعينية^(٦).

وقد قال عطاء بن السائب إنه: «لما بويع أبو بكر بالخلافة أصبح غاديًا إلى السوق، ومعه أثواب يتجرُّ بها، فلقيه عمر بن الخطاب، فقال: كيف تصنع

(١) الجاحظ، العثمانية (ص ٢٢٣).

(٢) البيهقي، السنن ٤/١٩٥.

(٣) ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ١٦١).

(٤) أحمد، المسند (١٧٥٧٦) و(١٧٥٧٧).

(٥) انظر: التراتيب الإدارية الكتاني ١/٤٤٢.

(٦) ابن حجر، الإصابة (ج ١، ص ١٦٥).

هذا وقد وليت أمر المسلمين؟، قال: فمن أين أطعم عيالي؟، قال: انطلق يفرضُ لك أبو عبيدة عامرُ بن الجراح..»^(١).

ويمكن القول من خلال مجموعة من النصوص السابقة: إنه لم يكن هناك وظيفة ثابتة تسمى «أمين بيت المال» لشخص معين، وإن كان تولاها بشكل كبير بتكليف من النبي ﷺ كلُّ من بلال بن رباح، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح. وقد كان للنبي ﷺ وكيلٌ على أموال خيبر يحافظ عليها، ويعطي فيها بأمر الرسول ما يحقق مصالح الدولة، ويقول جابر بن عبد الله: «أردتُ الخروجَ إلى خيبر، فأتيت رسول الله ﷺ فقال: «إذا أتيت وكيلي، فخذ منه خمسة عشر وسقاً، فإن ابغى منك آيةً، فضع يدك على ترقوته»^(٢).

وهذا يفيد بوجود علاقة خفية بين رسول ﷺ وبين وكيله، مما يدل على الدقة المتبعة في إدارة المال والمحافظة عليه، وتوثيق المصروفات التي يقوم بها الوكيل بأمر الرسول ﷺ وكانت «الأنعام» تشكل جزءاً من الإيرادات العينية، تؤخذ صدقةً أو فيئاً أو خُمساً، فكانت تجمع في مكان خاص، ويقوم الرسول ﷺ بإحصائها ووسم ما للصدقة منها؛ لتمييزه عن غيره، يتضح هذا من قول أنس بن مالك: «غدوت إلى رسول الله ﷺ.... فوافيته في يده الميسم يسم إبل الصدقة»^(٣).

وكانت هذا الأنعام تمكث فترةً معينة قبل قسمتها، وهذا يتطلب أن يهيئ لها مساحات واسعة لمعيشتها ورعيها، فظهر نتيجة لذلك ما يسمى «بالحمى»، فحمى النبي ﷺ أرض النقيع، فكانت ترعى فيه الإبل والخيل المعدة للغزو في سبيل الله^(٤).

(١) ابن سعد، الطبقات (ج ١، ص ٢٩٩، ٣٢٣، ٣٣٣، ٣٤٧، ٢٥٦).

(٢) أبو داود، حديث رقم (٣٦٣٢).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (١٥٠٢) نحوه.

(٤) أبو عبيد، الأموال (ص ٤١٧).

لقد راعت الدولة في «الحِمَى» ألا يؤديَ إلى التضييقِ على إبل المسلمين ومواشيهم^(١).

أما تنظيمُ حفظِ المال في الأمصار فقد تكون بيوتُ الولاةِ والعمالِ أو المساجدُ هي الأماكنُ المَعَدَّةُ لحفظِ المال، كما كان الأمرُ في عاصمة الدولة؛ ذلك بأنَّ كثيراً من هذه الأموال تحتاج إلى وقت طويل حتى يتمَّ جمعُها وتوزيعُها، وكذلك لا تُسْتَحَقُّ الصدقةُ عليها في وقت واحد لاختلاف أنواعها ومواسمها.

تنظيم الزراعة والري:

لقد اهتم النبي ﷺ بتنظيم أمور الزراعة اهتماماً كبيراً؛ فأمر باستغلال الأراضي الزراعية، فقال: «مَنْ أَحْيَا أرضاً ميتةً فله أجر، وما أكلت العافية منها فله منها صدقة»^(٢).

وكره النبي ﷺ أن يمسك أحد أرضاً دون استغلالها، فقال: «من كانت له أرض فليزرعها، أو ليمنحها أخاه، فإن أبي فليمسك أرضه»^(٣).

لقد وضعت الإدارة النبوية حوافز كبيرة لاستغلال الأراضي وإصلاحها، ووضعت قواعد شرعية سارت عليها الأمة، فقال: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له»^(٤) قالت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق»^(٥).

ويلاحظُ من خلال تفحص كتب الحديث المعتمدة اهتمام النبي ﷺ بالزراعة؛ حتى إن البخاري أفرد باباً في صحيحه، سمّاه: «باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه».

(١) الشافعي، الأم (ج ٤، ص ٤٧).

(٢) سنن الدارمي، (ج ٢، ص ٢٦٧). العافية: هي الطير وغيرها ممن له روح.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٣٤١).

(٤) صحيح البخاري تعليقاً (١٨/٥).

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٣٣٥).

وقد أورد قوله: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقةٌ»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلةٌ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»^(٢).

كانت هناك مجموعات من الناس تعمل في الزراعة، ففي المدينة كان الأوس والخزرج يعملون بالزراعة بأنفسهم وبالاستعانة بغيرهم، ويبدو أن قبائل المدينة لم تكن تأنفُ الزراعة، كما كانت تأنفُ القبائل العربية الأخرى^(٣).

أما اليهود فكانوا أصحاب مزارع ونخيل، وكان لديهم من الخبرة ما يجعلهم يتفوقون على غيرهم في الزراعة^(٤)، حتى إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك في أيديهم خيبر، ووادي القرى، وفدك يزرعونها على الشطر فيما يخرج منها^(٥).

وكان هناك من الموالي من يعمل بالزراعة، ولهذا فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حاصر الطائف، وأعلن عتق من ينزل إليه من الموالي، نزل إليه ثلاثة وعشرون عبداً من موالي الطائف، وكانت هناك مجموعات من الأحباش، تعمل في حقول المدينة، وقد خرج هؤلاء ولعبوا بحرابهم فرحاً بقدوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة^(٦).

لقد نُظمت الزراعة في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنظيمًا كبيرًا، فقد زرع النخيل في بساتين سميت بالحوائط، وأوردت المصادر عددًا من أسماء هذه الحوائط، منها: حوائط مُخِيرِيقِ السبعة، وحائطُ أبي الدحداح الذي تصدق به على المسلمين.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٣٢٠).

(٢) أحمد، المسند (ج ٣، ص ١٩١).

(٣) عبد العزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (ص ١١٤).

(٤) أبو عبيد، الأموال (ص ٥٨١). البلاذري، فتوح البلدان (ص ٣٧).

(٥) أبو يوسف، الخراج (ص ٥٠، ٥١).

(٦) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد (ج ٣، ص ٣٨٦).

وكانت هذه الحوائط تحوي نظامًا دقيقًا للري، إذ تُحفرُ في وسطها الآبار الخاصة، وتُوضعُ عليها السواقي، فتقوم السواقي بإخراج الماء؛ فتصبُّه في القنوات التي تتخلل النخيل أو الأشجار فتسقيها، وكانت هذه البساتين محاطةً بأسوار، تمنع دخول الناس أو البهائم، ولهذا أُطلق عليها اسم «الحوائط»^(١).

قام الأنصار بإدارة هذه البساتين بالتعاون مع بعض الأرقاء والأجراء، فكانوا يقومون بحراثتها وزراعتها واستغلالها، وكان البعض الآخر يُؤجّر هذه البساتين بطريق المزارعة؛ وذلك لعدم قدرتهم على زراعتها^(٢).

لقد تدخلت الدولة في تنظيم شؤون الزراعة، وذلك بتنظيم المعاملات، وحلّ المشكلات المترتبة على العلاقات الزراعية بين أصحاب الأرض أنفسهم، أو بينهم وبين المستأجرين.

فقد ورد في كتاب رسول الله ﷺ لثقيف ما نصّه: «وما سقت ثقيف من أعناب قريش فإن شطرها - أي شطر ثمرها - لمن سقاها»^(٣)، وذكر البخاري قول جابر بن عبد الله: «كانت لرجال فضول أراضين على عهد رسول الله ﷺ، وكانوا يؤجّرونها على الثلث والرُّبع والنصف، فقال الرسول ﷺ: «من كانت له أرضٌ فليزرعها أو يمنحها أخاه، فإن أبي فليمسك أرضه»^(٤).

كما تعرّض النبي ﷺ للمشكلات المتعلقة بأموال الرّي وسقي المزروعات، وتوزيع المياه على المزارعين، كما هو واضح من قصة الزبير بن العوام، والأنصاري عندما تنازعا في الشرب^(٥)، وقضى بمثل ذلك في مياه سيل مهزور

(١) العمري، الحرف والصناعات (ص ١١٩، ١٢٠).

(٢) أبو يوسف، الخراج (ص ٥٠، ٥١).

(٣) أبو يوسف، الخراج (ص ٨٩). أبو عبيد، الأموال (ص ٢٧٧).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٣٤١). (٥) انظر صحيح البخاري، حديث رقم (٢٣٥٩).

وَمُذَيِّنِبٍ وَبُطْحَانَ - وهي من السيول التي كانت تسقي المدينة - فقضى لأهل النخل حصتهم من الماء: أن يبلغ الماء إلى العقبين، وقضى لأهل الزرع أن يبلغ الماء إلى الشراكين، ثم يرسلون الماء إلى مَنْ هو أسفل منهم^(١).

تنظيم شؤون التجارة:

حمل المسلمون المهاجرون إلى المدينة معهم نزعاً قريش التجارية، فعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ما كاد يصل إلى المدينة حتى سأل عن السوق، وبدأ يبيع ويشترى حتى جمع مالاً فتزوج^(٢)، وكان عمر بن الخطاب ممن يتاجر بالسوق، حتى قال: «ألهاني الصفق بالأسواق»^(٣).

لقد شعر النبي صلى الله عليه وسلم في وقت مبكر بضرورة إنشاء سوقٍ تجارية للمسلمين، يستطيع من خلالها أن يخلص الاقتصاد المدني من سيطرة اليهود وجشعهم^(٤)، وكانت هذه السوق مكشوفةً، وتباع فيها منتجات المدينة والبوادي المجاورة، وما يأتي إليها من الخارج، وذلك في إطار إجراءات شرعية تنظيمية كان على التجار الالتزام بها.

فقد منعت الدولة بيع السلع المحرمة (مثل الخمر، والخنزير)، ومنعت جميع أنواع الربا. ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع التصرية فقال صلى الله عليه وسلم: «من اشترى شاةً مصراًةً أو لقحةً مصراًةً فهو بالخيار ثلاثة أيام...»^(٥)، ونهى عن الاحتكار، فقال: «لا يحتكر إلا خاطيء»^(٦) أي آثم.

(١) أبو يوسف، الخراج (ص ٩٠).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٤٨). (٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٦٢).

(٤) عمر بن شبة، تاريخ المدينة (ج ١، ص ٣٠٤).

(٥) انظر صحيح مسلم، حديث رقم (١٥٢٤).

(٦) الصنعاني، المصنف (ج ٨، ص ٢٠٢). وصحيح مسلم، حديث رقم (١٦٠٥).

كما نهى عن أن يبيع حاضر لبادٍ، ونهى عن النجش، وتلقّي الركبان قبل وصولهم إلى السوق، وعن بيع الملامسة، والمنابذة، والمزابنة، ونهى عن الخداع، والغش، والحلف^(١)، إلى غير ذلك من التشريعات التي نظمت عمليات البيع والشراء في سوق المدينة.

وكانت توجيهات النبي ﷺ تقضي بضرورة التسامح بين المتبايعين، فقال: «رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»^(٢)، وتشير الآية الكريمة إلى هذا الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. وقال ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحِقَّتْ بركةُ بيعهما»^(٣).

كان النبي ﷺ يراقب شؤون السوق بنفسه، وطلب منه بعض الصحابة أن يحدد تسعيرة المواد المعروضة في السوق، وردّ النبي ﷺ على هؤلاء بقوله: «إن الله هو الخالق القابض الباسط الرازق المُسَعِّرُ، وإني أرجو أن ألقى ربي وليس أحدٌ منكم يطلبني بمظلمةٍ ظلمتها إياه بدمٍ ولا مالٍ»^(٤).

وتردّ إشارة إلى أن النبي ﷺ في فترة لاحقة ولّى عمر بن الخطاب أمر السوق في المدينة، في حين ولّى سعيد بن العاص أمر السوق في مكة.

ولقد قامت الدولة بتنظيم شؤون التجارة، فكان لا بد من كتابة الديون كنوع من التوثيق من أجل حفظ حقوق الآخرين، وتشير الآية الكريمة إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(١) صحيح البخاري (٢١٥٨ - ٢١٨١ - ٢٢٠٧).

(٢) ابن ماجه، حديث رقم (٢٢٠٣) وأصله في صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٧٦).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٧٩).

(٤) الدارمي، (ج ٢، ص ٢٤٩).

وكان النبي ﷺ يكتب ما يبيعه وما يشتريه، فيذكر البخاري نص هذا الكتاب، حيث جاء فيه: «هذا ما اشترى محمد رسول الله ﷺ من العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله ﷺ، اشترى عبداً أو أمةً (شك الراوي)، لا داء ولا غائلة ولا خبثة، بيع المسلم للمسلم»^(١) أي: أنه ليس من شأن المسلم الخديعة.

وكانت المرونة والحرية والانفتاح سمة من سمات الدولة في فترة الرسالة، حيث سمح للمسلمين بالتعامل التجاري بحرية، حتى مع الكفار، وقد اشترى النبي ﷺ شاة من مشرك^(٢)، وتبايع مع اليهود، واقترض منهم، فقد اشترى النبي ﷺ طعاماً من يهودي إلى أجل، ورهنه درعاً من حديد^(٣).

أما «النقود المتداولة» في فترة الرسالة، فكانت تتمثل في «الدينار»، وهو: عملة مضروبة في بيزنطة من الذهب الخالص، وكان الناس يتعاملون به وزناً إذا كثر، وعداً إذا قل، وقد أقر الرسول ﷺ التعامل مع هذه الدينار على ما كانت عليه في الجاهلية، وكان «الدرهم» من النقود التي تعامل بها الناس، وهو مضروب في بلاد فارس، وكانت هذه الدراهم تختلف من حيث الوزن والحجم اختلافاً كبيراً مما أدى إلى أن يتعامل الناس بها وزناً لا عدداً^(٤).

لقد امتهن بعض الصحابة مهنة «الصيرفة»، اتضح ذلك من قول بعض الصحابة: كنا تاجرِينَ على عهد رسول الله ﷺ فسألناه عن الصرف، فقال: «إن كان يداً بيد، فلا بأس، وإن كان نسيئاً فلا يصلح»^(٥).

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٣٠٩/٤) تعليقا.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٢١٦).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٦٨).

(٤) سمير شما، النقود المتداولة في عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين، (ص ٥، ٦).

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٦٠).

ويذكر أن النبي ﷺ اعتمد سعر السوق اليومي في الصيرفة، قال ابن عمر: «قلت: يا رسول الله إني أبيع الإبل بالنقيع، فأبيع بالدنانير وأخذ الدرهم، وأبيع الدرهم وأخذ الدنانير، أخذ هذه من هذه، وأعطي هذه من هذه، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس أن تأخذ بسعر يومها، ما لم تفترقا وبينكما شيء»^(١)، وهذا يوضح مدى انتشار هذه المهنة في زمن الرسول ﷺ.

أما «الأوزان والمكاييل» المستعملة في هذه الفترة، فهي ذاتها التي عرفت قبل الإسلام، ولكنها أصبحت مراقبةً ومحددةً، وفقاً للمعيار الذي يفرضه صاحب السوق.

فعرفت في مكة «الأوزان»؛ لأن طبيعة التعامل يقوم على التجارة، في حين عرفت المكاييل في المدينة؛ لأنها ذات طابع زراعي، وقد جاء في الحديث: «الوزن وزن أهل مكة، والمكيال مكيال أهل المدينة»^(٢).

واندرجت وحدات الكيل ما بين المُدِّ، والصاع، والوسق والجريب، والقفير، الذي يستخدم أيضاً - شأنه شأن الجراب - كمقياس أرضي.

وكذلك وحدات الوزن متفاوتة بين الدرهم، والمثقال، والقيراط، والأوقية، والرطل، والقنطار، والتي اعتبرت الوحدات الأساسية للوزن في العهد الأول^(٣).

وتشير الروايات إلى أنه كان يقوم بالأسواق من يزن للناس، وكانت هذه وظيفة خاصة، يقوم بها بعضهم مقابل الأجر، فقد مر النبي ﷺ بالسوق، وكان لأهل السوق وزان يزن، فقال النبي ﷺ: «زن وأرجح»^(٤).

(١) أبو داود، حديث رقم (٣٣٥٤)؛ والنسائي، حديث رقم (٤٥٨٢).

(٢) أبو داود، السنن، حديث رقم (٣٣٤٠).

(٣) بيضون، تجارة المدينة (ص ٢١، ٢٢).

(٤) الدارمي، السنن (٢/٢٦٠) وأبو داود، حديث رقم (٣٣٣٦).

ووجدت هذه الوظيفة في سوق مكة، ومما يشعر بوجود هذه الوظيفة في زمن الرسول ﷺ، أن البخاريّ وضع باباً سماه «الكيل على البائع والمعطي»^(١)، وقد علق عليه ابن حجر بقوله: «أي مؤنة الكيل على المعطي، بائعاً كان أو موفياً دين، أو غير ذلك، ويلتحق بالكيل في ذلك الوزن فيما يُوزن»^(٢).

لقد كانت هذه التنظيمات تتناسب مع أهداف الإسلام العامة، في تحقيق معنى العدالة، وبناء مجتمع فاضل، يقوم أساسه على الرحمة والحبّ والإخاء والتعاون.

تنظيم شؤون الصناعة:

اشتهرت يثرب قبل الإسلام بزراعتها وصناعتها، وبعد الهجرة قامت حركة عمرانية واسعة، ولعلّ من أولى أمور الصناعة التي اهتمّ بها المسلمون (صناعة البناء)، إذ احتاج المهاجرون إلى مساكن يسكنونها في المدينة، فخطّ لهم النبي ﷺ الخطط، وحدد لهم الأماكن التي يبنون عليها^(٣).

لقد كان للنبي ﷺ مجموعة من التوجيهات التنظيمية في البناء، استفاد منها الصحابة، كما أخذ عنها الفقهاء بعض الأحكام الفقهية، مثل: تقديم من يجيد العمل على من لا يجيده، بصرف النظر عن تقوى كلّ منهم.

فقد وفد رجلٌ من بني حنيفة إلى النبي ﷺ وكان الرجل ممن يحسنون خلط الطين. وكان النبي ﷺ يعمل مع الصحابة في المسجد، فقال: «دعوا الحنفيّ فإنه أضبطكم للطين»، فأخذ المسحاة، وأخذ يعالج الطين ويخلطه، والرسول ينظر إليه ويقول: «إن هذا الحنفيّ لصاحب طين»^(٤).

(١) البخاري مع الفتح ٣٤٣/٤.

(٢) فتح الباري (ج ٩، ص ٢٠٠).

(٣) البلاذري، أنساب (ج ١، ص ٢٧٠).

(٤) الغزالي، فقه السيرة (ط ٧) القاهرة، دار الكتب الحديثة، (١٩٧٦م)، (ص ١٩٠).

وقد استعمل النبي ﷺ في الحفر مجموعةً من الآلات، من المساحي والمكاتيل، استعار بعضها من بني قريظة، بغرض إنجاز عملية الحفر في الوقت المحدد الذي كان ستة أيام فقط^(١).

أما صناعة «النجارة» فقد اشتهرت في زمن النبي ﷺ، وكان النجارون يخدمون الأغراض العسكرية؛ وذلك باشتراكهم في صنع بعض الأسلحة. فصناعة الدبابة والمنجنيق تعتمد في الدرجة الأولى على النجارين، كما أن صناعة الرماح تدخلُ ضمناً في النجارة^(٢).

ويلاحظ من خلال الروايات أن معظم من كانوا يجيدون النجارة هم في الغالب من الموالي؛ نظراً لنفور العرب واحتقارهم للصناعات وأنفتهم منها.

لقد اعتبرت صناعة الأسلحة من أهم الصناعات في زمن الرسول ﷺ، وكانت الإدارة النبوية قد اهتمت اهتماماً خاصاً بهذه الصناعة، إذ إن الجهاد ونشر الإسلام يحتاج إلى القوة والسلاح؛ لذا نجد اهتماماً خاصاً من النبي ﷺ بالسلاح وإعداده.

كانت توجيهات النبي ﷺ للمسلمين لصناعة الأسلحة تقوم على حثهم على إتقان هذه الصناعة، فقال النبي ﷺ: «إن الله يدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة، صانعه يحتسب في صنعه الخير، والممد به، والرامي به»^(٣).

وقال: «ارموا واركبوا، ولأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا»^(٤). وقال: «من ترك

(١) ياقوت الحموي، معجم (ج ٣، ص ٢٣٦، ٣٢٧).

(٢) العمري، الحرف والصناعات (ص ٢٣١).

(٣) أبو داود، حديث رقم (٢٥١٣)؛ وأحمد، حديث رقم (١٧٣٠٠)، وغيرهم، وقال مخرجه: «حديث حسن بمجموع طرقه وشواهد».

(٤) أبو داود، حديث رقم (٢٥١٣) وفيه هذه الزيادة ثم أخرجه (٢٥١٤) بلفظ «ألا إن القوة الرمي...»، قال الألباني: «صحيح».

الرمي بعدما علّمه رغبة عنه، فإنها نعمة تركها - أو - قال: كفرها»^(١).

وقد وجه النبي ﷺ المسلمين وحفزهم على صناعة الرماح، فقال: «بهذا القوس وبرماح القنا، يمكن الله لكم في البلاد، وينصركم على عدوكم» وقال: «ما سبقها - أي الرماح - سلاح إلى خير قط»، وقد حث الرسول ﷺ على المحافظة عليه، وإجادته، حتى في غير أوقات الحرب فقال: «ستفتح لكم الأرض وتكفوا المؤونة، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه»^(٢).

واشتهرت صناعة السيوف والخناجر، وكان الصحابة يشحذون سيوفهم بالحجارة^(٣)، في حين استعمل النبي ﷺ الدبابة في الهجوم، وأرسل اثنين من الصحابة إلى جرش؛ لكي يتعلموا صناعة الدبابات^(٤)، وبالفعل استطاع هؤلاء صناعة أول دبابة؛ فاستعملها النبي ﷺ في حصار الطائف^(٥).

ومن الصناعات المشهورة في زمن الرسول ﷺ صناعة «الحدادة»، فقد كان خباب بن الأرت يعمل حدادًا في مكة^(٦)، ومما يدل على كثرة الحدادين في هذه الفترة أن النبي ﷺ لما فتح خيبر أحضر معه منها ثلاثين حدادًا، وكان هؤلاء يقومون بصناعة ما يحتاج إليه الناس في حياتهم اليومية^(٧).

(١) أبو داود، حديث رقم (٢٥١٣)؛ وصحيح مسلم، حديث رقم (١٩١٩) بلفظ «فليس منا، أو قد عصى».

(٢) السخاوي، القول التام، ورقة (١٦).

(٣) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد (ج ٤، ص ٢٨٦).

(٤) هما عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة، هما من أشرف ثقيف. انظر: ابن حجر، الإصابة (ج ٢، ص ٤٧٦)، (ج ٣، ص ١٨٩).

(٥) الطبري، تاريخ (ج ٣، ص ١٣٢).

(٦) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٩١).

(٧) السهيلي، الروض الأنف (ج ٣، ص ١٩٧).

حاولت الدولة في فترة الرسالة استغلال بعض مناجم المعادن الموجودة في الجزيرة العربية، فقد أقطع النبي ﷺ بلال بن الحارث المزني معادن القبيلة، وهي من أعمال الفرع بالمدينة، وكتب له بذلك كتاباً^(١)، وهناك إشارة توضح أن النبي ﷺ أقطع معدن «الأحسن» قرب المدينة، و«بحران» بعض القبائل من أجل استغلالها وإفادة الدولة منها^(٢).

واشتهرت أيضاً في المدينة صناعة «الخواصة»، وهي: نسج بعض الأدوات والأثاث من خوص النخيل، وقد تعلم سلمان هذه المهنة، واتخذها حرفة يأكل منها^(٣).

وظهرت مهنة «الخطاطة» بشكل كبير، ذلك بأن المجتمع الإسلامي بدأ يتجه إلى الاستقرار الحضري، وهذه مرتبطة بشكل كبير بأهل الحضر، يتضح هذا من قول ابن خلدون: «وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضري؛ لأن أهل البدو يستغنون عنها، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها، وإحاطها بالخطاطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها»^(٤).

ومما يشير إلى وجود هذه المهنة في زمن الرسول ﷺ أن البخاري وضع باباً في صحيحه سماه «باب الخطاط»^(٥)، وذكر حديثاً جاء فيه: أن خياطاً دعا الرسول ﷺ لطعام صنعه، فقال أنس بن مالك: فذهبت مع رسول الله إلى ذلك الطعام^(٦). ويبدو أن استجابة النبي ﷺ كانت ضرورية لإزالة الاحتقار لمثل هذه المهنة في نفوس العرب المسلمين.

(١) أبو عبيد، الأموال (ص ٣٩٨).

(٢) ياقوت، معجم (ج ١، ص ١١٢، ٣٤١).

(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب (ج ٢، ص ٦٣٥). (٤) ابن خلدون، المقدمة (ص ٤١١).

(٥) صحيح البخاري مع الفتح (٤/٣٨٠). (٦) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٩٢).

لقد كانت تقومُ هذه الصناعاتُ وتتطورُ - لا سيما الأسلحةُ - بتوجيه من الإدارة النبوية وإشرافها المباشر، وكان الهدفُ الذي أَرَادَهُ النَّبِيُّ ﷺ من خلال توجيهاته وتشجيعه للصناعة، أن تصلَ الأمةُ إلى درجة من الاكتفاء الذاتي، لا سيما في الصناعاتِ الاستراتيجية للدولة، كالأسلحة وغيرها.

ويمكن القول: إن التنظيماتِ في المجالات الاقتصادية تطورت، بحيث أصبحت بعضُ المخالفات والجرائم والعلاقات الاجتماعية تعالجُ بطريقة اقتصادية، فُرِّبَتْ المهورُ على الزواج^(١)، وجُعِلَ لأهل القتلِ ديةٌ في حالة القتل الخطأ^(٢)، وجُعِلَ للمتضررِ في جسمه وأعضائه حقُّ التعويض عن الضرر الذي أصابه، إلى غير ذلك من التوجيهات التي تنظم علاقات الناس وحياتهم.

الترغيب في العمل ومكافحة البطالة:

لقد رسَّخ سيدنا محمد ﷺ في المجتمع بتعاليمه المتنوعة قيماً اجتماعيةً وتنمويةً جليلاً، كالإنتاجية والعمل، وبُغضِ العطالة والبطالة، وحبِّ التكسب من عرق الجبين، فكان رسول الله ﷺ يمتقُّ أن يرى الرجل لا شغلَ له، وقد فضل ﷺ ثوابَ العامل من أجل لقمة العيش على العابدِ العاكفِ في المسجد، بل عدَّ الساعي على إطعام بطنه وبطنِ أهله من الحلال، كالخارج في سبيل الله.

ونراه في أكثر من موضعٍ يحبذ لكل مسلم فقير أن يحفظ ماءً وجهه من سؤال الناس، ويرشده إلى أن الأفضل له أن يخرج يتكسب من أيِّ وسيلة مشروعة، ولو في جمع الحطب.

فقال ﷺ - مشجعاً على العمل منفراً من البطالة - : «لأنَّ يأخذَ أحدكم أحبَّله،

(١) قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤].

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٢]. وانظر: الشافعي، الأم (ج ٦،

فيأتي بحزمة الحطب على ظهره؛ فيبيعها فيكف الله بها وجهه؛ خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه»^(١).

فبين الحديث أن مهنة الاحتطاب على ما فيها من مشقة، وما يحوطها من نظرات الازدراء، وما يرجى منها من ربح ضئيل، خير من البطالة وتكفف الناس^(٢). كما نجده ﷺ يفكر ويخطط لشاب فقير؛ بحيث يوفر له ﷺ فرصة عمل، يتكسب منها، فعن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله (الصدقة)، فقال: «أما في بيتك شيء؟» قال: بلى، جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء.

قال: «أئتني بهما»، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «من يشتري هذين؟» قال: رجل أنا آخذهما بدرهم. قال: «من يزيد على درهم؟» مرتين أو ثلاثاً. قال رجل: «أنا آخذهما بدرهمين». فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري.

وقال: «اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلِكَ، واشتر بالآخر قدوماً فأئتني به» فأتاه به. فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال له: «أذهب فاحتطب، وبع، ولا أريتكَ خمسة عشر يوماً».

فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة. إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقرٍ مُدقع (الفقر الشديد)، أو لذي غرمٍ مفضع، أو لذي دمٍ موجع»^(٣).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (١٤٧١).

(٢) يوسف القرظاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام، ص ٤٠.

(٣) رواه أبو داود، برقم ١٦٤١، وضعفه الألباني.

والعاطل عن العمل له حق الكفاية من مال الزكاة ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿١٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥] قال القرطبي: «المحروم الذي حرم المال، واختلف في تعيينه.

فقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما، المحروم: المحارِفُ الذي ليس له في الإسلام سهم.

وقالت عائشة رضي الله عنها: المحرومُ المُحَارِفُ الذي لا يتيسر له مكسبُهُ^(١) أي العاطل عن العمل.

هذا، ولقد حارب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كلَّ مظاهر البطالة، والإخفاق عن التكسب، بشتى الطرق، ليسدَّ كلَّ باب أمام انتشار الفقر في المجتمع، فلقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم البطالة مع القدرة على العمل، والحاجة إلى الكسب لقوته وقوت مَنْ يعولُه، وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله يكره الرجلَ البطالَ»، «والبطالةُ تقسي القلب»^(٢).

التمريض وعلاج المرضى:

فهي من الخدمات المساعدة الضرورية في المعارك، وقد قامت المرأة بدور كبير في هذا المجال، وذلك بسقاية الجرحى وإعانتهم وتمريضهم.

يذكر الواقدي أن فاطمة ضمّدت جراح الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد^(٣)، وعندما سار إلى خيبر أذن لأم سنان الأسلمية بالخروج معه لتكون من جملة واجباتها مداواة الجرحى^(٤)، وقد ضربت لها خيمة لهذا الغرض.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٨/١٧.

(٢) رواه القضاعي، في مسند الشهاب من حديث عبد الله بن عمرو، برقم ٢٧٨.

(٣) الواقدي، المغازي (ج ١، ص ٢٤٩).

(٤) ابن سعد، الطبقات (ج ٢، ص ٢٩٢).

وفي الغزوة ذاتها جاءت أمية بنت قيس الغفارية في نسوة من بني غفار، فقالت: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا نداوي الجرحى، ونعين المسلمين ما استطعنا، فقال لها: «على بركة الله»^(١).

وفي غزوة الخندق كان لرفيدة الأسلمية خيمة في مسجد رسول الله تداوي الجرحى، فلما جرح سعد قال الرسول ﷺ: «اجعلوه في خيمة رفيدة»^(٢).

وفي غزوة حنين خرجت النساء لتقوم بعملية التمريض^(٣)، وذكرت الربيع بنت معوذ: أن من الأعمال التي قامت بها النساء عند خروجهن مع رسول الله مداواة الجرحى^(٤).

وذكر الشيباني: أن أم عطية كانت تغزو مع الرسول ﷺ لتقوم على المرضى وتداوي الجرحى^(٥).

وذكر أنس بن مالك: أن الرسول ﷺ كان يغزو بأمر سلمة ونسوة من الأنصار معه إذا غزا يسقين الماء ويداوين الجرحى^(٦).

(١) محمد عزة دروزة، الجهاد في سبيل الله في القرآن، (ص ١٠١).

(٢) ابن هشام، السيرة (م ٢، ص ٢٣٩).

(٣) الكاندهلوي، حياة الصحابة (ج ١، ص ٥٧٩).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٨٨٢).

(٥) أبو داود (٢٥٣١)، وانظر صحيح البخاري (٢٨٨٢-٢٨٨٣) حديث الربيع بنت معوذ في ذلك أيضاً.

(٦) الطبري، تاريخ (ج ٢، ص ٥٧٧).

هَذَا مَجْلَدٌ

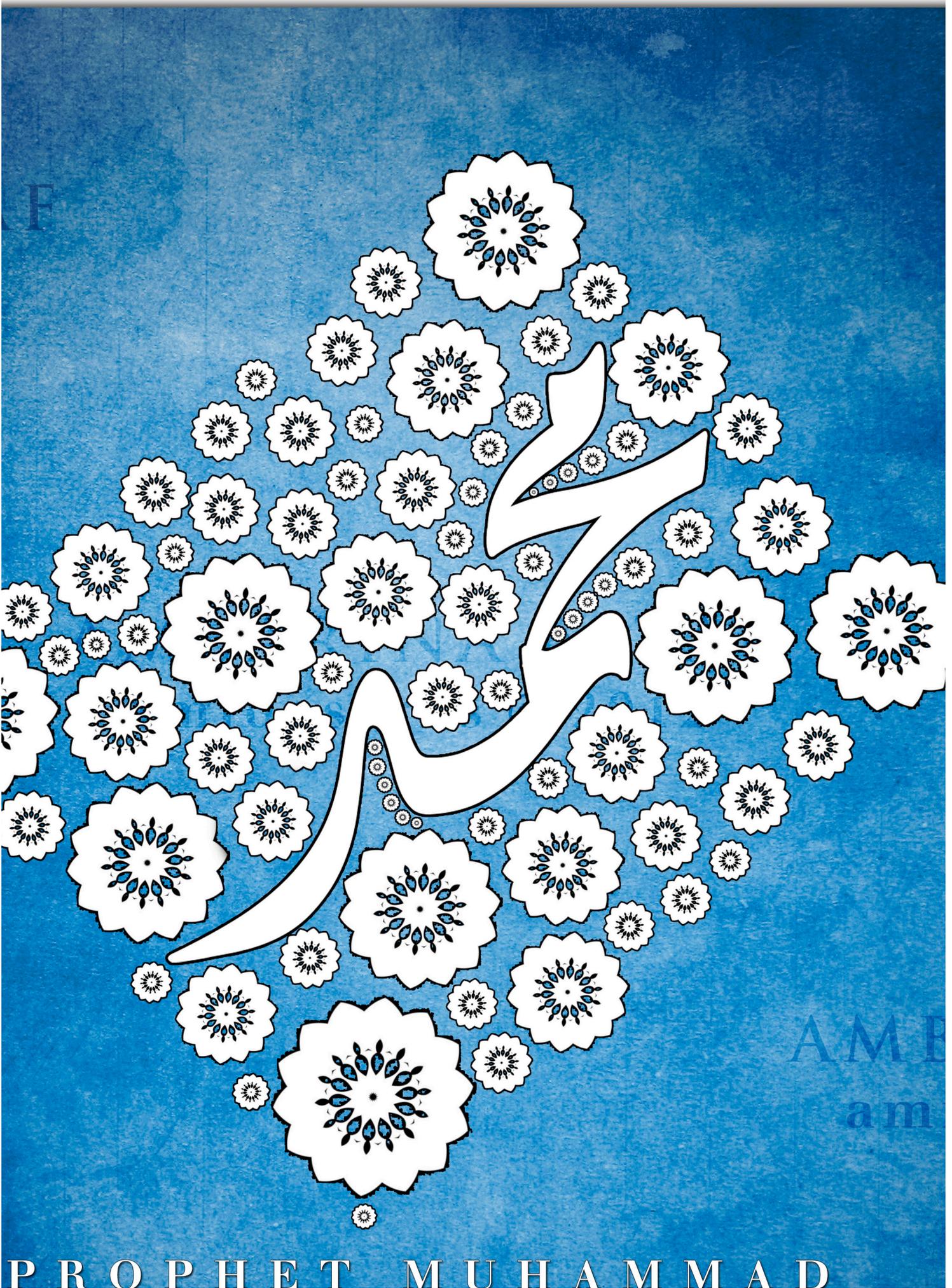
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



الفصل الرابع

الرسول ﷺ وفن القيادة





PROPHET MUHAMMAD

AME
a m

المبحث
الأولالخصائص القيادية
لِلرَسُولِ ﷺ

لا بد أننا نجزم ونؤكد على أن رسولنا الكريم محمدًا ﷺ هو رجلُ الدولة الأول: سياسيًا وعسكريًا. وفي كل مرة كان في القمة التي لا يرقى إليها أحدٌ، وهو الأُمي الذي لا يعرف قراءةً ولا كتابةً، مما يدل على أن المسألة هنا ربانية المبدأ والطريق والنهاية .

ولنجاح القيادة السياسية لا بد من مؤهلات وسألخصها فيما يلي :

- ❁ استيعابُ هذه القيادة لدعوتها، وثقتُها بها وبأحقيتها، وثقتُها بانتصارها، وعدمُ تناقضِ سلوك هذه القيادة مع ما تدعو إليه.
- ❁ قدرةُ القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغًا وإقناعًا.
- ❁ قدرةُ القيادة في استيعاب المستجيبين للدعوة تربيةً وتنظيمًا وتسييرًا وضبطًا.
- ❁ وجودُ الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها.
- ❁ قدرةُ القيادة على التعرف على إمكانية الأتباع، وأن تستطيع الاستفادة من كلِّ إمكاناتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة .
- ❁ قدرةُ القيادة على حلِّ المشكلات الطارئة، بأقلِّ قدرٍ ممكن من التكاليف.
- ❁ أن تكونَ هذه القيادة بعيدة النظر، مستوعبةً للواقع.
- ❁ قدرةُ هذه القيادة على تحقيق النصر، والاستفادة منه.
- ❁ قدرةُ هذه القيادة أن تُحكِمَ أمرَ بناء دولتها إحصامًا، يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد .

وما عرف التاريخُ إنساناً كَمَلٍ في هذه الجوانب كلها إلى أعلى درجات الكمال غيرَ محمد ﷺ، مع ملاحظة أن كمالته هنا جانبٌ من جوانب كمالته المتعددة التي لا يحيط بها غيرُ خالقها.

ولنستعرض جوانب سيرة رسول الله، تلك الجوانب العملية، لنرى براهين ذلك:

١. ثباته ﷺ على دعوته وثقته بنصر الله:

لقد كان الرسول ﷺ واضحاً تماماً، في منطلق دعوته وهو أن الحاكمَ الحقيقيَّ للبشر لا يجوز أن يكونَ غيرَ الله. وأنَّ خضوعَ البشر لغير سلطان الله شركٌ، وأن التغييرَ الأساسي الذي ينبغي أن يتمَّ في العالم هو نقلُ البشر من خضوع بعضهم لبعض إلى خضوع الكلِّ لله الواحدِ الأحدِ .

والأمثلةُ كثيرةٌ، ولكني سوف اختارُ لكم منها:

طالب المشركون رسولَ الله ﷺ أكثرَ من مرة أن يطردَ المستضعفين من المسلمين حتى يجلسوا إليه، وفي كل مرة كان ينزل قرآنٌ، ويكون موقفُ رسول الله ﷺ الرفضَ، ومن ذلك ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود، قال: مرَّ الملائم من قريش برسول الله ﷺ، وعنده: صهيبٌ، وبلالٌ، وعمارٌ، وخبابٌ، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟ ونحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك! فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَيْشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]^(١).

وبذلك يكفيك أن تعلم أن الناسَ يعتبرون العملَ السياسي الإسلامي عملاً مثاليًا لا يستطيعه أيُّ إنسانٍ، فإذا ما عرفنا بعد ذلك، أن الرسول ﷺ استطاع

(١) عمدة التفسير (١/٧٧٦).

أن يقودَ الناسَ بهذا الإسلام - دون أن نجدَ له موقفاً ناقصاً فيه نفسه، أو مبادئَ دعوتِهِ قولاً أو عملاً، وهو ما لا يسلم منه أيُّ زعيمٍ سياسي - أدركت مدى الكمال في القيادة المحمدية .

وبشكلٍ أخصَّ إذا عرفت أنه لم يستطع أن يرتفع من حكام الأمة الإسلامية إلى القيادة بالإسلام الكامل بحق، إلا أفراداً، منهم: الخلفاء الراشدون الأربعة، أما رسولُ الله ﷺ فقد ساس الناسَ بالإسلام، ولم ينزلْ بالإسلام إلى مستوى الناسِ، بل رفعَ الناسَ إلى مستواه، على وتيرةٍ واحدةٍ، ونسقٍ واحدٍ، في الفكر والعمل.

٢. الإصرارُ على الدعوةِ والحرصُ على التبليغ:

لقد استفرغ رسولُ ﷺ جهده في هذا المرحلة في تبليغ ما أنزل إليه، ودعوة الناس إلى دين الله، وقد تميزت هذه المرحلةُ بأمرين:

أ الحرص على استمرار الدعوة والتبليغ ومحاولة الإقناع بالحجة والبرهان.

ب التصرف الحكيم المتبصر إزاء الخصوم.

إن أيَّ دعوة من الدعوات، إذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليغ والإقناع، فإنها تجمدُ ثم تضمحلُّ ثم تموتُ. وأيَّ دعوةٍ من الدعوات، لا تتخذُ الموقفَ المناسب من الخصم تُضربُ ضربةً ساحقةً ثم تزولُ .

عندما ندرس هذين الجانبين في العمل، عند رسول الله ﷺ، نجد أنه ﷺ قد نجح فيهما. فرغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه، ورغم العداة العنيف الذي ووجه به، ورغم كلِّ شيء فإن عملية التبليغ لم تنقطع لحظةً من اللحظات.

أما للأمر الثاني، فأنت تلاحظ حكمةً موافقه تجاه العدو، فهو في مكة يصبرُ ويأمرُ أتباعه بالصبر، ولم يأمر بقتالهم، ولو فعل ذلك لحسرت أتباعه قتلاً، ولشغل

بذلك في قضايا الثأر، ولما أمكنه أن يتابع عملية التبليغ. فكسب بهذه الخطة كثيراً من القلوب.

فإذا ما انتقل إلى المدينة، رأيت تجدد مواقفه على حسب الظروف الجديدة: من معاهدة، إلى سلام، إلى حرب، إلى ضربة هنا ووثبة هناك. ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتا على عملية تبليغ الحق، وإقناع الناس به على كل مستوى، وبكل وسيلة ملائمة^(١).

وخلاصة القول: لا توجد حركة سياسية تقوم على أساس عقدي، نجحت كما نجحت دعوة رسول الله ﷺ وفي فترة قصيرة، وهذا يدلنا على أن الأمر لن يتحقق - لولا التوفيق الإلهي - لهذا الرسول الأعظم الفذ على مدى التاريخ بين الرجال.

٣. قدرته ﷺ على استيعاب أتباعه، تربيته وتنظيمه وتسييره ورعايته:

إن الدعوة إلى الله قد يعاني أتباعها، بسبب القائمين عليها، من نواحٍ ثلاث:

أ العجز عن تربية أتباعها تربيةً نموذجيةً، بحيث يراهم الناس قدوةً حسنةً عنها، مما يؤدي إلى نفور الناس منها، تبعاً لنفورهم من أصحابها، فيكون التابع حجةً على الدعوة، بدلاً من أن يكون حجةً لها.

وعلى العكس من ذلك إذا ما ربّي أفرادها تربيةً نموذجيةً حية، فإن الناس ينجذبون إليهم قبل إيمانهم بدعوتهم، ويحبونهم قبل أن يعرفوا ما يدينون به، وكم رجالٍ تضررت دعوتهم بسلوكتهم، مع أنهم يحملون دعوةً عظيمةً.

ب أن يقبل على الدعوة مَنْ لا تستطيع هذه الدعوة أن تُسخر طاقاتهم في سبيلها. وأمثال هؤلاء يكونون في وضع العطالة، فهم مع الدعوة، ومع ذلك لا يقدمون شيئاً لها، بل يصبحون عبئاً عليها.

(١) البوطي: السيرة (٢٢١).

عندما لا يحسُّ الأتباعُ بالرعاية والاهتمام، وعندما لا يوضعون في المكان المناسب، أو عندما يحسُّون بأنهم منسيون، أو حين يهملُ الإنسانُ أولاً يعرف مهمته، كلُّ ذلك يؤثرُ على نفسية الأتباع، ويولد عندهم فتورًا عن الدعوة^(١).



هذه الجوانبُ الثلاث لا بد من تلافيتها لأي دعوة تقوم على أساس مبدأ معين، وعدم تلافيتها يعطل سير الدعوة ويقتلها.

ومن دراستنا لحياة النبي ﷺ نجد أنه يتجنبها، وتجد ما يقابلها بشكل لا مثيل له، بحيث لا تستغرب بعدُ كيف انتصرت هذه الدعوة، وهذه الجماعة، وكيف توسعت على مرِّ الأيام.

فنجدها استوعبت :

❁ في الجانب الأول: تربية الرسول ﷺ، والتي شملت الأمة الإسلامية في وقته.

❁ في الجانب الثاني: استجابة أتباعه للدِّين، والإقبال عليه علمًا وعملاً.

❁ في الجانب الثالث: حرص الرسول ﷺ على رعاية أتباعه، والعناية بهم، والسهر على شؤونهم بما لا نظير له، ولعل هذا الجانب أحقُّ بالتمثيل:

أخرج ابن إسحاق عن أمِّ سلمة أنها قالت: لما ضاقت مكة وأوذى أصحاب رسول الله، وفُتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله في منعةٍ من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيءٌ مما يكره، ومما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»^(٢).

(١) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة (ص ٢٣١).

(٢) السلسلة الصحيحة (٣١٩٠).

وقد وجَّههم مرَّتين إلى الحبشة: مرَّةً في السنة الخامسة، ومرَّةً في السنة السابعة؛ حيث كان المسلمون مُقدِّمين على أعظم مراحل الاضطهاد، مرحلة المقاطعة الشاملة.

والأمثلة كثيرة، وفيها دلالة على مبلغ دقة الرسول ﷺ في توجيه أصحابه بالشكل الذي يحمون فيه أنفسهم ويأمنون، وكيف أنه لا ينسى أحداً منهم، بل يستوعبهم جميعاً برعايته، وكيف يُعدُّهم للحظة المناسبة، وكيف يسيِّر كلَّ واحدٍ منهم بحكمة تُناسب وضعه .

٤. ثَقَّةٌ أَتْبَاعُهُ بِهِ ﷺ:

للثقة بين الناس وقائدهم أهمية عظيمة جداً، عند أصحاب الفكر السياسي، لذلك ترى في أنظمة الحكم الديمقراطية أن الحكومة تبقى حاكمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التي تعرفها ببعض الوسائل، وهذا حالُّ الناس الذين يثقون بحكوماتهم ويتعاونون معها، فإنهم يستطيعون بالتالي أن يكملوا النواقص.

أما إذا فقدت الأمة ثقتها في قائدها فقد تتلاشى قوتها، وتضعف روحها المعنوية، ويضرب اقتصادها، وبالتالي يهوي هذا الحالُّ بها.

لذلك كان من أهمِّ عوامل قوة القائد السياسي للأمة ثقة الأمة به ومحبتها له، فإنَّ هذا إذا وُجدَ يعوّض كلَّ النواقص ويسدُّ النقص، ويصلح الخلل، فإذا ما وُضح هذا بشكل عام، نقول: إن تاريخ العالم كله لا يعرف مثلاً واحداً يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول ﷺ به. إن ثقة الناس بالقائد الرسول كانت ثقة غير متناهية، يكفي لإدراكها، أن ترى بعضاً من مواقف الصحابة، في أدق وأصعب وأحرج الأحوال:

قال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسولَ الله، وإنَّ بيننا وبين الناس حباًلاً (أي أحلاقاً وعهوداً) فلعلنا نقطعها، ثم ترجع إلى قومك وقد قطعنا الحبالَ وحاربنا الناسَ. فضحك رسول الله ﷺ من قوله، وقال: «الدمُّ الدمُّ، الهدمُ الهدمُ»،

وفي رواية: «بل الدمُ الدُّمُّ والهدمُ الهدمُ». أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأُسلم من سالمتم».

ثم أقبل أبو الهيثم على قومه فقال: يا قوم، هذا رسولُ الله ﷺ أشهدُ إنَّه لَصَادِقٌ، وإنكم اليومَ في حرمِ الله وأمنه، وبين ظَهري قومه وعشيرته، فاعلموا أنه إن تُخرجوه رمتكم العربُ عن قوسٍ واحدة، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيلِ الله، وذهابِ الأموال والأولاد، فادعوه إلى أرضكم، فإنه رسولُ الله حقًا، وإن خفتهم خذلانًا فمن الآن.

فقالوا عند ذلك: قبلنا عن الله وعن رسوله ما أعطيانا، وقد أعطينا من أنفسنا الذي سألتنا يا رسول الله، فخلَّ بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه، فقال أبو الهيثم: أنا أول من بايع^(١).

الأمثلة كثيرة، وكلُّها تُشعر الإنسان بمقدار الثقة التي كانت تملأ قلوب هذا الرعيل الأول، مع معرفتهم بما سيترتب على هذه البيعة من آثارٍ مخيفة.

والحقيقة: إن شخصية الرسول ﷺ كانت - من الأسر والقوة والتفاد - بحيث لا يملك من يخالطها إلا أن يذوبَ فيها، إلا إذا لم يكن سويًا، ولعلَّ في قصة زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما يؤكد هذا المعنى.

فعندما جاء أبو زيد وأعمامه ليشتروه، ويرجعوا به إلى أهله حرًّا، خيَّره رسول الله ﷺ، فاختار صحبةَ محمد ﷺ مع العبودية والغربة، على فراقه، وإن كان فيه الحرية ولقاء الأهل.

وهذه ظاهرةٌ عجيبةٌ: أن يصارح زيدُ أهله بهذا، وهو ليس صغير السن، بل كان وقتذاك ناضجَ الفكر، فكافأه محمد ﷺ (كان ذلك قبل النبوة) أن حرَّره وتبَّأه^(٢).

(١) ابن هشام: السيرة (١/٣٣٢).

(٢) الرسول القائد (١/٧).

٥. الاستفادة من إمكانات الأتباع العقلية والجسمية، وحسن توظيفها في محلها:

إن عبقرية القيادة لا تظهر في شيء ظهورها في معرفة الرجال، ووضع كل في محله، واستخراج طاقات العقول بالشورى، واستخلاص الرأي الصحيح. وفي كل من هذين كان الرسول ﷺ الأسوة العليا للبشر.

إن الشورى في فن السياسة عملية تُستجمع فيها طاقات العقول كلها؛ لاستخلاص الرأي الصالح، ويتحمل فيها كل فرد مسؤولية القرار النهائي، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة. فيندفع نحو المراد بقوة، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة. ويبقى الإنسان فيها على صلة بمشاكل أمته وجماعته، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شورى بينهم، حتى يتحمل كل فرد من المسلمين المسؤولية كاملةً ولا يبقى مسلم مهملاً.

والظاهرة التي نراها في حياة الرسول ﷺ كقائد: حبه للشورى، وحرصه عليها، ومحاولته توسيع دائرتها، واستخلاصه الرأي الأخير في النهاية:

قبيل غزوة بدر استشار الناس، فأشار المهاجرون، فلم يكتف ثم استشار الناس، فأشار الخزرج والأوس، ثم اتخذ قراره الأخير، حتى يمنع أي تردد من أحد.

وقبل يوم أحد استشار الناس وأخذ برأي الأكثرية.

ويوم الأحزاب أخذ برأي سلمان الفارسي.

ويوم الحديبية أشارت عليه أم سلمة زوجته فأخذ برأيها.

إنها القيادة التي لا تستكبر أن تنزل على رأي مسلم كائنًا من كان، ما دام الرأي سليمًا صحيحًا. والقيادة الصالحة هي التي تعمم الشورى حتى لا يبقى مع أحد رأيًا إلا قاله، وخاصة فيما يكون فيه غرم.

أما معرفة الرجال، ووضع كل في محله المناسب له، وتكليفه بالمهمة التي يصلح لها، فكذلك لا يلحق برسول الله ﷺ أحدٌ فيها.

إن أبا بكر وعمرَ كانا في زمن رسول الله ﷺ يلقبهما الصحابة بالوزيرين له، وكان يسمر معهما في قضايا المسلمين، ولما مرض ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، وهذا الذي جعل المسلمين يختارونه بعده خليفة.

ثم كان عمرُ الخليفة الثاني، والناسُ يعرفون ماذا فعل أبو بكر وعمر يوم حكما الناس، فهل يشكُّ أحدٌ أن تركيز الرسول ﷺ على هاتين الشخصيتين كان في محله، وأنهما من الكفاءة في المحل الأعلى، وأن رأي رسول الله ﷺ فيهما في محله. وهذان مثالان فقط، وإلا فما اختار رسول الله ﷺ رجلاً إلا ورأيتُ الحكمة في هذا الاختيار^(١).

لكلِّ مقام رجالٌ، وكان رسول الله ﷺ أكثر الخلق فراسةً، في اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب.

٦. قدرته ﷺ على التصرف في مواجهة الظروف الطارئة:

كان رسولُ الله ﷺ يتخذ القرارات المناسبة عندما يواجه ظروفًا طارئة، وكان من شأن ذلك أن يحفظ المجتمع المسلم من الانقسام ويرص صفوفه، ويجعله أقوى ما يكون، والأمثلة على ذلك يطول المجال بذكرها، ومنها، مثلاً: مواقفه ﷺ في حادثة الإفك، وفي غزوتي أُحدٍ والخندق.

وقد يحدث أن بعض القيادات تحلُّ المشاكل حلاً غير مشروع، فتستعمل القوة مع أتباعها، فتبيد المعارضين أو تسجنهم، كما نرى كثيراً من هذا في عصرنا الحاضر.

(١) ابن هشام: السيرة (١/٣٣٣).

إلا أن الظاهرة التي لا مثيل لها في تاريخ القيادات العالمية، أنك تجد عند رسول الله ﷺ قدرة لا مثيل لها على حل المشاكل بكل يسر، هذا مع سلوك الطريق الألف مع الأتباع. والذي عرف العرب عن كذب يدرك كفاءة هذه القيادة التي استطاعت أن تشق الطريق بأقل قدر ممكن من المتاعب.

إنه لا توجد أمة في العالم أكثر مشكلات من الأمة العربية، فالعوامل النفسية التي تثير المشاكل كثيرة جداً، فكلمة قد تثير حرباً، وجرح كرامة قد يؤدي إلى ويلات، وثورات، وعصبية عارمة، وجرأة نادرة، وقسوة وصلابة، وعدم انضباط، وكل واحد من هذه المشكلات تحتاج إلى قيادة، تتمتع بكفاءة منقطعة النظر، وكان رسول الله ﷺ القائد الذي استطاع أن يدير أمر هذا الشعب القوي المراس، ويحل كل مشاكله بكل سهولة.

وأبرز الأمثلة حلّه لمشكلة وضع الحجر الأسود قبل النبوة، حين هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها.

في رواية ابن إسحاق للحادث قال: ثم إن القبائل جمعت الحجارة لبنائها: كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن، فاختصموا فيه: كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فقرّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عديّ بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا لعقة الدم.

فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا، فزعم^(١) بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان عامئذ أسنّ قريش كلها، قال: يا معشر قريش،

(١) إذ يروي أن المشير على قريش مهشم بن المغيرة، ويكنى أبا حذيفة.

اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا. فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «هلم إلي ثوبًا»، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعًا»، ففعلوا. حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بني عليه^(١).

والنماذج كثيرة، كلها تبين كيف كان رسول الله ﷺ يحل المشكلات اليومية بسرعة عجيبة فلا يبقى لها أي أثر. هذه الإمكانية العجيبة في حل المشكلات جعلت رجلاً كبرناردشو الأديب الإنكليزي المشهور يقول: «ما أحوَج العالم إلى رجل كمحمد يحل مشاكله، وهو يشرب فنجاناً من القهوة» (أي ببساطة)!

ومن قرأ كتب الحديث رأى كثرة المشكلات اليومية والفردية والجماعية التي كانت تعترض رسول الله ﷺ، وهو يسوس شعباً من أعصى شعوب العالم انقياداً وطاعة وسياسة، ومع هذا فما عُرف أن مشكلةً مرت عليه إلا وحلها بسهولة كاملة واستقامة، مع منهج الحق الذي يدعو إليه، والذي يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية بآن واحد، وما كان ذلك ليكون لولا توفيق الله ورعايته.

٧. بُعد نظره ﷺ في اتخاذ القرارات السياسية الموفقة:

إن الدارس لتصرفات رسول الله ﷺ يجدها في غاية الحكمة وبُعد النظر. فمثلاً يرسل كسرى إلى عامله على اليمن (باذان) أن يهيج رسول الله، وأن يقبض على رسول الله ليرسله إلى كسرى، فيرسل باذان رجلين ليقبضا على رسول الله، ويأتيا به إلى كسرى، ويأمر باذان أحد الرجلين أن يدرس أحوال رسول الله.

فلما وصل الرجلان أبقاهم الرسول عنده خمسة عشر يوماً دون رد عليهم،

(١) أسد الغابة (١/١٠).

وقُتِلَ كَسْرَى فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ عَشَرَ فَأَنْبَأَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ كَسْرَى يَوْمَ مَقْتَلِهِ وَأَهْدَى أَحَدَ الرَّجْلَيْنِ مَنْطِقَةً فِيهَا ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ وَأُرْسِلَ إِلَى بَاذَانَ رِسَالَةً مَضمُونُهَا أَنَّهُ إِنْ أَسْلَمَ أَعْطَاهُ مَا تَحْتَ يَدِهِ، وَكَانَ مِنْ آثَارِ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ خَلَعَ بَاذَانَ وِلَاءَهُ لِكَسْرَى وَأَسْلَمَ مَعْلَنًا وِلَاءَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إِنَّ الْأَمْثَلَةَ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَلَكِنْ يَبْقَى أَنْ تَدْرِكَ الْأَفْقَ الْعَالِيَّ الَّذِي كَانَ يَنْظُرُ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَدْرِكَ أَنْ قِيَادَتَهُ جِزْءٌ مِنْ صَلَاتِهِ بِاللَّهِ الْمُحِيطِ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، فَكَانَ مُسَدِّدًا رَاشِدًا مُهْدِيًا .

٨. تحقيق النصر والمحافظة على المكاسب:

الوصول إلى النصر لم يكن وحده الهدفَ في عمل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل كان يتبعه دائماً تطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر وإحكام البناء، بحيث يكون قادراً على الصمود في المستقبل ووضع أسس النمو الدائب المتطور، بحيث تحتفظ الدعوة بإمكانية السير عبر العصور:

لقد مضى على ظهور الإسلام أربعةَ عشرَ قرناً، ولا زال الإسلام في انتشار، ولا زال يتوسع، رغم كل ما تبذله الدعايات الكافرة من أعدائه، سواء كانوا أصحابَ دين أو ممن لا دين لهم، بطرق منظمة وغير منظمة، فلا زال الإسلام هو الإسلام، ولا زال ينتشر في بقاع الأرض.

ورغم الملاسات التاريخية التي أوقعت العالم الإسلامي في قبضة أعدائه، ورغم سيطرة الأعداء فالإسلام باق. ورغم أن الكافرين استطاعوا أن يهيووا ويسخروا لعملائهم من أعداء الإسلام وسائل الغلبة والانتصار داخل العالم الإسلامي فإنهم لم يفلحوا فالإسلام شامخ يتحدى ويقهر.

وخلال هذا التاريخ الطويل سقطت دولٌ تحكم باسم الإسلام، وقامت دولٌ تحمّل الإسلام، واستوعب الإسلام الجميع. وفي كل مرة كان الإسلام محمولاً

حقَّ الحمل كان أصحابه هم الغالبين، وحضارته أرقى الحضارات، وما ذلَّ المسلمون إلا من تقصيرهم وتفريطهم وجهلهم بالإسلام.

كانت القرون الوسطى عند الأوروبيين قمة التأخر، والقرون الوسطى عندنا قمة التقدم، وكانوا يومها متمسكين بدينهم، وكنا لا زلنا متمسكين بديننا ومن هنا مفرق الطريق، فحيث كان الإسلام حمل أتباعه على التقدم، وحيث كان غير الإسلام دينًا كان تأخرًا.

أجل ! هذا هو الإسلام يصارع الآن على كل مستوى: شرقًا وغربًا فكرًا وسلوكًا، وهو في كل حال أبدًا غالب، وإن اضطهد المسلمون فذلك لقوة فكرهم لا لشيء آخر^(١).

وما أحد يجهل أن روح الجهاد في قلوب المسلمين هي التي حررت العالم الإسلامي من قبضة مستعمرية في عصرنا هذا. لقد استطاع الإسلام أن يفعل هذا، لأن الأساس الذي بناه رسول الله ﷺ له، خلال ثلاثة وعشرين عامًا، كان من القوة بحيث يناسب كلَّ العصور، ويسع كلَّ العصور.

إن الظاهرة التي نراها في حياة رسول الله ﷺ، أنه خلال عشر سنوات فقط، كان كلُّ جزء من أجزاء دعوته قائمًا يمشي على الأرض على أكمل ما يكون التطبيق، وكل جزء من أجزاء دعوته قابلاً للتطبيق خلال كل عصر، وما مر عصر إلا ورأيت الإسلام مطبقًا بشكل من الأشكال. فإذا ما علمت بأن دعوة سياسية فكرية، تحتاج إلى عشرات السنين حتى تنتشر وتنتصر وقد تطبَّق وقد لا تطبَّق، أدركت أن العملية هنا ليست عملية عادية، وإنما هي شيءٌ خارق للعادة تحسُّ وراءه يدُ الله. وتحسُّ بالتالي أن الدين دينُ الله، وأن محمدًا عبده ورسوله^(٢).

(١) الرسول القائد (١٢/١).

(٢) المرجع السابق (١٣/١).

المبحث الثاني

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وفاة الرسول

وداع الرسول ﷺ لأُمَّته :

❁ خطبة حجة الوداع:

لقد خطب ﷺ خطبةً في موقف عرفة، ويوم الحج الأكبر، وأيام التشريق، أرسى فيها قواعد الإسلام، وهدم مبادئ الجاهلية، وعظّم حُرَمَاتِ المسلمين، خطب الناس وودعهم بعد أن استقر التشريع وكُمّل الدين وتمت النعمة ورضي الله هذا الإسلام دينًا للناس كلهم، لا يقبل من أحدٍ دينًا سواه .

يقول سبحانه وتعالى في هذا اليوم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال - جلّ من قائل -: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ألقي الرسول ﷺ في هذا المقام العظيم كلماتٍ جامعةً موجزة، تحكي المبادئ الكبرى لهذا الدين، وأنبياءُ الله حين يبلغون رسالات الله ليسوا تجارَ كلام، وإنما كلامهم حقٌّ وشفاءٌ لما في الصدور ودواءٌ لما في القلوب.

في حجة الوداع هذه ثبت النبي ﷺ في نفوس المسلمين أصولَ الديانة الإسلامية، وقواعد الشريعة، ونبه بالقضايا الكبرى على الجزئيات الصغرى، ولقد كانت عبارات توديعية بألفاظها ومعانيها وشمولها وإيجازها، أشهد الناس فيها على البلاغ، كان من خلال تبليغه كلماتٍ يمتلئ حبًا ونصحًا وإخلاصًا ورأفةً بالناس، يقول الله جلّ في علاه: ﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

لقد عانى وكابد من أجل إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، حتى صنع منهم - بإذن ربه - أمةً جديدة ذات أهداف واضحة ومبادئ سامية، هداهم من ضلال، وجمعهم بعد فرقة، وعلمهم بعد جهل. وهذه وقفاتٌ مع بعض هذه الأسس الإسلامية، والقواعد النبوية، والأصول المحمدية.

إن أول شيء أكد عليه هو النهي عن أمر الجاهلية وخاصة الشرك بالله؛ فلقد جاء بكلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» التي هي شعار الإسلام وَعَلَّمَ الْمَلَّةَ، كلمة تُخلع بها جميعُ الآلهة الباطلة، ويثبت بها استحقاق الله وحده للعبادة، فالله هو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرازق وما سواه مرزوق، وهو القاهر وما سواه مقهور، هذا هو دليل التوحيد وطريقه .

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، الأموات قد أفضوا إلى ما قدموا، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، يقول سبحانه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

ومن القضايا التي جاء التأكيد عليها: أن الناس متساوون في التكاليف حقوقاً وواجبات، لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى، لا تفاضل في نسب ولا تمايز في لون، فالنزاعات العنصرية والنعرات الوطنية ضربٌ من الإفك والدجل، ومن الواقع الرديء في عصرنا أن توصف حضارة اليوم بحضارة العنصريات والقوميات، والشعوب الموصوفة بالتقدم تضمّر في نفسها احتقاراً لأبناء القارات الأخرى، ولم تفلح في الحد منها الموثيق ولا المعاهدات الدولية .

فإنك ترى هذا التمييز يتنفس بقوة من خلال المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويأتي نبينا محمداً لينبئه منذ مئات السنين على ضلال هذا المسلك،

وَيُعْلَنَ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ: أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجْمِي وَلَا عَجْمِي عَلَى عَرَبِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(١).

وفي روايةٍ عند الطبراني عن العداء بن خالد قال: قعدت تحت منبر الرسول يوم حجة الوداع، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ إِذْ أَنْتُمْ عَلَى اللَّهِ أَعْيُنٌ حَيْرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، فليس لعربيٍّ على عجميٍّ فضل، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ فضل، ولا لأسودٍ على أبيض، ولا لأبيضٍ على أسود، فضل إلا بالتقوى. يا معشر قريش: لا تغيثوني بالدنيا تحملونها على أعناقكم، وتجيء الناس بالآخرة، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً»^(٢).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر، والله الحمد.

قضية حفظ النفوس وصيانة الدماء من القضايا الخطيرة التي أثارها خطاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأمة في كلماته التوجيهية، ذلكم حكم القصاص في النفس والجراحات، كان من حكمه التشريعية زجر المجرمين عن العدوان.

وقد عجزت الأمم المعاصرة بتقدمها وتقنية وسائلها أن توقف سيل الجرائم وإزهاق النفوس، وزاد سوءها وانكشفت سواتها حين ألغيت عقوبة القصاص من المجرمين، واكتفت بعقوبات هزيلة؛ بزعم استصلاح المجرمين، وما زاد المجرمين إلا عتوا واستكباراً في الأرض، ولكنه في شرع محمد محسوم بالقصاص العادل، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

إن في القصاص حياةً حين يكف من يهّم بالجريمة عن الإجرام، وفي القصاص حياةً حين تشفى صدور أولياء القتيل من الثأر الذي لا يقف عند حد، لا في القديم

(١) أحمد، حديث رقم (٢٣٤٨٩) قال مخرجه: «إسناده صحيح».

(٢) رواه الطبراني (١٨/١٣).

ولا في الحديث، تأثرٌ مثيرٌ للأحقاد العائلية والعصبيات القبلية، يتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل، لا تكفّ معه الدماء عن المسيل.

وتأتي شريعة محمد في هذا الموقف العظيم، وفي إلغاء حكم جاهلي، هو مسألة الثأر، فاستمع إليه وهو يقول: «ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة»^(١).

يقف الرسول في خطبة الوداع، منبهاً أمته على أمرٍ حاسم بشكل جازم قائلاً: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله»^(٢)، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض^(٣)، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبدَهُ المصلون، ولكن في التحريش بينهم»^(٤).

إنه تحذيرٌ مبكر من الرؤوف الرحيم للمؤمنين، من فناء ذريع، إذا استسلمت الأمة للخلاف واسترسلت في الغفلة عن سنن الله، والجهل بما يحيكه الشيطان وإخوان الشيطان من مؤامرات، إنها وصايا أودعها النبيُّ ضمائر الناس.

وإذا كان الإسلام في عهد النبي ﷺ قد دفنَ النعرات الجاهلية والعصبيات الدموية، والشيطان قد يئس أن يُعبد في ذلك العهد، لكننا نخشى تجدد آماله في هذه العصور المتأخرة، نعم يمكن أن تتجدد آماله في الفرقة والتمزيق، فالعالم الإسلامي اليوم تتوزعه عشرات القوميات، وتمشي جماهيره تحت عشرات الرايات، وهي قوميات ذات توجهاتٍ هدامة، ما جلبت لأهلها إلا الذل والصغار والفرقة والتمزق.

(١) انظر: شرح النووي (٤/٤٤٧).

(٢) مسلم، حديث رقم (ص ٨٨٩).

(٣) مسلم، حديث رقم (١/٨٢).

(٤) مسلم، حديث رقم (٤/٢١٦٦).

ما أحوَجَ الأمةَ إلى مثل هذه الدروس التي يعرضها لنا رسولنا ﷺ، وأن تتكرر الروح التي سادت حجة الوداع لكي تشيع هذه الكثرة العددية بين المسلمين اليوم، بكثافةٍ نوعية وطاقاتٍ روحية؟! أما يحج المسلمون ليشهدوا منافع لهم تمحو فرقتهم، وتُسوي صفوفهم، وتردُّ مهابتهم؟!.

إن الحج العظيم في معناه الكبير يكون فيه الشيطان وأعوانه أصغر وأحقر، فيغيظ أعداء الله، ويرجعون خاسئين ناكسين على أعقابهم مذمومين مدحورين، يغيظ الكفار حين يرون جموع هذه الأمة وقد استسلمت لربها وأطاعت نبيها واجتمعت كلمتها. فيا أيها الناس: اعبدوا ربكم كما أوصى نبيكم، وأقيموا حَمْسَكُمْ، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم.

المصاب الجلل (وفاة النبي ﷺ):

لقد جاءت بعض الآيات القرآنية مؤكدة على حقيقة بشرية النبي ﷺ، وأنه كغيره من البشر سوف يذوق الموت ويعاني سكراته، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء، ولقد فهم ﷺ من بعض الآيات اقتراب أجله، وقد أشار ﷺ في طائفة من الأحاديث الصحيحة إلى اقتراب وفاته، منها ما هو صريح الدلالة على الوفاة، ومنها ما ليس كذلك، حيث لم يشعر بذلك منها إلا الآحاد من كبار الصحابة الأجلاء، كأبي بكر والعباس ومعاذ رضي الله عنهم (١).

الآيات والأحاديث التي أشارت إلى وفاته ﷺ:

أولا: الآيات التي أشارت إلى وفاته ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].



(١) انظر: مرض النبي ووفاته، خالد أبو صالح، (ص ٣٣).

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: «فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبداً، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل، وإن فقد الرسل بموت أو قتل»^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. قال ابن كثير: «هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق ﷺ عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ثم أعقب ذلك ببيان أن الموت حتم لازم وقدر سابق، فقال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمْ بِالْحَسْرِ وَالْحَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فهذه الآيات صريحة، ونصت على وفاته ﷺ، وهناك بعض الآيات أشارت إلى ذلك، وإن لم تصرح، منها:

قال تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۗ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٤-٥].

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصاص: ٨٨].

فهذه الآيات تبين أن جميع أهل الأرض ستمضي فيهم سنة الله في موت خلقه لن يتخلف منهم أحد أبداً.

(١) انظر: تفسير القرطبي، (٤/٢٢٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٣).

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلَ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ
لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد بكى عمر بن الخطاب حين نزلت الآية، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنه ليس
بعد الكمال إلا النقصان. وكأنه استشعر وفاة النبي ﷺ^(١).

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي
دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ۖ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾
[النصر: ١-٣].

فقد سأل عمر رضي الله عنه ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم^(٢)، وفي
رواية الطبراني قال ابن عباس: نعت إلى رسول الله ﷺ نفسه حين نزلت، فأخذ
بأشد ما كان قط اجتهادا في أمر الآخرة^(٣).

ثانيا: الأحاديث التي أشارت إلى وفاته ﷺ:

قالت عائشة رضي الله عنها: «اجتمع نساء رسول الله ﷺ عنده، لم يغادر منهن
امراة، فجاءت فاطمة تمشي لا تخطى مشيتها مشية أبيها، فقال: مرحبا
يا بنتي فأقعدها يمينه أو شماله، ثم سارها فبكت، ثم سارها فضحكت،
فقلت لها: خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين؟ فلما أن قامت قلت
لها أخبريني ما سارك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر الرسول ﷺ.

(١) انظر: البداية والنهاية (١٨٩/٥).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦٢٧).

(٣) رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (١١٩٠٣) والأوسط وأحد أسانيد رجاله ثقات قاله الهيثمي.

فلما توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحق لما أخبرتني، قالت: أما الآن فنعم، قالت: سارني في الأول، قال لي: إن جبريل كان يعارضني في القرآن كل سنة مرة، وقد عارضني في هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري، فنعم السلف أنا لك، فبكيت، ثم سارني فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟ فضحكت^(١).

وفي هذا الحديث دليل قاطع وإشارة واضحة إلى اقتراب أجل رسول الله ﷺ، وأن ساعة الفراق قد باتت قريبة، إلا أن النبي ﷺ قد اختص ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلم ذلك، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ^(٢).

قال جابر: رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: «لتأخذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلّي لا أحجُّ بعد حجتي هذه»^(٣).

قال النووي: «فيه إشارة إلى توديعهم وإعلامهم بقرب وفاته ﷺ، وحثهم على الاعتناء بالأخذ عنه، وانتهاز الفرصة من ملازمته، وتعلم أمور الدين، وبهذا سميت حجة الوداع»^(٤).

وقال ابن رجب: «وما زال ﷺ يُعَرِّضُ باقتراب أجله في آخر عمره، فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس: خذوا عني مناسككم، فلعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، فطفق يودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع»^(٥).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٢٨٥، ٦٢٨٦).

(٢) انظر: مرض النبي ﷺ ووفاته، (ص ٣٥).

(٣) مسلم، كتاب الحج، حديث رقم (١٢٩٧).

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٤٥/٩).

(٥) انظر: لطائف المعارف، (ص ١٠٥).

قال أبو سعيد الخدري: خطب الرسول ﷺ الناس وقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ذلك العبد ما عند الله» قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر الرسول ﷺ عن عبد خيّر، فكان الرسول ﷺ هو المخيّر، وكان أبو بكر أعلمنا^(١).

قال الحافظ ابن حجر: «وكان أبا بكر فهمَ الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه؛ فلذلك بكى^(٢)».

قال العباس بن عبد المطلب: رأيت في المنام كأن الأرض تنزع إلى السماء^(٣). بأشطان^(٤) شدادٍ، فقصصت ذلك على النبي ﷺ فقال: «ذاك وفاة ابن أخيك»^(٥)، وفي هذا الحديث إخبار النبي ﷺ بقرب وفاته، وفيه صدق رؤيا المؤمن، واستشعار بعض الصحابة وفاته^(٦).

وعن معاذ أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن خرج راكباً والنبي ﷺ يمشي تحت راحلته فقال: يا معاذ، عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، فتمر بقبري ومسجدي فبكى معاذ لفراقه^(٧)، فقال: لا تبك يا معاذ؛ فإن البكاء من الشيطان^(٧) وفي الحديث إخبار النبي ﷺ بمعاذ بن جبل باقتراب أجله، وأنه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا، وفيه شدة محبة الصحابة للنبي ﷺ، وبكاؤهم إذا ذكروا فراقه^(٨).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦٥٤). (٢) فتح الباري (١٢/٧).

(٣) تنزع إلى السماء: أي تجذب، وأصل النزاع: الجذب والقلع.

(٤) بأشطان شداد: الأشطان جمع شطن وهو الحبل..

(٥) البزار (١/٣٩٧)، كشف الأستار (رقم ٨٤٤)، مجمع الزوائد (٢٤/٩) رجاله ثقات.

(٦) انظر: مرض النبي ﷺ ووفاته، (ص ٣٧).

(٧) مجمع الزوائد (٩/٢٢) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٢٤٩٧).

(٨) انظر: مرض النبي ﷺ ووفاته، (ص ٣٨).

وقد نبّه النبي ﷺ إلى عِظَمِ هذه المصيبة التي حلت بالمسلمين فقال: «يا أيها الناس أيّما أحدّ من الناس أو من المؤمنين أُصيب بمصيبة، فليتعرّز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشدّ عليه من مصيبتِي»^(١)، قال السندي: «فليتعرّز» ويخفّف على نفسه مؤونة تلك المصيبة بتذكّر هذه المصيبة العظيمة، إذ الصّغيرة تضمحلّ في جنب الكبيرة فحيث صبر على الكبيرة لا ينبغي أن يبالى بالصّغيرة^(٢).

وها هي أم أيمن رضي الله عنها بكت حين مات النبي ﷺ، فقيل لها تبكين؟! فقالت: «إني - والله - قد علمت أن رسول الله ﷺ سيّموت، ولكن إنما أبكي على الوحي الذي انقطع عنا من السماء»^(٣).

وعن أبي بردة رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: «النجوم أمانةٌ للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما تُوعد، وأنا أمانةٌ لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»^(٤).

قال النووي: «وأنا أمانةٌ لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون» أي: من الفتن والحروب، وارتداد من ارتدّ من الأعراب، واختلاف القلوب، ونحو ذلك ممّا أُنذر به صريحًا، وقد وقع كلّ ذلك^(٤).

(١) ابن ماجه، حديث رقم (١٥٩٩).

(٢) الدارمي في المقدمة باب ١٤.

(٣) مسلم، حديث رقم (٢٥٣١).

(٤) شرح النووي (١٨/٨٣).

قال أبو العتاهية^(١):

اصبر لكل مصيبة وتجلّد واعلم بأن المرء غير مخلّد
من لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبة هذا قبيل لست فيه بأوحد
أو ما ترى أن المصائب جمّة وترى المنية للعباد بمرصد
فإذا أتت مصيبة تشجى بها فاذكر مُصَابِكَ بالنبي محمد

استشعاره ﷺ اقتراب أجله:

أخبر النبي ﷺ باقتراب أجله في آيات عدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۗ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

عن ابن عمر رضي الله عنهما ما قال: أنزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، وعرف أنه الوداع^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما أن عمر رضي الله عنه سألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: «أجلٌ أو مثلٌ ضرب لمحمد ﷺ نعت له نفسه»^(٣).

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر، فقيه محروس الخولي (ص ٣٤٨) القسم الثاني.

(٢) سنن البيهقي (١٥٢/٥).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٦٩).

وقال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِيمَانِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن العربي: «وما من شيء في الدنيا يكمل إلا وجاءه النقصان ليكون الكمال الذي يراد به وجه الله»^(١).

وقد أشعر النبي ﷺ أصحابه في أكثر من موطن بقرب أجله وانتقاله إلى جوار ربه، فعن معاذ بن جبل قال لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال: «يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا» - أو قال: - «لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري»، فبكى معاذُ جزعاً لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا وحيث كانوا»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: مرحباً بابنتي، ثم اجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكت، فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت، فقلت: ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن، فسألته عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، حتى قبض النبي ﷺ فسألته، فقالت: أسرَّ إليّ: إن جبريل يعود يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيْتُ، فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين، فضحكتُ لذلك»^(٣).

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمرهم أن يرموا بمثل حصي الحذف، وقال: «لعلِّي لا أراكم بعد عامي هذا»^(٤).

(١) العواصم من القواصم (ص ٥٩). (٢) مسند أحمد، حديث رقم (٢٢٠٥٢).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦٢٣)، مسلم، حديث رقم (٢٤٥٠).

(٤) سنن الترمذي، حديث رقم (٨٨٦).

بداية المرض بالنبي ﷺ وسببه :

يعود سبب مرض النبي ﷺ إلى تأثره بالسم الذي دسسته له اليهودية في الشاة المشوية التي دعتة إليها، ولما أكل رسول الله ﷺ وأصحابه منها أحسَّ بالسم فقال: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»، ثم قال في وجعه الذي مات فيه: «مازلت أجدُ من الأكلة التي أكلت بخير، فهذا أوان قطعتُ أبهري»^(١).

قال في النهاية: «الأبهر عرق في الظهر وهما أبهران، وقيل: هما الأكلان اللذان في الذراعين، وقيل: هو عرق مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق معه حياة»^(٢).

وفي الحديث أن أم مبشر دخلت على رسول الله ﷺ في وجعه الذي قبض فيه، فقالت: بأبي وأمي يا رسول الله، ما تتهم بنفسك؟ فإني لا أتهم إلا الطعام الذي أكل معك بخير، وكان ابنها مات قبل النبي ﷺ، قال: «أنا لا أتهم غيره، هذا أوان قطع أبهري»^(٣). فجمع الله لنبيه ﷺ بين الشهادة على يد قتلة الأنبياء من اليهود وهي أكرم الميتات، وبين المرض والحمة وفيهما ما فيهما من رفع الدرجات.

بدء الشكوى :

رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع في ذي الحجة، فأقام بالمدينة بقيته والمحرم وصفرًا، من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش أسامة، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجهز الناس وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان منهم أبو بكر وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن

(١) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٥١٣).

(٢) انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود (٢٣٣/١٢).

(٣) أبو داود، السنن، حديث رقم (٤٥١٣).

ثمانية عشرة سنةً، وتكلم البعض في تأميره وهو مولى وصغير السن على كبار المهاجرين والأنصار .

فلم يقبل الرسول ﷺ طعنهم في إمارة أسامة^(١)، فقال ﷺ: «إن يطعنوا في إمارته فقد طعنوا في إمارة أبيه، وإيّم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليّ، وإن ابنه هذا لمن أحب الناس إليّ بعده»^(٢)، وبينما الناس يستعدّون للجهاد في جيش أسامة، ابتداءً رسول الله ﷺ شكواه الذي قبضه الله فيه، وقد حدثت حوادث ما بين مرضه ووفاته منها:

❁ صلواته ﷺ على قتلى أحد، واستغفاره لأهل البقيع:

ومن حديث عقبة بن عامر الجهني قال: إن رسول الله ﷺ صلى على قتلى أحد بعد ثمانين سنين، كالمودّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: «إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه وأنا في مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها»، فقال عقبة: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ^(٣).

وعن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: «بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة^(٤) شر من الأولى، ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا مويهبة، إني قد

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٥٢).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٧٣٠).

(٣) البخاري، حديث رقم (٤٠٤٢)، ومسلم، حديث رقم (٢٢٩٦).

(٤) أي الفتن الآخرة.

أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخبرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه»^(١).

ومن الدروس المستفادة هنا استحباب زيارة قبور الشهداء بأحدٍ، وقبور أهل البقيع، والدعاء لهم بشرط عدم شد الرحال، وعدم إحداث البدع.

❁ استئذانه عائشة رضي الله عنها أن يمرض في بيت عائشة وشدة المرض الذي نزل به:

قالت عائشة رضي الله عنها: «لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد وجعه، استأذن أزواجه في أن يمرض في بيتي، فأذن له، فخرج وهو بين رجلين، تخط رجلاه في الأرض، بين عباس ورجل آخر^(٢)، ولما دخل بيتي اشتد وجعه، قال: أهريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس، فأجلسنا في مخضب^(٣) لحفصة، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن، ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم»^(٤).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت رجلاً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ»،^(٥) وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: أجل: إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين،

(١) الحاكم في المستدرک (٣/٥٥، ٥٦)، صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٤٤٢).

(٣) مخضب: بكسر الميم وهي الإجانة التي تغسل فيها الثياب.

(٤) قال ابن عباس: الرجل الآخر هو علي بن أبي طالب.

(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٦٩٥).

فقال رسول الله ﷺ: أجل، ثم قال رسول الله ﷺ: ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حَطَّ الله به سيئاته، كما تحطُّ الشجرة ورقها»^(١).

وأما أول معالم عودِ المرض إليه ﷺ، فكان بعد رجوعه من دفن أحد أصحابه، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: رجع إليَّ رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة بالقيع، وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، قال: «بل أنا وارأساه»، قال: «ما ضرك لو متُّ قبلي فغسلتُك وكفنتُك ثم صليتُ عليك ودفنتُك»، قلت: لكني - أو لكأني - بك والله لو فعلت ذلك لقد رجعتَ إلى بيتي فأعرستَ فيه ببعض نساءك، قالت: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم بُدئ بوجعه الذي مات فيه^(٢).

ومن الدروس المستفادة من هذا الموضوع جواز استئذان الرجل زوجته أن يُمرَّض في بيت إحداهن، إذا كان الانتقال يشقُّ عليه، وإذا لم يأذن فحينئذ يقرع بينهن.

❁ تخيير النبي ﷺ بين الدنيا وبين ما عند الله:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «إن الله خيرٌ عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختر ذلك العبد ما عند الله»، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا^(٣).

وتقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبيٌّ قطُّ حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير، فلما اشتكى وحضره القبضُ ورأسه على فخذ عائشة غُشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت

(١) البخاري، كتاب المرض، باب شدة المرض، حديث رقم (٥٦٦٠).

(٢) أحمد، حديث رقم (٢٥٩٨٠)، وابن ماجه، حديث رقم (١٤٦٥).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦٥٤)، مسلم، حديث رقم (٢٣٨٢).

ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى، فقلت: إذا لا يجاورنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من نبي يمرض إلا خيّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحّة شديدة فسمعتة يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فعلمت أنه خيّر^(٢).

واختلف العلماء في مراده صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى على أقوال، فقيل: الله عز وجل، وقيل: ملائكته، وقيل: أنبيأؤه، وقيل: الجنة، ولكل منها دليل.

قال ابن حجر: «قال الجوهري: الرفيق الأعلى الجنة، ويؤيده ما وقع عند أبي إسحاق: الرفيق الأعلى الجنة، وقيل: بل الرفيق هنا اسم جنس يشمل الواحد وما فوقه، والمراد الأنبياء ومن ذكر في الآية، وقد ختمت بقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾... وزعم بعض المغاربة أنه يحتمل أن يراد بالرفيق الأعلى الله عز وجل لأنه من أسمائه.

كما أخرج أبو داود من حديث عبد الله بن مغفل رفعه: «إن الله رفيق يحب الرفق»، كذا اقتصر عليه، والحديث عند مسلم عن عائشة فعزوه إليه أولى.

قال: والرفيق يحتمل أن يكون صفة ذات كالحكيم، أو صفة فعل. قال: ويحتمل أن يراد به حضرة القدس، ويحتمل أن يراد به الجماعة المذكورون في آية النساء، ومعنى كونهم رفيقاً: تعاونهم على طاعة الله، وارتفاق بعضهم ببعض، وهذا الثالث هو المعتمد، وعليه اقتصر أكثر الشراح^(٣).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٤٣٧).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٥٨٦)، ومسلم، حديث رقم (٢٤٤٤).

(٣) فتح الباري (١٣٧/٨).

مدة مرضه ﷺ :

قال ابن حجر: « اختلف أيضاً في مدة مرضه ﷺ، فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يوماً، وقيل بزيادة يوم وقيل بنقصه... وقيل: عشرة أيام، وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح^(١)».



(١) فتح الباري (٧/٧٢٩).

المبحث الثالث

وصايا النبي في مرض وفاته

لا ريب أن أقوال النبي ﷺ جميعاً موضع للعبرة والعظة، لكنه ﷺ اختص أمته ببعض النصائح، وهو في مرض موته، وهو مقبل على الآخرة مدبر عن الدنيا، فما هي آخر وصاياه ﷺ؟.

١. إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد:

عن عائشة رضي الله عنها: «عن النبي ﷺ أنه قال في مرضه الذي مات فيه: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مسجداً، قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنني أخشى أن يتخذ مسجداً»^(١).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «يوم الخميس، وما يوم الخميس!، ثم بكى حتى بلّ دمه الحصى، قلت: يا أبا عباس، ما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: ائتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع... فقال: دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه، فأوصاهم بثلاث، قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، والثالثة خير، إما أن سكت عنها، وإما أن قالها فنسيتها»^(٢).

ومن الدروس المستفادة هنا هي وجوب إخراج المشركين من جزيرة العرب؛

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (١٣٣٠)، مسلم، حديث رقم (٥٣١).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٠٥٣)، مسلم، حديث رقم (١٦٣٧).

لأن النبي ﷺ أوصى بذلك عند موته، وقد أخرجهم عمر ﷺ في بداية خلافته، أما أبو بكر فقد انشغل بحروب الردة.

٢. وصيته ﷺ بالأنصار ﷺ:

وعن ابن عباس ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه بملحفة، قد عُصِبَ بعصابة دسماء حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الناس يكثرون ويقلُّ الأنصارُ، حتى يكونوا في الناس بمنزلة الملح في الطعام، فمن ولي منكم شيئاً، يضر فيه قومًا وينفع فيه آخرين، فليقبل من مُحسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، فكان آخر مجلس جلس به النبي ﷺ»^(١).

٣. الرؤيا من مبشرات النبوة:

وعن ابن عباس ﷺ قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راکعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموها فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم»^(٢).

٤. الوصية بالصلاة وما ملكت أيمانكم:

وعن أم سلمة ﷺ «أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: الصلاة وما ملكت أيمانكم، فما زال يقولها حتى ما يفيضُ بها لسانه»^(٣).

قال السندي: «قوله: «الصلاة» أي: الزموها واهتموا بشأنها ولا تغفلوا عنها، «وما ملكت أيمانكم» من الأموال أي: أدوا زكاتها ولا تسامحوا فيها... ويحتمل

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦٢٨).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٩٩٠) مختصرًا، وأخرجه أحمد، حديث رقم (١٩٠٠) بهذا اللفظ.

(٣) ابن ماجه، حديث رقم (١٦٢٥).

أن يكون وصية بالعبيد والإماء أي: أدوا حقوقهم وحسن ملكتهم، فإن المتبادر من لفظ: ما ملكت الأيمان في عرف القرآن هم العبيد والإماء، قوله: «حتى ما يفيض بها لسانه» أي: ما يجري ولا يسيل بهذه الكلمة لسانه، من فاض الماء إذا سال وجرى حتى لم يقدر على الإفصاح بهذه الكلمة»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: «الصلوة وما ملكت أيمانكم»^(٢).

أهمية الصلاة؛ لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ ولهذا أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم عند موته، أثناء الغرغرة.

٥. القيام بحقوق المالك والخدم ومن كان تحت الولاية:

لأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك فقال: «الصلوة الصلاة وما ملكت أيمانكم».

٦. إحسان الظن بالله:

قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث: «أحسنوا الظن بالله عز وجل»^(٣).

اليوم الأخير من حياته صلى الله عليه وسلم:

عن أنس بن مالك الأنصاري أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر الحجره ينظر إلينا، وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفنتن من الفرح برؤية النبي صلى الله عليه وسلم، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف، وظن أن

(١) حاشية السندي على ابن ماجه، حديث رقم (١٦٢٥).

(٢) ابن ماجه، حديث رقم (٢٦٩٧).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢٠٤/٧.

النَّبِيِّ ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النَّبِيُّ ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر، فتوفي من يومه^(١)، وفي رواية أخرى: وتوفي من آخر ذلك اليوم^(٢).

قال ابن كثير: «وهذا الحديث في الصحيح، وهو يدل على أن الوفاة وقعت بعد الزوال، وذهب النووي وابن رجب إلى أنه توفي ضحى ذلك اليوم^(٣)، وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سَحْرِي ونَحْرِي، وأن الله جمع بين ريقِي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن ويده السواك، وأنا مسندةُ رسول الله ﷺ، فرأيتُه ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك، فأشار برأسه أن نعم، فليئته فأمره وبين يديه ركوة أو علة - يشك عمر - فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، ثم نصب يده فجعل يقول: في الرفيق الأعلى، حتى قبضَ ومالت يده^(٤)».

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الله عز وجل تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته حتى توفي، وأكثر ما كان الوحي يومَ توفي رسول الله ﷺ^(٥).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت وهو مسند إلى صدرها وأصغت إليه وهو يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحطني بالرفيق^(٦)».

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٨٠)؛ مسلم، حديث رقم (٤١٩).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٧٥٤).

(٣) البداية (٢٢٣/٥) وانظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (ص ٢٣)، لطائف المعارف (ص ١١٣).

(٤) البخاري، حديث رقم (٤٤٤٩).

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٨٢)؛ صحيح مسلم، حديث رقم (٣٠١٦).

(٦) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٤٤٠)؛ صحيح مسلم، حديث رقم (٢٤٤٤).

قالت: فلما نزل به ورأسه على فخذي غُشِيَ عليه، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى»، قالت: فكانت آخر كلمة تكلم بها «اللهم الرفيق الأعلى»^(١).

قال ابن حجر: «وكانت وفاته يوم الاثنين بلا خلاف من ربيع الأول، وكاد يكون إجماعاً... ثم عند ابن إسحاق والجمهور أنها في الثاني عشر منه، وعند موسى بن عقبة والليث والخوارزمي وابن زبر مات لهلال ربيع الأول، وعند أبي مخنف والكلبي في ثانيه ورجحه السهيلي»، وهذا الأخير هو الذي اعتمده الحافظ^(٢).

ومن الدروس المستفادة من هذا لموضوع، والتي انتفعت بها الأمة فيما بعد ما يلي:

✿ إذا تأخر الإمام تأخراً يسيراً ينتظر، فإذا شق الانتظار صلى أقرأ الحاضرين.

✿ فضل أبي بكر وترجيحه على جميع الصحابة رضي الله عنهم، والإشارة إلى أنه أحق بالخلافة من غيره؛ لأن الصلاة بالناس للخليفة؛ ولأن الصحابة رضي الله عنهم قالوا: «رضينا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا».

✿ إذا عَرَضَ للإمام عارضٌ، أو شُغِلَ بأمر لا بد منه منعه من حضور الجماعة؛ فإنه يستخلف من يصلي بهم ويكون أفضلهم.

عمر النبي صلى الله عليه وسلم حين وفاته:

وكانت وفاته يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من هجرته صلى الله عليه وسلم. فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو ابن ثلاث وستين^(٣). وصحَّ مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما^(٤).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٣٤٨)؛ صحيح مسلم، حديث رقم (٢٤٤٤).

(٢) فتح الباري (٨/١٣٠).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٤٦٦)؛ مسلم، حديث رقم (٢٣٤٩).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٩٠٣).

وفي رواية أخرى عن ابن عباس: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين^(١).
وصح عن أنس ﷺ أنها ستون سنة^(٢).

وجمع النووي بين الأقوال، فقال: «توفي ﷺ وله ثلاث وستون سنة، وقيل: خمس وستون سنة، وقيل: ستون سنة، والأول أصح وأشهر، وقد جاءت الأقوال الثلاثة في الصحيح.

قال العلماء: الجمع بين الروايات أن من روى ستين لم يعد معها الكسور، ومن روى خمسا وستين عدّ سنتي المولد والوفاة، ومن روى ثلاثا وستين لم يعدهما، والصحيح ثلاث وستون^(٣).

هول الفاجعة وموقف أبي بكر منها:

قال ابن رجب: «ولما توفي اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهِش فحولط، ومنهم من أُقعد فلم يُطِقِ القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يُطِقِ الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكليّة^(٤).

قال القرطبي مبينا عظم هذه المصيبة وما ترتب عليها من أمور:

«من أعظم المصائب المصيبة في الدين.. قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بي، فإنها أعظم المصائب»^(٥)، وصدق رسول الله ﷺ، لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة، انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب، وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه^(٦).

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٥٣).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٩٠٠).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (ص ٢٣).

(٤) لطائف المعارف (ص ١١٤).

(٥) انظر: السلسلة الصحيحة للألباني، رقم (١١٠٦).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٧٦).

لقد أذهل نباءُ الوفاةِ عمرَ رضي الله عنه؛ فصار يتوعدّ وينذر من يزعم أن النبي مات، ويقول: ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات^(٧).

ولما سمع أبو بكر الخبير أقبل على فرس من مسكنه بالسنع، حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيّم رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي! والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي عليك فقد متّها^(٨)، وخرج أبو بكر وعمر يتكلم، فقال: اجلس يا عمر، وهو ماضٍ في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في الناس خطيباً بعد أن حمد الله وأثنى عليه فقال:

أما بعد: فإن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها؛ فهويتُ إلى الأرض ما تحملني قدماي، وعلمت أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قد مات.

قال القرطبي: "هذه الآية أدلُّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته، فإن الشجاعة والجراءة حدُّهما ثبوتُ القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي صلّى الله عليه وآله، فظهرت شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله صلّى الله عليه وآله".

(٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبه (٢/٥٩٤).

(٨) صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث رقم (٤٤٥٢).

ومنهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسنع^(١).

فرحم الله الصديق الأكبر، كم من مصيبة درأها عن الأمة! وكم من فتنة كان المخرج فيها على يديه! وكم من مشكلة ومعضلة كشفها بشهب الأدلة من القرآن والسنة، التي خفيت على مثل عمر ﷺ! فاعرفوا للصديق حقه، واقدروا له قدره، وأحبوا حبيب رسول الله ﷺ، فحبه إيمان وبغضه نفاق^(٢).

وعن أنس أن فاطمة بكت على رسول الله ﷺ حين مات فقالت: «يا أبتاه، من ربه ما أدناه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه»^(٣).

ويقول أنس ﷺ: «قل ليلة تأتي علي إلا وأنا أرى فيها خليلي ﷺ» ويقول ذلك وتدمع عيناه^(٤).

وعن عائشة ﷺ أن أبا بكر دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه، وقال: «وا نبياه، وا خليلاه، وا صفيّاه»^(٥).

ولما دفن قالت فاطمة عليها السلام: «يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟!»^(٦).

وقال أنس: «فما رأيت يوماً قط أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة، وشهدت وفاته فما رأيت يوماً قط أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي رسول الله ﷺ فيه»^(٧).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/٢٢٢).

(٢) انظر: مرض النبي ووفاته، ص ٢٤.

(٣) النسائي، حديث رقم (١٨٤٤).

(٤) مسند أحمد، حديث رقم (١٣٢٦٧).

(٥) مسند أحمد، حديث رقم (٢٤٠٢٩).

(٦) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٤٦٢).

(٧) أحمد، حديث رقم (١٢٢٣٤).

قال أبو ذؤيب الهذلي: «قدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج أهلوا جميعًا بالإحرام، فقلت: مه؟! فقالوا: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

وقال عثمان: توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحزن عليه رجال من أصحابه حتى كان بعضهم يوسوس، فكنت ممن حزن عليه، فبينما أنا جالس في أُطْمٍ من أطام المدينة - وقد بويع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إذ مر بي عمر فسلم عليّ، فلم أشعر به لما بي من الحزن^(٢).

لكن حزن الصحابة وعظيم المصاب لم يخرجهم عن الصبر والتصبر إلى النواح والجزع، قال قيس بن عاصم: «لا تنوحوا عليّ، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُنَحَّ عليه»^(٣).

الدروس والفوائد والعبر المستفادة من هذا المبحث كثيرة، ومنها:

- ❁ موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم مصيبة أصيب بها المسلمون.
- ❁ إنكار الصحابة قلوبهم بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لفراقهم نزول الوحي وانقطاعه من السماء.
- ❁ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبُّ إلى المسلمين من النفس، والولد، والوالد، والناس أجمعين، وقد ظهر ذلك عند موته بين القريب والبعيد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل وجميع المسلمين.
- ❁ حرص الصحابة على الاقتداء والتأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في كل شيء من أمور الدين، حتى في زيارة النساء كبار السن، كما فعل أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من زيارة أم أيمنَ تأسياً به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كان يزورها.

(١) انظر: الإصابة ١٢/٢٢٦.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/٨٤).

(٣) النسائي (١٨٥١).

بيعة أبي بكر بالخلافة:

وباع المسلمون أبا بكر بالخلافة، في سقيفة بني ساعدة، حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم، وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، ويفارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة، وشملهم منتظم، وعليهم أمير يتولى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه^(١)، والحديث عن بيعة أبي بكر سنتكلم عنه بالتفصيل عند الدخول في عصر الخلفاء الراشدين، إن شاء الله تعالى.

غسل النبي ﷺ وتكفينه ودفنه:

قالت عائشة رضي الله عنها: «لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله، ما ندري أنجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرّد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم، وكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»^(٢).

وعنها رضي الله عنها: «دخلت على أبي بكر رضي الله عنه فقال: في كم كفتم النبي ﷺ؟ قالت: في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة، وقال لها: في أي يوم توفي رسول الله ﷺ؟ قالت: يوم الاثنين، قال: (فأي يوم هذا؟) قالت: يوم الاثنين، قال: (أرجو فيما بيني وبين الليل)، فنظر إلى ثوب عليه كان يمرض فيه، به ردع من زعفران، فقال: (اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين، فكفنونني فيها)، قلت: إن هذا خلق، قال: (إن الحي أحق بالجديد من الميت، إنما هو للمهلة)، فلم يتوف حتى أمسى من ليلة الثلاثاء، ودفن قبل أن يصبح»^(٣).

(١) النسائي، حديث رقم (١٨٥١).

(٢) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص ٤٠٦.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (١٣٨٧).

قال ابن كثير: «والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي يوم الاثنين ودفن ليلة الأربعاء»^(١).

سئل أبو عسيب وقد شهد الصلاة على رسول الله: كيف صَلَّى عليه؟ قال: «فكانوا يدخلون من هذا الباب فيصلون عليه ثم يخرجون من الباب الآخر»^(٢).

وعن سعيد بن المسيب قال: «لما توفي رسول الله وضع على سريره، فكان الناس يدخلون زُمْرًا زُمْرًا يصلّون عليه ويخرجون ولم يؤمهم أحد»^(٣).

قال ابن كثير: «وهذا الصنيع - وهو صلاتهم عليه فُرَادَى لم يؤمهم أحد عليه - أمر مجمع عليه لا خلاف فيه»^(٤).

اختلف المسلمون في موقع دفنه؛ فقال بعضهم: يدفن عند المنبر، وقال آخرون: بالبقيع، وقال قائل: في مصلاه^(٥)، فجاء أبو بكر الصديق فحسم مادة هذا الخلاف أيضا بما سمعه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالت عائشة وابن عباس: لما قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغسلوا في دفنه، فقال أبو بكر: ما نسيت ما سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما قَبَضَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ»، ادفنوه في موضع فراشه^(٦).

وهذا الحديث وإن كان مختلفًا في صحته إلا أن دَفْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موضعه الذي توفي فيه أمرٌ مجمع عليه^(٧).

وقال ابن كثير: «قد علم بالتواتر أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفن في حجرة عائشة التي كانت

(١) البداية (٥/٢٣٧).

(٢) انظر مجمع الزوائد ٤٠/٩.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/٤٣٠).

(٤) البداية (٥/٢٣٢).

(٥) ابن سعد (٢/٢٩٣).

(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص ٧٢٧.

(٧) انظر: مرض النبي ووفاته، ص ١٦٠.

تختص بها، شرقيّ مسجده، في الزاوية الغربية القبليّة من الحجرة، ثم دفن فيها أبو بكر، ثم عمر، ﷺ^(١).

وقد لُحِدَ قبرُ رسول الله ﷺ، وقد أجمع العلماء على أن اللحد والشق^(٢) جائزان، لكن إذا كانت الأرض صلبة، لا ينهار ترابها؛ فاللحد أفضل، وإن كانت رخوة تنهار فالشق أفضل^(٣).

وقد قال الألباني - رحمه الله -: "ويجوز في القبر اللحد والشق لجريان العمل عليهما في عهد النبي ﷺ، ولكن الأول أفضل^(٤)؛ لأن الله تعالى لا يختار لنبيه إلا الأفضل".

وأما صفة قبره فقد كان مستمماً^(٥) أي: مرتفعاً، وذهب جمهور العلماء إلى أن المستحب في بناء القبور هو التسنيم وأنه أفضل من التسطیح^(٦)، وفي المسألة خلاف طويل ليس هذا محله.

وقد قرب ابن القيم رحمه الله بين المذهبين فقال: "وكانت قبور أصحابه لا مُشْرِفَةً، ولا لاطئةً، وهكذا كان قبره الكريم، وقبرا صاحبيه، فقبره ﷺ مستمّ مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء، لا مبني ولا مطين، وهكذا قبرا صاحبيه^(٧) وقد كان قبره ﷺ مرتفعاً قليلاً عن سطح الأرض".

(١) اللحد: الشق الذي يعمل في جانب القبر لوضع الميت.

(٢) والشق: أي يحفر في وسط الأرض.

(٣) انظر: أحكام الجنائز، (ص ١٤٤).

(٤) انظر: مرض النبي ووفاته، (ص ١٦٠) وقد استفدت من هذا الكتاب فائدة كبرى في مبحث مرض ووفاة الرسول.

(٥) انظر: مرض النبي ووفاته، (ص ١٦٤).

(٦) انظر: زاد المعاد (١/٥٢٤).

(٧) انظر: تهذيب السنن لابن القيم (٤/٣٣٨).

أما الذين باشروا دفنه ﷺ فقال ابن إسحاق: وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله (١) ﷺ، وزاد النووي (٢) والمقدسي (٣) العباس، قال النووي: ويقال كان أسامة بن زيد وأوس بن خولي (٤) معهم. ودفن في اللحد، وبني عليه ﷺ في لحده اللين، يقال إنها تسع لبنات، ثم أهالوا التراب (٥).

وأما وقت دفنه: فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه دفن ليلة الأربعاء، قال ابن كثير: «والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنه ﷺ توفي يوم الإثنين، ودفن ليلة الأربعاء» (٦).

لقد كان لوفاة الرسول ﷺ أثر على الصحابة الكرام، فقد قال أنس رضي الله عنه: «وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي - إنا لفي دفنه - حتى أنكرنا قلوبنا» (٧).

ميراثه ﷺ:

عن عمرو بن الحارث رضي الله عنه قال: «ما ترك الرسول ﷺ عند موته: درهما، ولا ديناراً، ولا عبداً، ولا أمةً، ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء (التي كان يركبها) وسلاحه، (وأرضاً بخيبر) جعلها (لابن السبيل) صدقة» (٨).

(١) انظر: تهذيب الأسماء، (ص ٢٣).

(٢) انظر: مختصر السيرة، (ص ٣٥).

(٣) انظر: مرض النبي ووفاته، (ص ١٧٣).

(٤) انظر: تهذيب الأسماء للنووي، (ص ٢٣).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٥/٢٣٧)؛ صحيح السيرة النبوية، (ص ٧٢٨).

(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٧٢٩).

(٧) انظر: مختصر السيرة، (ص ٣٥).

(٨) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٧٣٩).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ترك الرسول ﷺ دينارًا، ولا درهماً، ولا شاة، ولا بعيرًا، ولا أوصى بشيء»^(١).

وقال ﷺ: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»^(٢) وذلك لأنه لم يبعث ﷺ جائبًا للأموال ولا خازنًا، إنما بعث هاديًا، ومبشرًا، ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا، وهذا هو شأن أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام؛ ولهذا قال ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر»^(٣).

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم ذلك، فعن سليمان بن مهران: بينما ابن مسعود رضي الله عنه يومًا معه نفر من أصحابه إذ مرّ أعرابي فقال: على ما اجتمع هؤلاء؟ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «على ميراث محمد ﷺ يقسمونه»^(٤).

فميراث النبي ﷺ هو الكتاب والسنة والعلم وهدية ﷺ؛ ولهذا توفي ﷺ ولم يترك درهماً، ولا دينارًا، ولا عبدًا، ولا أمةً، ولا بعيرًا، ولا شاةً، ولا شيئًا، إلا بغلته وأرضًا جعلها صدقة لابن السبيل.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير»^(٥).

(١) مسلم، حديث رقم (١٦٣٥)، أي: لم يوص بثلث ماله ولا غيره، إذ لم يكن له مال، أما أمور الدين فقد تقدم أنه أوصى بكتاب الله وسنة نبيه، وأهل بيته، وإخراج المشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفد، والصلاة، وملك اليمين، وغير ذلك. انظر: شرح النووي (٩٧/١١).

(٢) البخاري في عدة مواضع من حديث عائشة، ومالك بن أوس، وأبي بكر رضي الله عنهم، برقم (٣٠٩٣، ٣٧١٢، ٤٠٣٦).

(٣) أبو داود، حديث رقم (٣٦٤١)، والترمذي، حديث رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه، حديث رقم (٢٢٣).

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي بسنده في شرف أصحاب الحديث (ص ٤٥).

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٦٨)؛ ومسلم، حديث رقم (١٦٠٣).

وهذا يبين أن النبي ﷺ كان يتقلل من الدنيا، ويستغني عن الناس؛ ولهذا لم يسأل الصحابة أموالهم أو يقترض منهم؛ لأن الصحابة لا يقبلون رهنه وربما لا يقبضون منه الثمن، فعدل إلى معاملة اليهودي؛ لئلا يضيق على أحد من أصحابه ﷺ^(١).

وقد كان ﷺ يصيبه الجوع وهو حي؛ وقد يمر الشهر والشهران وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال عروة لعائشة رضي الله عن الجميع: ما كان يقيتكم؟ قالت: «الأسودان: التمر والماء...»^(٢).

ومع هذا كان يقول ﷺ: «مالي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها»^(٣).

وخلاصة القول: إن من أهم الدروس والفوائد والعبر في هذا الموضوع ما يلي:

✿ الرسول ﷺ لم يبعث لجمع الأموال، وإنما بعث لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ لهذا لم يورث دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورث العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

✿ زهد النبي ﷺ في الدنيا وحطامها الفاني؛ وإنما هو كالراكب الذي استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.

✿ استغناء النبي ﷺ عن سؤال الناس فهو يقترض ويرهن حتى لا يكلف أصحابه؛ ولهذا مات ودرعُه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير.

(١) انظر: شرح النووي ٤٠/١١.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٥٦٧).

(٣) أحمد، حديث رقم (٤٢٠٨) وقال مخرجه: «صحيح».

❁ شدّة الحال وقلة ذات اليد عند النَّبِيِّ ﷺ ؛ ولهذا يمضي الشهر والشهران ولم توقد في أبياته نار، وإنما كان يقيتهم الأسودان.
فصلوات الله وسلامه عليه ما تعاقب الليل والنهار، وأسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا من أتباعه المخلصين، وأن يحشرنا في زمرة يوم الدين.



المبحث الرابع

حقوق الرسول على أمته

للنبي الكريم ﷺ حقوق على أمته وهي كثيرة، منها: الإيمان الصادق به ﷺ قولاً، وفعلاً وتصديقه في كل ما جاء به ﷺ، ووجوب طاعته والحذر من معصيته ﷺ، والتحاكم إليه والرضى بحكمه، وإنزاله منزلته ﷺ بلا غلو ولا تفريط، واتباعه واتخاذة قدوةً وأسوةً في جميع الأمور، ومحبتة أكثر من النفس، والأهل والمال والولد والناس جميعاً، واحترامه وتوقيره ونصر دينه والذب عن سنته ﷺ، والصلاة عليه .

لقوله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه: خلق آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ» فقال رجل: يا رسول الله! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يعني بليت. قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١) ومن الأدلة على هذه الحقوق ما يلي:

الإيمان الصادق به ﷺ وتصديقه فيما أتى به:

قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

(١) أبو داود، حديث رقم (١٠٤٧)، وابن ماجه، حديث رقم (١٠٥٨)، والنسائي (٩١/٣)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٩٧/١)، وأحمد، حديث رقم (١٦١٦٢).

وقال: ﴿قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ آلِ النَّبِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به»^(١).

والإيمان به ﷺ هو التصديق بنبوته، وأن الله أرسله للجن والإنس، وتصديقه في جميع ما جاء به وقاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان، بأنه رسول الله، فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة باللسان، تم الإيمان به والتصديق له ﷺ^(٢).

٢٢ وجوب طاعته ﷺ والحذر من معصيته، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢١).

(٢) انظر: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للفاضل عياض ٥٣٩/٢.

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله»^(١)، وعنه رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قالوا يا رسول الله، ومن أبي؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبي»^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٣).

٣٣ اتباعه صلى الله عليه وسلم واتخاذُه قدوة في جميع الأمور والاقتراء بهديه:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٧١٣٧). (٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٧٢٨٠).

(٣) أحمد في المسند، حديث رقم (٥١١٥)، والبخاري مع الفتح معلقاً (٩٨/٦)، وحسنه العلامة ابن باز، وانظر: صحيح الجامع (٨/٣).

فيجب السير على هديه والتزام سنته والحذر من مخالفته، قال ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

٤ محبته ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٢).

وقد ثبت في الحديث أن من ثواب محبته الاجتماع معه في الجنة، وذلك عندما سأله رجل عن الساعة فقال: «ما أعددت لها؟» قال: لا شيء إلا أنني أحب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت»، قال أنس: فأنا أحب النبي فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت»، قال أنس: النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر. وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم^(٣).

ولما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر»^(٤).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٠٦٣).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (١٥).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦٨٨).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٦٣٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحبَّ قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحبَّ»^(١).

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً»^(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذفَ في النار»^(٣).

ولا شك أن من وفقه الله تعالى لذلك ذاق طعم الإيمان ووجد حلاوته، فيستلذُّ بالطاعة ويتحمل المشقة في رضي الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه رضي به رسولاً، وأحبه، ومن أحبه من قلبه صدقاً أطاعه صلى الله عليه وسلم.

وعلامات محبته صلى الله عليه وسلم تظهر في الاقتداء به صلى الله عليه وسلم، واتباع سنته، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بأدابه، في الشدة والرخاء، وفي العسر واليسر، ولا شك أن من أحب شيئاً آثره، وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه ويكون مدعيًا^(٤).

ولا شك أن من علامات محبته: النصيحة له؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة» قلنا لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٥).

(١) البخاري مع الفتح، حديث رقم (٦١٦٩).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٣٤).

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٤٣).

(٤) انظر: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم (٢/٥٧١-٥٨٢).

(٥) صحيح مسلم، حديث رقم (٥٥).

والنصيحة لرسوله ﷺ: التصديق بنبوته، وطاعته فيما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ومؤازرته، ونصرته وحمايته حيًا وميتًا، وإحياء سنته والعمل بها وتعلمها، وتعليمها والذب عنها، ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة، وآدابه الجميلة^(١).

٥ احترامه وتوقيره ونصرته:

كما قال تعالى: ﴿تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَكُسَبِحُواهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [سورة الفتح: ٩].

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحجرات: ١].

وقال أيضًا: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وحرمة النبي ﷺ بعد موته، وتوقيره لازم كحال حياته وذلك عند ذكر حديثه، وسنته، وسماع اسمه وسيرته، وتعلم سنته، والدعوة إليها، ونصرتها^(٢).

٦ الصلاة عليه ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال ﷺ: « . . من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً »^(٣).

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض ٥٨٢/٢ - ٥٨٤.

(٢) الشفاء (٥٩٥/٢ و ٦١٢).

(٣) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، حديث رقم (٣٨٤).

وقال ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»^(١).

وقال ﷺ: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ»^(٢).

وقال ﷺ: «ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلّوا على نبيّهم إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»^(٣).

وقال ﷺ: «إن لله ملائكةً سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام»^(٤).

وقال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «رغم أنف عبدٍ - أو بعد - ذكرت عنده فلم يصلّ عليك» فقال ﷺ: «آمين»^(٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام»^(٦).

وللصلاة على النبي ﷺ مواطن كثيرة، ذكر منها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى واحدًا وأربعين موطنًا، منها على سبيل المثال: الصلاة عليه ﷺ عند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وبعد إجابة المؤذن، وعند الإقامة، وعند الدعاء، وفي التشهد في الصلاة، وفي صلاة الجنابة، وفي الصباح والمساء، وفي يوم الجمعة، وعند اجتماع القوم قبل تفرقهم.

(١) أبو داود، حديث رقم (٢٠٤٢)، وأحمد، حديث رقم (٨٨٠٤)، وانظر: صحيح أبي داود (٣٨٣/١).

(٢) الترمذي، حديث رقم (٣٥٤٦)، وغيره، وانظر: صحيح الترمذي (١٧٧/٣).

(٣) الترمذي، حديث رقم (٣٣٨٠)، وانظر: صحيح الترمذي (١٤٠/٣).

(٤) سنن النسائي (٤٣/٣) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٧٤/١).

(٥) ابن خزيمة (١٩٢/٣) وأحمد، حديث رقم (٧٤٥١)، وصححه الأرئوط.

(٦) أخرجه أبو داود (٢١٨/٢) برقم (٢٠٤١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٨٣/١).

وفي الخُطْبِ: كخُطْبتي صلاة الجمعة، وعند كتابة اسمه، وفي أثناء صلاة العيدين بين التكبيرات، وآخر دعاء القنوت، وعلى الصفا والمروة، وعند الوقوف على قبره، وعند الهَمِّ والشدائد وطلب المغفرة، وعقبَ الذنب إذا أراد أن يكفّرَ عنه، وغير ذلك من المواطن التي ذكرها رحمه الله في كتابه^(١).

ولو لم يرد في فضل الصلاة على النبي ﷺ إلا حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لكفى: وهو قوله ﷺ: «من صَلَّى عَلَيَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات^(٢)». (كتب الله له بها عشر حسنات)^(٣) وحط عنه بها عشر سيئات، ورفع به بها عشر درجات^(٤).

٧ وجوب التحاكم إليه والرضى بحكمه ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال أيضاً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ويكون التحاكم إلى سنته وشريعته بعده ﷺ.

٨ إنزاله مكانته ﷺ بلا غلو ولا تقصير فهو عبد لله ورسوله:

وهو أفضل الأنبياء والمرسلين، وهو سيد الأولين والآخرين، وهو صاحب

(١) راجع كتاب جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى.

(٢) السياق يقتضي «و».

(٣) هذه الزيادة من حديث طلحة في مسند أحمد (١٦٣٥٢) قال مخرجه: «إسناده ضعيف» لكنه أخرجه برقم (١٦٣٦٣) بلفظ «إلا صليت عليه عشراً»، قال مخرجه: «حسن لغيره».

(٤) أحمد (٢٦١/٣)، وابن حبان الرقم (٢٣٩٠) (موارد)، والحاكم (١/٥٥٠)، وصححه الأرنؤوط في تحقيقه لجلاء الأفهام (ص ٦٥).

المقام المحمود والحوض المورود، ولكنه مع ذلك بشر لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن آتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].
وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

وقد مات ﷺ كغيره من الأنبياء، ولكن دينه باقٍ إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥].

وبهذا يعلم أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۝ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].



هَذَا مَجْلَدٌ

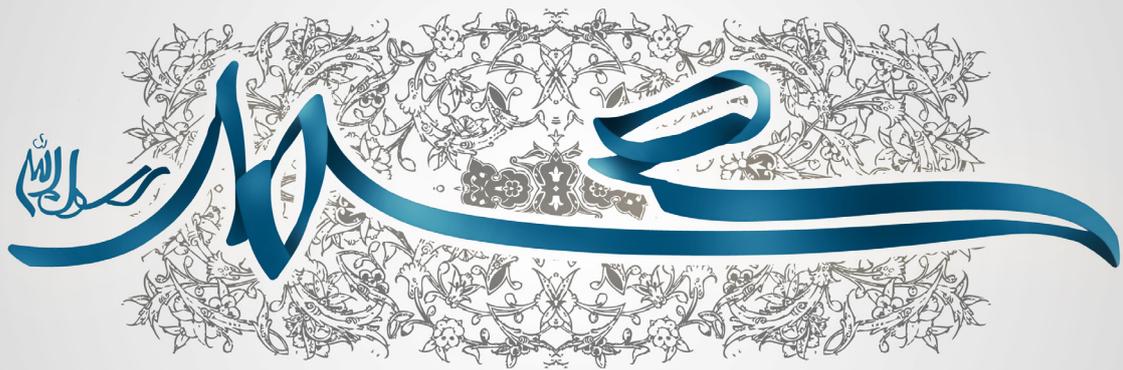
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

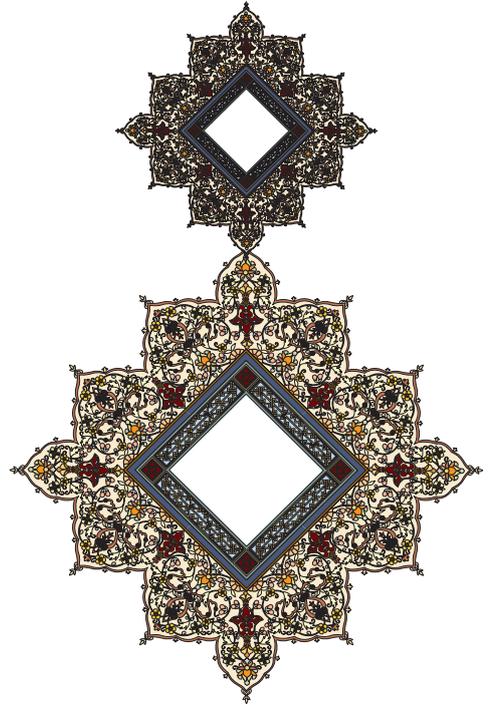


الفصل الخامس

خصائص المصطفى صلى الله عليه وسلم وشمائله







تمهيد

في فترة من فترات التاريخ المظلمة...

التي سادها الجهل ، وأطبق عليها الظلم والطغيان ، وتمادى الإنسان في استعباد أخيه الإنسان ، وانتشر الشرك بالله عزوجل وحرفت الديانات القديمة ، ودخلها كثير من مظاهر الشرك والوثنية ، وذلك لم يكن خاصا ببلد دون بلد ، ولا بأمة دون أمة ، ولكنها كانت فتنة عمّت الأرض ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ومقت الله أهل الأرض ، إلا قلة قليلة ممن كانت تعبد الله على ملّة إبراهيم .

كما صح ذلك عن النبي ﷺ في حديث عياض بن حمار : «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُرَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَّا أَحَلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . . .»^(١).

(١) صحيح مسلم ، حديث رقم (٧٣٨٦).

ولكن رحمة الله بعباده فتحت لهم طريق الهداية، وأعدت الإنسان إلى إنسانيته الحقيقية، وقد كان ذلك بإرسال محمد ﷺ برسالة الإسلام التي ولدت بمولدها البشرية من جديد، فأعدت الإنسان إلى الله، وعمّ العدل وانتشر نور الإيمان.

ورضي - من اعتنق الإسلام - بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وعمّت الرحمة الأرض، والعدل بين بني البشر، وعرف الإنسان كرامة الإنسان، بل وتعدّاه إلى كرامة الحيوان^(١) والنبات^(٢)، وتكامل البناء الحضاري لأمة الإسلام، وانطلقت هذه الأمة لكي تخرج الناس من عبودية العباد والحيوان والجماد إلى عبودية الرحيم الرحمن، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها في العيش، وتحقق لها الأمن النفسي والأمن الاجتماعي.

وأقيمت قواعد البناء الحضاري، وانطلق المسلمون في كل مناطق الأرض، ينشرون هذا الدين بعقيدته النقية الصافية السليمة من الشرك والشك، وأقاموا المساجد لعبادة الله، وصدع المؤذنون بكلمة التوحيد (أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله)، وعمرت بحلقات العلم بكل أنواعه.

فهذا يعلم القرآن، وذلك يروي السنة، وآخر يفهم الناس أصول الفقه وفروعه، وآخر يفتيهم بما يعرض لهم من نوازل، وتجد فيهم من يدرس علم الفلك والرياضيات، وعلوم الطب، في حلقات مفتوحة يحضرها الرجال والنساء، وعاش الإنسان مسلما كان أو معاهدا في أمن وأمان، وفي أعلى درجات كرامة الإنسان.

(١) معجزة الجمل الذي شكى للنبي ﷺ كثرة العمل وقلة القوت؛ فأمرهم أن يحسنوا إليه. أخرجه أحمد (١٧٣)؛ وانظره في: نظم المتناثر من الحديث المتواتر رقم (٢٧١)؛ قال المنذري: وإسناده جيد.

(٢) قال ﷺ: «إن قامت على أحدكم القيامة، وفي يده فسيلة، فليغرسها» أخرجه أحمد (١٨٤/٣) قال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وإليك أخي القارئ طرّفا من خصائص المصطفى ﷺ وشماله، لا يتجاوز عددها المائة، عرضتها عرضا موجزا، ومن يريد الاستزادة والتفصيل والاستقصاء فليرجع إليها في مظانها من كتب الخصائص والفضائل . كالشمائل المحمدية للترمذي، والشفاء للقاضي عياض، والخصائص الكبرى للسيوطي، والخصائص لابن طولون وغيرها من المصادر.

مائة خصيصة من خصائص المصطفى ﷺ وشماله :

عناية الله بمحمد ﷺ حيث صنعه الله على عينه ورعاه منذ ولادته لأنه كان يهيؤه لأمر عظيم : قال الإمام السيوطي^(١) : «أخرج أبو نعيم وابن عساکر عن علي قال : قيل للنبي ﷺ : هل عبدت وثنا قط؟ قال : لا . قالوا : فهل شربت خمرا قط؟ قال : لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر . وما كنت أدري ما الكتاب وما الإيمان».

ثم قال السيوطي : «وأخرج أبو نعيم وابن عساکر من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قام مع بني عمه عند إساف . فرفع رسول الله ﷺ بصره إلى ظهر الكعبة ثم انصرف ؛ فقال له بنو عمه : مالك يا محمد ، قال : نهيت أن أقوم عند هذا الصنم».

كما أورد أنه ﷺ قال : «قلت ليلةً لبعض فتيان مكة ، ونحن في رعاية عن أهلنا ، فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمرَ بها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى . فدخلت حتى إذا جئت أولَ دار من دور مكة ، سمعت عزفا بالغرابيب والمزامير . قلت : ما هذا؟ فقليل : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت؟ قلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذي رأيت ، ثم قلت له ليلة أخرى :

(١) الخصائص الكبرى (١/٨٨-٨٩).

أبصر لي غنمي حتى أسمرَ بمكة، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فجلست أنظر وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء، ثم أخبرته بالخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما الشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته^(١).

ومن هنا فقد عدد الشيخ أسعد صاغرجي من مظاهر هذه الرعاية الإلهية له ما يلي:

- ❁ عصمته عن كشف عورته في طفولته.
- ❁ عصمته من الاستماع إلى آلات اللهو وحضور مجالسها.
- ❁ عصمته من مس الأصنام.
- ❁ عصمته من عبادة الأوثان.
- ❁ عصمته من أكل ما أهّل به لغير الله، وحفظ جوفه من الطعام الحرام.
- ❁ عصمته من الكذب.
- ❁ عصمته من الحلف باللالات والعزى.
- ❁ عصمته من شرب الخمر، وساق أدلة على ذلك^(٢).

ومن الحكم السامية في حفظ رسول الله من هذه الأمور أن تكون إرهاصات نبوته وعلامات دالّة على كمالاته، ومشيرةً إلى تأهيله لما أراد الله من حمل الرسالة والله أعلم؛ حيث قال تعالى: ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١) قال ابن حجر: إسناده متصل ورجاله ثقات، وانظر: الخصائص للسيوطي (١/٨٩).

(٢) انظر: سيدنا محمد الأسوة الحسنة - للشيخ أسعد صاغرجي (ص ١٣٠-١٣٣).

بركاته التي استفاد منها كلُّ مَنْ حولَه، وتمثَّل ذلك في قوة الأتان التي حملته وسَبَقَها وإِدْرارِ اللبن له، بل استفاد منها الإنس والجن والنبات والجماد .



ولهذا فقد ذكر القرطبي عند تفسيره للآية (١٠٧) من سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ما يلي: (عن ابن عباس قال: كان محمد رحمة لجميع الناس؛ فمن آمن به وصدق به سَعِدَ. ومن لم يؤمن به سَلِمَ مما لحق الأمم من الخسف والغرق)^(١).

ولذلك قال المنصور فري في كتابه رحمة للعالمين: «إن - رحمة للعالمين - ليس خصيصة للنبي ﷺ فحسب؛ بل إنه اسم وعلم أيضا، ولم يقترحه أحد ولا سماه به أبوه أو أمه، ولا تخيله شاعر ولا نطق به فدائي في شدة الحب، بل إنه حقيقة كشف عنها الله تعالى»^(٢).

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه الحاكم وغيره عن أبي هريرة: «إنما أنا رحمة مهداة»^(٣).

ومن مظاهر بركاته التي رحم الله بها عباده: ما ترويه حليلة السعدية التي أرضعته فتقول: «فذهبت فأخذته، فوالله ما أخذته إلا أنني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي حين أصبحنا: يا حليلة، والله إنني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٣٠٢).

(٢) رحمة للعالمين (٣/١٢٥).

(٣) غاية المرام (١).

به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه، ثم ذكرت من أمر الأتان والغنم والمرعى وغير ذلك، إلى أن تقول فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين، فكان يشبُّ شباباً لا تشبه الغلمان»^(١).

٣ أنه خاتم النبيين وإمام المتقين، وسيد العالمين :

في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «فضلت على الأنبياء بسبب: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»^(٢).

ويورد القاسمي في تفسيره لقوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...﴾ [الأحزاب: ٤٠]: «أي: فهذا نعتة وهذه صفتة فليس في حكم الأب الحقيقي، وإنما ختمت النبوة به؛ لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس في كل زمان وفي كل مكان؛ لأن القرآن الكريم لم يدع أمماً من أممات المصالح إلا جلاها، ولا مكرمة من أصول الفضائل إلا أحيها، فتمت الرسالات برسالته إلى الناس أجمعين»^(٣).

٤ هو رسول الله إلى الثقلين الجن والإنس ورحمة للعالمين :

قال ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]: «فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس». قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه قد ثبت في الصحيحين، رفعه عن جابر رضي الله عنه الذي سبق ذكره، وفي الحديث أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(٤). قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم أ.هـ.

(١) البداية والنهاية (٢/٢٥٤).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٥٢٣). (٣) تفسير القاسمي (١٤/٣٣).

(٤) انظر: كنز العمال (١١/٤٤٥) مرسلًا، وانظر: مسند أحمد (٢٢/١٦٥).

والتحقيق في معنى عموم إرساله وشمول بعثته هو مجيئه بشرع، ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا، وأي زمان وجدوا ما لم يتفق في شرع قبله قط^(١).

هو من أنزل عليه القرآن الكريم الذي أذعن لإعجازه الإنس والجن :

قال السيوطي^(٢): « اختصاصه ﷺ بأن كتابه معجز ومحفوظ من التبديل والتحريف على مر الدهور، وجامع لكل شيء ومستغن عن غيره ومشمول على ما اشتملت عليه جميع الكتب وزيادة، وميسر للحفظ ونزل مُنَجِّمًا ونزل على سبعة أحرف، ومن سبعة أبواب وبكل لغة، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]..

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن، أو آمن، عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(٣).

إنه العظيم الذي أسري به إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السموات العلى وإلى سدرة المنتهى، فكان قاب قوسين أو أدنى حتى سمع صريف الأقلام :

قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

قال القرطبي: « ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، وروي عن الصحابة

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٣٤/١٤).

(٢) الخصائص الكبرى (١/١٨٥).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٧٢٧٤).

في كل أقطار الإسلام، فهو من المتواتر رواه عشرين صحابياً، روي في صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق» وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل. يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: «فركبته حتى أتيت بيت المقدس». قال: «فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء». قال: «ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين. ثم خرجت. فجاءني جبريل عليه السلام. . . ثم عرج بنا إلى السماء. . .»^(١) وذكر الحديث^(٢).

وقال الشيخ أسعد صاغرجي: «من الآيات الكبرى التي رآها عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج: جبريل عليه السلام على صورته، الجنة، النار، مالك خازن النار، رضوان خازن الجنة، البيت المعمور، سدرة المنتهى، الدجال»^(٣).

هو صاحبُ المقامِ المحمودِ يومَ القيامةِ والحوضِ المورودِ.

ومما خص به ﷺ: أن الله تعالى سيبعثه مقاما محمودا، يحمده عليه جميع الخلائق.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تلٍّ، فيكسوني ربي حُلَّةً خضراءَ، ثم يؤذن لي، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود»^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠٦/١٠).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (١٦٣).

(٣) كتاب سيدنا محمد (٢٢٠/١).

(٤) تفسير الطبري (١٨٠/١/٩).

ثم قال بعد ذلك: «وكذلك فإن الله تعالى قد اختص نبيه ﷺ بالكوثر وهو نهر يصب في حوضه أنيته بعدد نجوم السماء»^(١).

وفي الصحيحين: قال النبي ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماءه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً»^(٢).

﴿٨﴾ زكى الله أخلاقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]:

ذكر الشيخ أبو الحسن الندوي^(٣) أنه بعد أن أورد هذه الآية - الرابعة من سورة القلم - ما يلي: «وسئلت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»^(٤) ولذلك دعا الله إلى اتباعه واتخاذ أسوة دائمة كاملة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وكانت هذه الحكمة والتزكية من أعظم ثمرات الصحبة النبوية ومجالسته وعشرته فنشأ في أحضانه جيل تحلى بأفضل الأخلاق وأكرم الصفات^(٥).

ومن هنا كان الكمال المحمدي ضربين:

❁ ضرباً: لم تشرع الأسوة فيه لعجز المرء عن كسب مثله، وذلك كشراف الأصل، وجمال الذات، وعلو القدر، والاصطفاء للرسالة، وتلقي الوحي الإلهي.

(١) انظر: كتاب مائة خصلة من خصال الرسول ﷺ (ص ٦٣-٦٤).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٥٧٩). (٣) مقدمة لكتاب تهذيب الأخلاق.

(٤) صحيح الجامع، حديث رقم (٤٨١١). (٥) تهذيب الأخلاق لعبدالحى الندوي، (ص ١٢).

❁ وضرباً: مأموراً بالاقتداء به، فيه والمنافسة في تحصيل أكبر قدر منه، والمسابقة إليه والجد في الطلب للظفر به والحصول عليه، ثم ذكر قبسا من تلك الفضائل في الكمالات المحمدية^(١).

❁ **وَزَكَّى لِسَانَهُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾** [النجم: ٣-٤]:

قال الشوكاني: «أي ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره، فعن على بابها. وقال أبو عبيدة: إن عن بمعنى الباء: أي بالهوى، قال قتادة: أي ما ينطق بالقراءة عن هواه.

❁ **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾** [النجم: ٤]، أي: ما هذا الذي ينطق به إلا وحي من الله يوحيه إليه^(٢).

وإذا كان كل ما يقوله ﷺ إنما هو وحي يوحى إليه به، دل على أن السنة النبوية هي وحي، والله تعالى أعلم^(٣).

❁ **وَزَكَّى نَظْرَهُ، فَقَالَ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾** [النجم: ١٧]:

يقول الشوكاني: «أي: ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه وما طغى أي ما جاوز ما رأى. وفي هذا وصف أدب النبي ﷺ في ذلك المقام؛ حيث لم يلتفت، ولم يمل بصره، ولم يمدّه إلى غير ما رأى^(٤).

ويقول اللواء المهندس أحمد عبدالوهاب: «وكان الإسراء والمعراج تعليماً للرسول وإطلاعاً له على الملكوت حتى ينبئ عن عوالم الغيب بحديث اليقين .

(١) انظر: هذا الحبيب يا محب، (ص ٥٢٣). (٢) فتح القدير، (١٣١/٥).

(٣) مختصر السنة النبوية (ص ٣٢). (٤) فتح القدير للشوكاني، (١٣٣/٥).

فالقاعدة التي درج الناس عليها أن يكون مستوى المعلم أرقى من مستوى تلاميذه، وكذلك الأنبياء جاءوا معلمين للبشرية، فلا شك أن مستواهم يجب أن يكون - وإنه كذلك - أكبر وأرقى من مستوى الناس جميعاً^(١).

﴿١١﴾ وزكى نسبه، فقال: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]:

قال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء: «آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً»^(٢). ويقول الدكتور مصطفى السباعي: «إنه ولد في أشرف بيت من بيوت العرب فهو من أشرف فروع قريش، وهم بنو هاشم، وقريش أشرف قبيلة في العرب، وأزكاها نسبا، وأعلاها مكانة.

وقد روي عن العباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وبيتاً» رواه الترمذي بسند صحيح^(٣)، وقال السباعي بعد إيراده هذا الحديث: «ولمكانة هذا النسب الكريم في قريش لم نجد لها فيما طعنت به على النبي صلى الله عليه وسلم لا تضاح نسبه بينهم، ولقد طعنت فيه بأشياء كثيرة مفتراة إلا هذا الأمر»^(٤).

﴿١٢﴾ هو أكرم الكرماء:

فكان يعطي عطاءً من لا يخشى الفقر، فكان أجود الناس، ومات ودرعه مرهونة عند تاجر يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.

(١) النبوة والأنبياء للمهندس اللواء أحمد عبدالوهاب، (ص ٢١١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٨٥).

(٣) دروس وعبر في السيرة النبوية (ص ٣٥-٣٦).

ذكر الشيخ أسعد صاغر جي: «أن كرم النبي ﷺ لا يوازي ولا يبارى فيه. وقد وصفه بذلك كل من عرفه واشتهر حتى بلغ مبلغ التواتر».

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي كان أجود الناس»^(١).

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه وقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة»^(٢).

وذكر حادثة البردة المنسوجة التي جاءته هدية من امرأة نسجتها له بيدها فاستوهبها منه أعرابي فأعطاه إياها، قد ذكرها البخاري، ومن ثم قال الأعرابي عنه صلى الله عليه بأنه: «لا يرد سائلاً»^(٣)، فكان جوده كله لله في ابتغاء مرضاته، فتارة كان يبذل المال لفقير أو محتاج، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامهم، وتارة يؤثر على نفسه وأولاده...

ومن كرمه وجوده الذي لم يُعهد من غيره: ما روى الترمذي^(٤) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله أن يعطيه فقال: «ما عندي شيء، ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضينا» فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر. فكره النبي

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٠٧).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣١٢).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٩٣)، (٥٨١٠).

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في الشمائل (١٩٠-١٩١) وأبو الشيخ في: أخلاق النبي ﷺ (ص ٥٤) والبخاري مطولاً، حديث رقم (٣٦٦٢)، كشف الأستار من حديث عمر، وأخرجه من حديث أبي هريرة الطبراني في الكبير، حديث رقم (١٠٢٤)، وأبو يعلى، حديث رقم (١٠٤٠) وغيرهم، قال مخرجه: «إسناده جيد» مسند الموصلي (٤٣٠/١٠) بالهامش، وانظر: كتاب الزهد، لو كيع بن الجراح (٦٦٦/٢) قال مخرجه: «صحيح بمجموع الطرق والشواهد».

قول عمر، فقال رجل من الأنصار حين رأى كراهة النبيّ لل منع: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فتبسم وعرف البشر في وجهه وقال: «بهذا أمرت»^(١).

١٣ عرف بالشجاعة: فكانوا إذا حمي الوطيس يحتمون به، كما أخبر ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان أشجع الناس وقد أعطي قوة أربعين رجلا؛ بل له من القوة ما تعجز عنه القوى البشرية، وهو عليه الصلاة والسلام لم يهزم قط...

وروى مسلم عن البراء أيضا قال: كنا إذا اشتد البأس وحمي الوطيس استقبلنا الناس بوجه رسول الله ﷺ. وفي رواية: كنا إذا احمر البأس أي اشتد اتقينا برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يحاذيه^(٢).

١٤ عرف بالصبر على العبادة، وعلى الجوع، وعلى الإيذاء في سبيل الله.

أورد العلامة اللحجي^(٣) رواية البخاري ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبة وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه؛ فقبل له: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدا شكورا»^(٤).

ثم إنه أورد بعد ذلك رواية مسلم وأصحاب السنن عن حذيفة بين الإيمان، والتي يذكر فيها صلاته مع رسول الله ﷺ والتي فيها قراءته سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنعام أو المائة في أربع ركعات، وجعله الركوع قريبا من القيام والسجود نحوًا من ذلك إلى آخر صلاته رضي الله عنه^(٥).

(١) انظر كتاب سيدنا محمد الأسوة الحسنة، (ص ٤٣١) وما بعدها.

(٢) انظر كتاب سيدنا محمد الأسوة الحسنة، (ص ٤٢٩-٤٣٠).

(٣) منتهى السؤل (٩/٣-١٠). (٤) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٨١٩).

(٥) وانظر من منتهى السؤل، ٣/٣٧-٤٠.

وأورد في الجزء الثاني رواية البخاري ومسلم قول السيدة عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير رضي الله عنه: «والله يا ابن أخي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله نار. فقلت: يا خالة، فما كان يُعيشُكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء»^(١).

وأورد رواية الترمذي عن أبي طلحة رضي الله عنه والتي يقول فيها: «شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله عن بطنه عن حجرين»^(٢).

وأما صبره على الإيذاء فيذكر الشيخ سعيد حوى نماذج عدة، نذكر منها مثالا واحدا، وهو الذي حصل لرسول الله في مكة المكرمة، حيث كان المشركون مجتمعين في الحجر. «فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأطافوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لِمَا كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم. قال: نعم أنا الذي أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بجمع رداءه، وقام أبو بكر رضي الله عنه دونه يقول وهو يبكي: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه».

وذكر بعد ذلك حادثة أخرى، مفادها: «فقال أبو جهل: أيكم يأتي جزور بني فلان، فيأتينا بفرثها فنكفأه على محمد، فانطلق أشقاهم عقبة بن أبي معيط، فأتى به فألقاه على كتفيه، ورسول الله ساجد، قال ابن مسعود: وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندي منعة تمنعني. فأنا أذهب إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبلت حتى ألقته عن عاتقه، ثم استقبلت قريشا تسبهم، فلم يرجعوا إليها شيئا، ورفع رسول الله رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود...»^(٣).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٥٦٧).

(٢) الترمذي (٢٣٧١)، قال ابن الملقن: «إسناده صحيح» الإيعام (٣٢٤/٥).

(٣) كتاب الرسول لسعيد حوى، (ص ٨١).

١٥ أجمع أهل زمانه على أنه حسنُ المنطقِ، فلم يكن بالطعان ولا بالصخابِ.

كان ﷺ أعظمَ وأعدلَ الناس وأعفهم وأصدقهم لهجة، ولقد اعترف بذلك أعداؤه، وكان يسمى قبل البعثة: الأمين.

روى الترمذي عن علي رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك لثبوت صدقك ولكن نكذب بما جئت به^(١).

عن عائشة رضي الله عنها - كما في الأدب المفرد للبخاري - أنها قالت: «لم يكن فاحشا ولا متفاحشا ولا صخابا في الأسواق»^(٢).

١٦ عرف بالرحمة:

فكان بالمؤمنين رحيماً، بل شملت رحمته الإنسان والحيوان، بل أعلن ميثاق الرحمة والمحبة، وكانت حياته قائمة على هذا المنهج، حتى مع أعدائه يحب العفو ويصفح عن الجناة إذا تابوا وأنابوا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، دخل مكة فاتحاً، ولما سمع من بعض أصحابه من قال: هذا يوم غضب، قال: «بل يوم رحمة»، وقال لمن آذوه وأخرجوه بالأمس: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

يقول الدكتور مصطفى السباعي: «أما فتح مكة ففيها من الدروس والعظات ما تضيق عن شرحه هذه الصفحات القلائل. ففيها نجد طبيعة الرسول ﷺ الذي لا يجد الحقد على مقاوميه إلى نفسه سبيلاً. فقد منَّ عليهم بعد كفاح، استمر بينه وبينهم إحدى وعشرين سنة، لم يتركوا فيها طريقاً للقضاء عليه، وعلى أتباعه

(١) كتاب سيدنا محمد ﷺ الأسوة الحسنة (٢/٤٣٣)، وأخرجه الترمذي في العلل الكبير (ص ٣٥٤) وقال (صحيح مرسل).

(٢) الأدب المفرد (٢٤٦)، وأحمد، حديث رقم (٢٥٤١٧) قال مخرجه: «حديث صحيح» وانظر تخريجه فيه مفصلاً

وعلى دعوته، إلا سلكوها، فلما تم له النصر عليهم، وفتح عاصمة وثنتهم لم يزد على أن استغفر لهم وأطلق حريتهم.

وما يفعل مثل هذا ولا فعله في التاريخ أحد، ولكنما يفعله رسول كريم، لم يرد بدعوته ملكا ولا سيطرة، وإنما أراد له الله أن يكون هاديا وفتاحا للقلوب والعقول، ولهذا دخل مكة خاشعا شاكرا لله، لا يزهو كما يفعل عظماء الفاتحين^(١).

وحول شمول رحمته للعالمين يقول محمد فتح الله كولن^(٢):

«وكون الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الدنيا والآخرة يعد رحمة، وناحية الرحمة هذه مستمرة إلى الأبد. كان رحمة للمنافقين أيضا، فبسبب هذه الرحمة الواسعة لم ير المنافقون العذاب في الحياة الدنيا فقد حضروا إلى المسجد واختلطوا بالمسلمين، واستفادوا من كل الحقوق التي يتمتع بها المسلمون، ولم يقيم رسول الله بفضحهم وإفشاء أسرار نفاقهم أبدا مع أنه كان يعرف دخائل نفوسهم ونفاقهم...»

كما استفاد الكفار من رحمة رسول الله؛ لأن الله تعالى كان يهلك من قبل الأمم الكافرة بسبب كفرها وعصيانها هلاكا جماعيا...

حتى جبريل قد استفاد من النور الذي جاء به الرسول. فقد سأله رسول الله يوما وهو يشير إلى القرآن: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنتُ لثناء الله عليّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [سورة التكويد، ٢٠، ٢١].

ويقول الرسول في حديث آخر: «أنا محمد وأحمد والمقفى، وأنا الحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة»^(٣).

(١) كتاب السيرة النبوية للسباعي (ص ١٤٩).

(٢) النور الخالد محمد .

(٣) المرجع نفسه (١/٣٢٢).

أما عن رحمته بالحيوان، فقد ورد في صحيح مسلم قوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، فليريح ذبيحته»^(١).

عرف بين قومه بالصادق، وبالأمين، وكان هذا هو وصفه بين قومه بإجماع قريش كلها والعرب قاطبة.

عرف عليه الصلاة والسلام في شبابه بين قومه بالصادق الأمين، واشتهر بينهم بحسن المعاملة، والوفاء بالوعد، واستقامة السيرة، وحسن السمعة، مما رغب خديجة في أن تعرض عليه الاتجار بمالها في القافلة التي تذهب إلى مدينة (بصرى) كل عام، على أن تعطيه ضعف ما تعطي رجلا من قومها.

فلما عاد إلى مكة وأخبرها غلامها ميسرة بما كان من أمانته وإخلاصه، ورأت الربح الكثير في تلك الرحلة، أضعفت له من الأجر ضعف ما كانت أسمت له، ثم حملها ذلك على أن ترغب في الزواج منه، فقَبِلَ أن يتزوجها وهو أصغر منها بخمسة عشر عاما، وأفضل شهادة له بحسن خلقه قبل النبوة قولُ خديجة له بعد أن جاءه الوحي في غار حراء وعاد مرتعدا: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ (الضعيف)، وتكسبُ المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتعين على نوائب الحق^(٢).

بعث في زمان كان الجهل والظلم والتعسف قد أطبق على أهل الأرض، فأثار البشرية.

كانت حالة الناس في الجزيرة العربية وغيرها قبل مبعث النبي ﷺ قد وصلت في الفساد إلى النهاية، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط، وغيرَ الناس

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٩٥٥).

(٢) انظر السيرة النبوية، دروس وعبر (ص ٣٨-٣٩).

وبدلوا وحرفوا ما أنزل الله على رسله من الكتب السماوية، وتفرق أهل كل دين مذاهب شتى، وعبدوا من دون الله آلهة شتى .

فالبوذيون يعبدون بوذا، والهندوس يعبدون البقر، والمجوس يعبدون النار، وأممّ تعبد الملائكة والجن، وأممّ يعبدون الصور والتمثيل، وأممّ تعبد أرواح الموتى وآثارهم، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم من يعبد الحجارة، وسادت الخرافات والأوهام، وشاعت الإباحية والفوضى وارتكبت الفواحش.

وكانت العرب أسوأ الناس حالاً وأشدّهم إمعاناً في الجهالة والضلالة، فقد أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وعبدوا كلّ ما هب ودبّ من الأصنام والأوثان والأنصاب والتمثيل والأشجار وكثبان الرمال، وعبدوا الملائكة والجن، واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر والنجوم والحجارة تتصرف في أمورهم ومستقبل حياتهم. وبالغوا في عبادة الحجارة حتى ملؤوا بها فناء الكعبة - البيت الحرام - فنصبوا فيه ثلاثمائة وستين صنماً^(١).

دعا الناس إلى عبادة الله عز وجل وتوحيده وتعظيمه والاستعانة به والتوكل عليه .

كانت مهمة محمد ﷺ هي دعوة الناس إلى الدين وتربيتهم وتهذيبهم. وبناء الإنسان، وجعله عبداً لله عز وجل، بإخراجه من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى عدل الإسلام، فأنشأ به الإنسان السوي الذي ساد الدنيا وعمّر الدنيا بالدين.

(١) سيدنا محمد رسول الله الأسوة الحسنة (١/١٤٤).

﴿٢٠﴾ قضى على الشرك والوثنية والذلة لغير الله عز وجل، وأخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ذكر الأستاذ الدكتور صالح رضا ما ورد في التوراة عن وصف رسول الله، وأنه جاء فيها: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمين. أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا" (١).

وذكر السيوطي (٢) شهادة أبي سفيان في دعوة محمد ﷺ لدى إجابته له رقل عنه، عند سؤاله عما يدعو إليه، فقال: "يقول: اعبدوا الله وحده، لا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة" (٣).

﴿٢١﴾ أطلق عقولهم لكي تتأمل في ملكوت الله عز وجل لأن الله سخر للإنسان كل ما في هذا الكون.

جاء في الأثر عن الحسن البصري: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة" (٤) أي: "إنك لا تجد طاقة من طاقات الإنسان إلا وقد أطلقها رسول الله في طريقها الصحيح، فأصبحت ترى من أصحابه العجب؛ في تكامل شخصياتهم: عبادا، وزهادا، شجعانا محاربين، عادلين، رحماء، إداريين، سياسيين، حكماء، مربين. كل واحد منهم أمة، وما أسهل أن يقود أمة.

(١) إنها النبوة (ص ٦٤٠).

(٢) انظر الخصائص للسيوطي، (٣/٢).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٧).

(٤) المصنف لابن أبي شيبة (٧/١٩٠).

ولا أدل على ذلك: أنه من النادر أن فَشِلَ واحد منهم فيما تولى من قيادات....
لفت القرآن نظرهم إلى الكون؛ ليتعرفوا فيه على الله وقدرته، حتى أوصلهم
إلى رؤية إحياء البلد الميت بالمطر والنبات، يكون ميتا فينزل عليه المطر فيحيا^(١).
ثم يقول: «أول سورة من سور القرآن هي الفاتحة، ويلاحظ أنها أوجزت
معاني القرآن كله. فمعاني القرآن كلها تدور حول العقائد والعبادات ومناهج
الحياة.

والسورة بدأت بالعقيدة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ مَلِكِ
يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ .

وثنى بالعبادات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ .

وثالث بمناهج الحياة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ .
وبينت أخيرا أن منهاج المسلمين متميز ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾^(٢).

﴿٢٢﴾ جاء كي يتمم مكارم الأخلاق، وليواصل رسالة الأنبياء الذين قبله،
وآمن بهم جميعًا.

حرص النبي محمد ﷺ أن يستقر في قلوب صحابته وأذهانهم: أنه ما بعث
إلا ليكمل ما بدأه إخوانه من الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، وأنه لم يأت محقرا
من شأنهم ولا مقللا من مجهودهم وأثرهم، وأنه جاء يكمل هذا البناء العظيم.
وقد بين مكانه فيهم أنه إنما هو لبنة مكملة لهم، فهم بناء شامخ كبير رائع،
وهو بمنزلة لبنة في هذا الجدار .

ولهذا قال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابنتى بيتا فأحسنه

(١) الرسول لسعيد حوا، (ص ١٥٦).

(٢) الرسول لسعيد حوا، (ص ٢٣٥-٢٣٦).

وأجمله وأكمله إلا موضع لَبِنَةٍ في زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون ويعجبهم
البيان فيقولون : ألا وضعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك ! فقال محمد ﷺ : فكنت أنا
اللبنة» وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (١) .

لم تستطع مغريات قريش أن تصدّه عن بلاغ رسالة الله إلى البشرية،
بعد أن عرضوا عليه الملك والمال والجمال فرفض كل ذلك الإغراء .

يحكي لنا الشيخ أبو بكر الجزائري مستعرضاً هذا الموقف الرائع من رسول
الله ﷺ، تجاه تلك المغريات من قريش، فيقول: «ها هو ذا أبو الوليد عتبة بن
ربيعة يُبعث من قِبَل المشركين؛ ليعرض على رسول الله ما رأوه حلاً للمشكلة
في نظرهم، فيقول: يا ابن أخي إنك من حيث قد علمت من السلطة في العشيرة
والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّتهم
به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آباءهم، فاسمع
مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، فقال له الرسول ﷺ:
«قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به هذا الأمر مالا جمعنا لك
من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا، حتى لا
نقطع أمرا دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك
رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك
منه. فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه .

وفرغ عتبة من كلامه ورسول الله يستمع إليه فقال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال:
نعم. قال: فاسمع. قال: أفعل. فقال ﷺ: ﴿حَمَّ ١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١-٢]

(١) السلسلة الصحيحة (٤٥)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٠٧) بلفظ (صالح
الأخلاق) قال الألباني: «صحيح».

ومضى رسول الله يقرأ وقد ألقى عتبة يديه وراء ظهره معتمدا عليهما حتى انتهى رسول الله إلى السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت. فأنت وذاك»^(١)....

ولقد سجل الكون لسيدنا رسول الله ذلك الموقف الشامخ الذي لا يدانيه شموخ الشَّمِّ الراسيات، عندما أطلق عبارته التي تهتز لعظمتها القلوب، لدى توسل المشركين بعمه أبي طالب في أن يكفَّ عن دعوته، فأجابه بقوله: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»^(٢).

بلغ عن الله هذا الدين في عقيدته وشريعته وآدابه وأخلاقه وتعظيمه لشؤون الحياة، ولم يمت حتى بلغ الرسالة ونصح للأمة وجاهد في الله حقَّ جهاده.

إن الذي يدقق النظر في سيرة رسول الله محمد ﷺ يدرك أنه قام بالتبليغ عن الله كلَّ ما أمره بتبليغه؛ فلم يدع وقتاً إلا استثمره في أداء هذا الواجب، ولم يترك مجالاً ولا حالاً إلا وبادر لاغتنامه؛ لأجل إيصال أحكام الله إلى عباد الله، ولم يترك وسيلة إلا واستخدمها في أداء واجب التبليغ لشريعة الله، مما يتعلق بالعقيدة والعبادة والأحكام العملية والأخلاق وكل الأحكام التي تنظم علاقات الناس وأحوالهم؛ حتى لو اقتضى ذلك أن يسافر شرقاً وغرباً.

لقد قام بدعوة أقاربه وعشيرته ثم قام بدعوة القبائل العربية، وبعد ذلك تعرضَ للوافدين إلى مكة في المواسم، ومن ثمَّ صار يرسل أصحابه إلى الآفاق دعاءً إلى الله مبلغين كتابَ الله وشرعته وسنة نبيه، وتوج ذلك بالبلاغ العالمي الذي ألقاه في حجة الوداع.

(١) هذا الحبيب يا محب (ص ١٠٢-١٠٩).

(٢) إنها النبوة للدكتور صالح رضا (ص ١٢٣).

ولنتأمل هذه الأسطر من الأستاذ الدكتور صالح رضا^(١) حيث يقول: «يوضح الرسول الكريم بقوله - هل بلغت - وتكراره له: أن الدعوة إلى دين الله تعالى هي وظيفته الأساسية التي جاء من أجلها... كان رسول الله يقول بعد كل فقرة من فقرات خطابه: «ألا هل بلغت اللهم، فاشهد» .

إنها الحقيقة التي يجب أن تكون مستقرة في نفس كل مسلم. ألا وهي أن رسول الله ﷺ مبلغ عن ربِّ. وليس منشئاً للأحكام. فكل ما يقول إنما هو من عند الله تعالى، وليس له من الأمر شيء.

والحقيقة الثانية: أنه قام بهذه المهمة على الوجه الأتم. فقد بلغ رسالة ربه^(٢). ونحن نشهد ونقول: لقد بلغت يا رسول الله، وأديت الأمانة، ونصحت للأمة، فصلاة الله وسلامه عليك وعلى آلك وصحبك أجمعين.

أعلى من كرامة الإنسان، فقال: «لزوال الدنيا وما عليها أهون عند الله من قتل رجل مسلم»^(٣)، وقال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»^(٤).

يقول الأستاذ حسن أحمد عابدين ما يلي: «لقد كانت الآداب العامة والرحمة وحسن الخلق هي الدعائم القوية للمجتمع المسلم، وكان لها أبلغ الأثر في إرساء حقوق الإنسان والمحافظة عليها من الضياع والأذى»^(٥).

وهكذا الشيخ أبو بكر الجزائري يعتبر من عبر ونتائج الفترة الأخيرة من حياة رسول الله في المدينة المنورة وخاصة بعد أدائه لحجة الوداع ما يلي: «

الإعلان عن حقوق المسلم، وأنه محرم الدم والمال والعرض».

(١) كتاب إنها النبوة (ص ٦٠٣).

(٢) انظر كتاب إنها النبوة (ص ٦٠٣).

(٣) صحيح النسائي، حديث رقم (٣٩٩٨).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٣١٦٦).

(٥) انظر (ص ٢٠٢) من كتاب حقوق الإنسان للأستاذ حسن عابدين وهو الكتاب رقم ٩ من سلسلة دعوة الحق.

❁ الإعلان عن تحريم الظلم والربا وكل عادات الجاهلية.

❁ الإعلان عن حقوق النساء^(١).

❁ ٢٦ بلغ رسالته إلى ملوك الأرض وسلاطينها، فأرسل دعوته إلى ملوك فارس وقيصرية الروم وملوك مصر والحبشة وغيرهم من ملوك الأرض.

نعم، لقد قام رسول الله ﷺ بإبلاغ الدعوة كما أمره الله - جل وعلا - فبلغ رسالته لخواص معارفه، مثل أبي بكر وأمثاله، ثم بلغ دعوته لأقربائه، ثم توسع في عمله الدعوي فصارت يتعرض لمن جاء إلى مكة وقام بدعوة من هم بالآفاق، عن طريق التعرض لهم في المواسم التجارية (عكاظ وذو المجنة وغيرها)، أو المواسم الدينية (الحج وغيره).

وهكذا تابع جهاده الدعوي بكل الوسائل، وفي كل المجالات ولمختلف الأجناس، ولذلك نراه يرسل كتباً إلى ملوك وسلاطين وأمراء المناذرة والغساسنة وحمير وكندة والروم وفارس والقبط، وكان من جملة من أرسلهم بكتله الدعوية إلى مختلف أولئك الحكام:

١. دحية الكلبي، وقد أرسله إلى قيصر ملك الروم.
٢. حاطب بن أبي بلتعة، أرسله إلى المقوقس ملك مصر.
٣. عبدالله بن حذافة، وأرسله إلى كسرى ملك الفرس.
٤. عمرو بن أمية الضمري، وأرسله إلى النجاشي ملك الحبشة.
٥. شجاع بن وهب، وأرسله إلى المنذر بن الحارث الغساني صاحب دمشق.
٦. سليط بن عامر العامري، وأرسله إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة.
٧. العلاء بن الحضرمي، وأرسله إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين.

(١) انظر (ص ٤٦٩) من كتاب «هذا الحبيب يا محب» للشيخ أبي بكر الجزائري.

٨. عمرو بن العاص، وأرسله إلى جيفر بن الجلندي ملك عمان^(١).

علم الإنسانية صلة الأرحام وإطعام الطعام وإفشاء السلام.

لقد كانت هذه الكمالات مما أولاهها الرسول عليه الصلاة والسلام اهتمامه البالغ إرشادا وتربية لأصحابه عليها، ودعوة وتعلima لأمتة على اكتسابها، والحرص عليها والتنفير من التهاون بشأنها، وقبل ذلك ضربُه المثلَ الرائع في التزامها.

ولقد كان هذا شأنه من بداية دعوته عليه الصلاة والسلام؛ حيث يروي الإمام مسلم عن عمرو بن عتبة رضي الله عنه قال: «دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة - يعني في أول النبوة - فقلت له: ما أنت؟ قال: نبي. فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيئا»^(٢).

«وقد روى ابن ماجه عن عبدالله بن سلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يأبها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»^(٣).

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه هذا الأدب الإسلامي بشكل عملي^(٤).

وفي موضوع السلام يقول الدكتور الشدي: «وكان يرى أن السلام هو طريقُ المحبة والوداد والوثام؛ وكان يقول: «أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٥).

(١) انظر: هذا الحبيب يا محب، للجزائري، وانظر: إنها النبوة، لصالح رضا وغير ذلك.

(٢) انظر تهذيب الأخلاق للكاندهلوي الحسيني، (ص ١٢٦). انظر صحيح مسلم، حديث رقم (٨٣٢).

(٣) صحيح ابن ماجه للألباني، حديث رقم (٢٦٤٨).

(٤) انظر الأخلاق الإسلامية لعبدالرحمن حبنكة الميداني، (٢/٤٥٠).

(٥) انظر: (ص ٢٧) من كتاب الشدي «محمد صلى الله عليه وسلم»، صحيح مسلم، حديث رقم (٥٤).

ويحكي لنا سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص فيما يرويّه البخاري في هذا المجال بأن: «رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام، على من عرفت، وعلى من لم تعرف»^(١).

دينه قائم على التوازن البديع بين الروح والبدن والجماعة والفرد،
والدنيا والآخرة... الإسلام بمفهومه الواسع كحضارة ورسالة تنظم
أمر الدين بمعناه التعبدي المحدود وتحكم أمر الدنيا بأساليب نظمها
في تنسيق التشريع والآداب العامة والنظام العام.

وهذا ما يحدو بكل من فقه شطرا من دينه، وفهم ركنا من أركان الإسلام
في تشريعه وآدابه وعباداته أن يصب ما فهم في أساليب يستسيغها أبناء العصر.
وعليه أن يلبسه ثوبا محببا إلى عقلية القرن العشرين؛ ليحقق الإسلام فينا معجزته
التي أثبتتها في سفر التاريخ، فخلدت بأسطر من نور مشرقة في سجل أجدادنا
الميامين الذين خدموا دينهم فأبرزوا للناس أجمل مظاهر مرونة الإسلام ويسره،
وأحبّ أحكام القرآن لقلوب الناس كافة، ذلك لأن الإسلام في جوهره رءوفٌ
بمصالح البشر ضامن لسعادة الإنسانية^(٢).

وينقل الشيخ محمد النبهان الخباز عن برنارد شو أنه قال: «وإني لأعتقد بأن
دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غدا. ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشا.
ومن الواجب أن يدعى منقذ الإنسانية. واني أعتقد أنه لو تولى رجل مثله قيادة
العالم الحديث لنجح في حل مكشلاته، بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة
اللذين هو في أشد الحاجة إليهما»^(٣) أجل! إن الإنسانية بحاجة لهذه الرسالة
المحمدية القائمة على الكمال والشمول والتوازن.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٢٣٦).

(٢) انظر كتاب هذا هو الإسلام للدكتور مصطفى السباعي، المجموعة الثانية.

(٣) الاصفطا في سيرة المصطفى للشيخ الخباز (٨/١).

دينه دين الوسطية والاعتدال. 

أبرز ما يتمثل الاعتدال لدى محمد ﷺ في الشريعة التي جاء بها ودعا إليها... في كل مجال من مجالات الحياة.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهكذا نجد رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق إن المُنْبِتَ لا أرضاً قطعَ ولا ظهراً أبقى»^(١).

وفي هذا السياق يذكر الكاندهلوي الحسيني حديث البخاري ومسلم عن أنس أنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلمت كذا وكذا؟! أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).

ثم ذكر حديث البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»^(٣).

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٨/٣).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٠٦٣).

(٣) انظر كتاب تهذيب الأخلاق (ص ٢١٧-٢٢١).

﴿٣٠﴾ سد الله كل طريق توصل إليه وفتح طريقا واحدا فقط هو طريق محمد ﷺ .

قال الشيخ الملا علي القاري^(١): «(وَأَمَّا وَجُوبُ اتِّبَاعِهِ) أي: متابعتة (وامتثال سنّته) أي: طريقته (والاقتداء بهديه) أي: سَمَّتِهِ وحالته وسيرته، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: تدعون محبته وتريدون مودته ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: فيما يظهر مني من شريعته وطريقته وحقيقته ﴿يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ﴾ جواب الأمر، وهو جواب الشرط، أي: يرض عنكم ويكشف حجب قلوبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] أي: جميع عيوبكم.

وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ آلِ أَبِي﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفي وصفه به تلويح إلى أن كمال علمه من معجزاته ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، أي: بكتبه وآياته ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أي: في أوامره وزواجره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ببركات ظواهره وسرائره^(٢).

ولذلك فإن السيوطي في كتابه - الخصائص الكبرى - قد جعل بابا موضوعه: «اختصاصه ﷺ بأنه خاتم النبيين وآخرهم بعثا، وبأن شرعه مؤبد إلى يوم القيامة وناسخ لجميع الشرائع قبله، وأنه لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتّباعه»^(٣).

﴿٣١﴾ أقام دينه على أمتن القواعد وأسمى الأصول وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله .

لقد «خلق الله الناس موحدّين لا يشركون به شيئا. وظلوا يعبدونه قرونا طويلة. فلما طال عليهم الأمد وتفرقوا في البلد، نسوا عهده وضلوا عن صراطه

(١) شرح الشفا للقاضي عياض (٢/١٤، ١٥).

(٢) شرح الشفا لملا علي القاري، (٢/١٤-١٥).

(٣) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، (٢/١٨٧).

المستقيم وعبدوا من دونه آلهة أخرى، فأرسل إليهم الرسل يذكرونهم به ويدلونهم على صراطه المستقيم.

فكان كلما ابتعدت أمة عن النهج السويّ أرسل إليهم نبيا آخر إلى أن خُتِمت الرسالات بمحمد ﷺ وبرسالته الخاتمة للإسلام...

فبعث الله محمدا ﷺ هاديا للناس ورحمة للعالمين، ورسولا إلى البشرية كلها، يدعوهم إلى الله سبحانه وإلى توحيد عبادتهم له وحده.

جاء محمد بمنهج التوحيد الذي كان أصيلا في ذاته قديما؛ إذ كانت رسالة كل الأنبياء الذين سبقوه. فقد جاء نوح - عليه السلام - برسالة التوحيد، وجاء بالرسالة نفسها هودٌ عليه السلام، وكذلك صالحٌ عليه السلام، وأيضا شعيب عليه السلام، وبالرسالة نفسها وغايتها جاء محمد ﷺ فأمره ربه أن يبلغ الناس...

إن العقيدة الإسلامية في الإله الخالق للكون وتوحيده قد بُنيت على معطيات وفروض صحيحة ومقنعة ومتجدرة، يقبلها العقل البشري السليم، وتُقرُّ بها النفوس المستقيمة الباحثة عن الحقيقة...

لقد دعا محمد الناس إلى إلههم وربهم جل وعلا، وطالبهم بإعمال عقولهم وعدم تعطيلها، ونهاهم عن تقليد الآباء في أمور العقيدة، معتمدا على ما أنزله الله تعالى إليه من القرآن وما فيه من الآيات والحكم والقصص...

ما جاء محمد ﷺ إلا بكلمة واحدة، وما طلب من الناس إلا كلمة واحدة فقط، عليها قامت السموات والأرض... وبشر من كانت تلك الكلمة آخر كلامه، فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(١).

(١) كتاب «أصول الدعوة» للدكتور عبدالكريم زيدان (ص ٨-٩).

٣٢ بني دينة على أصول خمسة هي : شهادة التوحيد ، والصلاة ، والصيام ،
والزكاة ، والحج .

الدين الإسلامي الذي يعبر عنه بالإسلام هو دين الله الذي ارتضاه للعالمين ، حيث
قال : «ورضيتُ لكم الإسلام ديناً» ، وهو يعني (الخضوع والاستسلام والانقياد لله رب
العالمين... ثم خص لفظ الإسلام بالدين الذي جاء به محمد ﷺ من ربه وبالانقياد
التام له بلا قيد ولا شرط. وبهذا الانقياد يظهر خضوع الإنسان لله رب العالمين) (١).

والتعريف الذي ورد في حديث رسول الله ﷺ : «الإسلام هو أن تشهد أن لا
إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ،
وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» .

والدكتور زيدان يقول في هذا السياق ما يلي : «وعلى هذا ، فأركان الإسلام
في ضوء هذا الحديث الشريف ثلاثة :

❁ شهادة أن لا إله إلا الله .

❁ شهادة أن محمداً رسول الله .

❁ العمل الصالح وفي ذروته الصلاة والزكاة والصوم والحج .

وإنما ذكرت هذه الأربعة ؛ لأهميتها وللتنبية إلى ضرورة العمل الصالح
للمسلم ، وأنه لا يكفي التلفظ بالشهادتين بل لا بد من العمل بمضمونهما (٢).

٣٣ بُني الإيمان على أصول ستة هي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ،
ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات

(١) المرجع السابق .

(٢) كتاب «أصول الدعوة» للدكتور عبدالكريم زيدان (ص ٨-٩).

يوم... قال فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره...»^(١).

ويذكر الإمام ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم، بعد إيراده هذا الحديث: «أما الإيمان فقد فسره النبي ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وقد ذكر الله في القرآن الكريم الإيمان بهذه الأصول الخمسة في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣].

والإيمان بالرسول يُلزم صفة الإيمان بجميع ما أخبروا به: من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به، وغير ذلك من صفات الله وصفات اليوم الآخر، كالصراط والميزان والجنة والنار^(٢).

أقام البناء الاجتماعي المثالي الفاضل على الضروريات الست التي يجب الحفاظ عليها، وهي الدين والنفس والمال والعقل والعرض والنسب، وحماها بسياج من القيم الأخلاقية والأحكام الشرعية.

إن الدين الإسلامي الذي جعله الله منهجا للبشرية، كي تتحقق - في حال تقيدها به - السعادة في الدنيا، بما تشمله من حرية وعدالة ومساواة واستقرار

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١).

(٢) انظر كتاب «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٢٤).

وكفاية وانضباط وعزة وكرامة، قد جعل الله في أحكامه من القواعد والأصول والمعالم ما يحقق تلك المطالب كلها.

ولذلك فإن أحكامه تتفاوت ما بين واجب مفروض، ومستحب مرغوب فيه، وجائز لا تشرىب على من فعله، ومكروه ينبغي تحاشيه، وحرام يحرم الوقوع فيه. هذه الأحكام عندما نتأمل فيها نجد أنها عندما تتعلق بالأحكام العملية التي شرعها الله؛ لتنظيم العلاقات بين أفراد الشعوب، فإنها تتفاوت في الحكم عليها على حسب تعلقها بالمقاصد الأساسية الضرورية في التشريع، أو ابتعادها عن التأثير فيها.

هذه المقاصد هي:

حفظ النفس: فقد حرم الله العدوان عليها.

والدين: حيث لا يجوز المساس به.

والعقل: حيث من الفروض الأساسية المحافظة عليه، وتحاشي ما يفسده.

والعرض: والذي أوجب الله صيانتَه مما يخذشه.

والنسل: الذي يجب المحافظة على أصالته والتوقي من الانزلاق فيما يعود بالإفساد للأنساب.

والمال: الذي هو عصب الحياة.

ولقد جاءت النصوص في القرآن والسنة الداعية إلى فضائل الأخلاق، والتحذير من سيئ العادات والأفعال لتجعل تلك الأحكام الحافظة للمصالح بمثابة السياج الواقي من الأذى والضرر والبغي والعدوان.

ومن هنا جاء تقرير أحكام ذلك في خطبة الوداع، مقترنا بإقرار حرمة التعدي على شيء منها، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ

عليكم حراماً»^(١) فنظام الأخلاق إذا ما استقر عاش أبناء المجتمع في أمان واطمئنان، وإلا فشت في المجتمع مختلف صنوف الأذى ومظاهر العدوان.

﴿٣٥﴾ كشف الله له قلوب من يدعوهم، وأنهم ثلاث فئات :
منهم من ينفع معه الرفق واللين.

ومنهم العقلاني الذي لا بد له من الحجة والبرهان .

والقسم الثالث من يحتاج قبل دعوته إلى كشف شبهة بالمجادلة بالتي هي أحسن.

الأصل الذي كان من طريقة رسول الله ﷺ هو التزام منهج الرفق والحكمة والتذكير بالحكمة والموعظة الحسنة، لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] .

ولكن هناك فريق من الناس لا يقنعون لأول وهلة بما يعرض عليهم من الحق، بل يريدون مزيدا من الحجج؛ ولذلك يعرضون شكوكهم وأوهامهم مما يستلزم مجادلتهم بالحكمة، ومن لم يقتنع منهم، وأمعن في الجدال والمكابرة؛ فإنه يقارع بالحجج الواضحة والبراهين الساطعة، لرد ما لديهم من شبهات كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

ومن هنا نلاحظ أن رسول الله قد تنوعت أساليبه في حوار الآخرين: فمن إجابة على أسئلة، كما حصل كثيرا في مكة مع المشركين، وفي المدينة مع بعض أحبار يهود وغيرهم، أو مجادلة بالتي هي أحسن كما فعل رسول الله ﷺ مع نصارى نجران ومع ثلة من أحبار يهود وفريق من كبراء قريش إلى مفاصلة في جدال قوي أفضى إلى طلب المباهلة، كما حصل مع بطارقة نجران وغيرهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٦٧٩).

كُن فَيَكُونُ ﴿٥١﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥١﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ ﴿٥٢﴾ [آل عمران: ٥٩-٦١].

محمد ﷺ هو دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمه، إذ أنها رأت عند ولادته نورا أضواء قسما كبيرا من الأرض.

قال السيوطي في الخصائص: «أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي العالية قال لما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٢٩]: قيل له: قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان.

وأخرج أحمد والحاكم والبيهقي عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى عليهما السلام».

وأخرج ابن عساكر عن عبادة بن الصامت قال: قيل: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وكان آخر من بشر بي عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام».

وأخرج ابن سعد من طريق جويبر عن الضحاك أن النبي ﷺ قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، قال وهو يرفع القواعد من البيت ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] حتى أتم الله»^(١).

وبخصوص ما حصل ليلة مولده ﷺ فقد أخرج البيهقي والطبراني وأبو نعيم وابن عساكر عن عثمان بن أبي العاص، قال: «حدثني أمي أنها شهدت ولادة أمته أم رسول الله ﷺ ليلة ولادته، قالت: فما شيء أنظر إليه في البيت إلا نور، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو، حتى إني لأقول ليقعن علي فلما وضعت خرج منها نور أضواء له البيت والدار حتى جعلت لا أرى إلا نورا»، وأخرج ابن سعد وابن عساكر

(١) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، (٩/١).

عن ابن عباس «أن آمنة قالت: لقد علقت به فما وجدت له مشقة، حتى وضعته فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب»^(١).

صاحب الشفاعة الكبرى حتى يقضي الله بين الخلائق، وهو الشافع لمن أذن الله له أن يشفع له من أمته.

ومن الأحاديث التي ذكرت في ذلك حديث طويل لأحمد عن أبي هريرة وفيه قول عيسى: «اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتون، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم النبيين، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما قد بلغنا، ألا ترى ما نحن فيه، فأقوم فأتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي يفتح الله تعالى علي، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك سل تعطه، اشفع تشفع.

فأقول: يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: والذي نفس محمد بيده لما بين مصرعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى».

وأخرج الشيخان عن أنس أن النبي ﷺ «... فأقوم أنا أمشي بين سباطين من المؤمنين حتى أستأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع محمد رأسك، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة.

ثم أعود إليه الثانية... ثم أعود إليه الثالثة... ثم أعود الرابعة، فأقول: رب ما بقي إلا من حبسه القرآن، قال النبي ﷺ: فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله،

(١) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، (٤٦/١).

وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»^(١).

وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «للأنبياء منابرٌ من ذهب، فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه، قائما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي، فأقول يا رب أمتي أمتي، فيقول الله يا محمد، وما تريد أن أصنع بأمتك، فأقول يا رب عجل حسابهم، فما أزال أشفع حتى أُعطى صِكاكاً برجال قد بعث بهم إلى النار، وحتى إن مالكا خازن النار يقول: يا محمد، ما تركت لغضب ربك في أمتك من بقية»^(٢).

هو أول الخلق دخولا الجنة. 

يروى لنا السيوطي في الخصائص الكبرى نصوصا عدة منها:

«وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان قال: قال أصحاب النبي ﷺ: إبراهيم خليل الله، وعيسى كلمته وروحه، وموسى كلمه الله تكليما، فماذا أعطيت يا رسول الله؟ قال: «ولد آدم كلُّهم تحت رايتي يوم القيامة، وأنا أول من تُفتح له أبواب الجنة»^(٣).

وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يقرع باب الجنة»^(٤).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٧٤١٠)، مسلم، حديث رقم (١٩٣).

(٢) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، (٣٣٢/٢).

(٣) معجم الشيوخ (١/٢٨٠).

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم (١٩٦).

وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت، فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»^(١).

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق الأرض عن مجمعي يوم القيامة ولا فخر. وأعطى لواء الحمد ولا فخر. وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر»^(٢).

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن، عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «الجنة حرمت على الأنبياء حتى أدخلها. وحرمت على الأمم حتى تدخلها أممي»^(٣).

هو صاحب منزلة الوسيلة والفضيلة، وهي منزلة لا ينالها أحد من خلق الله عند الله في الجنة إلا هو ﷺ :

فقد أخرج البخاري عن ابن عمر قال: «أن الناس يصيرون يوم القيامة جُنا، كلُّ أمة تتبع نبيها، يقولون يا فلان اشفع لنا يا فلان اشفع لنا حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه مقامًا محمودًا»^(٤).

وأخرج البخاري أيضا عن ابن عمر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبيناهم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ». وزاد عبد الله: حدثني الليث: حدثني ابن أبي جعفر: «فيشفع ليقضي بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا، يحمده أهل الجمع كلهم»^(٥).

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٩٧). (٢) السلسلة الصحيحة للألباني (٤/١٠٠).

(٣) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، (٢/٢٢٤، ٢٢٥).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٧١٨). (٥) صحيح البخاري، حديث رقم (١٤٧٤).

وأخرج مسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»^(١).

وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد على الجهمية عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «إن الله رفعني يوم القيامة في أعلى غرفة من جنات النعيم، ليس فوقي إلا حملة العرش».

وأخرج البيهقي عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قوائم منبري رواتب في الجنة»^(٢).

هو أول من يبعث من خلق الله يوم البعث.

أخرج مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفق»^(٣).

وأخرج الدارمي والترمذي وأبو يعلى والبيهقي وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائلهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شافعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا، لواء الكرم بيدي، ومفاتيح الجنة بيدي، ولواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون»^(٤).

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٣٨٤).

(٢) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، (٢/٢٢٠-٢٢٦).

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٢٧٨).

(٤) معجم أبي يعلى الموصلي (ص ١٤٧)، حديث رقم (١٦٠)؛ مسند البزار = البحر الزخار

(١٣/١٣١)، حديث رقم (٦٥٢٣).

وأخرج أحمد وأبو يعلى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد تنجزها في الدنيا، وإنني قد اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وببيدي لواء الحمد ولا فخر، آدم فَمَن دونه تحت لوائي ولا فخر»^(١).

هو إمام الأنبياء وسيد المرسلين عندما أمهم جميعاً في بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج، ليربط بذلك بين الرسل والأنبياء، وبين بيوت العبادة: الكعبة وبيت المقدس، وفي ذلك من البشارة بنشر دينه ما لا يخفى.

نعم، إن رسول الله هو إمام الأنبياء والمرسلين، وكما يقول الدكتور خليل ملا خاطر: «مما يدل على تقدمه وفضله وعلو مقامه ورفعة قدره ﷺ؛ صلواته بالأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام ليلة أسري به إماماً في بيت المقدس؛ إذ لا يؤم القوم إلا الأخير والأفضل والأعلم والأكمل».

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجرِ وقريش تسألني عن مسراي...» الحديث، وفيه «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء... فحانت الصلاة فأممتهم. فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد، هذا مالكُ صاحبُ النار فسلم عليه فالتفت إليه فبدأني بالسلام»^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل...» الحديث، وفيه «ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريلُ حتى أممتهم...»^(٣) الحديث، والأحاديث كثيرة. والأمر مشهور بين أهل العلم^(٤).

(١) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، (٢١٧/٢-٢٢٠)، وأحمد، حديث رقم (٢٥٤٦) مطولاً، قال مخرجوه: «حسن لغيره».

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (١٧٢). (٣) صحيح النسائي، حديث رقم (٤٤٧).

(٤) كتاب مائة خصلة من خصال الرسول ﷺ (ص ٤٥-٤٦).

﴿٤٢﴾ هو من أعطاه الله الكوثر، وهو نهر من أنهار الجنة في يوم القيامة من شرب منه لا يظماً أبداً.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

أخرج أبو نعيم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أوتيت خصالاً لا أقولهن فخراً: غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وجعل أمتي خير الأمم، وأوتيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأوتيت الكوثر أنيته عددُ نجوم السماء».

وأخرج مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن حوضي لأبعدُ من أيلة من عدن. والذي نفسي بيده! إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه، قالوا: يا رسول الله! وتعرفنا؟ قال: نعم. تردون علي غرام محجلين من آثار الوضوء. ليست لأحد غيركم»^(١) (٢).

﴿٤٣﴾ أيده الله بالمعجزات الدالة على صدقه، وأن دينه هو دين الله الذي ارتضاه للعالمين.

أجل! وتلك سنة من سنن الله في الرسالات؛ وتأكيداً لهذه الحقيقة نلاحظ حديث رسول الله ﷺ الذي يروي الشيخان عن أبي هريرة، وهو قوله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(٣).

فكانت معجزته عقلية، وهي القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٤٨).

(٢) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، ج ٢ ص ٢٢٥.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٨١)، ومسلم، حديث رقم (٢١٧).

وهنا نلاحظ أن الله تعالى ذكر المعجزة الأقوى والأهم، والتي لها صفة الاستمرار، في أثرها على القلوب والأفكار والنفوس إلى يوم القيامة، والمتمثل بالقرآن الكريم. والذي اشتمل إعجازه على مظاهر عدة منها البلاغي والتأثيري والتاريخي والتشريعي والعلمي.

ومع كل ذلك فإن الله قد أيدته بمعجزات حسية مرئية ومتعددة، كنطق الجماد، وكلام الحيوانات، ونُبع الماء من أصابعه وتكثير الطعام القليل بحيث يكفي الأعداد الكثيرة، وغير ذلك من المعجزات الثابتة في السنة المتواتر، وأخبار الآحاد الصحيحة - كما سيأتي لاحقاً.

فالقرآن الكريم بشتى مظاهر إعجازه يبقى حجةً ساطعة مدى الأزمان، ولذلك فإن أتباع رسول الله ﷺ في تزايد - والله الحمد - لأنهم أصحاب حق، ولديهم الأدلة الدامغة التي تجعل لهم الغلبة في كل حال، وصدق الله العظيم القائل:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

٤٤ كانت معجزات الأنبياء قبله معجزاتٍ ماديةً، وأما ما أيدته الله به من المعجزات فكانت متنوعةً.

لأن المعجزات المادية ينقضي أثرها المادي من لمسٍ وإبصارٍ وإحساسٍ لدى انقضاء الزمن الذي حصلت فيه، ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام دائمة غير متقيدة بزمن، ولا هي حكر على جماعة، ولا هي مخصوصة ببقعة واحدة من الأرض، بل هي لكل شعوب الأرض، ولسائر الأزمنة التي تتعاقب إلى قيام الساعة. ومن هنا اقتضت حكمة الله أن يؤيده - مع ما آتاه الله من معجزات مادية - بمعجزة القرآن الكريم الدائمة، والله درُّ الشاعر أحمد شوقي، عندما قال معبراً عن ديمومة معجزة القرآن الكريم^(١):

(١) انظر ديوان أحمد شوقي (١/١٩٧).

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بجديد غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدُّ يزيْنهن جلالُ العتقِ والقدم

ولذلك فإن رسول الله مع ما حصل على يديه من معجزات مادية شاهدها بمجملها الألوف في عصره، فإن مظاهر الإعجاز القرآني على تنوعه اللغوي والتشريعي والعلمي يراه الملايين بعد الملايين، إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، وهو ما سنقف عليه في هذا المؤلف.

٤٥ الإعجاز في دينه : إعجاز لغوي ومادي وتشريعي وغيبى، وإعجاز هداية، وإعجاز علمي، وهو شامل لأنواع كثيرة من العلوم، أهمها : الإعجاز العلمي التجريبي والتشريعي؛ لتبقى الأبواب مشرعة أمام ما يكشفه الله لخلقه في أي وقت .

أجل ! فإن أمزجة الناس متباينة، وقناعاتهم شتى، وما يستهوي فئة قد لا يروق لأخرى. كما أن مستويات الناس الفكرية متعددة وأساليب فهمهم متنوعة.

ومن هنا فإن تعدد أنواع الإعجاز، وتنوع مظاهره يعتبر موثلاً كفاية، ومن مقتضيات استجابة الدعوة لما يرغب في الناس من طرائق مقنعة تلبي توجهاتهم وتناسب مستوياتهم، وتتنوع على حسب مشاربهم؛ لتحصل الغاية في هذا المجال، فمهما تقدم الزمن، ومهما تباينت ألوان الفكر الإنساني كان لنا في ذخيرة الإعجاز وفي تنوع مظاهره طرائق تلبي الحاجات، وتوصل إلى الغايات، بأخصر طريق، والله الحمد والمنة، الذي يسر القرآن للذكر، وهو المرتجى أن يجعلنا من المهتمدين... آمين.

٤٦ هو أكثر الأنبياء تابعا يوم القيامة .

« لقد أخبر ﷺ أنه أكثر الأنبياء أتباعا يوم القيامة، لأنه أعطي وحيا أوحاه الله إليه ولم يعط أحد من الأنبياء ذلك، فقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا

أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة»^(٢). وفي رواية عنه أيضًا: قال صلى الله عليه وسلم: «لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت. وإن من الأنبياء نبيا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد»^(٣). وحديث عرض الأنبياء عليه بأمامهم، وكذا عدد من يدخل الجنة من أمته، كل ذلك يدل على كثرة أتباعه صلى الله عليه وسلم^(٤).

٤٧ كان معلمًا ومربيًا، يضرب المثل المناسب، ويحاور ويقنع. مما جعل الناس يحبونه، فهذا معاوية بن الحكم يعبر عن ذلك فيقول: بأبي هو وأمي، والله ما نهرني ولا كهرني، ما رأيت معلمًا أحسن منه.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مرشد المرابين وسيد الحكماء الناصحين، حيث يروى عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى لم يبعثني متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا وميسرًا»^(٥).

وفي مجال توجيه المخطئين نلاحظ ما قد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن أعرابيا دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس، فصلى، قال ابن عبدة: ركعتين، ثم قال: اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد تحجرت واسعا، ثم لم يلبث أن بال في ناحية المسجد؛ فأسرع الناس إليه فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين، صبوا عليه سَجَلًا من ماء أو قال: ذنوبا من ماء»^(٦).

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري وسبق تخريجه قبل قليل.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (١٩٦). (٣) صحيح مسلم، حديث رقم (١٩٦).

(٤) انظر (ص ٦٧) من كتاب «مائة خصلة من خصال الرسول عليه الصلاة والسلام» للدكتور خليل ملا خاطر.

(٥) رواه مسلم في الطلاق، حديث رقم (٢٩). (٦) صحيح أبي داود للألباني، حديث رقم (٣٨٠).

وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: «بيننا أنا مع رسول الله في الصلاة، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله. فحدقني القوم بأبصارهم، فقلت: وائكل أميآه، ما لكم تنظرون إلي؟ قال: فضرب القوم بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يسكتوني، لكني سكت. فلما انصرف رسول الله، دعاني بأبي وأمي هو، ما ضربني ولا كهرني، ولا سبني، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، قال: إن صلاتنا هذه، لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وتلاوة القرآن»^(١).

وفي مجال محاورته للصحابة: في مجال الإرشاد، وبيان الحق والنهي عن المنكر، وما لا يليق، نلاحظ ما روي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم غلامٌ شاب، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الزنى. فصاح الناس وقالوا: مه. فقال رسول الله: أتجبه لأمك. فقال: لا. قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتجبه لأختك؟ قال: لا. قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم. قال: أتجبه لعمتك؟ قال: لا. قال: وكذلك الناس لا يحبونه لعماتهم. فآكره لهم ما تكره لنفسك. وأحب لهم ما تحب لنفسك^(٢).

٤٨ مستجاب الدعاء :

استسقى يوماً - حين هلكت المواشي وانقطعت السبل - وما في السماء قزعة؛ فحمد الله وأثنى عليه وقال فيما قال: «اللهم اسقنا غيثاً مريعاً غدقاً طبقاً...» فقال الرواي: فما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه حتى التقت السماء.

ويروي السيوطي في الخصائص الكبرى وتحت عنوان - باب دعائه في الاستسقاء^(٣) -

(١) صحيح النسائي، حديث رقم (١٢١٧).

(٢) رواه الإمام أحمد، حديث رقم (٢٢٢١١)، قال مخرجه: (إسناده صحيح).

(٣) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي، (١٦٢/٢-١٦٣).

أنه: أخرج البخاري عن أنس قال: «أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ فيبينما رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، وما في السماء قزعة، قال: فثار سحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته قال: فمطرنا يومنا ذلك، وفي الغد، ومن بعد الغد، والذي يليه إلى الجمعة الأخرى...»^(١).

وأخرج البيهقي وابن عساكر من طريق مسلم الملاتي قال: «جاء أعرابي إلى النبي... فقام رسول الله ﷺ حتى صعد المنبر ثم رفع يديه إلى السماء فقال اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا غدقا طيبا عاجلا غير راث نافعاً غير ضار، تملأ به الضرع وتنبت به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون، فوالله ما رد يديه إلى نحره حتى ألفت السماء بأردافها وجاء أهل الوطابة يضحون يا رسول الله الغرق الغرق...»^(٢).

﴿٤٩﴾ القرآن الكريم خُلِقَ، يقف عند أوامره ونواهيه وآدابه، فكأنه قرآن يمشي على الأرض.

قال تعالى في حق رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان أحسن الناس خلقا. كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، لم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا سخابا في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، وكان يعفو ويصفح ثم قالت: اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى العشر فقرأ السائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فقالت هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وقد ورد عن أنس أنه قال: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا»^(٣). ويقول الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (١٠٣٣). (٢) دلائل النبوة، البيهقي (١٤١/٦).

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣١٠).

بخصوص النص القرآني: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: «فهذا النص القرآني يثبت أن محمداً ﷺ على خلق عظيم، أي: فهو متمكن من أخلاقه العظيمة المثلى، قابضٌ على ناصيتها، وقد دل على هذا المعنى الاستعلاء الذي دل عليه حرف (على) في: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا النص يدفعنا بطريقة غير مباشرة إلى دراسة شخصية الرسول ﷺ بوصفه المثل الإنساني الكامل، لاكتشاف صفاته الخلقية التي يتحلى بها، واعتبارها كتاباً في مكارم الأخلاق مجسداً في صورة إنسان.

وبدراسة شمائل الرسول صلوات الله وسلامه عليه، تعرف مكارم الأخلاق معرفة تطبيقية عملية، ثم تكون لدى العقلاء الحكماء أمثلة للاقتداء بها واتباع خطواتها»^(١).

٥٠ كان يكرم الناس وينزلهم منازلهم :

يقول لأم هانئ: «مرحبا بأم هانئ، قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، ويكني الطفل ممازحا ويسأله عما يحب: «يا أبا عمير، ما فعل التغير»^(٢).

هناك شواهد تستفيض بهذا المعنى حتى توصلنا إلى حقيقة راسخة، بأن رسول الله ﷺ كان الأسوة المنفردة بهذه المعاني الرائعة والإشراقات الساطعة فمن ذلك^(٣):

✿ روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى بشراب، فشرب منه وعن يمينه غلامٌ وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟»، فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً، قال: فتلّه رسول الله ﷺ في يده^(٤).

(١) الأخلاق الإسلامية، الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني، ج ١ ص ٣٩٦.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٦١٢٩).

(٣) انظر الأخلاق الإسلامية لعبدالرحمن حبنكة الميداني، (٢/٦٩٣-٦٤١).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٦٢٠)؛ ومسلم، حديث رقم (٢٠٣٠).

- قوله: (فتلّه رسول الله ﷺ) أي: دفعه بقوة وعنف، كالكاره لفعله^(١).
- ❁ روى البخاري ومسلم أن عبد الرحمن بن سهل ذهب يتكلم وفي القوم من هو أكبر منه فقال له الرسول ﷺ: «كَبْرٌ كَبْرٌ»^(٢).
- ❁ وهو القائل فيما يرويه مسلم عن عقبه بن عمرو البدري: «لِيلِينِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ»^(٣).
- ❁ وهو المرشد لنا بأن نختار للإمامة مَنْ هو أهل لها، فيقول عليه الصلاة والسلام: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمَهُمْ بِالسَّنَةِ...»^(٤).
- ❁ وهو القائل فيما يرويه مسلم كذلك عن عقبه بن عمرو البدري: «لَا يُؤْمَنَنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا يَقْعُدَ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»^(٥).
- وهكذا سننقل الآن بصدد إكرام الآخرين والتلطف بهم والتواضع لهم وإكرامهم شواهد تؤكد هذه، فمن ذلك:
- ❁ روى الترمذي وأبو داود عن أم هانئ، أنها أجارت رجلا فقال لها رسول الله ﷺ: «قَدْ أَجْرْنَا مِنْ أَجْرْتِ يَا أُمَّ هَانِئِ، وَأَمَّا مَنْ أَمَّتَ»^(٦).

(١) انظر: فيض الباري على صحيح البخاري، حديث رقم (٣ / ٦٠٧).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٣١٧٣)؛ ومسلم، حديث رقم (١٦٦٩).

(٣) صحيح ابن ماجه، حديث رقم (٨٠٣).

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم (٦٧٣).

(٥) صحيح مسلم، حديث رقم (٦٧٣).

(٦) انظر الفتح الكبير في ضم الزيادات للجامع الصغير للسيوطي والفتح من صنع الشيخ يوسف النبهاني، ج ٢ ص ١٣١

❁ روى الإمام أحمد والبخاري والترمذي والشاطبي وابن ماجه عن أنس أن رسول الله رأى طفلاً يبكي على فقدته لطائر صغير كان يلهو به فطار منه، لذلك داعبه رسول الله ولاطفه بقوله: «يا أبا عمير ما فعل التُّغَيْرِ. يا أبا عمير ما فعل التُّغَيْرِ...»^(١).

❁ يروي ابن كثير في كتابه - شمائل الرسول - الحديث المتفق عليه والذي مفاده أن رسول الله ﷺ مر على صبيان يلعبون فسلم عليهم^(٢). فهو يهتم بدعوته حتى في الصبيان.

❁ **وَضَعَ الْقَوَاعِدَ لِبِنَاءِ أُمَّةٍ يَسُودُهَا الْعَدْلُ وَالْإِنصَافُ كَالْمُؤَاخَاةِ، وَأَقَامَ الْمَعَاهِدَاتِ مَعَ الْيَهُودِ وَالْقَبَائِلِ الْمَحِيطَةِ بِالْمَدِينَةِ.**

وكان الهدف من هذه المؤاخاة إذهاب الوحشة والغربة التي أصابت المهاجرين بمفارقتهم للأهل والعشيرة، فلما عَزَّ الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة، وعرفوا أسباب اكتساب الرزق، أبطل الله التوارث بين المتأخيين من المهاجرين والأنصار، وبقيت الأخوة في الله، وذلك بنزول قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وأما الهدف من إقامة المعاهدات مع اليهود والقبائل المحيطة بالمدينة فهو تأمين الدولة الإسلامية الناشئة من المخاطر الداخلية، وتأمينها من المخاطر الخارجية، بتحييد المحيط القريب منها فتأمن شره.

(١) انظر الفتح الكبير في ضم الزيادات للجامع الصغير للسيوطي والفتح من صنيع الشيخ يوسف النبهاني، (٢/٦٠٠).

(٢) انظر شمائل الرسول للترمذي، (ص ٨١).



وَضَعَ قواعد الشورى في الحكم، فأنهاى الطريق إلى الاستبداد، وكان يقبل نتيجة الشورى ولو خالفت رأيه، كما فعل يوم بدر حين نزل على رأي الحُباب، ويوم أحد في الخروج من المدينة، ويوم الحديبية حين أشارت عليه أم المؤمنين أم سلمة بالحلق حتى يحلق الناس، مع أن المعصوم الذي لا يخطئ لا يطلب منه الشورى، ولكن ليعلمهم هذا المبدأ العظيم.

فجاءت النصوص من كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ دالة على أهمية الشورى، فمن تلك النصوص قوله تعالى أمراً رسوله ﷺ بتطبيقها: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَأْمُرْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فانظر إلى موقع الأمر بها هنا فقد ربط برحمة من الله، وربط بأخلاق الرسول ﷺ.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَيْبَرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [٣٧] وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

فانظر - أخي الكريم - كيف جاء الحديث عن الشورى ضمن الحديث عن صفات المؤمنين، وكيف ذكرت الشورى بين الصلاة والإنفاق المتضمن للزكاة، والصلاة والزكاة ركنان من أركان الإسلام، وانظر إلى كون الحديث عن الشورى جاء في سياق جملة اسمية، والجملة الاسمية تدل على الثبات، وذلك يدل على أهمية مبدأ الشورى في الإسلام، مع أن النبي ﷺ مؤيد بالوحي، ليس بحاجة للشورى، ولكن ليعلم الناس هذا المبدأ العظيم في حياتهم. ولم تبق هذه النصوص نصوصاً نظرية، بل حوّلها رسول الله ﷺ إلى تطبيق عملي، وقام بها الخلفاء الراشدون من بعده أحسن قيام. وبذلك عالج الإسلام مبدأ الاستبداد الذي مارسه الجبابرة من قبل، فقد قال تعالى عن حامل لواء المستبدين: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [التقصص: ٤].

٥٣ كشف الله له من حجب الغيب فعلمه الله من علم ما كان في الزمن الماضي وما هو كائن في زمنه، وما سيكون إلى يوم القيامة :

فعن أبي زيد الأنصاري قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى الْعَصْرَ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ فَحَدَّثَنَا بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ فَأَعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا»^(١).

٥٤ بشر هذه الأمة بأنها الأمة الباقية التي لا تموت، وأنها ستبقى حية قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فقد قال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(٢).

٥٥ أنزل الله عليه القرآن الكريم وفيه علم كل شيء ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

فذكر فيه من أصول العلوم الشرعية والكونية وغيرهما، فتضمن من العبادات ما ينظم العلاقة بين العبد وربّه، ومن المعاملات ما ينظم العلاقة بين المجتمع، في مجال قوانين الأحوال الشخصية والقوانين المدنية، وذكر ما ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، مما أصبح يسمى بالقوانين الدستورية، وجاء بالعقوبات التي تردع المجرم مما يصلح بجدارة أن يكون قانوناً جنائياً لنشر الأمن بين الناس، ونظم العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول مما يعتبر تأسيساً للقانون الدولي، وذكر من علم الفلك وعلم الحساب وغيرهما، مما هو أساس لهذه العلوم، ليكون منطلقاً للاستزادة من هذه العلوم والتوسع فيها. ولمعرفة المزيد

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٢٨٩٢).

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (١٩٢٠).

حول هذا الموضوع، راجع أضواء البيان عند قول الله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٥٦ ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

يحكمها كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وسنة رسوله التي هي بيان لكتابه، تخصص عامه، وتقيّد مُطلقه وتبين مُجمّله، وقد تنفرد عنه ببعض الأحكام والقصص وغيرها، وتهتدي بما يستنبطه العلماء الربانيون منهما، وقد رسم هذا الكتاب وهذه السنة لهذه الأمة منهجا وسطا لا تفريط فيه ولا إفراط، ولا مغالاة فيه ولا تقصير.

٥٧ ميراثه العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر، وهو ميراث مُتاح لمن رغب في الاعتراف من ينبوعه الطاهر :

فقد قال ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيَاتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١).

٥٨ تكفل الله بحفظ منهجه القائم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو الطريق الواصل إلى رضوان الله وسعادة الدنيا والآخرة. فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد ظهر - على مدار التاريخ - مصداقُ هذا الحفظ، على رغم تكالب الأمم

(١) رواه أبو داود، حديث رقم (٣٦٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصحيح، حديث رقم (٦٢٩٧).

على هذه الأمة، وتدبير المكاييد لها على مستوى العالم، فبقي كتابها وسنة نبيها شامخين راسخين لا يصابان بأذى.

٥٩ دينه هو الصراط المستقيم الموصل للتي هي أقوم في كل شأن من شؤون الحياة، يحل مشكلاتها وينير لها طريق الخلاص من المأزق.

فهو الطريق الأقوم لكل شؤون الحياة، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

قال الشنقيطي: "وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال؛ لأتينا على جميع القرآن العظيم. لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيرى الدنيا والآخرة"^(١). فهو يهدي للتي هي أقوم في العقائد والعبادات والأخلاق والآداب، والمعاملات، وفي الاقتصاد، ونظام الحكم وغير ذلك من المجالات.

٦٠ دينه الحل الكامل للأزمات التي أصابت الإنسان في الأنفس والأموال والحياة الاجتماعية والنفسية.

فما فيه من تزكية للنفوس بتحليلتها بالفضائل، وتخليتها عن الرذائل، ووقاية وعلاج من الأمراض النفسية المستعصية، وما فيه من نظام اقتصادي قائم على منع الربا والاحتكار والغش كفيلاً بإبعاد العالم عن الأزمات المالية التي تعصف به من حين لآخر، وما فيه من عدالة اجتماعية وأخلاق وقيم كفيلاً بإقامة حياة اجتماعية، ملؤها الترابط والتعاون والتعاقد، بعيدا عن التفكك والتخاذل والتناحر.

(١) أضواء البيان (٣/١٧).

دينه قائم على الحوار بالحجة والبرهان، وليس على الصراع والقهر والغلبة، فحاور المشركين وأهل الكتاب والمسلمين. فالناظر إلى توارد النصوص من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ الداعية إلى الحوار أو المرشدة إليه، يتبين له ما للحوار من أهمية في الإسلام.

ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وعن أبي أمامة: «أن غلاما شابا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فصاح الناس، فقال: مه، فقال رسول الله ﷺ: أفرؤوه أدن، فدنا حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أتجبه لأمك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتجبه لأختك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم، أتجبه لعمتك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لعماتهم، أتجبه لخالتك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لخالاتهم، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: اللهم كفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه»^(١).

(١) رواه أحمد، حديث رقم (٢٢٢١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٠).

﴿٦٢﴾ علم أمته أن العلم هو طريق الإيمان والعمل الصالح ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ٤٧].

ولذلك تضافرت نصوص الكتاب والسنة مادحة العلم والعلماء، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [التقصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ومن ثم بَوَّبَ البخاري رحمه الله في صحيحه فقال: «بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ»^(١).

﴿٦٣﴾ جعل العمل عبادة لسد حاجات الأمة، وجعله من فروض الكفاية التي لا بد من تحقيقها وإلا أئمت الأمة كلها:

وتعريف فروض الكفاية عند الفقهاء - كما ذكر السيوطي - : مصالح عامة دينية أو دنيوية لا ينتظم أمر الأمة إلا بها، فطلب الشرع تحصيلها، وفروض الكفاية كثيرة، ومنها إقامة الحرف والصناعة، والزراعة، وتعلم علوم الحياة كالطب والحساب وغيرها. ومنها أيضاً: كفاية فقراء الأمة مسلمين أو غير مسلمين^(٢).

(١) صحيح البخاري (١/١٥٩)، دار المعرفة ١٤٠٠.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر.. (ص ٤١٠-٤١٥)، ط. ١، دار الكتب العلمية.

وإذا لم يقم بعض الأمة بفروض الكفاية هذه، أثم الجميع، إلا أن العلامة الشاطبي يرى: أن القيام بها يكون عن طريق التخطيط التربوي والتعليمي لتربية وتعليم أبناء الأمة، فقال: «أن يتربى لكل فعل قوم»^(١).

٦٤ كان يصلي من الليل واقفا حتى تتفطر قدماه من طول القيام ويقول لمن أشفق عليه لطول قيامه وكثرة بكائه: أفلا أكون عبدا شكورا.

وقد شهد له ربه بطول قيام الليل، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ...﴾ [المزمل: ٢٠].

وشهد له المقربون منه، مثل عائشة، وشهد له أصحابه بذلك فهذا عبد الله بن رواحة قال فيه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
بيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع^(٢)

٦٥ كان يخاطب الناس على قدر عقولهم وينزل الناس منازلهم.

وهذه صفة المربي الناجح، فما كان ﷺ يعمد إلى مستوحش الألفاظ، ولا إلى غريب المعاني ليتفصح بذلك، بل كان كلامه بيّنا فصلا موجزا، لو عدّه العادُّ لأحصاه، فعن عائشة رضي الله عنها «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لِأَحْصَاهُ»^(٣).

(١) الموافقات في أصول الشريعة (١٧٩-١٨١)، ط ٢ المكتبة التجارية.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (١١٥٥).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٥٦٧)؛ ومسلم، حديث رقم (٢٤٩٣).

٦٦ عنايته بكل مفيد سواء أكان لدى المتقدمين أم المتأخرين من ذلك عنايته بالإحصاء، وحفر الخندق، واتخاذ الخاتم ونحو ذلك.

ففي صحيح مسلم يقول ﷺ: «أحصوا لي كم يلفظ الإسلام»^(١). وأخذ بتجربة الفرس في حفر الخندق حول المدينة بناءً على نصيحة سلمان الفارسي.

وفي صحيح مسلم «أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من فضة. ونقش فيه - محمد رسول الله - وقال للناس: إني اتخذت خاتماً من فضة ونقشت فيه: محمد رسول الله - فلا ينقش أحد على نقشه»^(٢).

٦٧ تكريمه للإنسان؛ لكونه إنساناً، ولذا قام لجنزة يهودي لكونها جنزة إنسان.

ففي صحيح البخاري: «أن النبي ﷺ مرت به جنزة فقام، فقيل له: إنها جنزة يهودي، فقال: أليست نفساً»^(٣).

ولم لا يكرمه؟ وآيات كتاب الله حافلة بتكريمه، فقد قال ربه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَالْبَرِّ وَالْبُنْيَانِ وَأَنْزَلْنَاهُمْ مِنْ سَمَوَاتٍ كَثِيرٍ مِنْكُمْ نَسِيتُمْ مَا لِخَسْرَتِكُمْ آيَاتُنَا كَرِيمًا إِنَّكُمْ عَلَىٰ عُنُقِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا تَقْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

٦٨ تكريمه للمرأة وحثه على إنصافها والوصية بها خيراً.

فقد أوصى بها في أكثر من مناسبة، وأوصى بها في آخر مؤتمر عام (حجة الوداع)، لا يفصله عن وفاته ﷺ إلا نيفٌ وتسعون يوماً، فعن سليمان بن عمرو بن الأحوص

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٤٩).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٠٩١).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (١٣١٢).

قال حدثني أبي: «أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ فذكر في الحديث قصة، فقال: ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنما هنّ عوانٌ عندهنّ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح، فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا إن لكم على نساءكم حقا، ولنساءكم عليكم حقا، فأما حقكم على نساءكم فلا يوطئن فراشكم من تکرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تکرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»^(١).

٦٩ مداومته لذكر الله، وقراءة القرآن، والتأمل في ملكوت الله.

امثالاً لأمر الله بذلك، فقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۗ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۗ وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۗ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

٧٠ تعظيمه لشعائر الله.

فقد أخبر الله أن تعظيمها من تقوى القلوب، فقد قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْبًا اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وأي قلب أتقى من قلبه ﷺ؟.

٧١ تقديره لجلسائه:

فكان إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يصرف الرجل وجهه، ولذا لا يحسب جلسيه

(١) رواه الترمذي، حديث رقم (١١٦٣) وقال الألباني: حديث حسن.

أن أحدا أكرم عليه منه. فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده»^(١).

٧٢ كان يجلس حيث ينتهي به المجلس :

فطبق أصحابه هذا الهدى، فعن جابر بن سمرة قال: «كنا إذا أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا حيث تنتهي»^(٢)، وصار ذلك هدي أهل التواضع، يؤدبون به غيرهم، فقد أقبل يزيد بن عبد الملك بن مروان الى مكحول وأصحابه، فلما رأيناه هممنا بالتوسعة له، فقال مكحول: «مكانكم، دعوه يجلس حيث أدرك، يتعلم التواضع»^(٣).

٧٣ كان كثير الصمت طويل الفكر وإذا نطق بنطق بجوامع الكلم :

في مسند أحمد عن سَمَاءٍ قَالَتْ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: «أَكُنْتُ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: نَعَمْ، فَكَانَ طَوِيلَ الصَّمْتِ قَلِيلَ الضَّحِكِ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَذْكُرُونَ عِنْدَهُ الشُّعْرَ وَأَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِهِمْ فَيُضْحِكُونَ وَرَبَّمَا تَبَسَّمَ»^(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: «أوتيت جوامع الكلم»^(٥).

٧٤ وكان إذا دخل بيته قسّم وقته أثلاثا : قسّم لله، وقسّم لأهله، وقسّم لنفسه وكلّها لله .

لأن للنفس وللأهل حقوقا، والتوازن يقتضي أن يعطى لكلّ ذي حق حقه، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عبد الله ألم

(١) رواه الترمذي، حديث رقم (٢٤٩٠) وصحح هذا القدر من الحديث الألباني في صحيح الجامع الصحيح، حديث رقم (٤٧٨٠).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٣١/٣).

(٣) حلية الأولياء (١٨٤/٥).

(٤) مسند أحمد، حديث رقم (٢٠٨٤٤)، قال مخرجه: (إسناده حسن).

(٥) صحيح مسلم، حديث رقم (٥٢٣).

أَخْبَرَ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِرَوْحِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْوَرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...»^(١).

٧٥ كان يُحَسِّنُ الحسَنَ ويقويه، ويقبح القبيح ويستنكره.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] والإحسان: أي كل شيء حسن، وأخرج أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: «... فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً، فهو عند الله سيء»^(٢).

٧٦ كان لا يرد صاحب حاجة إلا بها، وإذا سئل ما ليس عنده حزن فوجهه ربه بقوله: ﴿وَأَمَّا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ أَبِيغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

فَعَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ - قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مَا يَخْشَى الْفَاقَةَ»^(٣).

٧٧ يتفاضل الناس عنده بالتقوى والعمل الصالح.

لأن ربه علمه أن معيار التفاضل الصحيح هو التقوى، لا المعايير التي تواضع الناس على اعتبارها من نسبٍ وجاهٍ ومال، فقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (١٩٧٥).

(٢) مسند أحمد، حديث رقم (٣٦٠٠)، قال مخرجه: (حسن).

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣١٢).

٧٨ كان دائم البشر سهل الخلق لا فحاشاً ولا عيباً ولا مداحاً .

وبهذا البشر وسهولة الخلق فتح الله له قلوباً عُمياً، فدخلت في دينه واجتمعت عليه. فقد قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعن عطاء رضي الله عنه قال: «قلت لعبد الله بن عمرو: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن يا أيُّها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأمين، أنت عدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا سحاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وأذاناً صمّاً، وقلوباً غُلفاً»^(١).

٧٩ لا يتكلم في أحد ولا يعيِّره ولا يطلب عورته وزلته .

بل يغضي عن الزلات، ويعفو عن العثرات، وقد شدد النكير على من يغتاب المسلمين ويتبع عوراتهم، وما كان له أن يخالف الناس إلى ما ينهاهم عنه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»^(٢).

٨٠ قالت عائشة: كان ألين الناس وأكرم الناس وكان ضحاکا بسّاماً .

وخير من يصف الإنسان هو المتابع له عن قرب، وقد كانت عائشة رضي الله عنها بحكم

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٢١٢٥).

(٢) رواه أبو داود، حديث رقم (٤٨٨٢)، وقال الألباني عنه في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٤٠): حسن صحيح.

علاقتها الزوجية به على قرب منه، فلو كانت أخلاقه هذه مصطنعةً لكشف قربها منه اصطناعها، لكنها كانت أخلاقاً راسخة لا تتزحزح.

٨١ كان يقدم أصحابه ويقول: ساقى القوم آخرهم شرباً.

فعن عبد الله بن أبي أوفى قال: «كُنَّا فِي سَفَرٍ فَلَمْ نَجِدِ الْمَاءَ، قَالَ: ثُمَّ هَجَمْنَا عَلَى الْمَاءِ بَعْدُ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَسْقُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَا أَنُوهُ بِالشَّرَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: سَاقَى الْقَوْمِ آخِرُهُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى شَرَبُوا كُلُّهُمْ»^(١).

٨٢ كان حريصاً على الوفاق، لم يقتل المنافقين حتى لا يقال إنه يقتل أصحابه.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمَّعها الله رسوله ﷺ، قال: «ما هذا»، فقالوا: كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة».

قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد. فقال عبد الله بن أبي: أو قد فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذلَّ، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(٢).

(١) رواه الإمام أحمد، حديث رقم (١٩١٢١) بهذا الاختصار، وقوله ﷺ: «إن ساقى القوم آخرهم شرباً» قد صح عند مسلم، حديث رقم (٦٨١) من حديث أبي قتادة الطويل.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٠٧)؛ ومسلم، حديث رقم (٢٥٨٤).

٨٣ كان يسمع الإنشاد ويستزيد منه ويكرم الشعراء ويجيزهم .

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُؤَيِّدُ حَسَانَ بَرُوحِ الْقُدُسِ، يَنَافِعُ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ»^(١).

وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال كنت ردفت النبي ﷺ فقال لي: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم، قال: «هيه»، فأنشدته بيتا، ثم قال: «هيه» فأنشدته بيتا، فلم يزل يقول هيه وأنشده حتى أنشدته مئة بيت^(٢).

٨٤ كان يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يأخذ الصدقة .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»^(٣)، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا»^(٤).

٨٥ آخى بين المهاجرين والأنصار .

فآخى بين المهاجرين من جهة، وبينهم وبين الأنصار من جهة أخرى.

وكان الهدف من هذه المؤاخاة إذهاب الوحشة والغربة التي أصابت المهاجرين بمفارقتهم للأهل والعشيرة، وتأمين معيشتهم، وقد شرع التوارث بينهم، فاجتمع الشمل وذهبت الوحشة، فلما عرفوا أسباب اكتساب الرزق، أبطل الله التوارث، وبقيت الأخوة في الله، وذلك بنزول قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

(١) رواه الإمام أحمد، حديث رقم (٢٤٤٣٧) وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٢٢٥٥).

(٣) رواه أبو داود، حديث رقم (٤٥١٢) وقال عنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود، حديث رقم (٤٥١٢): حسن صحيح.

(٤) رواه البخاري، حديث رقم (٢٥٨٥).

٨٦ كتابة أول وثيقة سياسية تضمن حقوق المواطنة والجوار .

وهذه الوثيقة هي بمثابة دستور في عصرنا الحاضر، فقد تضمنت حقوق المواطنة بين مختلف مكونات الدولة من مسلمين ويهود وغيرهم، وغير ذلك من مكونات الدولة، وما لها من حقوق وعليها من واجبات، مما مهد السبيل لميلاد فقه السياسة الشرعية الذي تناوله العلماء بالتفصيل والتوضيح - على مدار التاريخ الإسلامي - .

٨٧ اهتم بإقامة المسجد أكثر من اهتمامه بيوت نسائه، وجعله مكانا للعبادة بمفهومها الشامل .

وكان ذلك في أيامه الأولى بالمدينة، وقد أسس المسجد ليكون مكانا لإقامة شعيرة الصلاة، الركن الثاني من أركان الإسلام، وليكون جامعة علمية، ينهل منها طلاب العلم، ومعقدا لألوية الجهاد، ومحضنا لتخريج الدعاة، وملجأ للفقراء الذين لا سكن لهم، ومؤتمرا يأتري فيه المؤمنون، لبحث مشاكلهم والتوصل إلى حلها.

٨٨ عُرِفَ بالحياء، حتى كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وقال : «الحياء كله خير»^(١) .

فنال ثمرة الحياء الكريمة، فكان لا يراه مولاه حيث ينهاه، ولا يفقده حيث يأمره، ولم يكن يمنعه الحياء من قول الحق، ولا تعليم الناس ما يحتاجونه في دينهم.

٨٩ كان يلاطف الناس جميعا رجالا ونساء وأطفالا، ويمازحهم ولا يقول إلا حقا .

فعن أنس بن مالك أن رجلا من أهل البادية يقال له زاهر بن حرام، كان يهدي إلى النبي ﷺ الهدية فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله ﷺ:

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٣٧).

«إن زاهرا باديها ونحن حاضرته»، قال: فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره فقال: أرسلني من هذا؟ فالتفت إليه، فلما عرف أنه النبي ﷺ جعل يلزق ظهره بصدره، فقال ﷺ: «من يشتري هذا العبد؟» فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسداً، قال: «لكنك عند الله لست بكاسد»، أو قال ﷺ: «بل أنت عند الله غال»^(١).

وعن أبي التياح قال سمعت أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخَالِطَنَا حَتَّى يَقُولَ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النَّغِيرُ»^(٢).

قال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفّ قط، وما قال لشيء صنعته: لم صنعتُه؟ ولا لشيء تركته: لم تركته؟^(٣).

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً له ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله»^(٤).

وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشُقُّ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»^(٥).

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، حديث رقم (٥٧٩٠) وقال عنه شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٦١٢٩).

(٣) صحيح الترمذي، حديث رقم (٢٠١٥).

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٢٨).

(٥) صحيح مسلم، حديث رقم (١٨٢٨).



كان متواضعا، يأكل كما يأكل العبد، وكان يرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويركب الحمار، ويكون في مهنة أهله، فإذا حانت الصلاة وثب سريعا، وحج على رحلٍ رثٍّ ومع ذلك كان يقول: «اللهم حجًا لا رياء فيه ولا سمعة»^(١).

ومن مظاهر تواضعه ﷺ ما رواه أنس رضي الله عنه قال: «إِنْ كَانَتْ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ»^(٢).

ومنه ما رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتني النبي ﷺ برجل ترعد فرائصه، قال: فقال له: «هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء» قال: ثم تلا جرير بن عبد الله البجلي: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٥٠]^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ يَخِيطُ ثُوبَهُ وَيُخَصِّفُ نَعْلَهُ وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بَيْوتِهِمْ»^(٤).

ومن ذلك نهيه ﷺ أن يطرى بالمدح، فقد قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»^(٥).

(١) راجع فتح الباري (١/١٦٢، ١٦٣)، والبيهقي (٧/٢٨٣)، وابن ماجه، حديث رقم (٢٨٩٠) وملخصًا ومنتخبًا من هذه الكتب.

(٢) أخرجه البخاري، حديث رقم (٦٠٧٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/٤٧، ٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم (١٨٧٦).

(٤) رواه أحمد (٢٥٣٤١) والبخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٥٣٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم (٤٩٣٧).

(٥) رواه البخاري، حديث رقم (٣٤٤٥).

٩٢ كان يمضي عليه الشهران ، ولا توقد في بيته نار ، وإنما غالب قوت أهله التمر والماء .

هذا على رغم أن الله خيره بأن يعطيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله ، فقد قال عن نفسه ، وهو الصادق المصدوق : «إن عبدا خيرَه الله بين أن يؤتية من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده»^(١).

٩٣ عدله وإنصافه : ومنه إعطاؤه مفتاح الكعبة لبني شيبه يوم الفتح ، وكان عندهم في الجاهلية ، مع أن عمّه العباس طلبه منه فلم يقبل .

ولم يكن يحابي قرابته بحقوق لا يستحقونها ، ولا بدفع عقوبة استحقوقها ، فعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يَكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ»، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَفَطَعْتُ يَدَهَا»^(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبَا أَضَعُ رَبَانَا، رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(٣).

٩٤ لما قدم المدينة المنورة أضاء منها كلُّ شيء ، فهي لذلك منورة بنور الله ، فصلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وجزاه عن أمته خير الجزاء .

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَقَالَ: مَا نَفَضْنَا

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٣٩٠٤).

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (٣٤٧٥).

(٣) رواه مسلم، حديث رقم (١٢١٨).

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا»^(١).

٩٥ انتهجه مبدأ التدرج في الأحكام، مراعاةً للظروف والأحوال، من ذلك تَرْكُهُ الأصنامَ المقامةَ حول الكعبة، وعدمُ إزالتها حتى فتحت مكة المكرمة.

وبذلك أرسى قاعدة عظيمة من قواعد تغيير المنكر، حيث يشترط الشرع لتغييره أن لا يترتب عليه منكر أعظم منه، فإن ترتب عليه منكر أعظم منه، كان تغييره منكراً، وهي قاعدة لو أخذ بها المستعجلون لقصت على كثير من مظاهر التطرف والغلو.

٩٦ اشتغاله ببعض المهن لكسب قوته كرعي الغنم والتجارة.

فقطع بذلك السبيل على الفهم السقيم للتدئين، فإن بعض الناس يرى أن ثمت تناقضا بين العمل للحياة الدنيا، والعمل للأخرة، يلخص هذين المبدأين في قوله تعالى: ﴿وَأَبْتَعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

٩٧ حكمته في الدعوة ومراعاة أحوال المدعويين حسب القوة والضعف، والتدرج من الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية، مع كَفِّ اليَدِ عن القتال، ثم الدعوة جهراً مع قتال من قاتل، ثم الدعوة جهراً مع قتال كل من يقف في وجه الدعوة.

وبذلك حصن دعوته من التهور، والفوضوية، باعتماد التخطيط والتدرج، مما قطع السبيل على أصحاب الاستعجال الذين يريدون قَطْفَ الثمرة قبل نضجها،

(١) رواه أحمد، حديث رقم (١٣٨٣٠) وعلق شعيب الأرنؤوط: «إسناده قوي على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير جعفر بن سليمان - وهو الضبعي - فمن رجال مسلم».

وتحقيق التمكين بين عشية وضحاها، وحرِيٌّ بالدعاة إلى الله أن يُخضعوا دعوتهم لهذا المنهج القويم، وهذا الصراط المستقيم.

٩٨ ثقته المطلقة بنجاح دعوته، حتى وهو في أصعب الظروف وأحلكها، فقد وعد سراقه بسوّاري كسرى، وهو من كان يسعى للقبض عليه وتسليمه للمشركين، ووعد الصحابة بفتح مدائن فارس، وهم محاصرون في معركة الخندق .

فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وعن البراء بن عازب قال: «لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكيننا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء، فأخذ المعول، فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسرت ثلث الحجر، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية، فقطع الثلث الآخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»^(١).

٩٩ كان شديد الوفاء بالعهد، ظل في مكان ينتظر أعرابيا يوما، وبقي أكثر من ذلك حتى جاءه .

ولم لا؟ وهو الذي حذر من خُلف الوعد، وجعله علامة من علامات النفاق، فقد قال ﷺ: «أربع خلال من كنَّ فيه كان منافقا خالصا: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كان فيه خصلة منهن كانت

(١) مسند أحمد، حديث رقم (١٨٦٩٤).

فيه خصلة من النفاق حتى يدعها»^(١).

فما كان له ﷺ أن يخالف إلى أمرٍ نَهَى عنه .

وهو الذي يقرأ قول الله على لسان أخيه شبيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٠].

وكان يعمل مع أصحابه كواحد منهم، كما فعل في بناء المسجد^(٢)،
وفي بعض أسفاره ذبحوا شاة وأمر بإصلاحها، فقال أحدهم: عليّ
ذبحها، وقال الآخر: عليّ سلخها، وقال الآخر: عليّ طبخها، فقال ﷺ: عليّ
جَمْعُ الحطب، فقالوا: نكفيك، فقال: قد علمت أنكم تكفونني، ولكنني أكره أن
أتميز عليكم.. . وقام وجمع الحطب^(٣).

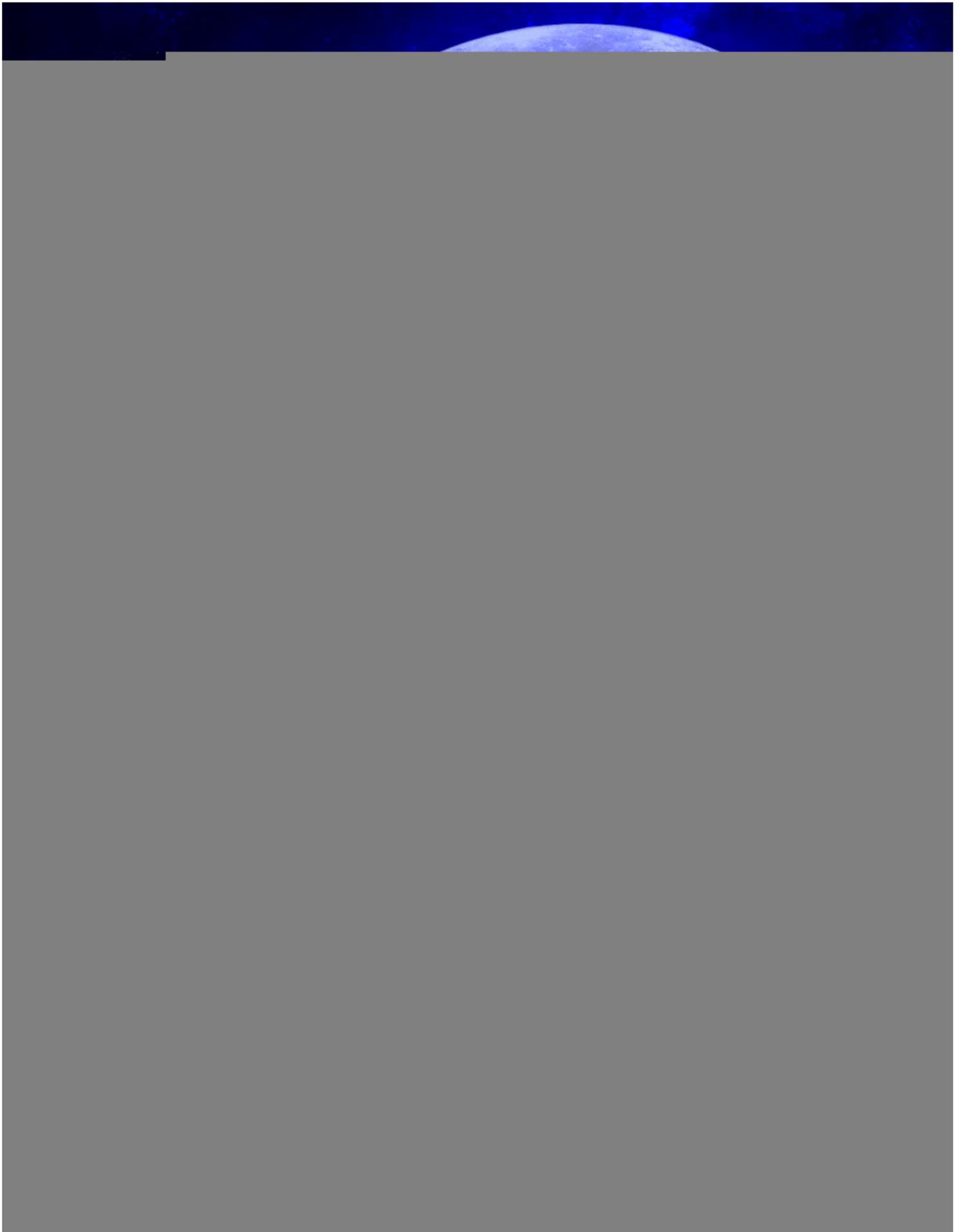
فأين هذا الخلق العظيم من سلوك بعض الناس إذا كانت له مسؤولية أو منصب
يبدل جهده لإحاطة نفسه بالأبهة، ويتعد كلَّ البعد عن مساعدة مَنْ تولى عليهم
بل ربما يكلفهم ما لا يطيقون.



(١) رواه البخاري، حديث رقم (٣٨٧٨)؛ ومسلم، حديث رقم (٥٨).

(٢) انظر صحيح البخاري، حديث رقم (٤٢٨).

(٣) انظر: سيرة خمسين صحابياً للدكتور راتب النابلسي.





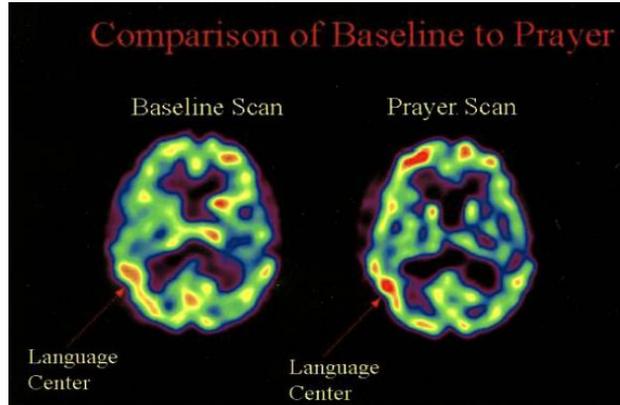
الطب وعلوم الحياة

الإيمان نزوع فطري

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨-٢٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥﴾ [المؤمنون: ١-٥].



مقارنة بين نشاط المخ قبل الصلاة وأثناءها

الدلالة الشرعية:

تشير الآيات الكريمة إلى أن الإسلام دينُ الفطرة، والنفْسُ البشرية مفطورة على الإيمان، وأن القلوبَ تركز إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب، كما جاء في الآية .

الحقيقة العلمية:

لقد أصبح الاستغراق في العبادة مجالاً للدراسات العلمية، ولم يعد الإيمان بالله تعالى في الدراسات العلمية ضرباً من الفلسفات والتصورات الشخصية، كما كان يعتقد البعض سابقاً، وقد أكدت البحوث العلمية مؤخراً: أن الإيمان بالله تعالى نزوعٌ فطري، ولا يمكن تجاه نداء الفطرة، وأن في أداء العبادات على وجهها الصحيح شفاءً لاضطراب النفس البشرية.

وخلاصة الأبحاث التي أجريت على المخ بتقنية جديدة لأشعة إكس، ونشرت في أبريل عام ٢٠٠١، وقام بها فريقٌ علمي، على رأسه البروفيسور أندرو نيوبيرج Andrew Newberg، أستاذ علم الأشعة Radiology بكلية الطب بجامعة بنسلفانيا، في فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية هي أن الإيمان بالله مقصد مصمم داخلياً Built-in Design في مخِّ البشر؛ بحيث لا يمكن لأحد التخلص منه إلا تعامياً.

ووفق ما أعلنه البروفيسور نيوبيرج: أن التدين مهما اختلفت صورُهُ هو استعداد فطري، مركز داخل المخ الذي يمكن وصفه طبقاً لما أثبتته التجارب، بأنه مهياً بالقوة للتدين Hard-wired for Religion، والتجربة العملية تخبرنا كيف أعدَّ الله تعالى الإنسان لكي يعرفه، وتُعَلِّمُنَا أن الدين مطلب طبيعي للإنسان، يماثل الطعام والشراب .

وبهذا نزداد يقينا في وجود الله تعالى وقدرته؛ وإلا فلا فائدة من الملكات الممنوحة للإنسان، والتي ميّزته عن العجاوات، وإذا صاحب الخشوع أداء العبادات فستصبح ذات تأثير فعال نافع للبدن والنفس، يمكن قياس تأثيره معمليا. ومن هذا المنطلق يقول نيوبيرج: "لقد اكتشفت الدراسات النفسية الدينية ثراء الدين بأرقى الأساليب العلمية لبلوغ التوازن النفسي".

وقال البروفيسور لورنس ميكيني عميد المؤسسة الأمريكية لعلاج الاضطرابات الذهنية: "إن ممارسة التأمل العميق؛ باعتباره صورة من صور الخشوع، قد يساعد في حد ذاته على التغلب على الشعور بالألم النفسي والإحباط، ويعيد التوازن في توزيع النشاط في مراكز المخ، ويفرغ شحنات الشعور بالتعاسة والألم وفقدان الأمل؛ حتى عند غير المؤمنين".

وقد بدأت الدراسات النفسية الدينية في الستينيات من القرن الماضي، وفي عام ١٩٨٠ أطلق ميكيني ومساعدوه على تلك الدراسات مصطلح الدراسات النفسية الدينية Neuro-theology، وأخرج عام ١٩٩٤م كتابه بنفس الاسم، ويقدم هذا العلم تأييده التام للحقيقة الجوهرية في الدين وهي الإيمان بالله تعالى. قال ميكيني: "ويكفي أننا قد أوجدنا طرقاً عملية لقياس الأنشطة الفكرية، ولم يعد الإيمان بالله تعالى والمشاعر الدينية خلال العبادة نشاطاً فكرياً غير قابل للتجربة والإثبات، ومن تلك التقنيات الجديدة التصوير بالرنين المغناطيسي MRI Magnetic Resonance Imaging، التي أكدت نتائج نيوبيرج بالفعل".

وقال البروفيسور بليتريني من جامعة بيزا في إيطاليا: "إن كل شيء نفعله أو نستشعره - سواء كان يسيرا كحركة إصبع أو معقدا، كالانفعالات العاطفية، الظاهرة منها أو الكامنة في أغوار النفس - صار بالإمكان رسمه على شكل خريطة، تظهر الأماكن المتأثرة بالمخ، ويصاحب كل شعور نموذج محدد، يمكن تسجيله وتحليله، كالتحاليل الطبية العضوية تماما.

وهذا المجال الجديد لاستطلاع أغوار الإنسان، وما في باطنه من عواطف ومشاعر وأفكار، ومدى تأثره بالاعتقاد الديني ساحرٌ حقا، ويدخل فيه الباحثون اليوم بحذر شديد، حريصين على المنهج العلمي في البحث والتحليل، كبقية مجالات العلوم التجريبية.

وقال البروفيسور مايكل ماكلوف من جامعة دالاس بالولايات المتحدة الأمريكية: «يتأثر الوجدان النفسي بالعالم الخارجي، ويؤثر في الجسد العضوي، ويمثل الإيمان والعبادات صمامَ أمانٍ لتلك التأثيرات الطبيعية»، وقد أفضت دراسته إلى أن الطبيعة البشرية مصممةٌ بحيث تحفظها العباداتُ في توازن تام وتقيها الاضطراب.

وفي تحليل شمل ٤٢ دراسةً ميدانية واسعة، وجد البروفيسور ماكلوف: أن معدل الوفيات يقل بالاستغراق في الصلوات وبقية العبادات، وهذا التأثير مستقل عن عواملٍ أخرى مضرّة بالصحة، كتناول الخمر والتدخين.

ولم يُفُتْ البروفيسور نيوبيرج أن يعلق على تلك النتيجة بقوله: «نحن لا ندري حتى الآن على وجه اليقين كيف يؤدي الإيمان العميق والاستغراق في العبادة إلى الحفاظ على سلامة النفس، وصحة البدن، ومكافحة المرض، وتعطيل الإسراع في عمل الآليات الداخلية للموت، ولكن معرفتنا لآليات عمل الجسم؛ خاصةً المخ، تؤهلنا لتلمس آفاقٍ جديدة من البحث؛ لنثبت يوما ما بحيادٍ وجود تأثيراتٍ عضوية للإيمان والعبادة، وندرك منها اليومَ نقصَ عددِ ضربات القلب، وضغطِ الدم، وتغيرِ الهرمونات كمًّا ونوعًا، والميل العصبيّ لتحقيق حالة من الهدوء؛ نتيجة الخشوع والاستغراق، وقد تؤدي تلك العوامل وغيرها إلى تنشيط جهاز المناعة».

النتيجة:

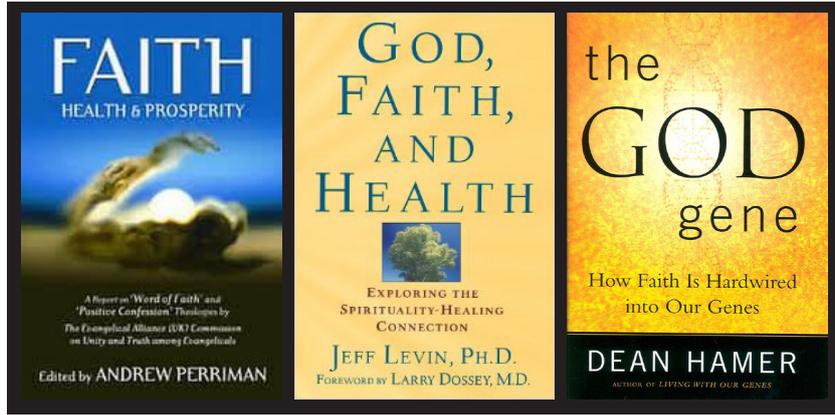
إن البحث العلمي المجرد المحايد سيظل يكتشف آثارَ الإيمان بهذا الدين العظيم، والعمل بمقتضاه على صحة الإنسان النفسية والجسدية، وتزداد كلما

الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة

رسخت قدمه في العمل بهذا الدين، وصدق الله القائل:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾
[الرعد: ٢٨].

﴿قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٣٦﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].



نُشرت دراساتٌ علميةٌ عدةٌ مفادُها:

أن الإيمان بالله تعالى مغروسٌ داخلَ النفس البشرية، وأن توظيفه طريقٌ إلى الصحة والسعادة؛ منها كتاب:

«الإيمان بالله مغروس بقوة داخل جيناتنا» لديان همر، وكتاب «الإيمان والصحة» لجيف ليفن ولاري دوسي، و«الإيمان صحة وفلاح» لأندرو بريمان.





النحل

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

لقد بين القرآن الكريم سيرة النحل في كلمات معدودات، فبالإيحاء من المدبر الحكيم اتخذ النحل بيوتاً من الجبال، ثم انحدر منها إلى الأشجار، ثم إلى الخلايا التي صنعها له الناس على نحو ما نعرفه اليوم.

وتدل الدراسات العلمية المستفيضة لمملكة النحل: أن إلهام الله تعالى لها يجعلها تطير بحثاً عن الغذاء، فتبتعد عن خليتها آلاف الأمتار، ثم ترجع إليها ثانية دون أن تخطئها بالذهاب إلى خلية أخرى غيرها، علماً بأن الخلايا في المناحل تكون متشابهة ومرصوفة بعضها إلى جوار بعض، وذلك؛ لأن الله تعالى قد ذلّل لها الطريق ومنحها من قدرات التكيف الوظيفي والسلوكي ما يعينها على استكشاف الغذاء وجنيّه ثم العودة إلى الخلية.



الحقائق العلمية:

تضم خلية النحل ملكة واحدة، وبضع مئات من الذكور، وعشرات الألوفا من الشغالات، تبحث النحلات الشغالة عن الغذاء، فإذا وجدته إحداها عيّنت مكانه وقامت بإخطار رفيقاتها بمصدر الغذاء، عن طريق حركات معينة؛ فيسعى النحل إليه مباشرة ويجمع ما يكفيه منه.

ولجمع مائة جرام من العسل، تحتاج الشغالات إلى امتصاص رحيق نحو مليون زهرة.

بعد إفراز العسل وإفراغه في العيون السداسية يقوم فريق آخر من الشغالات بتخليصه من الرطوبة بواسطة تحريك أجنحتها، ثم يقوم فريق آخر بختم العيون السداسية التي تحتوي على العسل، بطبقة رقيقة من الشمع حتى يظل نظيفاً؛ ليستهلك منه ما يحتاجه في الشتاء حينما تخلو الحقول من الأزهار.

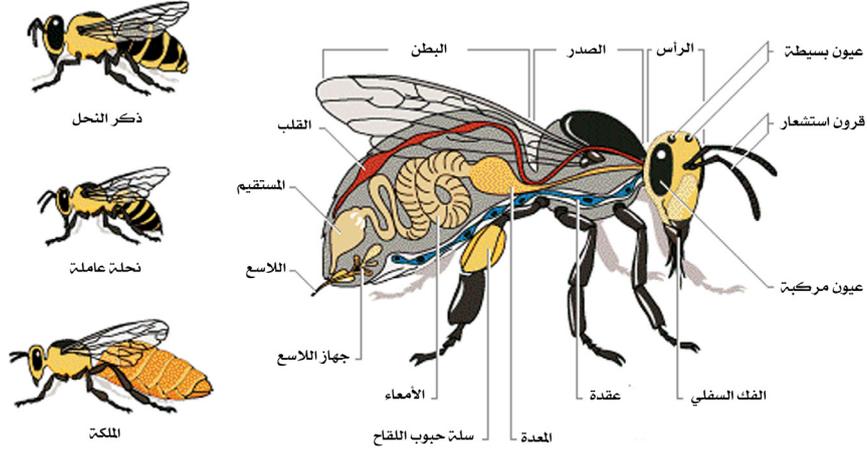
وقد ثبت أن لون العسل يتأثر بما يرعاه النحل، فالعسل الناتج من رحيق أزهار القطن مثلاً يكون قاتماً، بخلاف عسل أزهار البرسيم يكون فاتح اللون، وعسل شجر التفاح يميل إلى اللون الأصفر الباهت، وعسل التوت الأسود يغلب عليه اللون الأبيض الشفاف، وعسل أزهار النعناع العطري لونه عنبري... الخ.

وقد جعل الله للنحلة حواس قوية، تيسر لها الوصول إلى غذائها؛ فحاسة الشم الموجودة في قرني الاستشعار لديها إمكاناتها من تذوق رحيق الأزهار، ومعرفة مقدار حلاوته.

وعيونها تمتاز على عيون البشر برؤية الأشعة فوق البنفسجية التي لا يراها البشر إلا بأجهزة رؤية خاصة.

تعتمد النحلة على حاستي النظر والشم معاً، للعودة إلى بيوتها، فتتعرف على الخلية برائحتها المميزة، وتذكرها حاسة الإبصار بمعالم الطريق الذي حددته عند انطلاقها من الخلية.

الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة



وللنحل لغة يتفاهم بها، عبارة عن حركات راقصة من خلالها يستطيع تحديد مكان الرحيق وبعده عن الخلية تحديداً دقيقاً، وذلك حسب عدد الحركات الراقصة واتجاهها وزاويتها بالنسبة للشمس .

وقد شرح هذه الحركات الراقصة عالم ألماني ضمن كتابه المسمى «حياة النحل الراقص» بعد دراسات استمرت نحواً من عام، وقد نال بهذا الكتاب جائزة نوبل عام ١٩٧٣م.

وفي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وفي ذلك تنبيه إلى إلهام المدبّر الحكيم النحل بأن تتخذ من الجبال والشجر بيوتاً تأوي إليها، ومما يبني لها الناس مأوى وبيوتاً، ثم إلهامها أن تأكل من كل الثمرات وتتبع طرق ربها في طلب المرعى الذي سخره لها؛ ليخرج من بطونها عسل مختلف ألوانه فيه شفاء للناس من الأوجاع والأسقام.

والعرب تطلق الإيحاء: على الإعلام بالشيء خفية.

يقول ابن عاشور في (التحرير والتنوير: ١٤ / ٢٠٥):

«وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عملٍ منظم مرتب بعضه على بعض، لا يختلف فيه آحادها، تشبيهاً للإلهام بكلام خفي يتضمن ذلك الترتيب الشبيه بعمل المتعلم بتعليم المعلم، أو المؤتمر بإرشاد الأمر، الذي تلقاه سرا».

وبذلك الإلهام من الحكيم الخبير يهتدى النحل إلى مساكنه وأماكن غذائه، ويستطيع تديير شؤونه، وتنظيم حياته داخل الخلية بسلاسة ويسر، وبناء الخلايا الشمعية، وصناعة العسل، وتربية صغاره، وحماية الخلية والدفاع عنها.

ويحسن التنبه إلى أن ياء الخطاب التي تكررت في الآية: (اتخذي، كلي، فاسلكي) هي ياء خطاب الجنس الذي يشمل المذكر والمؤنث. وليست ياء التأنيث، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ وَالظَّيْرُ وَالنَّالَةُ الْحَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠]، وقول القائل: (ياخيل الله اركبي).

ومجتمع النحل منظم ومتعاون ومتضامن، ولكلٍ مهمته واختصاصه؛ فالملكة تضع البيض، والذكور مهمتها التسابق لتلقيح الملكة فقط. أما الشغالة فهي أنثى عقيمة، وأجزاء فمها مهيأة لجمع الرحيق، وأرجلها الخلفية معدة لجمع حبوب اللقاح، وهي مزودة بالغدد تحت البلعومية؛ لإفراز الغذاء الملكي مع غدد إفراز الشمع وغدة الرائحة، والشغالات الكشافة هي التي تخرج للبحث عن مصادر الغذاء، ثم تعود وتخبر رفيقاتها بالمعلومات اللازمة عن الغذاء الذي تجده.

وجه الإعجاز العلمي:

إن دلالة النص القرآني - ودقة تعبيره عن سلوك النحل وما ينتجه من عسل، فيه شفاء للناس - تتطابق مع ما كشفته الأبحاث العلمية الحديثة من حقائق، علماً بأن الناس في عصر التنزيل كانوا يجهلون معظم تلك الحقائق، مما يثبت بأن

ما جاء به النص القرآني نوع من الإعجاز، يدخل ضمن ما اصطلح عليه اليوم بالإعجاز العلمي.

وسأذكر بعض وجوه الإعجاز العلمي في الآيتين في النقاط التالية:

ويشير لفظ (كُلِّي) في قوله سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]. إلى تغذيتها على رحيق الأزهار، وحبوب اللقاح، وهي تحتوى على بروتينات ودهون وسكريات وأملاح معدنية وفيتامينات.

وحبوب اللقاح التي هي مصدر البروتين الوحيد للنحلة.

وتضع الشغالات حبوب اللقاح في جيوب توجد على أرجلها الخلفية ويساعدها في ذلك شعيرات كثيفة يلتصق بها عدد كبير من حبوب اللقاح، يتراوح ما بين ربع مليون و٦ ملايين حبة لقاح، وتصنع العاملات غذاء خاصا يسمى خبز النحل؛ لإطعام صغارها يتكون من العسل وحبوب اللقاح.

ويحسن التنبيه إلى أن لفظ الثمرات في الآية المراد به ما في الأزهار من رحيق وحبوب لقاح قبل أن تصبح ثمرة^(١).

إن التعبير بلفظة (شَرَابٌ) على ما يخرج من بطون النحل في قول الله سبحانه وتعالى ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]. تعبير عن حقيقة قائمة؛ اكتشفها العلماء والباحثون مفادها: أن ما تفرزه النحلة هو شراب، ولا يتحول إلى عسل إلا عبر عمليات متتالية، تقوم بها النحلات المختصة وتتلخص فيما:

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٢٠٧/١٤).

- ❁ تحويل ما فيه من سكر ثنائي (سكروز) إلى سكر أحادي (جلوكوز، وفركتوز)، بإضافة إنزيم الانفرتيز الذي يُفرز من الغدد اللعابية للنحلة.
- ❁ خفض محتواه المائي بواسطة التهوية، حتى لا يزيد مستوى الرطوبة فيه بحيث تتراوح نسبتها ما بين: ١٤ و ١٨٪ تقريبا.
- ❁ إنضاج العسل بإضافة إنزيمات أخرى، ويستغرق ذلك ما بين يومين إلى خمسة أيام من جمعه .
- ❁ يختم على العسل في البيوت السداسية بغطاء شمعي رقيق للمحافظة عليه.



الخنزير مصدر للأمراض والأوبئة

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].



دلالة النص الشريف:

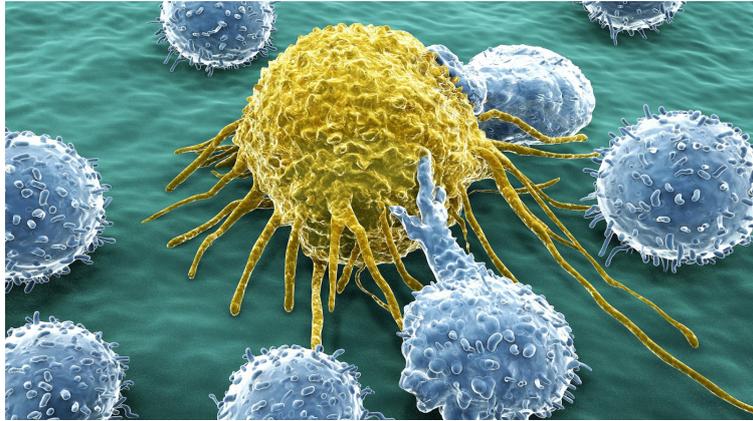
وقد ورد النهي عن أكل لحم الخنزير وتناول شيء منه كطعام في ثلاث مواضع آخر هي: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].
وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُتْرَدِّيةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]، ويعم التحريم كل ما يؤكل فيشمل الشحم، لأن تحريم اللحم يستلزم تحريم الشحم، حتى لو استعمل كعلف لحيوان يأكله الإنسان.

لقد وصف القرآن الكريم الخنزير بلفظ (رجس)، والرجس: الخبث القدر المكروه، لأنه يلوث الأبدان ويؤذيها إذا اقتربت منه . وهو واقع حال هذا الحيوان الذي هو محل القذارة والأذى .

الحقيقة العلمية :

كشف البحث العلمي في هذا العصر بعض مسببات الأمراض التي يحملها جسم الخنزير، وتنتقل عن طريقه إلى من يأكل لحمه، أو يدخل شيئاً منه في مكونات طعامه، والعجب أنه مع كل ما أصبح يدركه العالم من مخاطر يسببها أكل لحم الخنزير أو مشتقاته إلا أن استهلاك لحم الخنزير لم يتراجع، بل لا تكاد تجد اهتماماً يذكر بهذا الأمر في أجهزة الإعلام، التي طالما رفعت أصواتها بضرورة المحافظة على الصحة العامة !!



بكتريا وفيروسات تعيش في لحم الخنزير

ولا يسع المسلمين إلا أن يحمدوا الله تعالى الذي نهاهم عن أكل الأرجاس وتعاطي الخبائث، فحماهم بذلك عن كل ما يسبب لهم الأذى، ويلحق بهم الضرر قبل قرون من اكتشاف مسببات الأمراض بواسطة المجاهر .

والخنزير مأوى للطفيليات والبكتريا والفيروسات، مثل:

✿ طفيلي الزحار البلنتيدي *Balantidium Dysentery*.

✿ والشعرينيات الحلزونية *Trichinella Spirali*.

✿ وشريطية الخنزير *Taenia Tolium*.

✿ والديدان المثانية *Cysticercosis*.

وبعضها يصنف ضمن أمراض كثيرة مشتركة بين الإنسان والحيوان
ZoonoTeT منها:

✿ سلالات من الأنفلونزا *Influenza*.

✿ وطفيل الفاشيولا في الصين *Fasciolop Buski*.

✿ وثعبان البطن *Ascaris*.

ويكثر وجود مرض الزحار البلنتيدي *Balantidia* عند رعاة الخنازير ومخالطهم، وقد ينتشر بصورة وبائية، كما حدث في إحدى جزر المحيط الهادي، بعد إعصارٍ نشر روث الخنازير، ويوجد المرض حيث يوجد الخنزير في بلدان متقدمة صناعيا، خاصة في ألمانيا وفرنسا والفلبين وفنزويلا، معارضا الادعاء بإمكان التغلب على قذارته بوسائل تقنية حديثة، تجعل تحريم أكل لحمه بلا مستند، ولكن الحقيقة الدامغة أبطلت ذلك الادعاء .

وتحدث الإصابة بمرض الشعرينيات الحلزونية *Trichinellosis* نتيجة أكل لحم عضلات خنزير مصابة، حيث تنخر الأنثى جدار الأمعاء لتضع اليرقات

التي تصل إلى حوالي ١٠,٠٠٠ يرقة، وتنتقل اليرقات خلال الدم إلى العضلات؛ لتتحول إلى حويصلات معدية.

وأما الإصابة بشريطية الخنزير: فتتجم بعد تناول عضلات خنزير مصابة، وتنمو الدودة في أمعاء الإنسان، وقد يبلغ طولها سبعة أمتار، ولها رأس ذو أشواك؛ تسبب تهتكاً في جدار الأمعاء وفقر دم شديد، ولها أربعة ممصات وعنق يولد أسلات خنثى، كأنها حيوانات مستقلة، قد تبلغ الألف، وفي كل منها تتولد أكثر من ألف بيضة.

وتحدث الإصابة بالديدان المثانية Cysticercosis إذا تناول الإنسان طعاماً ملوثاً بالبيض، لتخرج اليرقات وتنتقل في الدم لأي عضو بالجسم، وتقدر الخطورة تبعاً لأهمية العضو، ولا يحدث هذا المرض مطلقاً نتيجة الإصابة بشريطية البقر Teania Saginata المجردة من الأشواك، وهي أقل ضرراً، والخنزير جلالاً، سيئ الطباع، وهو محرم عند أهل الكتاب وإن خالفوه.

ففي سفر اللاويين ١١: ٧: «وَالْخِنْزِيرِ.. نَجِسٌ لَكُمْ».

وفي سفر التثنية ١٤: ٨: «وَالْخِنْزِيرِ.. نَجِسٌ لَكُمْ، فَمِنْ لَحْمِهَا لَا تَأْكُلُوا وَجَشَّهَا لَا تَلْمِسُوا».

وقد علل القرآن الكريم النهي عن أكل لحمه في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾؛ والرجس Filth كلمة جامعة تعني أنه قذر ودنس ونجس، يحمل الأذى والضرر، بعلم العليم الحكيم!

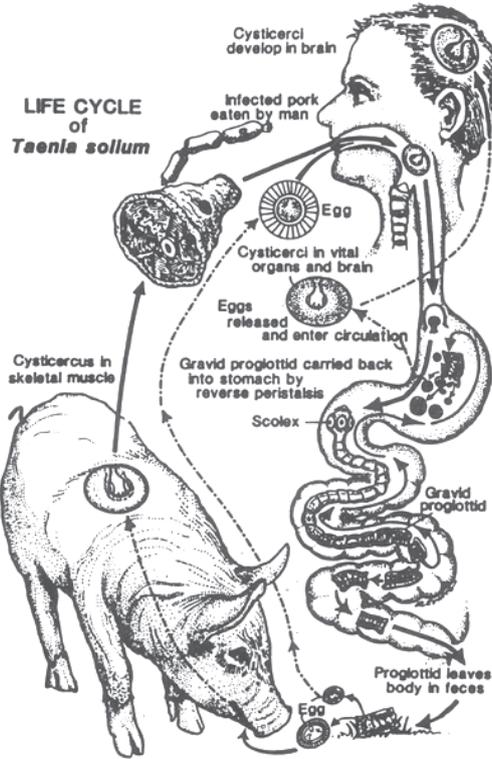
يقول العلي القدير: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦-٦٧].

وجه الإعجاز:

لقد كشف العلم الحديث عما يحمله جسم الخنزير من مسببات متنوعة للأمراض، كان القرآن الكريم قد أكدها سلفاً قبل ما يزيد عن أربعة عشر قرناً، في الآيات التي وصفت الخنزير بأنه رجس، أي: خبث وقذر ومكروه، ولهذا حرم الله أكله، وذلك إعجاز علمي، وبرهان على صدق رسالته ﷺ.

فإلى متى يتعمى المناوئون عن الحقائق الساطعة وينساقون وراء أهوائهم الجامحة .

صدق الله العظيم القائل: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفَرِّقٌ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٦-٦٧].





وتتلخص مراحل تكوّن اللبن فيما يلي :

١ الهضم (Digestion):

يتم الهضم على عدة أشكال: فمنه الهضم (الحركي)، والهضم الكيماوي، والهضم الميكروبي بواسطة (خمائر) الميكروبات الموجودة في كرش الأنعام .

تبدأ عملية الهضم في الفم بنوعيتها: الهضم (الحركي) و(الخمائر)، حيث يتم تقطيع مواد العلف بالمضغ، وخلطها باللعاب الذي يحتوي على أنزيم (الأميليز) الذي يقوم بهضم مبدئي، ثم في المعدة المركبة، حيث يتم هضم ميكانيكي وميكروبي وكيماوي. ثم يتم اجترار الكتلة الغذائية من الكرش إلى الفم ليعاد مضغها وخلطها باللعاب، ثم إعادة بلعها لتعمل عليها بكتريا الكرش فتحلل (السكريات) و(البروتينات)، ثم يحدث الهضم (الخمائري) في المعدة الحقيقية (بالبسين والرنين).

وبعمليات الهضم هذه يتحول العلف إلى فرث. وبنقل الفرث إلى الأمعاء الدقيقة تستمر عملية الهضم؛ فيتعرض الفرث للإنزيمات الهاضمة في الأمعاء والبنكرياس والعصارة الصفراء في الكبد.

وبهذا يتم تحليل الأطعمة المحتوية على الجزيئات المعقدة جداً إلى جزيئات بسيطة، فالنشا والسكريات المعقدة تتحول إلى سكريات بسيطة، والدهون تتحول إلى أحماض دهنية، والبروتينات تتحول إلى أحماض أمينية وبيبتيدات، أما الفيتامينات والأملاح والماء فلا تحتاج إلى هضم قبل امتصاصها، ويتحول الفرث الصلب بعد هضمه في الأمعاء إلى فرث رائق.

٢ استخلاص اللبن من بين الفرث:

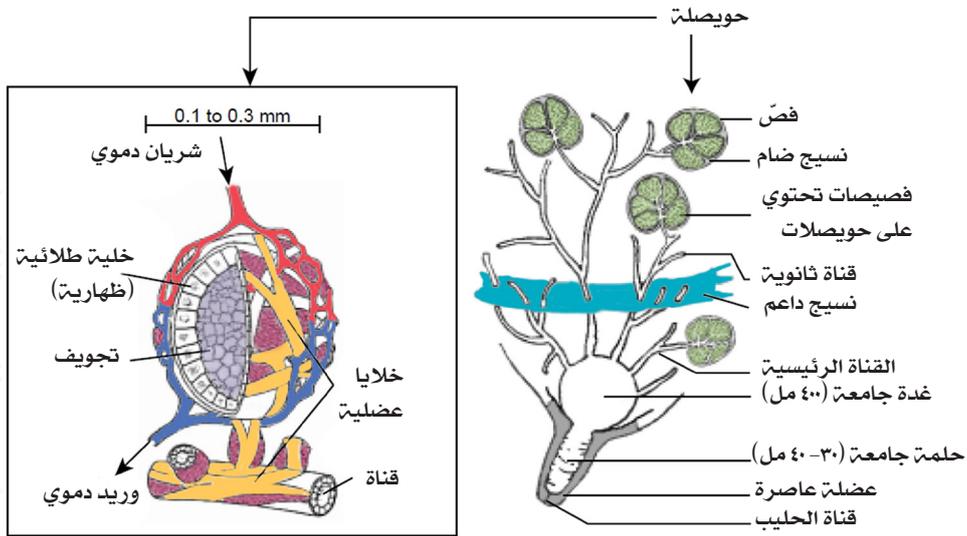
تقوم الخملات في الأمعاء الدقيقة بامتصاص المواد الغذائية المحللة بعدة طرق، وتصل هذه المواد إلى داخل الأوعية الدموية الصغيرة الواقعة تحت النسيج الطلائي، ومنها إلى الأوعية الدموية الأكبر فتدخل في تيار الدورة الدموية.

٣ استخلاص اللبن من بين الدم:

ثم يقوم الدم بنقل هذه المواد الغذائية إلى جميع خلايا الجسم، والتي منها خلايا الضروع التي يتم فيها امتصاص مكونات اللبن من بين الدم.

٤ تصنيع اللبن في الضرع:

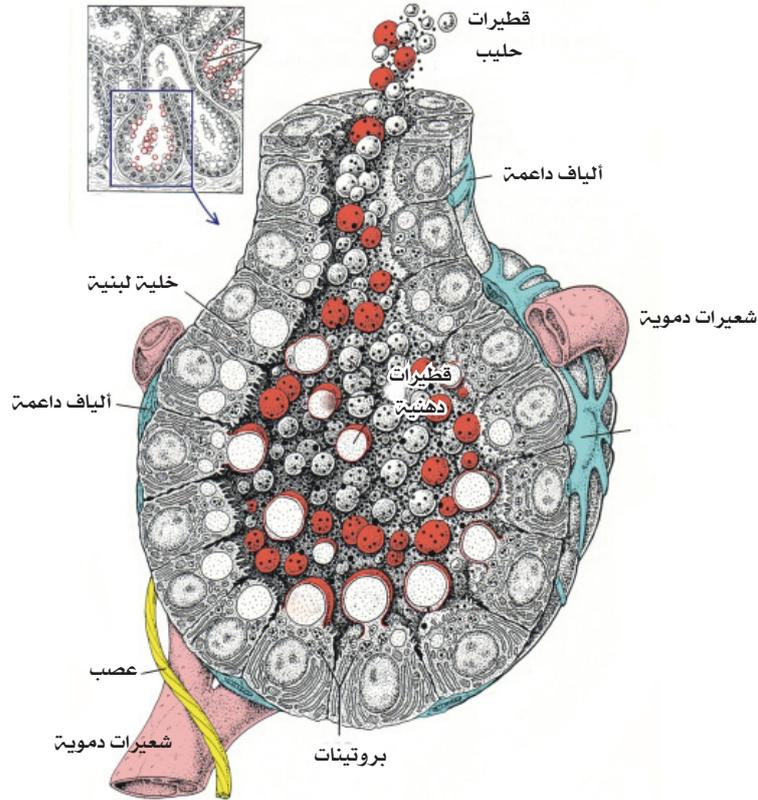
والضرع أشبه بجهاز صناعي؛ فهو يتكون من فصوص، وكل فص يتكون من عدد من الفصيصات، وكل فصيص يحتوي ما بين ١٥٠-٢٢٠ حويصلة مجهرية، والحويصلة المجهرية عبارة عن تركيب يشبه الكيس حيث يصنع اللبن ويفرز. وكل حويصلة تعد وحدة صناعية مستقلة متكونة من تجويف لجمع اللبن محاط بطبقة واحدة من الخلايا الطلائية (الظهارية)، وكل خلية في هذه الوحدة الصناعية وحدة متكاملة قائمة بذاتها، تحوّل ما بداخل جوفها من مواد أولية قادمة من الدم إلى قطيرة لبن، تفرز في ذلك التجويف.



رسم توضيحي لضرع

الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة

إن الخلية الطلائية (الظهارية) اللبنية هي المختصة بعملية تصنيع اللبن بمكوناته المختلفة، فتصل المكونات الأساسية للبن إلى الغشاء القاعدي للخلية اللبنية، فيأخذ كل مكون طريقه عبرها ليصل إلى القسم المناسب داخل الخلية، حيث تجري عليه العمليات التي قدرها عالم السرِّ وأخفى سبحانه، فيخرج من الجهة العليا للخلية مادة جديدة تشكل مع المواد الأخرى الناتجة لبنًا سائغًا للشاربين. فتعال معنا نتبع مسار كلِّ مادة وردت من الدم وما يحصل لها في رحلتها عبر الخلية اللبنية.



يوضح الشكل كيف تنتقل مكونات اللبن من الشعيرات الدموية عبر الخلية اللبنية إلى الحويصلة.

١ . الأحماض الأمينية :

تنطلق الأحماض الأمينية التي جاءت من الدم، وتتوجه إلى القسم المناسب من المصنع، وهو الرايبوسومات المتعددة المنتشرة على الشبكة الإندوبلازمية الخشنة، وهناك ترتبط معا لتكوين البروتينات، ثم تصبُّ في تجويف الحويصلة. وهكذا توفرت مكونات اللبن من البروتينات.

٢ . سكر اللبن (اللاكتوز) :

يدخل سكر الجلوكوز القادم من الدم الخلية؛ فيتحول بعضه إلى جالاكتوز، ويدخلان معاً جهاز جولجي؛ ليتعرضا لتفاعلات تؤدي إلى تكوين (سكر اللبن) - اللاكتوز - وهو مادة مهمة من مكونات اللبن^(١).

وينضم سكر اللبن والماء إلى البروتينات بانتظار مكونات أخرى مهمة ومنها الدهون.

٣ . الدهون :

تستقبل الخلايا الطلائية الأحماض الدهنية الجاهزة والجليسيرول، القادمة من الدم، لتشكل مادة دهنية في الشبكة الأندوبلازمية التي يخرج منها الدهن عندئذ في صورة قطيرات دهنية صغيرة، تتجمع لتشكل قطيرةً يتزايد حجمها، تتجه نحو الغشاء العلوي للخلية، حتى إذا ما وصلت هداها رُبُّها للاندفاع بقوة، للالتحاق بمكونات اللبن السابقة.

٤ . الأجسام المضادة :

تأتي الأجسام المضادة من الدم عبر الغشاء القاعدي الجانبي للخلية اللبنية، ثم تحملها حويصلات النقل (ناقلات) عبر الخلية، لتصل إلى السطح الداخلي

(١) لاحظ أن جهاز جولجي يسهم في معالجة بروتينات اللبن وصناعة اللاكتوز والسحب الأسموزي للماء ويفرز سكر اللبن ومعظم الماء عبر حويصلات الإفراز مع بروتينات اللبن.

وجه الإعجاز:

ما كان أحدٌ يعلم قبل اكتشاف أجهزة التشريح في القرنين الماضيين أسرار ما يجري في الجهاز الهضمي عند الحيوان والإنسان، ووظائف ذلك الجهاز المعقد، وعلاقته بالدورة الدموية، ومراحل تكوّن اللبن في بطون الأنعام.

فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية عبر قرون عرف الإنسان أن مكونات اللبن تستخلص بعد هضم الطعام، من بين الفرث، وتجري في مجرى الدم، لتصل إلى الغدد اللبنية في شروع الإناث التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم، دون أدنى شائبة من فرثٍ أو دم، ثم تُضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغاً للشاربين.

هذه الأسرار كانت مجهولةً للناس، فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من التجارب والبحوث العلمية، بعد اختراع وسائل البحث التي لم تكن معروفة قبل ذلك. ولكن القرآن الكريم كشفها بأجمل عبارة، وأوجز لفظ قبل ألف وأربعمائة عام.

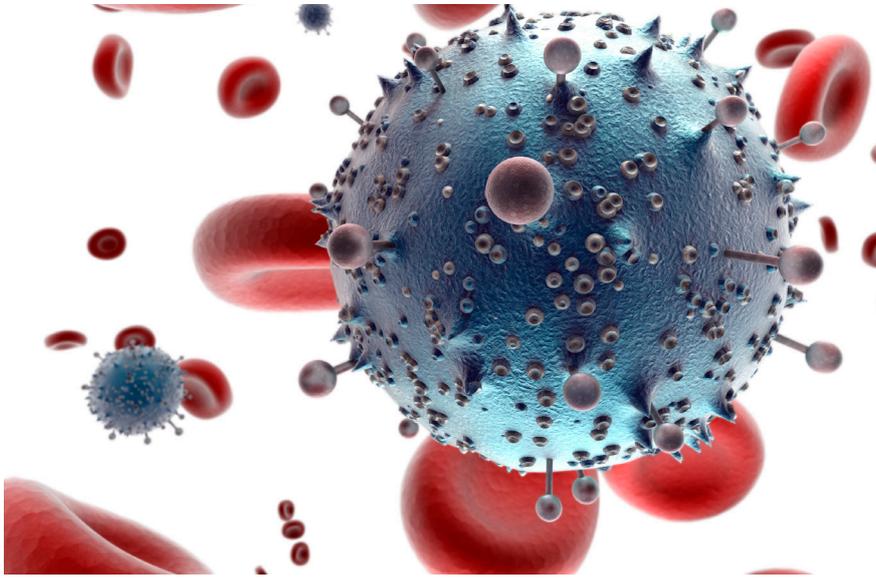
فمن علم محمداً ﷺ من بين سائر البشر في ذلك الزمن أسرار الجهاز الهضمي، والجهاز الدوري، ودقائق ما يجري في غدد اللبن إلا الذي يعلم السرّ في الأرض والسماء، ويعلم أسرار ما خلق من الكائنات؟.

فيكون ذلك شاهداً على أن القرآن نزل بعلم الله، وأن محمداً رسول الله. قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

عواقب الإباحية

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْغُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال رسول الله ﷺ في رواية عبد الله بن عمر: «.. لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا..»^(١)، وقال أيضاً: «.. وَلَا فَشَا الزَّانَا فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ»^(٢).



فيروس الإيدز الذي يصيب الشاذين جنسياً

(١) ابن ماجة، حديث رقم (٤٠١٩) قال الألباني: (حسن صحيح).

(٢) ابن مالك في الموطأ، جهاد، حديث رقم (٢٦).

الدلالة النصية:

جاء النهي عن الزنا خاصة والفواحش عامة بصيغة ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾؛ وفيها النهي حتى عن الاقتراب تشديداً وبياناً للعواقب الوخيمة التي تحصل جرّاء تعاطيها من عدة نواح .

وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بس طريقاً طريقه، فإنه غضبُ الأبخاع المؤدّي إلى اختلال أمر الأنساب وهيجانِ الفتن^(١).

ومن آثار انتشار الزنا والفاحشة تلك الأمراض الفتاكة التي تنتهي غالباً بالموت، وفي مقدمتها مرضُ نقصان المناعة (الإيدز)، التي أشارت إليها أحاديثُ نبينا الصادق المصدوق، نبينا محمد ﷺ.

الحقيقة العلمية:

كشف البحث العلمي عن أصنافٍ من الكائنات الدقيقة المسببة للأمراض (بكتيريا وفطريات وفيروسات)، لا تنتقل للإنسان إلا عن طريق ممارسة الفاحشة، أيّاً كان نوعها .

وكلما اتسعت دائرة هذه العلاقات ازداد انتشارُ الأمراض واستعصت عن العلاج؛ لأن تلك الكائنات المسببة للأمراض تغيّر خواصّها باستمرار، وبالتالي يعجز الجسم عن مقاومتها .

وأشار الحديثُ النبويُّ إلى سنة اجتماعية عامة، يمكن أن تتكرّر في أي مجتمع، فإذا حدثت مقدّماتها حصداً المجتمعُ نتأجها.

فالمقدّمات: شيوعُ العلاقات المحرمة كالزنا، والعلاقات الشاذة في المجتمع، وعدم تجريمها والرضا بها وإظهارها والترويج لها؛ على نحو ما يُعرف اليوم

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥ / ١٧٠).

بالإباحية الجنسية (Porno)، وهو ما حذر منه رسول الله ﷺ في حديثه السابق «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها».

وأما النتائج المترتبة على ذلك: فهي شيوع الأمراض الجنسية وانتشارها بصورة وبائية مدمرة، وظهورها بصورٍ جديدة في الأجيال التالية، التي حذر منها رسول ﷺ في حديثه: «إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا».

هذا وقد تحقق ظهور هذه السنة الجارية في كثير من المجتمعات الغربية اليوم، وكانت نتيجةً محتومة لانتشار العلاقات المحرمة والشاذة، وإظهارها والاعتراف بها سلوكا اجتماعيا، تُرَوِّج له وسائل الإعلام .

يقول الدكتور شوفيلد في كتابه «الأمراض الجنسية»: «لقد انتشر تساهل المجتمع تجاه كافة الممارسات الجنسية، ولا يوجد أيُّ إحساس بالخجل من الزنا والعلاقات المثلية..، بل إن وسائل الإعلام جعلت من العار على الفتى والفتاة أن يكون مُحصَنًا».

وهكذا صارت العفة في المجتمعات الغربية مما يندى له جبينُ المرء، فوسائل الإعلام تدعو وتحث على الإباحية باعتبارها من دواعي الحرية مهما كان الضرر، تقول دائرة المعارف البريطانية: «إن الشاذين قد خرجوا من دائرتهم السرية إلى الدائرة العلنية، وقد أصبح لهم نواديهم الخاصة وحدائقهم وسواحلهم ومسابحهم».

لقد أصبح تمجيد البغاء فنًّا يدرس، والعلاقات الشاذة حرية؛ بل قد أباحت كثير من الكنائس الغربية الزنا والمثلية، فيتم عقدُ قِرَانِ الرَّجُلِ على الرجل على يد القسيس في بعض كنائس الدول الغربية، وتكونت آلاف الجمعيات والنوادي التي ترعى شؤون الشاذين، وهكذا بحدوث المقدمات تحققت النتائج.



حالة إصابة بمرض السفلس

حالة إيدز متأخرة

وجه الإعجاز:

لقد ظهرت عواقب الإباحية في صورة وبائية؛ فأوقعت الكثير من الضحايا، فقد شهد العالم موجات كاسحة من انتشار وباء الزهري Syphilis على فترات، منذ أن ظهر لأول مرة عام ١٤٩٤، ففضى على مئات الملايين من الأشخاص في القرون الخمسة الماضية، وحطم حياة ملايين أخرى، وما زالت جرثومة المرض تغير من خواصها وتهاجم الإنسان من حين لآخر.

وتصدر مرض السيلان Gonorrhoea قائمة الأمراض المعدية؛ فهو أكثر الأمراض الجنسية شيوعاً في العالم.

وأخيراً عام ١٩٨٣ ظهر مرض الإيدز Aids الذي يدمر فيروسه جهاز المناعة في الإنسان؛ ومن ثم يستطيع أي كائن دقيق أن يهاجمه، وإذا لم ينته به إلى الموت فإنه يذيقه من الآلام والأوجاع ما يجعله عبءاً لمن يعتبر، وآية على صدق النبوة الخاتمة.

وخلاصة القول:

إن ما حذر منه الصادق المصدوق ﷺ في عصر الرسالة من أمراض وأوجاع، لم تعرفها البشرية في أجيالها السابقة تحقق تباعاً، حتى طفح بها الكيل في عصرنا الحاضر .

الناصية المدانة بالكذب والخطيئة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لِنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥-١٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يُعَرَّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].



منطقة الناصية في الدماغ

الدلالة النصية:

لقد ربط القرآن الكريم المؤاخذة على الكذب وسوء السلوك والنزوع إلى الضلال وارتكاب الخطايا بناصية الإنسان، ومن ثَمَّة رَبَّ عَلَيْهَا الْعُقُوبَةَ الْآخِرِيَّةَ.

قوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ النواصي: جمع ناصية، وهي مقدم الرأس، والمراد هنا شعْرُهَا.

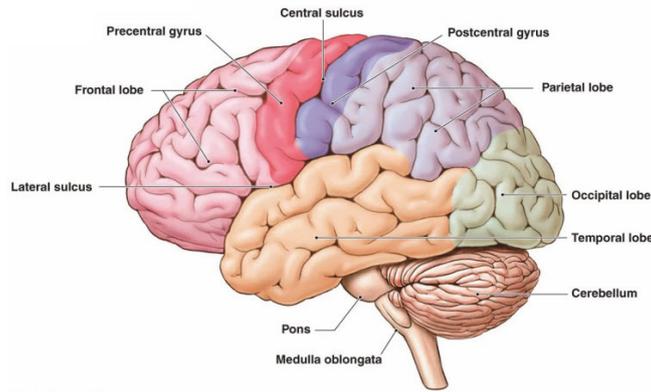
والمعنى: تأخذ الملائكة بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار، أو تسحبهم الملائكة إلى النار، تارة تأخذ بالنواصي وتجزّهم على وجوههم، أو يجمع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة من وراء ظهورهم^(١).

قوله ﴿لَنَسْفَعًا﴾ لناخذن بناصيته، وهو عند العرب أبلغ شيء في الإذلال والهوان. ومعناها: تسويد وجهه وتشويه خلقه، والسفعة: السواد، من سفعته النار والشمس إذا غيرت وجهه وشوهته^(٢).

والناصية من الناحية التشريحية: توجد في مقدمة الدماغ في الفص الأمامي من المخ، وتحتوي على الأجزاء المسؤولة عن الكلام والسلوك في المخ.

الحقيقة العلمية:

يحتوي دماغ الإنسان على فصوص أربعة هي: الفص الأمامي Frontal Lobe، والفص الخلفي Occipital Lobe، والفص الصدغي Temporal Lobe، والفص الجداري Parietal Lobe، ولكل فص دور وظيفي ينفرد به عن الآخر، وفي الوقت نفسه تتكامل وظائف الفصوص مع بعضها البعض.



(١) انظر: روح البيان للشنقيطي (٩ / ٣٠٣).

(٢) انظر: تفسير العز بن عبد السلام (٣ / ٤٧١).

والفص الأمامي: يتميز عن نظيره في الحيوان، بأن المناطق المسؤولة عن السلوك وعن الكلام متطورةً وبارزة من الناحية التشريحية والوظيفية، وهو يحتوي على عدة مراكز عصبية، تختلف فيما بينها من حيث الموقع والوظيفة وهي:

✿ القشرة الأمامية الجبهية PreFrontal Cortex: وتقع مباشرة خلف الجبهة، وهي تمثل الجزء الأكبر من الفص الأمامي للمخ، وترتبط وظيفتها بتكوين شخصية الفرد، ولها أيضًا تأثير في تحديد المبادرة Initiative والتمييز Judgment.

✿ ثم مركز بروكا لحركات النطق Motor peech Area of Broca: ويقوم بتنسيق الحركة بين الأعضاء التي تشترك في عملية الكلام، كالحنجرة واللسان والوجه.

✿ ثم مناطق الحركة وتشمل الحقل العيني الجبهي Frontal EyeField: ويقوم بالتحريك المتوافق للعينين إلى الجهة المقابلة.

✿ ومركز حركة العضلات الأولي والثانوي Primary & Secondary Motor Area: وكلاهما مسئولان عن حركة العضلات الإرادية.

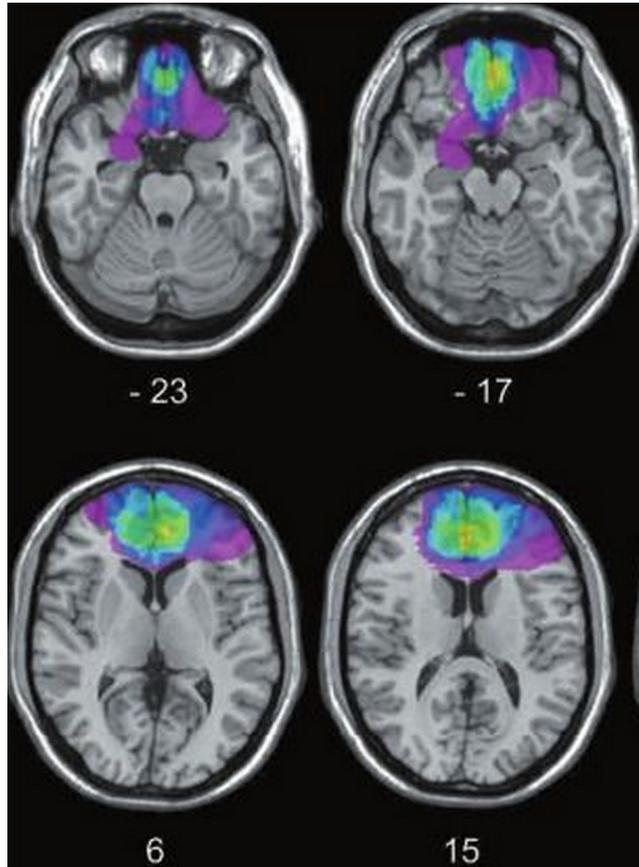
وهكذا ثبت أن مقدمة الفص الأمامي القابعة في عمق الناصية هي الموجّهة للسلوك، والمميزة للشخصية، وقد تؤدي إصابتها إلى هبوط في المعايير الأخلاقية ودرجة التذكر والقدرة على حل المشكلات العقلية، وهذه الحقيقة لم تتضح كقيمتها إلا حديثًا في عصر العلم.

وجه الإعجاز العلمي:

إن وصف القرآن الكريم الناصية بكونها كاذبة وخاطئة دون بقية الأعضاء، وتوعدها بالعقوبة باعتبارها مسؤولة مباشرة عما يصدر عن الإنسان من كذب

وخطيئة، فيه دلالة على دقة تعبير القرآن الكريم، وأنه كلامُ رب العالمين، خالقُ كل شيء، العليم الحكيم.

وفي الآية إعجاز علمي واضح، فقد حدّدت بدقة العضو المسؤول عن الكذب والخطأ - وهو الناصية - في زمن لم يكن يعرف فيه اختصاصات أجزاء الدماغ ووظائفها، ولم يدرك ذلك إلا في عصرنا الحاضر بعد أن تطور علم وظائف الأعضاء.



صورة بالرنين المغنطيسي تبين مكان الكذب في الفص الجبهي

بصمات الأصابع

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ ﴿٥﴾ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿القيامة: ٣-٤﴾.



الدلالة النصية:

قوله: (نسوي): المراد بالتسوية: إعادة خلق البنان مقومةً متقنةً، فالتسوية كناية عن الخلق؛ لأنها تستلزمه، فإنه ما سوي إلا وقد أعيد خلقه.

قوله: (بنانه) البنان: أصابع اليدين والرجلين، أو أطراف تلك الأصابع، وهو جمع بنانه.

وإذ كانت هي أصغر الأعضاء الواقعة في نهاية الجسد كانت تسويتها كناية عن تسوية جميع الجسد، لظهور أن تسوية أطراف الجسد تقتضي تسوية ما قبلها^(١).

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٩ / ٣٤١).

وقد ثبت أن البنان يحتوي على ما يعرف بالبصمة التي يتميز بها الإنسان عن سواه من الناس .

وفي الآية ردُّ على إنكار كفار قريش البعث يوم القيامة، وذلك لظنهم أن العظام بعد تفرقتها وصيرورتها ترابا، واختلاط تلك الأجزاء بغيرها، وبعد ما نسفتها الرياح وطيرتها في أبعاد الأرض لا يمكن جمعها مرة أخرى؛ فقال تعالى في جوابه: بلى، فكأنه قيل: بل يجمعها، وفي قوله: (قادرين على أن نسوي بنانه): تنبيه إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر على تأليفها جميعها، وإعادتها إلى التركيب الأول. وفيه: رد عليهم رب العزة والجلال بأنه ليس قادراً على جمع العظام البالية فحسب؛ بل حتى على خلق وتسوية بنانه، هذا الجزء الدقيق الذي يعرف عن صاحبه، والذي يميّز كل إنسان عن الآخر مهما حصل له من الحوادث^(١).

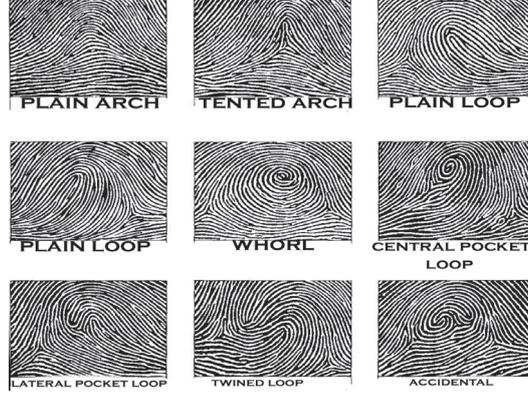
الحقيقة العلمية:

في عام ١٨٢٣ اكتشف عالم التشريح التشيكي «بركنجي» (Purkinje) حقيقة البصمات، ووجد أن الخطوط الدقيقة الموجودة في رؤوس الأصابع (البنان) تختلف من شخص لآخر، ووجد ثلاثة أنواع من هذه الخطوط: أقواس أو دوائر أو عقد، أو على شكل رابع يدعى المركبات، لتركيبتها من أشكال متعددة.

وفي عام ١٨٥٨ أي بعد ٣٥ عامًا، أشار العالم الإنكليزي «وليم هرشل» (William Herschel) إلى اختلاف البصمات باختلاف أصحابها، مما جعلها دليلاً مميّزاً لكل شخص.

وفي عام ١٨٧٧ اخترع الدكتور «هنري فولدز» (Henry Faulds) طريقة وضع البصمة على الورق باستخدام حبر المطابع.

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٠ / ٧٢٢).



وفي عام ١٨٩٢ أثبت الدكتور «فرانسيس غالتون» (Francis Galton) أن صورة البصمة لأي إصبع تعيش مع صاحبها طوال حياته، فلا تتغير رغم كل الطوارئ التي قد تصيبه، وقد وجد العلماء أن إحدى المومياء المصرية المحنطة احتفظت ببصماتها واضحةً جليّةً. وأثبت جالتون أنه لا يوجد شخصان في العالم كله لهما نفس التعرجات الدقيقة، وقد أكد أن هذه التعرجات تظهر على أصابع الجنين وهو في بطن أمه، عندما يكون عمره بين ١٠٠ و١٢٠ يوماً.

وفي عام ١٨٩٣ أسس مفوض اسكتلند يارد، «إدوارد هنري» (Edward Henry) نظاماً سهلاً لتصنيف وتجميع البصمات، لقد اعتبر أن بصمة أي إصبع يمكن تصنيفها إلى واحدة من ثمانية أنواع رئيسية، واعتبر أن أصابع اليدين العشرة هي وحدة كاملة في تصنيف هوية الشخص.

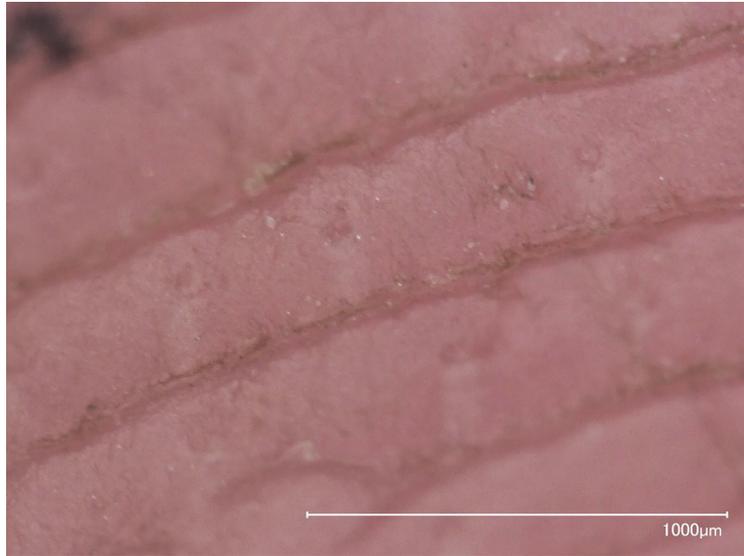
وأدخلت في نفس العام البصمات كدليل قوي في دوائر الشرطة في اسكتلند يارد. كما جاء في الموسوعة البريطانية. ثم أخذ العلماء منذ اكتشاف البصمات بإجراء دراسات على أعداد كبيرة من الناس من مختلف الأجناس، فلم يعثر على مجموعتين متطابقتين أبداً، ويتم تكوين بصمات البنان عند الجنين في الشهر الرابع، وتظل ثابتةً ومميّزة طوال حياته .

والبصمات هي تسجيل للتعرجات التي تنشأ من التّحام طبقة الأدمة مع البشرة، وتختلف هذه التعرجات من شخص لآخر، فلا تتطابق أبداً بين شخصين، ولذلك أصبحت بصمات الأصابع دولياً هي الوسيلة المثلى لتحديد هوية الأشخاص.

وجه الإعجاز:

كان السبق القرآني في الآية الكريمة في سورة القيامة واضحاً، عندما أشارت إلى تميّز كل إنسان ببصمة خاصة به، مطبوعة على جلد كل أنملة من أنامل أصابعه، قبل أن يعرف الناس ذلك في القرن التاسع عشر الميلادي عندما عرفت خصائصها واستخدمت لتحديد هوية الأشخاص.

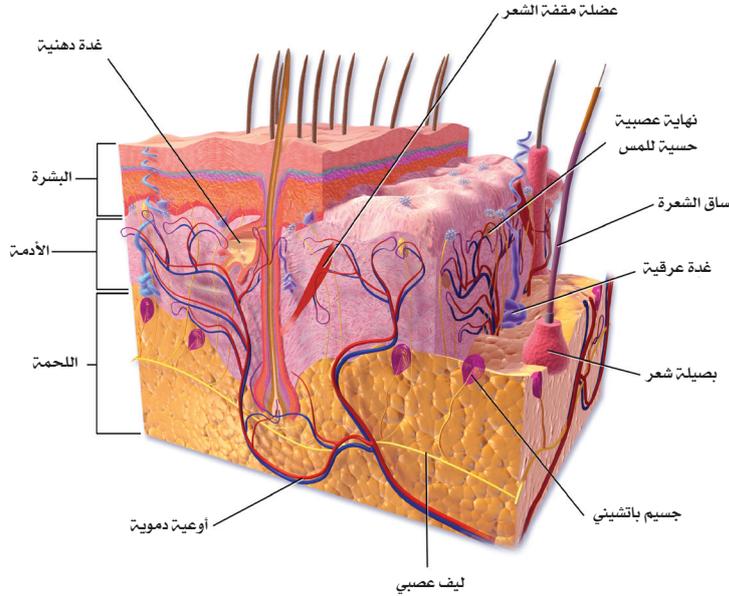
ويلاحظ أن الآية الكريمة ذكرت قدرة الله سبحانه وتعالى على إعادة خلق الإنسان، وتسوية أصابعه، وبعثه بعد أن تفرقت أعضاؤه في الأرض وفنيت أجزاءه، وفي ذلك أصدق دليل على إعجاز القرآن الكريم.



صورة لخطوط بصمة الإصبع بالمجهر

الجلد والإحساس بالألم

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَّجَتْ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].



الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى ﴿نَصَّجَتْ جُلُودَهُمْ﴾ أي: كلما احترقت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها، أي: أعطاهم مكان كل جلد محترق جلدا آخر غير محترق، فإن ذلك أبلغ في العذاب للشخص، لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذي لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها في الجلد المحترق^(١).

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (١ / ٥٥٤).

- والجلد نعمة من نعم الله، ومن فوائد الجلد للجسم:
- ✿ تغطية الأعضاء الداخلية، وإعطاء الجسم شكله الخارجي .
 - ✿ حماية الجسم من المؤثرات الخارجية وصد الجراثيم عن دخول الجسم بإفراز مواد دهنية تقتل الميكروبات .
 - ✿ إفراز العرق الذي يحافظ على درجة حرارة الجسم.
 - ✿ نقل الإحساس؛ فالأعصاب الحسية في الجلد تنقل الإشارات الحسية إلى مراكز الإحساس بالمخ.
- وقد اكتشف العلم الحديث أن الإنسان يفقد إحساسه بالألم عندما تتلف أعصاب الجلد الحسية، وعندما يحترق الجلد بالكامل تتلف معه النهايات العصبية المسؤولة عن نقل الإحساس، ولا سبيلَ حينئذ لاسترداد الإحساس إلا بجلد بديل عن الجلد المحترق.

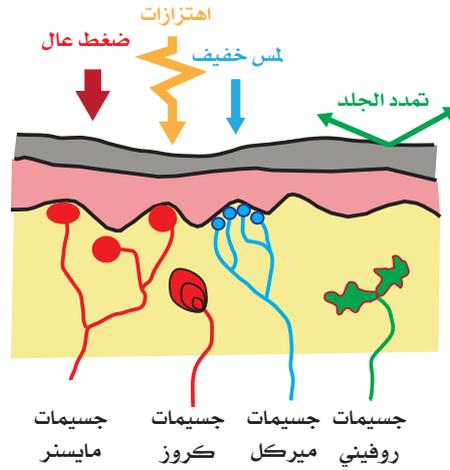
الحقيقة العلمية:

كان الاعتقاد السائد قبل عصر الكشوف العلمية أن الجسم كله حساس للألم، ولم يكن واضحاً لأحد أن هناك نهاياتٍ عصبيةً متخصصةً في الجلد لنقل الأحاسيس والألم حتى كُشف حديثاً دور النهايات العصبية، وتبين أن الجلد هو العضو الأهم لاحتوائه على العدد الأكبر منها .

- وقد قام الدكتور هيد Head بتقسيم الإحساس الجلدي إلى مجموعتين:
- ✿ إحساس أساسي Protopathic: ويختص بالألم، ودرجة الحرارة الشديدة .
 - ✿ وإحساس دقيق Epicritic: ويختص بتمييز اللمس الخفيف، والفرق البسيط في درجة الحرارة.

وكلُّ إحساس منهما: يعمل بنوع مختلف من الوحدات العصبية، ومع تجدد الأعصاب في الجروح يعود الإحساس الأساسي سريعاً، بعد حوالي شهر ونصف، أما الإحساس الدقيق: فقد يتأخر إلى عامين وقد لا يعود.

والنهايات العصبية في الجلد تخصصية؛ كل منها مخصص بإحساس محدد، مثل: اللمس والضغط والحرارة والبرودة والألم، وتبعاً لمن اكتشفها أو قام بدراستها تسمى النهايات العصبية في الجلد بمسميات مختلفة مثل جسيمات مايسنر Meissner، وجسيمات ميركل Merkel، وبصيلات كروز Krause، واسطوانات روفيني Ruffini، وقد أثبت التشريح النسيجي للأعصاب أن الألياف العصبية الخاصة بالألم والحرارة متقاربة وإذا اشتدت الحرارة يتحول الإحساس بالحرارة إلى ألم.



وفي حالة الحروق تدمر تكوينات الجلد، وعلى حسب إصابة الطبقات الثلاث تقسم الحروق إلى درجات ثلاث: سطحي وجزئي وعميق، وفي الدرجة الثانية تصل الإصابة للأدمة ويعاني المصاب من فرط إحساس وآلام شديدة نتيجة لإثارة النهايات العصبية المكشوفة، وفي الدرجة الثالثة تحترق كل الطبقات ويشعر

المصاب بخدر نتيجة تحطم النهايات العصبية ولا سبيل لإعادة الإحساس إلا بتبديل الجلد بغيره، وما كان بوسع بشرٍ قبل اختراع المجهر أن يعرف هذه الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً مضت.

وجه الإعجاز:

عندما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

لم تكن تعرف علاقة الجسم بالإحساس، ولم يدرك الناس ذلك إلا بعد تقدم علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، في العصور المتأخرة.

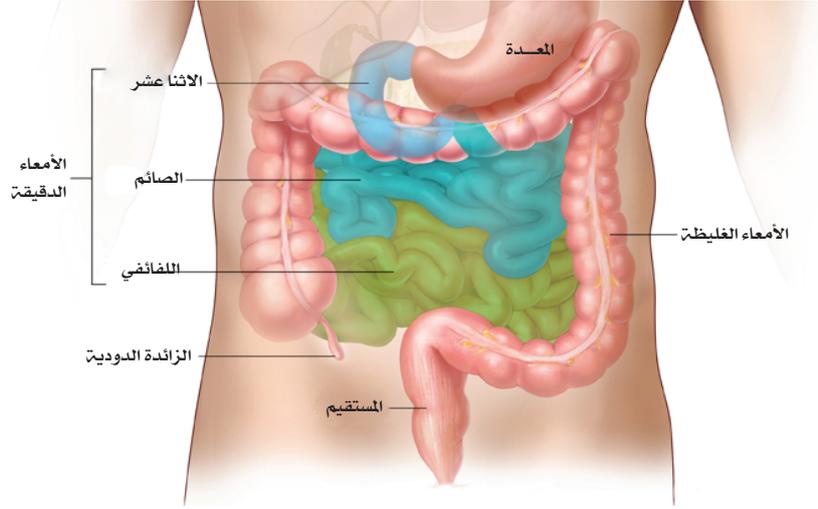
وما ذكره القرآن الكريم من حقائق في هذا المجال، عند معرض حديثه لحال الكفار وهم يعدّون، هو إعجازٌ يدل على صدق صاحب الرسالة محمد ﷺ.



صورة بالمجهر الإلكتروني لطبقات الجلد

ألم الأمعاء

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].



الدلالة النصية:

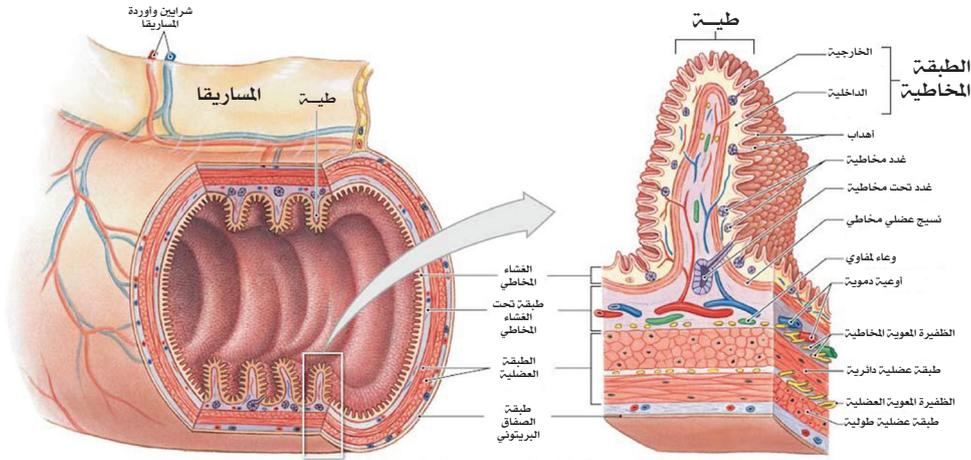
قوله سبحانه وتعالى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: حارًا شديد الغليان، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع مَعْيٍ، والثنية معيَّان، وهو جميع ما في البطن من الحوايا (١).

(١) تفسير القرطبي (١٦ / ٢٣٧).

ويلاحظ دقة التعبير القرآني ومناسبته للحال عند تعبيره بلفظ (التقطيع) عند وصف عذاب الكفار وهم يتجرعون ماء حميما يقطعُ أمعاءهم؛ فيحدث لهم ألمًا لا يُحتمل؛ إذ لا ينتج ذلك إلا بتقطيع الأمعاء دون سواه كالحرق وغيره. وفي ذلك إشارة إلى أن الأمعاء لا تشعر بالحرارة إلا عندما تتقطع ويتخللها الحميم .

الحقيقة العلمية:

كشف علمُ التشريح النسيجي حديثًا: أن جدار الأمعاء يتكوّن من طبقات: الطبقة الداخلية وتسمى بالطبقة المخاطية، والطبقة العضلية الوسطى، والطبقة الخارجية المحاطة بطبقة الصفاق أو الغشاء البريتوني Peritoneum، وبينهما منطقة غنية بالأعصاب تسمى بالمساريقا Mesentery.



ونجد أن هذا الإبداع في التكوين جعل الأمعاء من الداخل في حماية من المؤثرات التي يمكن أن تسبب الألم، وإذا تقطعت الأمعاء وبلغت المؤثرات منطقة المساريقا شعر الإنسان بغاية الألم، فتأمل لماذا استخدم القرآن في حالة الأمعاء وفي مقام بيان غاية الإيلام هذا التعبير المعجز: ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾، وهذا يتوافق مع كون الأمعاء خالية من الأعصاب الحسية .

فإذا أدخلنا منظارا داخل الجهاز الهضمي لا يشعر الإنسان بأي ألم إلا في منطقة البلعوم، أثناء دخول المنظار، ولكن المريض يشعر بالألم عند وجود ثقب في الأمعاء، نتيجة قرحة أو اهتراء ونحوها؛ لأن باطن الأمعاء خالية من الإحساس؛ حيث لا توجد الأعصاب الحسية إلا في الغشاء البريتوني، ولذلك يعاني المريض الذي يُصاب بثقب في الأمعاء من ألم شديد، يستلزم إجراء جراحة طارئة .

ونعلم حاليا أن الإنسان عندما يتعرض لألم شديد قد يفقد الوعي كوسيلة للدفاع عن النفس، لكن التعبير في القرآن قد احتاط وقطع على هم هذه الأمانة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦] فيبقوا في حالة عذاب مستمر؛ لا هم بالأحياء ولا هم بالأموات، مبالغة في الإيلام.

وجه الإعجاز:

لم يعرف الإنسان عدم إحساس باطن الأمعاء واستجابتها للمؤثرات الخارجية من حرارة شديدة أو برودة وسواها إلا بعد تقدّم علم التشريح، والتعرف على وظائف الأعضاء وخصائصها في القرون الأخيرة.

وما جاء في القرآن الكريم حول تعذيب الكفار في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ يشير إلى هذه الحقيق، ويتوافق مع ما وصل إليه العلم في هذا الخصوص .

والتعبير القرآني الكريم كان غايةً في الدقة، عندما استعمل لفظه (فقطّع) التي تشير إلى أن الألم لا يحدث للكفار إلا بتقطّع أمعاءهم؛ مما يؤدي إلى ملامسة الماء الحار للأعصاب الحسية، فيشعرون عندها بأشد الألم، وما كان بوسع أحد وقت نزول القرآن أن يعرف هذه الحقائق، مما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الخلاق العليم، وما جاء به معجز للبشر جميعهم.



الذباب

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

الدلالة النصية:

لقد ضرب الله مثلا للكفار بالذباب، وتحداهم بأن ما يعبدونهم ويتجهون إليهم من دون الله ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ وهو أصغر المخلوقات وأحقرها ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ يعني: تضافرت جهودهم، واجتمع أمرهم جميعا لا واحداً واحداً. وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ جاءت بنفي المستقبل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لما كانت عملية الخلق صعبة لا يُتحدى بها، تحداهم بما هو أسهل من الخلق ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

وهل يستطيع أحد أن يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو أرجله أو خرطومه؟ وهذه مسألة أسهل من مسألة الخلق.

لذلك يقول تعالى بعدها: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ يعني: كلاهما ضعيف، فالذباب في ذاته ضعيف، وهم كذلك ضعفاء، بدليل أنهم لن يقدرُوا على استنقاذ ما سلبهم الذباب منهم، لكن هناك ضعيف يدعي القوة، وضعيف قوته في أنه مُقرُّ بضعفه.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.. يعني: هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دون الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذبابًا، ولا تستطيع حتى أن تردّ من الذباب ما أخذه، هؤلاء ما عرفوا الله قدره، ولو عرفوا قَدَرَ الله ما عبدوا غيره.

والقَدْر: يعني مقدار الشيء،

المقدار في حقه تعالى عَظُمْتُهُ في صفات الكمال فيه أي: ما عَظُمُوهُ حَقَّ التعظيم الذي ينبغي له، وما عرفوا قَدْرَهُ، ولو عرفوا قَدْرَهُ ما عبدوا غيره، ولا عبدوا أحدًا معه من هذه الآلهة التي لا تخلق ذبابًا، ولا حتى تسترد ما أخذه منهم الذباب، فكيف يُسَوون هؤلاء بالله ويقارنونهم به عَزَّ وَجَلَّ؟ إنهم لو عرفوا الله تعالى قَدْرَهُ لاستحيوا من ذلك كله^(١).

الحقيقة العلمية:

إن الذباب يهضم طعامه خارجَ جهازه الهضمي عن طريق إفراز إنزيمات هاضمة على طعامه ثم يمتصّه بخرطومه على شكل سائل، يدخل إلى جهازه الهضمي، ثم يسير عبر الدورة الدموية إلى خلاياه، ويتحول جزءٌ من طعامه إلى طاقة تمكّنه من الطيران، وبعضه يتحول إلى بناء خلايا وأنسجة، وما تبقى يطرح على شكل فضلات، فأين تكون قطعة الطعام التي استلبها منهم، وما السبيل إلى استرجاعها، ومن يستطيعُ إذن أن يجمعَ الأجزاء التي استهلكت في طاقة طيران الذباب والأجزاء التي تحولت إلى أنسجة!.

وتكوين الذباب تشريحياً ووظيفياً على درجة كبيرة من التعقيد والتكيف مع بيئتها؛ مما ينفي الصدفة العمياء في تكوينها وإعدادها كآية على بديع صنع الخالق وقدرته.

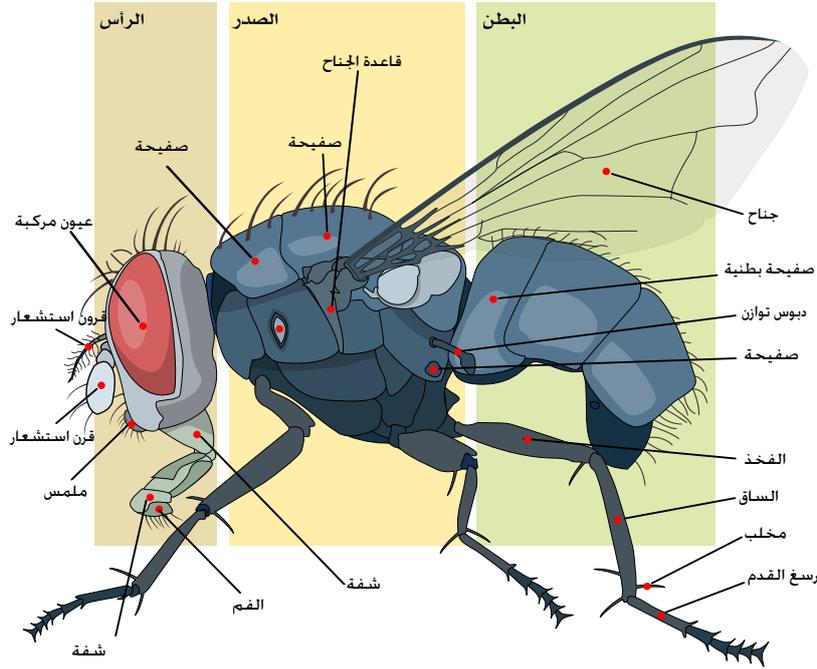
ففي البداية تقوم الذبابة بمعاينة الغذاء عن طريق جملة عيون مركبة،

(١) انظر: تفسير الشعراوي (١٦ / ٩٩٣٣ - ٩٩٣٦).

الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة

ومستشعرات كيميائية تستشعر بها موضع الغذاء، وتهيئة الأعضاء التي ستستخدمها في الطيران، ثم تأخذ وضعية التأهب للطيران، وذلك بتعديل وضع أعضاء التوازن الموجودة في الجهة الأمامية.

وأخيراً تقوم بحساب زاوية الإقلاع معتمدة على اتجاه الريح التي تحددها بواسطة حساسات موجودة على قرون الاستشعار، ثم تطير مرفرفةً بأجنحتها صوبَ الغذاء، وهي قادرة على زيادة سرعتها حتى تصل إلى ١٠ كم/ في الساعة، إذا تطلّب الأمر، إلا أن كل هذه العمليات لا تستغرق أكثر من ١/١٠٠ من الثانية، وهي تسلك أثناء طيرانها مساراً متعرجاً في الهواء، بطريقة تجعل اصطياها متعسراً على مفترسات الحشرات .



فهي تستحق الوصف بسيدة الطيران البهلواني، كما يمكنها الإقلاع عمودياً من المكان الذي تقف فيه، وأن تحطّ بنجاح على أي سطح، بغضّ النظر عن انحداره حتى لو كان سقفاً؛ لأن أقدامها مهيأةً للتثبيت بقوة أكبر من وزنها.

وتوجد على رؤوس أقدامها وسادات تفرز سائلاً لزجاً عندما تلامس الأسقف، وتقوم الذبابة بمدّ سيقانها باتجاه السقف، عندما تقترب منه، وما إن تشعر بملامسته حتى تستدير وتمسك بسطحه .

وتحمل ذبابة المنزل جناحين رقيقين، يتحركان عند الطيران إلى الأمام والخلف، على محور واحد في ذات الوقت، ومع ذلك يمكنها استعمال أحدهما بمعدل أكبر من الآخر، مما يمكنها من الطيران المتعرج وتجنب الافتراس .

وتستمدُّ الذبابة مهارتها الفائقة في الطيران من التصميم المثالي للأجنحة، وتغطي النهايات السطحية والأوردة الموجودة على الأجنحة شعيرات حساسة جداً؛ مما يسهل على هذه الحشرة تحديد اتجاه الهواء والضغط الميكانيكية عند الإقلاع والانبساط عند الهبوط .

وتقوم الحساسات الموجودة تحت الأجنحة والرأس بنقل معلومات الطيران إلى الدماغ، فإذا صادفت الحشرة تياراً هوائياً جديداً أثناء طيرانها تقوم هذه الحساسات بنقل المعلومات الجديدة في الحال إلى الدماغ، وعلى أساسها تبدأ العضلات بتوجيه الأجنحة بالاتجاه الجديد .

وبهذه الطريقة تتمكنُ الذبابة من اكتشاف تغيرات محيطها أثناء الطيران، باستشعار أيّ تيار هوائي إضافي، والهرب إلى مكان آمن في الوقت المناسب .

وتتكون عين الذبابة من ٦٠٠٠ بنية عينية سداسية، يطلق عليها اسم «العينات»، تأخذ كل من هذه العينات منحىً مختلفاً، بحيث تتمكن من معاينة كل الجهات؛ أي أن حقل رؤيتها لما حولها تتسع زاويته ٣٦٠°؛ مما يمكنها من تحديد موضع الغذاء بدقة، والهروب سريعاً في الاتجاه المعاكس لمصدر الخطر.

وتتصل ثمانية أعصاب مستقبلية للضوء بكل واحدة من هذه العينات؛ مما يجعلها في غاية الكفاءة والسرعة في الاستشعار، بحيث تعالج حوالي ١٠٠

صورة في الثانية الواحدة، فمن الذي حسب كل هذه الحسابات بدقة بالغة، وهيّاها على تلك الصورة المذهلة تشريحيا ووظيفيا!.



العبيبات لدى الذبابة

وتضع ذبابة الفاكهة البيضَ داخل الثمرة خاصة الجوافة، لتتغذى يرقاتها عليها بعد الفقس، وغالبا تسقط الثمرة لتكتمل العذارى دورتها في التربة. وقد وُجد تشابهٌ كبير بين جينات ذباب الفاكهة وجينات الإنسان، مما يعني أن دراستها تفتح مجالا واسعا لخدمة الإنسان في علاج الأمراض خاصة السرطان. وتوماس هانت مورجان هو أول من اكتشف أهمية الذباب في أبحاث الوراثة والتخليق في بدايات القرن العشرين، ويستخدم ذباب الفاكهة منذ مائة عام في دراسة المورثات لعدة أسباب؛ منها اشتراكه مع البشر في أكثر من ٢٠ جينا وراثيا خاصا بحرق الدهون، ولذا عملية استخلاص الطاقة من الدهون لدى الذبابة تشبه إلى حدٍ مدهل تلك التي يقوم بها الجسم البشري؛ مما يعطي الأمل لعلاج مرض البول السكري وأمراض الكبد.

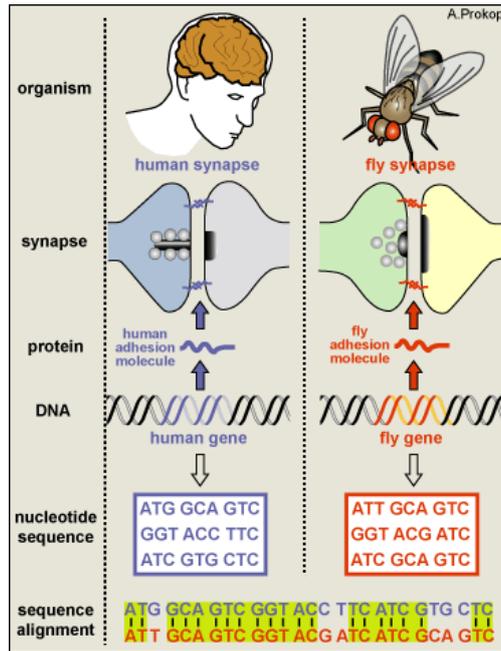
وتحتوي خلايا بعض أنواع ذبابة الفاكهة على ثلاثة أزواج فقط من المورثات الضخمة الواضحة مجهريا في مقابل ٢٣ زوجا عند الإنسان، ومن أسباب استخدام ذبابة الفاكهة إذن لأبحاث الوراثة والتخليق ما يلي:

❁ كونها صغيرة الحجم، قصيرة العمر، بحيث تسهل دراسة أجيال عدة في فترة وجيزة.

❁ تتكاثر بسرعة؛ لأن دورة حياتها لا تتعدى أسبوعين، مع سهولة التربية وقلّة التكاليف، ولا تنقل للإنسان أمراضًا.

❁ مورثاتها ضخمة بسيطة سهلة الدراسة.

❁ التشابه الجيني بينها وبين الإنسان، ويمكن تبدل صفات الجنسين بتبديل الجين المسؤول، مما يعني إمكان تغيير الصفات، وقد اكتشفت مورثة عند الذباب تماثل مورثة عند الإنسان، وقد أمكن عزل بروتين ضروري لنمو الأجنة في ذبابة الفاكهة، يساعد الثدييات في التئام الجروح مما يعني إمكانية الاستفادة منها في استحداث آليات لالتئام الجروح عند البشر.



التشابه الجيني بين الإنسان وذبابة الفاكهة

وذبابة الفاكهة قد تساعد على إيجاد طريقة للعثور على مركبات، تزيد نشاط الجسم في مكافحة المواد السامة؛ الأمر الذي قد يساعد في إيجاد علاج للسرطان، فالذبابة إذن هي الأنسب في أبحاث الوراثة، ومحاولة تخليق صور جديدة من الحياة.

وقد أجريت تجارب على ذبابة الفاكهة لسنوات طويلة وتم إجراء تغييرات جينية، وإنتاج طفرات؛ فنتج أكثر من (٤٠٠) نوع، ولكن كلها مشوهة أو عقيمة لا تنتج نسلا.

وقبل أن ينشأ علم الوراثة وتصبح الدراسات في محاولات تخليق ونقل الصفات الوراثية واقعا ملموسا تحدى القرآن الكريم البشر أن يجتمعوا ويخلقوا ذبابا .

وقد فشلت كل المحاولات لخلق خلية حيّة واحدة من جسم ذبابة؛ فكيف بجسم الذباب البالغ التعقيد والتنظيم والكفاءة الوظيفية، بل تحداهم بأقلّ من ذلك، وهو استنقاذ ما يسلبهم من طعام، فعجزوا وأثبت العلم استحالة ذلك عليهم .

وجه الإعجاز:

لقد أكدت البحوث العلمية عدم إمكانية استرجاع ما يأخذه الذباب لإطعام نفسه، وذلك بسبب التحولات التي تحدث على الطعام كما سبق بيانه، وقد كان للنص القرآني السابق في الإشارة إلى هذه الحقيقة، وذلك في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَأَن يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وكان ذلك قبل أربعة عشر قرناً، حيث كان يستحيل على البشر إدراك تلك الحقيقة، فكان في ذلك مثالا رائعا من أمثلة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.





البعوضة

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

الدلالة النصية:

قوله: ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾ فيه تنبيه من الخالق أنه لا يستحي أن يضرب الأمثال بأي من مخلوقاته؛ إذ ليس مما يستحي منه، ولأن المخلوقات متساوية في الضعف بالنسبة إلى خالقها والمتصرف فيها، وقد يكون ذكر الاستحياء هنا مجازاً لقولهم: أما يستحي ربُّ محمد ﷺ أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت.

والمعنى أن يضرب البعوضة مثلاً فيضرب ما فوقها أي ما هو أحقر من البعوضة، مثل: الذرة وأكبر منها مثل العنكبوت والحمار.

وقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ بيان أن للفسق تأثيراً في زيادة الضلال؛ لأن الفسق يرينُ على القلوب، ويكسب النفوسَ ظلمةً؛ فتساقط في الضلال المرة بعد الأخرى. وهو يشمل المشركين واليهود الذين طعنوا في ضرب المثل^(١).

الحقيقة العلمية:

في هذا النص إشارة إلى ما يمكن أن تسببه البعوضة من أمراض، والإعلان قبل اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر، والمعرفة بالكائنات الدقيقة كالميكروبات

(١) انظر: التحرير والتنوير (١ / ٣٦٠ - ٣٦٧).

والفطريات والفيروسات، حيث لم يرد في أي كتاب آخر يُنسب للوحي سوى القرآن الكريم .

وهذا مثل صارخ لتسامي القرآن الكريم عن النظرة النسبية في الحكم على الأشياء، وتنزّهه عن التصورات المغلوطة الشائعة، وفي بيئته التنزيل لم يعرف عن البعوضة سوى أنها غير ذات شأن، بل هي من جملة ما يُستحيى من ذكره في المسائل العظام، فلا يسوغ أن تلقى أيّ عناية أو اهتمام .

ثم إن اعتبارها غاية المثل في الضلالة والاستحقاق قد انتهى عندما كشف القرآن الكريم خطرَ البعوضة، وذلك قبل اكتشاف المُجهر والمعرفة بالأمراض الخطيرة التي تسببها البعوضة وعوالم الكائنات الحية الأدق وغير المرئية .

لقد تجاوز القرآن الأفق الأعلى لمعارف المخاطبين لعدة قرون، ورفع أستار المجهول جملة واحدة، قال الرازي (رحمه الله تعالى): "في قوله سبحانه وتعالى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون المراد فما هو أعظم منها في الجثة، كالذباب والعنكبوت والحمار والكلب، فإن القوم أنكروا تمثيل الله تعالى بكل هذه الأشياء.

والثاني: أراد بما فوقها في الصغر، أي: بما هو أصغر منها، والمحققون مالوا إلى هذا القول؛ لأن: الغرض هاهنا بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الحقير .

وفي مثل هذا الموضع يجب أن يكون المذكورُ ثانيًا أشدَّ حقارة من الأول..، والشيء كلما كان أصغر، كان الاطلاعُ على أسراره أصعب، فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علمُ الله تعالى، فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالشيء الكبير^(١).

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢/ ٣٦٤).

وقال الماوردي: «(فما فوقها) أي: فما فوقها في الصَّغْر، لأن الغرض المقصود هو الصغر»^(١).

وقال الألوسي: «والزيادة في المعنى الذي وقع التمثيل فيه هو الصغر والحقارة، فهو تنزّل من الحقير للأحقر».

وقال السعدي: «المعنى الذي ضربت فيه مثلاً هو القلة والحقارة..، ولا يقال كيف يضرب المثل بما دون البعوضة؛ وهي النهاية في الصغر؟، لأن التعقيب على الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.. يجعلهم يتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت علىه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حقّ وما اشتملت علىه حق؛ وإن خفي على هم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً بل لحكمة بالغة».

ويقرر نوري الجاوي في تفسيره «مراح لبيد» أن نبأ ما دون البعوضة: «لا يسوغ إنكاره لأنه ليس عبثاً؛ بل هو مشتمل على أسرار».

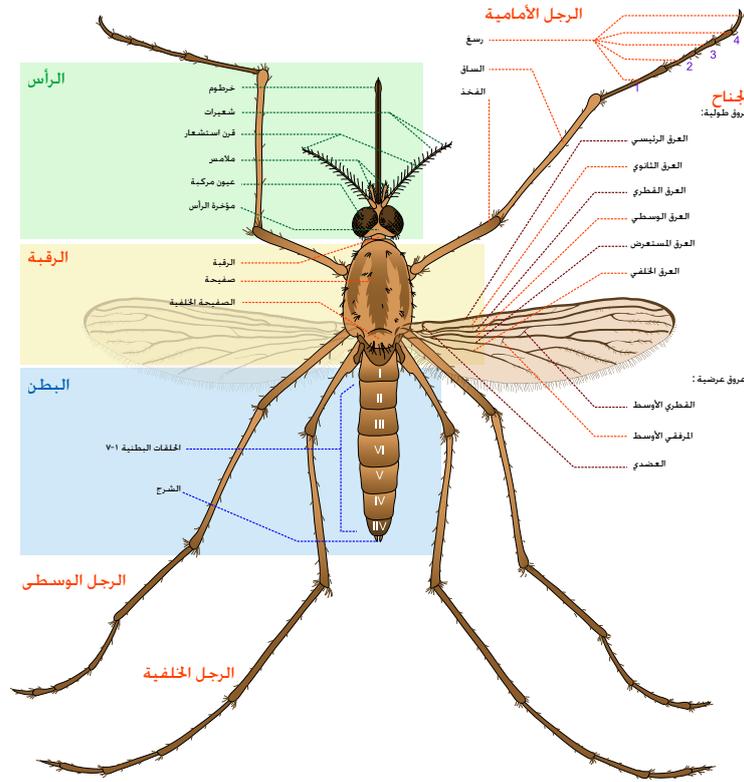


وأنتى البعوض حشرة مصاصة للدماء، وربما في ذكر الله سبحانه للبعوض بصيغة التأنيث إشارة إلى أن الأنثى هي أشدُّ قوةً وفتكاً، وهي التي تنشر الأمراض. فالأنثى لا تمتص الدم لكي تتغذى عليه لأن غذاء البعوض عامةً هو خلاصة الزهور، ولكن فقط لتغذية الصغار، وسبب الاختلاف بين الذكر والأنثى (التي

(١) انظر: تفسير النكت والعيون للماوردي (١ / ٨٨).

تمتص الدم) هو أن أنثى البعوض تحمل بيوضاً، وهذه البيوض تحتاج إلى البروتين لتكبر ونستطيع أن نقول بمعنى آخر أنها تحافظ على دوام نسلها بهذه الطريقة أي: بامتصاص الدم لإطعامهم .

ولم يعرف دور البعوضة في نقل طفيل الملاريا مثلاً إلا قبيل بداية القرن العشرين، عندما تمكّن الفونس لافيران من معرفة الطفيل المسبب للملاريا عام ١٨٨٠.



وفي عام ١٨٩٧ اكتشف سير رونالدز روز انتقال الطفيل عن طريق البعوضة. وفي عام ١٨٩٨ تمكّن فريق من الباحثين من تأكيد دور البعوضة في نقل المرض.

وكلمة «ملاريا» إيطالية الأصل وتعني الهواء الفاسد، وقد بقيت مستخدمة حالياً كمصطلح تاريخي يعكس الاعتقاد الخاطئ بأن المرض ينتقل إلى الإنسان عن طريق الهواء الفاسد؛ وذلك قبل أن يُعرف دورُ البعوضة في نقل الطفيليات المجهرية التي تسببه .

وسببُ وباء الحمى الصفراء لم يكن معروفاً قبيلَ بداية القرن العشرين .
وفي عام ١٨٨١ افترض كارلوس فينلاي أن الناقل هو البعوض، وهو ما أكده ميغور والتر عام ١٩٠٠، وأثبته ويليام جورجاس في القرن العشرين، وبالتخلص من البعوض أثناء شق قناة بنما تراجع المرض .
وفي نفس الفترة اكتشف باتريك مانسون طفيل الفلاريا الذي يسبب داء الفيل، وعرف أن الناقل له هو البعوض .

وجه الإعجاز:

لقد ضرب الله مثلاً بالبعوضة رغم أنها ذات حجم صغير وشأنٍ حقير، وضربُ المثل بالبعوضة هو من جملة المتحدى به مما يحمل علماً لا يدرك أغواره أحد زمن تنزيل القرآن الكريم، وفيه إشارة إلى أنها ذات أثر خطير في حياة المخاطبين، ولقد جاءت الكشوفُ العلمية في هذا المجال مطابقة لما دل عليه النص القرآني فكان ذلك إعجازاً علمياً باهراً.





الإبل

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

الدلالة النصية:

لقد خص الله سبحانه وتعالى الإبل بالذكر؛ لاجتماع خلال الأنعام كلها فيها، فهي حلوبة وركوبة وأكولة وحمولة، فكان الإنعام بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم^(١).

قال ابن الخطيب: «الإبل لها خواص، منها: أنه - تعالى - جعل الحيوان الذي يُقتنى أنواعاً، فتارة يُقتنى ليؤكل لحمه، وتارة يُشرب لبنه، وتارة ليحمل الناس في الأسفار، وتارة لنقل المتاع من بلد إلى بلد، وتارة للزينة والجمال، وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل.

ثم إنها فاقت في كل خصلة من هذه الخصال غيرها من الحيوان المختص ببعضها، مع صبرها على العطش، وقطع المفاوز بالأحمال الثقيلة، وقناعتها في العلف بنبات البرّ، ولقد ضللنا الطريق في مفازة، فقدموا جملاً واتبعوه، فهداهم للطريق بعد زمان طويل، مع كثرة المعاطف والتلؤلؤ، فانظر كيف ثبت واهتدى على ما عجزت عنه ذوو العقول.

ومنها: أنها في غاية القوة والصبر على العمل.

ومنها: أنها مع كونها كذلك منقادة للصبي الصغير.

(١) انظر: تفسير العز بن عبد السلام (٣/ ٤٤٧).

ومنها: أنها تحمل وهي باركة، ثم تقوم بحملها، وهذه الصفات توجب على العاقل أن ينظرَ في خَلْقها وتركيبها، ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم جَلَّتْ قدرته^(١).

الحقيقة العلمية:

تعتبر الإبل نموذجًا فريدًا في إعجاز الخلق، ففي عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥، حين أصيبت أفريقيا بالجفاف، هلكت أو كادت تهلك في كينيا كلُّ القبائل التي كانت تعيش على الأبقار التي كَفَّت عن إفراز اللبن، ثم مات معظمها، بينما نجت القبائل التي كانت تعيش على الإبل، لأن النوق استمرت في الجود بألبانها في موسم الجفاف.

ومن هنا أصبح للاهتمام بالإبل أيضًا دوافع اقتصاديةً ومستقبليةً مهمةً، وفي هذه الآية الكريمة يدعونا الحكيم العليم إلى التدبر في آيات الخلق، وبيّنات تنزيل القرآن الكريم، وبصدد بعض المظاهر في خلق الإبل التي يستوي في تفهّم تلك الآيات البدويُّ بفطرته السليمة في صدر الإسلام، وعلماء الأحياء اليومَ باعتبارها بيّنةً دالةً على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وكمال قدرته وعظيم تدبيره.

وما كشفه العلم حديثًا عن بعض الحقائق المذهلة في خلق الإبل يفسر لنا ولو من بعض الوجوه: لماذا خصَّ الله جل وعلا هذا المخلوق العجيب من بين ما لا يُحصى من مخلوقاته بالذكر! ولتفصيل ذلك نلاحظ ما يأتي:

الإبل نوعان: ذوات السنّام الواحد؛ وهي الإبل العربية التي تنتشر في شبه الجزيرة العربية، وفي مناطق تمتد شرقًا إلى الهند، وغربًا إلى البلاد المتاخمة للصحراء الكبرى في إفريقيا.

أما النوع الثاني: فهي الإبل الفوالج ذات السنّامين، التي تستوطن أواسط آسيا.

(١) اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الحنبلي (٢٠ / ٣٠٠).



جمل ذو سنامين

وتفيدُ الإحصائيات إلى وجود نحو ١٩٠ مليون رأس من الإبل في العالم، أكثرها عربية من ذات السنام الواحد .

وأول ما يلفت الأنظار في الإبل خصائصها الفريدة، ذات اللطائف التي تأخذ بالألباب؛ لما فيها من تأهيل مسبق يُمكنها من العيش بكفاءة في الظروف الصحراوية القاسية؛ مما يدفع الصدفة وكلّ محاولات الملاحظة في طمس حقيقة وجود التقدير في الخلق والعناية الإلهية بهذا المخلوق .

فالعينان محاطتان بطبقتين من الأهداب الطوال تقيانهما القذى والرمال.

أما الأذنان فصغيرتان قليلتا البروز، والشعر يكتنفها من كل جانب ليقبها الرمال التي تذررها الرياح، ولهما القدرة عن الانثناء خلعًا والالتصاق بالرأس إذا ما هبت العواصف الرملية .

كذلك يتخذ المنخران شكل شقين ضيقين محاطين بالشعر، ويستطيع الجمل أن يغلقهما ليدفع ما قد تحمله الرياح إلى رتيه من حبيبات الرمال.

وشكل أقدام الإبل هو الأنسب لبيئتها، ولا غُرَوَ في ذلك؛ لأن الذي خلقها وركبها هو العليم الخبير والمدبر الحكيم، فأقدام الإبل كبيرة جدا حتى لا تَسُوخَ في الرمال، فزيادة مساحة الخف يساعدها على المشي على الرمل دون أن تسيخ فيه، وأما جلد أسفل باطن القدم فتخين جدا؛ ليقبها من الرمال الحارة أثناء القِيظ .

وذبول الإبل تحمل كذلك على جانبيها شعرا يحمي الأجزاء الخلفية من حبات الرمل التي تُثيرها الرياح السافياتُ كأنها وابل من الرصاص .

أما قوائمها فهي طويلة لترفع جسمها عما يثور تحته من غبار، كما أنها تساعده على اتساع الخطوات، وخفة الحركة فيقطع مسافةً كبيرة بخطوات محدودة مقارنةً بغيره من الدواب؛ مما يجعله أنسبها للركوب خاصة في الرحلات الطويلة في الصحراء .

وتتحصن أقدام الجمل بِخُفٍّ يغلفها جلدٌ قوي غليظ، يضم وسادة عريضة لينة تتسع عندما يدوس الجمل بها فوق الأرض؛ ومن ثم يستطيع السير فوق أكثر الرمل نعومة، وهو ما يصعب على أية دابة سواه، ويجعله جديرا بلقب سفينة الصحراء .

وما زالت الإبلُ في كثير من المناطق القاحلة الوسيلة المثلى لارتياح الصحارى، وقد تقطع قافلة الإبل بما عليها من زاد ومتاع نحوًا من خمسين أو ستين كيلومترا في اليوم الواحد، ولم تستطع السياراتُ منافسةَ الإبل في ارتياح المناطق الصحراوية الوعرة غير المعبدة .

وارتفاع قوائم الجمل يناسب طولَ عُنُقِهِ حتى يتمكن من تناول طعامه من نباتات الأرض، كما أنه يستطيع قَضْمَ أوراق الأشجار المرتفعة حين يصادفُها .

هذا فضلا عن أن هذا العنق الطويل يزيد الرأس ارتفاعًا عن التيارات الرملية السطحية .

و حين يبركُ الجمَل للراحة، أو يُنَاحُ ليعدَّ للرحيل يعتمد جسْمُه الثقيل على وسائد من جلد قوي سميك على مفاصلِ أرجله، ويرتكز بمعظم ثقله على كَلْكَلِه، ولو جثم به فوق حيوان أو إنسان لكسر عظامه، وهذه الوسائد إحدى معجزات الخالق التي أنعم بها سبحانه وتعالى على هذا الحيوان العجيب؛ حيث تهيئُه لأنَّ يبركُ فوق الرمال الخشنة الشديدة الحرارة، التي كثيرًا ما لا يجد سواها مفترشًا فلا يبالي بها، ولا يصيبه منها أذى .



خف جمل

والحيوان الوليد يخرج من بطن أمه مزودا بهذه الوسائد، فهي شيء ثابت موروث، وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاء، أو لبس الأحذية الضيقة؛ مما يخجل القائلين بالصدفة .

وللناس في الإبل منافع أخرى غير الانتقال وحمل الأثقال، فهم ينالون من ألبانها ولحومها وينسجون الكساء من أوبارها، ويصنع البدوي خبائه من جلودها، وتُدفع بها الديات في حوادث القتل، ومهر العرائس، ويكفي أن نتأمل الأدب الراقي في النهي حتى عن سب الحيوان .

وحسب الإبل فضلاً أن الله جعلها خير ما يُهدى إلى بيته المحرم، وجعلها من شعائره: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

هذه بعض أوجه الحكمة في خلق الإبل من ناحية الشكل والبنيان الخارجي، وهي خصائص يمكن إدراكها بالمشاهدة، ولا يخفى على المتأمل منذ الوهلة الأولى ما في الإبل من روعة الخلق وبديع الصنع الذي يدل على قدرة الخالق سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته .

وأما خصائص الإبل الوظيفية: ففيها ما فيها من أسرارٍ تهز القلب، وتأخذ باللبِّ، فيقوى يقينه بالله، ففي بيئة الصحراء التي يقلُّ فيها الزرع والماء لا يكتب العيش إلا لحيوان خلق الله تعالى جسمه وهيئه ليستغل ما توفر له من ماء وغذاء أحسن استغلال .

وللإبل في هذا أساليب معجزة فطرها الخالق عليها تدعو للعجب وتدفع كلَّ ذي حسٍّ يقظٍ لتسييح الخالق: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

فالجهاز الهضمي للإبل قويٌّ بحيث تستطيع أن تهضم أيَّ شيءٍ تجده إذا تعذرت الأعشاب، وهي لا تتنفس من الفم ولا تلهث أبداً مهما اشتد الحر أو استبدَّ بها العطش، وهي بذلك تتجنب تبخر الماء من هذا السبيل.

وتمتاز الإبل بكونها لا تفرز إلا مقداراً ضئيلاً من العرق عند الضرورة القصوى بسبب قدرة أجسامها على التكيف مع المعيشة في ظروف الصحراء التي تتغير فيها درجة الحرارة بين الليل والنهار .

وأجسام الإبل مغطاة بشعر كثيف، يقوم بعزل الحرارة ويمنعها من بلوغ ما تحت الجلد، ويستطيع جهاز ضبط الحرارة في الجسم أن يجعل مدى تفاوت

الحرارة نحو سبع درجات كاملة دون ضرر، أي بين ٣٤م و ٤١م، ولا يضطر الحيوان إلى العرق إلا إذا تجاوزت حرارة جسمه ٤١م؛ ويكون هذا في فترة قصيرة من النهار، أما في المساء فإنه يتخلص من الحرارة التي اختزنها عن طريق الإشعاع إلى هواء الليل البارد، دون أن يفقد قطرة ماءً واحدة، وهذه الآلية وحدها توفر للحيوان خمسة لترات كاملة من الماء .

وتستطيع الإبل أن تتحمل درجة حرارة تصل إلى ٧٠ درجة فوق الصفر، والإبل ذات السنامين تستطيع أن تتحمل البرودة حتى ٥٢ درجة تحت الصفر، ولذا يستطيع هذا النوع أن يعيش في ارتفاعات تصل إلى ٤٠٠٠ متر فوق سطح البحر.

وإنتاج الغذاء والماء من الشحوم الموجودة في السنام بطريقة كيميائية، يعجز الإنسان عن مضاهاتها، يفسر قدرة الإبل على تحمل الجوع والعطش لفترات طويلة، ومعظم الدهن الذي يخزنه الحيوان في سنامه يلجأ إليه حين يشح الغذاء أو ينعدم فيحرقه شيئاً فشيئاً بلا علمٍ منه ولا اختيار؛ فيذوى السنام يوماً بعد آخر حتى يميل على جنبه ثم يصبح كيساً متهدلاً خاوياً إذا طال الجوع والعطش بالجمل المسافر الضامر.

مصدّقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَّ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] إشارة إلى أن السنام فيه مخزون الماء والغذاء ولذا يؤدي السفر الطويل إلى ضمور مخزون الإبل مع قطع مسافات طويلة على السطح المنحني للأرض نحو الأسفل في كل اتجاه كالمناكب بالنسبة للرأس. والحيوان الظمآن يستطيع أن يطفئ ظمأه من أي نوع وجد من الماء، حتى وإن كان ماء البحر أو ماء في مستنقع شديد الملوحة أو المرارة، وذلك بفضل استعداد خاص في كليتيه لإخراج تلك الأملاح، في بول شديد التركيز، بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم .

ومن حكمة خلق الله تعالى في الإبل أن جعل احتياطيَّ الدهون في الإبل كبيراً للغاية، بحيث يفوق أيَّ حيوانٍ آخر، ويكفي دليلاً على ذلك أن نقارن بينه وبين الخروف المشهور بإليته الضخمة المملوءة بالشحم، فعلى حين نجد الخروف يختزن زهاء ١١ كجم من الدهن في إليته نجد أن الجمال يختزن ما يفوق ذلك المقدار بأكثر من عشرة أضعاف؛ أي نحو ١٢٠ كجم .

ولهذا يستطيع الجمال أن يقضي فتراتٍ طويلةً بدون ماء يشربه. ولكن آثار العطش الشديد تصيبه بالهزال وتفقده الكثير من وزنه، وبالرغم من هذا، فإنه يبقى صلباً صابراً، لا تخور قواه إلى أن يجد الماء العذب أو المالح فيعب منه عباً . كما جاء وصفها في قوله تعالى: ﴿ فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ﴾ [الواقعة: ٥٥].

وجه الإعجاز:

لا يخفى على متأمل الآيات السابقة وجه الإعجاز، لكون أن في خلق الإبل من إحكام الخلق ولطف التدبير ما يبهر المتأملين على مر العصور. وجاء العلم ليكشف الكثير من خفاياها؛ مما يدل على تطابق ما عرفه العلم يقيناً مع ما دلت عليه النصوص القرآنية. . وبالله التوفيق.



الطاعون والحجر الصحي

في الصحيحين: «الطاعون بقية رُجْزٍ أو عذاب، أرسل على طائفة من بني إسرائيل، فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها»^(١).



وفي رواية أخرى: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»^(٢).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٤٧٣)، وصحيح مسلم، حديث رقم (٢٢١٨).
(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٧٢٨-٥٧٣٠)، وصحيح مسلم، حديث رقم (٢٢١٨)، وأحمد، حديث رقم (١٥٣٦).

وفي رواية البخاري: «الطاعون كان عذابا يبعثه الله على من يشاء، وإن الله جعله رحمةً للمؤمنين، فليس من أحد يقعُ الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد»^(١).

وفي رواية للإمام أحمد: «الفأر من الطاعون كالفأر من الزحف، ومن صبر فيه كان له أجر شهيد»^(٢).

الدلالة النصية:

قوله: «الطاعون»، هو المرض العام، والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان، وقيل: الطاعون هو الوجد الغالب الذي تنظفي به الروح^(٣). وإنما سمي طاعوناً لعموم مصابه وسرعة فتكه، فيدخل فيه مثله مما يصلح اللفظ له^(٤).

قوله: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها».

قال ابن عبد البر: النهي عن القدوم لدفع ملامة النفس، وعن الخروج للإيمان بالقدر.

والأكثر: أن النهي عن الفرار منه للتحريم، وقيل: للتنزيه، ويجوز لشغل عرض غير الفرار اتفاقاً، قاله التاج السبكي.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٧٣٤)، وأحمد، حديث رقم (٢٥٢١٢).

(٢) مسند أحمد، حديث رقم (١٤٤٧٨) قال مخرجه: «حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف... ويشهد له حديث عائشة... (١٤٥/٦) وإسناده جيد، وفي باب أن المطعون شهيد، انظر حديث أبي هريرة السالف رقم (٨٠٩٢)، وذكرت شواهد كثيرة».

(٣) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٤/١٢٨ - ١٢٩).

(٤) انظر: شرح الزرقاني على الموطأ (٤/٣٧٩).

قال الحافظ: ولا شك أن الصور ثلاث: من خرج لقصد الفرار محضاً فهذا يتناوله النهي لا محالة.

ومن خرج لحاجة متمحضة لا لقصد الفرار أصلاً، ويصور ذلك فيمن تهيأ للرحيل من بلد إلى بلد كان بها إقامته مثلاً، ولم يكن الطاعون وقع فاتفق وقوعه في أثناء تجهيزه فهذا لم يقصد الفرار أصلاً، فلا يدخل في النهي.

الثالث: من عرضت له حاجة فأراد الخروج إليها، وانضم إلى ذلك أنه قصد الراحة من الإقامة بالبلد التي وقع بها الطاعون فهذا محل النزاع، كأن تكون الأرض التي وقع بها وخمةً، والأرض التي يتوجه إليها صحيحةً، فيتوجه بهذا القصد إليها، فمن منع نظر إلى صورة الفرار في الجملة، ومن أجاز نظر إلى أنه لم يتمحض القصد للفرار، وإنما هو لقصد التأويل انتهى.

قال ابن عبد البر: يقال: ما فرَّ أحدٌ من الطاعون فسَلِمَ من الموت، ولم يبلغني عن أحد من حملة العلم أنه فر منه، إلا ما ذكر المدايني: أن علي بن زيد بن جدعان هرب منه إلى السبالة، فكان يجمع كل جمعة ويرجع، فإذا رجع صاحوا به فرّ من الطاعون فطعن فمات بالسبالة انتهى.

لكن نقل القاضي عياض وغيره جواز الخروج من الأرض التي وقع بها الطاعون عن جماعة من الصحابة منهم علي والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين الأسود بن هلال ومسروق وأنهما كانا يفران منه.

ونقل ابن جرير: أن أبا موسى الأشعري كان يبعث بنيه إلى الأعراب من الطاعون. وعن عمرو بن العاص أنه قال: تفرقوا من هذا الرّجز في الشعاب والأودية ورءوس الجبال حملاً للنهي على التنزيه، والجمهور أنه للتحريم حتى قال ابن خزيمة: إنه من الكبائر التي يعاقب الله عليها إن لم يعف^(١).

(١) انظر: شرح الزرقاني على الموطأ (٤ / ٣٨٠).

والمراد بالطاعون هنا: ما يعم الأمراض الوبائية المعدية المماثلة في خطورتها لمرض الطاعون Plague المعروف طبيا.

وفي الأحاديث النبوية السالفة نهي عن دخول البلاد المصابة بالطاعون، ونهي عن خروج مَنْ هُمْ فِيهَا؛ حتى يبقى الوباء محصورا بين مَنْ أُصِيبُوا بِهِ وَلَا يَنْتَشِرُ إِلَى غَيْرِهِمْ، وهذا الوضع هو ما بات يعرف اليوم بالحجر الصحي.

الحقيقة العلمية:

✿ الطاعون والوقاية منه:

في الثامنة عشرة من الهجرة - في النصف الأول من القرن السابع الميلادي - ظهر الطاعون في قرية عمواس بفلسطين، ثم انتشر في الشام وخلف عددا كبيرا من الضحايا، ومن قادة الجيوش الإسلامية الذي هلك بسبب الطاعون أبو عبيدة عامر بن الجراح.

وقد ضربت موجات الطاعون أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، فقضت على ربع سكانها، وحينما وصلت إلى حدود العالم الإسلامي توقفت.

وقد توالى موجات الطاعون دون أن تُعرف أسبابها، وحر فيها الناس فنسبوها إلى الأرواح الشريرة أو تأثير النجوم أو الهواء الفاسد.

بعد أن تقدمت العلوم واكتشفت العوامل الخفية للكائنات الدقيقة، وطرق تكاثرها وانتشارها، وكيفية تسببها في إحداث الأمراض والأوبئة، عرف أن المسبب للطاعون هو جرثومة تسمى اليرسينية *Yersinia*، تنتقل عن طريق عضه حيوان مصاب، مثل: الفئران أو البراغيث - التي تعيش على أجسام حيوانات مصابة كالفئران والقطط والكلاب المستأنسة والسناجب والأرانب والجمال والخرفان - ويطلق على الحيوان المصاب مسمى: العائل للمرض.



جرثومة اليرسينية Yersinia المسببة لمرض الطاعون

أما الناقل للمرض فيسمى الوسيط، وهو في العادة البراغيث والقمل والقُراد. كما يمكن انتقال العدوى عن طريق استنشاق رذاذ الأشخاص المصابين بالطاعون الرئوي أثناء السعال، أو استنشاق الهواء الملوّث بالميكروب.

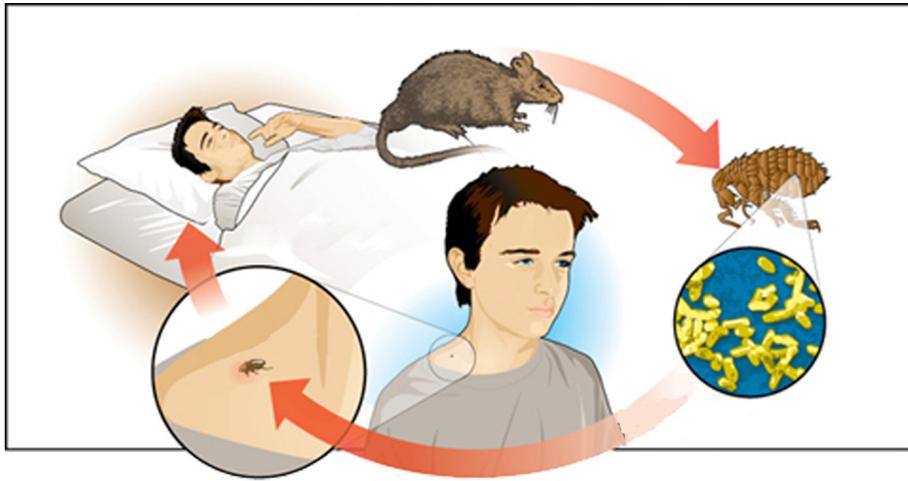
وتتراوح فترة حضانة الطاعون ما بين ١٥ - ٦٧ يوماً، في الطاعون الذي يصيب الغدد الليمفاوية والنوع التسممي، وما بين ٢ - ٤ أيام في الطاعون الرئوي.

❁ الوقاية من الطاعون:

وتتلخص الوقاية من الطاعون في الآتي:

- ❁ تجنب أماكن تواجد الحيوانات العائلة للمرض.
- ❁ التخلص من الفئران والحشرات الناقلة، وأهمها البراغيث.
- ❁ العزل الإجباري للمريض في أماكن خاصة في المستشفيات حتى يتم الشفاء التام.

- ❁ تطهير مخلفات المريض ومتعلقاته ، والتخلص منها بالحرق .
- ❁ مراقبة وتدقيق المخالطين للمرضى ، وعند ظهور أي أعراض عليهم مثل ارتفاع الحرارة أو تورم الغدد الليمفاوية ، يتم إعطاؤهم مضادات حيوية مناسبة ، كإجراء وقائي .



إحدى طرق إصابة الإنسان بالطاعون

الحجر الصحي:

تبين أن الأصحاء الذين لا تبدو عليهم أعراض المرض في مكان الوباء قد يكونون حاملين للمرض ، فيشكلون مصدرَ الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أخرى ، إذا انتقلوا إليها ، ومن هنا جاء نظامُ الحجر الصحي المعروف عالمياً الآن ، والذي يمنع فيه جميع سكان المدينة التي يظهر فيها وباء من الخروج منها كما يمنع دخول أيِّ قادم إليها .

وهذا عينُ التوجيه النبوي الكريم ، فقد نهى رسولُ الله ﷺ من دخولِ الأصحاء إلى أرض الوباء ، ومنع خروج مَنْ هُمْ فيها ، ووعد الصابِرَ على البقاء في أرض المرض بأجر الشهداء ، وشدد في النهي عن الفرار من أرض الوباء ، وشبه الفارَّ منها بالهارب من المعركة ، وهو من أكبر الكبائر .

ويعتبر الحجر الصحي حاليا من أهم وسائل مقاومة انتشار الأمراض الوبائية، ومبدأ الحجر الصحي طيبا لم يُعرف على نطاق واسع إلا في الأزمنة المتأخرة، ويرتكز أساسا على منع السليم من دخول أرض الوباء ومنع الأصحاء من الخروج منها.

وقد أثبت الطب الحديث أن الشخص السليم في منطقة الوباء قد يكون حاملا للميكروب دون أن تظهر عليه أعراض المرض؛ لأن المرض يمر بفترة حضانة، وهي الفترة الزمنية التي تبدأ من دخول الميكروب إلى الجسم وتكاثره وانتشاره إلى أن تظهر أعراض المرض؛ ومن هنا كان في منع خروج مَنْ لم تظهر عليه أعراض المرض من انتشار المرض وحصره في منطقة الإصابة حماية للأصحاء من الخطر.

وجه الإعجاز:

يعتبر نهيه ﷺ عن الخروج من الأرض المصابة بالطاعون، والدخول إليها وسيلة فعالة للوقاية من انتشار الوباء، وحصره في المنطقة المصابة به فحسب، وهو مبدأ الحجر الصحي نفسه الذي لم يعرف إلا بعد تطور العلم واكتشاف مسببات الطاعون؛ حيث تقرّر العمل بالحجر الصحي، وبذلك تطابقت الدلالة النصية مع الحقيقة العلمية المستقرة؛ مما يدل: أن النصوص السابقة تضمنت إعجازا علميا واضحا.





الشيخوخة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].
وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَقَّعُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].
وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].
وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].
وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥].

الدلالة النصية:

قوله: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ أي نطل عمره قوله: ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي نقله فيه ونخلقه على عكس ما خلقناه أولاً، فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي

في ضعف الجسد، وقلة العقل، والخلو عن الفهم والإدراك، وقراءة نكسه من الثلاثي المجرد ونكسه من الإنكاس^(١).

قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أخسه، يعني: الهرم والخرف، الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل. وقيل: هو خمس وتسعون سنة، وقيل: خمس وسبعون سنة، والتحقيق: أن ذلك لا ينضبط بسن. لكي لا يعلم بعد علم شيئاً، ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية، في نقصان العقل والسيان وسوء الفهم. وليس المراد نفي العلم بالكلية، بل عبارة عن قلة العلم لغلبة النسيان. وقيل: المعنى: لئلا يعلم زيادة على علمه شيئاً^(٢).

وفي أردل العمر يُرَدُّ الإنسان بعد القوة والشباب، بعد المهابة والمكان، بعد أن كان يأمر وينهى ويسير على الأرض مُخْتَلِلاً، يُرَدُّ إلى الضعف في كل شيء، حتى في أميز شيء في تكوينه، في فكره، فبعد العلم والحفظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير، لا يذكر شيئاً، ولا يقدر على شيء.

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتية فيك، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه، ولتعلم أنه سبحانه حينما يقضي علينا بالموت فهذا رحمة بنا وستر لنا من الضعف والشيخوخة، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعِينُنَا على أبسط أمور الحياة، ويأمرنا فينا مَنْ كُنَّا نأمره.

ومن هنا كان التوفي نعمة من نعم الله علينا، ولكي تتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدَّ الله في أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن «أردل العمر» وما يعانونه من ضعف وما يعانیه ذووهم في خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه.

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧ / ١٧٧).

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٣ / ١٤٥).

الوفاة إذن نعمة، خاصة عند المؤمن الذي قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله، فتراه مُستبشراً بالموت؛ لأنه عمّر آخرته فهو يُحب القدوم عليها، على عكس المسرف على نفسه الذي لم يُعدّ العُدّة لهذا اليوم، فتراه خائفاً جزعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

وأردل العمر: أردؤه وأقلّه وأخسّه؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ . . .﴾ [النحل: ٧٨] .

وهذه هي وسائل العلم في الإنسان، فإذا رُدَّ إلى أردل العمر فقدت هذه الحواسّ قدرتها، وضُعت عملها، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخرف والهرم، فقد توقفت آلات المعرفة، وبدأ الإنسان ينسى، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله: ﴿لَكِنِّي لَا يَعْزِمُكَ الْعِلْمُ شَيْئًا . . .﴾ [النحل: ٧٠] .

لذلك يُسمّون هذه الحواس الوارث .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿لَكِنِّي لَا يَعْزِمُكَ الْعِلْمُ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠]

لأنه سبحانه بيده الخلق من بدايته، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع، وهذا يتطلب علماً، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ . . .﴾ [الملك: ١٤]

فلا بُدَّ من علم، لأن الذي يصنع صنعة لا بُدَّ أن يعرف ما يُصلحها وما يُفسدها، وذلك يتطلب قدرة للإدراك، فالعلم وحده لا يكفي^(١).

قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ .

(١) انظر: تفسير الشعراوي (١٢ / ٤٩٦٤-٤٩٦٣).

لما أعاد من الدلائل التي مضت دليلاً من دلائل الآفاق وهو قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره، أعاد دليلاً من دلائل الأنفس وهو خلقُ آدميٍّ وذكرُ أحواله، فقال: خلقكم من ضعف أي مبناكم على الضعف، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ومن هاهنا كما تكون في قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنياً أي من حالة فقره، ثم قال تعالى: ثم جعل من بعد ضعف قوة، فقوله: من ضعف، إشارة إلى حالة كان فيها جنينا وطفلاً مولوداً ورضيعاً ومفطوماً، فهذه أحوال غاية الضعف، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله.

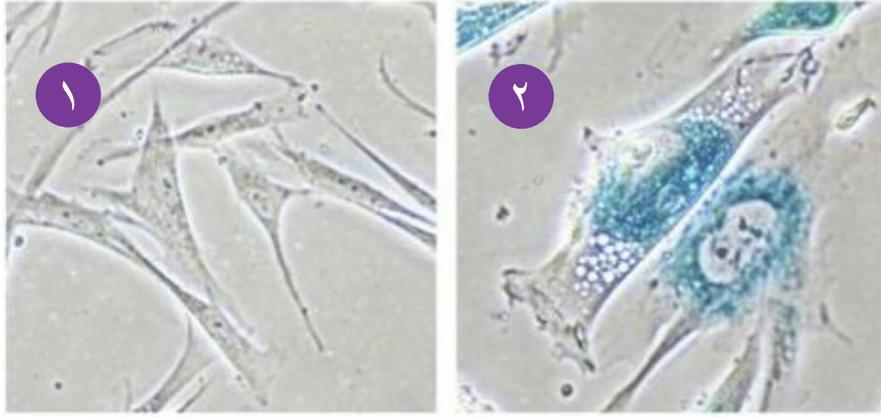
قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشَّيْبَةِ هي تمام الضعف، ثم بين بقوله: يخلق ما يشاء أن هذا ليس طبعاً، بل هو بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى في دلائل الآفاق: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨] (١).

الحقيقة العلمية:

أول من تنبّه لظاهرة الشيخوخة، كحالة تدهور بدني وقصور في الكفاءة الوظيفية كتأثير مستقل يتعلق بالعمر هو الطبيب الفرنسي شاركوت Charcot عام ١٨٨١م، ولم يتبعه أغلب الباحثين إلا في القرن العشرين، ولذا نعجب أن يولي القرآن موضوع الشيخوخة عناية، قبل ذلك بأكثر من عشرة قرون، ولا تجد لهذا نظيراً في أي كتاب آخر ينسب اليوم للوحي غير القرآن الكريم، وإن إدراك خفايا الشيخوخة في عصرنا حيث توفرت التقنيات إنما هو شهادة للقرآن بأنه وحي من الله.

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٥ / ١١١).

إن الشيخوخة Tenescence حالة متدرجة لا مفرَّ منها من التدهور والانهيار، تصيب كافة الأجهزة والأعضاء والأنسجة والخلايا؛ فتضعف قدرتها على التكيف والحفاظ على التوازن عند التعرض للضغوط، ويمر بها كل كائن حي عند الهرم Aging وفقاً لنوعه في طول الأجل .



يظهر الفرق الواضح بين الخلايا في الحالة العادية رقم (١) وفي حال الشيخوخة رقم (٢)

ولذا فالنظرة الحديثة: أنها حالة تدمير ذاتي مبرمج Phenoptosis، يفسح المجال لأجيال جديدة، وأنماط تحافظ على استمرار الحياة وتنوعها، والشيخوخة إذن ليست حالة مرضية وإنما هي مرحلة تكثر فيها الأمراض، وحينئذ تصبح شيخوخة مرضية Senility .

وتفاصيل ذلك يعتني بها علم جديد اسمه علم الشيخوخة Gerontology، ويرى أكثر المختصين: أن الشيخوخة ظاهرة في غاية التنظيم، وترجع أساساً إلى برنامج وراثي موحد لكل نوع من الأحياء، تنفذه المورثات (الجينات Gene)، ومن الجائز وجود عوامل داخلية أو بيئية تدفع المورثات لإحداث التغيير، وقد تقوم بعض العوامل بتعجيل ظهور العوارض، كالأمرض المزمنة مثل مرض البول السكري أو ارتفاع ضغط الدم.

ويرى البعض أن الشيخوخة حصيلة عوامل تخريبية، تصيب الجسم مع الزمن، كالإشعاعات ووقوع الطفرات Mutation وتراكم المواد المؤكسدة Oxidizing agent الناتجة عن الطعام وغيره، ويرى آخرون أنها نتيجة لاستهلاك الأعضاء، مثلما تبلى وتتمزق الملابس بالاستخدام Wear & Tear.

وتشارك الغدة النخامية الواقعة تحت سيطرة منطقة تحت المهاد Hypothalamu في المخ بإنقاص إفراز هورمون النمو والهورمونات الجنسية، وأما التغيرات الإنزيمية والمناعية والترسبات داخل الخلايا فالأغلب أنها نتيجة وليست سبباً.

وتميل الدراسات الإحصائية إلى تأييد الجانب الوراثي كسبب رئيس، حيث وجد أن التوائم المتماثلة ذات البرنامج الوراثي الموحد تميل للتماثل كذلك في طول العمر، ويميل أبناء الوالدين طويلي العمر للعيش عمراً أطولاً من أبناء الوالدين ذوي العمر الأقصر، وكذلك يتميز كلُّ نوع من الكائنات الحية بحد مقرر ثابت لطول الأجل.

وينسجم هذا الوصف المطابق للواقع مع نظائر عديدة تتعلق بوصف مراحل العمر عامة، أو مرحلة الشيخوخة خاصة، وهنا نلاحظ قول ابن منظور: «النكس: قلب الشيء على رأسه»^(١)، والمقام يتعلق بوصف حالة الإنسان وكفاءته في أواخر العمر، بعد بلوغ غاية الكفاءة في مرحلة الشباب، ولذا التعبير بفعل (النكس) في الآية الكريمة يعني انقلاب الحال في الخلق.

قال أبو السعود: «فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود إلى حالةٍ شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والإدراك»^(٢).

(١) لسان العرب (٦ / ٢٤١).

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧ / ١٧٧).

ولفظ (الخلق) هنا تعبير عن البنية والجوارح أو الخلقة، قال ابن تيمية: «وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر فيسمى المخلوق خَلْقًا»^(١)؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾، وقال ابن كثير: «هو الضعف في الخلقة».. (لأن) «الخلق يستعمل بمعنى المخلوق».

وجه الإعجاز:

لقد كان التعبير القرآني الكريم في غاية الدقة عند وصفه لحالة الشيخوخة بأنها تنكيس في الخلق، ، وأنها ضعف وشيبة وأنها أرذل العمر فهي عبارة عن تدهور شامل في الظاهر وفي الباطن وفي الشكل والمضمون .

وقد أثبت العلم الحديث بالفعل أن الشيخوخة تصيب كافة الأعضاء بالجسم من خلايا الجلد الخارجية إلى الغدد وإفرازاتها، وهي تعرقل وظائف الجسم، وتمهد للإصابة بأمراضٍ عديدة، تلازم المتقدم في العمر.

وبذلك يكشف القرآن الكريم عن خفايا التكوين التي لم يعرفها الإنسان إلا بعد أن تقدم علم وظائف الأعضاء، وأصبح أكثر تخصصًا، وظهر علم جديد يسمى علم الشيخوخة.

والعجيب أن القرآن الكريم لخصَّ مجمل أعراض الشيخوخة في بيان موجز يدل على إعجاز القرآن الكريم في هذا الخصوص .



(١) دقائق التفسير (١ / ٣٢٥).



الموت المبرمج

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠].
وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْعَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

الدلالة النصية:

قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناً صرفاً، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار^(١).
في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ بيان بأن الموت مقدر منذ نشأة الفرد وفق أجل مبرمج يخص النوع الإنساني؛ إذا لم تعاجل المشيئة العليّة الأجل بحدث يُنهي حياة الفرد، وعليه يمكن حمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ على إيجاد أسباب الموت والحياة عند نشأة كل كائن حي، وتقديم (الموت) يستقيم مع كونه حتمي الوقوع، والحياة احتمال، وقدم الموت على الحياة لأنه إلى القهر أقرب^(٢).

وبالمثل في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤]؛ قال محمد الطاهر بن عاشور: «وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ هُوَ الْعِبْرَةُ بِالْإِمَاتَةِ لِأَنَّهَا أَوْضَحُ عِبْرَةٌ»^(٣).
وفي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

(١) تفسير القرطبي = أحكام القرآن (١٨ / ٢٠٦).

(٢) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩ / ٣٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٤٤).

استدلال بإماتة الأحياء على أنها مقدورة لله تعالى ضرورة أنهم موقنون بها ومشاهدونها ووادون دفعها أو تأخيرها، فإن الذي قدر على خلق الموت بعد الحياة قادر على الإحياء بعد الموت، إذ القدرة على حصول شيء تقتضي القدرة على ضده، فلا جرم أن القادر على خلق حي مما ليس فيه حياة، وعلى إماتته بعد الحياة قديرٌ على التصرف في حالتي إحيائه وإماتته، وما الإحياء بعد الإماتة إلا حالة من تينك الحقيقتين، فوضح دليل إمكان البعث، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

هذا أصل المفاد من قوله: نحن قدرنا بينكم الموت، ثم هو مع ذلك تنبيه على أن الموت جعله الله طورا من أطوار الإنسان لحكمة الانتقال به إلى الحياة الأبدية بعد إعداده لها بما تهيئه له أسباب الكمال المؤهلة لتلك الحياة، لتتم المناسبة بين ذلك العالم وبين عامريه. وقد مضى الكلام على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنين: ١١٥].

فهذا وجه التعبير بـ «قدرنا بينكم الموت» دون: نحن نميتكم، أي أن الموت مجعول على تقدير معلوم مراد، مع ما في مادة قدرنا من التذكير بالعلم والقدرة والإرادة، لتوجه أنظار العقول إلى ما في طي ذلك من دقائق وهي كثيرة، وخاصة في تقدير موت الإنسان الذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة إن أخذ لها أسبابها.

وفي كلمة «بينكم» معنى آخر، وهو أن الموت يأتي على أحادهم تداولا وتناوبا، فلا يفلت واحد منهم ولا يتعين لحلوله صنف ولا عمر فأذن ظرف «بين» بأن الموت كالشيء الموضوع للتوزيع لا يدري أحد متى يصيبه قسطه منه، فالناس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم، لا يدري أحد متى يُنادى عليه ليأخذ قسمة، أو متى يطير إليه قُطْه، ولكنه يوقن بأنه نائله لا محالة.

وبهذا كان في قوله: «بينكم الموت» استعارة مكنية إذ شبه الموت بمقسوم، ورَمَزَ إلى المشبه به بكلمة بينكم الشائع استعمالها في القسمة، قال تعالى:

﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ [القمر: ٢٨]. وفي هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للناس أما في الدنيا لئلا تضيق بهم الأرض والأرزاق وأما في الآخرة فللجزاء الوفاق^(١).

الحقيقة العلمية:

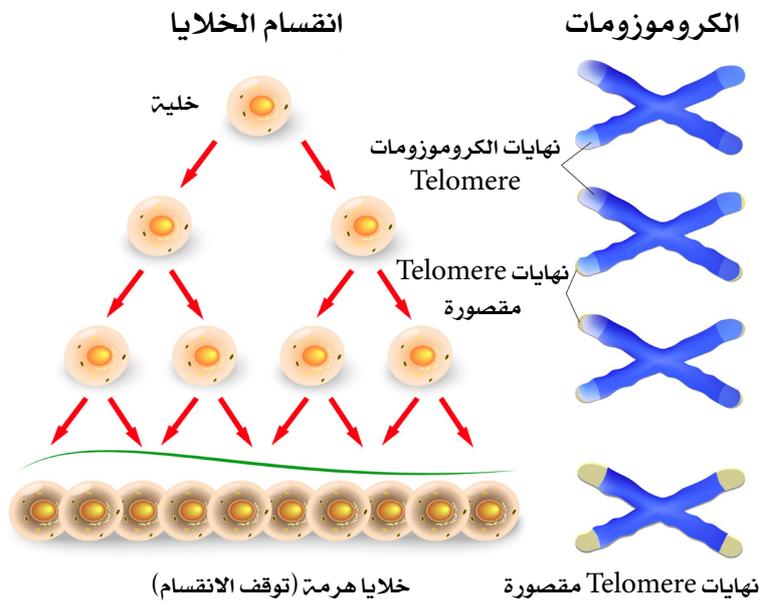
يمكن حالياً تقديم الأدلة على أن أسباب الموت على المستوى الخلوي قد خلقت مع أسباب الحياة، منذ نشأة أول خلية في كل كائن حي، فكما توجد تكوينات داخل الخلية تمدّها بأسباب الحياة، مثل: حبيبات اليخضور في النبات التي تصنع الغذاء والتكوينات التي تصنع البروتين في الحيوان؛ توجد تكوينات تختزن إنزيم ليزوزوم (lytotome) يحلل الخلية ويهضمها عند إصابتها.

وعلى مستوى النوع يمكن إثبات أن الشيخوخة حالة مقدرة Predetermined وفق برنامج موروث يعكس العلم والحكمة في الخلق، ومن تلك الأدلة اكتشاف حدّ لعدد انقسامات الخلية (حد هايفليك 'Hayflick' limit)، وتؤيد الأبحاث العلمية الحديثة أن الشيخوخة ليست إلا وجهًا من الموت المبرمج للجسم، وأما اكتشاف الموت المبرمج للعضيات الخلوية الدقيقة والموت المبرمج للميتوكوندريا داخل الخلية، فقد أضافا مزيدًا من الأدلة على أن الأحداث الحيوية مقدرة بحكمة، حيث تذوي العضيات الخلوية الدقيقة أو الميتوكوندريا عندما تصبح ضارّة أو غير ذات فائدة، ومثله اكتشاف ظاهرة الموت المبرمج للخلية.

فقد كان الاعتقاد السائد أن الخلايا الحية المستنبته معملياً قادرة على الانقسام بلا حدود، ولكن تبين مؤخرًا أن قدرتها على الانقسام محدودة، أي أنه بعد عدد محدود من الانقسامات تُشيخ المزرعة الخلوية وتموت، ومن هنا ظهر الافتراض بوجود آلية داخل الخلية معنيّة بالتحكم في العمر، عن طريق توقيف الانقسام وإفساح المجال لعمليات الهدم لتُميت الخلية.

(١) التحرير والتنوير (٢٧ / ٣١٤ - ٣١٥).

ومن ثمَّ عكف الباحثون على اكتشاف هذه الآلية المفترضة، ومنذ سنوات يسيرة اكتشف أن الجزء الأخير Telomere عند نهائي كل فتيلة وراثية (كروموزوم Chromosome) ينقص طوله مع كل انقسام، وتضعف منظومة صانع البروتين (الحمض النووي DNA) .



وتبيّن أنه يعمل كساعة أو عداد يحسب عدد الانقسامات، ويقوم كذلك عند الانقسام بحفظ المادة الوراثية من التبعثر والاندماج الخطأ، ويسمى الغطاء الطرفي End cap، أو عداد التضاعف Replico-meter، ويمكن أيضاً أن يسمى عداد الأجل Longevity-meter؛ لأن طوله إذا وصل إلى حد حرج يقف الانقسام وتموت الخلية، ولا ينقص طول الغطاء الطرفي في الخلايا الجينية الأم Sem cells، وخلايا السرطان Cancer؛ لأن الإنزيم الباني يعوض ما ينقص منه، وكلما تقدم العمر ينقص طوله في الخلايا الجسدية لغياب الإنزيم، وفي الشيخوخة يكون بالغ القصر.

وتتبدى الشيخوخة في وقت محدد نتيجةً لآليات خلوية معقدة، تعمل متزامنةً في تناسق عجيب، والخلية الحية محدودة الأجل خاصة في الأنسجة سريعة التجدد، وتقف وظائفها عند حد معين وتذبل وتموت .

وفي بداية الستينيات من القرن الماضي أطلق ويشمان Weishmann وكاريل Carrel على توقف تلك الوظائف تعبيراً شيخوخة الخلية Cell Senescence، ولم تدرك العلاقة بين شيخوخة الخلية وتناقص طول الغطاء الطرفي إلا مؤخراً، خاصة بعد اكتشاف جريدر Greider وبلاكبورن Blackburn الإنزيم الباني للغطاء الطرفي Telomerase عام ١٩٨٥ م .

وكان أول من ربط بين شيخوخة الخلية وفقد جزء من طول الغطاء الطرفي هوارد كوك Howard Cooke عام ١٩٨٦م، فقد وجد أن الخلايا المستنبته المأخوذة من صغار السن ذات أغشية طرفية أطول، وأن مرات انقسامها أكبر من الخلايا المأخوذة من كبار السن .

وفي عام ١٩٨٩م اكتشف مورين Morin أن نشاط الإنزيم الباني زائد في الخلايا السرطانية، وهو ما أيد فرضية أولوفنيكوف Olovnikov سابقاً عام ١٩٧١م، من وجوب وجود آلية تخرج انقسام الخلايا السرطانية عن السيطرة، وزيادة الإنزيم الباني في الخلايا السرطانية دون الخلايا الطبيعية تعوض ما يفقد من طول الغطاء الطرفي بالانقسام فلا يتناقص طوله وبالتالي تنقسم الخلايا السرطانية بلا توقف .

وزيادة الإنزيم في الخلايا السرطانية قد أيدتها الأبحاث المتوالية منذ عام ١٩٩٤م إلى اليوم، وهذا معناه إمكانية القضاء على مرض السرطان بوقف نشاط الإنزيم الباني، عن طريق عقار مضاد يوقف عمله أو عمل المورث (الجين) المولد له، وإمكانية تأخير الشيخوخة بتعاطيه كعقار أو التداوي بالمورث المولد له.

واللافت للنظر أن الأغذية الطرفية للفتائل الوراثية قد وجدت قصيرةً ابتداءً في حالة الإصابة بمرض الشيخوخة المبكر Progeria، بينما وجدت طويلةً ابتداءً في حالة الخلايا الجينية الأم Stem cell التي تتولد عنها لاحقاً كافة أنسجة الجسم.

وهذا يعطي الأمل للباحثين في استخدامها في عمليات استبدال الأنسجة التالفة، كما في حالات تلف خلايا البنكرياس في مرض البول السكري، وتلف خلايا المخ في مرض الزهايمر.

وأحدث الاكتشافات حتى الآن هو التعرف على زوج من الجينات البشرية، مُمَهَّمَتُهُمَا تثبيط إنتاج الإنزيم الباني والتمهيد للشيخوخة، ومحاولة لاستخدام الإنزيم مؤشراً Marker لاكتشاف السرطان مبكراً.

وفي عام ١٩٩٨م أعلن بودنار Bodnar عن نجاحه في تأجيل شيخوخة مزرعة خلوية بشرية بمدّها بالإنزيم الباني.

وفي عام ٢٠٠١ حاول شاي Shay فتح باب استخدام مشبّطات الإنزيم الباني للغطاء الطرفي لوقف النشاط السرطاني.

وجه الإعجاز:

إن هذه الأبحاث التي تؤكد بأن موت الخلايا مبرمج، وبالتالي فالموت للكائن الحي والمبرمج داخل خلاياه هو حتم ومقدر من قبل خالقه العظيم القائل: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾، وبذلك يكون هذا الكشف العلمي متطابقاً مع دلالة تلك الآيات القرآنية مما يدل على أن مصدرها الخالق جل وعلا، وأن مبلغها رسول من لدن حكيم عليم.

الحبة السوداء شفاء من كل داء

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بهذه الحبة السوداء، فإن فيها شفاءً من كل داء إلا السام»^(١) والسام: الموت. كما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن هذه الحبة السوداء شفاءً من كل داء إلا من السام». قلت وما السام؟ قال: «الموت»^(٢).

وفي رواية لمسلم: «ما من داء إلا في الحبة السوداء منه شفاء».



(١) الحديث صحيح، انظر السلسلة الصحيحة للألباني، حديث رقم (٨٦٣).

(٢) البخاري، حديث رقم (٥٦٨٧).

الدلالة النصية:

لقد تلقى المسلمون أحاديث الحبة السوداء بالقبول، واختلف العلماء في شرحها؛ فمن قائل بأن عموم الشفاء لكل الأمراض الذي يفهم من الأحاديث ليس مراداً، وإنما المراد أن فيها شفاء لبعض الأمراض؛ فهو من العام الذي يراد منه الخصوص، ومن قائل إن الأصل حمل العام على عمومه ما لم تكن هناك قرينة قوية صارفة.

الحقيقة العلمية:

لقد استعملت الحبة السوداء في كثير من دول المشرقين - الأوسط والأقصى - علاجاً طبيعياً منذ أكثر من ألفي عام، وتم استخلاص مركب النيجيللون من زيت الحبة السوداء عام ١٩٥٩م على يد الدخاخي وزملائه، وتحتوي بذور الحبة السوداء على ٤٠٪ من وزنها زيتاً ثابتاً، و٤، ١٪ زيوتاً طيارة، وتحتوي على خمسة عشر حمضاً أمينياً، وبروتين وكالسيوم وحديد وصوديوم وبوتاسيوم، وأهم مركباتها الفعالة هي: الثيموكينون، والدايثيموكينون، والثيموهيدروكينون، والثيمول.

❁ وقد نشرت عشرات الدراسات العلمية في المجالات العالمية الموثقة خلال الأعوام الخمسة الماضية عن فوائد الحبة السوداء، ورغم أن معظمها أجري على الحيوانات إلا أن هذا الكَم من الدراسات المنشورة من الشرق والغرب والتنوع العجيب أمرٌ مثير للاهتمام. فهناك دراسات تشير إلى فائدة الحبة السوداء في علاج الربو القصبي والتهاب القصبات.

❁ ودراسات أخرى أظهرت أن خلاصة الحبة السوداء استطاعت تثبيط نمو خلايا بعض أنواع السرطان كسرطان الثدي وسرطان البروستات، وفي الوقاية من سرطان الكبد وسرطان القولون وفي الوقاية من الاعتلال الكلوي.

❁ كما ثبت أن للحبة السوداء تأثيرًا على مرضى السكري، حيث أدت إلى خفض معدل سكر الدم، كما كان لها أثر على الأمراض التحسسية، مثل: التهاب الأنف التحسسي، الربو القصبي، الأكزيما التحسسية.

❁ كما ثبت أن للحبة السوداء أثرًا وقائيًا على القلب والشرايين، ووجد في مركباتها مضادات للأكسدة، وأظهرت البحوث أن لزيت الحبة السوداء تأثيرًا خافضًا للكوليستيرول، والكولسترول الضار، والدهون الثلاثية.

❁ وساعدت الحبة السوداء في علاج ارتفاع ضغط الدم، كما أظهرت الدراسات استجابةً بعض أنواع الجراثيم لخلاصة الحبة السوداء.

❁ لكن الأهم من كل ذلك كان أثر الحبة السوداء على جهاز المناعة وقضائها على الميكروبات، لكن لم يتضح دور الحبة السوداء على جهاز المناعة حتى عام ١٩٨٦م، إلا بالأبحاث التي أجراها الدكتور أحمد القاضي وزملاؤه في الولايات المتحدة الأمريكية. ثم توالى بعد ذلك الأبحاث في شتى الأقطار، وفي مجالات عديدة حول هذا النبات.

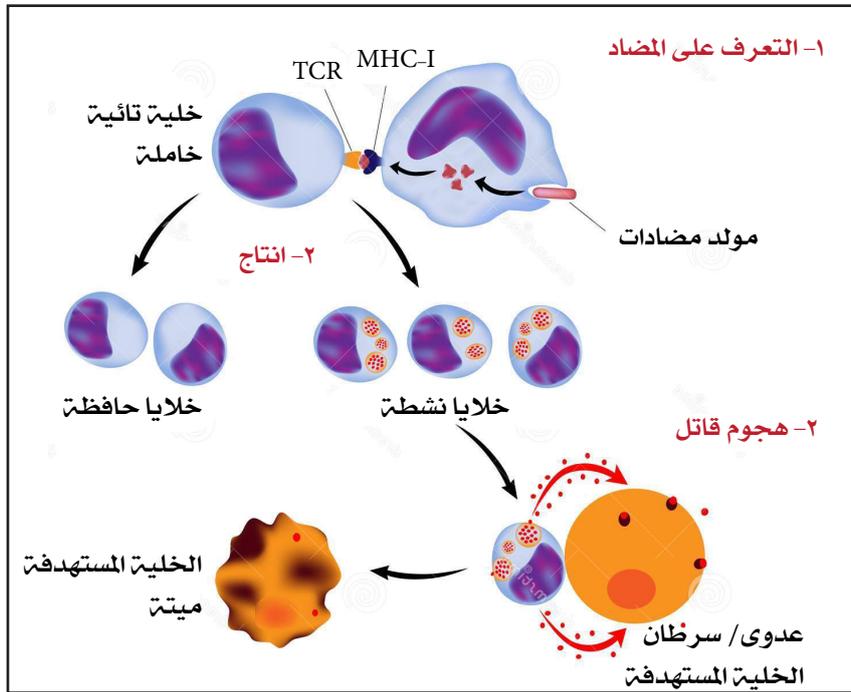
❁ وقد أثبتت الأبحاث أن للحبة السوداء أثرًا مقويًا لوظائف المناعة النوعية: حيث ازدادت نسبة الخلايا اللمفاوية التائية المساعدة إلى الخلايا التائية الكابحة إلى ٧٢٪ في المتوسط. وحدث تحسن في نشاط خلايا القاتل الطبيعي بنسبة ٧٤٪ في المتوسط.

وقد ثبت أن جهاز المناعة هو النظام الوحيد والفريد الذي يمتلك السلاح المتخصص للقضاء على كل داء، بما يحويه من نظام المناعة النوعية التي تمتلك إنشاء الأجسام المضادة المتخصصة لكل كائن مسبب للمرض، وتكوين سلاح الخلايا القاتلة المتخصصة.

إذ تقوم الخلايا البلعمية بعد التهام الجراثيم الغازية، وهضمها بعرض قطع البكتريا المتحللة على سطحها، ثم تلتصق بالخلايا اللمفاوية التائية المساعدة؛ لتعريفها على التركيب الدقيق للميكروب.

وتعتبر هذه الخلايا هي القائد العام لجهاز المناعة، حيث تقوم بتنشيط نوع آخر من الخلايا اللمفاوية تسمى الخلايا البائية. لإنتاج الأجسام المضادة، أو تكوين خلايا أخرى تسمى الخلايا التائية المتخصصة والخاصة بمركبات هذا الميكروب الذي حفز إنتاجها.

وتتحد الأجسام المضادة والخلايا التائية المتخصصة اتحاداً تاماً مع سطح الميكروب فتبطل عمله أو تدمره، وبالتالي فهذه المناعة هي مناعة متخصصة لكل كائن غريب يوجد داخل الجسم فلكل داءٍ دواؤه الدقيق.



طريقة عمل وتنشيط الخلايا التائية

بناء على ، ذلك يمكننا القول: بأن جهازَ المناعة هو الجهازُ الوحيد الذي يملك تقديم شفاء من كل داء - على وجه الحقيقة - بما يحويه من نظام المناعة النوعية أو المكتسبة التي تمتلك إنشاء الأجسام المضادة المتخصصة لكل كائن مسبب للمرض ، وتكوين سلاح الخلايا القاتلة والمحللة.

وبما أنه قد ثبت من خلال الأبحاث التطبيقية: أن الحبة السوداء تُنشِط المناعة النوعية؛ فقد رفعت نسبة الخلايا المساعدة والخلايا الكابحة وخلايا القاتل الطبيعي - وكلها خلايا ليمفاوية في غاية التخصص والدقة - لما يُقَرَّبُ من ٧٥٪ في بحث للدكتور أحمد القاضي.

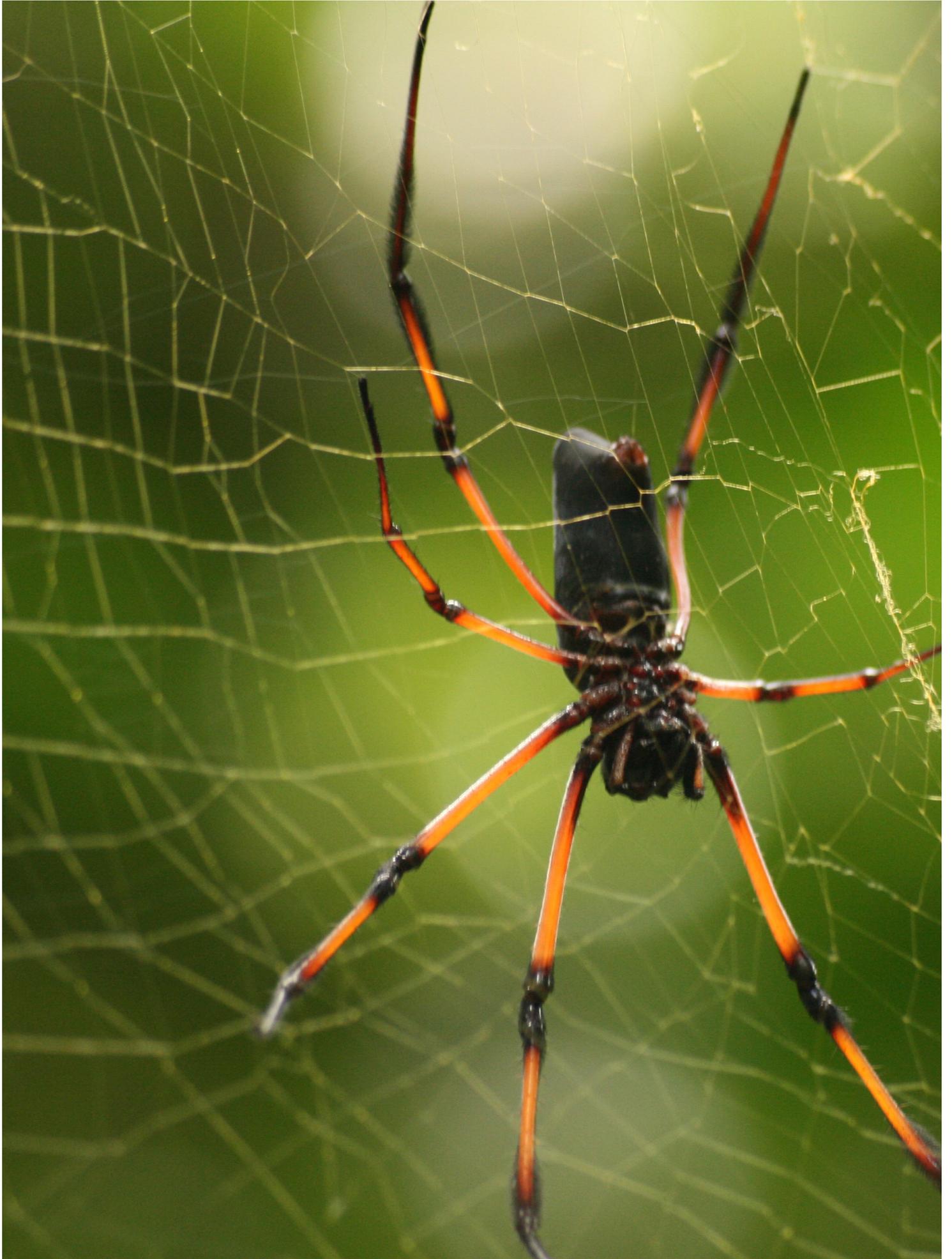
وأكدت الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية هذه الحقيقة؛ حيث تحسنت الخلايا الليمفاوية المساعدة وخلايا البلعمة ، وازداد مركب الإنترفيرون ، والإنترلوكين ٢ و١ وتحسنت المناعة الخلوية ، وانعكس ذلك التحسن في جهاز المناعة على التأثير المدمر لمستخلص الحبة السوداء على الخلايا السرطانية وبعض الفيروسات ، وتحسن آثار الإصابة بديدان البلهارسيا.

وعليه يمكن أن نقرر أن في الحبة السوداء شفاء من كل داء؛ لأنها تُصلِح وتقوي جهازَ المناعة، وهو الجهاز الذي فيه شفاء من كل داء، ويتعامل مع كل مسببات الأمراض ، ويملك تقديم الشفاء الكامل أو بعضه لكل الأمراض.

وجه الإعجاز:

عندما أخبر النبي ﷺ: «أن في الحبة السوداء شفاءً من كل داء»، لم يكن أحد يعرف ما فيها من خصائص طبية عجيبة ، لم تثبت علمياً إلا في السنوات الأخيرة ، مما يدل على أن كلامه ﷺ يتضمن في هذا المجال معجزاً علمياً.

وأن رسول الله ﷺ ما ينطق عن هوى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].



العنكبوت

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

الدلالة النصية:

هذه الآية اشتملت على مَثَلٍ ضربه الله لمن ضلَّ سعيه؛ فاتخذ من دون الله ولياً من الخبر ضمناً - والعياذ بالله - بقصد نفي يناله منه أو خبر يدفعه عنه فخاب وخسئ في ذلك كله؛ لأنه أوى إلى ضعفٍ ووهمٍ وضياع، وكان في ذلك الحشرات، وتلك الخيبة، كمثال العنكب التي تجهد في صنع بيوتها، ولكن تلك البيوت لا تُغني عنها شيئاً؛ فلا تدفع عنها الشدائد والأخطار لو هنها وضعفها المتناهي الذي لا يدفع عنها.

قال الشوكاني: «فإن بيتها لا يغني عنها شيئاً لا في حر ولا قَرٌّ ولا مطر، كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع، ولا يغني عنهم شيئاً»^(١).

الحقيقة العلمية:

كشف العلم الحديث أن خيوط العنكبوت تُعدُّ أقوى مادةً بيولوجية عرفها الإنسان حتى الآن، وتعتبر الخصلات الحريرية التي تُكوّن نسيج العنكبوت أقوى من الفولاذ، ولا يفوقها قوةً سوى الكوارتز المصهور، ويتمدد الخيط الرفيع منه إلى خمسة أضعاف طوله قبل أن ينقطع.

(١) فتح القدير (٤/٢٠٤).

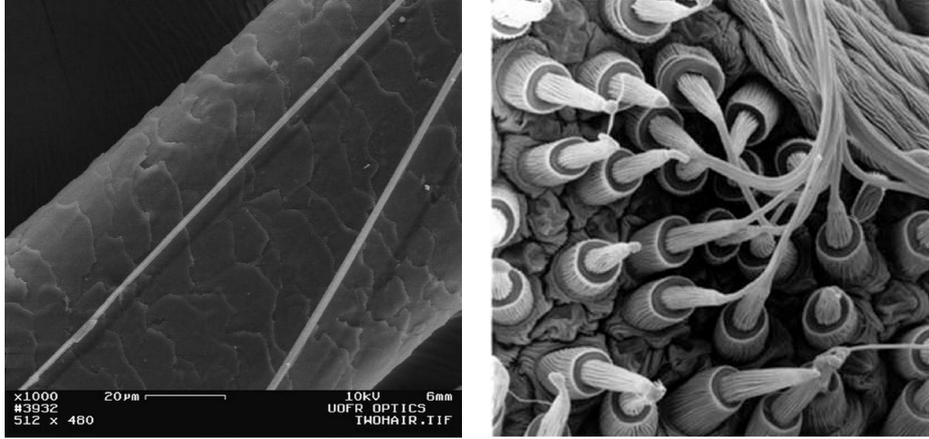
ولذلك أطلق العلماء عليه اسم «الفولاذ الحيوي» أو «الفولاذ البيولوجي»، وهو أقوى من الفولاذ المعدني العادي بعشرين مرة، وتبلغ قوة احتماله ٣٠٠ ألف رطلٍ للبوصة المربعة، فلو وُجدَ حبلٌ سميكٌ بحجم إصبع الإبهام مكون من خيوط العنكبوت فسيُمكنه حمل طائرة جامبو بكل سهولة.

وقد أنتجت مادة تشبه في تركيبها خيط العنكبوت تسمى بالكافلر، ويستعملوها في صنع القمصان الواقية من الرصاص، فخيط العنكبوت يصنع بالطريقة نفسها التي تصنع بها الكوابل شديدة الصلابة؛ حيث يتكون الخيط المفرد من عدة خيوط متناهية في الصغر ملتف بعضها على البعض، وقد يبلغ سمك الخيط الواحد منها ١ من مليون من البوصة.

وتقوم العنكبوت بجمع الخيوط الناتجة من المغازل الثلاثة معًا؛ لتكوين خصلة قوية ومتينة، وتغزل العناكب التي تعيش خارج المنزل نسيجًا معروفًا باسم الفلّك؛ نسبة إلى شكله الدائري، وهو قطعة هندسية رائعة من الخطوط المتناسقة التي تتألف بشكلٍ بهيّي تحت أشعة الضوء.

ولقد توصل العلم الحديث إلى وصف أكثر من ٣٥ ألف نوع من العناكب المختلفة الأحجام والأشكال والألوان والطبائع، ومن دراسة حياة العناكب لاحظ المختصون أن بيت العنكبوت له شكلٌ هندسي مميز، ويقام في مكان مختار بعناية، بحيث يتوفر عملُ أركانٍ له وزوايا، مثل: البيت الذي بينه الإنسان، وقد لوحظ أن كل خيط من الخيوط الأساسية في البيت مكونٌ من أربعة خيوط أدقّ منه، ويخرج كل خيط من الخيوط الأربعة من قناة خاصة في جسم العنكبوت.

وخيوط العنكبوت حريرية رفيعة جدًا؛ حتى أن سمك شعرة واحدة من رأس الإنسان يزيد عن سمك خيط نسيج العنكبوت بحوالي ٤٠٠ مرة.



صورتان بالمجهر الالكتروني: اليمين: الغدد الفارزة للخيوط لدى العنكبوت، اليسار: مقارنة سمك خيوط العنكبوت بالنسبة لشعرة.

ولا يقتصر بيت العنكبوت على كونه مأوى للسكن والمعيشة، بل هو في الوقت نفسه شركاً صيد تقع في حبالها الحشرات المارة، مثل: الذباب والبعوض؛ فتكون فريسة يتغذى عليها العنكبوت.

ونسيج بيت العنكبوت يزيد من كمية الأشعة فوق البنفسجية المنعكسة جرّاء تعرّض النسيج لأشعة الشمس؛ فيصبح مرئياً بوضوح مما يجعله فريسة سهلة لأعدائه من الطيور وغيرها^(١).

وقد تبين وجه آخر من وجوه الوهن في بيت العنكبوت: حيث لا يستمر البيت طويلاً حتى يذهب إلى بطن العنكبوت، وقد ثبت علمياً أن العنكبوت تآكل بيتها بشكل شبه يومي.

يوضح لوين هذا الموضوع بقوله: "تميل العناكب ذات النسيج الدائري إلى أكل نسيجها القديم قبل بناء نسيج جديد. وتقوم بتدوير ٩٢ إلى ٩٦ بالمائة من بروتينات النسيج"، ثم يبين الفوارق بين بعض أنواع غازلات النسيج من العناكب

(١) انظر: العنكبوت وخيوطها في القرآن الكريم، الدكتور عبد الله الشاوي ف ص (١٨٢)

إلى أن يصل إلى أحد هذه الأنواع التي يقول عنها: " يظهر أنها تأكل النسيج بكامله قبل أن تبني نسيجاً جديداً".

وذكر بأن المواد التي تشكل النسيج القديم يتم أكلها من قِبَلِ بعض أنواع العناكب ذات النسيج الدائري، والعديد من المراجع العلمية تورد هذا الأمر على أنه أمر مُسَلَّمٌ به.

وهو مما يؤكد وهن بيت العنكبوت^(١).

وجه الإعجاز:

لقد أكدت الحقيقة العلمية وهن بيت العنكبوت فهو في واقع الأمر لا يكنّ من مطر ولا يقى من برد ولا حرّ ولا يحمي من عدو، كما أنه في نهاية الأمر آيلٌ للهدم والأكل من قِبَلِ العنكبوت نفسه.

فهو بذلك يستحق وصفَ أوهن البيوت.

وقد كان للنص القرآني الكريم السبق في إطلاق هذا الوصف قبل أن يثبت علمياً مما يدل على إعجاز النص القرآني.



(١) انظر: العنكبوت وخبوطها في القرآن الكريم، الدكتور عبد الله الشاوي ف ص (١٨٤)

السواك

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة» رواه الشيخان^(١)، - وفي رواية - «عند كل وضوء»^(٢)، وروى النسائي عن عائشة بلفظ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»^(٣) ورواه ابن ماجة عن أبي أمامة رضي الله عنه.



الدلالة النصية:

السواك: يطلق على الفعل وعلى العود الذي يَسْوَكُ به.

- (١) صحيح البخاري، حديث رقم (٨٨٧)، ومسلم، حديث رقم (٢٥٢).
- (٢) مسند أحمد، حديث رقم (٩٩٢٨) قال مخرجه: (إسناده صحيح على شرط الشيخين)، وانظر تخريجه فيه مفصلاً.
- (٣) سنن النسائي، حديث رقم (٥)، قال الألباني: (صحيح)، والبيهقي (٣٤/١) من طرق عن عائشة.

وهو في اصطلاح العلماء استعمال عود أو نحوه في الأسنان لتذهب الصفرة وغيرها عنها، والله أعلم.

والسواك سنة، ليس بواجبٍ في حال من الأحوال، لا في الصلاة، ولا في غيرها^(١).

وأصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه، ولا ينبغي أن يؤخذ من شجرة مجهولة، فربما كانت سُمًّا، وينبغي القصدُ في استعماله، فإن بالغ فيه، فربما أذهب طلاوة الأسنان وصقالتها، وهياها لقبول الأبخرة المتصاعدة من المعدة والأوساخ، ومتى استعمل باعتدال، جلا الأسنان، وقوى العمود، وأطلق اللسان، ومنع الحفر، وطيب النكهة، ونقى الدماغ، وشهى الطعام.



شجرة الأراك

وأجود ما استعمل مبلولا بماء الورد، ومن أنفعه أصولُ الجوز. قال صاحب «التيسير»: زعموا أنه إذا استاك به المستاك كلَّ خامس من الأيام، نقى الرأس، وصفى الحواس، وأحدَّ الدهن.

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (٣/ ١٤٢).

وفي السواك عدة منافع: يطيب الفم، ويشد اللثة، ويقطع البلغم، ويجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويصح المعدة، ويصفي الصوت، ويُعين على هضم الطعام، ويُسهّل مجاري الكلام، وينشّط للقراءة، والذكر والصلاة، ويترد النوم، ويُرضي الرب، ويُعجب الملائكة، ويكثر الحسنات.

ويستحب كلّ وقت، ويتأكد عند الصلاة والوضوء، والانتباه من النوم، وتغيير رائحة الفم، ويستحب للمفطر والصائم في كل وقت لعموم الأحاديث فيه، ولحاجة الصائم إليه، ولأنه مرضاة للرب، ومرضاته مطلوبة في الصوم أشدّ من طلبها في الفطر، ولأنه مطهرة للفم، والظهور للصائم من أفضل أعماله^(١).

الحقيقة العلمية:

الفم بحكم موقعه كمدخل للطعام والشراب وبتصاله بالعالم الخارجي يصبح مأوى لكثير من الجراثيم؛ والتي تسمى «الزمرة الجرثومية الفموية»، وهي تضم أنواعاً عديدة تصنف تبعاً لأشكالها مثل المكورات والعصيات والملتويات، وهذه الجراثيم تكون عند الشخص السليم متعايشة معه، ولكنها تنقلب مُمرضة مؤذية إذا بقيت لفترة طويلة تتكاثر في الفم، فهي تتغذى على فضلات الطعام، وتعمل على تفسخها وتخمرها فتنشأ عنها روائح كريهة.

وهذه المواد تؤذي الأسنان وتحدث فيها النخر، ومع تراكم الأملاح حول الأسنان يحدث فيها القلح، وقد تؤدي إلى التهاب اللثة وتقيحها، كما يمكن لهذه الجراثيم مع ضعف مقاومة الجسم، مثل حالات ضعف جهاز المناعة أن تنتقل بعيداً في أرجاء البدن، محدثة التهابات مختلفة، كالتهاب المعدة أو الجيوب الأنفية أو الشعب الهوائية، وهنا يأتي دور السواك في تطهير الفم.

(١) الطب النبوي لابن القيم (ص: ٢٤٣).

وقد أوردت مجلة المجلة الألمانية الشرقية في عددها الرابع سنة ١٩٦١ مقالاً للدكتور رودات، مدير معهد الجراثيم في جامعة روستوك، يقول فيه: "قرأت عن السّواك الذي يستعمله العرب كفرشاة للأسنان في كتاب لرحالة زار بلادهم...، وفكرت لماذا لا يكون وراء هذه القطعة الخشبية حقيقة علمية؟".

وجاءت الفرصة سانحةً عندما أحضر زميلٌ لي من العاملين في حقل الجراثيم في السودان عددًا من تلك الأعواد الخشبية؛ و فوراً بدأتُ أبحاثي عليها، فسحقتها وبللتها ووضعتُ المسحوق المبّل على مزارع الجراثيم، فظهرت على المزارع آثار كتلك التي يقوم بها البنسلين (كمطهر للجراثيم)".

وتؤكد الأبحاث المخبرية الحديثة: أن المسواك المخضر من عود الأراك يحتوي على العفص بنسبة كبيرة، وهو مادة قابضة مطهرة مضادة للعفونة، وهي تعمل على قطع نزيف اللثة وتقويتها، كما تؤكد وجود مادة خردلية هي السنجرين Sinnigrin ذات رائحة حادة وطعم حراق تساعد على الفتك بالجراثيم، وتقوم ألياف السواك بالإضافة لبعض المواد الكيماوية إلى تنظيف الأسنان وإزالة القلح عنها، وقد أكدت بعض الدراسات وجود موادّ تزيد بياض الأسنان وتعمل على حمايتها من التسوس.

وجه الإعجاز:

لقد أثبتت الأبحاث العلمية المستفيضة في السنوات الأخيرة: أن الأراك يحتوي على مواد كثيرة معقمة وواقية من مختلف أنواع الجراثيم، وغيرها من مسببات الالتهاب والتسوس، وهذا يتطابق مع وصفه ﷺ للسواك بكونه «مَطَهْرَةٌ للفم»، في حين كان البشرُ على جهالةٍ بهذه الحقيقة العلمية عندما أخبر بذلك رسول الله ﷺ؛ مما يدل على أنه قوله في هذا الصدد يتضمن إعجازاً علمياً.

الماء أساس الحياة

قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^١ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].



الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: خلقنا من الماء كلَّ حيوان، كقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] وذلك، لأنه من أعظم موادّه، أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به، أو صيرنا كلَّ شيء حي من الماء، أي: بسبب منه لا بد له من ذلك^(١).

(١) انظر: تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦ / ٦٥).

الحقيقة العلمية :

الماء مركَّبٌ كيميائيٌّ مكوَّنٌ من ذرّتي هيدروجين وذرةٍ من الأكسجين. ينتشر الماء على الأرض بحالاته المختلفة، السائلة والصلبة الغازية. وفي الحالة السائلة يكون شفافاً بلا لون، وبلا طعم، أو رائحة. كما أن ٧٠٪ من سطح الأرض مغطى بالماء، ويعتبر العلماء الماء أساس الحياة على أي كوكب. ويسمى الماء علمياً بأكسيد الهيدروجين:

❁ الحالة الصلبة : يكون فيها الماء على شكل جليد أو ثلج أبيض اللون ناصع، يوجد على هذه الحالة عندما تكون درجة حرارة الماء أقل من الصفر المئوي.

❁ الحالة السائلة: يكون فيها الماء سائلاً بلا لون، وهي الحالة الأكثر شيوعاً للماء. ويوجد الماء على صورته السائلة في درجات الحرارة ما بين الصفر المئوي، ودرجة الغليان، وهي ١٠٠ درجة مئوية في الشروط القياسية.

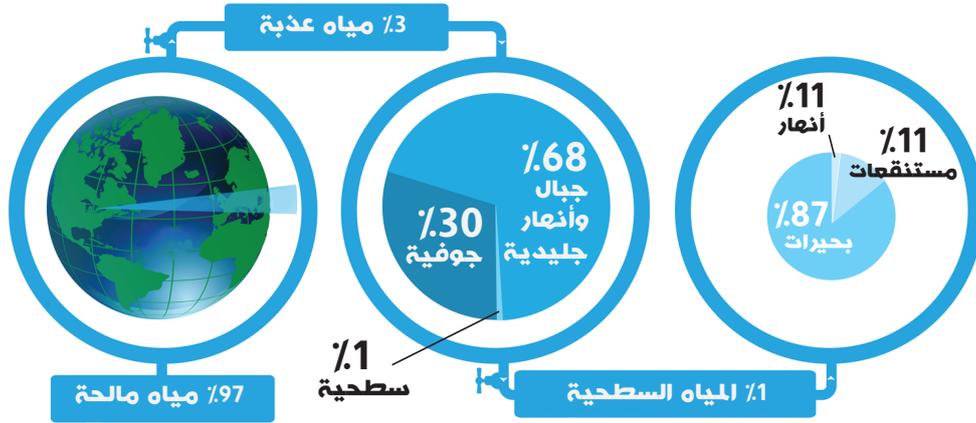
❁ الحالة الغازية: يكون فيها الماء على شكل بخار، ويكون الماء بالحالة الغازية بدرجات حرارة مختلفة.

وتقدّر كمية الماء على الأرض بستة عشر بليون كيلومتر مكعب، ويوجد القسم الأكبر من هذه الكمية، والذي يقدر بثلاثة عشر بليون كيلومتر مكعب تحت القشرة الأرضية، وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

أما الكمية المتبقية والتي تقدر بثلاثة بلايين كيلومتر مكعب، فإن نصفها يدخل في تركيب الصخور والمعادن الموجودة في القشرة الأرضية، بينما يوجد النصف الآخر في المحيطات والبحار والأنهار، وفي المناطق الجليدية على شكل جليد.

الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة

ويعتقد العلماء: أن الماء الموجود على سطح الأرض قد خرج من باطنها، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠-٣١].



توزيع مياه الكرة الأرضية

ولقد كان هذا الماء عند أول نشأة الأرض على شكل بخار يملأ جو الأرض بسبب ارتفاع درجة حرارة سطح الأرض.

ويرى علماء الجيولوجيا: أن المحيطات الحالية كانت محيطًا واحدًا، ثم انقسم إلى سبعة أبحرٍ كبيرة مع انقسام القارة الأم إلى سبع قارات، وتقدر كمية الماء التي تسقط على اليابسة بهيئة أمطار بتسعين ألف كيلومتر مكعب، تعود في النهاية إلى المحيطات والبحار؛ حيث يعود ثلاثون ألف كيلومتر مكعب منها بواسطة الأنهار، بينما تعود الستون ألف المتبقية من خلال عملية التبخر.

وللماء خصائص فريدة تختلف عن خواص مواد مشابهة في التركيب؛ مما حدا بعالم الكيمياء الروسي إيغور بتريانوف بأن يصفه بأنه أغرب مادة في الكون في كتابه: «الماء تلك المادة العجيبة».

فهو السائل الوحيد الذي يصلح لأن يكون وسطاً لحدوث التفاعلات الكيميائية بين الأيونات الموجبة والسالبة، ويعمل كمذيب في أجسام الكائنات الحية، وله القدرة على الانتشار والالتصاق مما يسهل عمله، ويتميز عن سواه كسائل بفارق كبير بين درجة تجمّده ودرجة غليانه.

واللافت للنظر أن التفاوت في درجة حرارة معظم مناطق سطح الأرض يقع ضمن المدى الذي يكفل بقاء الماء بهيئة سائل.

والماء في حالته الصلبة أخفّ منه في حالته السائلة، على عكس جميع السوائل الأخرى، وبغير هذه الخاصية يتحول سَمَكُ كُلِّ المحيطات في المناطق القطبية إلى جليد، وتموت الأحياء البحرية.

فإذا تجمّد سطح المحيط يشكل طبقة عازلة تُحوّل دون تجمد ما دونها، ومياه المحيطات التي تغطي سبعين بالمائة من مساحة سطح الأرض تقوم بامتصاص كميات كبيرة من الطاقة الشمسية خلال النهار، وتبثها كحرارة في الليل، فتحافظ على منع التغيرات الكبيرة في درجة الحرارة، بما يناسب أحياء البر والبحر، وهو شبه شفاف يسمح بمرور الضوء إلى مدى يصل إلى ألف متر في عمق المحيطات، فيسمح بتكاثر الطحالب أساس سلسلة الغذاء في البحر.

ويتميز بسهولة تبخره، فيساعد على تكوّن السحب، لتنقله إلى مناطق عطشى؛ ما كان لها أن ترتوي بغير تقدير المبدع القدير.

وجه الإعجاز:

لم يكن البشر يعرفون شيئاً عن خصائص الماء الفيزيائية والكيميائية وأثره الكبير في حياة الكائنات، ولما يسر الله بفضله للبشر في عصرنا إدارك بعض الحقائق عن الماء، ظهرت لهم روعة النص القرآني الكريم، ودقته وإيجازه في وصفه الماء: بأنه مادة كل شيء حي في الحياة، فكان في ذلك مظهر من مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

الإسراف في الطعام

قال تعالى: ﴿يَبْتِغِي عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿الأعراف: ٣١-٣٢﴾.

وفي الحديث الشريف: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يُقَمِّنَ صُلْبَهُ، فإن كان لا بدَّ فاعلاً، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» رواه الإمام أحمد والترمذي^(١).



(١) سنن الترمذي، حديث رقم (٢٣٨٠)، قال الألباني: (صحيح)، ومسند أحمد، حديث رقم (١٧١٨٦)، قال مخرجه: (رجاله ثقات، غير يحيى بن جابر تكلموا في سماعه من المقدم...) وانظر تخريجه فيه مفصلاً.

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

الإسراف: هو تجاوز الحد المتعارف في الشيء أي: ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم؛ لأن ذلك يعود بأضرار على البدن، وتنشأ منه أمراضٌ معضلة.

وقد قيل إن هذه الآية جمعت أصول حفظ الصحة من جانب الغذاء، فالنهي عن السرف نهى إرشاد لا نهى تحريم، بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولأن مقدار الإسراف لا ينضبط، فلا يتعلق به التكليف، ولكن يُوكَلُ إلى تدبير الناس مصالحهم، وهذا راجع إلى معنى القسط الواقع في قوله سابقاً: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩] فإن ترك السرف من معنى العدل^(١).

قوله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يُقْمَنُ صلبه» وإنما كان ملء البطن شراً لما فيه من المفسد الظاهرة، دينية، وديوية، فالشبع يورث البلاء، ويعوق الذهن عن التفكير الصحيح، وهو أيضاً مدعاة الكسل، والنوم، فمن أكل كثيراً نام كثيراً، ومن نام كثيراً ضيع وقته، وقتله، وهو رأس ماله في الحياة العملية، فيخسر كثيراً من مصالحه الدينية، والديوية.

ومن وصايا لقمان لابنه: يا بُني! إذا امتلأت المعدة؛ نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة. هذا حال الشبع.

وأما حال الإقلال من الطعام والشراب: فالقلب يصفو، والقريحة تتقد، والبصيرة تنفذ، والشهوة مغلوبة، والنفس مقهورة على أمرها.

(١) انظر: التحرير والتنوير (٨ / ٩٥).

وقد أرشدنا صاحبُ الرسالة عليه أفضل الصلاة والتسليم إلى المقدار المناسب في الطعام، وهو ما يقيم الحياة، ويحفظ الصحة، ويُمكن الإنسان من القيام بواجبه الشخصي، والمشارك، وإن كان لا بد أكثرًا منه يجعلُ ثلثي المعدة للطعام والشراب، ويترك ثلثها الباقي خاليًا حتى يتمكن من النَّفس بسهولة.

وذلك أن البطن إذا امتلأت ضغطت على الحجاب الحاجز، فضغطت على الرئتين، فضاقت مجاري التنفس الذي هو ضروريٌّ لإصلاح الدم الفاسد، وتحويله إلى دم صالح تقوم به حياة الإنسان، وتحفظ صحته، ولذلك جاء الترغيب في الصوم، وأن الله يجزي به بنفسه؛ لأن أكبر مهذب للإنسان هو الصوم؛ لتقليل الطعام فيه، والله أعلم^(١).



الحقيقة العلمية :

لقد أثبتت الدراسات المتوالية في مجال الغذاء وأثره على صحة الإنسان: أن عواقب النهَم في الطعام والشراب وخيمةٌ بل مُهلكة؛ لأنها تؤثر بشكل خطير

(١) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، ومعه النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية، المناوي (ص: ١٥٦).

على جهاز الهضم: ابتداءً بالتخمة وعسر الهضم، وانتهاءً بتوسع المعدة وظهور التقرحات المعدية، وغير ذلك من الآفات.

ومن هنا فإن تناول الوجبة الكبيرة مقدّمةً للشعور بألم الذبحة الصدرية عند المصابين بأمراض الأوعية القلبية؛ بسبب نقص تروية القلب بالدماء، وتوجيهها نحو الأمعاء عقب الوجبات.

كما أن تناول الدهون بكثرة يعرض للإصابة بتصلب الشرايين، وكذلك فإن تناول اللحوم بكثرة يعرض ذوي الاستعداد الوراثي للإصابة بداء الملوك أو النقرس.

وهكذا فإن السمنة تحدُّ من نشاط الفرد وتقلل من إنتاجه، وهي مقدمة للإصابة بجملة أمراض؛ منها داء البول السكري وارتفاع ضغط الدم، والسمنة أو البدانة تؤدي إلى خلل في التمثيل الغذائي واضطراب الغدد الصماء؛ نتيجةً لتراكم الشحوم.

ولم يعد مجهولاً أن للبدانة عواقب وخيمةً على جسم الإنسان وصحته، حتى إن إحدى شركات التأمين الأمريكية تقرّر وفقاً للإحصائيات: أنه كلما طال حزام البطن كلما كان العمر قصيراً؛ نتيجة الإصابة بالأمراض.

ومنها مرض البول السكري حيث إنه يصيب الشخص البدين أكثر من العادي، ونتيجة للبدانة تحل الدهون محلّ بعض خلايا عضلة القلب؛ مما يؤثر بصورة مباشرة على وظيفته، وقد يتجه البعض لاستخدام العقاقير لإنقاص الوزن لكنها قد تسبب آثاراً جانبية مضرّة.

وجه الإعجاز:

لقد كان للنص القرآني والنص الحديثي السبق في التنبيه إلى خطورة الإسراف في الأكل، ولأجل ذلك ورد النهي عنه والتحذير منه.

وقد أكد البحث العلمي في مجال التغذية وعلاقتها بصحة الإنسان: أن الإسراف في تناول الطعام والشراب مفسدة، وأنه يتعين على الإنسان الابتعاد عنه حمايةً لصحته البدنية وسلامته الذهنية.

وهذا السبق الزماني للنصوص الشرعية دليل على إعجازها.





وسائل المواصلات

قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْثِقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةٌ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ٥-٩].

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةٌ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: لما كانت الأنعام أكثر أموالهم، مع أن منافعها أكثر، بدأ بها، ثم ثنى بما هو دونها، مرتباً له على الأشرف فالأشرف، فقال تعالى: ﴿وَالْحَيْلُ﴾ أي: الصاهلة ﴿وَالْبِغَالُ﴾ أي: المتولدة بينها وبين الحمر ﴿وَالْحَمِيرُ﴾ أي: الناهقة. ﴿وَزِينَةٌ﴾.

ولما دل على قدرته بما ذكر في سياق الامتنان، دل على أنها لا تتناهى في ذلك السياق، فنبه على أنه خلق لهم أموراً لو عدّها لهم لم يفهموا المراد على سبيل التجديد والاستمرار في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلا تعلمون له مُوجدًا غيره ولا مدبرًا سواه.

قوله: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: بيان الطريق العدل، وعلى الله بيان الطريق الجائر حتى لا يُشكَّ في شيء منهما، فإن الطريق المعنوية كالحسية، منها مستقيم: مَنْ سَلَكَ اهْتَدَى، ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾: مَنْ سَلَكَ ضَلَّ عن الوصول فهلك^(١).

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (١١٠/١١-١١١).

قال المراغي: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: مما يهدي إليه العلم وتستنبطه العقول، كالقُطْر البرية والبحرية والطائرات التي تحمل أمتعتكم، وتركبونها من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر، والمناطيد الهوائية التي تسير في الجو، والغواصات التي تجري تحت الماء؛ إلى نحو أولئك مما تعجبون منه، ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير في الركوب والزينة^(١).

وقال ابن عاشور: «الذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن الله سَيَلِّهُمُ الْبَشَرَ اختراع مراكب هي أجدى لهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه..، وأرتال السكك الحديدية والسيارات..، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصنفي..، فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة، لم يكن يعلمها مَنْ كانوا قَبْلَ عصر وجود كلِّ منها، وإلهامُ الله النَّاسَ لاختراعها هو ملحقٌ بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم، وبما تدرجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكلَّ من نعمته».

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ ذكر جَلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول، ولم يصرح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية كالتائرات والقطارات والسيارات.

ويؤيد ذلك إشارةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك، في الحديث الصحيح، روى الإمام مسلم بن الحجاج رحمه الله.. بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله

(١) تفسير المراغي (١٤ / ٥٧).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله لينزلن ابنُ مريمَ حكماً عادلاً فليكسرن الصليبَ وليقتلنَّ الخنزيرَ وليضعنَّ الجزيةَ ولتُتركنَّ القلاصَ فلا يسعى عليها».. الحديث.

ومحلُّ الشاهد من هذا الحديث الصحيح قوله: (ولتُتركنَّ القلاصُ فلا يسعى عليها)؛ فإنه قَسَمٌ من النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سَتُترَكُ الإبلُ فلا يسعى عليها، وهذا مُشَاهِدٌ الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة، وفي هذا الحديث معجزة عظمى تدل على صحة نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وإن كانت معجزاته صلوات الله عليه وسلامه أكثر من أن تحصر.

وقال الألوسي: «والعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد.. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ على ظاهره».

وقال الزركشي: «أما الموصوفات.. ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ فإنك تبدأ بالأفضل فتقول قام الأمير ونائبه وكاتبه.. فقدم الخيل لأنها أحمَدُ وأفضل من البغال وقدام البغال على الحمير لذلك أيضاً»^(١).

قال سيد قطب: «﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.. يعقب بها على خَلْقِ الأنعام للأكل والحمل والجمال، وخالق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة.. ليظلل المجال مفتوحاً في التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة، وخارج حدود الزمان الذي يُظِلُّهم.

فوراء الموجود في كل مكان وزمان صورٌ أخرى، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤٠٦/٣).

ولا يقولوا: إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها. وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها!.

إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها، ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يهَيئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة، ويتمخض عنه العلم، ويتمخض عنه المستقبل. استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة.

ولقد جَدَّتْ وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان. وستجد وسائل في أزمنة أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان. والقرآن يهَيئ لها القلوب والأذهان، بلا جمود ولا تحجّر ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ..

وفي معرض النقل والحمل والركوب والسَّير لبلوغ غايات محسوسة في عالم الأرض، يدخل السياق غاياتٍ معنويةً وسَّيراً معنويةً وطرقاً معنويةً. فثمة الطريق إلى الله. وهو طريق قاصد مستقيم لا يلتوي ولا يتجاوز الغاية. وثمة طرق أخرى لا تُوصل ولا تُهدي. فأما الطريق إلى الله فقد كتب على نفسه كشفها وبيانها بآياته في الكون وبرسله إلى الناس^(١).

وجه الإعجاز:

عندما كان القرآن يتنزل تحدث عما امتن به الله سبحانه وتعالى على عباده وسخره لهم من مراكب في البر والبحر، وذيلَه بقوله ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد مرت قرون طويلة حتى تحقق ما أخبر الله به؛ فظهرت وسائل النقل المتطورة من سيارات وبواخر وطائرات ومركبات فضائية، فدل ذلك على إعجاز النص القرآني، وأن المتكلم به هو خالق هذا الكون، وأن المبلِّغ عنه هو رسول الله ﷺ.

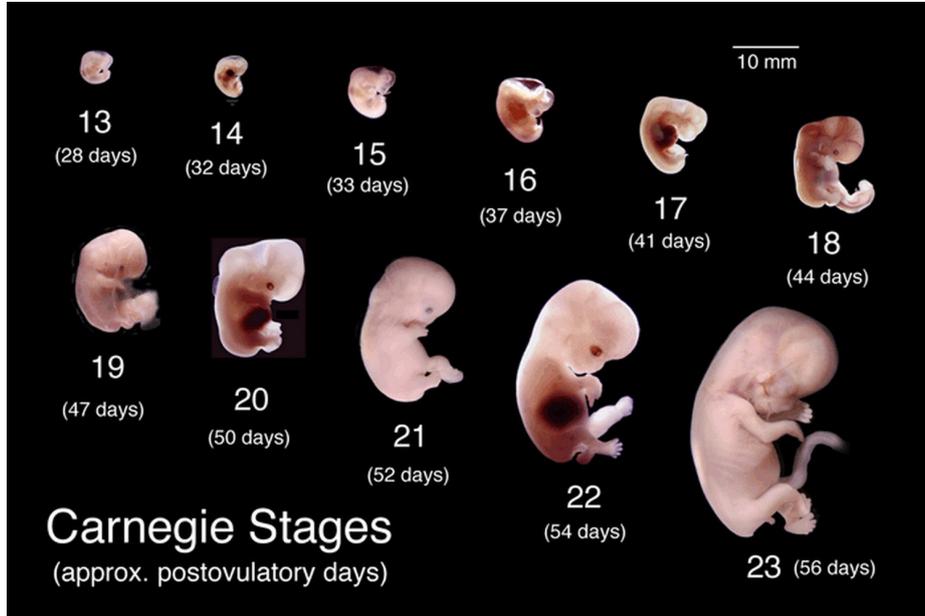
(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤ / ٢١٦١ - ٢١٦٢).

أطوار خلق الجنين في القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴿١٤﴾ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٥﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، فهذه الآية دلالة واضحة على أن الإنسان يخلق في أطوار.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].



أطوار خلق الجنين

الدلالة النصية:

الدلالة في آية سورة المؤمنون: أن خلق الإنسان في بطن أمه يمر بأطوار عدة، ومع تدبرنا الآية (١٤) من سورة نوح ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ تصبح تلك الدلالة مؤكدة خاصة بعد انضمام ما ذكره الله لنا في آية ثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

ومن هذه الأطوار التي وردت في سورة المؤمنون - صريحة: طُورُ النطفة، وطور العلقة، وطور المضغة، وطور خلق العظام، ثم طور خلق اللحم وهكذا النشأة المتميزة.

الحقيقة العلمية:

اتفقت المصادر العلمية على أن خلق الإنسان على مستوى الجينات مقدر مرسوم، وأنه على مستوى الخلايا والأنسجة متطور عبر أطوار متعددة، حددها بعضهم: بطور النطفة الأمشاج (المشيج) Fertilized ovum، ثم طور الحميل Fmbryo، ثم طور الجنين Fetus (وهذا هو تقسيم ليزلي أرى وجان لانجمان).

وقسمها هاميلتن وبويد وموسمان إلى مرحلة النطفة Fertilized ovum، ثم مرحلة العلقوq Implantation، ثم مرحلة الحميل ذي الكتل البدنية (المضغة)، ثم بعد ذلك مرحلة التخلق أو مرحلة تكوين الأعضاء Organo genesis، ثم تَدَلَّفُ بعد ذاك بنهاية الأسبوع الثامن إلى مرحلة الجنين Fetus حيث يكون الجنين قد شكَّل بشكله الإنساني وتكونت معظم الأعضاء والأجهزة بصورتها الشبيهة بما هي عليه عند المولود.

ولا يبقى في مرحلة الجنين Fetus وهي من نهاية الأسبوع الثامن إلى الولادة إلا نمو الأجهزة وتكاملها في شكلها النهائي. وهي في الواقع مرحلة نمو أكثر منها مرحلة خلق جديدة.

ولا شك أن التخليق يستمر حتى بعد الولادة، ولكنه تخليقٌ محدود جدًا، وكذلك التخليق في مرحلة الجنين Fetus محدودٌ جدًا.

وأهم ما يميز هذه المرحلة هو النمو والتكامل للأجهزة والأعضاء.. بينما كانت المرحلة السابقة، والتي تنتهي بنهاية الأسبوع الثامن، وتبدأ من نهاية الأسبوع الرابع هي مرحلة تكوين الأعضاء والأجهزة، وتكوين الهيكل العظمي والعضلات، وتصوير الوجه وشقّ السمع والبصر، وتكوين اللحم والجلد.

وجه الإعجاز:

بينما كان الناس في زمن النبوة وبعده بأكثر من عشرة قرون، يعتقدون أن الإنسان يُخلق كقزمٍ كامل من دم الحيض، أو داخل البويضة، أو في رأس الحيوان المنوي بعد اكتشافهما في القرن السابع عشر والثامن عشر، حيث ثبت بطلان تلك الأوهام على يد العالم سبالا نزالى عام ١٧٧٥م، الذي أثبت أن الإنسان يخلق من كلٍّ من الحيوان المنوي والبويضة.

وهو عينٌ ما أشار إليه النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أنس، قال: سمع عبد الله بن سلام، بقدوم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يَحْتَرِفُ، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أولُ أشراف الساعة؟، وما أولُ طعام أهل الجنة؟، وما ينزَعُ الولدُ إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل أنفا» قال: جبريل؟ قال: «نعم»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

«أما أولُ أشراف الساعة فنارٌ تحشرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب، وأما أولُ طعام يأكله أهلُ الجنة فزيادةُ كبد حوتٍ، وإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولدُ، وإذا سبق ماءُ المرأة نزع»، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله.

إن اليهود قوم بُهتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبد الله فيكم». قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: «أرايتم إن أسلم عبدُ الله بن سلام». فقالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخافُ يا رسول الله^(١).

ومن هنا يقول البروفيسور جولي سمسون: «أعتقد أنه لا يوجد خلاف بين المعرفة العلمية، وبين الوحي، بل إن الوحي ليدعم أساليب الكشف العلمية التقليدية المعروفة حينئذ، وجاء القرآن الكريم قبل عدة قرون مؤيِّداً لما تطرقنا إليه؛ مما يدل على أن القرآن الكريم هو كلامُ الله المعجزُ».



(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٤٨٠) (٦ / ١٩).

طور النطفة

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٣].



بويضته في طور النطفة

الدلالة النصية:

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ في هذا الضمير قولان:

أحدهما: أنه يعود للإنسان، فإن أريد غير آدم فواضح، ويكون خلقه من سلالة الطين خلق أصله، وهو آدم (فيكون على حذف مضاف، وإن كان المراد به آدم، فيكون الضمير عائداً على نسله، أي: جعلنا نسله)، فهو على حذف مضاف أيضاً، ويؤيده قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٧ - ٨].

أو عاد الضمير على الإنسان اللائق به ذلك، وهو نسل آدم، فلفظ الإنسان من حيث هو صالح للأصل والفرع، ويعود كل شيء لما يليق به.

قوله: «في قرارٍ» يجوز أن يتعلق بالجعل، وأن يتعلق بمحذوفٍ على أنه صفة لـ «نطفة».

والقرار: المستقر، وهو موضع الاستقرار، والمراد بها الرحم، ووصفت بالمكانة، التي هي صفة المستقر فيها؛ لأحد معنيين: إمّا على المجاز كطريق سائر، وإنما السائر من فيه، وإمّا لمكانتها في نفسها؛ لأنها تمكنت بحيث هي وأحرزت.

ومعنى جعل الإنسان نطفةً: أنه خلق جوهراً الإنسان أولاً طيناً، ثم جعل جوهراً بعد ذلك نطفةً في أصلاب الآباء، فقفذه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة، فصار الرحم قراراً مكيئاً لهذه النطفة، تتخلق فيه إلى أن تصير إنساناً^(١).

وطور النطفة هو الطور الأول للحمل، ويتم في أرحام الأمهات، بعدما يلحق الحوين المنوي للرجل بويضة المرأة.

وذلك لأن كلمة نطفة تطلق في اللغة على الماء القليل ولو قطرة، وفي الحديث: «وقد اغتسل ينطف رأسه ماءً» رواه مسلم^(٢)، وقد أطلقها الشارع على المرحلة الأولى من تشكل الجنين، بعد التقاء مني الرجل ومني المرأة.

وقد وردت الإشارة إلى ماء المرأة في حديث أم سلمة أنها قالت: جاءت أم سليم امرأة أبي طلحة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا رأته الماء»^(٣).

(١) انظر: الباب في علوم الكتاب، عمر بن علي النعماني (١٤ / ١٧٨).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٦٠٥).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٨٢)، صحيح مسلم، حديث رقم (٣١٣).

قال الألويسي: والحق أن النطفة كما يعبر بها عن مني الرجل يعبر بها عن المنى مطلقاً^(١).

كما أطلقها الشارع أيضا على امتزاج نطفتي الرجل والمرأة، وسماها النطفة الأمشاج في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقد عرف المفسرون النطفة الأمشاج، بأنها النطفة المختلطة التي اختلط وامتزج فيها ماء الرجل بماء المرأة. قال ابن قتيبة: أمشاج: أخلاط، يقال: مشجته فهو مشيج. يريد: اختلاط ماء الرجل بماء المرأة^(٢).

الحقيقة العلمية:

في مرحلة النطفة ينثر الحوين المنوي الجينات الوراثية بنظام كامل، فتتشكل جزيئات الحمض النووي (DNA والبروتينات والصبغيات السينية والصبغات الصادية (المذكورة والمؤنثة) وبقية مفردات الخارطة الوراثية^(٣).

ويذكر الدكتور كارم السيد غنيم في كتابه «الاستنساخ والإنجاب بين تجريب العلماء وتشريع السماء»^(٤): أن هذه المرحلة يرافقها الظواهر الأربعة التالية:

١ - إفراز البويضة مواداً تمنع دخول أي حيوان منوي آخر.

٢ - انطلاق طاقة جهدية كامنة في البويضة.

٣ - تدفق أيونات الكالسيوم.

٤ - انقسام البويضة عدة مرات.

(١) روح المعاني - نسخة محققة (٩ / ١١٢).

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٢٩).

(٣) انظر: أسرار كينونة الجنين، ماجد طيفور (ص: ٥٤).

(٤) (ص: ٢٠٤).

في هذه المرحلة تتميز البويضة الملقحة بتطوراتها العديدة، والتي لا تزال تأخذ شكل قطرة الماء، ولها خاصية الحركة الانسيابية كقطرات الماء تمامًا، وينتهي هذا الطور بتعلق الكيسة الأريمية ببطانة الرحم في نهاية الأسبوع الأول من التلقيح، وهي الصورة الأخيرة للنطفة الأمشاج، والتي مازالت تحافظ على شكل قطرة الماء، بالرغم من تضاعف خلاياها أضعافًا مضاعفةً، وحينما يفقد هذا الطور حركته الانسيابية، ويتعلق ببطانة الرحم، يتحول إلى طور جديد هو طور العلقه.

وجه الإعجاز:

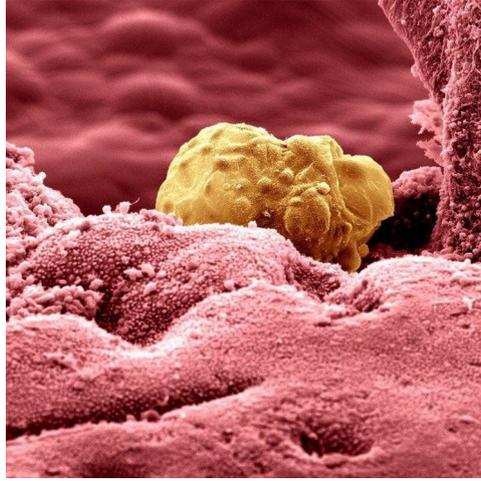
إن إخبار الآية الكريمة بأن الإنسان يتخلّق من النطفة جاء في زمن لم يكن يخطر على بال أي إنسان بأن الإنسان يتشكل من مائي الرجل والمرأة، وأن النتيجة من ذلك اللقاء تشكل إنسان بكل صفاته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾.

وجاء العلم الحديث، ومن خلال اكتشاف الخارطة الوراثية، والتي تتشكل في مرحلة النطفة ليطبّق ما ورد في نصّ الآية الكريمة، التي نزلت على محمد ﷺ النبيّ الأمي، فكان في ذلك إعجاز علمي مبهر، وصدق الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].



طور العلقة

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].
وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢].



العلقَة تتعلق بجدار الرحم

الدلالة النصية:

قال العلماء سُمِّيَتْ علقَة لأنها تعلق بجدار الرحم، والعلماء يسمونها (الزيجوت) وهي عبارة عن بويضة مُخصَّبة، وتبدأ في أخذ غذائها منه^(١).
وتطلق العلقَة على الدم عامة، وعلى الدم شديد الحمرة، وعلى الدم الجامد،

(١) انظر: تفسير الشعراوي (١٦ / ٩٩٧٩).

كما تطلق العَلَقَةُ على نوع من الديدان يعيش في المياه، ويتغذى على دماء الحيوانات التي يلتصق بها، كالأبقار والأغنام وغيرها.

قال ابن عاشور: «إذ كان خلقُ النطفة علقَةً أعجبَ من خلق النطفة، إذ قد صيّر الماء السائلَ دماً جامداً، فتغير بالكثافة وتبدّل اللون من عواملٍ أودعها الله في الرحم.

ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن باسم العلقة، فإنه وضعٌ بديعٌ لهذا الاسم، إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم؛ بسبب التصاقه بعروقِ في الرحم، تدفع إليه قوة الدم، والعلقة: قطعة من دم عاقد^(١).

الحقيقة العلمية:

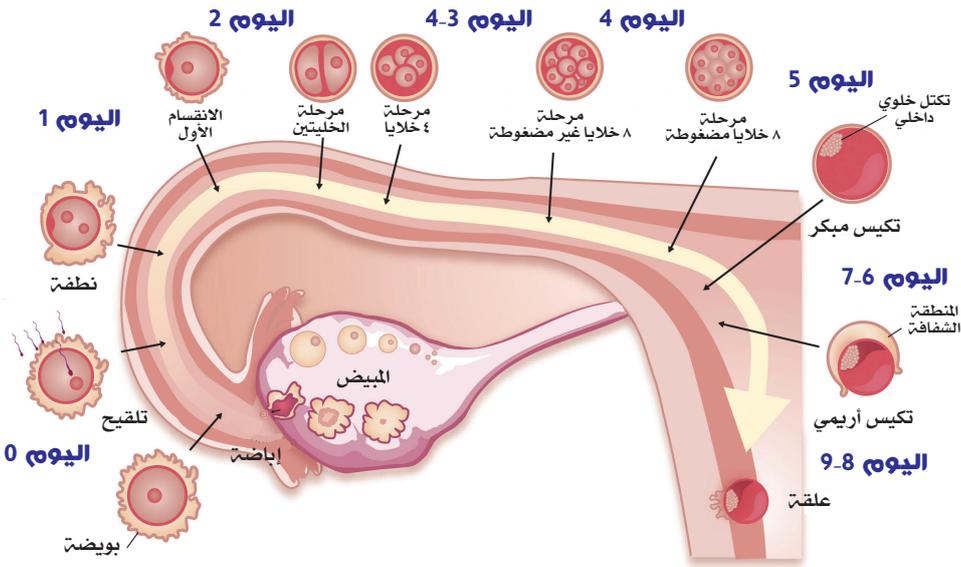
تلتصق النطفة التامة التكوين والتي تسمى في هذه المرحلة: المتكيسة الجرثومية، بجدار الرحم في اليوم السادس، في بداية طور الحرث (الإنغراس)، حتى تنزرع تماماً، وتستغرق هذه العملية أكثر من أسبوع حتى تلتصق النطفة بالمشيمة البدائية بواسطة ساق موصلة تصبح فيما بعد الحبل السري.

وفي أثناء عملية الحرث تفقد النطفة شكلها لتتجهياً لأخذ شكل جديد هو: العلقة، الذي يبدأ بتعلق الجنين بالمشيمة، ووصف القرآن الكريم هذا التعلق بالعلق، وهذا يتفق مع معنى (التعلق بالشيء) الذي يعتبر أحد مدلولات (كلمة علق).

أما على معنى أنها (دودة عالقة)، فإننا نجد أن الجنين يفقد شكله المستدير، ويستطيل حتى يأخذ شكل الدودة، ثم يبدأ في التغذية من دم الأم، مثلما تفعل الدودة العالقة. إذ تتغذى من دم الكائنات الأخرى، ويحاط الجنين بغشاء مخاطي

(١) التحرير والتنوير (١٨ / ٢٣-٢٤).

تمامًا. مثلما تحاط الدودة بالماء، ويبين اللفظ القرآني (علقة) هذا المعنى بوضوح طبقًا لمظهر وملامح الجنين في هذه المرحلة.



تطورات البويضة الملقحة

وعلى معنى أنها (دم جامد أو غليظ) للفظ العلقة، نجد أن المظهر الخارجي للجنين وأكياسه يتشابه مع الدم المتخثر الجامد الغليظ؛ لأن القلب الأولي وكيس المشيمة، ومجموعة الأوعية الدموية القلبية تظهر في هذه المرحلة، وتكون الدماء المحبوسة في الأوعية الدموية حتى وإن كان سائلاً، ولا يبدأ الدم في الدوران حتى نهاية الأسبوع الثالث وبهذا يأخذ الجنين مظهر الدم الجامد أو الغليظ مع كونه دمًا رطبًا. وتدرج الملامح المذكورة سابقًا تحت المعنيين المذكورين للعلق (دم جامد) أو (دم رطب).

أما الفترة الزمنية التي يستغرقها التحول من نطفة إلى علقة: فإن الجنين خلال مرحلة الانغراس أو الحرث يتحول من مرحلة النطفة ببطء، إذ يستغرق نحو أسبوع منذ بداية الحرث (اليوم السادس) إلى مرحلة العلقة، حتى يبدأ في التعلق (اليوم

الرابع عشر أو الخامس عشر).

ويستغرق بدءُ نموِّ الحبلِ الظهري حوالي عشرة أيام (اليوم السادس عشر) حتى يتخذ الجنين مظهر العلقة، والدلالات الواردة في الآيات المذكورة فيما يتعلق بالفترة التي تتحول فيها النطفة إلى علقة تأتي من حرف العطف (ثم) الذي يدل على انقضاء فترة زمنية حتى يتحقق التحولُ إلى الطور الجديد.

وهكذا فإن التعبير القرآني (علقة) يعتبر وصفاً متكاملًا دقيقاً عن الطور الأول من المرحلة الثانية لنمو الجنين، ويشتمل على الملامح الأساسية الخارجية والداخلية، ويتسع اسم (علقة) فيشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة عالقة، كما يشمل التحولات الداخلية كَتكوّن الدماء والأوعية المقفلة.

كما يدل لفظ علقة على تعلق الجنين بالمشيمة، وبالإضافة إلى ذلك فقد عبّر القرآن الكريم عن هذا التحول البطيء من النطفة إلى العلقة بحرف العطف (ثم)^(١).

وجه الإعجاز:

إن الجنين في نهاية هذا الطور كما يقول المفسرون: يكون على شكل علقة مستطيلة، لونها شديد الحمرة لما فيها من دم متجمد، وهذا يتوافق مع الشكل الأخير لهذا الطور؛ حيث يأخذ الجنين شكل الدودة التي تمتص الدماء وتعيش في الماء (شكل ٣).

ويشترك الجنين معها في قوة تعلقه بعائلته للحصول على غذائه من امتصاص دمائه، والمدة الزمنية لهذا الطور هي من بداية الأسبوع الثاني، وحتى نهاية الأسبوع الثالث من التلقيح، وإن وصف الجنين بتلك الصفة التي ورد بها النص القرآني لم يكن معروفًا للبشر آنذاك، وفي ذلك إعجاز قرآني يدل بيقين أن المتكلم به هو الخالق العظيم، وأن المبلِّغ عنه هو رسول رب العالمين.

(١) مجلة الإعجاز العلمي، العدد الثالث من (ص: ١٥ - ١٧) بتصرف.

طور المضغة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].



الدلالة النصية:

الشاهد هنا إطلاق لفظ المضغة على مرحلة من أطوار خلق الجنين في بطن أمه، يقول ابن كثير^(١):

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٤٦٦).

وهي قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، على قدر ما يمضغ الماضغ، ويتراوح حجمُ الجنين في أول هذا الطور، ما بين حجم حبة قمح إلى حجم حبة فول (٣-٥ مم) وهو القدر الذي يمكن مضغُه، ويبدو سطحُه من الخارج، وقد ظهرت فيه نتوءاتُ شكلِ الرأسِ والصدر والبطن، ومعظم براعم أعضائه الداخلية، ، ويصدق عليه أنه مُخلَّق وغير مخلَّق.

الحقيقة العلمية:

لقد أوضح علمُ الأجنة الحديثُ مدى الدقة في اختيار تسمية «مضغة» بهذا المعنى: إذ وجد أنه بعد تخلق الجنين والمشيمة في هذه المرحلة يتلقى الجنين غذاءه وطاقته، وتزايد بذلك عملية النمو بسرعة، ويبدأ ظهور الكتل البدنية المسماة فلقات، التي تتكون منها العظام والعضلات.

ويبدو الجنين في هذه المرحلة على شكل مادة ممضوغة أشبه بأثر مضغَةِ أسنان.

ويمكن إدراك تطابق مصطلح «مضغة» لوصف التحولات في هذا الطور في النقاط التالية:

✿ ظهور الفلقات التي يشبه مظهرها أثرَ الأسنان في المادة الممضوغة، وتبدو أنها تتغير باستمرار مثلما تتغير آثار الأسنان في المادة الممضوغة، وتبدو أنها تتغير باستمرار مثلما تتغير آثار طبع الأسنان في شكل مادة تمضغ حين لوكها - وذلك للتغير السريع في شكل الجنين - ولكن آثار الطبع أو المضغ تستمر ملازمة، فالجنين يتغير شكله الكلي، ولكن التركيبات المتكونة من الفلقات تبقى.

وكما أن المادة التي تلوكها الأسنان يحدث بها تعضن وانتفاخات وتشنجات، فإن ذلك يحدث للجنين تمامًا في هذه المرحلة.

❁ تتغير أوضاع الجنين نتيجة تحولات في مركز ثقله مع تكون أنسجة جديدة، ويشبه ذلك تغير وضع وشكل المادة حينما تلوّكها الأسنان.

❁ وكما تستدير المادة الممضوغة قبل أن تبتلع، فإن ظهر الجنين ينحني ويصبح مقوساً شبه مستدير مثل حرف (C) بالانجليزية.

❁ ويكون طول الجنين حوالي (١سم) في نهاية هذه المرحلة، وذلك مطابقاً للوجه الثاني من معاني كلمة مضغعة، وهو (الشيء الصغير من المادة)، وهذا المعنى ينطبق على حجم الجنين الصغير؛ لأن جميع أجهزة الإنسان تتخلق في مرحلة المضغعة ولكن في صورة بُرْعَمٍ.

وأما المعنى الثالث الذي ذكره بعضُ المفسرين للمضغعة (في حجم ما يمكن مَضُغُهُ) فإنه ينطبق ثانية على حجم الجنين، ففي نهاية هذا الطور يكون طول الجنين (١سم)، وهذا تقريباً أصغر حجم لمادة يمكن أن تلوّكها الأسنان.

وأما طور العلقة السابق، فقد كان الحجمُ صغيراً لا يتيسر مَضُغُهُ إذ يبلغ (٥, ٣ملم) طويلاً، ولا تتمايز الفلقات في البداية، ولكنها سرعان ما تتمايز إلى خلايا، تتطور إلى أعضاء مختلفة، وبعض هذه الأعضاء والأجهزة تتكون في مرحلة المضغعة والبعض الآخر في مراحل لاحقة^(١).

وجه الإعجاز:

إن ما أكدته حقائق علم الأجنة: بأن التخليق يبدأ من أول الأسبوع الرابع، وبالتحديد في اليوم الثاني والعشرين، وينتهي هذا الطور قبيل نهاية الأسبوع السادس حيث يبدأ الطور التالي في التخليق وهو طور العظام.

يتوافق تماماً مع دلالة النص القرآني ﴿ثُمَّ مِنْ مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥] الذي يدل على نص معجز علمياً.

(١) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة (ص: ٦٧).



جنين عمره سبعة أسابيع

طور العظام واللحم

قال الله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

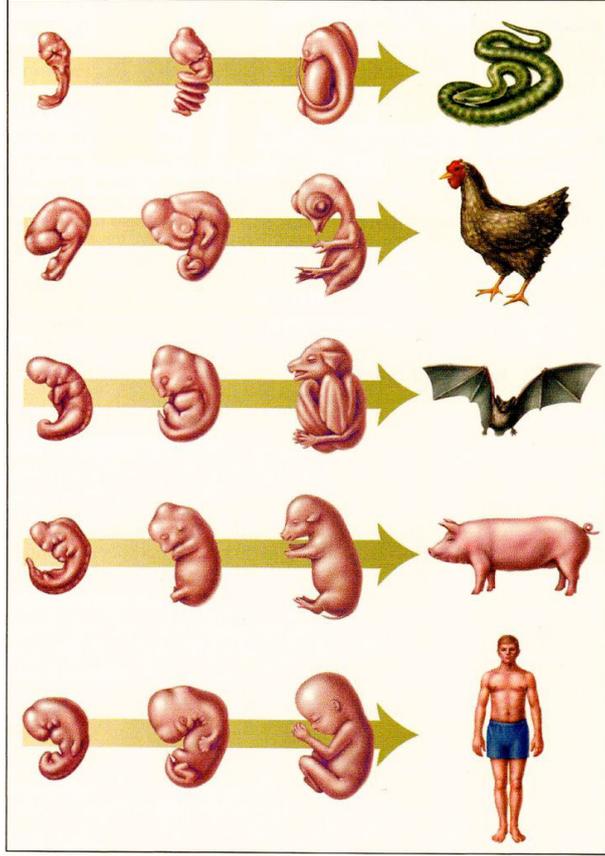
الدلالة النصية:

النص الشريف يدل على طورٍ آخرٍ من الأطوار التي يمر بها خلق الجنين في بطن أمه، والذي يتمثل بتكون العظام واللحم، وذلك بعد طور المضغة، وقد أكد هذا المعنى قولُ رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَدَكَرْتُ أَمْ أَنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلِكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أَمَرَ وَلَا يَنْقُصُ»^(١).

الحقيقة العلمية:

يذكر العلماء المتخصصون في علم الأجنة: أن تكوين الأعضاء وتشكُّل الهيكل العظمي بصورة ظاهرة يتم في اليوم الخامس والأربعين، أي: بعد طور المضغة، حيث يأخذ الجنين الشكل الإنساني الذي يتميز به عن أشكال أجنة الحيوانات، التي كانت متشابهة معه في الأطوار الثلاثة السابقة، وهي طور النطفة والعلقة والمضغة.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٦٤٥).



تشبه أجنة الإنسان بأجنة بعض الحيوانات في المراحل الأولى

ففي اليوم الثاني والأربعين يبدأ تشكّل الهيكل العظمي الغضروفي الذي يعطي الجنين شكله الأدمي الخاص به، فيستقيم جذعه، ويتكون له رأس كبير مستدير، وتتحرك العينان إلى الأمام في محلّهما في الوجه، كما أن الأذنين الخارجية والداخلية تتكونان بعد اليوم الثاني والأربعين ويتم ذلك بالنسبة للأنف، أما الأذرع فتظهر فتصبح أكثر طولاً، وتظهر أصابع واضحة، وهكذا مؤخرة العمود الفقري، فتراجع وتعتدل تاركة أثراً لا يكاد يلاحظ^(١).

(١) انظر الصفحات (١٣٣-١٣٦) من كتاب علم الأجنة، من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

ويزيد الدكتور الشقفة هذا الأمر بيانا بقوله: "يظهر بُرعمٌ في كل جانب، في مكان الطرف العلوي في أول طور العلقة ثم ينمو، وهو مؤلف من ميزانشيم (Mesenchyme)، محاط بطبقة أكتودرمية، ثم تتشكل نهاية البرعم على شكل كف وأصابع، وبنفس الوقت يكون قد ظهر تكثفٌ في الميزانشيم لا يلبث أن يتغضرف ليكون طليعة العظام"^(١).

وجه الإعجاز:

وصف القرآن الكريم الأطوار التي يتخلق فيها الجنين بأوجز عبارة وأوضحها - بما في ذلك طور العظام وكسوتها باللحم - وجاء ذلك الوصف موافقا لواقع الأمر، ومطابقا لما تقرر من حقائق في علم الأجنة، مما يجعله مثالا باهرا من أمثلة الإعجاز العلمي؛ حيث لم تعرف البشرية الأطوار التي تمر بها الأجنة إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر.



(١) انظر القرار المكين للدكتور مأمون شقفة (ص: ٢٤٢) وما بعدها بتصرف.



مرحلة اكتمال الخلق

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

الدلالة النصية:

يقول الزمخشري في بيان قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ ما نصه: «أي: خلقاً مبيئاً للخلق الأول مباينة ما أبعدها، حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره بل كلّ عضو من أعضائه، وكلّ جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة، لا تدرك بوصف الواصف»^(١).

ولذلك قال الشنقيطي في أضواء البيان: «صار بشراً سوياً بعد أن كان نطفة ومضغة وعلقة وعظاماً كما هو واضح»^(٢).

الحقيقة العلمية:

ورد في كتاب علم الأجنة - من إصدارات الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - تحت عنوان: «النشأة خلقاً آخر» ما يلي: «يبدأ هذا التطور في الأسبوع التاسع ويستمر حتى الأسبوع الثاني والعشرين، وتتضح في الجنين الصفات التالية:

أ - النمو السريع: والتطور الذي يتطابق مع معنى «النشأة» الذي تقدم، فالجنين

(١) الكشف للزمخشري (٣/١٧٤).

(٢) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، مجموعة من الباحثين، من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي (ص: ١٠٠ - ١٠٢).

ينمو ببطء بعد طور اللحم (الأسبوع التاسع) مباشرة، وحتى الأسبوع الثاني عشر، ثم يتسارع النمو جدًا.

تغير طبيعة الجنين وتطور أعضائه: فالهيكل العظمي يتطور من العظام الغضروفية اللينة إلى عظام صلبة متكلسة، وفي الأسبوع الثاني عشر من الحمل تظهر مراكز التعظم في غالب العظام وتتمايز الأطراف.

ومن الممكن رؤية الأظافر على الأصابع، وتتوازن أحجام الرأس والجسم والأطراف، ولا سيما بين الأسبوعين التاسع والثاني عشر، ويظهر الشعر الزغبي على الجلد الذي يتمايز في هذه المرحلة إلى بشرة وأدمة، ويزداد حجم الجنين بسرعة بصورة عامة، ويتم التمييز بين الأعضاء التناسلية الخارجية بصورة واضحة في الأسبوع الثاني عشر.

وتتطور العضلات الإرادية وغير الإرادية، ويظهر الجنين في هذه المرحلة بعض الحركات العادية الذاتية، وبعض التقلصات العضلية الانعكاسية إذا ما نبهت بمنبه خارجي.

وبصورة عامة فإن التطور الوظيفي للجهاز العصبي يوازي تطوّر الدماغ، والحبل الشوكي، وتظهر الحركات البدائية والغريزية كالمصّ والقبض بعد ذلك بفترة طويلة.

ومع ذلك فإن هذا التطور من مراحل التخلق يمثل مرحلة انتقالٍ مهمةً للجنين^(١).

وجه الإعجاز:

إن التطورات الكثيرة والدقيقة في هذه المرحلة من أطوار الجنين في بطن أمه تتطابق تمامًا مع ما ذكره ربنا جل وعلا في كتابه العزيز بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا

(١) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، مجموعة من الباحثين، من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي (ص: ١٠٠ - ١٠٢).

الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة

عَاخِرٌ ، فإذا ما لاحظنا أن الذي بلغنا هذا القرآن العظيم هو النبيّ الأمي محمد ﷺ - وأن ذلك البلاغ كان منذ أربعة عشر قرناً، حيث كانت البشرية على جهالة تامّة بهذه الحقائق - أدركنا أن المتكلم هو خالق الكون، ومبدع الأجنة أحسن الخالقين، وذلك مثلاً آخر من أمثلة الإعجاز العلمي الباهرة.





القرار المكين

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿المؤمنون: ١٢-١٣﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿المرسلات: ٢٠-٢١﴾.

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ يعني: أيها الناس ألم نخلقكم من نطفة ضعيفة. فعن ابن عباس، قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ يعني بالمهين: الضعيف. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ﴾ أي: فجعلنا الماء المَهِين في رحم استقرّ فيها فتمكن^(١).

الحقيقة العلمية:

المعلوم تشريحياً اليوم أن الرحم يقع في الحوض تحميه عظامه، وهي عظام سميكة تتألف من العَجْزِ والعُصْعُصِ في الخلف وعظمة الحرقفة في كل جانب؛ وهما يشكلان من الأمام عظمة العانة، وهذا الحزام العظمي وما يتصل به من عضلات سميكة يوفر للجنين حماية من الرُّضوض من كل جهة، والرحم أيضاً يقع بين المثانة والمستقيم من الأمام والخلف.

وتثبت الرحم في موضعه جملةً أربطة تربطه بجدار البطن وعظام الحوض، وتسمى الأربطة الرحمية Uterine Ligaments، وهي ترفع الرحم وتحافظ

(١) انظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاکر (٢٤ / ١٣٢).

على وضعية خاصة مناسبة للحمل Pregnancy، والولادة labor، كهرم مقلوب قاعدته لأعلى كقبة، ومع تنامي الحمل يزداد حجمه تدريجياً بما يتواءم مع نمو الجنين إلى أن يبلغ أعلى تجويف البطن في نهاية الشهر الثامن، ومع إفراز الهرمون الموسع لمنطقة الاتصال بن عظمي العانة Relaxin بالجهتين يهبط أكثر في الحوض استعداداً للوضع.

ومن الناحية الهرمونية يوجد نظام بالغ الدقة والاتزان يمنع تقلص الرحم؛ فيحمي الجنين من الإجهاض Abortion، بارتفاع عتبة أو حد التقلص لألياف العضلة الرحمية؛ بسبب ارتفاع نسبة هرمون البروجسترون Progesterone.

وفي الشهر الثالث يبدأ الجسم الأصفر في المبيض في الضمور، بعد أن تتسلم المشيمة الدور في الحفاظ على المد الهرموني إلى نهاية الحمل، وبهذا يضمن الجنين كل الرعاية، وتوفير كل متطلباته على طول الحمل هذا، زيادة على الحماية في حُرْزٍ حَصِينٍ مُعَدٍّ مسبقاً بتقدير وتصميم، ومهيأً لأداء وظيفته على أكمل وجه، ومثبت بقوة ومرفوع رغم الثقل المحمول، والجنين آمن برعاية الله تعالى وحمايته.

وجه الإعجاز:

لقد ثبت لعلماء التشريح والمتخصصين في علم الأجنة أن الرحم بما يتمتع به من نسيج قوي وأربطة محكمة، وما يكتنفه من أعضاء تقدم له الوقاية والحماية، مع المكان الذي يحتله ضمن منطقة الحوض، مما يزيده حماية وأماناً، لا يوجد وصف يمكن التعبير به عن حاله بدقة.

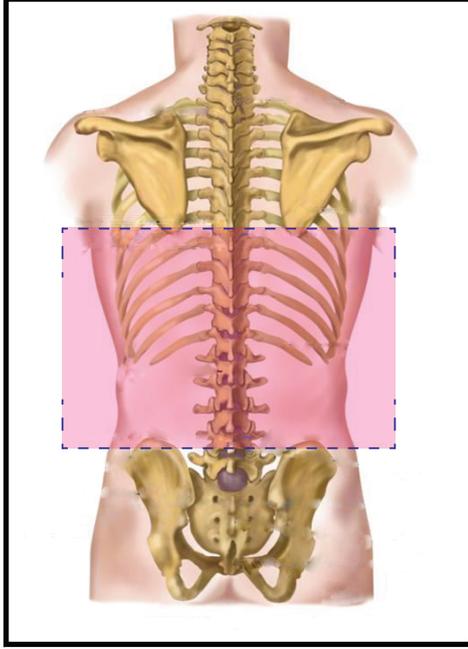
كما ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:

٢٠-٢١] حيث وصف الرحم بالقرار المكين فتطابقت دلالة النص القرآني مع حقائق العلم، فكان في ذلك مثالا باهراً للإعجاز العلمي القرآني.

الصلب والترائب

قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ
الْصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۚ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۗ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا
نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٥-١٠].



منطقة ما بين الصلب والترائب

الدلالة النصية:

قوله: ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾.

الماء: هو المني، والدفق: الصب،
يقال: دفقتُ الماء، أي: صببته،
يقال: ماء دافق، أي: مدفوق، مثل:
عيشة راضية أي: مرضية. قال الفراء
والأخفش: ماء دافق. أي مصبوب
في الرحم.

قال الفراء: وأهل الحجاز يجعلون
الفاعل بمعنى المفعول في كثير من
كلامهم، كقولهم: سِرُّ كاتم، أي:

مكتوم، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن
جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما، ثم وصف هذا الماء فقال: يخرج من بين الصلب
والترائب، أي: صلب الرجل، وترائب المرأة.

والترائب: جمع تربية، وهي موضع القلادة من الصدر، والولد لا يكون إلا من المائين.

وقيل: الترائب: ما بين الثديين. وقال الضحاك: ترائب المرأة: اليدين والرجلين والعينين.

وقال سعيد بن جبير: هي الجيد. وقال مجاهد: هي ما بين المنكبين والصدر. وروي عنه أيضا أنه قال:

هي الصدر، وروي عنه أيضا أنه قال: هي التراقي. وحكى الزجاج: أن الترائب عصاراة القلب، ومنه يكون الولد، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر والنحر. قال في الصحاح: التربية: واحدة الترائب، وهي عظام الصدر. قال أبو عبيدة: جمع التربية تريب.

قال قتادة والحسن: المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة.

معنى من بين الصُّلب، ومن الصلب، وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ولا يخالف هذا ما في الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والترائب^(١).

الحقيقة العلمية:

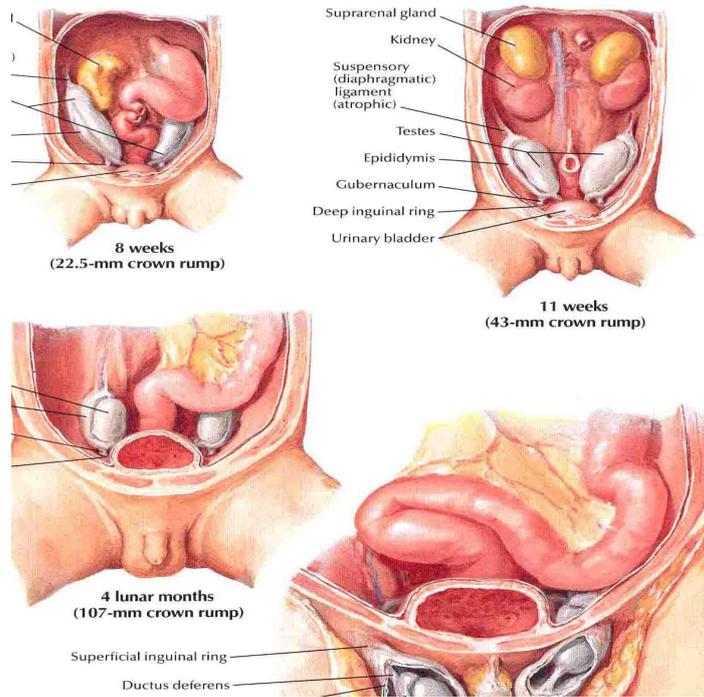
إذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيرت الألباب.. فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلَى، ويقع بين الصلب والترائب، أي: ما بين منتصف العمود الفقري تقريبا ومقابل أسفل الضلوع..

فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما، وفي إمدادهما بالدم الشرياني، وفي ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم،

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (٥/٥٠٨-٥١٠).

يقع بين الصلب والترائب، وهذا كله لم يكشفه العلم إلا حديثا بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول ذلك الكتاب.

هذا وكلُّ من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف، فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم، وقد يحدث في بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصفن فتحتاج إلى عملية جراحية.



عملية هبوط الخصية إلى مكانها الطبيعي في الصفن

والخلاصة هي: أن السائل المنوي أشبه ما يكون بماءٍ عديد النطف، ولا يقوم بتخصيب البويضة مجهريا إلا حيوانٌ منوي واحد، يماثل في عالم المرئيات بالعين المجردة نطفة (قطرة) من ماء من بين ملايين الحويئات، وتجتمع

الأصول الخلوية للخصية في الذكر أو المبيض في الأنثى في ظهر الأبوين، خلال نشأتها الجنينية في عضو تناسل مشترك Gonad، ثم يخرج كل منهما من منطقة بين بدايات العمود الفقري (الصلب)، وبدايات الضلوع (الثرائب) ليهاجر المبيض إلى الحوض، قرب الرحم وتهاجر الخصية إلى كيس الصفن حيث الحرارة أقل، وإلا فشلت عند البلوغ في إنتاج الحيوانات المنوية.

وجه الإعجاز:

لقد أصبح من المعلوم حالياً أن خلق الإنسان يتم باتحاد حوين منوي واحد مع بويضة؛ لتتكون النطفة الأمشاج وفق تعبير القرآن الكريم، أي ذات الأخلاط الوراثية من الزوجين من حيث التركيب، ونجد الدلالة على ذلك واضحة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ وهو تعبير رائع؛ لأنه أرجع خلق الإنسان إلى نطفة أو ما يماثل قطرة ماء واحدة.

وبذلك يحصل تطابق باهر بين حقيقة علمية استقرت في هذا الزمن، مع ما ورد في كتاب الله عز وجل، وهذا هو جوهر الإعجاز العلمي، وصدق الله العظيم القائل: ﴿سَتْرِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].



غيض الأرحام

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٨-٩].

الدلالة النصية:

يطلق الغيظ في اللغة على: النقص، والغور، والذهاب، والتضوب (غاض الماء غيضا ومغاضا): قلّ ونقص. أو غار فذهب. أو قل ونضب. أو نزل في الأرض وغاب فيها^(١). وفي المفردات في غريب القرآن: (وغيض الماء - وما تغيض الأرحام) أي تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض^(٢). وقد ورد ذكر الغيظ في آيتين من القرآن الكريم: الأولى: هي النص السابق في سورة الرعد، والثانية: قوله جل في علاه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤].

ووفق قواعد التفسير القاضية بتفسير القرآن بالقرآن؛ فإن معنى الغيظ في آية سورة الرعد يفسر بالغيض الوارد في آية سورة هود. ومعنى الغيظ فيها: الغياب، والذهاب والتضوب، يقول ابن عاشور: وتغيض: تنقص، والظاهر أنه كناية عن العلق؛ لأن غيظ الرحم انحباس دم الحيض عنها، وازديادها: فيضان الحيض منها. ويجوز أن يكون الغيظ مستعارة لعدم التعدد.

والازدياد: التعدد أي ما يكون في الأرحام من جنين واحد أو عدة أجنة وذلك في الإنسان والحيوان.

(١) المعجم الوسيط (٢/٦٦٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣).

وجملة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾. فالمراد بالشيء: الشيء من المعلومات. والمقدار: مصدر ميمي بقرينة الباء، أي بتقدير، ومعناه: التحديد والضبط. والمعنى أنه يعلم كلُّ شيء علماً مفصلاً، لا شيوَعَ فيه ولا إبهام.

وفي هذا رد على الفلاسفة غير المسلمين، القائلين: أن واجب الوجود يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، فرارا من تعلق العلم بالحوادث. وقد أبطل مذهبهم علماء الكلام بما ليس فوقه مرام. وهذه قضية كلية أثبتت عموم علمه تعالى، بعد أن وقع إثبات العموم بطريقة التمثيل بعلمه بالجزئيات الخفية في قوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾^(١).

الحقيقة العلمية:

إن الأرحام تنهياً بكيفية لاستقبال ماء التخصيب، فُبَيْلَ تَخَلُّقِ أَوْلِ خَلِيَةِ، وظهر البرنامج الوراثي للإنسان المقبل.

وفعل (تَغِيضُ) منسوب ابتداءً في الآية الكريمة إلى (الأَرْحَامِ)، وهو يفيد الغور والنقصان؛ خاصة في مقابل الازدياد، في لسان العرب: «غاض الماء يغيض غيضا.. نقص أو غار»، ويقول تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٤]، وغيرها من الآيات الكريمة.

لم يعرف أحد بإمكان غيض الأرحام وانقباضها ونقصانها عند التزاوج حتى أعلنت عنها الدراسات العلمية عام ١٩٦٦، حيث تميزت استجابة الأنثى إلى أربعة مراحل يغور فيها الرحم وينقبض، استعدادا لاستقبال ماء الإخصاب ومعاونته لبلوغ البويضة بألية الشَّفْطِ.

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٣ / ٩٨).

وفي مرحلة الغيض يستحيل على إنسان أن يعرف صفات الجنين المقبل. فمع اندفاعمني في المجاري التناسلية للمرأة ينقبض الرحم فعلا ويغور للدخل بالفعل؛ بسبب مادة موجودة في السائل المنوي تسمى بروستاغلاندين Prostaglandin؛ ويعينها تقلص لا إرادي يقع للمرأة أثناء مرحلة النشوة Or-gasm، وبهذا يعمل الرحم عمل المضخة.

وبالمثل: ينسط الرحم لاحقا، فيعين الحيوانات المنوية على بلوغ البويضة قرب نهاية قناة الرحم، ولذا لا يقل دور الرحم هذا أهمية في معاونة الحيوانات المنوية تخصيب البويضة عن دوره في حفظ الحمل على طول مراحلها، حيث يزداد حجما بما يتناسب ومتطلبات الجنين.

وبتلقيحها تتضاعف الفتائل الوراثية، وبالانقسام تتزايد الخلايا، وتحمل البويضة نصف عدد الفتائل الوراثية (الكروموزومات)، ويحمل الحوين النصف الآخر، وتتسابق الحيوانات المنوية وتعلو في المجاري التناسلية للمرأة ليحقق الفوز في بلوغ البويضة وإخصابها: إما حيوان يحمل شارة الذكورة (كروموزوم بهيئة Y)، فيكون الجنين المرتقب ذكرا بإذن الله تعالى؛ وإما حيوان يحمل شارة الأنوثة (كروموزوم بهيئة X) فيكون الجنين أنثى بإذن الله تعالى.

وينمو الجنين يزداد الرحم، ولذا يعتبر الحمل كله وجوها من الازدياد^(١).

وقد أثبتت الأبحاث العلمية أن بعض الأجنة تسقط من غير أن تشعر المرأة بذلك، وبعض الأجنة تختفي وتزول من داخل الرحم خلال الأسابيع الستة الأولى من تلقيح البويضة، وأخذت هذه الظواهر مسميات علمية عديدة، كالإجهاض المخفي، وكيس الحمل الفارغ، والتوائم المتلاشية، وكلها تؤدي إلى نقصان الرحم بغور الأجنة فيه ونضوبها وذهابها واختفائها بالكلية.

(١) راجع بحث الدكتور محمد دودح حول الأرحام.

وجه الإعجاز:

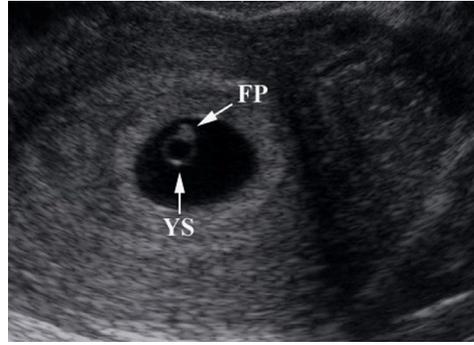
إن في دلالة عبارة غيض الأرحام على الإسقاط التلقائي المبكر بصورتيه: غور الأجنة وإسقاطها، وما يصاحبه من نقصان ونضوب لِبِرْكَ السوائل والدماء المحيطة بالأجنة، لهو إعجازٌ علمي واضح، سبق به القرآن الكريم علم الأجنة بقرون، وقد اتضح بيقين - في هذا الزمان - بعد تقدم علم الأجنة الوصفي والتجريبي دقة لفظ الغيض، في دلالته الشاملة لكل الأحداث التي تمر بها الأجنة الهالكة.

وهكذا أثبت العلم بيقين دقة هذا التعبير وشموليته؛ وبهذا يتحقق السبق القرآني في الإشارة إلى حقائق علمية دقيقة، لم يكتشف معظمها إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ وَلِتَعْلَمَنَّا نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٧٨﴾﴾.

أجل! إن ذكر القرآن الكريم لظواهر غيض الأرحام يعتبر إعجازاً علمياً باهراً.



مقطع طولي في الرحم بجهاز الموجات فوق الصوتية يبين وجود كيسي حمل لتوأم. أحدهم به جنين والآخر كيس حمل فارغ اختفى منه الجنين الثاني ثم لا يلبث أن يختفي ويغور هذا الكيس الفارغ أيضاً.



صورة بالموجات فوق الصوتية لحمل في أسبوعه السابع، حيث يوجد كيس حمل به قطع عائمة من التجويف السلبي، ولا يوجد به جنين وهي تشخيص لحالة إجهاض مخفي.

وليس الذكر كالأنثى

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٦].

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾.

فيه قولان:

❁ الأول: أن مُرادها تفضيلُ الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه:

أحدها: أن شرعهم لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث.

والثاني: أن الذكر يصح أن يستمرَّ على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى؛ لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان.

والثالث: الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى، فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة.

والرابع: أن الذكر لا يلحقه عيبٌ في الخدمة والاختلاط بالناس، وليس كذلك الأنثى.

والخامس: أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.

❁ والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة من الله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمةً بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه^(١).

الحقيقة العلمية:

في النص القرآني إشارة إلى واقع عضوي ونفسي مفاده: أن تكوين الذكر ليس مساويا لتكوين الأنثى، وأن هذا التباين بينهما يشمل الظاهر والجلي من الأعضاء، والمستتر الخفي منها، والوظائف ومختلف المكونات كالخلايا والنسيج.

وحسب بحث د. عنايات عزت^(٢) - المشفوع بمشاهدات سريرية، واستيانات ميدانية، وتجارب معملية - فقد ثبت لديها علمياً ما يلي:

❁ التركيبية المختلفة لكل من الذكر والأنثى تكون مختلفة على مستوى كل الخلايا الجسدية؛ وذلك لأن كل الخلايا الذكر تحمل $XY + ٤٤$ ، وكل خلايا المرأة تحمل $XX + ٤٤$ ، فيما عدا الحيوان المنوي والبويضة.

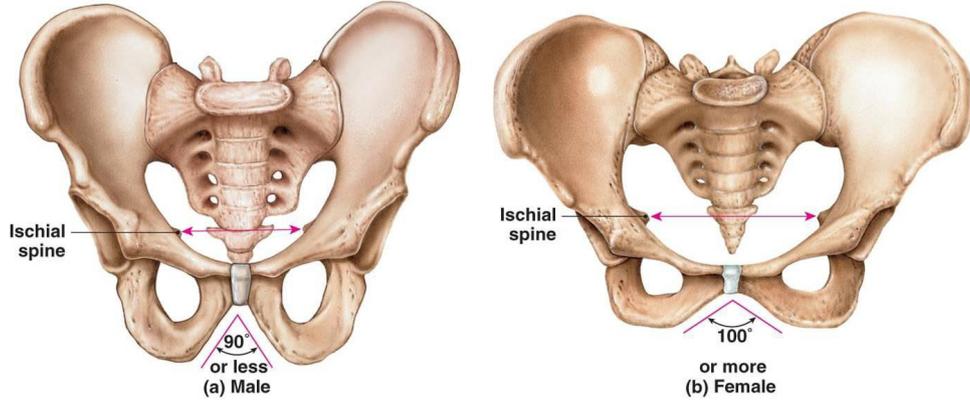
❁ نمو قناتي (موليريان ولفيان) لدى الأجنة يمثل تمايزاً بين الجنين الذكر والجنين الأنثى.

❁ في فترة الرضاعة والنمو والبلوغ خلصت الباحثة إلى أن نمو الذكر يختلف عن الأنثى، وما يتبع ذلك من تبدلات جسدية ونفسية ووظائف الأعضاء المتعلقة، وثبت وجود فروق بين الذكر والأنثى، وفي مظاهر عديدة كذلك.

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٨ / ٢٠٤).

(٢) كتاب المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي بدولة الكويت (أبحاث الطب).

- ❁ أما في المخ، فيلاحظ أن مخ الرجل أضخم من مخ المرأة بما يقارب ١٠٪ من الوزن، كما أن الأنثى تستعمل فصّي المخ أثناء الكلام.
 - ❁ القلب: يتميز قلب المرأة بسرعة نبضاته أكثر من الذكر.
 - ❁ الرئة: وزن الرئة عند الأنثى أقل منه عند الذكر، وبالتالي فهي أصغر حجماً.
 - ❁ العضلات: قدرة شغل العضلات عند الأنثى أقل منه عند الذكر.
 - ❁ العظام: يلاحظ عند الذكر زيادة في وزن العظام عما هي عند الأنثى، وهكذا نلاحظ ارتفاع نسبة الإصابة بهشاشة العظام عند الإناث منها عند الذكور.
 - ❁ الجهاز المناعي: تزداد كفاءة جسم الذكر المناعية عن مستواها عند الأنثى.
 - ❁ الإحساس بالألم: تتميز الأنثى بارتفاع نسبة الشعور بالألم لديها بشكل عام.
 - ❁ الدم: بشكل عام فإن نسبة الهيموغلوبين وعدد كريات الدم الحمراء وحجمها يتميز عند الرجل عما هو عند الأنثى.
 - ❁ الكبد: هناك اختلاف جهاز السيروتروم ب ٤٥٠ (cyp) عند الذكر عما هو عند الأنثى، وكذلك الشأن في البول: نلاحظ اختلافاً بين الجنسين سواء في الأملاح والمعادن والإفرازات الهرمونية كذلك مما يثبت الحقيقة بأن الذكر ليس كالأنثى، وأن ثمة فروقاً في مختلف النواحي في كافة المستويات بين الجنسين.
- وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾.



الاختلاف الواضح في منطقة عظام الحوض بين الجنسين



دماغ الرجل ودماغ المرأة



الأطعمة المحرمة

قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣].

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾... بيان لما ليس بحلال الأكل من الأنعام، وأدمج فيها نوع من الحيوان ليس من أنواع الأنعام وهو الخنزير، لاستيعاب محرمات الحيوان. وهذا الاستيعاب دليل لإباحة ما سوى ذلك، إلا ما ورد في السنة من تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير..

قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْمَيْتَةُ﴾ هي الحيوان الذي زالت منه الحياة، وعلّة تحريمها أن الموت ينشأ عن علل يكون معظمها مضرا بسبب العدوى.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالدَّمُ﴾ والدم هنا هو الدم المهرق، أي المسفوح، وهو الذي يمكن سيلانه

والظاهر أن علّة تحريمه القذارة: لأنه يكتسب رائحة كريهة عند لقائه الهواء، ولذلك قال كثير من الفقهاء بنجاسة عينه.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ للإيماء إلى أن المحرم أكل لحمه.

وعلّة تحريم الخنزير: أن لحمه يشتمل على جراثيم مضرّة، لا تقتلها حرارة النار عند الطبخ، فإذا وصلت إلى دم آكله عاشت في الدم فأحدثت أضرارا عظيمة، منها مرض الديدان التي في المعدة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ هو ما سُمِّي عليه عند الذبح اسمٌ غير الله.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُنْحَنَقَةُ﴾ هي التي عرض لها ما يخنقها. وحكمة تحريم المنخنقة: أن الموت بانحباس النفس يفسد الدم باحتباس الحوامض الفحمية الكائنة فيه؛ فتصير أجزاء اللحم المشتمل على الدم مضرّة لآكله.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بحجر أو عصا ضربا تموت به دون إهراق الدم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُتَرِدِيَّةُ﴾ هي التي سقطت من جبل أو سقطت في بئر ترديا تموت به، والحكمة واحدة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ بمعنى منطوحة. والمراد التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾: أي: بهيمة أكلها السبع، والسبع كل حيوان يفترس الحيوان كالأسد والنمر والضبع والذئب والثعلب، فحرم على الناس كل ما قتله السبع، لأن أكيلة السبع تموت بغير سفح الدم غالبا، بل بالضرب على المقاتل.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ استثناء من جميع المذكور قبله من قوله: حرمت عليكم الميتة لأن الاستثناء الواقع بعد أشياء يصلح لأن يكون هو بعضها، يرجع إلى جميعها عند الجمهور، فتعين أن المقصود بالاستثناء: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، مسفوحا.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ لَحْمِ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فذكر أربعة لا تعمل الذكاة فيها شيئا، ولم يذكر المنخنقة والموقوذة وما عطف عليها هنا؛ لأنها تحرم في حال اتصال الموت بالسبب لا مطلقا. فعضوا على هذا بالنواجذ.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ هو ما كانوا يذبحونه من القرابين والنشرات فوق الأنصاب. والنصب - بضمين - الحجر المنسوب.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

النهي عن أكل اللحم الذي يستقسمون عليه بالأزلام، وهو لحم جزور الميسر لأنه حاصل بالمقامرة^(١).

الحقيقة العلمية:

لقد أثبت العلم أن أكل لحوم الحيوانات التي حرمها الله ولحم الميتة والدم فيه أخطار جسيمة؛ لكونها مأوى لكائنات دقيقة، تسبب أمراضا للإنسان وفيما يلي أذكر طرفا من هذه الأضرار:

✿ أخطار أكل لحم الميتة:

لقد تحقق ضرر لحوم الميتة علميا، وظهر خطرهما على حياة الإنسان، وذلك لأن احتباس دم الميتة في عروقه المتشعبة إلى أنسجتها ييسر للجراثيم التي تعيش متطفلة على الحيوان في الفتحات الطبيعية والأمعاء والجلد أن تنتشر بسرعة وسط اللحم، من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر وينتج عنها مركبات كريهة الرائحة سامة التأثير.

كما قد يموت الحيوان بسبب مرض معين فتنتقل جرثومة المرض إلى الإنسان فتؤذيه وقد تهلكه، كما في مرض السل والجمرة الخبيثة وجراثيم السلمونيلا وداء الكلب، وقد حرم الله سبحانه أيضا الميتة بسبب الاختناق، أو بسبب الرض، سواء كان ذلك الرض بالوقذ، أو التردّي من مكان عالٍ، أو بواسطة النطح من حيوان آخر وكذلك ما أكل السبع.

(١) انظر: التحرير والتنوير (٦ / ٨٨-٩٧).



لأن تلك الأنواع إضافة إلى أن دماءها محتبسة في أنسجتها، وما ينتج عن ذلك من الأخطار المذكورة في الميتة، إلا أن الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرض يسبب انتشاراً للدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن المرضوضة، وقد تكون به خدوش وجروح تسهل دخول الجراثيم المنتشرة في الهواء إلى داخل الأنسجة فتعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتأكل بين أنيابها تؤدي نفس النتيجة بأنسجة الحيوان ولحمه؛ مما تجعله يشكل خطراً داهماً على حياة الإنسان حينما يؤكل لحمه.

❁ أخطار أكل الدم المسفوح:

يعتبر الدم وسطاً مناسباً لنمو شتى الجراثيم وانتشارها، وعندما يُسْفَح الدم بالذبح أو الفصد، ويخرج من الأوعية الدموية فإن كرياتهِ البيضاء تفقد قدرتها على التهام الجراثيم وتموت خلاياها المناعية، وتنهدم آلياته الدفاعية، وبالتالي تتكاثر فيه الجراثيم بسرعة كبيرة، وتفرز سمومها (Toxins) الفتاكة وتكون أشد مقاومة لحرارة الطبخ من الجراثيم ذاتها.

❁ أخطار أكل الجلالة:

كما نهى النبي ﷺ عن أكل لحم الجلالة، وشرب ألبانها، وأكل الحمر الأهلية. روى البيهقي والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الجلالة وشرب ألبانها وأكلها وركوبها.

والجلالة: هي كل دابة تأكل الأقدار، وخصوصا العذرة التي تعتبر بيئة خصبة لنمو وتكاثر الديدان، والطفيليات والجراثيم الضارة؛ إذ تحتوي على عدد هائل منها؛ يزيد على المائة بليون جرثومة في الجرام الواحد. لذلك فالعذرة تشكل مخزنا ومصدرا رئيسيا للخطر.



كما أثبتت الأبحاث العلمية أن الأقدار تحتوي على نسبة عالية ومتنوعة من السموم الخطرة على صحة الإنسان، فإذا تناولها حيوان أو طير انتشرت هذه الجراثيم في دمه ولحمه، وترسبت هذه السموم في أنسجته، وعندما يتناول الإنسان لحم هذا الحيوان أو لبنه يصاب بالعلل والأمراض.

❁ أخطار أكل الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة:

حرم رسول الله ﷺ أكل بعض الحيوانات لخطر يحيق بالإنسان أو ضرر يصيبه؛ فحرم كل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير^(١).

وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: كل ذي ناب من السباع فأكله حرام^(٢).

وقد أمر النبي ﷺ بقتل الحيوانات التي تلحق الضرر بالناس.

فعن رسول الله ﷺ أنه أمر أو أمر أن يقتل الفأرة والعقرب والحِدَاة والكلب العقور والغراب^(٣).

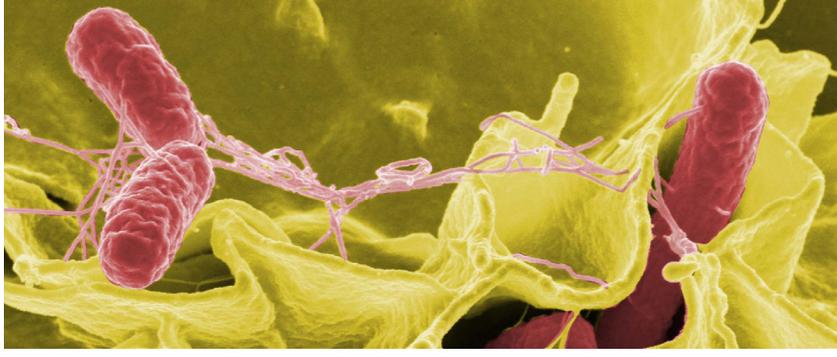
وقد ثبت علميا أن طفيل (الشعرنية ناتيفا) يعيش بين الدببة والثعالب القطبية، ويصاب الإنسان بها فور تناول لحوم هذه الحيوانات، أو الحيوانات الحاضنة لهذا الطفيل بصورة ثانوية كالقط، كما ينتشر طفيل (تريخينلا نلسوني) في الضباع، وبنات آوي، والنمور، والأسود، وبعض الحيوانات المفترسة الأخرى، وتقع معظم الإصابات البشرية في أفريقيا بتناول لحم الخنزير الداخن والوحشي؛ وهما حاضنان ثانويان لهذا الطفيل لأنهما يتغذيان على الجيف.

كما تنتشر الطفيليات التي تعرف بالشعرينات شبه الحلزونية (تريخينليا سود وسيبرا ليس) في الطيور الجوارح (ذات المخلب)، ويصاب الإنسان بالعدوى إذا تناول لحم الجوارح من الطيور كالنسور والعقبان والصقور وغيرها، وإصابة الإنسان بهذه الطفيليات والكائنات الدقيقة الخطيرة؛ تؤدي بحياة الإنسان إلى الأمراض والهلاك.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٣٥٧٤).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٣٥٧٣).

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٠٧٥).



طفيليات على مخالب الطيور الجارحة

وجه الإعجاز:

مما سبق بيانه حول هذه المحظورات من أطعمة وغير ذلك ندرك أن نَهَى الله عز وجل، ونهَى رسوله ﷺ عن كل ما ورد معناه جاء مطابقاً لما توصلت إليه قناعة الأطباء وعلماء التغذية؛ نتيجة تجاربهم ومشاهداتهم في هذا المجال. وبذلك ثبت يقيناً أن هذا الكلام هو وحي من الخالق جل وعلا، وأن الذي بلغنا ذلك هو رسول حق وصدق.. وبالله التوفيق..





أخطار مخالطة الكلاب

في الصحيحين عن أبي طلحة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب»^(١).

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «من اتخذ كلبا إلا كلب ماشية أو صيدٍ أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط».

الدلالة النصية:

قوله: (قيراط) القيراط مقدار معلوم عند الله تعالى - والمراد نقص جزء من عمله. وقد اختلف العلماء في سبب نقصان الأجر باقتناء الكلب على أقوال: أحدها: أن ذلك لما يلحق المارّين من الأذى من ترويع الكلب لهم وقصده إياهم، روي ذلك عن الحسن البصري وغيره.

ثانيها: قال ابن عبد البر: هذا محمول عندي - والله أعلم - على أن المعاني المتعبد بها في الكلاب من غسل الإناء سبعا، إذا ولغت فيه لا يكاد يقام به، ولا يكاد يتحفظ منه؛ لأن متخذها لا يسلم من ولوغها في إنائه، ولا يكاد يؤدي حق الله في عبادته في الغسلات من ذلك الولوغ، ويدخل عليه الإثم والعصيان؛ فيكون ذلك نقصا في أجره، يدخل السيئات عليه.

ثالثها: ثم قال ابن عبد البر: وقد يكون ذلك من أجل أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب، وذكره غيره على سبيل الجزم.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢١٠٦) وصحيح البخاري، حديث رقم (٣٢٢٥).

(رابعها): ثم قال ابن عبد البر: وقد يكون ذلك بذهاب أجره في إحسانه إلى الكلب؛ لأن في الإحسان إلى كل ذي كبد رطبة أجرًا، لكن الإحسان إلى الكلب ينقص الأجر فيه أو يتلفه، ما يلحق مقتنيه من السيئات بترك أدائه لتلك العبادات في التحفظ من ولوغه والتهاون بالغسلات منه، ونحو ذلك، مثل: ترويع المسلم وشبهه انتهى.

وهو قريب من الثاني إلا أنه عيّن أن الذي يبطل أجره من عمله هو الإحسان إلى الكلب دون بقية حسناته والله أعلم.

(خامسها): أن ذلك عقوبة له؛ لاتخاذها ما نُهي عن اتخاذها، وعصيانه بذلك. طرح التثريب في شرح التقریب (٢٩/٦ - ٣٠) (١).

الحقيقة العلمية:

الكلاب: سباع مدجنة، تحمل في أبدانها الكثير من الطفيليات والجراثيم، التي تسبب للإنسان أضرارًا محققة، منها على سبيل المثال:

١ - كثير من الأمراض الطفيلية وأخطرها مرض (عداري)، والتي تسببه الدودة الشريطية (أكنوكاوكاس جرانولوساس) (الشكل: ١) والتي توجد في كل مناطق العالم التي تعيش فيها الكلاب، على مقربة من الحيوانات الداجنة آكلة الأعشاب.

٢ - احتواء أمعاء الكلب على أعداد كبيرة من الديدان الشريطية، والتي تنتقل إلى الإنسان عن طريق ابتلاع بيضها الموجود في الطعام أو الماء الملوث ببراز الكلاب.

٣ - داء الكلب المعروف وبعض أنواع ديدان الليشمانيات.

(١) صحيح مسلم (٨ / ٢٣٢)، حديث رقم (٢٩٤٨).

٤ - مرض الكيسة المائية الكلبية، والتي تكون الكلاب فيها هي السبب الغالب في إصابة الإنسان وحيواناته الأليفة التي تتغذى على الجيف؛ ذلك لأن الكلب ينظف أسنانه بلسانه؛ فينقل بيوض ديدان (الشريطية المكورة المشوكة)، والتي تعيش في أمعائه إلى الإنسان عن طريق الطعام أو الماء الملوث بها؛ وتسبب له (داء الكيسات المائية الخطير) (شكل ٢).



شكل ٢: دودة الكلب الشريطية المسببة للكيسة المائية



شكل (١)

وجه الإعجاز:

عندما نهى رسول ﷺ عن اقتناء الكلاب إلا لضرورة، لم يخطر ببال أحد ما تحمله الكلاب من جراثيم وطفيليات، تسبب الضرر لمن يخالطها، والتي لم يعرفها العلماء إلا بعد تطور علم الطب في القرون المتأخرة؛ مما يدل على أن كلام النبي ﷺ بهذا الخصوص معجز.

كما ندرك السر في قوله ﷺ: طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب^(١).

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٧٩)، حديث رقم (٢٨٠)، وسنن أبو داود، حديث رقم (٧١).



التمر غذاء وشفاء

إن التمر من أنفع الأغذية للإنسان وفي بعض أنواعه شفاء. فعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن في عجوة العالية شفاء، أو إنها ترياق أول البكرة»^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تصبَّح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سُمٌّ ولا سِحْرٌ»^(٢).

الدلالة النصية:

قوله: (العالية) هي ما كان من الحوائط والقرى والعمارات من جهة المدينة العليا مما يلي نجد، أو السافلة من الجهة الأخرى مما يلي تهامة، قال القاضي: وأدنى العالية ثلاثة أميال، وأبعدها ثمانية من المدينة.

والعجوة نوع جيد من التمر، وفي هذه الأحاديث فضيلة تمر المدينة وعجوتها، وفضيلة التصبُّح بسبع تمرات منه، وتخصيص عجوة المدينة دون غيرها، وعدد السبع من الأمور التي علمها الشارع، ولانعلم نحن حكمتها، فيجب الإيمان بها واعتقاد فضلها والحكمة فيها، وهذا كأعداد الصلوات ونُصَب الزكاة^(٣).

قوله: (من تصبَّح): أَكَلَهُنَّ وقتَ الصبح قبل أن يأكل شيئاً. والعجوة: نوع من التمر يكون بالمدينة. والعالية: مكان قريب من المدينة.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٣٨١٥).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري، حديث رقم (٥٤٤٥)، صحيح مسلم، حديث رقم (٣٨١٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/١٤).



قال أبو سليمان الخطابي: «وكونها عوذة من السم والسحر إنما هو من طريق التبرك لدعوة من الرسول سبقت فيها، لا لأن من طبع التمر أن يصنع شيئاً من ذلك»^(١).

وهي أجود تمر المدينة ويسمونه: لينة، وقيل: هي أكبر من الصيحاني يضرب إلى السواد^(٢).

الحقيقة العلمية:

يتعرض الجسم البشري يومياً لعدة أنواع من السموم منها:

✿ السموم الخارجية: والتي يمكن أن تتمثل في:

- (أ) لدغ العقارب والحيات والهُوام.
 - (ب) التسمم بالمواد السامة عن طريق الفم أو الأنف أو الجلد.
 - (ج) التسمم الناتج عن بعض العقاقير والأدوية.
- كما يتعرض لعدة أنواع من السموم التي تنتج داخل الجسم.

✿ السموم الداخلية ومنها:

(أ) سموم مفرزة من كائنات حية دقيقة، مثل: السموم التي تُفرز من أنواع كثيرة من الجراثيم، كما في مرض التيفود والخنق وجراثيم التسممات الغذائية.

(ب) السموم الناتجة من عمليات التمثيل الغذائي، وما ينتج عنها من تفاعلات كيميائية معقدة داخل بعض أجهزة الجسم، كما في الكبد والكليتين.

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/٢٣٥).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٧١/٢١).

❁ مكونات التمر:

تحتوي التمور على نسبة عالية من السكريات، تزيد عن ٨٥٪ من وزنها الجاف، فالجلوكوز يكون ٣٨٪، والفركتوز يكون ٣٥٪.

والجلوكوز والفركتوز: سكريات تولد الطاقة التي تستخدم في تسيير كثير من التفاعلات الحيوية التي تجري داخل الخلايا، والفركتوز يتميز بعدم احتياجه إلى أنسولين عند استخدامه في إنتاج الطاقة، وبالتالي لا يُمثّل عبئاً على مرضى السكر، كما يحتوي على البروتينات ٢،٢٪، والدهون حوالي ٤٪، كما تحتوي التمور على حوالي ٧٪ من وزنها ألياف ولها دورها في منع أمراض سوء الهضم والإمساك، وأمراض القولون، كما أن لها تأثيراً جيداً على تقليل نسبة الكوليسترول في الدم، وتحمي من تصلب الشرايين.

كما تحتوي التمور على كميات من الأملاح المعدنية والعناصر النادرة، حيث أطلق عليها لقب مَنجَم، لغناها بالمعادن.

فتناول ١٠٠ جم من التمر يمد جسم الإنسان بكامل احتياجاته، من كل من المغنيسيوم والمنجنيز والنحاس والكبريت، وبنصف احتياجاته من الحديد، وربع احتياجاته من كل من الكالسيوم والبوتاسيوم.

ويحتوي التمر على كمية من الحديد أكبر من كمية النحاس والزنك. واحتواء التمر على العناصر المعدنية الصغرى بكميات مناسبة، بالإضافة لاحتوائه على نسبة عالية من البوتاسيوم والصوديوم يعكس أهميته الغذائية للبشر. فالعناصر المعدنية: خاصة (البوتاسيوم) يساعد في القدرة على التفكير.

و(الفوسفور) يساعد على انتظام نبضات القلب ونقل الإشارات العصبية. و(الحديد) الذي يدخل في تكوين هيموجلبين الدم. (والكالسيوم) الذي يدخل في تكوين العظام والأسنان، وله دور مهم في مقاومة التسمم بالرصاص.

كما تحتوي ثمار البلح على عنصر (اليود) الذي ينشط الغدة الدرقية والهرمون الخاص بها. كما يوجد في التمر مجموعة من الفيتامينات نذكر منها:

فيتامين أ: وهو فيتامين ضروري للإبصار، ونقصه يؤدي إلى مرض «العشى الليلي»، وهو مهم لسلامة وصحة الجلد، يدخل في عمليات التمثيل الغذائي داخل الخلايا.

فيتامين د: مضاد لمرض الكساح، يحافظ على تركيز الكالسيوم في الدم، له دور في حركة العضلات والفعل الحيوي للغدد.

فيتامين ب ١: (الثيامين): ضروري للمحافظة على سلامة الأعصاب، نقصه يؤدي إلى فقدان الشهية والإصابة بمرض البري بري.

فيتامين ب ٢: (الريبوفلافين): يدخل في تركيب كثير من الأنزيمات، ليشارك في عمليات الأكسدة الحيوية، نقصه يؤدي إلى تشققات في زوايا الفم.

فيتامين ب ٣: (حمض النيكوتينيك أو النياسين): يقي من مرض البلاجرا، نقصه يؤدي إلى اضطراب الأعصاب والصداع وضعف الذاكرة.

حمص البانثوثينيك: فيتامين مضاد للإجهاد، ويساعد في عمليات التمثيل الغذائي، نقصه يؤدي إلى اضطراب في عمليات التمثيل الغذائي، وتساقط شعر الرأس.

حمص الفوليك: وهو العامل المضاد للأنيميا الحادة، يلعب دورا هاما في تخليق الأحماض النووية، يقي من مرض تصلب الشرايين.

وجه الإعجاز:

لقد أثبتت التجارب أن للعجوة أثرا فعالا في منع آثار السم والسحر؛ مما يتطابق مع خبر الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فكان في ذلك شاهدا من شواهد الإعجاز العلمي في السنة الشريفة.

الخمير داء وليست بدواء

عن علقمة بن وائل عن أبيه وائل الحضرمي أن طارق بن سويد الجعفي: سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها؛ فقال إنما أصنعها للدواء؛ فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء»^(١).



عن طارق بن سويد الحضرمي قال قلت: يا رسول الله إن بأرضنا أعنابا نعصرها أفنشرب منها؟ قال: «لا»، فراجعته فقال: «لا»، ثم راجعته فقال: «لا»، فقلت: إنا نستشفى بها للمريض، قال: «إنه ليس بشفاء ولكنه داء»^(٢). قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٣٦٧٠).

(٢) مسند أحمد بن حنبل، حديث رقم (٢٢٥٥٥).

سأل طارق بن سويد الخضري النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن الخمر يجعل في الدواء، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه ليس بدواء ولكنه داء» أخرجه مسلم^(١).

وفي رواية أخرى لطارق بن سويد قال: يا رسول الله إن بأرضنا أعنابا نعصرها فنشرب منها قال: «لا»، فعاودته، فقال: «لا»، إنا نستشفى بها للمريض. قال: «إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء» أخرجه أحمد وابن حبان^(٢).

الدلالة النصية:

قوله: (سأل النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخمر) أي: عن شربها أو صنعها.

قوله: (فنهاه) أي: عنها.

قوله: (فقال: إنما أصنعها) أي: أشغلها أو أستعملها للدواء.

قوله: (فقال: إنه) أي: الخمر ليس بدواء، لكنه داء^(٣).

قال النووي: «هذا دليل لتحريم اتخاذ الخمر وتخليها، وفيه التصريح بأنها ليست بدواء فيحرم التداوي بها؛ لأنها ليست بدواء، فكأنه يتناولها بلا سبب، وهذا هو الصحيح عند أصحابنا أنه يحرم التداوي بها، وكذا يحرم شربها للعطش، وأما إذا غص بلقمة ولم يجد ما يسيغها به إلا خمرًا؛ فيلزمه الإساعة بها؛ لأن حصول الشفاء بها حينئذ مقطوع به بخلاف التداوي^(٤)». والله أعلم.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٩٨٤).

(٢) مسند أحمد، حديث رقم (١٨٧٨٧)، قال مخرجه: (حديث صحيح)، وانظر تخريجه فيه مفصلاً.

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري (٦ / ٢٣٨٥).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ٤٨٣).

الحقيقة العلمية :

يقول تقرير منظمة الصحة العالمية رقم ٦٥٠ لعام ١٩٨٠ عن الكحول ومشاكلها: «إن شرب الخمر يؤثر على الصحة، ويؤدي إلى مشاكل تفوق المشاكل الناتجة عن الأفيون ومشتقاته، والأضرار الصحية والاجتماعية لتعاطي الكحول تفوق الحصر».

يقول الدكتور برنت في كتاب مواضيع في العلاج، إصدار الكلية الملكية للأطباء بلندن: «لم يكتشف الإنسان شيئاً شبيهاً بالخمر، في كونها باعثة على السرور الوقتي، وفي نفس الوقت ليس لها نظير في تحطيم حياته وصحته.. ولا يوجد لها مثل في كونها مادة للإدمان وسماً ناقعا وشرا اجتماعيا خطيراً».

يقول كتاب ألف باء الكحول، إصدار المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٨٨: «إن ما بين خمُسٍ وثُلث جميع الحالات التي أدخلت إلى الأقسام الباطنية في بريطانيا كانت بسبب الكحول. وفي إنجلترا وحدها يدخل إلى الأقسام الباطنية ما بين ثلاثمائة ألف شخص ونصف مليون سنويا؛ بسبب تعاطي الخمر. وفي السويد أثبتت دراسة أن ٢٩٪ من جميع أيام دخول المستشفيات كانت بسبب تعاطي الخمر».

✿ الخمر والجرائم:

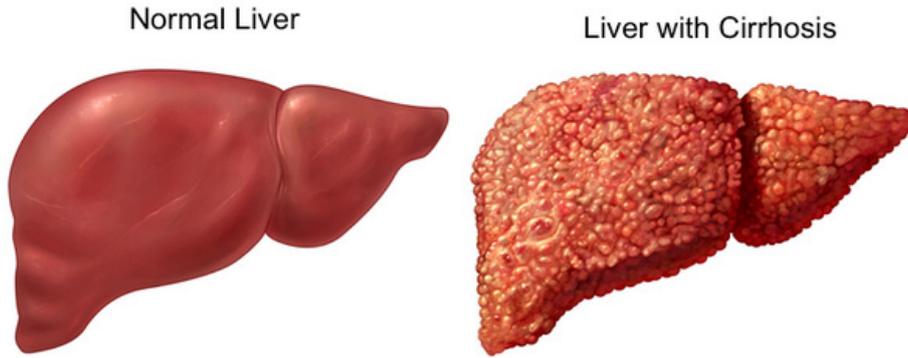
يذكر تقرير الصحة العالمية عن جرائم العنف في ٣٠ قطراً: أن ٨٦٪ من جرائم القتل، و ٥٠٪ من جرائم الاغتصاب تتم تحت تأثير الخمر (الديلي ميل ٢٦ يونيه ١٩٨٠)، وتذكر دائرة المعارف البريطانية (الطبعة ١٥): أن معظم حالات الاعتداء على الأطفال ونكاح المحارم كان تحت تأثير الكحول.

أما الوفيات الناتجة عن الخمر والمخدرات فحدث عنها ولا حرج في المجتمعات الغربية.

❁ الخمر والهضم:

تؤدي الخمر إلى زيادة حدوث سرطان المرئ كما تسبب نزفا في المرئ ودوالي في أسفله والتهابا مزمنيا فيه. وتكثر الإسهالات عند شارب الخمر، كما قد يحدث التهابا حادا في البنكرياس الذي قد يكون مميتا.

لقد دلت الدراسات التي أجريت على طلاب كلية الطب: أن تناول ١٨٠ جراما من الكحول يوميا كاف لتسبب دهنية الكبد. ويعتبر تليف الكبد السبب الثالث للوفاة لدى البالغين الذكور في الولايات المتحدة والرابع لدى الإناث.



مرض تليف الكبد

❁ الخمر والقلب:

أثبتت الدراسات العديدة أن شرب الخمر تحرّض على حدوث نوبة الذبحة الصدرية، وأن معظم حالات موت الفجأة، واضطراب نظمية القلب كانت بسبب شرب الخمر.

وقد أوضحت دراسة شملت أكثر من ألفي شخص توفوا فجأة: أن نصفهم ماتوا بعد انغماس في شرب الخمر.

وأظهرت دراسة أخرى: أن شرب الخمر قد أدى إلى رجفان (ذبذبة) أذيني لدى ٦٣ بالمئه من المرضى دون الخامسة والستين، وأن شرب ما يعادل ستة كاسات من البيرة تؤدي إلى مضاعفة حدوث اضطراب نظم القلب.

وتقول مجلة اللانست الطبية المقال الافتتاحي (العدد الثاني لعام ١٩٨٧):
«إن على الأطباء تبليغ رسالة واحدة للناس وهي: أن الخمر ضار بالصحة، وتؤدي إلى حدوث الذبحات الصدرية وجلطات القلب واضطراب نظمية القلب وموت الفجأة».

✿ الخمر والجنس:

وما أصدق رسولنا الكريم ﷺ وهو يقول: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(١)، أخرجه البخاري ومسلم، ويقول ﷺ: «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر. ومن شرب الخمر ترك الصلاة، ووقع على أمه وخالته وعمته»^(٢). قال الهيثمي: رواه الطبراني. وعتاب لم أعرفه، وابن لهيعة حديثه حسن وفيه ضعف^(٣).

تقول منظمة الصحة العالمية ودائرة المعارف البريطانية: «إن ٥٠ بالمئة من جميع جرائم الاغتصاب، ومعظم حالات الاعتداء على المحارم كانت تحت تأثير الخمر».

✿ المرأة والخمر:

* اضطراب الدورة، وكثرة الإجهاض، وولادة أجنة ناقصة.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٤٧٥)، وصحيح مسلم، حديث رقم (٥٧).

(٢) أخرجه الطبراني، المعجم الكبير للطبراني (١٣ / ٦٢)، حديث رقم (١٥٤).

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥ / ٦٨).

* متلازمة الكحول للأجنة: صغر الدماغ والفكين والتخلف العقلي والبدني، وصغر حجم العينين مع عيوب خلقية في الخلق. كما أن جسم المرأة لا يحتمل نصف الكمية التي يتعاطاها الرجل من الكحول.

❁ الخمر والجهاز البولي:

* تدر البول. ولكنها تؤدي إلى تدمير حليمات الكلية، وهو مرض خطير يؤدي إلى الفشل الكلوي المزمن.
* احتقان البروستاتا وتضخمها.

❁ حالات التسمم الحاد:

* تشوش الذهن، تلثم الكلام، تخلج المشي، الرأفة لمقلة العين، حوادث السيارات، وجرائم العنف، نوبات الصرع، وفقدان الوعي.
* آثار التوقف الفجائي (سحب العقار للمدمن) الهذيان الارتعاشي Delerium Tremens.
* الهلوسات السمعية والبصرية.
* الإلتانات والحمى.
* وفاة ٢٥ بالمائة من الحالات.

❁ وجه الإعجاز:

لقد أبان العلم عن ألوان من الأضرار يسببها تعاطي الخمر لم يكن يعرفها أحد، وهذا لا يدع مجالاً للشك لدى كل عاقل منصف أن تحريم الشريعة الإسلامية لشرب الخمر وتعاطيها هو الحق الذي لا مَرِيَّةَ فيه، وهي أن الله شرع تحريمها لمصلحة عباده، ليجلب لهم المنافع ويدفع عنهم المفسدات. ويأتي العلم اليوم ليؤكد تلك الحقيقة.

الزيتون وزيته والطب الحديث

شجرة الزيتون شجرة مباركة، أقسم الله تبارك وتعالى بها حين قال: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ ۝ وَطُورِ سَيْنِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

كما أشار الله تبارك وتعالى إلى فوائد تلك الشجرة بقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]: جاء في تفسير الخازن «تنتبت بالدهن» أي: تنتبت وفيها الدهن، وقيل تنتبت بثمرة الدهن وهو الزيت.



الدلالة النصية:

قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت»: أي: مع الخبز واجعلوه إداما، فلا يرد أن الزيت مائع فلا يكون تناوله أكلا.

قوله: «وادهنوا به»، أمرٌ من الادّهان بتشديد الدال، وهو استعمال الدهن، فنزل منزلة اللازم.

ويقال ادهن رأسه على افتعل أي طلاه بالدهن.

ولا يخفى أنه لا يختص بالرأس، ولا يشترط التولي بالنفس، والأمر هنا للاستحباب لمن قدر عليه، ويؤيده تعليقه - ﷺ - بقوله: (فإنه) أي: الزيت يحصل (من شجرة مباركة). يعني: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

ثم وصفها بالبركة لكثرة منافعها وانتفاع أهل الشام بها كذا قيل، والأظهر لكونها تنبت في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، قيل بارك فيها سبعون نبيا منهم: إبراهيم - عليه السلام - وغيرهم، ويلزم من بركة هذه الشجرة بركة ثمرتها، وهي الزيتون، وبركة ما يخرج منها وهو الزيت، وكيف لا وفيه التأدم والتدهن، وهما نعمتان عظيمتان، وفيه تسريح القناديل في المساجد الثلاثة، فما أبركها زمانا ومكانا^(١).

الحقيقة العلمية:

يعتبر زيت الزيتون أفضل مادة دهنية لمعالجة أمراض القلب وتصلب الشرايين، وله أثر فعال في الوقاية من الحموضة وقرحة المعدة، وله تأثير إيجابي على مرضى السكر، وعلاج للذين يعانون من السممة المفرطة، ويساعد زيت الزيتون الجسم على تحمّل الضغوط النفسية والإرهاق، ويزيد من مناعة الجسم ضدّ الأمراض، ويقوي الشرايين والأوعية الدموية. وهو ملطّف وملين ومدبّر للصفرء ومفتّت للحصى، ومفيد لمرضى السكري.

✿ زيت الزيتون والكوليسترول:

يحتوي زيت الزيتون على فيتامين هـ (E) المعروف بدوره المضاد للأكسدة. وترجع الفوائد الصحية لزيت الزيتون إلى غناه بمضادات الأكسدة، وبالأحماض

(١) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري (٧/ ٢٧٢٠).

الدهنية اللامشبعة الوحيدة، وقد بينت نتائج الأبحاث: أن زيت الزيتون يخفض مستوى الكولسترول الكلّي، والكولسترول الضار، دون أن يؤثر سلبيًا على الكولسترول المفيد، وبالتالي يمكنه أن يقي من حدوث تصلب الشرايين.

❁ زيت الزيتون والسرطان:

أظهرت العديد من الدراسات: أن هناك تناسبًا عكسيًا بين تناول زيت الزيتون وبين حدوث عدد من الأورام السرطانية، حيث وجد أن هناك علاقة وثيقة بين تناول زيت الزيتون وانخفاض معدل حدوث سرطان الثدي والمعدة. وأن تناول الزيت يقي من عدد كبير من السرطانات.

وتشير الإحصاءات: أن استعمال زيت الزيتون في الغذاء يخفض الإصابة بسرطان الثدي ٣٥٪. وتعتبر أسبانيا أقلّ البلاد في إصابة سرطان الثدي لدى النساء.



سرطان الثدي

وأثبتت دراسات أخرى: بأن تناول زيت الزيتون والفواكه والخضراوات يمكن أن يقي من بعض أنواع السرطان، كسرطان القولون، وسرطان الرحم، وسرطان المبيض.

وجه الإعجاز:

لقد أثبتت الأبحاث الطبية والكيميائية الحيوية في السنوات الأخيرة فوائد جمّة لزيت الزيتون، بينما كان اعتقاد الأطباء وغيرهم حتى وقت قريب: أن زيت الزيتون لا يختلف عن كثير من الزيوت من حيث الفوائد والمضار، وتلك الفوائد تشمل النواحي الغذائية والعلاجية.

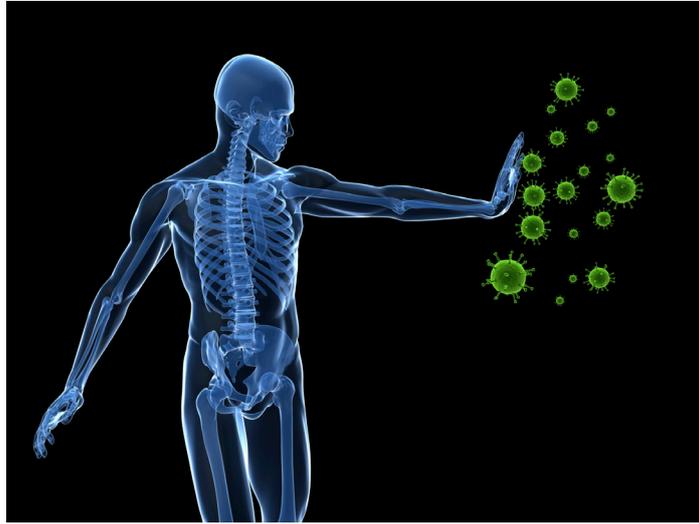
ونحن نلاحظ كل يوم اكتشاف المزيد من تلك الفوائد الوقائية والعلاجية لهذا الزيت المبارك، مما يتطابق مع ما أخبرنا به رسول الله ﷺ، فكان في ذلك مثالاً آخر من أمثلة الإعجاز العلمي.. والله أعلم..



الصيام الشرعي سهل ميسور

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى الصوم على سبيل السهولة واليسر، فإنه ما أوجبه إلا في مدة قليلة من السنة، ثم ذلك القليل ما أوجبه على المريض ولا على المسافر وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر والسهولة^(١).



الصيام يقوي المناعة ضد الأمراض

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٥ / ٢٥٨).

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾.

اليسر في اللغة: معناه السهولة، ومنه يقال للغنى والسعة: اليسار، لأنه يسهل به الأمور، واليد اليسرى قيل تلي الفعال باليسر، وقيل إنه يتسهل الأمر بمعونتها اليمنى. واليسر عمل لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم، والعسر ما يجهد النفس ويضر الجسم. وفيه إعلام برفق الله بالأجسام التي يسر عليها بالفطر^(١).

قوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ فلم يجعل الصيام عزيمة على الكل، ولم يزد على شهر.

وفيه إشعار لأهل القوة بأن اليسر في صومهم، وأن العسر في فطر المفطر. ولما كانت علة التيسير المؤكد بنفي التعسير الإطاقة فكان التقدير: لتطبيقوا ما أمركم به ويخف عليكم أمره^(٢).

الحقيقة العلمية:

تشير الدراسات العلمية المحققة في مجال وظائف أعضاء الجسم أثناء مراحل التجويع، إلى يسر الصيام الإسلامي وسهولته، فالصيام الإسلامي صيام سهل ميسور للأصحاء المقيمين، لا مشقة فيه على النفس، ولا ضرر يلحق الجسم من جرّائه، وذلك على وجه القطع واليقين. وتتمثل مظاهر يسر الصيام في النقاط التالية:

❁ يعتبر الصيام الإسلامي تمثيلاً غذائياً فريداً؛ إذ يشتمل على مرحلتي البناء والهدم، فبعد وجبتي الإفطار والسحور، يبدأ البناء للمركبات الهامة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٥ / ٢٥٨)، وانظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٣/٦٢ - ٦٣).

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٣/٦٢ - ٦٣).

في الخلايا، وتجديد المواد المخترنة، والتي استهلكت في إنتاج الطاقة، وبعد فترة امتصاص وجبة السحور، يبدأ الهدم، فيتحلل المخزون الغذائي من الجليكوجين والدهون، ليمد الجسم بالطاقة اللازمة، أثناء الحركة والنشاط في نهار الصيام.

✽ يتراوح الصيام الإسلامي من ٨ - ١٣ ساعة، وهذه الفترة تقع على وجه القطع في الفترة التي سماها العلماء فترة ما بعد الامتصاص، والتي تتراوح من ٦ - ١٢ ساعة، وقد تمتد إلى ٤٠ ساعة، ويعتبر العلماء هذه الفترة أمانا كاملا، ولا يحصل منها أي ضرر على الإطلاق للجسم، بل على العكس يستفيد الجسم منها فوائد عديدة.

لذلك كان تأكيد، النبي ﷺ، على ضرورة تناول وجبة السحور، لإمداد الجسم بوجبة بناء يستمر لمدة ٤ ساعات، محسوبة من زمن الانقطاع عن الطعام، وبهذا أيضا يمكن تقليص فترة ما بعد الامتصاص إلى أقل زمن ممكن.

كما حث النبي ﷺ، على تعجيل الفطر، وتأخير السحور، بتقليص فترة الصيام أيضا إلى أقل حد ممكن، حتى لا يتجاوز فترة ما بعد الامتصاص بوقت طويل، وبالتالي فإن الصيام الإسلامي لا يسبب شدة، ولا يشكل ضعفا نفسيا ضارًا على الجسم البشري، بحال من الأحوال.

عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «تسحروا فإن في السحور بركة» متفق عليه^(١) وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» متفق عليه^(٢).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (١٩٢٣)، وصحيح مسلم، حديث رقم (١٠٩٥).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (١٠٩٨).

❁ يوجد مخزون من الطاقة في الجسم البشري يكفي الإنسان حينما يمتنع عن تناول الطعام امتناعاً تاماً لمدة شهر إلى ثلاثة شهور، لا يتناول فيها أيّ طعام قط.

وبناء على هذه الحقيقة يمكننا أن نؤكد: أن ما يتوقف أثناء الصيام، هي عمليات الهضم والامتصاص، وليست عملية التغذية، فخلايا الجسم تعمل بصورة طبيعية وتحصل على جميع احتياجاتها اللازمة لها، من هذا المخزون بعد تحلُّله.

ولكن مع كل هذه الإمكانية الهائلة التي هيأها الله سبحانه للجسم الإنساني لحفظ حياته عند انقطاعه التام عن تناول الطعام، فقد فرض علينا سبحانه وتعالى صياماً لا نقطع فيه عن الطعام إلا فترةً زمنية لا تتعدى - في الغالب - نصفَ يوم، فكم هي سهلة ميسورة يمكن أن يمارس فيها الصائم أشقّ الأعمال وأشدّها من غير ضرر يلحق به، أو حتى شدةٍ يتعرّض لها.

فالطاقة المحرّكة متوفرة وبكثرة، وبناء الخلايا وتجديد التالف منها لن يتأثر مطلقاً، كما أن تناول الطعام في الفطور والسحور يجدد مخزون الطاقة التي استهلكت في العمل، ويمدّد الجسمَ باحتياجاته من الأحماض الأمينية والدهنية الأساسية، والتي لا يستطيع الجسم تصنيعها بداخله، ويمده أيضاً باحتياجاته اليومية من الفيتامينات والمعادن. وتأتي ضرورة الصيام للإنسان وقايةً وعلاجاً، وتحقيقاً لمنافع وفوائد شتى.

فمن أخبر محمداً ﷺ، أن في الصيام وقايةً للإنسان من أضرار نفسية وجسدية؟ ومن أخبره أن فيه منافع وفوائد يجنيها الأصحاء، ومن أخبره ﷺ بأن الصيام أمر سهل ميسور لا يضر بالجسم ولا يجهد النفس؟ ومن أطلعه على أن كثرة الصوم تثبط الرغبة الجنسية وتخفف من حدتها وثورتها، خصوصاً عند الشباب؟! فيصير الشاب بالصيام آمناً من الاضطرابات الغريزية النفسية، ومحصّناً ضد الانحرافات السلوكية!! إنه الله جل في علاه.

❁ الصيام وقاية من العلل والأمراض:

وهناك بعض الفوائد الوقائية للصيام من كثير من الأمراض والعلل الجسمية والنفسية ثبتت بالأبحاث العلمية، منها على سبيل المثال لا الحصر:

* يقوي الصيام جهازَ المناعة؛ فيقي الجسم من أمراض كثيرة، حيث يتحسن المؤشر الوظيفي للخلايا اللمفاوية عشرة أضعاف، كما تزداد نسبة الخلايا المسؤولة عن المناعة النوعية T.Lymphocytes زيادة كبيرة، كما ترتفع بعض أنواع الأجسام المضادة في الجسم، وتنشط الردود المناعية نتيجة لزيادة البروتين الدهني منخفض الكثافة.

* الوقاية من مرض السمنة وأخطارها، حيث إنه من المعتقد أن السمنة كما قد تنتج عن خلل في تمثيل الغذاء، فقد تتسبب عن ضغوط بيئية أو نفسية أو اجتماعية، وقد تتضافر هذه العوامل جميعها في إحداث السمنة، وقد يؤدي الاضطراب النفسي إلى الخلل في التمثيل الغذائي.

وكل هذه العوامل التي يمكن أن تنجم عنها السمنة، يمكن الوقاية منها بالصوم، فهو يحقق الآتي: الاستقرار النفسي والعقلي، الذي يجنيه الصائم نتيجةً للجو الإيماني الذي يحيط به، وكثرة العبادة بالذكر، وقراءة القرآن، وتوجيه الطاقات النفسية والجسمية توجيهها إيجابيا نافعا.

هذا فضلا عن تأثير الصيام المثالي في استهلاك الدهون المخترنة، ووقاية الجسم من أخطار أمراض السمنة، كأمراض القلبية الوعائية، مثل قصور القلب، والسكتة القلبية، وانسداد الشرايين المحيطة بالقلب، ومرض تصلب الشرايين.

* يقي الصيام الجسم من تكون حصيات الكلى، إذ يرفع معدل الصوديوم في الدم، فيمنع تبلور أملاح الكالسيوم. كما أن زيادة مادة البولينا في البول، تساعد في عدم ترسب أملاح البول، التي تكون حصيات المسالك البولية.

* يقي الصيامُ الجسمَ من أخطار السموم المتراكمة في خلاياه، وبين أنسجته، من جرّاء تناول الأطعمة، خصوصاً المحفوظة والمصنعة منها، وتناول الأدوية، واستنشاق الهواء الملوث بهذه السموم.

* الصيامُ يخفف ويهدئ ثورة الغريزة الجنسية، خصوصاً عند الشباب، وبذلك يقي الجسمَ من الاضطرابات النفسية والجسمية، والانحرافات السلوكية. والإكثار من الصوم مع الاعتدال في الطعام والشراب، وبذل الجهد المعتاد، يجني الشابُ فائدته في تثبيط غرائزه المتأججة بيسر.

❁ منافع وفوائد الصيام:

أخبرنا الله جل في علاه أن في الصيام خيراً للأصحاء، رخص للمرضى والمسافرين، وكبار السن ومن في حكمهم بالفطر في رمضان، فقال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ومع ذلك لم يحجب عن عباده فوائد الصيام، حتى مع المشقة، وفي علاج العديد من الأمراض، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٤].. أي تعلمون فضيلة الصوم وفوائده.

وجه الإعجاز:

لقد أشارت الآية السابقة إلى فوائد الصوم ومنافعه، وتجلت هذه المنافع والفوائد في زماننا هذا للعلماء، بعد قيامهم بتجارب ميدانية ومشاهدات سريرية، التي سبق ذكر نتائجها، مما يعني تطابق دلالة النص الشرعي مع تلك الحقائق العلمية المستقرة.

التغيرات الحيوية والفسولوجية خلال الصيام، وحكمة النهي عن وصال الصيام

قال الله سبحانه وتعالى ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، في هذه الآية يظهر لنا التوجيه الرباني لهذه البشرية ورحمة الله بعباده فيوجههم لما فيه سلامة أجسامهم وصحتهم، حيث يشير إلى عدم الوصال في الصيام.



ثم يأتي النهي من متلقي الوحي الذي لا ينطق عن الهوى، فعن أبي هريرة قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الوصال»، قالوا: فإنك تواصل، قال: «أَيْكُمْ مِثْلِي، إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقين»، فلما أبوا أن ينتهوا، واصل بهم يوماً، ثم يوماً، ثم رأوا الهلال فقال: «لو تأخر لزدتكم كالمَنكَلِ لهم» متفق عليه^(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ، يقول: «لا تواصلوا، فأيكم إذا أراد أن يواصل، فليواصل حتى السحر»، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله قال: «إني لست كهيتكم، إني أبيت لي مطعمٌ يطعمني، وساقٍ يسقين»^(٢).

الحقيقة العلمية:

النصوص السابقة من الكتاب والسنة تنهى عن الوصال في الصيام، حيث يترافق الصيام في رمضان مع تغيرات هرمونية في جسم الصائم، تهدف إلى المحافظة على تزويد خلايا الجسم بحاجتها من الطاقة الحيوية اللازمة؛ للقيام بالوظائف الحيوية والفسولوجية المختلفة.

إذ يقل منسوب هرمون الأنسولين بعد ساعات من تناول وجبة السحور، ويبدأ بعدها هرمون الجلوكاجون بالارتفاع، ليضمن المحافظة على منسوب سكر الدم «الجلوكوز»، ضمن مستوياته الطبيعية، من خلال القيام بعمليات تحلل الجليكوجين حين يبدأ الجسم بالتحول إلى الاعتماد على أكسدة الأحماض الدهنية الموجودة في الأنسجة الدهنية لإنتاج الطاقة الغذائية.

لذا يزداد اعتماد الجسم على أكسدة الأحماض، وإنتاج الأجسام الكيتونية لمصدر الطاقة، والتي يؤدي ارتفاع منسوبها في الدم وتراكمها في الجسم إلى حصول تغيرات سلبية على صحة الجسم وحيويته.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٧٢٤٢)، صحيح مسلم، حديث رقم (١٨٤٦).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (١٩٦٣).

وجه الإعجاز:

ظهر لنا من خلال النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، أن الحقيقة العلمية اتفقت مع الدلالة الشرعية إذ إن الدلالة الشرعية نصت على عدم الوصال في الصيام إذ كان النهي واضحاً من خلال قوله ﷺ: «لا تواصلوا، فأيكم أراد الوصال فليواصل حتى السحر».

وجاءت الحقيقةُ تبين: أن مرحلة الصيام «الطويل» تؤول إلى تطور الأعراض السلبية، والمتمثلة في زيادة تركيز الأجسام الكيتونية وزيادة حموضة الدم، كما أنها تؤول إلى لجوء الجسم إلى استخدام العضلات كمصدر للأحماض الأمينية المنتجة للجلوكوز من خلال عملية تصنيع الجلوكوز من غير مصادرة السكرية، التي تؤدي إلى حصول الهزال، وضمور العضلات، وضعف الجسم العام. فظهر التطابق بين الحقيقة العلمية والنصوص الشرعية في أجمل صور الإعجاز المبهرة.





العسل والطب الحديث

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

الدلالة النصية:

في قوله سبحانه وتعالى: ﴿... شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

تنبه على الخصائص العلاجية للعسل المعروفة وغير المعروفة التي لا زال العلماء والباحثون يكتشفونها.

وأقف هنا أمام دقة التعبير القرآني فهو دال على أن العسل وإن كان فيه خواص علاجية كثيرة إلا أنه ليس شفاءً لجميع الأدوية، ولا يلائم كلَّ الحالات وذلك ثابت علمياً.

ولفظه (شفاء) نكرة في سياق الإثبات، فهي لا تقتضي العموم، ويبقى لفظ «الناس» على عمومته، مع وجود الأحوال العارضة؛ لأنه لولا العارض لكانت الأمزجة كلها صالحة للاستشفاء بالعسل.

وعلى هذا الاعتبار يُحتمل ما جاء في الحديث الذي في الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً». فذهب فسقاه عسلاً. ثم جاء، فقال: يا رسول الله: سقيته عسلاً

فما زاده إلا استطلاقا قال: «أذهب فاسقه عسلا»، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء، فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا. فقال رسول الله: «صدق الله وكذب بطن أخيك» فذهب فسقاه عسلا فبرىء .

إذ المعنى أن الشفاء الذي أخبر الله عنه بوجوده في العسل ثابت، وأن مزاج أخي السائل لم يحصل فيه معارض ذلك، كما دل عليه أمر النبي ﷺ إياه أن يسقيه العسل، فإن خبره يتضمن أن العسل بالنسبة إليه باق على ما جعل الله فيه من الشفاء^(١).

ومما يدل أيضا على أن في العسل شفاءً ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم - أو: يكون في شيء من أدويتكم - خير، ففي شَرْطَةِ مَحْجَمٍ، أو شربة عسل، أو لدعة بنار توافق الداء، وما أحبُّ أن أكتوي».

الحقيقة العلمية:

لقد أكدت الدراسات المخبرية والسريية: أن العسل فعّال تجاه عدد واسع من الجراثيم، ويؤمّن تنظيفا ذاتيا سريعا للجرح، ويزيل الرائحة منه، ويحفز نمو الأنسجة التي تلتئم بها الجروح.

وإن خصائص العسل المضادة للالتهاب تخفف آلام الجروح بسرعة، كما تخفف من الودمة المحيطة بالجرح، ومن خروج السوائل منه، وتقلل من ظهور الندبات بعد شفاء الجروح.

يقول البروفيسور مولان: «إن كل أنواع العسل تعمل في قتل الجراثيم، رغم أن بعضها قد يكون أكثر فعالية من غيرها، وأن العسل يمنع نمو الجراثيم، ويقضي على تلك الجراثيم الموجودة في الجروح».

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٢٠٩/١٤).

وأشارت الأبحاث العلمية إلى أن خواص العسل الفيزيائية والكيميائية (مثل درجة الحموضة والتأثيرات الإسموزية) لها دور كبير في فعاليته القاتلة للجراثيم. كما يمتلك العسل خواصًا مضادةً للالتهابات، ويحفز الاستجابات المناعية داخل الجرح، والنتيجة النهائية هي أن العسل يقاوم الإلتان الجرثومي، ويحفز الالتئام في الجروح والحروق والقروح..

❁ تأثير العسل على الجهاز الهضمي:

روى البخاري بسنده عن النبي ﷺ: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إنَّ أخي استُطْلِقَ بطنُهُ فقال رسولُ الله ﷺ: «اسْقِهِ عَسَلًا» فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلًا»، فَقَالَ: لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ» فَسَقَاهُ فَبَرَأَ^(١).

وقد نشرت المجلة الطبية البريطانية BMJ الشهيرة، عام ١٩٨٥ دراسة على (١٦٩) طفلاً، قد أصيبوا بالتهاب المعدة والأمعاء، وأعطى (٨٠) طفلاً منهم المحلول العادي مضافاً إليه (٥٠) مل من العسل، بدلاً من سكر العنب (الجلوكوز). فوجد الباحثون أن الإسهال الناجم عن التهاب المعدة والأمعاء استمر (٩٣) ساعة عند الذين لم يعطوا العسل، في حين شفي الذين أعطوا العسل في وقت أقصر (٥٨ ساعة).

كما ثبت أن للعسل دورًا في علاج التهاب القولون، كما أفاد العسل في علاج سرطان الثدي:

لقد حبا الله سبحانه عسل النحل بكميات وافرة من مضادات الأكسدة التي تحمي الجسم من أخطار الذرات الحرة، وللعسل تأثير قاتل للجراثيم، ومضاد

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٢١٧) بلفظه، وصحيح البخاري، حديث رقم (٥٦٨٤).

للفطريات، ومضاد للأكسدة، ويتمتع بقيمة غذائية عالية، لذلك يستفيد منه كلُّ الناس وقاية وعلاجاً وورود كلمة شفاء نكرة غير معرفة بالألف واللام تفيد بوضوح أن في العسل نسبةً من الشفاء، تزيد وتنقص، حسب طبيعة كل مرض وكل مريض. وهذا عين ما أثبتته الأبحاث العلمية الحديثة؛ لذلك لا بد من إعمال العقل والفكر في مخرجات النحل من العسل بأنواعه العديدة وألوانه المختلفة، وما فيه من مركبات دقيقة مفيدة، وكذلك كل ما يخرج من بطون النحل وأثره على تحقيق هذه النسبة من الشفاء في الأمراض العديدة؛ لذلك ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وجه الإعجاز:

إن الأسرار العلمية والحقائق التي كشفها لنا العلم الحديث عن العسل وأهميته الغذائية والعلاجية قد أشار إليها القرآن الكريم قبل اكتشافها بأكثر من أربعة عشر قرناً. ألا يدل ذلك على أنه وحي السماء الخاتم!!

أيها المرضى اليائسين لا تجزعوا ولا تحزنوا، فالحل في كتاب ربكم، هلموا إلى صيدلية السماء، ففيها والله الشفاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»^(١).



(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٦٧٨).

الغضب وآثاره الخطيرة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيمِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].
عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مراراً، قال: «لا تغضب» رواه البخاري^(١).



الدلالة النصية:

قال الخطابي معنى قوله لا تغضب: اجتنب أسباب الغضب، ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب، فلا يتأتى النهي عنه؛ لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجبلة.

وقال غيره: ما كان من قبيل الطبع الحيواني لا يمكن دفعه، فلا يدخل

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٦١١٦).

في النهي؛ لأنه من تكليف المحال، وما كان من قبيل ما يُكتسب بالرياضة، فهو المراد.

وقيل معناه لا تغضب، لأن أعظم ما ينشأ عنه الغضب الكبر، لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده؛ فيحمله الكبر على الغضب، فالذي يتواضع حتى يذهب عنه عزة النفس يَسَلِّمُ من شر الغضب.

وقيل معناه لا تفعل ما يأمرك به الغضب.

وقال ابن بطال: إن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوة.

وقال غيره لعل السائل كان غضوبا، وكان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر كل أحد بما هو أولى به؛ فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب.

وقال ابن التين: جمع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله لا تغضب خير الدنيا والآخرة؛ لأن الغضب يؤول إلى التقاطع ومنع الرفق، وربما آل إلى أن يؤذي المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين.

وقال البيضاوي: لعله لما رأى أن جميع المفاسد التي تعرض للإنسان إنما هي من شهوته ومن غضبه، وكانت شهوة السائل مكسورة، فلما سأل عما يحترز به عن القبائح نهاه عن الغضب الذي هو أعظم ضررا من غيره، وأنه إذا ملك نفسه عند حصوله كان قد قهر أقوى أعدائه انتهى.

ويحتمل أن يكون من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى لأن أعدى عدو للشخص شيطانه ونفسه، والغضب إنما ينشأ عنهما، فمن جاهدتهما حتى يغلبهما، مع ما في ذلك من شدة المعالجة كان لقهر نفسه عن الشهوة أيضا أقوى.

وقال ابن حبان: لا تعمل بعد الغضب شيئا مما نهيت عنه، لأنه نهاه عن شيء جُبِلَ عليه، ولا حيلة له في دفعه.

ويترتب على الغضب تغير الظاهر والباطن، كتغير اللون والرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن غير ترتيب، واستحالة الخلقة، حتى لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياءً من قبح صورته واستحالة خلقلته.

هذا كله في الظاهر، وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر؛ لأنه يولد الحقد في القلب والحسد وإضمار السوء على اختلاف أنواعه، بل أولى شيء يقبح منه باطنه وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه وهذا كله أثره في الجسد، وأما أثره في اللسان: فانطلاقه بالشتيم والفحش الذي يستحي منه العاقل، ويندم قائله عند سكون الغضب، ويظهر أثر الغضب أيضا في الفعل بالضرب أو القتل وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه رجع إلى نفسه فيمزق ثوب نفسه ويلطم خده، وربما سقط صريعا، وربما أغمي عليه، وربما كسر الآنية وضرب من ليس له في ذلك جريمة، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: لا تغضب، من الحكمة واستجلاب المصلحة في المفسدة^(١).

الحقيقة العلمية:

أبدت دراسة حديثة نشرت في مجلة الطب الباطني Archive of Internal Medicine أن الرجال سريعى التوتر والغضب أكثر عرضة من نظرائهم الأكثر هدوءا للإصابة بأزمة قلبية بحوالي ثلاث مرات، وحتى وإن لم يكن لديهم تاريخ عائلي لجلطة في القلب.

فقد قام الباحثون بتحليل معلومات مسجلة عن ١٣٠٠ طالب من جامعة جونز هوبكنز في الفترة ما بين ١٩٤٨ - ١٩٦٤، وتابعوا ١٠٥٥ رجلا. وتبين للباحثين أن ذوي المزاج العصبي، والذين يغضبون بسرعة كانوا أكثر عرضة للإصابة بمرض شرايين القلب التاجية.

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٠ / ٥٢٠-٥٢١).

وكانت الدراسات السابقة قد أظهرت: أن أصحاب الشخصيات العدوانية كانوا أشدَّ تعرضاً للإصابة بأمراض شرايين القلب والسكتات الدماغية.

ويعتقد الباحثون أن لذلك علاقة بالانطلاق المفرط لهرمون الأدرينالين والنور أدرينالين، وهي الهرمونات التي تنطلق في الدم استجابة للشدة والضغط أو الصدمة، فتقبض الأوعية الدموية، وتسرع القلب وتحفز على العمل بصورة أقوى لتزويد الجسم بالدم.

والغاضبون أكثر عرضة للإصابة بارتفاع ضغط الدم، فقد أظهرت دراسة حديثة نشرت في مجلة JAMA في ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٣: أن الغاضبين والذين يتصفون بالعدوانية هم أكثر عرضة للإصابة بارتفاع ضغط الدم بنسبة الضعفين.

ويقول رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع». رواه أبو داود في سننه^(١).

وجه الإعجاز:

يقول رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»^(٢).

إن هذا الحديث لم يكن أحد يدرك مغزاه من الناحية العلمية أو الطبية. وقد أكدت الدراسات العلمية: أن هرمون الأدرينالين والنور أدرينالين يتضاعف مستواه في الدم عندما يكون الإنسان في وضعية الوقوف، ويزداد مستواه أكثر عندما يكون الإنسان في حالة الغضب أو الانفعال. وهذان الهرمونان مسؤولان عن

(١) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٧٨٢)، قال الألباني: (صحيح)، وأحمد، حديث رقم (٢١٣٤٨)، قال مخرجه: (رجاله ثقات، رجال الصحيح).

(٢) رواه أبو داود في سننه، المصدر نفسه.

الفرار أو المواجهة Fight or Flight، حيث يزيدان من عدد ضربات القلب، ويرفعان ضغط الدم، ويهيئان الجسم لوضعية المواجهة أو الهروب.

وهكذا فعند تغيير وضعية الإنسان من الوقوف إلى الاضطجاع يخف مستوى إفراز هذين الهرمونين، وتخف حدة الغضب. وهذا مُصَدِّقٌ ما جاء به رسول الله ﷺ قبل أكثر من ١٤ قرناً من الزمان.





من آيات الله سبحانه تعاقب الليل والنهار...

الليل سكن

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

الدلالة النصية:

السكن ما يسكن إليه الرجل ويطمئن إليه استئناسا به واسترواحا إليه من زوج أو حبيب، ومنه قيل: للنار سكن؛ لأنه يُستأنس بها، ألا تراهم سمّوها المؤمنة. ثم إن الليل يطمئن إليه الإنسان لأنه أتعب نفسه بالنهار، واحتاج إلى زمان يستريح فيه وذلك هو الليل^(١).

وفيه تنبيه على تفردة تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة، ليدلّهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة، وتقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكوته، المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه، والجعل إن كان بمعنى الإبداع والخلق ف (مبصرًا) حالًا، وإلا ف (لكم) مفعوله الثاني، أو هو حال كما في الوجه الأول والمفعول الثاني (لتسكنوا فيه)، أو هو محذوف يدلُّ عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية، كما أن العلة الغائية منها محذوفة، اعتمادا على ما في الأولى، والتقدير هو الذي جعل لكم الليل مظلمًا لتسكنوا فيه، والنهار مبصرًا لتتحركوا فيه لمصالحكم^(٢).

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٣ / ٧٨).

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤ / ١٦٢).

الحقيقة العلمية :

أكد باحثون من جامعة أريزونا الأمريكية في بحث علمي نشر في مجلة العلوم Science عام ٢٠٠٢: أن النوم في الظلام مفيد للصحة، ويحسن نشاط جهاز المناعة بصورة كبيرة. وذكر الباحثون أن الجسم يفرز في الظلام هرمون الميلاتونين، الذي قد يلعب دورا هاما في الوقاية من الأمراض الخبيثة، كسرطان الثدي والبروستاتا.

وتشير الدراسات: إلى أن إنتاج هرمون الميلاتونين - الذي يعيق نمو الخلايا السرطانية - قد يتعطل مع وجود الضوء في غرفة النوم. ويرى الباحثون أن هذه العملية الطبيعية التي أوجدها الله تعالى تساعد في الاستفادة من الليل المظلم للوقاية من أنواع معينة من السرطان. وكما يُنشِّط الليل المظلم إفرازَ هرمونات معينة في الجسم، فإن ضوء النهار ينشِّط هرمونات أخرى تقوي جهاز المناعة، وتقي الجسم من عدد من الأمراض.

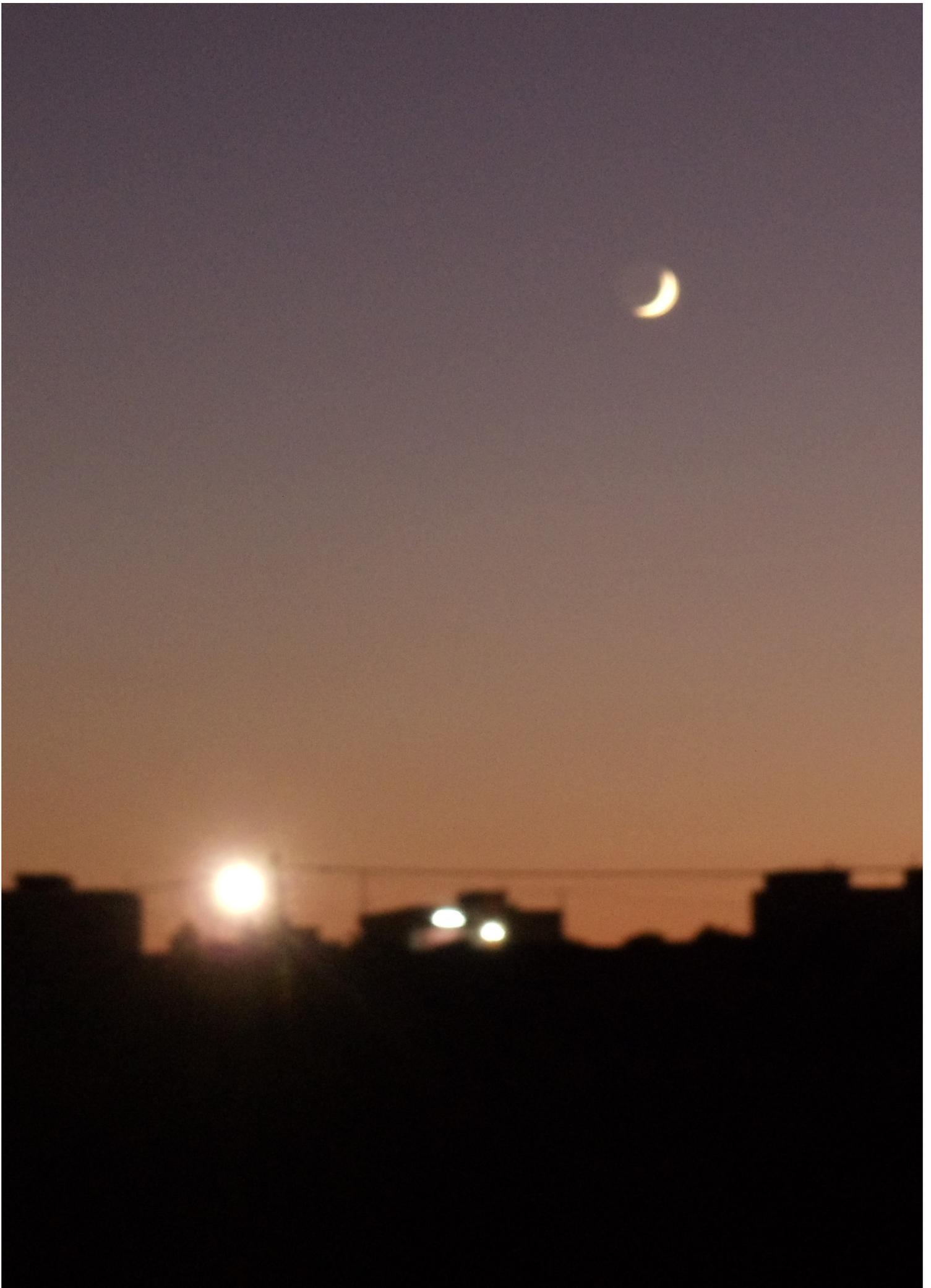
أليس في هذا إشارة لنا أن نخفت الأنوار في الليل وننام في هدوء وظلام، لا أن نقضي الليل في سهر طويل على أضواء متلائة وأصوات صاخبة، ثم إذا لاح الصباح قمنا إلى صلاة الفجر، ومن ثم نهضنا إلى أعمالنا متكاسلين ومشتتي الزهن؟ أليس في هذا موعظة لمن يقلب ليله نهارا ونهاره ليلا، فيُحرِّم من نعم الباري تعالى وآلائه، ويسيرُ مخالفا لنواميس الكون التي وضعها الله تعالى رب العالمين؟!!

وجه الإعجاز:

إن الإشارة الواردة في النص الكريم، قد جاءت الكشوفات العلمية في عصرنا هذا تدل على صحة هذا الإرشاد العظيم، وذلك بعد تجارب عديدة ومشاهدات متكاثرة، استنبط منها الأطباء: أن مخالفة تلك السنة الكونية، في كون الليل مَوْتَلُّ راحةٍ ونومٍ وسكون، فيه تسبَّب للأزمات والأمراض المتنوعة، ومن ذلك زيادة

نوبات الصداع والشعور بالإرهاق والتوتر والقلق، وارتفاع ضغط الدم، وتثبيط جهاز المناعة، بل ويؤثر على الجلد تأثيرًا ضارًا؛ مما يُثبت لنا أن هذا هو كلام الخالق جل وعلا، وأن مَنْ بَلَّغنا إياه هو رسول رب العالمين.





وجه الإعجاز العلمي في قيام الليل

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي: قم بعد نومك، والتهجد لا يكون إلا بعد النوم، يقال:

تهجَّد إذا قام بعد ما نام، وهجد إذا نام، والمراد من الآية: قيام الليل للصلاة، وكانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ في الابتداء، وعلى الأمة، لقوله تعالى: ﴿فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا في حق الأمة بالصلوات الخمس، وبقي الاستحباب: قال الله تعالى: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبقي الوجوب في حق النبي ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زيادة لك، يريد فريضة زائدة، على سائر الفرائض، فرضها الله عليك. وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخا في حقه كما في حق الأمة، فصارت نافلة، وهو قول مجاهد وقتادة، لأن الله تعالى قال: نافلة لك ولم يقل عليك، فإن قيل: فما معنى التخصيص، وهي زيادة في حق كافة المسلمين كما في حقه ﷺ قيل: التخصيص من حيث إن نوافل العباد كفارةً لذنوبهم، والنبي ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت نوافله لا تعمل في كفارة الذنوب، فتبقى له زيادة في رفع الدرجات.

قوله عز وجل: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، عسى من الله تعالى واجب؛ لأنه لا يدع أن يعطي عباده أو يفعل بهم ما أطمعهم فيه، والمقام المحمود: هو مقام الشفاعة لأمته؛ لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون^(١).

عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قرابة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهارة عن الإثم». وهذا أصح من حديث أبي إدريس عن بلال^(٢).

الحقائق العلمية:

إن معظم النوم من النوع غير الحالم، وإن النوم الطبيعي يكون أكثر عمقاً في الثلث الأول من الليل، وأقل عمقاً في الثلث الأخير، وإن معظم النوم الحالم يأتي في الثلث الأخير من الليل، ويتميز هذا النوم بأنه يشبه إنساناً ذا مخ نشط جداً، بجسم فاقد الحركة.

هناك تغيرات فسيولوجية تطراً على النائم لمصلحة الجسد في ثلثي الليل الأول، وليست في مصلحته في الثلث الأخير في حالة ما إذا ظل نائماً.

يكون النوم الحالم عند الثلث الأخير من الليل أقل عمقاً، ويزداد عدد مرات التنفس وبدون انتظام، وينقص مستوى الأوكسجين بالدم، ويزداد ضغط الدم، ولا تنتظم ضربات القلب، ويزداد إفراز الحمض المعدي، وتزداد فرصة الأزمات الصدرية والقلبية والداغية.

وهناك بعض الاضطرابات التي تحدث في مرحلة النوم الحالم منها: الكوابيس الليلية، وشلل النوم، والاضطرابات السلوكية المصاحبة، والهلوسة السويقية،

(١) انظر: تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ١٤٩-١٥٢).

(٢) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٥٣)، حديث رقم (٣٥٤٩) - وقال الألباني: (حسن ...)
المشكاة، حديث رقم (١٢٢٧).

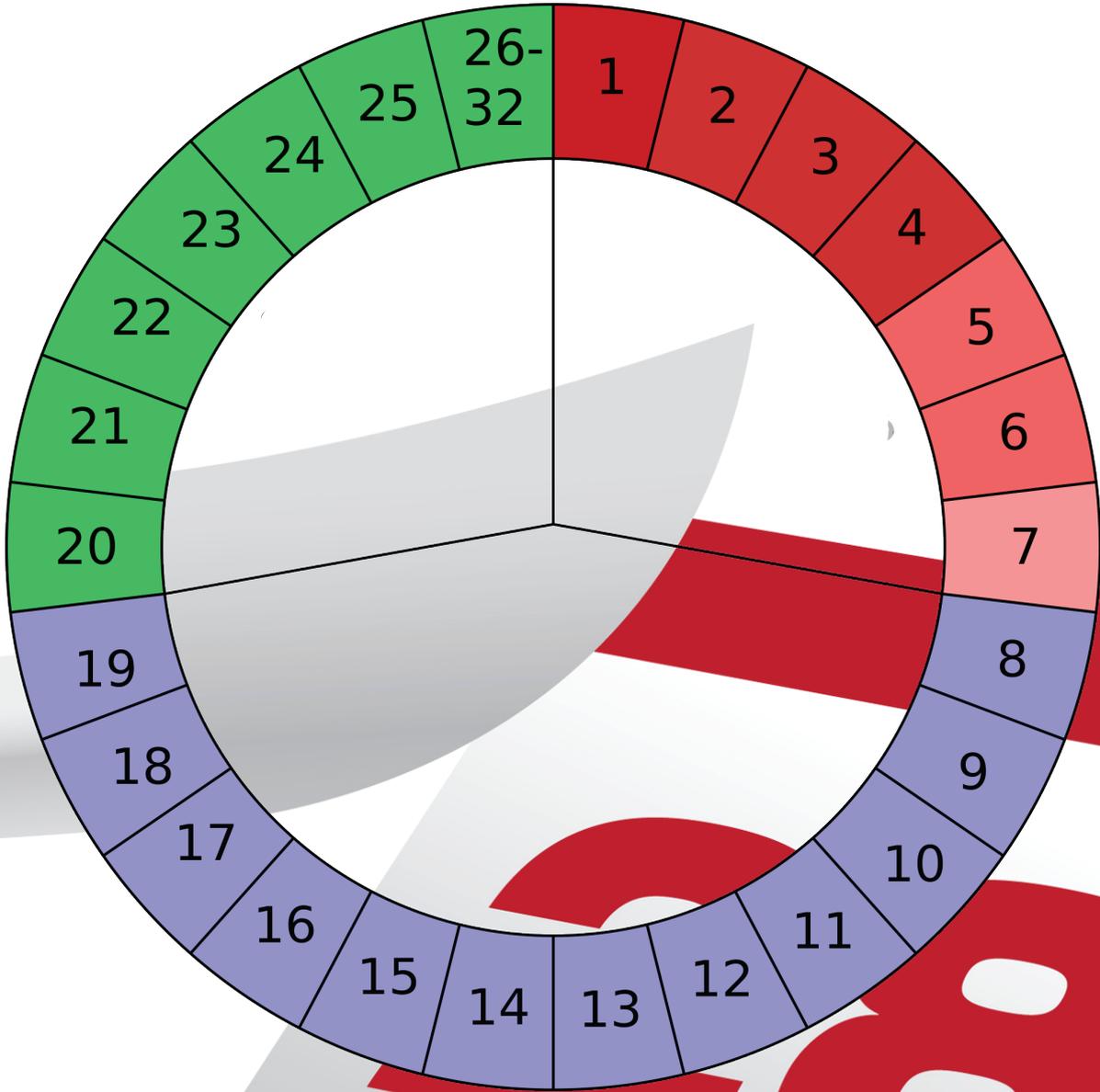
والصداع النصفي، والربو الليلي، كما يحصل فيه انقطاع التنفس الانسدادي والمركزي، ويمكن أن يسبب التهابًا في الجيوب الأنفية.

وجه الإعجاز:

إن قيام الليل (وفي الثلث الأخير منه) يؤدي إلى:

- ✿ الحماية من ارتفاع ضغط الدم والجلطات القلبية والسكتة الدماغية والموت الفجائي، وإذا كان مريضًا بهذه الأمراض فيكون أقلّ عرضة للمضاعفات.
 - ✿ الوقاية من الأزمات الصدرية، وأمراض الختان، والجيوب الأنفية، كما يحمي من متلازمة انقطاع التنفس الانسدادي أثناء النوم.
 - ✿ حماية الجهاز الهضمي من فرصة زيادة إفراز الحامض المعدي والقرحة والارتجاع المريئي.
 - ✿ يحسن جهاز المناعة، حيث إنه يزيل التوتر، يقلل الكورتيزون المثبط للمناعة، والكاتوكيلاين فتحسن المناعة.
- فقيام الليل وقاية وشفاء: فمن أخبر الحبيب المصطفى ﷺ بهذه الوقاية، وبأن فيها شفاء، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].





8

المخاطر الصحية في وطء الزوجة الحائض

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

الدلالة النصية:

قوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: فاجتنبوهن في زمان الحيض والمراد من هذا الاعتزال: ترك المجامعة، لا ترك المجالسة أو الملامسة، فإن ذلك جائز، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج، أو بما دون الإزار.

وذهب الجمهور: إلى أن الحائض لا يحل لزوجها أن يطأها حتى تتطهر بالماء. الطبري قراءة التشديد. والأولى أن يقال: إن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان: إحداهما انقطاع الدم، والأخرى التطهر منه، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى، فيجب المصير إليها. وقد دل أن الغاية الأخرى هي المعتمدة. قوله تعالى بعد ذلك: فإذا تطهرن، فإن ذلك يفيد أن المعتمد التطهر، لا مجرد انقطاع الدم.

وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين، المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين. قوله: فأتوهن من حيث أمركم الله أي: فجامعوهن، وكنى عنه بالإتيان. والمراد: أنهم يجامعونهن في المأتي الذي أباحه الله، وهو القبل، قيل:

(ومن حيث) بمعنى: في حيث، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي: في يوم الجمعة، وقوله: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: في الأرض.

وقيل: إن المعنى: من الوجه الذي أذن الله لكم فيه، أي: من غير صوم وإحرام واعتكاف.

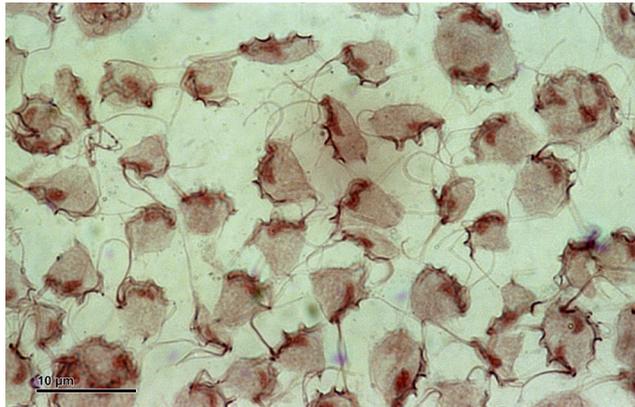
وقيل: إن المعنى: من قبل الطهر، لا من قبل الحيض.

وقيل: من قبل الحلال، لا من قبل الزنا.

قوله: إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين قيل: المراد: التوابون من الذنوب، والمتطهرون من الجنابة والأحداث^(١).

الحقيقة العلمية:

❁ أولاً: أثبتت الأبحاث أن هناك كائناً دقيقاً طفيلياً يسمى الترياكومونس، يتضاعف في وقت الحيض أربعة أضعاف ما كان عليه قبله، وأنه يتسلق إلى الجيوب المهبلية في أعلى المهبل، بدلا من مكانه في أسفله، متحياً فرصته، ومرتقبا صيده، ومعروف أنه يسبب التهابات في الجهاز البولي والتناسلي للرجل، ومعروف أيضا أن انتقاله إليه لا يكون إلا عن طريق المباشرة الزوجية، واحتمال الإصابة به قائم في ذلك الوقت إذا ما حدثت المباشرة.



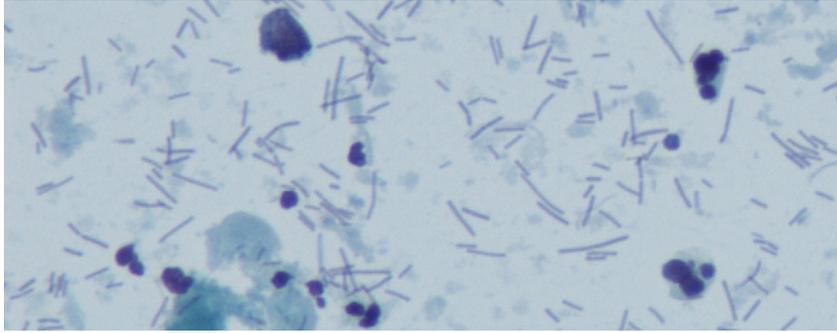
طفيليات الترياكومونس (trichomonas)

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (١ / ٢٥٩).

❁ ثانيًا: يوجد في المهبل جراثيم نافعة تسمى عصويات (دودرلين)، تحمي المكان من غزو الجراثيم الضارة، فهي وسيلة دفاع ضدها من أن تدخل الرحم وقنواته، وهذه الجراثيم النافعة تتغذى على السكر المخزون في خلايا جدار المهبل، وتقع هذه الخلايا تحت تأثير هرمونات المبيض من ناحيتين:

* نسبة تخزين وتركيز السكر بها.

* وانفصالها من جدار المهبل.



عصويات دودرلين (Doderlein)

حيثُ وجد أن أعلى نسبة تركيز للسكر داخل تلك الخلايا: تكون في منتصف الدورة الشهرية، وتقل تدريجياً مع انخفاض نسبة الهرمونات المبيضية حتى تتلاشى تماماً قبل الحيض بساعات وأثناءه.

كما أن هذه الخلايا تنفصل من جدار المهبل، كجزء من عملية التجديد الدائم، وقد وجد أن أعلى معدل لانفصال هذه الخلايا يحدث في منتصف الدورة الشهرية، ثم تقل تدريجياً حتى تصل إلى الدرجة الدنيا قبل الحيض بساعات وأثناءه.

وعلى ذلك، فإن أعلى نسبة لتركيز السكر في المهبل تحدث في منتصف الدورة، وأقل نسبة هي قبل الحيض مباشرة، وأقل منها إلى درجة العدم تكون أثناء

الحيض. وبالتالي فإن عسويات دودرلين النافعة تصل إلى قمة تكاثرها ونشاطها في منتصف الدورة، ثم تقل وتضعف قبل الحيض مباشرة.

وعند حدوث الحيض ونزول الدم، فإن درجة التأين الحمضي للمهبل تتغير من الحامضية إلى القلوية، فتموت تلك العسويات ويأخذها تيار الدم معه إلى خارج المهبل، وعندئذ تنهياً كل الظروف تماماً في وقت الحيض لنمو وتكاثر الجراثيم الضارة، ذلك لأن عسويات دودرلين وقت وجودها كان لها فائدتان:

❁ الأولى: تحول السكر إلى حمض اللبنيك، وهو قاتل للجراثيم الضارة.

❁ والثانية: كانت تكبل نمو الجراثيم الضارة، وتقف دون نشاطها، بطريقة مازال يكتنفها شيء من الغموض.

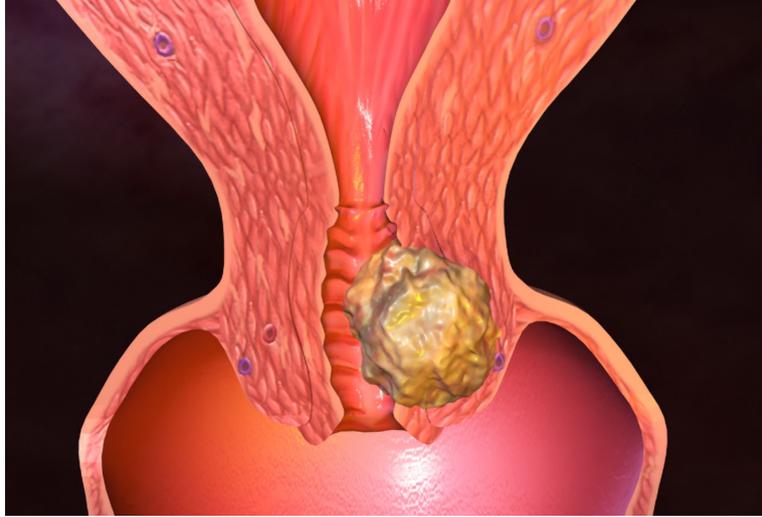
وفي غياب تلك العسويات، وتبدل التأين الحمضي إلى القلوية، وفي وجود الدم الذي يعتبر الغذاء الشهى للجراثيم الضارة؛ فإنها تجد المرتع الخصيب للنمو والتكاثر والنشاط وتتداعى جراثيم الشرج وجراثيم مجرى البول لتهاجم هذا المكان الذي غاب عنه حراسه.

وقد وجد أن هذه الجراثيم الضارة تزداد في أعدادها وأنواعها وقت الحيض، ولا يمنع دخولها إلى جدار الرحم المتهتك في هذا الوقت بالذات، ولا نفاذها إلى داخل فراغ البطن، ولا إلى اقتحامها الأنسجة الرخوة والبالغة الطراوة في تلك الآونة الحرجة، سوى شيء واحد فحسب، ذلك هو تيار الدم الآتي المضاد من أعلى إلى أسفل.

❁ ثالثاً: يصيب المرأة أذى آخر في صورة آلام تعاني منها أثناء الجماع، وذلك لارتفاع مستوى مادة البرستجلاندين عند بطانة الرحم، والتي تؤدي إلى زيادة جريان الدم، مما يتولد منه احتقان الحيض وآلامه، وهذه المادة متواجدة في بطانة الرحم بكثرة أثناء الحيض، وهي المسؤولة عن الآلام والاضطرابات النسائية خلال هذه الفترة والسائل المنوي غني بها.

لذلك فالجماع أثناء الحيض يسبب ألما وأذى مباشرا للمرأة، كما يسبب أذى للرجل، فقد أثبتت العديد من الدراسات الحديثة الارتباط بين الجماع أثناء الحيض والتهابات المسالك البولية في الذكور والإناث على السواء، وتحدث الإصابة عادة خلال (٢٤) ساعة بعد الجماع، وقد تحدث الإصابة بالعقم؛ بسبب التهابات متكررة نتيجة الجماع أثناء الحيض.

❁ رابعا: وجدت علاقة بين إتيان النساء في المحيض وسرطان عنق الرحم، وذكرت الإحصاءات فارقا كبيرا بين النساء المسلمات وغيرهن من النصرى أو الهنود، حيث تصل النسبة إلى أقل من (١٦٪) في المملكة العربية السعودية، بينما تصل إلى (٤٠٪) عند غيرهن.



سرطان الرحم

وفي بحث آخر أُجْرِيَ على النساء المسلمات في يوغسلافيا، وُجِدَ أن نسبة إتيان النساء في المحيض هي واحد من كل (٤٠٠) امرأة، بينما عند غيرهن واحد إلى (٩٠)، وعزى ذلك إلى الختان، والامتناع عن العلاقة الجنسية أثناء الحيض،

والغسل والطهارة بعد الجماع، وإزالة شعر العانة، وإلى العفة وعدم ممارسة الجنس خارج نطاق الزوجية.

كما دلت الإحصاءات أيضا أن سرطان عنق الرحم يكثر بين البغايا ونزيلات السجون، ونشرت مجلة لانست الطبية سنة ١٩٨١م دراسة، أوضحت فيها: أن المرأة التي يمارس زوجها الجنس مع أكثر من امرأة هي عرضة للإصابة بسرطان الرحم أكثر من تلك التي أنعم الله عليها بزواج عفيف.

وجه الإعجاز:

لقد جاء نهي القرآن الكريم عن إتيان النساء في المحيض في زمن لم يعرف فيه الناس مخاطرة تلك الممارسة، وأقصى ما كانوا يعرفونه أنه أمر مستقذر تعافه الأذواق السليمة. وبعد أن تطور الطب عرف الناس الأخطار المحدقة بمن يأتي النساء في المحيض؛ مما يؤكد أن ما جاء في النص القرآني السابق ينتظم وجهها من وجوه الإعجاز العلمي.



الحكمة الباهرة في تشريع قاعدة النظافة

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا إِلَيْهَا فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ويقول تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].



الدلالة النصية:

قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ كانوا يستنجون بالماء، ويجمعون بين الماء والحجر، أو يتطهرون من المعاصي والخصال المذمومة، طلباً لمرضاة الله تعالى، أو من الجنابة، فلا ينامون عليها، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ يرضى عنهم،

ويُدينهم من جنبه إدناء المحب لحبيبه^(١).

النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كثيرة، وكلها تهدف إلى تأسيس مبدأ النظام، في حياة المسلمين، والتنزه عن الوساخة والقذارة وتعاطي ذرائع الاستطياب والنزاهة، وهذان النصان يدلان على أن الله سبحانه وتعالى يحب من عباده مَنْ كان ملتزماً بمبدأ التنظف والتنزه عن الأدران، ويؤكد ذلك حديث رسول الله ﷺ حين سأل أهل قباء عن سبب ثناء الله عليهم في كتابه؛ فأخبروه بما يفيد حرصهم على مزيد التطهر والتنزه.

الحقيقة العلمية:

تقول المراجع الطبية الحديثة: إن الجلد يعتبر مخزناً لنسبة عالية من البكتيريا والفطريات، وتوجد معظم هذه الكائنات الدقيقة بكثرة على الوجه، وعلى البشرة، وعلى جذور الشعر، وفي الغدد الدهنية، ويتراوح عددها من عشرة آلاف إلى مائة ألف جرثومة على كل واحد سنتيمتر مربع من الجلد، وفي المناطق المكشوفة من الجلد يتراوح العدد من مليون إلى خمسة ملايين جرثومة /سم ٢.

وترتفع هذه النسبة في الأماكن المخفية الرطبة، مثل المنطقة الإربية، وتحت الإبطين إلى عشرة ملايين جرثومة /سم ٢. ونسبة الكائنات الدقيقة على الشعر كنسبتها على الجلد. فالغسل منظف لجميع جلد الإنسان، والوضوء ينظف الأجزاء المكشوفة منه، وهي الأكثر تلوثاً بالجراثيم، لذا كان استعمال الماء أمراً هاماً، لأن هذه الجراثيم في تكاثر مستمر، والوضوء والغسل خير مزيل لها.

ولو استعرضنا مناطق الجسم التي يشملها الوضوء، لتبين لنا أحد وجوه الحكمة العظيمة منه: فالفم والأنف هما المدخلان الرئيسان لأعضاء الجسم الداخلية، فنظافتهما من الجراثيم تعني حماية الأجهزة الداخلية من المرض والعطب. وذلك

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٢ / ٤٢٩).

بالمضمضة والسواك، وغسل تجويف الأنف بالاستنشاق والاستنثار.

✽ المضمضة والوقاية من الأمراض:

توجد في الفم تجمعات كبيرة من الكائنات الدقيقة، وبأنواع مختلفة تزيد على ثلاثمائة مستعمرة، ويحتوي اللعاب على حوالي ١٠٠ مليون جرثومة/مم، وقد توجد بعضُ الفطريات والطفيليات الأولية في عدد من الأشخاص، وتشكل أنواع الميكروبات السببية من ٣٠-٦٠٪ من البكتيريا المتطفلة، وهي التي تسبب التهاب اللوزتين والحلق.

وللقضاء على هذه الأعداد الهائلة من الجراثيم، ومنع آثارها الضارة حرصت الشريعة الإسلامية على أمرين:

* الأول: المضمضة، وهي تكرار غسل الفم بالماء عدة مرات في اليوم.

* والثاني: الحث على استعمال السواك.

وكذلك حرصت على نظافة الأنف من الجراثيم الممرضة، باستنشاق واستنثار الماء في الأنف، لأن ذلك له فوائد طيبة كثيرة، أهمها: أنه يزيل الكائنات الدقيقة التي تعلق في جوف الأنف وتستقر به.

ولقد أثبتت الدراسات والبحوث التي أجريت بغرض معرفة تأثير الوضوء على صحة الأنف، أن أنوف من لا يُصَلِّون تعيش بها مستعمرات جرثومية عديدة، وبكميات كبيرة، وأن أنوف المتوضئين ليس بها أية مستعمرات من الجراثيم، وفي عدد قليل منهم، وجد قدرٌ ضئيل من الجراثيم ما لبثت أن اختفت بعد تعلمهم الاستنشاق الصحيح. وبهذا ندرك عِظَمَ وصية النبي ﷺ، بالمبالغة في الاستنشاق وتكراره ثلاثاً^(١).

(١) انظر: صحيح مسلم، حديث رقم (٢٣٧) و(٢٣٨)، ولفظه: «... فليستنثر ثلاث مرات»، وصحيح البخاري، حديث رقم (١٦١).

وهكذا فإن اليدين، والذراعين، والوجه، وشعر الرأس، والقدمين، وأسفل الساقين، هي أجزاء مكشوفة من البدن، فغسلها بالماء ينقيها من الكائنات الدقيقة ويزيلها عنها، وبما أنه يختبئ عددٌ كبير من هذه الكائنات في الأخاديد بين الأصابع وعلى عقدها. لذلك أمر النبي ﷺ، بتخليل أصابع اليدين والقدمين وغسل عقدها^(١)، وذلك تعقباً لما يمكن أن تحويه هذه المخابئ من الجراثيم والفطريات الضارة.

كما أوصى النبي ﷺ بنظافة اليدين خاصة، وحضَّ على غسلهما عدة مرات في اليوم: قبل الطعام وبعده، وبعد الاستيقاظ من النوم، وبعد الخلاء، وبعد كل تلوث، وذلك لما لليدين من خطورة في نقل الأمراض، وانتشار الأوبئة عن طريق مس الطعام أو الشراب أو المصافحة. ومن أجل ذلك كان الوضوء المستمر والغسل، خير مزيل لهذه الكائنات، ومجفِّف لهذا المخزن الخطير.

✿ الغسل وأثره الوقائي:

لقد شرع الإسلام على المسلم غسل جميع بدنه بالماء، على وجه الإلزام، في مواطن معينة، كغسل الجنابة والحيض والنفاس وندب إليه في أكثر من سبعة عشر موطناً أخرى؛ كغسل الجمعة والإحرام، بل قد حدّد فترةً زمنية، يُكره تجاوزها بغير غسل، فقال ﷺ: «حق الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده»^(٢).

إن غسل جميع البدن بالماء وجوباً أو استحباباً يحقق غاية الكمال من نظافة الجسم كله، وتنقيته من الضرر والخبث، ويزيل العدَدَ الهائل من الكائنات الدقيقة التي تعيش على جلد الإنسان.

(١) انظر: أبو داوود، حديث رقم (١٤٢)، وفيه: «أسبغ الوضوء، واخلل بين الأصابع...»، قال الألباني: (صحيح).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٨٩٧) و(٨٩٨)، وأحمد، حديث رقم (٨٥٠٣).

وقد أثبتت عدة دراسات، قام بها علماء متخصصون: أن الاستحمام يزيل عن جلد الإنسان ٩٠٪ من هذه الكائنات في المرة الواحدة.

وجه الإعجاز:

إن من يعلم فوائد النظافة التي أرشدنا الله ورسوله إلى التزامها وما أرشدنا إليه ديننا الحنيف من الوضوء والغسل وغير ذلك من مظاهر النزاهة والطهارة والنظافة، ويقارن فوائد ذلك مع ما ثبت للعلماء والأطباء، وخصوصاً من الحقائق اليقينية، يدرك أن الدين الإسلامي قد سبق إلى تقرير قواعد خالدة وباهرة في هذا الميدان، مع جهل الناس في زمن التنزيل بآثاره، وفوائد تلك القواعد التي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمع النظافة والطهارة، فدل ذلك على ربانية هذه النصوص، وصدق رسالة الذي بلغنا إياها عليه الصلاة والسلام.





بكتيريا الكوليرا

التوجيهات النبوية في وقاية المجتمع من الأوبئة ومنع انتشارها

الدلالة النصية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه». رواه مسلم^(١).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا، فإنه لا يدري أين باتت يده». رواه مسلم^(٢).

عن جابر بن عبد الله، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء»^(٣).

الحقيقة العلمية:

يعتبر الماء الراكد وسطًا ملائمًا للكائنات الدقيقة، ومن ذلك نمو الكثير من البكتيريا المسببة للأمراض، كالكوليرا والسالمونيلا، والشيغلا، وغير ذلك، كما تحتاج كثير من الديدان كالزحار الأميبي، والديدان المستديرة، والبلهارسيا إلى الماء لإكمال دورة حياتها خارج جسم الإنسان.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ٩٩ - (٢٠١٤).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم ٨٧ - (٢٧٨).

(٣) صحيح الإمام البخاري، حديث رقم (٢٢٠٦).

ويساعد التبول والتبرز على نمو هذه الديدان، وسرعة تكاثرها، وانتشارها؛ لذلك نهى رسول الله ﷺ عن التبول في الماء الراكد الذي لا يجري، نوعَ وقاية من التلوث، لأنها تحمي الإنسان من الإصابة بهذه الكائنات الممرضة. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبولَنَّ أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه».



دودة البلهارسيا

وقد وردت في هذا المجال عدة نصوص، ترشدُ إلى حماية الإنسان من أسباب السقم والضرر والأذى، فمن ذلك لوقاية الماء من التلوث أيضا نهى النبي ﷺ عن إدخال المستيقظ من النوم يده في الإناء قبل أن يغسلها ويطهرها، فلعله مسَّ أو حكَّ بها سوائته أو عضوًا مريضًا متقرحًا من جسمه وهو نائم. قال رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا، فإنه لا يدري أين باتت يده».

ولحفظ الماء من التلوث أيضًا نهى النبي ﷺ، عن الشرب من فم السقاء. روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: «نهى النبي ﷺ الشرب من في السقاء».

إن الإرشاد إلى تغطية آنية الطعام، وربط قرب الماء منعا لتلوثها بالجراثيم المحمولة عبر الرياح، والتي قد تنتقل من أماكن بعيدة، فتسبب انفجارات وبائية مدمرة، بما تفضي إليه من تشكل بؤر لانتشار الأوبئة، فقال ﷺ: «غطوا الإناء وأوكوا السقاء؛ فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس علىه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء» رواه الإمام مسلم^(١). نتيجة تنوع العوامل الجوية العديدة التي قد تؤثر في تكاثرها وحركتها وانتشارها.

ويقرر الحديث أيضا: أن الأطعمة والأشربة وسط ملائم لانتشار الأوبئة من خلالها، وأنه يمكن الوقاية منها بتغطية الآنية والأسقية. وقد أثبت العلم الحديث أن هناك أوقاتا معينة في فصول السنة يصعب تحديدها أو التنبؤ بها، يمكن أن تحمل الرياح فيها أعدادا هائلة من الجراثيم المتحوصلة، ومن أماكن بعيدة جدا إلى أماكن معينة، فتسبب انفجارا وبائيا لبعض الأمراض.

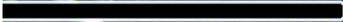
وجه الإعجاز:

إن إهمال التوجيهات والإرشادات الصحية - التي سبق الحديث عن بعضها - قد يتسبب في انتشار أوبئة، تقضي على آلاف من بني البشر، ومن هنا ندرك قيمة الإرشادات النبوية في تقرير القواعد الوقائية، التي تحفظ صحة بني الإنسان، في زمن كان كل الناس على جهالة تامة بها، فمن أخبر النبي ﷺ بهذه الحقائق الدقيقة؟ إنه الله جل في علاه القائل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ٩٦ - (٢٠١٢).



قمل العائمة



سنن الفطرة وأثرها الوقائي

روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم (عقل الأصابع)، وتنف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء الاستنجاء»^(١). قال الراوي: ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة.

الدلالة النصية:

قوله ﷺ: عشر من الفطرة: فسّر أكثر العلماء الفطرة في هذا الحديث بالسنة، وتأويله: أن هذه الخصال من سنن الأنبياء الذين أمرنا أن نقتدي بهم لقوله سبحانه: ﴿فَبِهْدْيَتِهِمْ اقْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وأول من أمر بها إبراهيم صلوات الله عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. قال ابن عباس: أمره بعشر خصال ثم عددهن، فلما فعلهن قال: إني جاعلك للناس إماماً، أي: ليقتدي بك ويستن بسنتك، وقد أمرت هذه الأمة بمتابعته خصوصاً.

وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] ويقال إنها كانت عليه فرضاً وهن لنا سنة^(٢).

و«الفطرة» هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها: على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر ودفعه، وفطرتهم حنفاء مستعدين، لقبول

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٦١).

(٢) معالم السنن للخطابي (١ / ٣١).

الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه، وجعل تعالى شرائع الفطرة نوعين:

❁ أحدهما: يطهر القلب والروح، وهو الإيمان بالله وتوابعه: من خوفه ورجائه، ومحبته والإنابة إليه. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠ - ٣١] فهذه تزكي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب.

❁ والنوع الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار عنه، وهي هذه العشرة، وهي من محاسن الدين الإسلامي؛ إذ هي كلها تنظيف للأعضاء، وتكميل لها، لتتم صحتها وتكون مستعدة لكل ما يراد منها^(١).

الحقيقة العلمية:

لقد كشفت البحوث الطبية الأهمية الصحية البالغة لتطبيق هذه الخصال، وما يترتب على إهمالها من أضرار، فترك الأظفار مجلبة للمرض، حيث تتجمع تحتها ملايين الجراثيم المختلفة، ويبيضُ بعضُ الديدان، وبعض الطفيليات الأولية التي يمكن أن تسبب أضراراً بالغة، خصوصاً للأطفال.

وتركُ شعر العانة هو المسؤول عن مرض «قمل العانة» المنتشر في أوروبا، والذي يؤدي إلى تقرحات والتهابات في هذه المنطقة، وقد حمى الله بلاد المسلمين من هذا الوباء.

وأما الختان: فقد بينت الدراسات العلمية التي بدأت تظهر نتائجها في أمريكا قبل أكثر من عشر سنوات أن الأطفال المختونين هم أقل عرضة للإصابة بالتهاب

(١) بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار (ص: ٥١) عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي.

المجاري البولية، وأن غير المختونين أكثر عرضة للإصابة بهذا الالتهاب بـ (٣٩) ضعفاً منه عند المختونين.

واستنتج الباحثون أن ختان المولودين له دور هام في الوقاية من التهاب المجاري البولية، وخاصة في الأشهر الثلاثة الأولى من العمر، والتي يكون فيها غير المختونين أكثر عرضة لحدوث التهاب شديد في مجاري البول.

ولهذا، فقد أصدرت المنظمات الصحية لطب الأطفال في أمريكا توصياتها عام ١٩٩٩، تدعو إلى ختان الأطفال، بعد أن قررت أن خطر حدوث التهاب المجاري البولية، في السنة الأولى من العمر، عند غير المختونين، يبلغ تسعة أضعاف ما هو عليه الحال عند الأطفال المختونين على الأقل. وأن سرطان القضيب نادر الحدوث جدا عند المختونين، في حين يشاهد عند غير المختونين.

وغسل البراجم (عُقْلُ الأصابع، أي مفاصلها) يزيل المستعمرات الجرثومية، التي تتخذ من ثنيات الجلد في هذه الأماكن كهوفاً وأخاديد لها، وتنفُ الإبط ينظف هذا المكان المختبئ من الجلد، والتي تتجمع فيه الأوساخ، وتنمو عليها الجراثيم، وخصوصاً الفطرية منها، كما أن بعض الجراثيم تهوى العيش على مادة الشعر نفسها.

وجه الإعجاز:

عندما قرر رسول الله ﷺ النبي الأمي تلك التدابير الحكيمة - التي تحقق نظافة جسم الإنسان بشكل عام، وملابسه وأماكن جلوسه ونومه- فإنه أرسى للمسلمين قواعد الوقاية من أخطار الكائنات الدقيقة الضارة، التي يمكن أن تكون سببا في مرضه أو هلاكه.

وتعتبر توجيهات الرسول ﷺ بهذا الخصوص - والتي وردت في عصر كان خلواً من المعارف الصحية التي كشفها الله للبشر في زمننا - مظهراً من مظاهر الإعجاز العلمي في السنة المطهرة.



فذرّوه في سنبله

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف: ٤٦-٤٨].

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧].

أي: ما تحصّدونه نتيجة الزرع بجِدِّ واجتهاد؛ فلكم أن تأكلوا القليل منه، وتتركوا بقيته محفوظاً في سنبله.

والحفظ في السنابل يُعلّمنا قَدْرَ القرآن، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه، وما آتاه الله جلّ علاه ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة، من اقتصاد ومقومات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزّن في سنبله؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس.

وبعض العلماء قال في تفسير هذه الآية؛ إن المقصود هو تخزين القمح في سنبله وعيدانه.

وأقول: إن المقصود هو تَرْكُ القمح في سنبله فقط؛ لأن العيدان هي طعام الحيوانات.

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان؛ وعاء يحميها؛ وهو ينفصل عن القمحة أثناء عملية «الدّرس»؛ ثم يطير أثناء عملية «التذرية» مُفصلاً عن حبوب القمح. ولحبة القمح وعاء ملازم لها، وهو القشرة التي تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح، ونسميها «الردة» وهي نوعان: «ردة خشنة» و«ردة ناعمة». ومن عادة البعض أن يفصلوا الدقيق النقي عن «الردة».

وهؤلاء يتجاهلون أو لا يعرفون الحقيقة العلمية التي أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالي من «الردة» يصيب المعدة بالتلبّك.

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط؛ بل تحتوي على قيمة غذائية كبيرة.

وكان أغنياء الريف في مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من «الردة» ويسمونه «الدقيقة العلامة»؛ الذي إن وضعت ملعقة منه في فمك؛ تشعر بالتلبّك؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعي الممتزج بما تحويه الحبة من «ردة»؛ فلن تشعر بهذا التلبّك.

ويمتنّ الله على عباده بذلك في قوله الحق: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾

[الرحمن: ١٢].

وقد اهتدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة في طحن القمح، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقي للغاية؛ يعاني من ارتباك غذائي يُلجئه إلى تناول خبز مصنوع من قشر القمح فقط، وهو ما يسمى «الخبز السن»؛ ليعوض في غذائه ما فقده من قيمة غذائية^(١).

(١) تفسير الشعراوي (١١ / ٦٩٧٧-٦٩٧٨).

الحقيقة العلمية :

يعد مفهوم تخزين البذور في السنابل نظاماً أساسياً للحفاظ على الإنتاج في ظروف بيئية قاسية. وهذا ما يجمع بين الزراعة وتقنيات التخزين والحفاظ على المنتج، وهو ما يسمى بتدبير الإنتاج.

وقد أجري بحث تجريبي حول بذور قمح تركت في سنابلها لمدة تصل إلى سنتين مقارنة مع بذور مجردة من سنابلها، وأظهرت النتائج الأولية أن السنابل لم يطرأ عليها أي تغيير صحي وبقيت حالتها سليمة ١٠٠٪. مع العلم أن مكان التخزين كان عادياً، ولم يراعَ فيه أي شروط للحرارة أو الرطوبة أو غير ذلك.

وفي هذا الإطار تبين أن البذور التي تُركت في سنابلها فقدت كمية مهمة من الماء، وأصبحت جافة مع مرور الوقت، بالمقارنة مع البذور المعزولة من سنابلها، وهذا يعني أن نسبة ٢٠,٣٪ من وزن القمح المجرد من سنبله مكون من الماء؛ مما يؤثر سلبيًا على مقدرة هذه البذور من ناحية زرعها ونموها، ومن ناحية قدرتها الغذائية لأن وجود الماء يسهل من تعفنه وترديه الصحي.

ثم قام الباحثون بمقارنة مميزات النمو (طول الجذور وطول الجذوع) بين بذور بقيت في سنابلها، وأخرى مجردة منها لمدة تصل إلى سنتين؛ فتبين أن البذور في السنابل هي أحسن نموًا بنسبة ٢٠٪ بالنسبة لطول الجذور و٣٢٪ بالنسبة لطول الجذوع.

ثم قام الباحثون بتقدير البروتينات والسكريات العامة التي تبقى بدون تغيير أو نقصان، ففي البذور التي عزلت من السنابل انخفضت كمية البروتينات فيها بنسبة ٣٢٪ بعد سنتين من التخزين، وبنسبة ٢٠٪ بعد سنة واحدة. بينما لم تتغير هذه المركبات في البذور المحفوظة في سنابلها.

وجه الإعجاز:

لا شك أن طريقة حفظ الحبوب بتركها في سنبها حماية لها من التغير أو الفساد هي طريقة مبتكرة، لم تكن معروفة في القَدَم، وخاصة عند المصريين القدامى، ويعتبر ما جاء به النص القرآني في هذا الصدد، في زمن لم تكن تعرف فيه طريقة الحفظ هذه، إعجاز علمي، يؤكد عظمة القرآن، ودقة ما ورد فيه من علم، وأنه وحي من الله.



الإعجاز الطبي في القرآن والسنة

لنيسط الكلام عن الإعجاز الطبي من خلال حديثنا عن نصوص عديدة اشتملت على نماذج من الإعجاز في القرآن والسنة، حيث ورد فيها الإرشاد إلى تناول العسل للاستشفاء به، وكذلك الحبة السوداء، وغير ذلك مما قامت به شواهد باهرة، وسأذكر هنا ما يوضح الإعجاز الطبي، معتبرا أن ما شهد له العلم الحديث بكونه حقيقة علمية مستقرة في مجال الطب، ويتطابق مع ما أرشد إليه القرآن الكريم والسنة المطهرة، فهو جوهر الإعجاز العلمي؛ لأن ذلك ورد منذ أربعة عشر قرناً، عندما كان البشر يجهلون تلك الحقيقة المشار إليها في القرآن الكريم، أو السنة المطهرة ومن هذه الحقائق الطبية ما يلي:

❁ الأصل الأول: وضع النبي ﷺ قواعد علاجية، تُعتبر أصلاً من أصول العلاج السليم، سبق به الإسلام كل القواعد العلاجية الحديثة، فمن ذلك ما أرشد إليه نبي الرحمة ﷺ في العلاج: هو الأمر بالتداوي والحث عليه.

عن أسامة بن شريك، قال: شهدت الأعراب يسألون النبي ﷺ: أعلينا حرج في كذا؟.... أعلينا حرج في كذا؟ فقال لهم: «عباد الله، وضع الله الحرج، إلا من اقترض من عرض أخيه شيئاً، فذاك الذي حرج» فقالوا: يا رسول الله، هل علينا جناح أن لا نتداوى؟ قال: «تداووا عباد الله، فإن الله، سبحانه، لم يضع داء، إلا وضع معه شفاء، إلا الهرم»، قالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي العبد؟ قال: «خلقٌ حسن»^(١).

(١) سنن ابن ماجه، حديث رقم (٣٤٣٦).

وقال الشيخ الألباني^(١):

وقوله ﷺ: «أن لكل داء دواء» يدل على أنه لا توجد أمراض ليس لها علاج في المفهوم الإسلامي، فعلى الطبيب أن يبحث ويجد في البحث حتى يصل للدواء. وهو ما أكده حديث النبي ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله»^(٢). رواه مسلم.



❁ الأصل الثاني: تحصيل العلم بالطب لممارسة التطبيب، وجعل ذلك شرطاً لعلاج الناس بأي وسيلة علاجية، وفيما ورد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «ومن تطبب ولا يعلم منه طب فهو ضامن». رواه أبو داود^(٣).

(١) صحيح - انظر غاية المرام، حديث رقم (٢٩٢)، صحيح أبي داود، حديث رقم (١٧٥٩)، المشكاة، حديث رقم (٤٥٣٢).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٢٠٤).

(٣) أبو داود، حديث رقم (٤٥٨٦)، والنسائي، حديث رقم (٤٨٣٠)، وابن ماجه، حديث رقم (٣٤٦٦)، قال الألباني: (حسن).

وعن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز حدثني بعض الوفد الذين قدموا على أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا طَبِيبٍ تَطَبَّبَ عَلَى قَوْمٍ، لَا يَعْرِفُ لَهُ تَطَبُّبٌ قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَأَعْنَتَ فَهُوَ ضَامِنٌ».

❁ الأصل الثالث: إرشاده لطلب العلاج من الذين هم مظنة الخبرة والفطنة، وذلك لأنه يوجد تنوع في الوسائل العلاجية للأمراض، وأحياناً للمرض الواحد، ولا يعلمها إلا متخصص دقيق؛ لذا يجب أن يتحلى المعالج بالأمانة العلمية، فالحالات التي لا يعرف علاجاً لها، أو يعرف أن غيره أعرف منه بطرق المعالجة، يجب عليه أن يُحِيلَهَا لِمَنْ هُوَ أَقْدَرُ مِنْهُ.

عن جابر قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي طَبِيبًا، فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقًا، ثُمَّ كَوَاهُ»^(١). ومن هذا القبيل أمره لأحد الصحابة بأن يأتي الحارث بن كَلْدَةَ لكونه كان خبيراً بالطب.

❁ الأصل الرابع: إرشاده لمبدأ الوقاية من أسباب المرض، حيث إن الأمراض لها مسببات، قد تكون مادية في صورة كائنات دقيقة، أو جزيئات سمية أو مسببات نفسية في صورة اضطرابات انفعالية، ينتج عنها خلل في المنظومة الهرمونية والجهاز المناعي. لذلك أمر نبي الإسلام بالتوقّي منها في أحاديث عديدة.

ومن ذلك نهيه عن الهروب من الطاعون، ونهيه عن القدوم إلى الأرض الموبوءة، وكذلك نهيه عن إيراد المصحح على الممرض، وفي كل تلك الأمثلة - نجد أنه - ﷺ قد أرسى مبدأ الحجر الصحي، كما وأرسى أصول العلاج، فأعطى كل وسيلة علاجية وصفاً دقيقاً لدورها في العلاج.

فوصف الحجامة في مجموع الأحاديث المنقولة عنه عليه الصلاة والسلام، بأن فيها شفاء، كما في حديث البخاري: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٢٠٧).

ففي شَرْطَةِ محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أُحِبُّ أَنْ أكتوي^(١)، وفي رواية: «وأنهى أمتي عن الكي»^(٢).

وأخبر عليه الصلاة والسلام في قوله: «إن أفضل ما تداويتم به الحجامة، أو هو من أمثل دوائكم»^(٣)، «وذكر أن في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام»^(٤) وذكر الله سبحانه في القرآن أن في العسل ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].



الحجامة

-
- (١) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٦٨٣)، وهذا لفظه، وصحيح مسلم: (٧١/٢٢٠٥).
 (٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٦٨١)، قال الحافظ ابن حجر: (وصفه النبي ﷺ ثم نهى عنه، وإنما كرهه لما فيه من الألم الشديد والخطير العظيم... وقد كوى النبي ﷺ سعد بن معاذ وغيره)، فتح الباري (١٠/١٣٨).
 (٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٦٩٦)، وصحيح مسلم، حديث رقم (١٥٧٧)، واللفظ له.
 (٤) صحيح، حديث رقم البخاري (٥٦٨٧).

قال ابن حجر العسقلاني: «ولم يرد النبي ﷺ الحصر في الثلاثة فإن الشفاء قد يكون في غيرها وإنما نبه بها على أصول العلاج»^(١). وقد ثبت هذا الشفاء بالأبحاث، وبإنشاء المراكز الطبية التي تعالج بالحجامة والعسل والحبة السوداء وغيرها.

❁ الأصل الخامس: التحذير من تعاطي أنواع من المواد التي تسبب مضاعفاتٍ وأخطارًا في وقت كان ينظر إلى تلك المواد بأنها مفيدة وشفافية خطأ!

ويذكر الدكتور علي البار في كتابه هل هناك طب نبوي في سياق ذكر الرد على كتاب كوبلي «أسرار الطب العربي القديم والحديث»، والذي يدعو فيه إلى استخدام السبرتو ودهن الخنزير ولحم الهر لمعالجة كثير من الأمراض..

وللأسف، فإن كوبلي هذا لم يكن سوى خوري في كنيسة صغيرة في لبنان، ولم يدرس الطب في حياته، ومع هذا فقد عمل كطبيب وقتل مئات الأشخاص بوصفاته الطبية الرهيبة.

أصل نبي الإسلام هذه الخيارات، ووضع هذه الأسس والقواعد العلاجية في زمن كان الاعتقاد السائد فيه: أن الأمراض تسببها الأرواح الشريرة والشياطين والنجوم، وكانوا يطلبون لها العلاج بالشعوذة والخرافات.

ومنع نبي الإسلام كل الممارسات العلاجية المبنية على هذه الاعتقادات الخاطئة، فنهى رسول الله ﷺ عن التطير والتمائم والسحر والخرافة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» رواه أبو داود^(٢).

وقال أيضًا: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٣). قال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - رواه البزار ورجاله رجال

(١) فتح الباري (١٠/١٣٨). (٢) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم (٩٥٣٢).

(٣) أبو داود، حديث رقم (٣٨٨٣)، قال الألباني: (صحيح).

الصحيح، خلا عقبه بن سنان، وهو ثقة^(١). وقال شعيب الأرنؤوط: حسن، رجاله ثقات، رجال الصحيح.

وجه الإعجاز:

لقد تحقق كثير من مضامين تلك الأحاديث الشريفة التي انتظمت توجيهات، تتعلق بالاستشفاء وحفظ الصحة العامة، والوقاية من الأمراض.

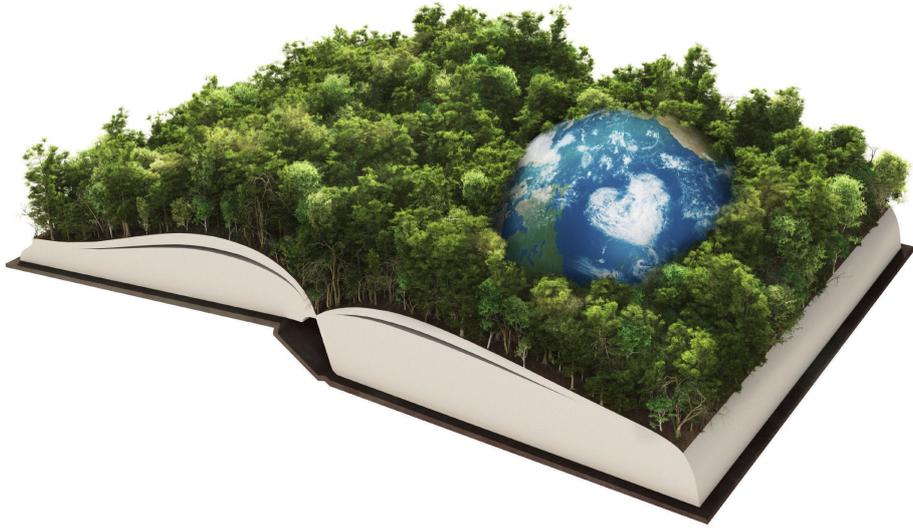
مما يؤكد أن ما نطق به النبي ﷺ هو من الوحي الإلهي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣-٤].



(١) الحديث (٨٤٨٢).

نظافة البيئة وأثرها على صحة المجتمع

لقد حثَّ الإسلام على نظافة المحيط، كالطرق وأماكن الجلوس وتجمع الناس وموارد المياه وغيرها، ونهى عن كل ما يخل بها: ومن ذلك إرشاد النبي ﷺ إلى إمطة الأذى عن الطريق، وعدم التخلي في طريق الناس وظلمهم، فقال ﷺ: «عرضت عليَّ أعمالُ أمتي حسنُها وسيئُها؛ فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن»^(١).



(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٥٥٣).

وقال أيضاً، ﷺ: «البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»^(١).
وأوصى ﷺ بإزالة كل أذى من طرق الناس فقال: «أمط الأذى عن الطريق فإنه
لك صدقة»^(٢).

وقال ﷺ: «اتقوا اللعَّانين»، قالوا: وما اللعَّانان يا رسول الله؟ قال: «الذي
يتخلى في طريق الناس وفي ظلهم»^(٣).

الدلالة النصية:

لقد حضت هذه النصوص على العناية بنظافة البيئة، حيث ورد فيها التوجيهات
الهامة، والتحذير من التسبب في إفساد الموارد الطبيعية، من هواء وماء وتراب،
وغير ذلك من ذرائع ووسائل نقل الكائنات الممرضة والأوبئة في سبق علمي مبهر.

الحقيقة العلمية:

إن الطعامَ والماء والهواء هي وسائل نقل الأوبئة بشكل رئيسي. ويعتبر تناول
الأطعمة الملوثة من أهم وسائل انتقال الأمراض، كالتيفود والزحار وشلل الأطفال
والتهاب الكبد الفيروسي، حيث تنتقل جراثيم المرض من براز المريض أو حامل
المرض إلى الإنسان، وذلك عن طريق اليد أو الآنية.

ونسبة حدوث ذلك تعتمد اعتماداً كبيراً على مستوى نظافة الفرد والبيئة
وتطورها، وإن المناطق الباردة الرطبة وذات الظل، تُعتبر جواً ملائماً لنمو أغلب
أنواع البكتيريا وبويضات الديدان، وذلك لخلوها من تأثير الأشعة فوق البنفسجية
القاتلة للجراثيم والبويضات.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٥٥٢).

(٢) مسند أحمد، حديث رقم (١٩٧٩٥)، قال مخرجه: (إسناده حسن).

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٦٩).

وبما أن البول والبراز يعتبران من مصادر هذه الجراثيم والديدان والبويضات، حيث يحتوي الجرام الواحد من البراز على أكثر من مائة ألف مليون جرثومة، وبعض الديدان منها تضع عدة آلاف من البويضات، لذلك نصح رسول الله ﷺ، بعدم التبول والتبرز في الظل، كما ذكرنا في حديث الذي يتخلى في طريق الناس وظلمهم.

كما أن نَفَخَ الرذاذِ وزفره يؤدي إلى انتقال كثير من الأمراض المعدية، كالأنفلونزا، وشلل الأطفال، والنكاف، والحصبة الألمانية، والرشح والتهاب الحلق والجدي والسيل، وغيرها من الأمراض وخاصة الفيروسية، لذلك وجه رسول الله ﷺ، أتباعه بعدم النفخ والتنفس في آنية الأكل والشرب: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يُتَنَفَسَ في الإناء أو يُنْفَخَ فيه» أبو داود^(١).

وذلك منعًا لانتشار الأمراض المعدية، ومن هنا فقد وصى النبي ﷺ أتباعه بتغطية وجوههم أثناء العطاس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «كان إذا عطس غطى وجهه بيديه أو بثوبه، وغض بها صوته» رواه الترمذي^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تئأب أحدكم فليضع يده على فيه»^(٣).

إن الإنسان حينما يعطس بغير حائل، ينتشر الرذاذ من فمه وأنفه لمسافة تتراوح حوالي ثلاثة أمتار، ويظل الرذاذ الدقيق معلقًا في الهواء، وهو مليء بعدد هائل

(١) سنن أبي داود، حديث رقم (٣٧٢٨)، وسنن الترمذي، حديث رقم (١٨٨٨)، قال الألباني: (صحيح).

(٢) سنن أبي داود، حديث رقم (٥٠٢٩)، وسنن الترمذي، حديث رقم (٢٧٤٥)، قال الألباني: (حسن صحيح).

(٣) مسند أحمد، حديث رقم (١١٨٨٩)، قال مخرجه: (إسناده صحيح على شرط مسلم).

من الكائنات الدقيقة تصل إلى ثلاثة مليون جرثومة في السنتيمتر المربع من الرذاذ المعلق.

فلتخيل كم هي الآثار الضارة والمدمرة لهذا السلوك المشين؟!.

وجه الإعجاز:

لقد وردت هذه النصوص التي تحض على العناية بالبيئة، والامتناع عما يفسدها، منذ أربعة عشر قرناً، حيث كان البشر على جهالة تامة بعلم الميكروبات والكائنات الدقيقة، التي تتسبب في حصول الأوبئة والأمراض الفتاكة، التي اكتشفت في عصرنا هذا، من خلال الاستعانة بوسائل التقنية الحديثة.

مما يدل على أن النبيّ الأمي محمد ﷺ إنما تكلم بوحي من خالق الكون، فكان ذلك التطابق بين دلالة نص الحديث النبوي الشريف، والحقيقة العلمية الثابتة والمستقرة، مثلاً للإعجاز العلمي.

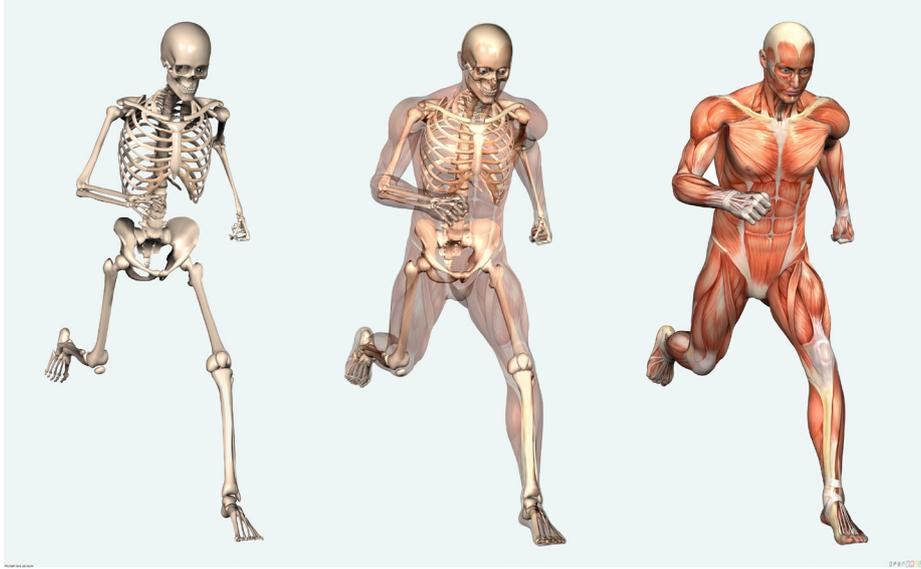


سبق التقدير في الخلق

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].



قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣] دلالة صريحة على أن كل كائن في الوجود مخلوق ومهيأ، بلا علم منه ولا إدراك، وموجه بقصد وفق غرائز موروثه للوجهة الصحيحة

ابتداء، كي يؤدي وظائفه، متأقلمًا مع بيئته بطرق غاية في الإحكام والإتقان، تمكنه من الحفاظ على ذاته وعلى نوعه.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

أي: هو ربنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ من الأشياء خلقه أي: صورته، وشكله اللائق، بما نيظ به من الخواص والمنافع، أو أعطى مخلوقاته كلَّ شيءٍ تحتاج هي إليه وترتفق به، وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به، أو أعطى كلَّ حيوان نظيره في الخلق والصورة؛ حيث زوج الحصان بالفرس، والبعير بالناقة، والرجل بالمرأة، ولم يزوج شيئًا من ذلك بخلاف جنسه.

وقرئ خَلَقَهُ على صيغة الماضي: على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه، وحذف المفعول الثاني:

إما للاختصار على الأول، أي: كل شيء خلقه الله تعالى، لم يحرمه من عطائه وإنعامه.

أو للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال.

أي: أعطى كلَّ شيءٍ خلقه الله تعالى ما يحتاج إليه ﴿ثُمَّ هَدَى﴾، أي: إلى طريق الانتفاع والاتفاق بما أعطاه، وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله.

ولما كان الخلق الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء، وتسوية الأجسام، متقدما على الهداية التي هي عبارة عن إبداع القوى المحركة، والمدركة في تلك الأجسام، وسَطَّ بينهما كلمة التراخي.

ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق، وأسلوب لائق، حيث بين أنه تعالى عالم قادر بالذات، خالق لجميع الأشياء، منعمٌ عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضل، وضمَّنه: أن إرساله تعالى إلى الطاغية من جملة هداياته تعالى

إياه، بعد أن هداه إلى الحق بالهدايات التكوينية، حيث ركب فيه العقلَ وسائر المشاعر، والآلاتِ الظاهرة والباطنة^(١).

الحقيقة العلمية :

انتهت العلوم الطبيعية جميعا، مثل الفلك والفيزياء وعلم الأحياء إلى نفي الصدفة العمياء، ووجود تقدير مسبق في الخلق، وتربط وانسجام تام على كافة المستويات ونظم ثابتة، وإلا ما كانت العلوم الطبيعية جميعا لتكشف القوانين الثابتة.

قال الفيزيائي هاوكنج Hawking: "ليس كل تاريخ العلم إلا التحقق التدريجي من أن الأحداث لم تقع بطريقة اعتباطية؛ وإنما هي انعكاس لترتيب ونظام ضمني أكيد".

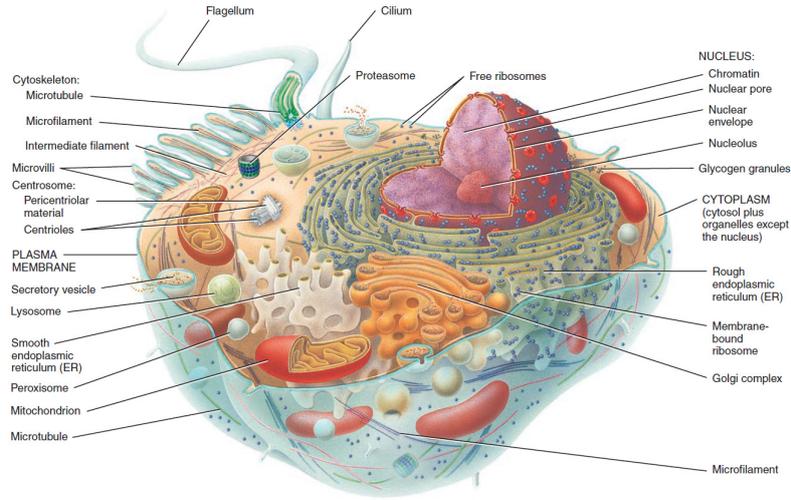
وقال: " طالما أن للكون بداية (واحدة أكيدة) فحتمًا لا بد له من خالق (واحد)".

والخلية الحية مثلا أكثر تعقيدا وروعة في أداء وظائف الحياة مما كان يظن دعاة الصدفة في القرن التاسع عشر؛ فهي تحتوي على محطات لتوليد الطاقة، ومصانع مدهشة لإنتاج الإنزيمات، وأنواع من الهرمون عديدة كلها لازمة للحياة، ولا يوجد في الخلية وظيفة تؤدي عبثا بلا فائدة.

وفيها نظم نقلٍ وخطوط أنابيب لنقل المواد الخام، والمنتجات ومختبرات بارعة، ومحطات تكرير تحلل المواد الخام إلى أجزائها الأبسط، وبروتينات حراسة متخصصة تغلف أغشية الخلية لمراقبة المواد الداخلة والخارجة، وبرنامج بالمعلومات الضرورية لتنسيق الأعمال لتقع في وقتها المناسب المقدر وراثيا سلفا داخل جيناتها.

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦ / ٢٠).

وقد رأى البعض بحساب الاحتمالات أنه أيسر لقرء يعث بمفاتيح آلة كاتبة أن يصنع قصيدة صدفة من صنع بروتين واحد صدفة؛ فما بالك بالنظام والتخطيط والتصميم البديع الذي نراه في كل الكائنات الحية، وجميع التكوينات في الكون أجمع.



خلية حية ويظهر مدى التصميم البديع فيها

ونشأة خلية واحدة من ذاتها يعد احتمالا مستحيلا مثل احتمال قيام القرد بكتابة تاريخ البشرية كله على آلة كاتبة بلا أخطاء.

وقد بين السير فريد هويل Sir Fred Hoyle في مقالة نشرت عام ١٩٨١ أن احتمال ظهور أشكال الحياة صدفة يقارن بفرصة قيام سيل يمر بساحة خردة بتجميع طائرة بوينج ٧٤٧ صالحة للطيران، والنتيجة التي يقود إليها العلم والمنطق؛ وليس الإيمان فحسب، هي أن كل الكائنات في الوجود قد جاءت بتقدير وقصد.

ومن يظل معتقدا في عصرنا بالفلسفة المادية، بعدما دحضها العلم في مجالات علمية شتى، عليه ألا يحسب نفسه من المحققين، قال ماكس بلانك: «ينبغي على كل من يدرس العلم بجدية أن يقرأ العبارة الآتية على باب محراب العلم: (تَحَلَّى بِالْإِيمَانِ)».

وقال الدكتور مايكل بيهي: "على مدى الأربعين سنة الماضية اكتشف علم الكيمياء الحيوية.. أسرار الخلية، وقد استلزم ذلك تضافر جهود عشرات الآلاف من الأشخاص الذين قضوا زهرة حياتهم في البحث العلمي .. وقد تجسدت نتيجة كل هذه الجهود المتراكمة.. لدراسة الخلية.. في صرخة عالية مدوية تقول: التصميم المبدع؛ والتصميم المبدع يؤدي حتمًا إلى التسليم بوجود الخالق".

وجه الإعجاز:

إن تجدد الخلق في الأحياء لتحمل نفس سمات وسلوك الأسلاف، والوظائف المحددة لكل خلية وعضو، وتكيف كل كائن مع بيئته بما يحفظ حياته وبقاء نوعه، وانسجام كل عضو في الجسم مع مثيله، وتناسب كل زوج مع جنسه ونظيره؛ هو عند النابهين دليل أكيد على سبق التقدير وحسن التدبير، ناطقا بجلال المبدع القدير، وهذا ما يُعلنه القرآن الكريم، ولا يصعب إدراكه حتى على البسطاء:

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣].





b

الإعجاز العلمي في عجب الذنب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلقت وفيه يركب»^(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد في المسند ومالك في الموطأ.

الدلالة النصية:

عجب الذنب هو بفتح العين المهملة وإسكان الجيم وآخره باء موحدة، ويقال له عجم الذنب بالميم أيضا: وهو العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وأعلى ما بين الألتين، وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع من الحيوان.



قوله: «يأكله التراب» يحتمل أن تعدم أجزاءه بالكلية، ويحتمل أنها باقية لكن زالت أعراضها المعهودة، أنه لهذا أضيف إلى الذنب طرح وفيه أن عجب الذنب لا يبلى ولا تأكله الأرض، بل يبقى على حاله، وإن بلي جميع جسد الميت، وبهذا قال جمهور العلماء من السلف والخلف^(٢).

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٤٢/٢٩٥٥)، وأحمد، حديث رقم (٨٢٨٣)، واللفظ له، وصحيح البخاري، حديث رقم (٤٨١٤) بنحوه، وانظر تخريجه مفصلاً في مسند أحمد (٣٨/١٤).

(٢) طرح الشريب في شرح التقريب (٣/٣٠٧-٣٠٨).

الحقيقة العلمية :

اكتشف علماء الأجنة أن الإنسان في مراحل تخليقه الأولية تتخلق جميع أعضائه من جزء واحد، يظهر هذا الجزء قبل أن يتكون أي: عضو ويسمى الشريط الأولي. ومنه تتخلق جميع أعضائه وأنسجته، ثم يستقر بعد ذلك في منطقة العصعص آخر فقرة أسفل العمود الفقري، وليبان ذلك:

تبدأ حياة ابن آدم عندما يقوم الحيوان المنوي بتلقيح البويضة لتتكون أول خلية، والتي تسمى الزيجوت، هذه الخلية تبدأ في التكاثر؛ فتتقسم إلى خليتين، ثم إلى أربع، ثم إلى ثمان، وهكذا حتى تصبح كتلة كروية من الخلايا، تسمى الموريولا، ثم تتظم خلايا الموريولا على شكل طبقتين؛ ليتحول الجنين إلى قرص جنيني مكون من طبقتين الظهريّة الأيبلاست والطبقة الداخلية الهيبوبلاست. في اليوم الخامس عشر من عمر الجنين يظهر الشريط الأولي على طبقة الأيبلاست، وتكون نهايته الرأسية مديبةً، تسمى العقدة الأولية.

بمجرد ظهور هذا الشريط، تقوم خلايا طبقة الأيبلاست بالهجرة إليه، ومن ثم تتكاثر بداخله وتنمو تجمعاتها، وبعد ذلك تأخذ التعليمات من الشريط الأولي، وتدخل إلى تجويف القرص الجنيني مكونة طبقة الميزودرم، وطبقة الاندودرم، والحبل الظهري.

يتكون من طبقة الميزودرم العظام، والعضلات، والجهاز الدوري، والكليتان؛ ويتكون من الاندودرم الجهاز الهضمي، والتنفسي، والبولي، عدا الكليتين؛ ويتكون من الحبل الظهري الجهاز العصبي المركزي الذي يتكون من المخ والحبل الشوكي. إذن من الشريط الأولي تكونت جميع أعضاء الجنين.

بعد أن يؤدي الشريط الأولي دوره في تخليق طبقات وأعضاء الجنين يصغر حجمه ويستقر في آخر فقرة أسفل العمود الفقري، ليكون عجب الذنب الذي أخبرنا عنه نبينا ورسولنا محمد ﷺ.

وجه الإعجاز:

أخبرنا نبينا محمد ﷺ: أن ابن آدم يتم تخليقه من جزء واحد، يقع في أسفل العمود الفقري، يسمى عجب الذنب، ومنه يُعاد تركيب الإنسان يوم القيامة، وهو يقاوم عوامل البلى، وجاء العلم الحديث، فاكتشف علماء الأجنة هذا الجزء، وأنه يتم تخليق أعضاء الجنين منه، ثم يستقر في آخر فقرة أسفل العمود الفقري. ليدل على صدق ما جاء به نبينا محمد بن عبد الله ﷺ وأنه رسول من عند الله.





نوم القيلولة

عن أنس قال رسول الله ﷺ: «قِيلُوا.. . فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ»^(١).
قال الألباني: «حسن» رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب عن أنس^(٢).

الدلالة النصية:

قوله: (قيلوا): أمر من القيلولة، قال الجوهرى: وهي النوم في الظهر، وقال الأزهرى: القيلولة والقييل عند العرب الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن معه نوم بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] والجنة لا نوم فيها، وعمل السلف والخلف على أن القيلولة مطلوبة لإعانتها على قيام الليل.

(فإن الشياطين لا تقيل): ومخالفتهم مرادةً لله تعالى، والحديث ظاهر في أن الحث عليها لمخالفة الشياطين، وقال حجة الإسلام: إنما تطلب القيلولة لمن يقوم بالليل، ويسهر في الخير، فإن فيها معونة على التهجد، كما أن في السحور معونة على صيام النهار، فالقيلولة من غير قيام بالليل كالتسحر من غير صيام النهار^(٣).

الحقيقة العلمية:

وقد أتى العلم الحديث ليؤكد فوائد نوم القيلولة في زيادة إنتاجية الفرد، وتحسين قدرته على متابعة نشاطه اليومي.

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢ / ٨١٥)، حديث رقم (٤٤٣١).

(٢) الصحيحة (١٦٤٧).

(٣) التنوير شرح الجامع الصغير (٨ / ٩٩) محمد بن إسماعيل الصنعاني، المعروف بالأخير.

وأكد الباحثون في دراسة نشرت في مجلة «العلوم النفسية» عام ٢٠٠٢: أن القيلولة لمدة ١٠ - ٤٠ دقيقة (وليس أكثر) تكسب الجسم راحة كافية، وتخفف من مستوى هرمونات التوتر المرتفعة في الدم، نتيجة النشاط البدني والذهني الذي بذله الإنسان في بداية اليوم.

ويرى العلماء أن النوم لفترة قصيرة في النهار يريح ذهن الإنسان وعضلاته، ويعيد شحن قدراته على التفكير والتركيز، ويزيد إنتاجيته وحماسه للعمل.

وأكد الباحثون أن نوم القيلولة في النهار لمدة لا تتجاوز ٤٠ دقيقة لا تؤثر على فترة النوم في الليل، أما إذا امتدت لأكثر من ذلك، فقد تسبب الأرق وصعوبة النوم.

وتقول الدراسة التي تمت تحت إشراف الباحث الأسباني د. إيسكالانتي: «إن القيلولة تعزز الذاكرة والتركيز، وتفسح المجال أمام دورات جديدة من النشاط الدماغي في نمط أكثر ارتياحاً».

كما شدد الباحثون على عدم الإطالة في القيلولة، لأن الراحة المفرطة قد تؤثر على نمط النوم العادي.

وأشار الدكتور «إيسكالانتي» إلى أن الدول الغربية بدأت تُدرجُ القيلولة في أنظمتها اليومية، وأوصى بقيلولة تتراوح بين ١٠ - ٤٠ دقيقة.

ولقد ثبت ارتفاع تأثيرات هرمون الأدرينالين في هذا الوقت لوجود تغيرات دورية لها علاقة بذلك الارتفاع، ولذلك فإن الجسم وخاصة العضو الحيوي فيه، وهو القلب، يمر بمجهود مرتفع في هذه الفترة، لذلك من الأحسن أن لا تعرّضه إلى التوتر ومسببات الإجهاد الإضافي، حيث يفرض على القلب عملاً زائداً عن عمله الفسيولوجي المرتفع أصلاً في هذه الفترة.

والقيلولة تسحب الإنسان لفترة ما من خِصَمِّ حياته اليومية، وما فيها من مسببات التوتر الحاد، ولذلك فإنها وسيلة وقائية من الوقوع في الأزمات القلبية

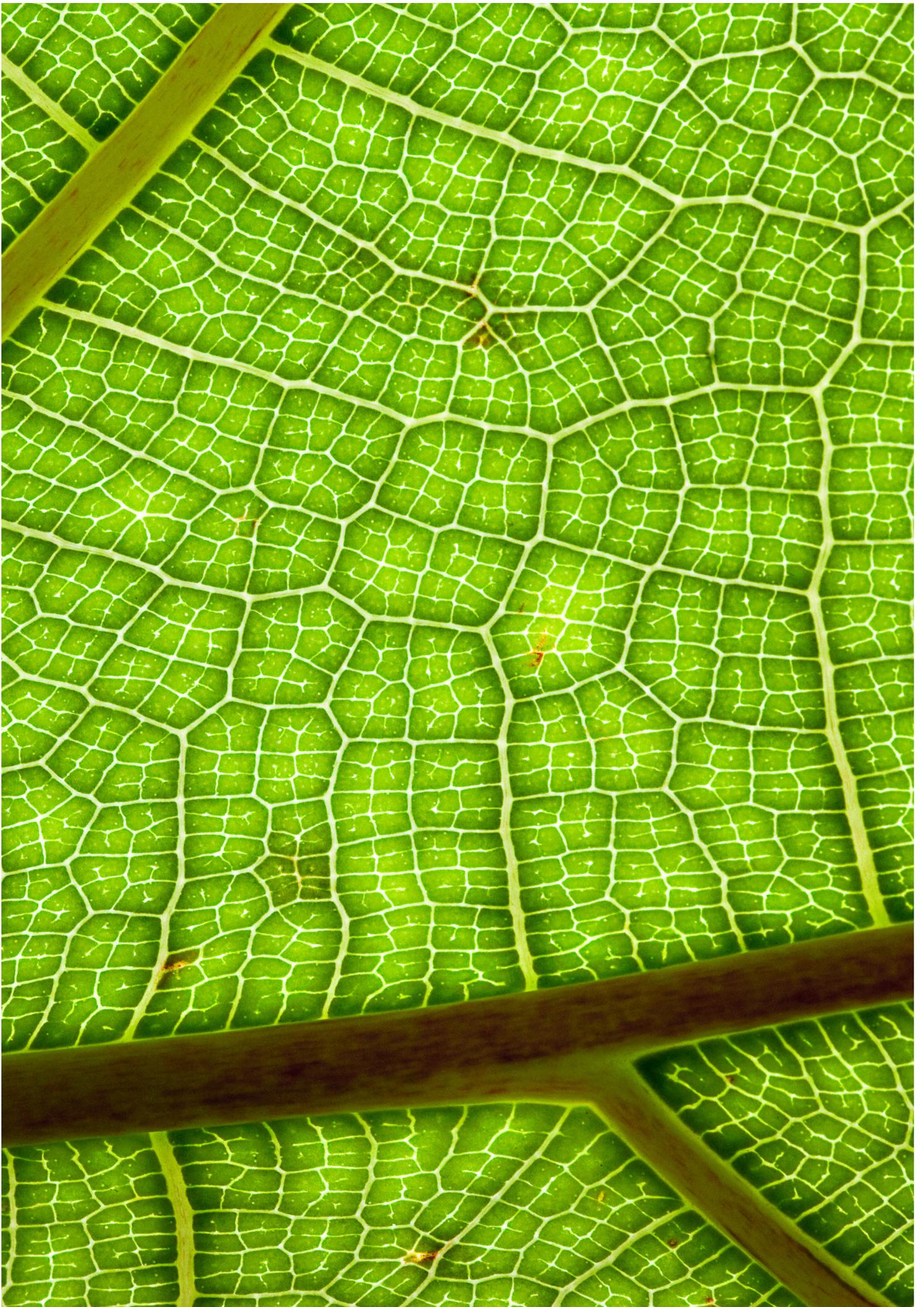
وغيرها، حيث إن الاسترخاء والراحة يزيح ذلك المجهود، ويمنع من تجاوز خط الإجهاد الأحمر الذي يحدث فيه ما لا تحمد عقباه.

وخلاصة القول: إن الأدرينالين يرتفع بعد الزوال إلى حد الذروة، مع ما يتبع ذلك من كثافة في عمل القلب؛ فتأتي القيلولة لتوفر له الهدوء والاسترخاء، وتبعده عن الإثارة، وبالتالي تخفض من كمية الأدرينالين المفرز في هذا الوقت.

وجه الإعجاز:

يرشدنا الرسول ﷺ إلى النوم، ولو لفترة وجيزة في منتصف النهار، وغالبًا تكون هذه الفترة مناسبة بين الظهر والعصر، وهي التي تسمى بفترة القيلولة، وقد جاء الكشف العلمي الحديث بحقيقة مفادها: أن في الركون إلى الراحة خلال هذه الفترة وقاية للإنسان من الأزمات القلبية، ووقاية من الإجهاد النفسي، فكان في ذلك التطابق شاهد آخر من شواهد الإعجاز العلمي؛ لأن الناس في زمن التنزيل لم يكونوا على دراية بتلك الحقيقة.





تكوين الحبوب من المادة الخضراء

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرُجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

الدلالة النصية:

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾: أي من النبات.

﴿خَضِرًا﴾: أي شيئاً غضاً أخضر ﴿نُخْرُجُ مِنْهُ﴾: أي من الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾: أي بعضه على بعض.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا﴾: الطلع: غلاف يشبه الكوز يفتح عن حب منضود فيه مادة إخصاب النخلة.

﴿قِنْوَانٌ﴾: جمع قنو وهو العذق الذي هو عنقود النخل.

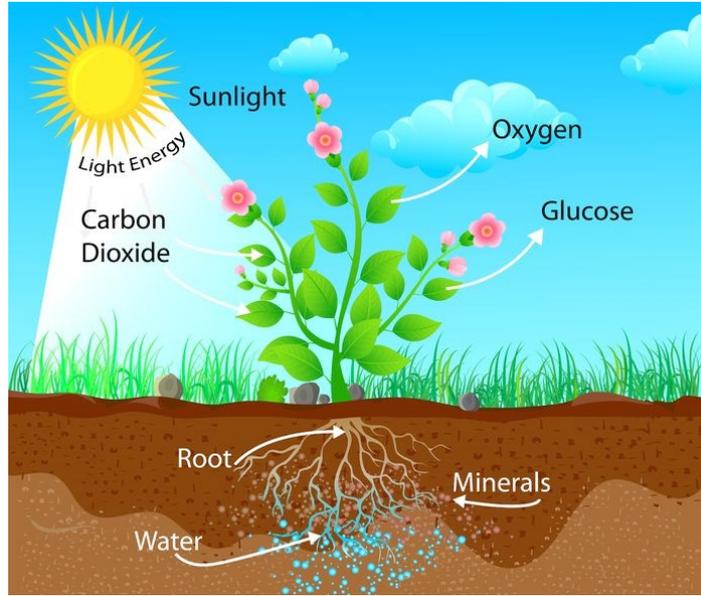
﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾: أي وأخرجنا جنات من أعناب.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾: مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها، وقيل متشابهة في المنظر، مختلف في المطعم.

ويقر القرآن الكريم أن المادة الخضراء هي أصل في تكوين كل المواد التي تنتج منها الأزهار والثمار، وتنمو بها الزروع والأشجار، وبالتالي فإن ما يتفق به الإنسان من مختلف الغراس والمزروعات ترجع في أصل الأنعام بها إلى ذلك اليخضور.

الحقيقة العلمية :

هذه المصانع الخضراء تخرج من النبات عند بدء نموه، والنبات يخرجه الماء من بذوره وأصوله. ويخرج من النبات هذه الأوراق أو المصانع الخضراء التي منها تخرج المواد الغذائية التي تتكون منها الحبوب والثمار، بل وسائر أجزاء النبات.



وهذه الحقيقة جهلتها البشرية، ولم تعرفها إلا بعد بحث استغرق ثلاثمائة عام، بداية من عام ١٦٠٠م، حيث أجرى علماء فسيولوجيا النبات أبحاثاً وتجارب كثيرة؛ لمعرفة عملية البناء الضوئي.

ففي عام ١٨٠٤م قال دي سواسير: "إن هناك نوعين من التبادل الغازي، أحدهما: يحدث في الضوء، والآخر في الظلام، وإن الأجزاء الخضراء هي التي تمتص ثاني أكسيد الكربون، وتطلق الأوكسجين في الضوء".

واستمرت الاكتشافات المتواصلة في هذا المجال، وفي عام ١٩٤٢م قال ماير: «إن المصدر النهائي للطاقة المستخدمة في كل من النبات والحيوان هي الشمس، وإن الطاقة الضوئية عندما تُمتص في النباتات تتحول إلى طاقة كيميائية، عن طريق التمثيل الضوئي».

وقال جلاس ١٩٦١م: إن المركبات الأكثر أهمية في تحويل الطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية في النبات، هي الصبغات التي توجد داخل البلاستيدات الخضراء «أو حاملات الصبغات». ينتج عنها بناء خامات الجدار الخلوي والأحماض النووية والبروتينات والدهون والهرمونات النباتية والصبغات... الخ.

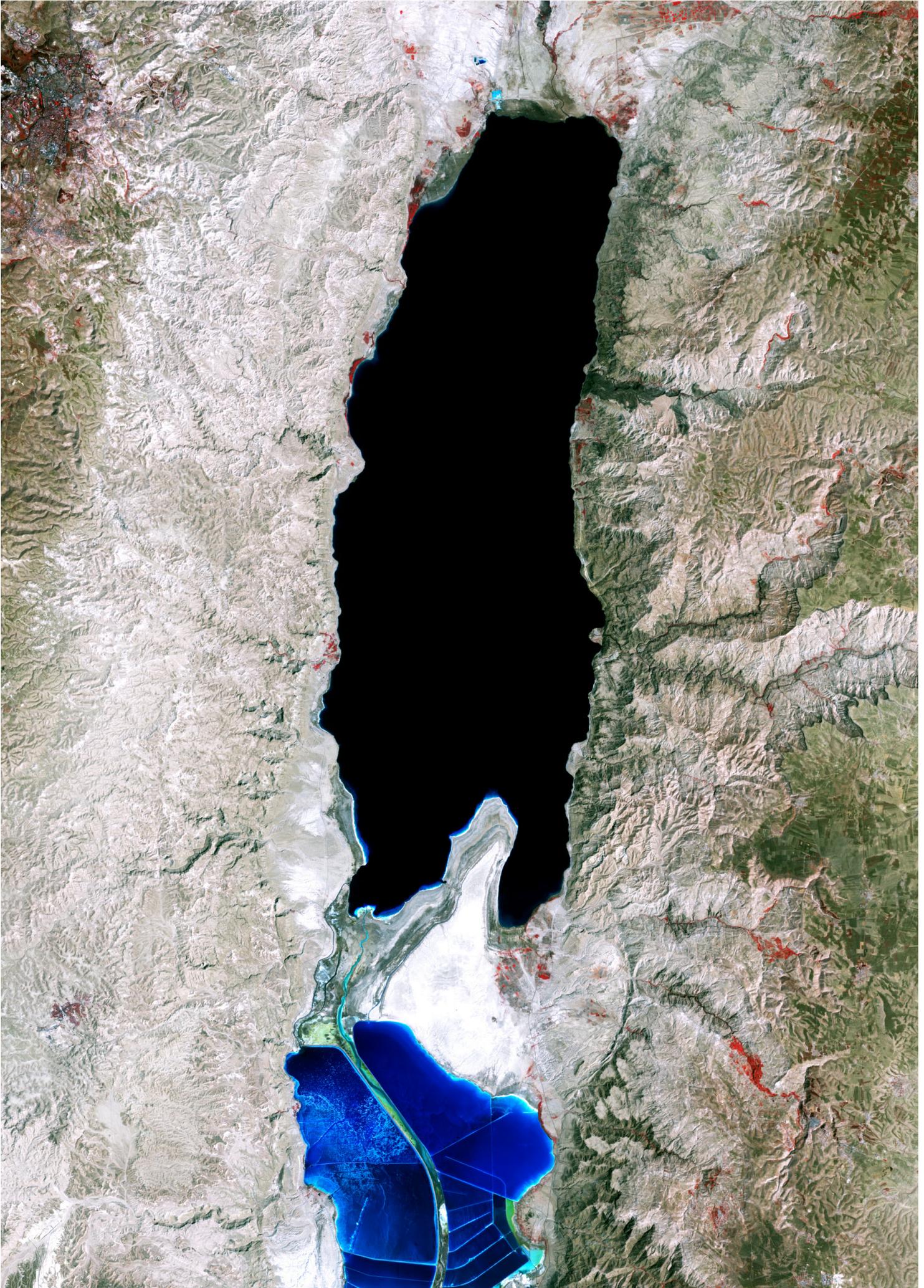
وجه الإعجاز:

من عظمة القرآن الكريم أن يذكر الحقيقة، وأن يأخذ بأيدي الناس للوقوف على أول الطريق، لمن أراد معرفة السر، فيقول: «انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه»، فهو يوجه النظر إلى بداية تكون الثمرة وعلاقتها بالإيناع، الذي يتوقف عنده إنتاج تلك الثمار؛ بسبب اصفرار أوراق بعض النباتات وموت خلاياها.

فمن أخبر محمداً ﷺ بهذه الحقيقة؟ إن اشتمال القرآن على هذه المعلومات النباتية الدقيقة يشهد أنه من عند الله القائل: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].







الأرض وعلوم البحار

أخفض منطقة على وجه البسيطة

قال تعالى: ﴿الْم ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ١-٦].

الدلالة النصية:

قال الماوردي: فأما قوله تعالى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ ففيه قولان:

أحدهما: في أدنى أرض فارس؛ حكاها النقاش.

الثاني: في أدنى أرض الروم، وهو قول الجمهور وفي أدنى أرض الروم أربعة أقاويل:

* أحدها: أطراف الشام، قاله ابن عباس.

* الثاني: الجزيرة وهي أقرب أرض الروم إلى فارس، قاله مجاهد.

* الثالث: الأردن وفلسطين، قاله السدي.

* الرابع: أذرعات الشام وكانت بها الوقعة^(١).

قال الشعراوي: قوله ﴿أَدْنَى...﴾ [الروم: ٣] يعني: أقرب لأرض العرب، كما في ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال: ٤٢]: فالعُدوة الدنيا أي: القرية من المدينة، والقُصوى البعيدة عنها. فالمعنى ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ...﴾ [الروم: ٣] أقرب أرض للجزيرة العربية.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّغُلُبُونَ﴾ [الروم: ٣] بشرى للمسلمين، فالفرس قوم كانوا يعبدون النار، أما الروم فأهل كتاب، إذن: فالخلاف بيننا وبين الفرس في القمة الإلهية، أمّا الخلاف بيننا وبين الروم ففي القمة الرسالية، فَهُمْ أقرب إلينا؛ لأنهم يؤمنون بإلهنا، وإن كانوا لا يؤمنون برسولنا.

وهذا من عظمة الإسلام، فالذي يؤمن بالإله أقرب إلى نفوسنا من الذي لا يؤمن بالإله؛ لأنه على الأقل موصول بالسماء؛ لذلك لما غلبت الروم فرح كفار قريش وحزن المؤمنون، وفرح كفار قريش لأن في هزيمة الروم دليلاً على أن محمداً وأصحابه سينهزمون كأصحابهم^(٢).

قال ابن عاشور: قوله: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾: أي أدنى بلاد الروم إلى بلاد العرب. فالتعريف في الأرض للعهد، أي: أرض الروم المتحدثة عنهم، أو اللام عوض عن المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم، أو أدنى أرض الله. وحذف متعلق أدنى لظهور أن تقديره: من أرضكم، أي: أقرب بلاد الروم من أرض العرب، فإن بلاد الشام تابعة يومئذ للروم، وهي أقرب مملكة للروم من بلاد العرب. وكانت هذه الهزيمة هزيمة كبرى للروم^(٣).

(١) تفسير الماوردي = النكت والعيون (٤ / ٢٩٨).

(٢) تفسير الشعراوي (ص: ٧٠٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٢١ / ٤٣).

الحقيقة العلمية :

توضح المصورات الجغرافية مستوى المنخفضات الأرضية في العالم، فنرى أن أخفض منطقة على سطح الأرض هي تلك المنطقة التي بقرب البحر الميت في فلسطين، حيث تنخفض عن سطح البحر بعمق حوالي ٤٠٠ (٣٩٥) مترًا، وقد أكدت ذلك صورٌ وقياساتُ الأقمار الاصطناعية.

وهذا مثال مدهش عما يكشفه القرآن الكريم عن المستقبل، يمكننا أن نجدَه في تلك الآيات الأولى من سورة الروم، التي تشير إلى الإمبراطورية البيزنطية؛ وهي الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، إذ تذكر هذه الآية أن الإمبراطورية البيزنطية هزمت هزيمة نكراء، ولكنها سوف تنتصر بعد ذلك بوقت قصير.

والآية التي نتحدث عن هذا الموضوع نزلت بعد هزيمة الإمبراطورية على يد الفرس الوثنيين، وقد أشارت الآية إلى أن الروم البيزنطيين سوف يحرزون النصر في معركة أخرى قريبة.

وبالفعل فقد عانى الروم البيزنطيون حينها من خسائرٍ جسيمةٍ، جعلت أمرَ بقاءِ إمبراطوريتهم على المحك، ولذلك كان من المستبعد انتصارها مرة أخرى، فلم يكن الفرسُ فقط هم الخطرُ الوحيد الداهم، بل كان معهم أيضًا العفاريون، والسلاف، واللومبارديون.

فقد وصل العفاريون إلى أسوار القسطنطينية، فأمر إمبراطور البيزنطيين آنذاك هرقل أن يصهروا الذهب والفضة الموجودة في الكنائس، ويحولوها إلى أموال تغطي نفقات الجيش، وعندما لم يكن ذلك كافيًا، أُذيت حتى التماثيل البرونزية وحُوِّلت إلى أموال، مما ألبَّ الكثير من الولاة ضد هرقل، ووصلت الإمبراطورية في عهده إلى مشارف الانهيار. فقد غزا الفرس الوثنيون كلاً من وادي الرافدين وسوريا وفلسطين ومصر التي كانت من قبل تحت الحكم البيزنطي.

وباختصار فإن الجميع كانوا يتوقعون أن تدمر الإمبراطورية البيزنطية، وفي تلك الظروف نزلت الآيات الأولى من سورة الروم بغير المتوقع من الجميع، لتعلن أن الإمبراطورية البيزنطية سوف تحرز النصر في غضون بضعة سنوات من هزيمتها.

وهذا النصر بدا مستحيلًا في أعين العرب المشركين، إلى درجة دفعت بهم إلى السخرية من هذه الآيات القرآنية، وظنوا أن هذا النصر الموعود في القرآن لن يتحقق.

وبعد ما يقارب السبع سنوات من نزول الآيات من سورة الروم، في شهر ديسمبر من عام ٦٢٧م وقعت معركة حاسمة بين البيزنطيين وإمبراطورية الفرس بمنطقة ناي نيفا Nineveh، وهذه المرة ولدهشة الكل هزم البيزنطيون الفرس.

وبعد أشهر قليلة لجأ الفرس إلى إبرام اتفاقية مع بيزنطة، تجبرهم على إعادة المناطق التي أخذوها من البيزنطيين، وبذلك تحققت معجزة القرآن الكريم عندما أخبر مسبقًا بانتصار الروم.

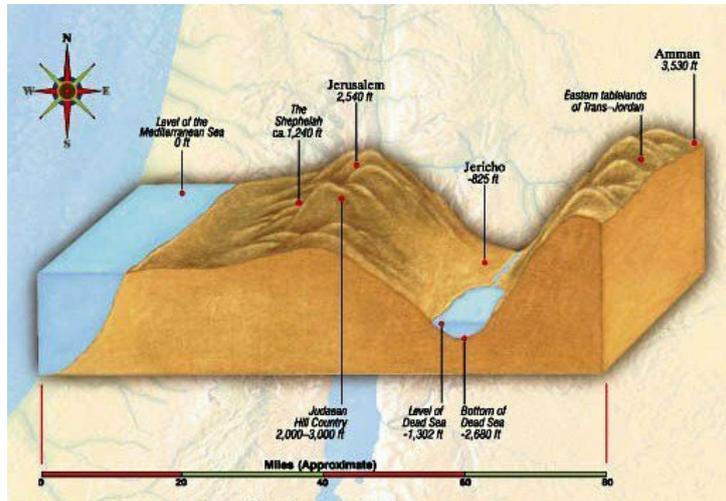
وهناك وجه إعجازي آخر في هذه الآيات، وهي أنها تقرر حقيقة جغرافية، لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، فالآية تخبرنا: أن الروم كانوا قد خسروا المعركة في أدنى منطقة من الأرض.

وتعبير «أدنى الأرض» في العربية يعني حسب التفاسير مكانًا قريبًا، ولكن هذا التفسير غير حصري، لأن كلمة أدنى لم تأت في هذه الآية بهذا المعنى فقط، فكلمة أدنى في اللغة العربية مشتقة من الدنو أو الدناءة، ولذا معناها إما الاقتراب أو التسفل والانخفاض في الحالة، وفق ما يمليه السياق وتشهد به القرائن.

ولذلك فإن تعبير أدنى الأرض بمعنى البسيطة يفيد هنا أكثر الأمكنة انخفاضًا في العالم، وأما معنى القرب وإن كان صحيحًا فهو نسبي وليس فيه تحديد وتقييد، فكل ما جاور مكة أو الجزيرة قريب.

والمثير للاهتمام أن شهادة الواقع تقول: إن أهم مراحل الحرب التي وقعت بين الروم والفرس وأسفرت عن هزيمة الروم وخسارتهم للقدس، حصلت في أكثر مناطق العالم انخفاضًا، في حوض البحر الميت، الذي يقع في منطقة تتقاطع فيها كل من سوريا والأردن وفلسطين، ويبلغ مستوى سطح الأرض هنا ما يقارب ٤٠٠ مترًا تحت سطح البحر، مما يجعل هذه المنطقة فعلاً أدنى منطقة في الأرض.

وأهم ما في الأمر أن ارتفاع بحر الميت لم يكن ليقاس في غياب تقنيات القياس الحديثة، ولذلك كان من المستحيل أن يعرف أي شخص في ذلك الوقت أن هذه المنطقة أكثر المناطق انخفاضًا في العالم، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة ذُكرت في القرآن، وهذا يؤكد مرة أخرى على أن القرآن هو وحيٌّ من عند الله تعالى.



ينخفض مستوى سطح البحر الميت عن مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط حوالي ٤٠٠ متر

ولقد وقعت هزيمة الروم على يد مملكة فارس عام ٦١٩م في منطقة بين أذرعات وبصرى قرب البحر الميت، وأصاب المسلمين الحزن نتيجة لانهزام الروم؛ لأنهم أهل كتاب، يدعو في الأصل إلى التوحيد، بينما الفرس مجوس

وعباد للنار، فوعد الله تعالى المسلمين بأن الفرس ستُغلب في المعركة الثانية بعد بضع سنوات، وأن نصر الروم سيتزامن مع نصر المسلمين على المشركين، وبضع سنوات هو رقم بين الخمسة والسبعة أو بين الواحد والتسعة كما يقول علماء اللغة.

وقد تحقق ما وعد به القرآن الكريم بعد سبع سنوات، أي ضمن المدة التي حددها من قبل، حيث وقعت معركة أخرى بين الفرس والروم سنة ٦٢٦م، وانتصر فيها الروم، وتزامن ذلك مع انتصار المسلمين على مشركي قريش، في غزوة بدر الكبرى.

وقد ذكرت الموسوعة البريطانية ما ترجمته: «البحر الميت بقعة مائية مالحة، مغلقة، بين (إسرائيل) والأردن، وأخفض جسم مائي على الأرض، فانخفاضه يصل إلى نحو ١٣١٢ قدم (حوالي ٤٠٠ متر) من سطح البحر، القسم الشمالي منه يقع في الأردن، وقسمه الجنوبي مقسم بين الأردن وإسرائيل، ولكن بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧ ظل الجيش الإسرائيلي في كل الضفة الغربية، ويقع البحر الميت بين تلال جُدَيَّة غربًا وهضاب الأردن شرقًا».

ويتجلى وجه الإعجاز في قوله تعالى: ﴿أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ حيث تعني كلمة أدنى في اللغة: أقرب وأخفض، فأخفض منطقة هي منطقة أغوار البحر الميت بفلسطين؛ تمامًا كما سجلته الأقمار الاصطناعية بعد أربعة عشر قرنًا.

وجه الإعجاز:

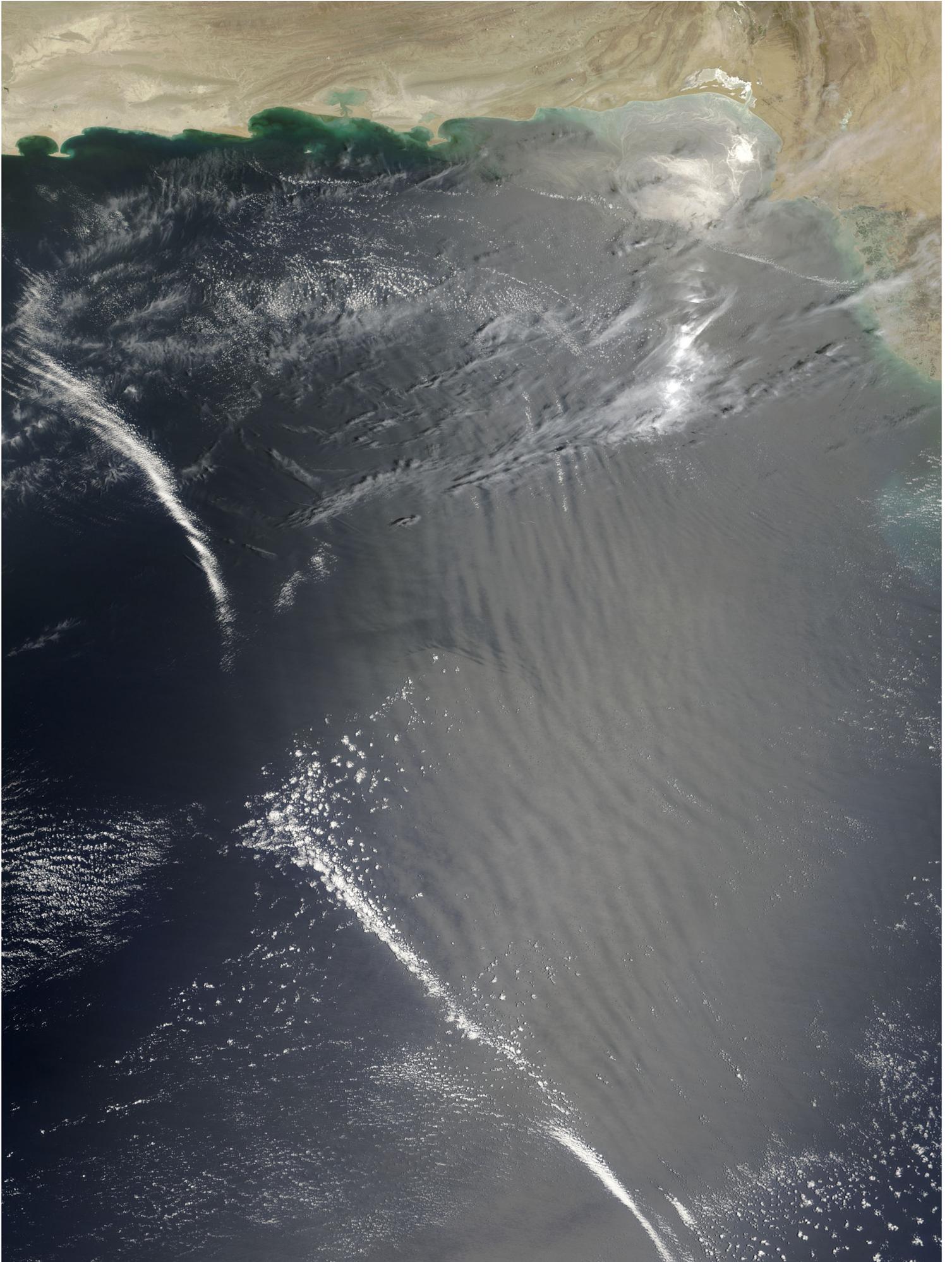
إن المتأمل في الآية القرآنية يلاحظ أنها قد وصفت ميدان المعركة الأولى بين الفرس والروم بأنه أدنى الأرض، وكلمة أدنى عند العرب تأتي بمعنيين: أقرب وأخفض.

فهي من جهة: أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية.

ومن جهة أخرى: هي أخفض منطقة على سطح الأرض، إذ إنها تنخفض عن مستوى سطح البحر بحوالي ٤٠٠ متر، وهي أخفض نقطة سجلتها الأقمار الاصطناعية على اليابسة، كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية.

وهذا تصديق للآية القرآنية الكريمة، فسبحان الله القائل: ﴿سُئِرِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].





ظلمات البحار العميقة

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرِنُهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

الدلالة النصية:

البحر اللجِّيُّ يعني: العميق، قال الشوكاني (ج ٤ ص ٥٨): «الذي لا يُدرك لعمقه»، وفيه تمثيل لأحوال المكابر النفسية من ظلمات واضطراب بأحوال حسية للبحر المحيط، وبهذا يتضمن التعبير بيانا لأحوال خفية للمحيطات العميقة Deep Ocean:

- * (أولا) تشتد الظلمة مع العمق.
- * (ثانيا) تتميز المحيطات بكثرة السحب التي تمتص وتعكس بعض ضوء الشمس.
- * (ثالثا) تعكس الأمواج السطحية بعض ضوء الشمس.
- * (رابعا) تيارات محيطية عميقة، تولد موجًا داخليًا، يعكس المزيد من الضوء.

الحقيقة العلمية:

لقد آمن الأقدمون بخرافات عديدة عن البحار والمحيطات، واعتقدوا بوجود حيوانات وحشية غريبة الخلقة، تعيش في أعماقها، ولم تتوفر حتى للبحارة آنذاك معرفة حقيقية عن الأحوال السائدة في أعماق البحار، وكانت المعلومات

عن التيارات البحرية نادرة، ولم تتوفر أية معلومات عن الأمواج الداخلية في العصور الماضية.

وسيطرت الخرافات فيما يتعلق بالمياه الراكدة التي لا يمكن أن تعبرها البواخر، واعتقد الرومان القدماء بوجود أسماك مصاصة، لها تأثيرات سحرية على إيقاف حركة السفن، وبالرغم من أن القدماء عرفوا أن الرياح تؤثر على الأمواج والتيارات السطحية، إلا أنه كان من الصعب عليهم أن يعرفوا شيئاً عن الحركات الداخلية في المياه.

ولم تبدأ الدراسة المتصلة بعلوم البحار وأعماقها على وجه التحديد إلا في بداية القرن الثامن عشر؛ عندما توفرت الأجهزة الضرورية لمثل هذه الدراسات المفصلة، ومعرفة كل تلك الظواهر التي أشارت إليها الآية الكريمة في أعماق المحيطات التي كانت مجهولة وقت نزول القرآن الكريم.

وأبسط جهاز علمي لقياس عمق نفاذ الضوء في مياه المحيط هو قرص سيتشي The Secchi Disk، ويتم إنزاله إلى الماء ليسجل العمق، وقد وصفه لأول مرة سيلادي وسيتشي Ciladi and Secchi عام ١٨٦٥.

وبالرغم من استعماله على نطاق واسع؛ إلا أن قياس هذا الاختراق في ماء البحر، بصورة أدق، لم يتحقق إلا باستخدام الوسائل التصويرية في نهاية القرن الماضي، باستخدام الخلايا الكهروضوئية، خلال الثلاثينيات فقط.

وينخفض مستوى الإضاءة في مياه المحيط المكشوفة إلى نسبة ١٠٪ من مستواه عند السطح عند عمق ٣٥م، وإلى ١٪ عند عمق ٨٥م، وإلى ٠,١٪ عند عمق ١٣٥م، وإلى ٠,٠١٪ عند عمق ١٩٠م.

والأسماك التي تعيش في أعماق البحار قد تتمكن أن ترى أفضل من ذلك؛ نتيجة لتكيف العين، لتستقبل أكبر كمية ممكنة من الضوء، إذا لم تكن مهياً للاستفادة من النور الحيوي المتولد كيميائياً لإضاءة المحيط حولها.

وأما ظاهرة الأمواج الداخلية فيعود الفضل في تفسيرها للدكتور ايكمان، عام ١٩٠٤م؛ حيث فسرها ما يعرف بظاهرة المياه الراكدة، التي توجد في الخلجان النرويجية، فالسفن التي تبحر في هذه الخلجان تفقد فجأة قدرتها على التقدم؛ فتقف ساكنة.

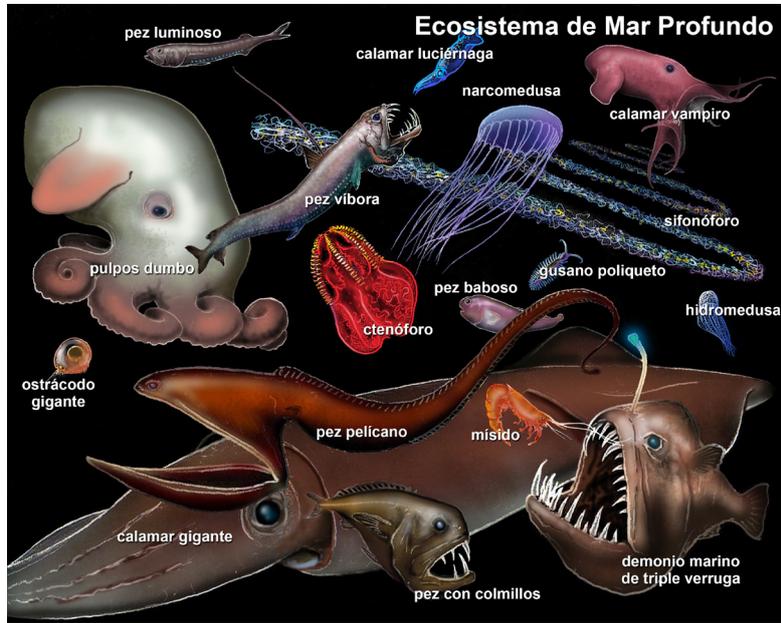


مضيق جبل طارق

ورأى ايكمان: أنها تنجم عن الأمواج الداخلية، التي تتولد على السطح الفاصل بين مياه السطح والمياه التي تحتها، ويتراوح طول الأمواج الداخلية من عشرات إلى مئات من الكيلومترات، ومرور الأمواج الداخلية يكون محسوساً بصورة أقوى من قبل الغواصات.

والأمواج الداخلية ظاهرة أصبحت معلومة في مضيق جبل طارق، وقد يتسبب التدفق الداخلي للتيار السطحي القوي، والتدفق الخارجي للتيار السفلي، في دخول الأمواج الداخلية من المحيط الأطلنطي إلى المضيق، كأنها أمواج متكسرة، مثل: الأمواج المُزبِدة على الشاطئ؛ مما يتسبب في تولد قدر كبير من الاضطرابات الداخلية.

- وقد جمعت الآية الكريمة كل تلك المعارف الحديثة ودلت بإيجاز على ما يلي:
- ✿ أن الظلام ينتشر في أعماق المحيطات.
 - ✿ أن مياه المحيطات تحوي الأمواج الداخلية.
 - ✿ أن هناك فوق الأمواج الداخلية طبقة مائية أخرى هي الطبقة السطحية التي تحوي الأمواج السطحية.
 - ✿ أن هذه الطبقات المائية تولد بالإضافة إلى الغيوم التي تعلوها طبقات من الظلام التدريجي.
 - ✿ أن شدة الظلام تتلازم مع الأمواج الداخلية في المياه العميقة.
 - ✿ أن الأحياء البحرية في أعماق المحيطات مزودة بنور يتولد ذاتيا لإضاءة المحيط حولها.



بعض الكائنات البحرية تعيش في الأعماق المظلمة وبعضها تمتلك إنارة ذاتية تنير ما حولها

وجه الإعجاز:

لقد تحدث القرآن الكريم عن ظلمات بعضها فوق بعض في أعماق البحار، وعن أمواج سطحية وداخلية، منذ ١٤ قرناً، واصفا لها وصفا دقيقا ومصورا لها تصويرا رائعا، يتفاعل معه الوجدان، وكأنه يراها رأي العين، في وقت لم تكن فيه أجهزة لقياس الأعماق، ولا غوصات ولا غيرها؛ مما توفّر للإنسان في العصور المتأخرة؛ مما يدل على أن في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. إعجاز علمي باهر.





البحر المسجور

يقول تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ١-٧].

الدلالة النصية:

قوله: والبحر المسجور فيه وجهان من التفسير للعلماء .

✽ أحدهما: أن المسجور هو الموقد نارا، قالوا: وسيضطرم البحر يوم القيامة نارا، من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

✽ الوجه الثاني: هو أن المسجور بمعنى المملوء، لأنه مملوء ماء، ومن إطلاق المسجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

فتوسطا عُرِضَ السَّرِيَّ وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مَتَجَاوِرًا قَلَامُهَا

فقوله: مسجورة، أي: عينا مملوءة ماء، وقول النمر بن تولب العكلي:

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والسأسما

وهذان الوجهان المذكوران في معنى المسجور هما أيضا في قوله: ﴿وَإِذَا

الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

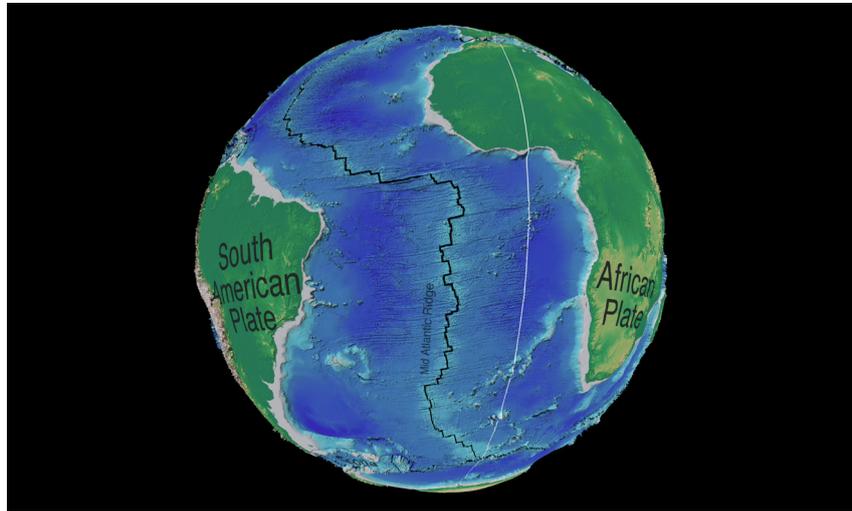
وأما الآية العامة التي أقسم فيها تعالى بما يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها،

فهي قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩]، لأن الإقسام في هذه الآية عام في كل شيء^(١).

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٧ / ٤٥٢).

الحقيقة العلمية :

اكتشف علماء الجيولوجيا أن قيعان جميع المحيطات متوقدة نارا، في مناطق الوديان العميقة، في منتصف المحيطات Mid-Ocean Rifts، ويوجد الشق الأعظم منتصف المحيط الأطلسي، وتبين أنها مناطق اللقاء بين الألواح القارية، وتحيط بها من الجانبين ارتفاعات جبلية شاهقة في قاع المحيط، لكن قممها دون سطح المحيط.



الشق العظيم في المحيط الأطلسي

وتفوق درجة الحرارة في تلك المناطق البركانية النشطة الألف درجة مئوية، ومع اندفاع الصهارة Magma على طول منتصف المحيط، تتكون سلسلة الجبال تلك، ويتسع المحيط في كلا الجانبين، والذي يُعرف بظاهرة امتداد قاع المحيط Spreading Sea-Floor.

وتندفع من هذه الصدوع في قيعان المحيطات الصهارة الصخرية، فلا الماء على كثرته يستطيع أن يطفىء جذوة الحرارة الملتهبة، ولا هذه الصهارة على ارتفاع درجة حرارتها (أكثر من ألف درجة مئوية) قادرة أن تبخر هذا الماء، وهذه الظاهرة من أكثر ظواهر الأرض إبهارًا للعلماء.

وقد قام الباحثون أناتول سجابفتيش، ويوري بجدانوف، ورونا كلنت، بالغوص على بعد ١٧٥٠ كم من شاطئ ميامي، وعلى عمق يزيد عن ٣ كم من السطح، على متن الغواصة الحديثة ميرا؛ فشهدوا حَمَمَ القاع، وسجلوا درجة حرارة خارج الكوة ٢٣١ درجة مئوية، وكانت تتفجر من تحتهم الينابيع الملتهبة.



صورة تبين تدفق الحمم في أعماق المحيط

وجه الإعجاز:

وقد تبين أن البراكين الممتدة في قيعان المحيطات أكثر عددًا وأعنف نشاطًا من البراكين على سطح اليابسة، ولا يمكن للمتأمل لسطح البحر المحيط بالعين أن يتصور أن قاعه ملتهبٌ يتأجج بالنيران، فالمعلوم أن الماء يطفئ النار.

ولم يتوصل العلم الحديث إلى هذه الحقيقة المدهشة إلا في أواخر ستينيات، وأوائل سبعينيات القرن العشرين، ولذا فإن سبق القرآن العظيم لهذه الحقيقة المدهشة المدفونة في قيعان المحيطات لخير دليل على صدق وحفظ هذا الكتاب الكريم.

لقد ثبت علمياً بعد بحوث متعددة ومشاهدات ميدانية: بأن أعماق المحيطات فيها براكين ملتهبة، وهي أكثر عدداً وأعنف نشاطاً من البراكين على سطح اليابسة، ولذلك فقيعان تلك البحار تبقى ملتهبة متأججة بالنيران رغم وجود الماء.

وهذه الحقيقة المدهشة لم يتوصل إليها العلماء إلا في الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين الماضي، فسَبَقُ القرآن العظيم لذكر هذه الحقيقة دليلٌ على ربانية القرآن، وصدق الرسول ﷺ.



الصدوع بين الصفائح القارية

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: ١١-١٤].

الدلالة النصية:

قوله: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾.

الصَّدْعُ: النبات، لأن الأرض تتصدع عنه، وهذا قول من قال: إن الرَّجْعَ المطر، وقال مجاهد: الصَّدْعُ: ما في الأرض من شعاب، ولصاب، وخندق، وتشقق بحرث وغيره، وهي أمور فيها معتبر، وهذا قول يناسب القول الثاني في الرَّجْع^(١).

الحقيقة العلمية:

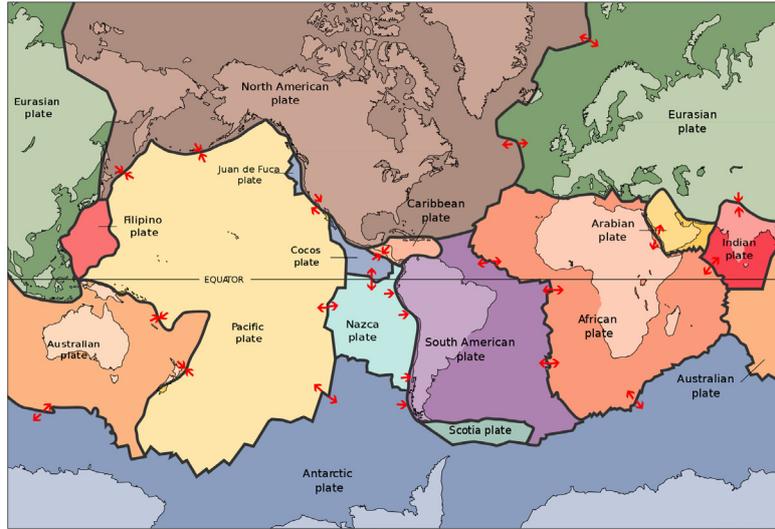
لقد قام العلماء برحلات عديدة، رصدوا فيها وجود قشور عميقة، تفصل بين أجزاء القشرة الأرضية، فأطلقوا اسم «الألواح القارية» على تلك الأقسام، وتسمى تلك الشقوق بالصدوع، وترجع أصول تلك الصدوع إلى صدع أصلي واحد يسمى اليوم «بالصدع الأعظم»، يقبع في منتصف المحيط الأطلسي.

إذ تتسم قشرة الأرض بصدوع عميقة، تقسمها إلى ألواح قارية، وتقع الصدوع الكبيرة غالباً في منتصف المحيطات.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٥ / ٤٦٦-٤٦٧).

ولكن لم يُعرف إلا مع الثورة العلمية في القرون الثلاثة الأخيرة أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الصدوع العملاقة، التي تحيط بكامل القشرة الأرضية إحاطة كاملة.

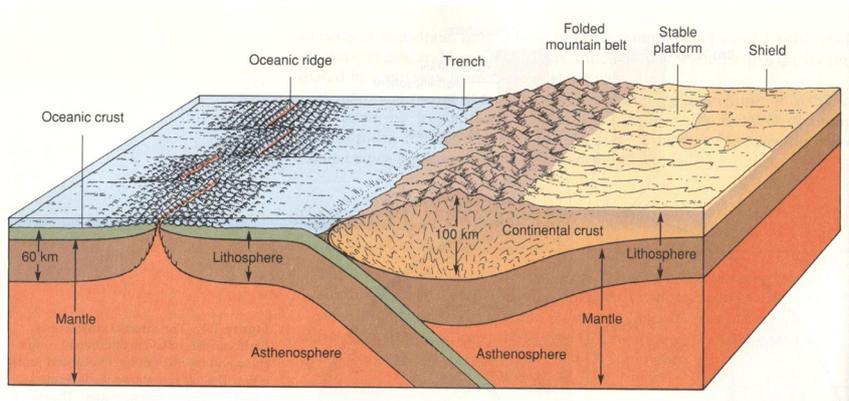
وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات، في جميع الاتجاهات، بأعماق تتراوح بين ٦٥ و ٧٠ كيلو مترا تحت قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان عددٍ من بحارها، وبين ١٥٠ إلى ١٠٠ كيلو مترا تحت القارات؛ ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم ألواح الغلاف الصخري للأرض.



تقسم القشرة الأرضية إلى عدد من القطع المتجاورات تسمى بالصفائح القارية

وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق لَدِنٍ شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة، وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تبرد وتعاود النزول إلى أسفل، فتدفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض، متباعدًا بعضها عن بعض في إحدي حوافها، ومصطدما بعضها مع بعض عند الحواف المقابلة، ومنزلقا بعضها عبر بعض عند بقية الحواف.

وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض عددٌ من الظواهر الأرضية المهمة، التي منها: اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتجدد صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتكوّن أواسط المحيطات سلاسلَ من الجبال، قد تظهر على السطح لتكوّن الجزر البركانية، وتكوّن أيضا السلاسلَ الجبلية عند حواف التصادم.



حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض

وتصاحب الهزات الأرضية الإزاحة بين لوحين، وقد تؤدي إلى تكوين الطفوح البركانية، ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من ٦٤ كيلومتر، وهي تتكون أساسا من الصخور البركانية المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وهي تحيط بالصدوع العملاقة.

ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر الصدوع العملاقة في وسط سلسلة الجبال البحرية، يتجدد قاع المحيط بأحزمة حديثة من الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الصدوع، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط في وسطه.

وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات، وتجمعها وتفتتها بصورة دورية، فيما يعرف باسم دورة القارات والمحيطات.

وفيها قد تنقسم قارةً ببحر طولي مثل البحر الأحمر إلى كتلتين أرضيتين، تتباعدان باتساع قاع البحر الفاصل بينهما، حتى يتحول إلى محيط.

كما قد يستهلك قاع محيط بالكامل تحت إحدى القارات بدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة، حتى تصطدما، مكونتين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية وتكوّن سلسلة جبال الهمالايا التي بها قمة إفرست أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة أو مصطدمة، وهي تعمل على تسريب الحرارة المختزنة في الباطن؛ نتيجة لتحلل العناصر المشعة؛ وإلا انفجرت الأرض.

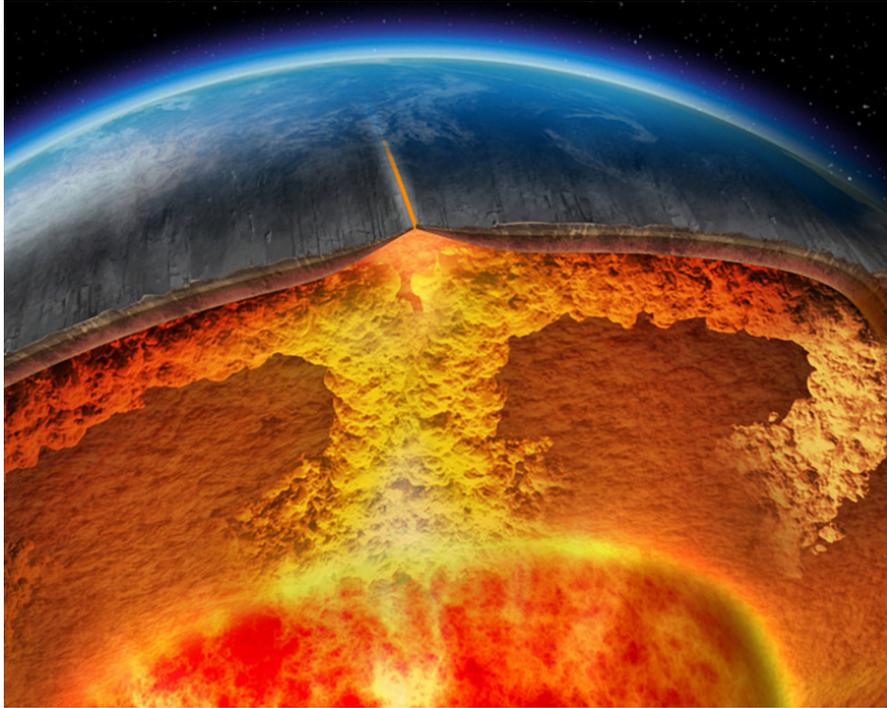
وعبر هذه الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصحارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية، تثري سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال حرارة الباطن. وعبر هذه الصدوع العملاقة وما صاحبها من فوهات البراكين انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلافي الأرض المائي والغازي.

وتشير الكثير من الشواهد إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مكونا من صخور أولية نتيجة لاندفاع الصحارة، وأن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد، وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات، فوق قاعه، على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسطه، ارتفعت قممها لتكون عددا من الجزر البركانية.

ومع تحرك تلك الجزر البركانية تصادم بعضها مع بعض لتكوّن نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها، لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم Pangaea، التي ما لبثت أن تفتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة

إلى القارات السبع الحالية، التي ظلت يتباعد بعضها عن بعض حتى وصلت إلى مواقعها الحالية.

ولم تصل البشرية إلى شيء من تلك الحقائق إلا في أواخر الستينات، وأوائل السبعينات من القرن العشرين، ومن هنا كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة، دليلاً حاسماً، على أنه لا مصدر لهذا الوصف إلا الوحي.



حمم منصهرة تتدفق من الطبقة الثالثة من خلال الصدوع

وجه الإعجاز:

لقد توصلت البشرية في أواخر القرن الماضي (العشرين) إلى الحقائق التي سبق ذكرها، والمتمثلة بأن هذه الأرض التي نحيا عليها منقسمة إلى كتل هائلة، تسمى «الألواح القارية»، وتفصل بينها شقوق عميقة، كلٌّ منها يسمى الصدع.

ولقد كانت هذه الحقيقة مما يستحيل معرفتها على البشر وقت التنزيل، فكان ذكر القرآن لها مثلاً باهراً من أمثلة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.. والله أعلم.



البرزخ والحاجز بين بحرين

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٣-٥٥].

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].



الدلالة النصية:

قول الحق جلّ جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلهما، وخلّاهما متجاورين متلاصقين غير متمازجين. هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ أي: شديد العذوبة، قامع

للعطش لعدوبته، أي: برودته، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ: بليغ الملوحة، أو: هذا عذب لا ملوحة فيه، وهذا ملح لا عدوبة فيه، مع اتحاد جنسهما.

وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا حَائِلًا بِقُدْرَتِهِ، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج لئلا يختلطا. وَحِجْرًا مَحْجُورًا، أي: وسترًا ممنوعًا عن الأعين، كقوله: حِجَابًا مَسْتُورًا، أي: جعل بينهما حاجزًا خفيًا؛ لئلا يغلب أحدهما الآخر، أو: سدًا ممنوعًا يمنعهما فلا يبغيان، ولا يفسد الملح العذب، ولو خلى الله تعالى البحر الملح، ولم يلجمه بقدرته، لفاض على الدنيا، واختلط مع العذب وأفسده^(١).

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾.

مرج البحرين، أي: أرسل بعضهما في بعض، وهما عند الإرسال بحيث يلتقيان، أو من شأنهما الاختلاط والالتقاء، ولكن الله تعالى منعهما عما في طبعهما، وعلى هذا يلتقيان حال من البحرين، ويحتمل أن يقال: من محذوف تقديره تركهما فهما يلتقيان إلى الآن ولا يمتزجان.

وعلى الأول: فالفائدة إظهار القدرة في النفع، فإنه إذا أرسل الماءين بعضهما على بعض، وفي طبعهما بخلق الله وعادته السيلا والالتقاء، ويمنعهما البرزخ الذي هو قدرة الله أو بقدرة الله، يكون أدل على القدرة مما إذا لم يكونا على حال يلتقيان، وفيه إشارة إلى مسألة حكمية وهي:

أن الحكماء اتفقوا على أن الماء له حيز واحد، بعضه ينجذب إلى بعض، كأجزاء الزئبق، غير أن عند الحكماء المحققين يكون بإجراء الله تعالى ذلك عليه، وعند من يدعي الحكمة ولم يوفقه الله من الطبيعيين يقول: ذلك له بطبعه، فقوله: يلتقيان أي من شأنهما أن يكون مكانهما واحدا، ثم إنهما بقيا في مكان متميزين فذلك برهان القدرة والاختيار.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٤ / ١٠٩).

وعلى الوجه الثاني: الفائدة في بيان القدرة أيضا على المنع من الاختلاط، فإن الماءين إذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال، بل يبقيان زمانا يسيرا كالماء المسخن، إذا غمس إناء مملوء منه في ماء بارد، إن لم يمكث فيه زمانا لا يمتزج بالبارد، لكن إذا دام مجاورتهما، فلا بد من الامتزاج، فقال تعالى: مرج البحرين خلّاهما ذهابا إلى أن يلتقيان ولا يمتزجان فذلك بقدرة الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿يَبْتَغِيانِ لَآ يَبْتَغِيَانِ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من منعه إياهما من الجريان على عادتهما، والبرزخ الحاجز وهو قدرة الله تعالى في البعض وبقدرة الله في الباقي، فإن البحرين قد يكون بينهما حاجز أرضي محسوس وقد لا يكون، وقوله: لا يبتغيان فيه وجهان: أحدهما: من البغي أي لا يظلم أحدهما على الآخر^(١).

الحقيقة العلمية:

بقياس كل من درجات الحرارة، ونسبة الملوحة في كتل الماء التي تملأ البحار والمحيطات المختلفة، والتي تغطي حوالي ٧١٪ من مساحة سطح الأرض المقدره بخمسمائة وعشرة ملايين من الكيلومترات المربعة، اتضح تباينها تباينا ملحوظا من بحر إلى آخر، وحتى في البحر الواحد نجد التمايز قائما أفقيا ورأسيا.

وكل كتلة مائية منها تمثل بيئة حيوية، لها تجمعاتها الخاصة بها، من الأحياء البحرية من بعض الأنواع، والتباين في كل من درجات الحرارة ونسبة تركيز الأملاح في ماء البحار والمحيطات، وهذا يؤدي إلى تباين في كثافتها، مما يعين على تحديد تلك الكتل المائية المتباينة، على الرغم من محاولة الأمواج والتيارات البحرية خلطهما مع بعضها البعض.

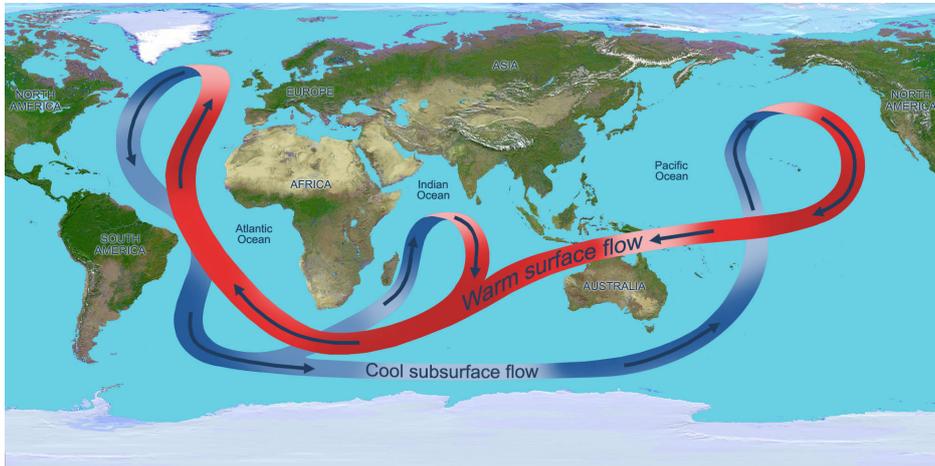
وتتحرك كتل الماء السطحية بين مساحات كبيرة شمالا وجنوبا، فتتغير صفاتها بتغير الظروف البيئية التي تنتقل إليها، وعندما تتغير كثافة الكتلة المائية السطحية؛

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩ / ٣٥١).

فإنها تغوص في وسط ماءٍ أقلّ كثافةً، حاملة معها بعض صفات ماء المنطقة السطحية، التي كانت فيها، إلى أعماق المحيط، إن لم تحمل تلك الصفات كلها فتؤدي إلى تغيير كبير في صفات الماء بتلك الأعماق.

كما تعين على تحديد المصادر التي جاءت منها، مهما تباعدت مسافات تلك المصادر إلى آلاف الكيلومترات، ومع اختلاط الماء من مصادر مختلفة، تتغير صفات الكتل المائية باستمرار؛ في المحيط الواحد، وفي البحر الواحد، وبين البحار والمحيطات المختلفة.

وينقسم الماء السطحي في المحيطات على أساس من التباين في درجات الحرارة ونسبة الملوحة إلى كتل متباينة، وعلى سبيل المثال فإن الماء السطحي في الجزء الشمالي من المحيط الأطلسي يعتبر أكثر أجزاء المحيطات ملوحة، بينما يعتبر الماء السطحي في شمال المحيط الهادي أقلها ملوحة.



تمتد تيارات الماء متميزة الصفات في المحيطات وتختلف كل منطقة عن التي تجاورها في درجة الملوحة وعدد من الصفات بلا امتزاج

وتتباين كذلك كتل ماء متوسط العمق في المحيطات، وأوضح نموذج لكتل الماء العميق في البحار والمحيطات يقع في الجزء الشمالي الغربي من المحيط الأطلسي.

وأما الماء شديد العمق فقد عرف حديثاً أن المحيط القطبي الجنوبي يحوي فوق قاعه كتلة من الماء، تعتبر أعلى ماء الأرض كثافة، وهكذا تتنوع كتل ماء البحار جميعاً في الصفات، وتبقى كل كتلة منها محتفظة بصفاتها؛ تماماً كما وصفها القرآن الكريم.

وترتبط جزيئات الماء بعضها مع بعض بتجاذب الشحنات الكهربائية، وتعرف هذه الخاصية باسم اللزوجة الجزيئية، وهي من أهم الصفات المؤثرة في ماء البحار والمحيطات، التي تجعله يختلط ولا يمتزج امتزاجاً كاملاً أبداً.

وشدة تماسك وتلاصق جزيئات الماء هي التي أعطته بتدبير من الله تعالى العديد من صفاته المميزة، مثل شدة توتره السطحي، وميله إلى التكور على ذاته على هيئة قطرات، بدلاً من الانتشار الأفقي على السطح الذي يسكب عليه.

وفي تكوين ذلك الحاجز غير المرئي بين كل مائين مختلفين في صفاتهما، من مثل الماء العذب والمالح، والمائين الملحيين المتباينين، فيجعل كل بحرين متجاورين معزولين؛ رغم فعل التيارات البحرية والأمواج من الحركة ذهاباً وإياباً، ولكن بغير اختلاط.

في القرن الثامن عشر، ظهر الكتاب الأول عن علم البحار، على أساس تجريبي، ودراسات ميدانية، متحرراً من التصور الفلسفي، وقد كان بدائياً في معلوماته العلمية مقارنة بالمعرفة الحالية.

ثم بدأ علم المحيطات يأخذ مكانه بين العلوم الحديثة، عندما قامت السفينة البريطانية تشالنجر برحلتها حول العالم من عام ١٨٧٢ حتى عام ١٨٧٦م،

ثم توالى الرحلات العلمية لاكتشاف البحار، وفي نهاية القرن العشرين تزايد الأمل في فهم المحيطات، عن طريق الأقمار الصناعية والتصوير عن بعد.

والمعلوم حالياً، أنه في ظل زيادة سرعة التدفق في مجرى النهر، وعمق الحوض البحري الذي يصب فيه، وتدني الفارق في كثافة الكتلتين الملتقيين، يسود القصور الذاتي، فيندفع ماء النهر إلى البحر بشدة، على هيئة نفاثات دوارة، تعزل ماء النهر عن ماء البحر، وتؤخر اختلاطهما وامتزاجهما حتي تضعف معدلات تدفق الماء فيبدأ الامتزاج على حواف كتلة الماء العذب مكوناً ماء قليل الملوحة يفصل ماء النهر عن ماء البحر.

وفي كثير من الأنهار يؤدي نقل كميات كبيرة، من نواتج عمليات التعرية، على هيئة الرسوبيات المحمولة مع ماء النهر إلى ترسيبها في منطقة مصبه؛ مما يرفع منسوب قاع منطقة المصب، ويجعل سمك الماء فيها قليلاً؛ مما قد يؤدي إلى جعلها أعلى من منسوب قاع مجرى النهر.



تحمل الأنهار رسوبيات هائلة

وتضييق المجرى يجعل تيار ماء النهر بعد المصب أكثر اندفاعا، ويجعل كتلة الماء العذب في المحيط أكبر حجما، وأكثر ثراءً بالأحياء، وليس مصدر التيارات العذبة في المحيطات مقصورا على الأنهار فحسب، فقد تصدر من المياه الجوفية وتتدفق من شقوق عميقة في جدران المحيط.

وهكذا يبقى كل من الماء العذب والماء المالح، له من صفاته الطبيعية والكيميائية ما يمكنه من البقاء منفصلا انفصالا كاملا عن الآخر، على الرغم من التقاء حدودهما، ولكل بيئة أنواع خاصة من أنواع الأحياء المائية المحدودة بحدود بيئتها، وبذلك تكون أنواع الحياة في الماء القليل الملوحة مقصورة على تلك البيئة ومحجورة فيها، أي: لا تستطيع الخروج منها وإلا هلكت.

كما أن كل مجموعة من أنواع الحياة في البيئتين العذبة والمالحة لا تستطيع دخول الماء القليل الملوحة وإلا هلكت، فيما عدا أعداد قليلة تستطيع العبور دون بقاء طويل، ومن هنا كان هذا الماء القليل الملوحة حجرا على الحياة الخاصة به ومحجورا على الحياة من حوله.

وجه الإعجاز:

إن ظاهرة تشكل البرزخ الفاصل بين بحرين، أو بين بحر ونهر، يتصف بصفات مغايرة لكنتا الكتلتين المائيتين، وبالتالي عدم امتزاج تلك الكتلتين أصبحت حقيقة في عصرنا هذا، بعد قيام العلماء المتخصصين في هذا الميدان برحلات بحرية، ومشاهدات وتجارب؛ مما كان بمجموعه مجهولاً عند البشر جميعاً.

وإلى وقت قريب، كان هذا الأمر مجهولاً عند البشر جميعاً، ولا شك أن ذكره في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً يعتبر مظهرًا من مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

ويؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.



ستعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً» رواه مسلم^(١).

الدلالة النصية:

قال النووي: «حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا» معناه والله أعلم أنهم يتركونها ويعرضون عنها؛ فتبقى مهملة لا تزرع ولا تسقى من مياهها، وذلك لقلّة الرجال، وكثرة الحروب، وتراكم الفتن، وقرب الساعة، وقلّة الآمال، وعدم الفراغ لذلك والاهتمام به^(٢).

قال الملا القاري: «وحتى تعود أرض العرب» أي: تصير أو ترجع (مروجا): بالضم أي: رياضاً كما كانت نباتاتها وأشجارها وأثمارها، (وأنهاراً) أي: مياه كثيرة جارئة في أنهارها.

وفي النهاية: المرج: الأرض الواسعة، ذات نبات كثير، تخرج فيه الدواب، أي: تخلى تسرح مختلطة كيف شاءت اه^(٣).

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٠١٢)، من حديث أبي موسى والحاكم (٤/٤٧٧) واللفظ له، وأحمد، حديث رقم (٨٨٣٣)، من حديث أبي هريرة، بزيادة: (وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق، وحتى يكثر الهرج...: القتل)، قال مخرجه: (اسناده صحيح على شرط مسلم).

(٢) شرح النووي على مسلم (٧/٩٧).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٣٤٣٠).

الحقيقة العلمية :

في منتصف القرن العشرين بدأ العلماء يدرسون ما يسمونه دورة الطقس أو دورة المناخ، ووجدوا أن هنالك دورات يمر بها طقس الأرض، ووجدت كذلك شواهد على مرور الأرض دوريا بعدد من العصور الجليدية.

فقد توصل المختصون مثلا إلى أن قارة أوروبا كانت مغطاة بطبقات من الجليد، يبلغ سمكها مئات الأمتار، منذ أكثر من عشرة آلاف سنة.

وقد وجدت شواهد كثيرة على أن الحزام الذي يشمل الصحراء العربية كان بالفعل يوما ما غنيًا بالمطر، وتغطيه المروج الخضراء، وأيد المسح بالأقمار الصناعية لمنطقة الربع الخالي هذا النبأ العجيب الذي مفاده مايلي:

قال الدكتور ماكلور McClure في أطروحته للدكتوراه عام ١٩٨٤ في لندن: "إن منطقة الربع الخالي تشكلت قبل حوالي مليوني سنة، ولكن هذه الصحراء لا تبقى على حالها، بل تتبع نظامًا جيولوجيًا مدهشًا. حيث نلاحظ أن الأنهار والغابات تغطي هذه المنطقة كل فترة من الزمن".

وقال: "قبل ٣٧ ألف وحتى ١٧ ألف سنة كانت مغطاة بالمروج والأنهار العذبة، ثم بعد ذلك حدث تغير في المناخ، وتشكلت الصحراء من جديد، وبعد ذلك أي قبل حوالي ١٠ آلاف إلى ٥ آلاف سنة عادت وغطيت بالمروج، والغابات، والبحيرات، والأنهار، وهكذا وفق دورة عجيبة!، وقد عثرنا في منطقة الربع الخالي على أسنان لفرس النهر، وكانت بحالة جيدة، وعثرنا على آثار لمخلوقات نهريّة عديدة وحيوانات مثل الجمال والخراف والغزلان كانت ترعى ذات يوم"!.

وتساءل قائلا: "هل يمكن للأمطار أن تعود بغزارة إلى منطقة الربع الخالي فتعود البحيرات والمروج والأنهار من جديد؟"، وهو كمتخصص يرجح أن تعود الأمطار وتعود البحيرات والمروج إلى هذه المنطقة في وقت ما في المستقبل.



صورة بالقمر الصناعي تظهر أنهار الربع الخالي

ووجد الدكتور فاروق الباز، مدير مركز الاستشعار عن بعد في جامعة بوسطن الأمريكية، أن نهرًا كان يمتد لمسافة طويلة، قد دفنته رمال الصحراء في الربع الخالي، وهذا النهر كان موجودًا قبل ستة آلاف سنة ويبلغ طوله ٨٠٠ كلم، وكان هذا النهر ينبع من جبال الحجاز، ويمتد ويتفرع إلى دلتا تغطي أجزاء كبيرة من الجزيرة، حتى يصب في البحر.

وقد قال الدكتور بلوم Ron Bloom من وكالة ناسا: إن أول مرة في التاريخ يعلم فيها الناس أن الجزيرة العربية كانت ذات يوم مغطاة بالأنهار كان في عام ١٩٧٢، من خلال الصور الملتقطة بواسطة القمر الصناعي لاندسات Landsat، حيث مكنتنا هذه التقنية الحديثة من رؤية ما لم يره أحد من قبل، ثم التقطت في عام ١٩٨١ بعض الصور للمنطقة، أكدت وجود آثار لمجاري أنهار في الصحراء، وفي عام ١٩٩٤ تأكدت هذه الحقيقة أكثر.

وجه الإعجاز:

إن البحوث الجيولوجية الدقيقة المتعلقة بتاريخ أرض الجزيرة العربية أثبتت أنها كانت تجري فيها أنهار كبيرة، وتغطيها جنات وارفة، تسكنها قطعان من حيوانات متنوعة.

كما أكدت البحوث الاستشراعية المستفيضة في علوم الطقس والدورات المناخية: أن أرض العرب ستعود بإذن الله إلى ما كانت عليه، وهذا يتطابق تماما مع منطوق الحديث النبوي الشريف، الذي قال فيه رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا)، مما يؤكد قطعًا أنه ﷺ إنما يخبرنا بوحى من الله، وأن ما أخبر به في هذا الخصوص هو إعجاز علمي.



قبلة مسجد صنعاء نبوءة نبوية

روى الطبراني في المعجم الأوسط أن وبر بن يحنس الخزاعي قال: قال لي رسول الله: «إذا بنيتَ مسجدَ صنعاء فاجعله عن يمين جبلٍ، يقال له ضين»، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن، وقد رواه ابن السكن، وابن مندة كما نقله الحافظ في الإصابة.

وقال الحافظ الرازي في كتابه «تاريخ صنعاء»: إن رسول الله ﷺ أمر وبر بن يحنس الأنصاري حين أرسله إلى صنعاء والياً عليها فقال: «ادعهم إلى الإيمان فإن اطاعوا لك به فاشرع الصلاة فإذا أطاعوا لك بها فمُر ببناء المسجد لهم في بستان باذان؛ من الصخرة التي في أصل غمدان، واستقبل به الجبل الذي يقال له ضين».



الجامع الكبير بصنعاء

الدلالة النصية:

أمر رسول الله ﷺ وبر بن يحنس الخزاعي الذي وجهه إلى صنعاء أن يبنى لهم مسجدًا، عُرف بمسجد صنعاء، وحدد الرسول ﷺ أوصاف المسجد، فحدد موضعه في صنعاء، وحدد لهم القبلة بجبل ضين، الذي يبعد عن صنعاء حوالي ٣٠ كم، وقد أكدت صور الأقمار الصناعية دقة اتجاه قبلة مسجد صنعاء نحو الكعبة المشرفة .

الحقيقة العلمية:

أمر الله المسلمين أن يتجهوا في صلاتهم إلى قبلة واحدة هي الكعبة المشرفة؛ فقال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ أي في اتجاهه.

وعندما دخل اليمينيون في دين الله أفواجًا أرسل إليهم معلمين يعلمونهم الدين، كان منهم: على بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، ووبر بن يحنس وغيرهم ﷺ أجمعين.



المسافة بين صنعاء ومكة المكرمة حوالي ٨١٥ كم، وإذا أردنا رسم خط مستقيم بين مكة وصنعاء يستلزم وجود خريطة تعتمد على الصور الحقيقية لسطح الأرض، ولا بد من معرفة خطوط الطول وخطوط العرض على سطح الكرة الأرضية، والخريطة المسطحة للأرض لا تمثل الحقيقة؛ لأن الأرض كروية وليست مسطحة.

ولم يتمكن الإنسان من وضع الخرائط الدقيقة للأرض وتحديد خطوط الطول والعرض إلا في القرن العشرين، ثم زادت دقة هذا التحديد بعد استخدام الأقمار الصناعية، ولم تكن هذه المعارف العلمية متوفرة في زمن الرسول ﷺ؛ ولا حتى بعده بعدة قرون.

فأول خريطة للأرض وضعها الإدريسي عام ١١٥٤م بعد الهجرة النبوية بحوالي خمسة قرون ونصف، مع كونها تفتقد الدقة، حيث إن موقع اليمن، جنوب شرق الجزيرة، وموقع عُمان شمال شرق الجزيرة.



خريطة الإدريسي

وفي عام ١٤٥٢م وضع جيوفاني لردو خريطة أخرى، ولكنها لم تكن دقيقة، وجاء منتصف القرن العشرين، ليبدأ معه عصر الأقمار الصناعية، وكان أول قمر

صناعي دار في الفضاء هو (سبوتنك) الذي أطلقته روسيا عام ١٩٥٧م، وتلاه المستكشف عام ١٩٥٨م.

وقد أثبتت صور الأقمار الصناعية بعد أربعة عشر قرناً من بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دقة اتجاه قبلة مسجد صنعاء المذكور نحو الكعبة المشرفة. مما يدل على أن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو علم أعلام النبوة.

فقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فاجعله عن يمين جبل يقال له ضين» يحدد زاوية ميل المسجد الدقيقة نحو الكعبة، وقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمر ببناء المسجد لهم في بستان باذان من الصخرة التي في أصل غمدان»، وما جاء في كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وبر «بأن يبنى حائط باذان مسجداً ويجعله من الصخرة إلى موضع جدره» هو تحديد دقيق لموضع المسجد ومكانه.

وقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «واستقبل به الجبل الذي يقال له ضين»، وقوله أيضاً: «واستقبل به ضيناً» هو تحديد دقيق لجهة قبلة مسجد صنعاء، وموقعه اليوم بين ساريتين من سواري المسجد، تسمى أحدهما (المسمورة)، والأخرى (المنقورة)، وبعض أهل اليمن كانوا يغالون في تعظيم مسجد صنعاء، فلا يقبلون اليمين من الخصم عند التنازع الشديد إلا عند المسمورة والمنقورة؛ أي في المسجد الذي وصفه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين حدوده.

وجه الإعجاز:

لو رسمنا اليوم من مسجد صنعاء خطاً مستقيماً، متبعين صور الأقمار الصناعية، وفق هذه الإحداثيات، لقادنا مباشرةً إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، علماً بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يزر صنعاء، ولا رأى جبل ضين، ولا شاهد بستان باذان، ولا الصخرة، بل إن الناس في زمنه لم يكن لهم من الوسائل ما يمكنهم من معرفة الاتجاه الدقيق نحو مكة المكرمة، مما يثبت أن ما قاله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو وحي من الله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٥﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

الجبال الرواسي

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].



وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَضَهَا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦-٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

الدلالة النصية:

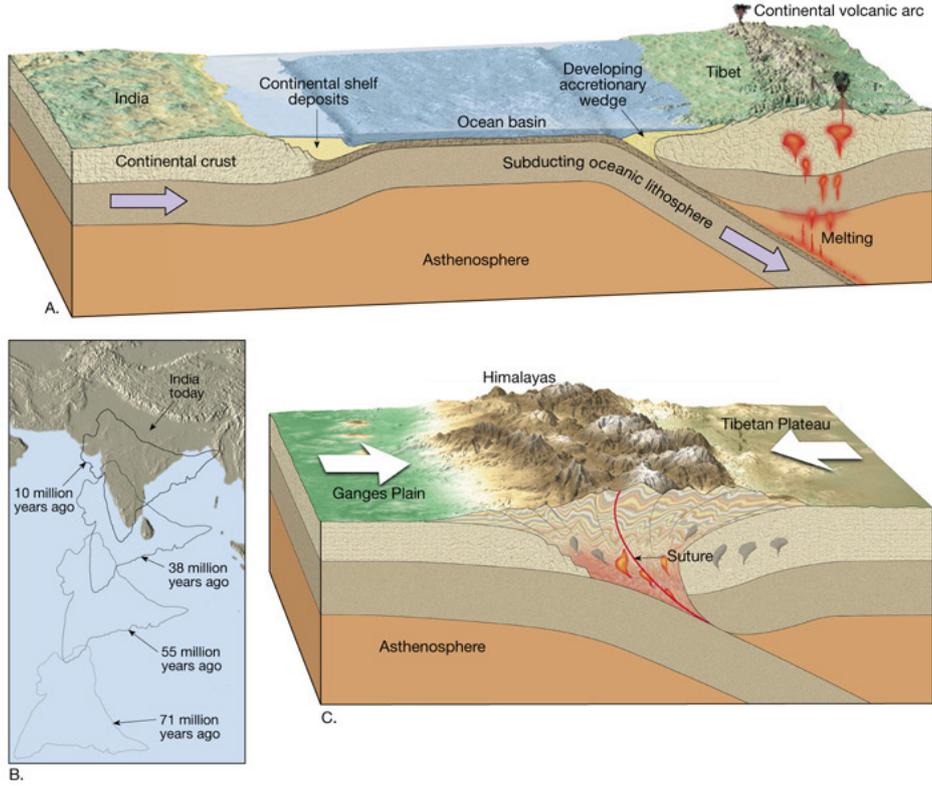
يمكن الفهم من النصوص الكريمة أن الجبال التي نراها اليوم كعلامات ثوابت على القارات ليست أبدية الوجود؛ وإنما لها عمر - وإن طال - محدود، ويمكن حمل لفظ «الأرض» طبقاً للسياق على الطبقة الصلبة تحت أقدامنا، والتي تحمينا من خطر الباطن الملتهب، والتي يصطلح عليها المختصون بالطبقة الصخرية أو قشرة الأرض؛ خاصة مع تشبيهها بمهاد الصبي الذي يحميه من خطر مما هو دونه، وخاصة مع تشبيه الجبال بالرواسي التي كانت كتلا صخرية تمتد تحت السفن الشراعية بحبال لتثقلها وتمنعها أن تميد فوق تيارات المحيط، والدلالة إذن أن الألواح القارية كانت تميد وتضطرب في أول عهدها حتى نشأت الجبال، وامتدت عميقاً لتقوم بتثبيتها حتى لا تميد وتضطرب تماماً كرواسي السفن.

الحقيقة العلمية:

قد تنشأ جبال وتنصب من جرّاء تصادم قارة بأخرى مجاورة، ومن الأمثلة الجيولوجية المعروفة نشأة جبال الهيمالايا، فقد كانت الهند واقعةً على الحافة الجنوبية لبحر قديم، لا وجود له اليوم، بينما كانت التبتُّ تقع عند الحافة الشمالية لذلك البحر العظيم، كان ذلك منذ قرابة المائة مليون سنة.

وقطعت الهند مسافة حوالي ١٥٠٠ كم أثناء زحزحتها شمالاً باتجاه قارة آسيا، إلى أن أتى وقت اختفى فيه البحر وجاءت لحظة التصادم المحتمومة، فارتفعت أرض الهند، وحينئذ نصبت أعلى جبال في الأرض، وهي جبال الهيمالايا.

وتعلو قمة جبال الهيمالايا ثمانية كيلو مترات ويّف عن سطح البحر، وقد أثبت المسح الجيولوجي أن جبال الهيمالايا تمتد عميقاً لمسافة قد تزيد عن ٦٥ كيلو متر، وهكذا يكون الجزء المختفي من الجبال تحت السطح يعادل أضعاف الجزء البارز فوق السطح.



نشأة جبال الهيمالايا

وهذا الامتداد في الأرض المماثل لامتداد الوتد لم يعرفه بشر عند نزول القرآن الكريم بالقطع، ناهيك عن التماثل في الوظيفة كذلك، لأن الوتد يقوم بتثبيت الخيمة، وكذلك تقوم جذور الجبل بحفظ ثبات الكتلة الطافية فوق طبقة الدثار الملتهب للأرض.

وهذا التوازن Isostasy الذي أبدعه الخالق سبحانه وتعالى في الأرض مدهشٌ حقاً؛ حيث جعل الغلاف الصخري يطفو -وفق قانون الطفو في البواخر- فوق غلافه اللدن الملتهب، وترسو أو تطفو القارات، وقيعانُ البحار على وشاح الأرض، كما يطفو جبل الجليد فوق الماء، وتضرب القارات بجذورها في وشاح الأرض.

ويلاحظ أن الجذور أسفل الجبال أكثر عمقا من الجذور تحت المناطق المستوية، وتطفو الألواح القارية المثقلة بالجبال المشبهة بالرواسي فوق تيارات باطن الأرض الملتهب تماما، كما تطفو السفن وتثبت فوق تيارات المحيط، هذا ما اكتشفه العلم حديثا؛ ولكن القرآن قد سجل ذلك قبل أكثر من ألف سنة بأسلوب فريد.

تتطابق فيه المعلومة القرآنية عن تكوين الجبال مع الحقيقة العلمية؛ مما يؤكد أن ما جاء به القرآن هو وحي من عند الله العليم الخبير.

وجه الإعجاز:

إن هذا الوصف الذي وصف الله به الجبال من كونها رواسي لم يكن معروفاً وقت التنزيل، حتى جاءت الاكتشافات العلمية المعاصرة فأثبتته وفق ما ورد في القرآن الكريم، ليكون شاهداً على أن هذا القرآن مُنَزَّلٌ من لدن حكيم خبير.



الخسوع والتصدع في الجبال

النص الشرعي:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمْتَلُ تُضْرَبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].



الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمْتَلُ تُضْرَبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

المعنى أنه لو جعل الله تعالى في الجبل عقلاً كما جعل فيكم، ثم أنزل عليه القرآن لخضع وخضع وتشقق من خشية الله.

ثم قال: وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون، أي الغرض من ذكر هذا الكلام: التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار، وغلظ طباعهم، ونظير قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] تفسير^(١).

الحقيقة العلمية:

ثبت علمياً بنتيجة التجارب المخبرية لدراسة مقاومة أنواع الصخور، واستجاباتها المختلفة، لمختلف قوى الضغط التي تمارس عليها، أن الصخور بأنواعها المختلفة تستجيب عند تعرضها لقوى الضغط بالطّي والالتواء، والانسطار. فالصخور الخاضعة لقوة ضغط متزايدة تتعرض لتشوه متزايد، فتتقلص في حالة الانضغاط، وتمتد في حالتي الجر أو البسط قبل أن تتعرض للكسر.

وبدراسة آثار الرفع التدريجي للضغط والحرارة على الصخور المنضغطة، تظهر آليات التشوه المختلفة التي تعمل بنفس الآلية داخل القشرة الأرضية.

حيث إنها في حالة الانضغاط، تتعرض للصدع تحت ظروف الضغط والحرارة السائدة قريباً من سطح الأرض، وتتحول الصخور إلى الحالة اللدنة في حالة رفع الضغط والحرارة، وتتعرض للطّي والالتواء قبل أن تصل هذه الصخور إلى نقطة الانصهار؛ فتصير كالسوائل المائعة، وتحدث هذه التفاعلات المختلفة بشكل مباشر.

ويظهر التشوه على شكل فوالق في حالة تعرض الصخور للتصدع فتخلو من الطيات، وتمتلئ بالصدوع؛ بسبب زيادة القص كآلية رئيسة للتشوه، وتتعرض الصخور للالتواء والطّي عندما يتم التشوه دون كسر أو صدع بفعل آليتي الشني والبطح.

(١) انظر: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩ / ٥١٢) للرازي.

وفي مرحلة أخيرة في الأعماق التي تتعرض فيها الصخور لدرجات حرارة وضغط أعلى من تلك التي تميز نقطة الانصهار تكون آلية التشوه السائدة هي التسييل، ومن ثم فإن الصخور تسييل على طريقة السوائل، وتشكل طيات تختلف عن تلك المتواجدة في مستويات أعلى، بحيث يحدث الالتواء دون تقلص في المسافة الأصلية للطبقات الصخرية.

وهكذا ثبت علمياً بأن الصخور تستجيب لقوى الانضغاط بالانكماش أولاً، ثم تتعرض للتكسر والتفتت في نهاية المطاف.

وجه الإعجاز:

توضح الحقائق العلمية السابقة بجلاء أن صخور الجبال تتميز بخاصيتين اثنتين هما خاصية الطي أو الالتواء وخاصية التصدع، وقد وردت الإشارة إلى هذه الحقيقة العلمية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾.

حيث يفهم من الآية أن خشية الجبال لله تتجلى من خلال التواء الصخور وطيها (وهو الخشوع)، ومن خلال تكسرها وتفلقها (وهو التصدع).

كما أن تقديم الخشوع عن التصدع إشارة إلى حقيقة علمية أخرى، وهي أن الصخور تستجيب لقوى الانضغاط بالتقلص وهو (الخشوع) أولاً، ثم تتعرض للكسر وهو (التصدع) في نهاية المطاف، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.





جبل أرارات - تركيا

الطوفان العظيم

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَلْوَاحِ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١١-١٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].



جبل الجودي

الدلالة النصية:

في قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٥]، قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور المتوفى عام ١٣٩٣هـ (رحمه الله تعالى): «ضمير المؤنث في (تركناها) عائد إلى (ذات ألواح ودسر) أي السفينة.. أي أبقينا سفينة نوح محفوظة..؛ لتكون آية تشهدا للأمم».

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ تحديد لاسم الجبل، وفيه معنى الاستقرار باستواء بلا ميلان، قد يؤدي من فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَتْهُ عَلَى ذَاتِ الْأُوحِ وَدُسْرٍ﴾ تحديد لتكوين السفينة من ألواح خشبية تربطها براشيم أو مسامير معدنية.

الحقيقة العلمية:

في مايو عام ١٩٤٨م كشفت الزلازل والأمطار عن آثار سفينة كبيرة متحجرة مطمورة في الرواسب الطينية، على سفح جبل الجودي تحديدا في جنوب شرق تركيا، بالقرب من حدودها مع سوريا والعراق؛ اكتشفها راعي غنم اسمه رشيد سرحان من قرية أوزنجيلي Uzengili الكردية، القريبة من موقع السفينة.

وفي أكتوبر عام ١٩٥٩ في إحدى طلعات طيران الجيش التركي عين الطيار Durupinar السفينة المطمورة وفي العام التالي ١٩٦٠، أرسلت أول بعثة لمنطقة الأكراد الجبلية الوعرة في شرق تركيا لمعاينة السفينة على سفح جبل الجودي، ولا يعقل أن توجد سفينة على جبل على ارتفاع حوالي ٢٠٠٠ متر من سطح البحر، إلا أن يرفعها شيء، وليس في الأخبار والأسفار والقرآن سوى الطوفان.

أثار الخبر دهشة كبيرة؛ لأن قصة السفينة عند الملاحدة أسطورة، والأسفار القانونية المعتمدة في الكنائس قالت «أرارات»، وقال القرآن (واستوت على

الجودي)، وصدق.

وفي سفر التكوين: "وتعاطمت المياه كثيرا جدا على الأرض، فتغطت جميعُ الجبال الشامخة التي تحت كل السماء"، "واستقر الفُلكُ في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أَرارات" إصحاح ٧ فقرة ١٩، وإصحاح ٨ فقرة ٤.

وتقع جبال أَرارات شرق تركيا، بالقرب من حدود أرمينيا وإيران، بينما يقع الجودي جنوب شرق على حدود العراق وسوريا.

وأَرارات سلسلة بركانية متصلة ذات قمتين المسافة بينهما حوالي ١١ كم، أدناها ترتفع حوالي ٤٠٠٠ متر، وأعلاهما تكسوها الثلوج وترتفع حوالي ٥٠٠٠ متر فوق سطح البحر، وهي أعلى قمة في تركيا، وحتى لو خان التعبير كَتَبَ الأسفار، فقالوا (جبال أَرارات) بدلا عن منطقة بالجوار؛ فمن أين إذن استمد القرآن هذا التحديد المعجز!

ولم يبدأ الاهتمام الفعلي بالبحث عن السفينة إلا عام ١٩٨٥، واستخدمت البعثات العلمية حتى مايو ٢٠٠٧ تقنيات حديثة فأكدت الدراسة نبأ القرآن الكريم، وأظهر التصوير بالرادار، واستشعار المواد المعدنية تركيب السفينة من الداخل، بهيئة تكوينات طولية منتظمة، كطبعة ألواح.

وقد وَجَدَ الباحثون حفرياتٍ متحجرةً حول السفينة لقواقع مياه عذبة، ومياه مالحة، ومرجان على ارتفاع لا توجد فيه بحار، واكتشفت بعض مسامير ربط الألواح الخشبية Rivets، وهي عادة تطرق من الجهتين لمنع الانفلات وتسمى اليوم براشيم Rivets وسماها القرآن الكريم «دُسْر» كاشفا وحده تركيب السفينة قبل أن يعرف أحد شيئا عن تلك المسامير قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ [القمر: ١٣].

وأوجز الشيخ مناع خليل القطان رحمه الله (ت ١٤٢٠ هـ) تفسير جمهور المفسرين بما يكاد يكون إجماعاً بقوله: «أي: وحملنا نوحاً ومن معه على سفينة مصنوعة من الخشب والمسامير».

وقد اعتاد القدماء استخدام مَرَّاسٍ حجرية، تربط من أسفل السفينة بحبل؛ لتستقر ويعرفوا العمق، وسفينة نوح من الضخامة بحيث تماثل حوالي نصف سفينة التيتانك الغارقة، وليست بقليلة إلى جوار حاملة طائرات، فلا بد أن مراسيها كبيرة. وفي عام ١٩٨٩ اكتشف فاسولد Fasold مرساة عند قرية قريبة من موقع السفينة، تدعى كازان Kazan، وقد يصل طول المرساة ٥,٢ متر، وتزيد الواحدة عن ٤ طن، وتسمى بعدة لغات أنجر وأنقر، وبال يونانية أنقرة وهو نفس اسم المدينة التركية. وبديهي أن تلقي السفينة مراسيها قبيل وصولها الأمن إلى مشارف سفح جبل الجودي، وشيئاً فشيئاً اكتُشفت المراسي تباعاً لترسم خط السير، وقد اكتشف حتى الآن ١٣ مرساة كانت تعمل كأثقال لتثبيت السفينة، وهي اليوم ترشد لخط السير نحو المناطق الجبلية الشرقية لتستقر السفينة قرب مدينة قديمة كانت تسمى ناكسوان Naxuan وتعني بالإغريقية مدينة نوح.

وجه الإعجاز:

قد أدت الأبحاث الجيولوجية في مناطق بلاد ما بين النهرين إلى اكتشاف طبقة طمي، تفصل بين آثار حضارات قديمة؛ مما يؤكد حدوث «الطوفان العظيم»، ويبرهن على دقة وصف القرآن الكريم، لذلك الحديث الكبير. ولم نخبرنا رواياتُ كَتَبَةِ الأسفار قَطُّ عن نبي حفظ السفينة آيةً للعالمين، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

وبعد؛ يقول العلي القدير: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ

مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

السراب

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].



الدلالة النصية:

والسراب: رطوبة كثيفة تصعد على الأرض، ولا تعلو في الجو، تنشأ من بين رطوبة الأرض وحرارة الجو، في المناطق الحارة الرملية، فيلوح من بعيد كأنه ماء. وسبب حدوث السراب: اشتداد حرارة الرمال في أرض مستوية، فتشدد حرارة طبقة الهواء الملاصقة للرمل، وتُحرُّ الطبقة الهوائية التي فوقها حرًّا أقلَّ من حرارة الطبقة الملاصقة. وهكذا تتناقص الحرارة في كل طبقة من الهواء عن حرارة الطبقة التي دونها.

وبذلك تزداد كثافة الهواء بزيادة الارتفاع عن سطح الأرض. وبحرارة الطبقة السفلى التي تلي الأرض تحدث فيها حركات تموجية؛ فيصعد جزء منها إلى ما فوقها من الطبقات وهكذا..

فتكون كل طبقة أكثف من التي تحتها. فإذا انعكس على تلك الأشعة نور الجو من قرب طلوع الشمس إلى بقية النهار تكيفت تلك الأشعة بلون الماء. ففي أول ظهور النور يلوح السراب كأنه الماء الراكد أو البحر، وكلما اشتد الضياء ظهر في السراب ترقق كأنه ماء جار.

ثم قد يطلق السراب على هذا الهواء المتموج في سائر النهار من الغدوة إلى العصر.

وقد يخص ما بين أول النهار إلى الضحى باسم الآل ثم سراب. وعلى هذا قول أكثر أهل اللغة، والعرب يتسامحون في إطلاق أحد اللفظين مكان الآخر، وقد شاهدته في شهر نوفمبر فيما بين الفجر وطلوع الشمس بمقربة من موضع يقال له: أم العرائس من جهات توزر، وأنا في قطار السكة الحديدية، فخلت في أول النظر أنا أشرفنا على بحر.

وقوله: بقية الباء بمعنى في. و (قيعة) أرض، والجار والمجرور وصف لسراب وهو وصف كاشف؛ لأن السراب لا يتكون إلا في قيعة. وهذا كقولهم في المثل للذليل «هو فقح في قرقر» فإن الفقح لا ينبت إلا في قرقر. والقيعة: الأرض المنبسطة ليس فيها ربي ويرادفها القاعة. وقيل قيعة جمع قاع مثل جيرة جمع جار، ولعله غلب لفظ الجمع فيه حتى ساوى المفرد.

وقوله: يحسبه الظمان ماء: يفيد وجه الشبه، ويتضمن أحد أركان التمثيل، وهو الرجل العطشان، وهو مشابه الكافر صاحب العمل.

وحتى ابتدائية فهي بمعنى فاء التفریع. ومجيء الظمان إلى السراب يحصل بوصوله إلى مسافة كان يقدرها مبدأ الماء بحسب مرأى تخيله، كأن يحدده بشجرة

أو صخرة. فلما بلغ إلى حيث توهم وجود الماء لم يجد الماء فتحقق أن ما لاح له سراب.

فهذا معنى قوله: حتى إذا جاءه، أي إذا جاء الموضع الذي تخيل أنه إن وصل إليه يجد ماء. وإلا فإن السراب لا يزال يلوح له على بعد كلما تقدم السائر في سيره. فضرب ذلك مثلاً لقرب زمن إفضاء الكافر إلى عمله وقت موته حين يرى مقعده أو في وقت الحشر.

وقوله: لم يجده شيئاً أي لم يجد ما كان يخيل إلى عينه أنه ماء لم يجده شيئاً. والشيء: هو الموجود وجوداً معلوماً للناس، والسراب موجود ومرئي، فقوله: شيئاً أي شيئاً من ماء بقرينة المقام. وهذا التمثيل كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

و(إذا) هنا ظرف مجرد عن الشرطية. والمعنى: زمن مجيئه إلى السراب، أي وصوله إلى الموضع.

وقوله: ووجد الله عنده هو من تمام التمثيل، أي لم يجد الماء ووجد في مظنة الماء الذي ينتفع به وجد من إن أخذ بناصيته لم يفلته، أي هو عند ظنه الفوز بمطلوبه فاجأه من يأخذه للعذاب، وهو معنى قوله: فوفاه حسابه أي أعطاه جزاء كفره وافيًا.

فمعنى فوفاه أنه لا تخفيف فيه، فهو قد تعب ونصب في العمل، فلم يجد جزاء إلا العذاب، بمنزلة من ورد الماء للسقي فوجد من له عنده ترة فأخذه^(١).

الحقيقة العلمية:

القيعة هي السطح المستوي الذي يعمل عمل المرأة، وبالفعل هنا فإن علم الفيزياء يؤكد حديثاً شرط استواء السطح لوقوع السراب.

(١) التحرير والتنوير (١٨ / ٢٥٣-٢٥٣).

ففي البحار قد تُشاهد المراكب البعيدة في مستوى أعلى؛ نتيجة وجود هواء أكثف، يعلو سطح البحر، يكسر الأشعة، وفي الصحاري الحارة قد تشاهد صورة سفلية معكوسة للأجسام البعيدة؛ نتيجة تخلخل الهواء فوق الأرض، فيرتفع الهواء الأثقل ويكسر الأشعة.



سراب في البحر

ولا يحدث السراب Mirage إلا بتخلخل الهواء الأسفل في جو حار، ويلزم وجود أرض مستوية ومنبسطة، تعكس الأشعة كالمرآة، وفي أرض مستوية تعمل كمرآة تبدو صورة السحب بهيئة ماء.

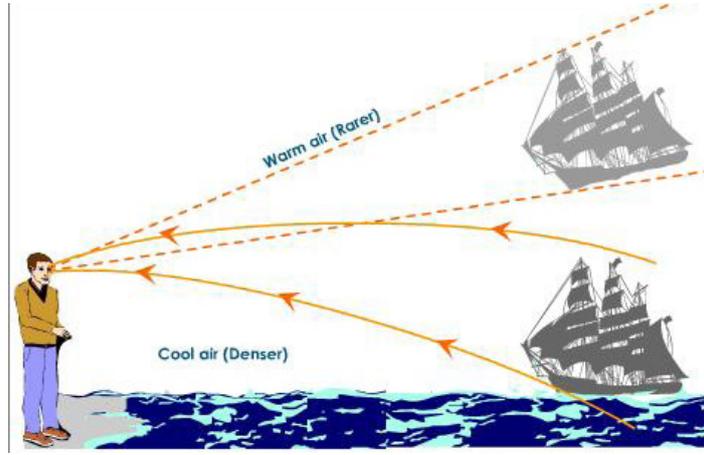
فالسراب إذاً: ما يرى نصف النهار عند اشتداد الحر...، ولا يكون إلا في البرية والحر، فيغتر به العطشان".

والقاع: ما انبسط من الأرض واتسع، ولم يكن فيه نبتٌ، وفيه يكون السرابُ، وأصل القاع: الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماءُ وجمعه قيعان.

وجه الإعجاز:

صحيح أن السراب كظاهرة طبيعية كان مما عهدته الناس منذ القدم، ولكن لم يكونوا على دراية بحقيقته، وأنه يشترط لحصوله: انبساط السطح المرئي، ووجود الحرّ الذي يُخلخل طبقات الجو، مما أشارت إليه الآن بلفظ «قيعة» و «يحسبه الظمآن» والقيعة: هو المنبسط من الأرض، والظماً يكون حالة الحر.

وجاءت الكشوف الفيزيائية في الوقت الحاضر؛ لتثبت أن هذه الظاهرة يشترط لها: الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، ووجود الحر، بحيث تتخلل طبقات الجو فتحدث انكسارات تنتهي بانعكاس الأشعة المرئية، وما يرافقها من صور معكوسة، وهو حقيقة السراب الذي ذكرته الآية، منذ أربعة عشر قرناً.





الحاجز المائي بين بحرين

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣].

المَرَج: المرعى المباح، أو الكلاً العام الذي يسوم فيه الراعي ماشيته تمرح كيف تشاء.

فمعنى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣] أي: جعل العذب والمالح يسيران، كُلاً كما يشاء، لذلك تجد البحار والمحيطات المالحة التي تمثل ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسي منتظم، بل تجده تعاريج والتواءات، وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة، وكأن الماء يسير على (هواه)، ودون نظام، فلا يشكل مستطيلاً أو مربعاً أو دائرة.

وكذلك الأنهار التي تولدت من الأمطار على أعلى الجبال، فتراها حين تتجمع وتسير، تسير كما تشاء، ملتويةً ومُتعرّجة؛ لأن الماء يشقُّ مجراه في الأماكن السهلة، فإن صادفته عقبةً بسيطةً ينحرف هنا أو هناك، ليكمل مساره، وانظر إلى التواء النيل مثلاً عند (قنا).

إذن: الماء عذبٌ أو مالح يسير على هواه، وليست المسألة (ميكانيكا)، وليست منتظمة، كالتي يشقُّها الإنسان، فتأتي مستقيمة.

ونلاحظ هذه الظاهرة مثلاً حينما يقضي الإنسان حاجته في الخلاء، فينزل البول يشقّ له مجرىً في المكان الذي لا يعوقه، فإن صادفته حصاة مثلاً انحرف عنها كأنه يختار مساره على هواه.

والبحر يقال عادة للمالح وللعذب على سبيل التغليب، كما نقول الشمسان للشمس والقمر.

ومرّج البحرين: آية كونية تدل على قدرة الله، فالماء مع ما عُرف عنه من خاصية الاستطراق، يعني: يسير إلى المناطق المنخفضة، يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر، ولو اختلطا لفسدا جميعاً؛ لأن العذب إن خالطه المالح أصبح غير صالح للشرب، وإن خالط المالح العذب فسد المالح، وقد خلقه الله على درجة معينة من الملوحة، بحيث تُصلحه فلا يفسد، وتحفظه أن يكون آسناً.

فالماء العذب حين تحصره في المكان يأسن ويتغير، أمّا البحر فقد أعدّه الله ليكون مخزن الماء في الكون، ومصدر البخر الذي تتكون منه الأنهار؛ لذلك حفظه، وجعل بينه وبين الماء العذب تعايشاً سلمياً، لا يبغى أحدهما على الآخر رغم تجاورهما.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] أي: مُفْرِطٌ فِي الْعَذُوبَةِ مُسْتَسَاغٌ، ومن هذه الكلمة سَمَّوْا نَهْرَ الْفِرَاتِ لِعَذُوبَةِ مَائِهِ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْفِرَاتِ أَنَّ الْمَاءَ كَمَا هُوَ نَهْرُ الْفِرَاتِ؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ وُضِعَتْ أَوَّلًا، ثُمَّ سُمِّيَ بِهَا النَّهْرُ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْأَزَلِيِّ.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] أي: شَدِيدُ الْمَلُوحَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ تَعِيشُ فِيهِ الْأَسْمَاكُ وَالْحَيَوَانَاتُ الْمَائِيَّةُ، وَتَتَغَذَى عَلَيْهِ كَمَا تَتَغَذَى عَلَى الْمَاءِ الْعَذْبِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

ثم يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان: ٥٣] البرزخ: شيء بين شيئين، وأصل كلمة برزخ: اليابسة التي تفصل بين مائين، فإن كان الماء بين يابستين فهو خليج.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣] الحِجْر: هو المانع الذي يمنع العذب والمالح أن يختلطا، والحِجْر نفسه محجور، مبالغة في المنع من اختلاط المائين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾^(١) [الإسراء: ٤٥].

الحقيقة العلمية:

في القرن الثامن عشر ظهر الكتاب الأول عن علم البحار، على أساس تجريبي ودراسات ميدانية، متحررا من التصور الفلسفي، وقد كان بدائيا في معلوماته العلمية مقارنة بالمعرفة الحالية.



ثم بدأ علم المحيطات يأخذ مكانه بين العلوم الحديثة، عندما قامت السفينة البريطانية تشالنجر برحلتها حول العالم من عام ١٨٧٢ حتى عام ١٨٧٦ م ثم توالى

(١) الشعراوي (١٧ / ١٠٤٦٨ - ١٠٤٧٠).

الرحلات العلمية لاكتشاف البحار، وفي نهاية القرن العشرين تزايد الأمل في فهم المحيطات عن طريق الأقمار الصناعية والتصوير عن بعد.

والمعلوم حاليا، أنه في ظل زيادة سرعة التدفق في مجرى النهر، وعمق الحوض البحري الذي يصب فيه، وتدني الفارق في كثافة الكتلتين الملتقيين، يسود القصور الذاتي فيندفع ماء النهر إلى البحر بشدة على هيئة نفثات دوارة، تعزل ماء النهر عن ماء البحر، وتؤخر اختلاطهما وامتزاجهما حتى تضعف معدلات تدفق الماء؛ فيبدأ الامتزاج على حواف كتلة الماء العذب، مكونا ماء قليل الملوحة، يفصل ماء النهر عن ماء البحر.

وفي كثير من الأنهار يؤدي نقل كميات كبيرة من نواتج عمليات التعرية على هيئة الرسوبيات المحمولة مع ماء النهر إلى ترسيبها في منطقة مصبه؛ مما يرفع منسوب قاع منطقة المصب، ويجعل سمك الماء فيها قليلا؛ مما قد يؤدي إلى جعلها أعلى من منسوب قاع مجرى النهر.

وتضييق المجرى يجعل تيار ماء النهر بعد المصب أكثر اندفاعا، ويجعل كتلة الماء العذب في المحيط أكبر حجما وأكثر ثراء بالأحياء، وليس مصدر التيارات العذبة في المحيطات مقصورا على الأنهار فحسب، فقد تصدر من المياه الجوفية وتتدفق من شقوق عميقة في جدران المحيط.

وهكذا يبقى كلُّ من الماء العذب والماء المالح، له من صفاته الطبيعية والكيميائية ما يمكنه من البقاء منفصلا انفصالا كاملا عن الآخر، على الرغم من التقاء حدودهما، ولكل بيئة أنواع خاصة من أنواع الأحياء المائية المحدودة بحدود بيئتها.

وبذلك تكون أنواع الحياة في الماء القليل الملوحة مقصورة على تلك البيئة ومحجورة فيها أي: لا تستطيع الخروج منها وإلا هلكت، كما أن كل مجموعة من أنواع الحياة في البيئتين العذبة والمالحة لا تستطيع دخول الماء القليل الملوحة

وإلا هلكت، فيما عدا أعداد قليلة تستطيع العبور دون بقاء طويل، ومن هنا كان هذا الماء القليل الملوحة حجرا على الحياة الخاصة به.

وجه الإعجاز العلمي:

إن وجود حاجز بين البحرين الذي تحدث عنه القرآن الكريم لم يدركه الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، ولا شك أن ورود تلك الحقائق في كتاب الله تعالى الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ويجزم بنبوة هذا النبي الخاتم ﷺ.

فسبحان الذي أنزل قوله الحق في بيان مبهر معجز: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].





المياه الجوفية

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [الزمر: ٢١].

الدلالة النصية:

قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ اعلم أن الماء في نفسه نعمة، وأنه مع ذلك سببٌ لحصول النعم، فلا جرم ذكره الله تعالى أولاً، ثم ذكر ما يحصل به من النعم ثانياً. أما قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ فقد اختلفوا في السماء، فقال الأكثرون من المفسرين: إنه تعالى ينزل الماء في الحقيقة من السماء، وهو الظاهر من اللفظ، ويؤكد قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

وقال بعضهم: المراد السحاب وسماه سماء لعلوه، والمعنى: أن الله تعالى أصعد الأجزاء المائية من قعر الأرض إلى البحار، ومن البحار إلى السماء، حتى صارت عذبة صافية؛ بسبب ذلك التصعيد، ثم إن تلك الذرات تأتلف وتتكون، ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة إليه.

ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقتها في قعر الأرض، ولا بماء البحار لملوحتها، ولأنه لا حيلة في إجراء مياه البحار على وجه الأرض؛ لأن البحار هي الغاية في العمق، واعلم أن هذه الوجوه إنما يتمحلها من ينكر الفاعل المختار، فأما من أقرّ به فلا حاجة به إلى شيء منها.

أما قوله تعالى: ﴿بِقَدْرٍ﴾ فمعناه بتقدير، يسلمون معه من المضرة، وَيَصِلُونَ إلى المنفعة في الزرع والغرس والشرب، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم^(١).

قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وَيَنْبِغُهُ عَيْونًا ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُو يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾.

عن ابن عباس قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُو يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده (رواه ابن أبي حاتم، وهكذا قال الشعبي، وسعيد بن جبير: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء).

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعني: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾، أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي: أشكاله وطعومه، وروائحه ومنافعه.

﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل، فنراه مصفرا قد خالطه اليبس.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلَمًا﴾ أي: ثم يعود يابسا يتحطم.

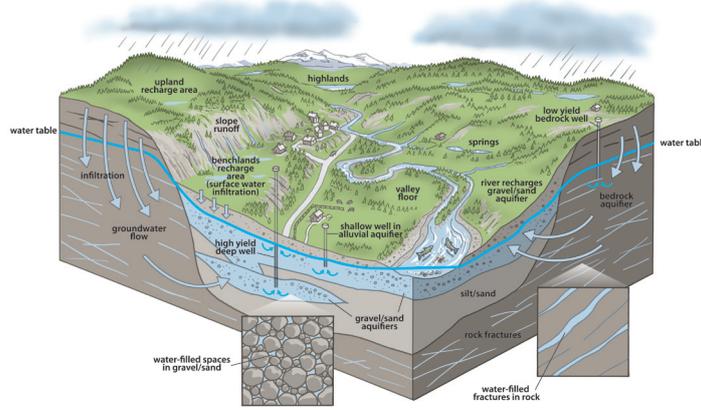
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا، فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة ناضرة حسنة، ثم تعود عجوزا شوهاء، والشباب يعود شيئا هرما، كبيرا ضعيفا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد مَنْ كان حاله بعده إلى خير^(٢).

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٣ / ٢٦٨).

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني (٢ / ٢١٧).

الدلالة العلمية:

حينما يسقط المطر على الأرض ينساب جزء كبير منه إلى باطن الأرض ليسكن تحت الثرى في خزانات جوفية، ولا استخراج المياه الجوفية يحفر الإنسان الآبار كما هو مشاهد في الأراضي القاحلة التي يقل فيها تساقط الأمطار.



ويوجد في باطن الأرض صخور مسامية ونفاذية تختزن في داخلها الماء وتسمح له بالنفوذ عبرها، ولولا خاصية المسامية والنفاذية في هذه الصخور لما أمكنها من خزن المياه، فالماء الذي يصب على الأرض لا يمكن تخزينه إلا في وجود شقوق، ونتيجة للضغط الأسموزي يكون الماء الجوفي تحت ضغط كبير بحيث إذا ظهر في منخفض من الأرض يتفجر.

والماء في البحار له مستوى يسمى مستوى سطح البحر، ويتخذ مرجعاً لقياس الارتفاع فوقه أو الانخفاض تحته، والماء الذي يجري في الأنهار والبحيرات له مستوى يختلف من مكان إلى آخر، والماء المخزن في باطن الأرض له أيضا مستوى يسمى مستوى الماء الجوفي، ويختلف ذلك المستوى أيضا من مكان إلى مكان آخر.

فإذا ما غار الماء في النهر أو البحيرة أو خزان المياه الجوفية، فإنه من الصعب على الإنسان الوصول إليه ، وفي حالات كثيرة يستحيل الحصول عليه ، وغور الماء ظاهرة معروفة في البحار أو الأنهار أو الماء الجوفي.

وقد تكرر ارتفاع وانخفاض مستوى البحر عبر تاريخ كوكب الأرض، وتوالى طغيان البحر وانحساره عن اليابسة خلال العصور الجيولوجية المختلفة، وحينما ينخفض مستوى سطح البحر يغور معه أيضا مستوى الماء الجوفي نتيجة تسرب الماء.

ومن رحمة الله تعالى بخلقه، أن يخزن المياه في جوف الأرض بكميات تبلغ أكثر من ثلاثين ضعف مياه الأنهار وبحيرات العالم مجتمعة، ومن بديع صنع الله أن مستوى المياه الجوفية يتبع تضاريس سطح الأرض، يعلو مع المرتفعات، وينخفض مع المناطق المنخفضة؛ فيستفيد منه ساكنو الجبال كما يستفيد منه ساكنو السهول والصحاري.

وجه الإعجاز:

دلت الآيات السابقة على وجود مكامن للمياه ، وخزانات في أعماق الأرض. ولم يتح للناس معرفة حقيقة تكون المياه الجوفية التي أشار إليها القرآن الكريم إلا بعد تقدم العلوم.

وقد أمكن في وقتنا الحاضر - عن طريق الاستشعار عن بعد، باستخدام الأقمار الصناعية - تحديد أماكن تجمع المياه الجوفية في باطن الأرض؛ مما يؤكد أن النصوص التي أشارت إلى ذلك تحمل بين طياتها إعجازا علميا باهرا.

اهتزاز التربة وربوها

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا ذُشِّئُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَثْبَتَّتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَّهِيحٍ﴾ [الحج: ٥].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَادِجَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].



أرض جافتة بفعل نقص المطر

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَثْبَتَّتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَّهِيحٍ﴾ [الحج: ٥]

أي: كما كان خَلَقَ الإنسان من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقَةٍ، ثم أخرجهُ طفلاً، وبلغ أشدَّهُ، ومنهم مَنْ مات، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرْدَلِ العَمْرِ، كذلك الحال في الأرض: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾. [الحج: ٥] ^(١).

هامدة: ساكنة، ومنه قولنا للولد كثير الحركة: اهدم ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾. [الحج: ٥] أي: تحركت ذراتها بالنبات بعد سكونها.

والاهتزاز: تحرك ما كنت تظنه ثابتاً، وليس ما كان ثابتاً في الواقع؛ لأن لكل كائن حركة في ذاته، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها، لكن ليس لديك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة.

ولو تأملت المغناطيس؛ لأدركت هذه الحركة بين ذراته، فحين تُدَلِّك القُضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط في اتجاه واحد، فإنه يكتسب منه المغناطيسية، وتميرير المغناطيس في اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة، فإن اختلف اتجاه الدَّلِّك فإن الذرات أيضاً تختلف. إذن: في الحديد - رمز الصلابة والجمود - حركة وحياء تناسبه، وإن خُيِّل إليك أنه أصمُّ جامد في ظاهرة.

لذلك نقول ﴿هَامِدَةً﴾. [الحج: ٥] يعني: ساكنة في رأي العلم، حيث لا نبات فيها ثم ﴿اهْتَزَّتْ﴾. [الحج: ٥] يعني: زادت وربت وتحركت لإخراج النبات، إنما هي في الحقيقة لم تكن ساكنة مُطلقاً؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها.

ومعنى: ﴿وَرَبَّتْ﴾. [الحج: ٥] أي: زادت عن حجمها، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع في الماء، وتأخذ حظها من الرطوبة، وكذلك في جميع البقول، وهذه الزيادة في حجم الحبة هي التي تفلقها إلى فلتتين في عملية الإنبات، ويخرج

(١) تفسير الشعراوي (١٦ / ٩٧١٠).

منها زيان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذي يبحث عن الهواء، وإلى أسفل فيكون الجذر الذي يبحث عن الماء.

وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبته حتى تقوى، وتستطيع أن تمتصَّ غذاءها من التربة، فإذا أدَّت هاتان الفلقتان مهمتهما في تغذية النبتة تحوَّلتا إلى ورقتين، وهما أول ورقتين في تكوين النبتة.

كذلك، نلاحظ في تغذية النبات أنه لا يأخذ كلَّ غذائه من التربة، إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ بالمائة من غذائه من الهواء، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرتَ إلى إصيص به زرع، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تُذكر بالنسبة لحجم النبات الذي خرج منها.

وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف، ولك أن تنظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف تجد الجذور غير متساوية في الطول، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة.

﴿وَرَبَّتْ..﴾ [الحج: ٥] أي: زادت وانتفشت، كما يحدث في العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿وَأَثْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥].

هذه صورة حيَّة واقعية نلاحظها جميعاً عياناً: الأرض تكون جرداء ساكنة، لا حركة فيها، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرت وتحركت ذراتها وتشققت عن النبات، ولو حتى بالمطر الصناعي، كما نرى في عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعي فيخضُر الوادي، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء، ولو واليت عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتي نراها في أوروبا.

والمطر لا يحتاج أن تُسوَّى له الأرض؛ لأنه يسقي المرتفع والمنخفض على السواء، على خلاف الأرض التي تسقيها أنت لا بُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعاً.

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجذباء الجرداء تراها تفتق بالنبات، فمن أين جاءت هذه البذور؟ وكيف لم يُصَبِّها العطب، وهي في الأرض طوال هذه الفترات؟ الأرض هي التي تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات، وهذا النبات الذي يخرج من الأرض دون تدخل الإنسان يسمونه (عذّي).

أما عن نقل هذه البذور في الصحراء وفي الوديان، فهي تنتقل بواسطة الرياح، أو في روث الحيوانات^(١).

الحقيقة العلمية:

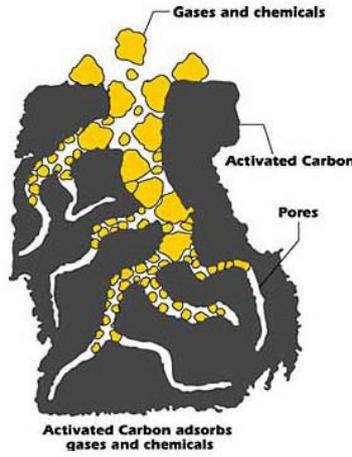
إن أول من وصف حركة الأرض عند نزول الماء عليها، واهتزاز جزئيات التربة فيها هو عالم النبات روبرت براون Robert Brown عام ١٨٢٧ وسميت باسمه: الحركة البراونية Brownian Motion.

ويرجع انتفاش التربة إلى خاصية تعلق الماء بجزئيات التربة ويسمى الامتصاص Adsorption؛ وإلى خاصية انتشار الجزئيات في الماء، وتسمى الامتصاص Adsorption، فالوصفان الجامعان ﴿أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ يكشفان عمليات على المستوى الجزيئي المجهرى، لا يدركها أحدٌ زمن التنزيل إلا بوحى.

عند جفاف التربة تأخذ الحبيبات وجزئياتها أقل حيز؛ ومع الماء تنتفش التربة وتزداد في الحجم وتفتح طريقاً لامتداد جذور النبات لخصائص خفية، تميز تفاعل التربة مع الماء، ويمتد الوصف ليشمل المكونات الحية الكامنة كالبذور والكائنات الحية الدقيقة المتحوصلة، حيث ينعشها الماء ويحثها على التنامي والتكاثر، وكأنها كانت كالموتى بسكونها فطالها وصف مكونات تربة الأرض ذاتها بالحياة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) تفسير الشعراوي (١٦/٩٧٠٩ - ٩٧١٢).

وتتشرب مكونات التربة الماء، ويعلق بها فتنتفخ وتتباعد أجزاءها، ويزداد حجمها نتيجة لخاصتي التشرب والتعلق، ومع وجود الماء تتفكك المكونات، وتتحول إلى جزيئات مشحونة خلال عملية التأين Ionization فتعمل على اهتزاز التربة.



الادمصاص

وتنفس البيضات، وتنشط الديدان والحشرات والجذور والسيقان، ويزداد معدل امتصاص التربة للماء، فيزداد اهتزازها، وتبدأ الكائنات الدقيقة في النمو والتكاثر والازدياد، وتبدأ الديدان والحشرات نشاطها في صناعة الأنفاق فتزيد انتفاش التربة. وهكذا تربو التربة، وتموج بأشكال لا تراها العين المجردة لتشهد بقدرة الله تعالى، والمعجز أن يوجز العليم الخبير كل هذه العمليات الكيميائية والبيولوجية المجهرية في كلمتين اثنتين: ﴿أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾.

وجه الإعجاز:

إن الإشارة إلى هذه الحركة البراونية منذ أربعة عشر قرناً، حيث كان الناس على جهالة تامة بحقيقة ما يجري لدى نزول المطر على الأرض دليل واضح على أن الذي ذكر هذا الاهتزاز والربو في التراب إنما هو خالق الكون، وأن محمداً ﷺ هو رسول الله حقاً وصدقاً.



نزول الحديد

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

الدلالة النصية:

ذكروا في: إنزال الميزان وإنزال الحديد، قولين:

❁ الأول: أن الله تعالى أنزلهما من السماء.

روي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مر قومك يزنوا به.

وعن ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من الحديد، السندان والكلبتان، والمقمعة، والمطرقة، والإبرة، والمقمعة ما يحدد به، ويدل على صحة هذا ما روى ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد والنار والماء والملح».

❁ والقول الثاني: أن معنى هذا الإنزال الإنشاء والتهيئة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ

لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَثَلِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] قال قطرب: ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور: ٨]

أي: هيأناها من النزل، يقال: أنزل الأمير على فلان نزلا حسنا، ومنهم من قال هذا من جنس قوله: علفتها تبنا وماء باردا، وأكلت خبزا ولبنا.

ذكر في منافع الميزان أن يقوم الناس بالقسط، والقسط والإقساط هو الإنصاف، وهو أن تعطي قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك، والعادل مقسط، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

والقاسط الجائر قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]،
وأما الحديد ففيه البأس الشديد، فإن آلات الحروب متخذة منه، وفيه أيضا منافع
كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] (١).



❁ التوافق مع العلوم الحديثة:

تباين دلالة اللفظ تبعا للسياق من خصائص لغات التخاطب؛ وهي أجلى
ما تكون في القرآن الكريم، والدلالات المعجمية لا يتحدد إحداها إلا من خلال
السياق.

ففي قوله تعالى: ﴿بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ [البقرة: ٧١]؛
لا يستقيم حمل لفظ (الأرض) على الكوكب؛ لأن المقام يتعلق بمشهد معلوم،
وهو إثارة بقرة للغبار مما يستقيم معه حمل لفظ (الأرض) على تربة الحقل.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩/٤٧٠ - ٤٧١).

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]؛ لا يستقيم كذلك حمل لفظ (السماء) على الكون كله وإنما سقف البيت؛ لأن المقام يتعلق بمشهد معلوم وهو مشنوق مربوط إلى ما يعلوه وهو السقف عادة.

ومدار لفظ (أنزلنا) في القرآن الكريم؛ سواء كان الإنزال حسياً أو معنوياً على تحقيق أمر جليل يستوجب الشكر كنعمة، أو الاعتبار كنعمة لذا ناسبه التعبير بالتعظيم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]؛ يتعلق المقام بوصف القرآن كنعمة تستوجب الامتنان؛ لما فيه من رحمة للبشرية فناسبه تعبير (الإنزال).

وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا﴾ [الزمر: ٦]؛ وأجناسها على النحو التالي: الضأن، والمعز، والإبل، والبقر، وتمثل لحومها وألبانها أهم مصادر الغذاء للسكان في البوادي، وتعبير (الإنزال) إذن يكشف مدى الرحمة والإنعام في إيجاد تلك المواشي المعبر عنها بلفظ (الأنعام).

ولبيان هذا الإنعام في إيجاد اللباس، لستر العورات، والحماية من تقلبات الجو ناسب التعبير عن هذا الإيجاد بلفظ (الإنزال) في قوله تعالى: ﴿يَبْتِغِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ولذا قد أصاب الأعلام في حمل دلالة لفظ (الإنزال) في هذا المقام إلى معانٍ كالإيجاد والخلق والجعل والإنعام.

أما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فالدلالة الحسية على نزول الحديد من جسم الأرض نحو اللب لا تنفي الدلالة المعنوية في الإنعام على الناس جميعاً بهذا الإنزال، لبأسه الشديد في الدفاع عنهم من مخاطر لم يكن يعلم بها إنسان، حتى اكتشفت حديثاً أحزمة فان ألن المغناطيسية التي تدفع عنهم مخاطر الرياح الشمسية بلا إدراك منهم.

وقد جاء بيان إنزال الحديد على مستوى الكوكب باعتباره من أثقل مكونات الأرض في مقابل بيان إخراج المواد الأخف نحو السطح في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَتْهَا ۚ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۚ وَالْجِبَالُ أُرْسِلَتْهَا ۚ مَتَّعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣].

وهذا ما يتفق تماما مع المعرفة الحديثة بخروج كل ما أدى في النهاية إلى وجود مظاهر الحياة، من نبات وحيوان، المعبر عنها باللفظ الجامع (مَرْعَاهَا)، بعد التهيئة بتكثف أبخرة الماء، وانقشاع دخان البراكين الأولية.

والسائد حاليا في علوم الأرض هو هبوط أثقل المواد ممثلة بالحديد نحو اللب الذي يتكون معظمه بالفعل من الحديد، وناسب اقتصار نزول الحديد على ما دون الجو، الخلو من الإضافة (من السماء) التي لازمت في مواضع عديدة بيان نزول الماء من السحب في الجو نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النمل: ٦٠].

ويتفق هذا مع تكون الأرض من طبقات يعلو بعضها بعضها أخفها الأعلى وأثقلها هو ما في باطنها المتكون غالبا من الحديد.

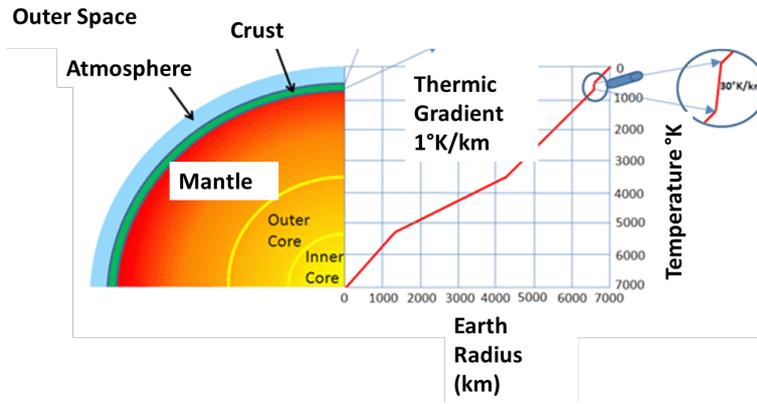
وتتفق تلك الدلالة مع وصف ما في باطن الأرض صريحا بالأثقال في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، فالوصف متعلق بالكرة الأرضية لأن ضمير (أثقالها) عائد عليها.

والمعلوم حاليا بالفعل: أن الكثافة تزداد مع العمق حتى تبلغ أقصاها في اللب، والتعبير ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ يتسع لمعان أشمل، ويمكن حمل بأسه ومنافعه على المستوى الجزيئي.

فذرة الحديد تتميز بقوة ترابط شديدة، وهي تدخل في تركيبات مهمة بالنسبة للأحياء، مثل: هيموجلوبين الدم، وحركة الحديد في لب الأرض أغلفة مغناطيسية

الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة

تحيط بالكوكب وتحمي كافة أحياء الكوكب من خطر الرياح الشمسية المتأينة، وكل تلك الحقائق العلمية المكتشفة حديثاً يُجملها قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾.



تتزايد الكثافة كما تعمقنا نحو لب الأرض





كروية الأرض

قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ عبّر بالفعل المضارع في هذه الجملة للدلالة على تجدد ذلك وتكرره، أو لاستحضار حالة التكوير تبعاً لاستحضار آثارها، فإن حالة تكوير الله الليل على النهار غير مشاهدة، وإنما المشاهد أثرها، وتجدد الأثر يدلُّ على تجدد التأثير.

والتكوير حقيقته: اللف واللي، يقال: كور العمامة على رأسه إذا لواها ولفّها، ومثلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض، وعكس ذلك على التعاقب بهيئة كور العمامة، إذ تغشى اللية اللية التي قبلها.

وهو تمثيل بديع قابل للتجزئة بأن تشبه الأرض بالرأس، ويشبه تعاور الليل والنهار عليها بلف طيات العمامة، ومما يزيده إبداعاً إثارة مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن المشار إليها في المقدمة الرابعة والموضحة في المقدمة العاشرة.

فإن مادة التكوير جائية من اسم الكرة، وهي الجسم المستدير من جميع جهاته على التساوي، والأرض كروية الشكل في الواقع، وذلك كان يجهله العربُ وجمهورُ البشر يومئذ، فأوماً القرآن إليه بوصف العرضين اللذين يعتريان الأرض على التعاقب، وهما النور والظلمة، أو الليل والنهار، إذ جعل تعاورهما تكويراً؛

لأن عرض الكرة يكون كرويا تبعا لذاتها، فلما كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإلهية الحق بإنشاء السماوات والأرض اختيار للاستدلال على ما يتبع ذلك الإنشاء من خلق العرضين العظيمين للأرض مادة التكوير دون غيرها من نحو الغشيان الذي عبر به في قوله تعالى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [في سورة الأعراف: ٥٤].

لأن تلك الآية مسوقة للدلالة على سعة التصرف في المخلوقات لأن أولها ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فكان تصوير ذلك بإغشاء الليل والنهار خاصة؛ لأنه دل على قوة التمكن من تغييره أعراض مخلوقاته.

ولذلك اقتصر على تغيير أعظم عرض وهو النور، بتسليط الظلمة عليه، لتكون هاته الآية لمن يأتي من المسلمين الذين يطلعون على علم الهيئة فتكون معجزة عندهم.

وعطف جملة ويكور النهار على الليل هو من عطف الجزء المقصود من الخبر كقوله: ﴿ثَيِّبَتْ وَأَبْكَرًا﴾ [التحرير: ٥].

وتسخير الشمس والقمر هو تذييلهما للعمل على ما جعل الله لهما من نظام السير سير المتبوع والتابع، وقد تقدم في سورة الأعراف وغيرها.

وعطفت جملة وسخر الشمس والقمر على جملة يكور الليل على النهار؛ لأن ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه، فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير فتلك المناسبة اقتضت عطف الجملة التي تضمنته على الجملة التي قبلها.

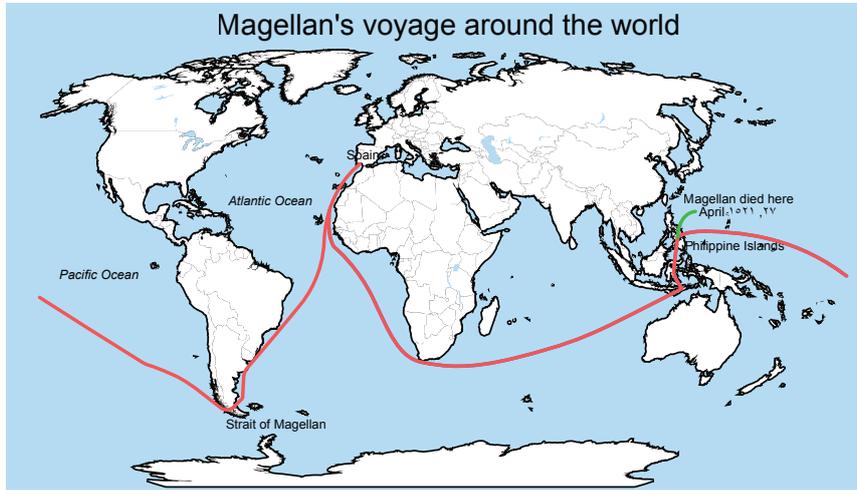
وجملة كل يجري لأجل مسمى في موقع بدل اشتمال من جملة سخر الشمس والقمر، وذلك أوضح أحوال التسخير. وتنوين كل للعوض، أي: كل واحد. والجرى: السير السريع. واللام للعلة^(١).

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٣ / ٣٢٨-٣٢٩).

الحقيقة العلمية :

كانت الفكرة السائدة حتى بعد عصر نزول القرآن الكريم بقرون أن الأرض مسطحة، تركز السماء على أطرافها كقبة، وبالتدريج تبلورت الفكرة بكروية الأرض، ومن الدلائل الحسية على كروية الأرض أن أول ما يظهر من السفينة القادمة نحو الشاطئ صاري السفينة الذي يحمل الشراع ثم يظهر بدن السفينة تدريجياً كلما اقتربت من الشاطئ.

وتعتبر رحلة ماجلان هي أول رحلة بحرية تدور حول الأرض في الفترة ما بين عام ١٥١٩ و عام ١٥٢٢، وفي عصر الفضاء ظهرت صور الأرض على شكل كرة، فلو كانت الأرض منبسطة لوجب أن يكون على سطحها شروق واحد وغروب واحد؛ فتتير الشمس كامل سطحها حين تشرق، ويحتجب النور عن كامل سطحها حين تغرب..



رحلة ماجلان

وبما أن الأرض كروية فإن الشمس حينما تشرق عليها تتير الجهة الشرقية منها فقط، وتظل الجهة الغربية محجوبة عن النور في حالة ظلمة.

ويجري العكس حينما تشرق الشمس على الجهة الغربية منها.. وهذا الأمر لا يتأتى إلا من كون الأرض كروية الشكل، حيث إن التكوير عادة لا يحدث ولا يتم إلا حول جسم كروي^(١).

إنك لو جئت بشيء ولففته حول كرة فتقول إنك كورت هذا الشيء، وحيث إن الغلاف الجوي للأرض يحيط بالأرض مشدوداً إليها بقوة الجاذبية من جميع الجهات فإن هذا الغلاف يأخذ شكل الأرض.

وحيث إن ضوء النهار ينشأ بالتشتيت على ذرات وجسيمات الغلاف الجوي فإن النهار والليل متكوران على الأرض، وبهذا فإن الآية الكريمة تشير إلى كروية الأرض بدليل كروية غلافها الجوي بنهاره أو ليله^(٢).

وجه الإعجاز:

لقد أشار النص القرآني السابق إلى كروية الأرض منذ أربعة عشر قرناً، حينما كانت الفكرة السائدة آنذاك هي أن الأرض مسطحة.

وبعد قرون أكدت الكشوف العلمية الحديثة -ابتداءً من رحلة ماجلان- كروية الأرض مما يدل على إعجاز النص القرآني الكريم السابق الذكر. والله أعلم.

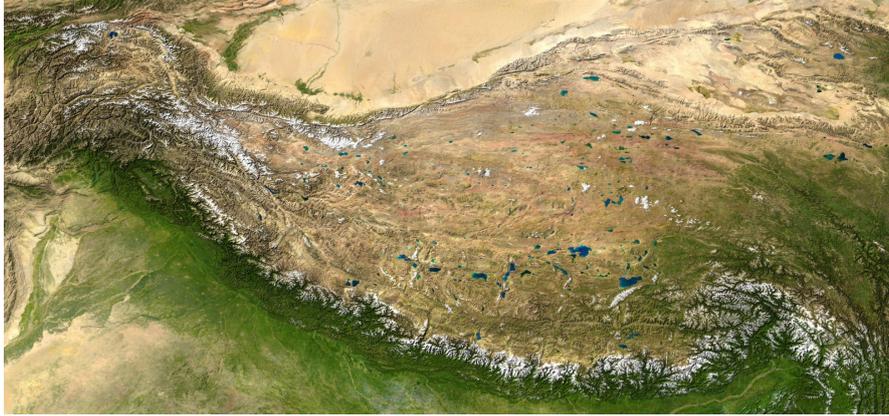


(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: عبد الرحيم مارديني ص (٨٩، ٩٠).

(٢) انظر: الكون والإعجاز العلمي للقرآن د/ منصور حسب النبي.

أوتاد الأرض

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٦-٧].
وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ سِطًا ۝١١ لِيَتَسَلَّكُوا مِنْهَا سُبُلًا فَجَاجًا﴾
[نوح: ١٩-٢٠].



جبال الهيمالايا شمال الهند

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾.

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم إنكار البعث والحشر، وأراد إقامة الدلالة على صحة الحشر، قدم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادرا على جميع الممكنات، عالما بجميع المعلومات، وذلك لأنه مهما ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث، وإنما أثبت هذين الأصلين بأن عدّد أنواعا من مخلوقاته الواقعة على وجه الإحكام والإتقان.

فإن تلك الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم، ومتى ثبت هذان الأصلان، وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض، ثبت لا محالة كونه تعالى قادراً على تخريب الدنيا بسماواتها وكواكبها وأرضها، وعلى إيجاد عالم الآخرة، فهذا هو الإشارة إلى كيفية النظم. واعلم أنه تعالى ذكر هاهنا من عجائب مخلوقاته أموراً فأولها: قوله: ألم نجعل الأرض مهاداً والمهاد مصدر، ثم هاهنا احتمالات:

أحدها: المراد منه هاهنا الممهود، أي: ألم نجعل الأرض ممهودة/ وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر، كقولك هذا ضرب الأمير.

وثانيها: أن تكون الأرض وصفت بهذا المصدر، كما تقول: زيد جود وكرم وفضل، كأنه لكماله في تلك الصفة صار عين تلك الصفة.

وثالثها: أن تكون بمعنى ذات مهاد، وقرئ مهداً، ومعناه: أن الأرض للخلق كالمهد للصبي، وهو الذي مهد له فينوم عليه.

واعلم أنا ذكرنا في تفسير سورة البقرة عند قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢] كل ما يتعلق من الحقائق بهذه الآية. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ أي: للأرض [كي] لا تميد بأهلها، فيكمل كون الأرض مهاداً بسبب ذلك^(١).

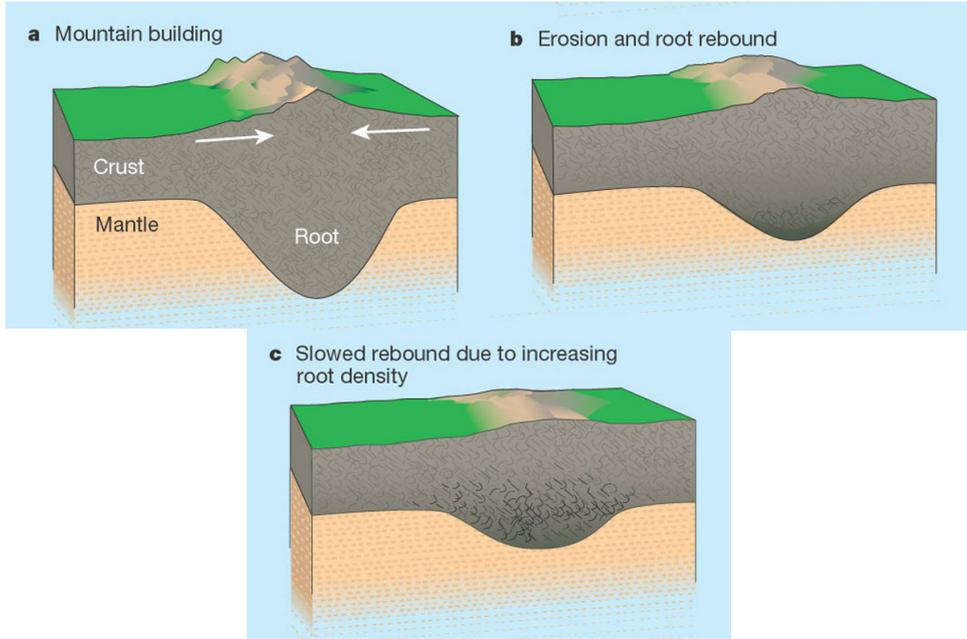
الحقيقة العلمية:

من الثابت حالياً أن لكل جبل جذراً Root يمتد نحو الباطن أكثر من ارتفاعه؛ وكلما زاد الارتفاع زاد امتداد الجذر عمقاً، ولم يكن أحد قبل القرن التاسع عشر يعرف شيئاً عن تلك الحقيقة.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١ / ٨).

ففي عام ١٧٤٩م لاحظ بيير بوجير أن قوة الجذب المقيسة بميل البندول في جبال الإنديز أقل من المتوقع قياسا على الكتلة المقدرة فوق مستوى سطح البحر مما يدفع للافتراض بوجود كتلة أكبر في الأسفل.

وأكدت القياسات التي أجرتها بعثة إنجليزية بقيادة جورج إفرست في جبال الهيمالايا في بداية القرن التاسع عشر بالهند نفس النتيجة؛ حيث دلت القياسات على وجود قوة جذب أكبر من المفترض بحوالي الثلثين لم يعرف سببها على وجه القطع؛ ولذا سميت الظاهرة لغز الهند Puzzle of India.



وفي عام ١٨٥٥م قدّم أيري Airy الأساس للتفسير الحالي، حيث استبعد أن تكون الجبال مثبتة على قشرة صلبة تحتها؛ وإنما تطفو كالسفن في بحر من الصخور اللينة الحارة، الأعلى كثافة، ولذا فهي تتبع قانون الكثافة، حيث تمتد عميقا في باطن الغلاف الصخري حتى تستقر، الدور الرئيس الذي تؤديه الجبال

إذن هو تثبيت ألواح الغلاف الصخري لا كوكب الأرض؛ وهو ما أشار إليه القرآن الكريم.

والمعلوم أن لفظ الأرض في العربية وغيرها يأتي بدلالات متباينة، يحددها السياق، كالكوكب والتربة والقطر، وقد يعني السطح الصخري المميز بالجبال؛ وهو المعنى الوحيد الذي يستقيم مع جعل الجبال أوتادا تثبت الأرض بمعنى السطح تحتنا لا الكوكب.

وجه الإعجاز:

والدلالة في حديث القرآن عن الظواهر الكونية لا ترد شاردة فيسهل للطاعن حملها على معنى يتعارض مع العلم؛ ولكنها تردد ضمن منظومة متكاملة مترابطة الأجزاء يفسر بعضها بعضاً تؤكد القصد في التعبير.

وفي قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]؛ دلالة تستقيم مع المعلوم حالياً بأن القشرة الصلبة المعبر عنها بلفظ (الأرض) دونها دوامات وتيارات عاتية ملتهبة إلى حد إسالة الصخور.

وأمام تلك الروائع في كشف المجهول في تكامل بلا تعارض، قبل أن ترددها الكشوف العلمية اليوم على المسامع، لا يملك المُنصف إلا الإقرار بالوحي للقرآن الكريم.





الفلك وعلوم الفضاء

حبك السماء

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ الخَلْقُ الْحَسَنُ^(١).



الْحُبُّكِ الطَّرَائِقُ، مثل حبك الرمل والماء: إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تثنيه وتكسره. قال زهير:

مكَلَّلُ بأصولِ النِّجْمِ تنسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لُصَّاحِي مائه حُبُّكُ^(٢)

(١) الوجيز للواحيدي (ص: ١٠٢٧).

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤ / ٣٩٥).

والدرع محبوكة: لأنَّ حلقتها مطرَّق طرائق. ويقال: إنَّ خلقة السماء كذلك. وعن الحسن:

حُبُّكُهَا نَجْوَمُهَا. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشي.

وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم: فرس محبوك المعاقم، أى: محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكه، وهو جمع حباك، كمثل ومثل. أو حبيكة، كطريقة وطرق. وقرئ: الحبك، بوزن القفل. والحبك، بوزن السلك. والحبك، بوزن الجبل. والحبك بوزن البرق. والحبك بوزن النعم. والحبك بوزن الإبل^(١).

الدلالة النصية:

وَصَّحَتْ هذه الآية الرائعة لوضع النجوم والكواكب في هذا الفضاء، حيث ذكرت أنها في الإتساق والأحكام مع المنظر الجميل لها بمثابة الشيء المحبوك في البناء، والتجانس في المنظر، والروعة في الظهور.

الحقيقة العلمية:

قام العلماء مؤخرًا برسم مخطط ثلاثي الأبعاد للكون باستخدام الكمبيوتر العملاق المسمى بالسوبر كمبيوتر، وقد تضمنت البيانات التي تمت معالجتها معلومات تفصيلية عن عدد ضخم من المجرات، والغبار الكوني، والغاز بين النجوم، ومعادلات الفيزياء الخاصة بتوسع الكون، وأبعاد المجرات، ومواضعها، وحركتها، والمسافات التي تفصلنا عنها وغير ذلك.

وبعد تنفيذ الكمبيوتر لهذه المهمة أظهر صورة الكون وكأننا نراه من الخارج، وكان يشبه إلى حد كبير نسيج العنكبوت، فسارع العلماء في إطلاق مصطلح (النسيج الكوني Cosmic Web) لأنهم رأوا نسيجًا حقيقيًا تمَّ حَبْكُ خيوطه بإتقان وقوة.

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤ / ٣٩٥).

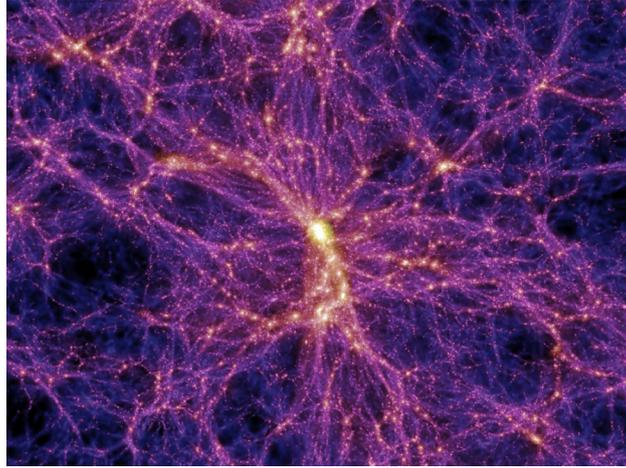
وقد استخدم مكتشفو هذا النسيج في أبحاثهم الصادرة حديثاً كلمة (weave) والتي تعني (حَبَكَ)، وكلمة (Filaments) والتي تعني (خيوط). وهذا يدلّ على أن القرآن الكريم قد سبق علماء الغرب في الإشارة إلى وجود بنية نسيجية في السماء!!

وتصوير رائع لترتيب النجوم وتشكيلها في بروج وتحديد أفلاكها بمتهى الدقة مع الاستمرار على ذلك الحال ملايين السنين دون أن يعترها خلل أو تهافت.

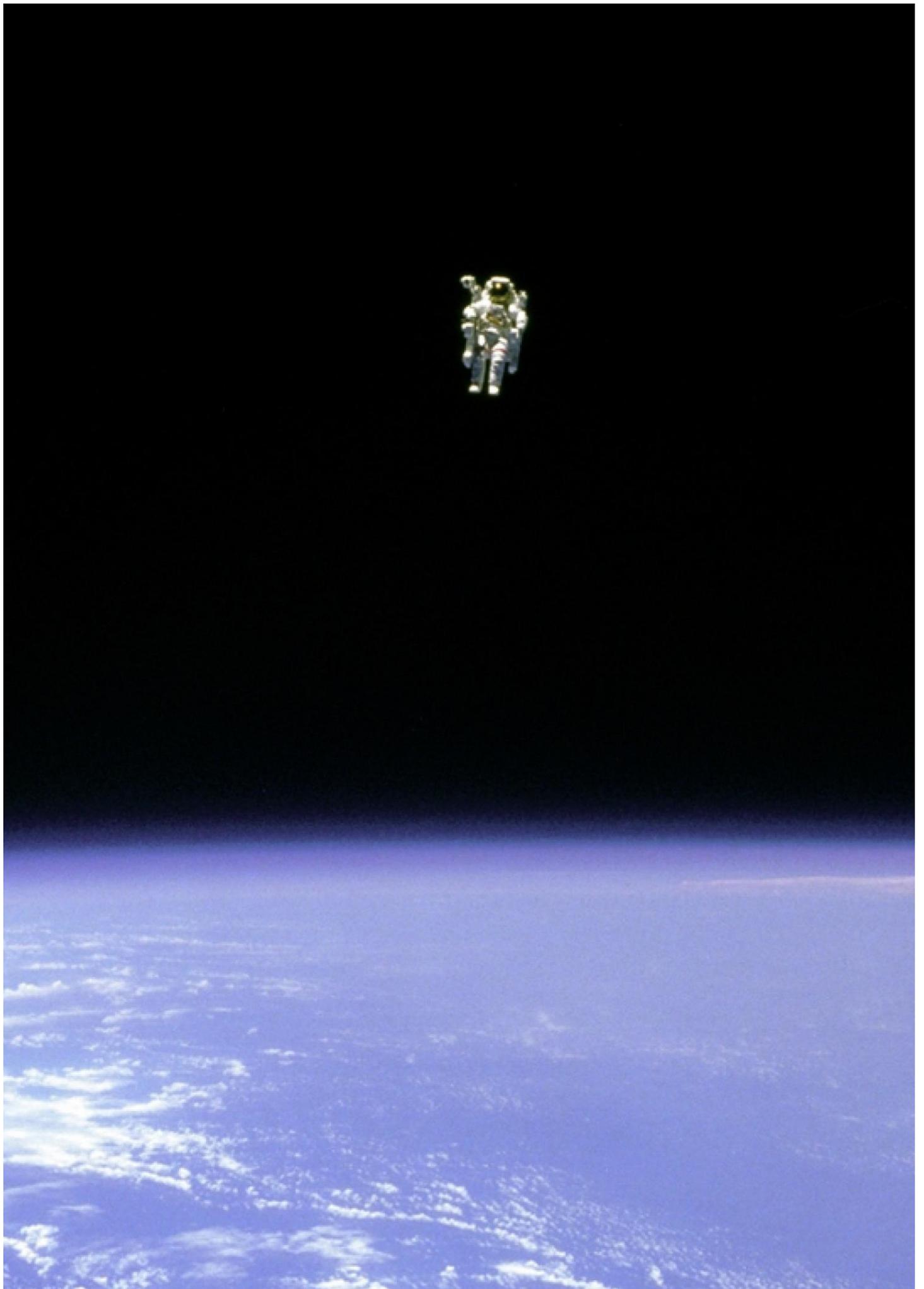
وجه الإعجاز:

بعد أن اتسعت أبحاث الفلك وتطورت أساليب معرفة موجودات الفضاء، وأجهزة المراقبة والرصد، وقع العلماء على صورة أخاذة في بهائها واتساقها، مما يتطابق مع ما ورد في صريح الآية في استعمال كلمة الحبك، وهذا التطابق بيّن دلالة النص الشريف وما أثبتته العلم يعني إعجازاً علمياً باهرًا.

وهذا يعتبر دليلاً دامغاً على أن القرآن الكريم هو كتاب الله، وأنه معجز من الناحية الكونية، ودليل على صدق قول الحق تبارك وتعالى.



النسيج الكوني كما وجده العلماء حديثاً



ظلمة الفضاء

قال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَدَّلَهَا ﴿٣٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٣٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٣٩﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿٤١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٤٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٤٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤٤﴾ [الشمس: ١-٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَيْلٍ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ [يس: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ وفيه مسائل:

✿ المسألة الأولى: أغطش قد يجيء لازماً، يقال: أغطش الليل إذا صار مظلماً، ويجيء متعدياً يقال: أغطشه الله إذا جعله مظلماً، والغطش الظلمة، والأغطش شبه الأعمش.

ثم هاهنا سؤال: وهو أن الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة؛ بسبب غروب الشمس، فقوله: وأغطش ليلها يرجع معناه إلى أنه جعل المظلم مظلماً، وهو بعيد، والجواب: معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان إنما حصلت بتدبير الله وتقديره: وحينئذ لا يبقى الإشكال.

❁ المسألة الثانية: قوله: وأخرج ضحاها أي أخرج نهارها، وإنما عبر عن النهار بالضحي، لأن الضحي أكمل أجزاء النهار في النور والضوء.

❁ المسألة الثالثة: إنما أضاف الليل والنهار إلى السماء، لأن الليل والنهار إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، ثم غروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك، فلهذا السبب أضاف الليل والنهار إلى السماء^(١).

❁ التوافق مع العلوم الحديثة:

إن ضوء الشمس غير المباشر لا يمكن رؤيته إلا مع تشتته أو انعكاسه على الأجسام، وبسبب وجود جزيئات الهواء والماء والغبار العالق يتشتت ضوء الشمس فتظهر القبة الزرقاء؛ وهي ليست سوى ظاهرة ضوئية تتعلق بجو الأرض. وبسبب الانعدام لتلك الجزيئات في الفضاء خارج غلاف الأرض، رغم توفر ضوء الشمس تظهر السماء لرواد الفضاء مظلمة كليل دائم حالك السواد.

ومن المدهش أن يسبق القرآن الكريم، ويجعل للسماء ليلاً دائماً حالك السواد، يقول العلي القدير: ﴿عَأْنْتُمْ أَشَدُّ حَلَقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَلَهَا ۝ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّنَهَا ۝ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضَحَلَهَا﴾، والضمير في (ليلها) عائد على السماء، وتمييزه عن ليل الأرض الذي يعقب النهار، يجعله صفة للكون بجامع الظلام.

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعل ليلها مظلمًا أسود حالكا».

وفي قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَلَهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَلَهَا ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَلَهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾؛ الضمائر كلها عائدة على الشمس.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١ / ٤٥-٤٦).

والمدهش بصريح التعبير أن تكون الشمس بازغة ويغشيها ليل السماء بظلمته الحالكة على الدوام رغم سيادة الليل، ولازمه شدة الظلام كما يغشى كافة الأجرام.



والمنطقة من الجو التي ينتشر فيها ضوء النهار لا تزيد عن ٢٠٠ كم، فهي بالنسبة للفضاء البالغ الاتساع كجلد ذبيحة رقيق إذا سلخ يظهر خلفه الظلام الدامس يعم كامل البدن.

وهو نفس التمثيل في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٦﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾؛ نفي إغلاق الأعين مع إثبات الظلمة كمن سكرت عيناه تأكيد للنبا المعجز.

وجه الإعجاز:

في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَغْطَسَ لَيْلَهَا﴾ إشارة إلى ظلمة الفضاء؛ لأن الضمير عائد على لفظ ﴿السَّمَاءُ﴾ فيعني أن الكون شديد الظلام، ولفظ (الليل) لازم الظلام، وهو يغشي الشمس كما يغشى كل الأجرام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ الضمير في ﴿يَغْشَاهَا﴾ عائد على الشمس، ولا يمثل نهار الأرض بالنسبة للقطن عليها سوى طبقة رقيقة مثل سلخة جلد ذبيحة تخفي خلفها ظلام كامل البدن.

وبالتمثيل نفسه عبر عن ليل السماء في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَيْلٍ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٦﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾؛ تمثيل لمن يفاجئه ظلام الفضاء بمن سكرت عيناه فلا يرى سوى الظلام.

وظلمة الفضاء المشار إليها في النص القرآني لم تعرف إلا بعد أن صعد أول إنسان (يوري قاقارين) إلى الفضاء الخارجي عام ١٩٦١م



الضغط الجوي

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].



يتقلص حجم الرئتين أثناء الصعود في السماء

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ أي: الله، ولم يظهر هنا إشارة إلى أن الضلال على مقتضى الطبع، ﴿أَنْ يُضِلَّهُ﴾ أي: يخلق الضلال ويديمه في قلبه، ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ أي: الذي هو مسكن قلبه الذي هو معدن الأنوار، ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي: شديد الضيق فيكون مرتجسًا أي: مضطربًا.

روي أن عمر رضي الله عنه أحضر أعرابياً من كنانة من بني مدلج فقال له: ما الحرجة؟ فقال: شجرة لا تصل إليها وحشية ولا راعية، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الإيمان والخير.

ولما كان صاحب هذا الصدر لا تكاد الهداية تصل إليه، وإن وصل إليه شيء منها على لسان واعظ، ومن طريق مرشد ناصح لم تجد مسلكاً فنكصت، وهكذا لا تزال في اضطراب وتردد أبداً؛ كانت ترجمته قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ أي: يتكلف هذا الشخص في قبول الهداية الصعود ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ في خفاء، حياءً من مزاوله ما لا يمكن، بما أشار إليه قراءة من أدغم التاء في الصاد.

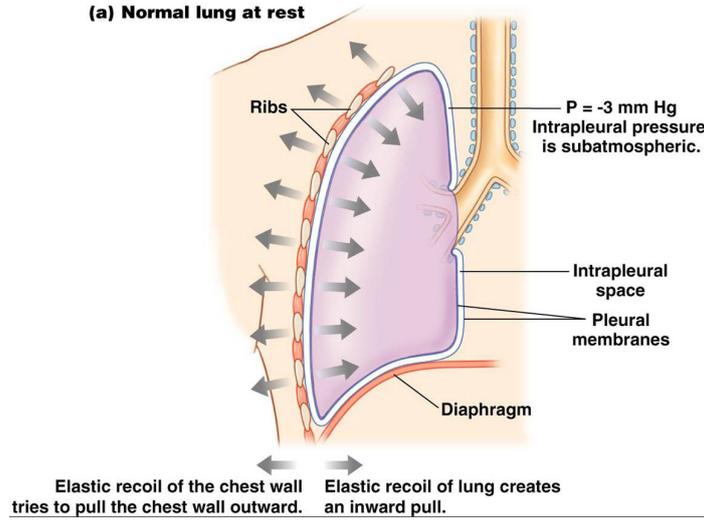
فكلما أصعدته حركته الاختيارية أهبطته حركته الطبيعية القسرية، كما نرى بعض الحشرات يحمل شيئاً ثقيلاً، ويصعد به في جدار أملس، فيصير يتكلف ذلك فيقع، ثم يتكلف الصعود أيضاً، فربما وصل إلى مكانه الأول وسقط، وربما سقط دونه، فهو مما يمتنع عادة، فلا يزال مرتجساً أي: مضطرباً، ومجامع الاضطراب عقبه بما بعده كما يأتي.

ولما كان ما وُصِفَ به صدرُ الضال مما يُتَفَرَّ منه، وكان الرجسُ في الأصل لما يُستَقَدَّر، والمستَقَدَّرُ يُتَفَرَّ منه، وكان هذا الكلام ربما أثار سؤالاً، وهو أن يقال: هل هذا - وهو جعل الضال على هذه الصفة - خاص بأهل هذا الزمان، أجيّب بما حاصله: لا، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جعل الله الرجسَ على من أراد ضلاله من أهل هذا الزمان ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ﴾ أي: بما له من القدرة التامة والعظمة الباهرة ﴿الرَّجْسَ﴾ أي: الاضطراب والقدر ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل كل زمان، لإرادته سبحانه دوام ضلالهم^(١).

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/٢٥٩-٢٦٣).

الحقيقة العلمية :

كلما ارتفع الإنسان في السماء انخفض الضغط الجوي وقلّت كمية الأكسجين؛ مما يتسبب في حدوث ضيق في الصدر، وصعوبة في التنفس، وتزايد في معدله؛ نتيجة الحاجة إلى الأكسجين Oxygen Starvation، فإذا لم يتوفر الهواء وتزايد طلب خلايا الجسم له لتقوم بوظائفها يصاب الإنسان بفشل الجهاز التنفسي ويهلك.



ولكن المعرفة بتركيب الجو كانت خافيةً، إلى أن أثبت باسكال Pascal عام ١٦٤٨ أن ضغط الهواء يقل مع الارتفاع عن مستوى سطح البحر.

وتبيّن لاحقاً: أن الهواء أكثر تركيزاً في الطبقات القريبة من سطح الأرض، فتتجمع ٥٠٪ من كتلة الهواء ما بين سطح الأرض وارتفاع ٢٠ ألف قدم فوق مستوى سطح البحر، ولذلك تتناقص الكثافة مع الارتفاع، إلى أن يبلغ تخلخل الهواء أقصاه في الطبقات العليا، قبل أن ينعدم في الفضاء. ووجود الإنسان على ارتفاع دون ١٠ آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر لا يسبب له مشكلة

جدية، حيث يستطيع الجهاز التنفسي أن يتأقلم على ارتفاع ما بين ١٠ آلاف ٢٥ ألف قدم، ولكن على ارتفاع أعلى يصاب بحالة الحرج الذي يضطرب فيها تنفسه بسبب الجوع للأوكسجين.



بدون التزود بالأكسجين والملابس المحافضة على الضغط لا يمكن للرواد البقاء في الفضاء

وجه الإعجاز:

في عهد تنزل القرآن لم يكن الإنسان يعرف تأثير انخفاض الضغط، وقلة الأكسجين على الإنسان، عندما يكون الإنسان عرضة لهما، كلما ارتفع في الفضاء، وقد أشارت الآية السابقة إلى تلك الحقيقة، وعبرت عنها بضيق صدر الإنسان إذا صعد في السماء، وبذلك يتأكد تطابق الحقائق العلمية مع دلالات النص القرآني الكريم؛ مما يدل على أن النص القرآني معجز.

مراحل تكون السحاب الانبساطي

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].



الدلالة النصية:

يبين الله تعالى في هذه الآية كيفية خلق السحاب الذي ينزل منه الماء، وذلك وفق نظام حركة الرياح في الجو، والتي ينشأ عنها تكثف بخار الماء ونزول المطر مما يصاحبه ظواهر البرق والرعد وتشكل البرد أحياناً.

الحقيقة العلمية:

ينتشر هذا النوع أفقياً في صفحة السماء على هيئة انبساطية، تمتد إلى عشرات الكيلو مترات المربعة في المستوى الأفقي، وبِسْمِكٍ لا يتجاوز عدة مئات من الأمتار، ولذا تعرف باسم السحب الانبساطية Stratiform clouds.

ويحدث التكثف لبخار الماء الصاعد من البحار وغيرها تحت تأثير حرارة الشمس؛ نتيجة ارتفاعه وتبرده في الأعالي في وجود أنوية التكثف، ومع التكثف يتضح السحاب للعيان، وتدفعه الرياح في الاتجاه الأفقي، فتزوده بمزيد من بخار الماء.

ولكن نظرا لاختلاف درجات الحرارة، السحاب الانبساطي لا يكون عاليا ولا يصاحب مطره غالبا برد ولا برق ورعدٌ وصواعق في داخل هذه السحب واختلاف نسبة الرطوبة تبدو كقطع متوزعة في السماء، ونتيجة للاتساع الكبير تتباين كذلك درجات قوى الرفع داخلها من منطقة إلى أخرى فتؤدي إلى تمزيقها إلى عدد كبير من القطع المتجاورة.

ولا تحدث في هذا النوع ظواهر البرد والبرق والرعد نتيجة لقلّة السمك ولكن ينزل منه المطر مباشرة عندما يكتمل نموّ القُطيرات في مناطق منها دون الأخرى، إلى الحد الذي يسمح بنزولها على هيئة زخات متفاوتة الشدة من منطقة لأخرى.

وجه الإعجاز:

عندما تحدّث القرآن الكريم عن تشكل السحب على اختلافها في السماء كان الناس على جهل تام بذلك، وبعد قرون جاء علم الأرصاد ليؤكد ما أشار إليه القرآن الكريم، عن تشكل السحب، وتساقط الأمطار فدل ذلك على إعجاز القرآن الكريم.



مراحل تكون السحاب الطبقي

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].



قوله: ﴿يُزْجِي﴾ يسوق. يقال: أزجى الإبل إزجاء.

وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض، بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوق حتى يصير سحابا كثيفا، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عنه بالتأليف بين أجزائه بقوله تعالى: ثم يؤلف بينه إلخ.

وتقدم الكلام على السحاب في سورة البقرة [١٦٤] في قوله: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ وفي أول سورة الرعد [١٢].

ودخلت (بين) على ضمير السحاب لأن السحاب ذو أجزاء كقول امرئ القيس:
بين الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ، أي: يؤلف بين السحابات منه.

والركام: مشتق من الركم. والركم: الجمع والضم. ووزن فُعال وفُعالة يدل على معنى المفعول. فالركام بمعنى المركوم كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ في سورة الطور [٤٤].

فإذا تراكم السحاب بعضه على بعض حدث فيه ما يسمى في علم حوادث الجو بالسيال الكهربائي، وهو البرق. فقال بعض المفسرين: هو الودق. وأكثر المفسرين على أن الودق هو المطر، وهو الذي اقتصر عليه دواوين اللغة، والمطر يخرج من خلال السحاب.

والخلال: الفُتوق، جمع خَلَل كجبل وجبال. وتقدم خلال الديار في سورة الإسراء [٥].

ومعنى ينزل من السماء: يسقط من علو إلى سفلى، أي: ينزل من جو السماء إلى الأرض. والسماء: الجو الذي فوق جهة من الأرض.

وقوله: من جبال بدل من السماء بإعادة حرف الجر العامل في المبدل منه، وهو بدل بعض؛ لأن المراد بالجبال سحاب أمثال الجبال.

وإطلاق الجبال في تشبيه الكثرة معروف. يقال: فلان جبل علم، وطود علم^(١).

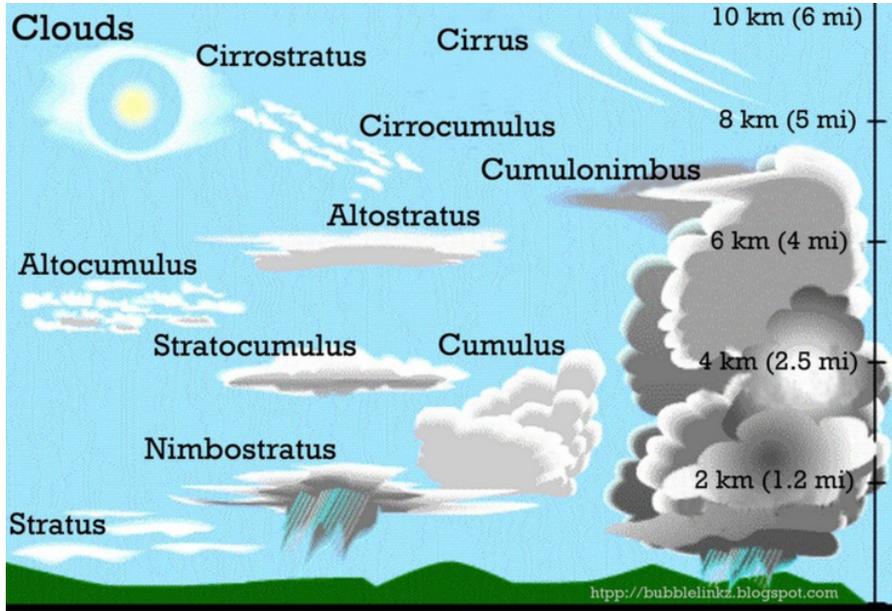
الحقيقة العلمية:

تتكون السحب الركامية Cloud Cumulatiform من ثلاث طبقات:

- * الطبقة العليا: وتتكون من بلورات الثلج والبرد.
- * والطبقة الوسطى: وتتكون من خليط من نقط الماء البارد وبلورات الثلج.
- * والطبقة السفلى: وتتكون من قطرات الماء النامية.

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨/٢٦٠-٢٦١).

وتتكون السحب الركامية بالنمو الرأسى بسمك يتراوح من ١٥ - ٢٠ كم، وقد يصل حجم قطع البَرَدِ النازل من السحاب الركامي في بعض الأحيان إلى حجم قبضة اليد، ويتميز هذا النوع بوجود رطوبة زائدة، ولوفرة مكونات السحب تنمو السحابة رأسيًا وتسقط مطراً غزيراً، ويصاحبها الرعدُ والبرق؛ لاختلاف شحنة القمة عن القاع، ومع الارتفاع البالغ يتكون البرد.



أنواع السحب

وحيثما يتكثف بخار الماء المحمول تزداد سرعة التيارات الهوائية الصاعدة؛ فيزداد تدفق بخار الماء، وتخرق التيارات الهوائية السحب ليتكثف بخار الماء على هيئة طبقات من أسفل إلى أعلى.

وتشتمل السحب الركامية على بلورات الثلج في قممها، وعلى خليط من البرد وقطرات من ماء شديدة البرودة في وسطها، وعلى قطرات الماء البارد في قاعدتها؛ وتصاحبها ظواهر البرق والرعد وهطول المطر وسقوط حبات البرد وبلورات الثلج.

وعندما تضعف قوة الرياح الصاعدة أو عندما تزيد حمولة التراكم على قدرة الحمل تتوقف وتبدأ المكونات فى الهبوط نحو سطح الأرض، وأول ما ينزل منها الماء وقد يصاحبه نزول البرد.

ويتكثف بخار الماء فى قمم السحاب الركامي وتنمو قطرات الماء إلى أحجام كبيرة نسبيا، وتتجمد على هيئة بلورات، وفى وسط السحابة الركامية يتحول بخار الماء إلى خليط من البرد والماء الشديد البرودة، وحينما تسقط بلورات الثلج من قمم السحب الركامية إلى أواسطها تتجمد قطرات الماء المتواجدة فى وسط السحاب وتتكون جبال البرد.

ويتولد فرق جهد كهربائى أثناء تجمد محلول مائى (ظاهرة وركمان ورينولدز)، وكذلك تتولد شحنات كهربائية أثناء ذوبان الجليد (دينجر وجون وآخرون)؛ ولذا يرجع البرق وما يلازمه من صوت الرعد إلى التفريغ الكهربائى الناجم أساسا عن البرد.

وجه الإعجاز:

إن وصف هذه الآية الكريمة لمراحل تكون السحاب الطبقي من إزجاء السحاب وبسطه، ثم اجتماع قطعه المتفرقة، وتراكمه نتيجة الكتل الهوائية الصاعدة، ثم نزول المطر أو البرد وحدوث البرق والرعد، كل ذلك وصفه القرآن الكريم بأسلوب شيق واضح الدلالة، علما بأن تلك الحقائق كانت مجهولة وقت نزول القرآن الكريم، ولا عجب فى ذلك؛ لأن المتكلم هو الله الخلاق العليم، والمبلغ هو رسول الله ﷺ، فكيف لا يكون القرآن معجزا فيما أخبر به.

تكوّن المطر

قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُوَ بِخَزَائِنٍ﴾ [الحجر: ٢٢].



الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ الإرسال: مجاز في نقل الشيء من مكان إلى مكان. وهذا يدل على أن الرياح مستمرة الهبوب في الكرة الهوائية. وهي تظهر في مكان آتية إليه من مكان آخر وهكذا ...

ولواقح حال من الرياح. وقع هذا الحال إدماجا لإفادة معنيين، كما سيأتي عن مالك - رحمه الله -.

ولواقح: صالح لأن يكون جمع لاقح، وهي الناقة الحبلى. واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سببا في نزول المطر، كما استعمل في ضدها العقيم ضد اللاقح في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [سورة الذاريات: ٤١].

وصالح لأن يكون جمع ملقح وهو الذي يجعل غيره لاقحا، أي: الفحل إذا ألقح الناقة، فإن فواعل يجيء جمع مفعول مذكر، ومعنى الإلقاح: أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطرا على الأرض.

وأنها تلقح الشجر ذا الثمرة، بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح.

وهذا هو الإبار. وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة. وبعضه يكتفى منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر.

ومن بلاغة الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العاملين اللذين تعملهما الرياح، وقد فسرت الآية بهما. واقتصر جمهور المفسرين على أنها لواقح السحاب بالمطر.

وروى أبو بكر بن العربي عن مالك أنه قال: قال الله تعالى: وأرسلنا الرياح لواقح، فلقاح القمح عندي أن يحبب ويسنبل، ولا أريد ما يببس في أكمامه، ولكن يحبب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فسادا لا خير فيه. ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت.

وفرع قوله فأنزلنا من السماء ماء على قوله وأرسلنا الرياح.

وقرأ حمزة وأرسلنا الرياح لواقح بإفراد «الريح» وجمع «لواقح» على إرادة الجنس والجنس له عدة أفراد.

وفأسقيناكموه بمعنى جعلناه لكم سقيا، فالهمزة فيه للجعل. وكثر إطلاق أسقى بمعنى سقى.

واستعمل الخزن هنا في معنى الخزن في قوله آفا ﴿وَأَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [سورة الحجر: ٢١] أي: وما أنتم له بحافظين ومنشئين عندما تريدون^(١).

الحقيقة العلمية:

لقد أوجزت الآية السابقة قصة تكوين المطر ونزوله وتخزينه على شكل مياه جوفية في باطن الأرض وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ ذكر في مقام بيان كيفية تكوين حبات المطر، فالرياح تمد السحب بذرات من غبار البر وأملاح البحر تجعلها تثقل وتجدد بالمطر؛ وهي ما تسمى علميا بأنوية المطر، فوصف الرياح بأنها لواقح يعم النبات - بنقل حبوب اللقاح إليه - والسحاب أيضا.

وتعبير (لواقح) عام لم يذكر مفعوله فيستقيم حمله على الشجر والسحاب؛ إلا أن السياق قد جعل مفعوله من باب أولى هو السحاب، وكما يتم تلقيح النخل فيثمر التمر؛ فكذلك يشير لفظ (لواقح) بالخير والبركة والنماء واخضرار الزرع.

وقد جاء في مختار الصحاح في مادة (لقح): «ألقح الفحل الناقة، والريح السحاب، ورياح لواقح.. أنشأت السحاب».

وقال ابن عباس: لواقح للشجر والسحاب، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك من التابعين. وذكر هذا أيضًا الطبري والقرطبي.

ومن الثابت علميا الآن أن التلقيح بالريح ضروري في عملية الإخصاب؛ خاصة للنباتات ذات الأزهار الفاقدة لجذب الحشرات، وقد أصبح من المقرر عند علماء النبات: أن التلقيح عملية أساسية للإخصاب وتكوين البذور، حيث تنتقل

(١) التحرير والتنوير (١٤/ -/ ٣٧ ٣٩).

حبيبات اللقاح Pollen Grain من العناصر الذكرية للزهرة Anther إلى العناصر الأنثوية فيها Stigma؛ حيث يتم الإخصاب.

والتلقيح inoculation: قد يكون بين العناصر الذكرية والأنثوية لزهرة واحدة أو نبتة واحدة، ويسمى عندئذ بالتلقيح الذاتي Self Pollination، وقد يكون بين نبتتين منفصلتين ذكر وأنثى؛ ويسمى حينئذ بالتلقيح المختلط Cross Pollination.

وتختلف طرق انتقال حبيبات اللقاح باختلاف نوع النبات، فبالإضافة للتلقيح بواسطة الإنسان كما في تأبير النخل توجد طرقٌ أخرى مثل التلقيح بواسطة المياه، أو بواسطة الحيوانات كالحشرات والطيور، والتلقيح بواسطة الرياح Anemophily.

وتذكر الموسوعة العالمية للرياح دورًا هامًا في عملية نقل اللقاح في النباتات التي تفتقد الأزهار ذات الرائحة، والرحيق والألوان الجاذبة للحشرات؛ حيث تقوم الرياح بنشر اللقاح على مسافات واسعة.

فعلى سبيل المثال: تنشر الرياح لقاح الصنوبر Pine على مسافة قد تصل إلى ٨٠٠ كيلومتر قبل أن يلتقي اللقاح بالعناصر الأنثوية ويتم التلقيح.

وبالمثل حينما يصعد بخار الماء ويتكاثف تكون السحب وفق آلية أشبه ما تكون بتلقيح النبات، حيث تقوم الرياح بدفع دقائق يسمى كلٌّ منها نواة تكاثف Condensation Nuclei؛ ولذا يصدق وصف الرياح بأنها لواقح على النبات؛ ومن باب أولى السحاب، فالمعلوم أن تكوين السحاب يلزمه أن يكون الهواء مشبعًا ببخار الماء وأن يكون محتويًا على أنوية التكاثف تلك.

وجه الإعجاز:

لقد صرحت الآية الكريمة بأن الرياح لواقح، وربطتها بنزول المطر عقبها ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فأشارت بذلك إلى حقيقة علمية لم تكتشف

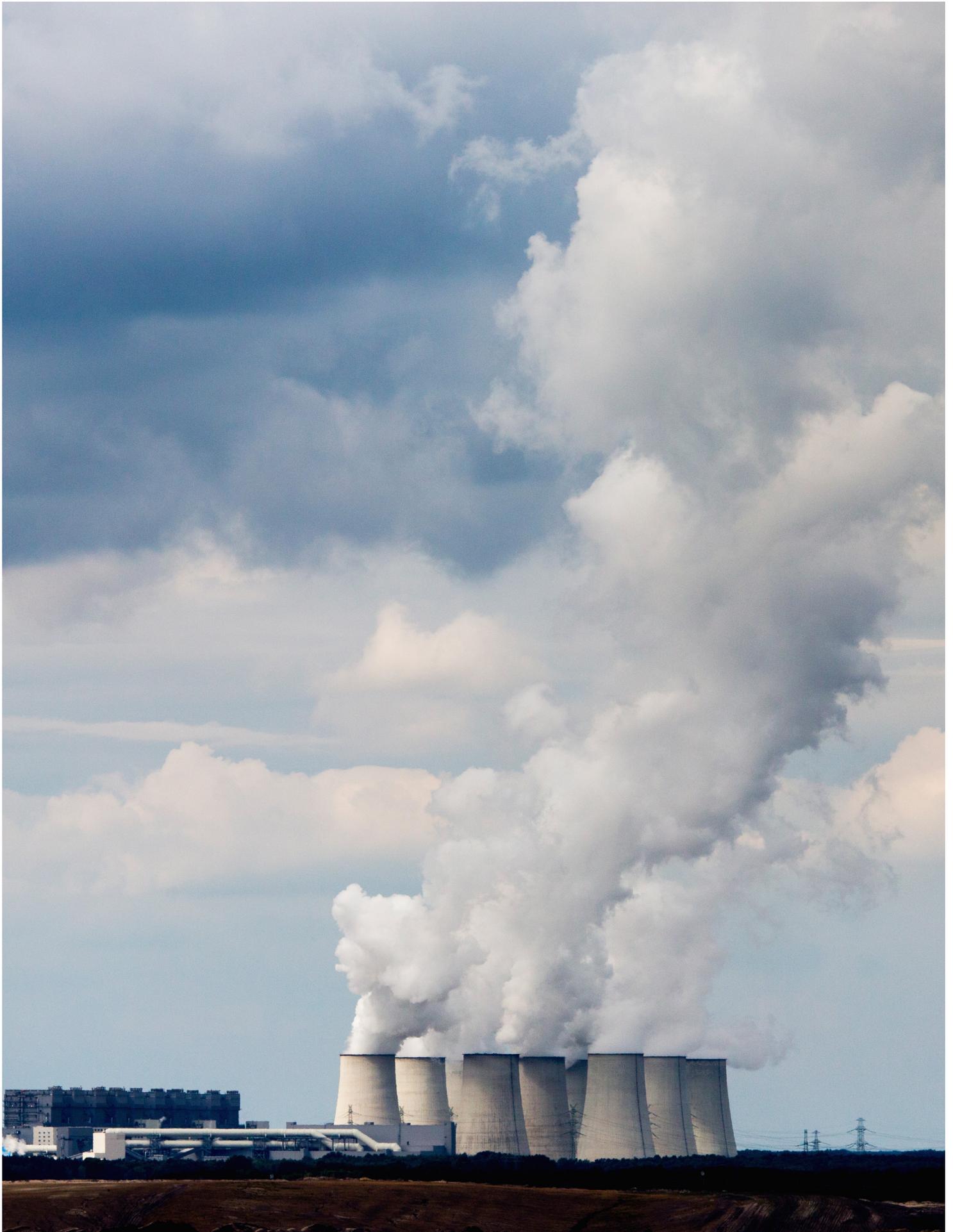
الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة

إلا في الأزمنة المتأخرة، وقد تضمنها قوله سبحانه وتعالى «لواقح». فبينما كان يُظنُّ أن التلقيح قاصر على النبات، تبين للعلماء أن الرياح هي لواقحٌ للسحب، وبالتالي نزول المطر هو نتيجة لتلك الظاهرة؛ مما يدل على أن هذا الكلام هو كلام خالق الكون ومرسل الرياح ومنزل المطر، وأن الذي بلغنا هو رسول رب العالمين ﷺ.



تمد العواصف الرياح بالعوايق الترابية لتكوين أنوية تكاثف في السحاب فيتكون المطر بغزارة





إفساد البيئة

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ . . .﴾ [الروم: ٤١]: غلب الصلاح وعلا عليه، والكون خلقه الله تعالى على هيئة الصلاح، وأعدّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً، وللتأكد من صدق هذه المسألة انظر في الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه، فلن ترى فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان.

أما ما لا تتناوله يد الإنسان، فلا ترى فيه خلافاً؛ لأن الله خلقه منسجماً بالأجناس منسجماً التكوين: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

فالفساد يأتي حين تُدخل يدك في شيء، وأنت تطرح قانون الله في الفعل ولا تفعل، أما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد، فإن علا تيار الفساد وظهر على الصلاح وغلبه بان للناس .

وعندها يُنبئنا الحق سبحانه بالأحداث تطرقنا وتقول لنا: انظروا إلى مَنْ خالف منهج الله ماذا حدث له؛ لذلك في أعقاب الأحداث نزداد عشقاً لله، وحباً لطاعته. فظواهر الكون أشياء وقضايا لكل العامة، ومن الحكمة ألا تنالها يد الإنسان؛ لأن الله تعالى يريد للكون البقاء إلى أمد يعلمه، ولم يأت أو أن أنتهائه، لذلك الحق سبحانه يجعل فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين، إلى أن يصل إلى درجة التشبّع، فتفجر الأوضاع.

ثم يوضح الحق سبحانه سبب هذا الفساد: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . .﴾ [الروم: ٤١] فتلاحظ هنا: أن الحق سبحانه لما يذكر الرحمة لا يذكر عِلَّتْهَا، لكن يذكر عِلَّةَ الفساد؛ لأن الرحمة من الله سبحانه أولاً وأخيراً تفضُّل، أما الأخذ والعذاب فبِعَدْلِهِ تَعَالَى؛ لذلك يُبَيِّنُ لك أنك فعلت كذا، وتستحق كذا، فالعلة واضحة.

إذن: إن رأيت الفساد فاعلم أنه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كلَّ الحدود، وما دام الحق سبحانه قال: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . .﴾ [الروم: ٤١] فلا بُدَّ أن الفساد جاء من ناحيتهم، وبالله، هل اشتكىنا أزمة في الهواء مثلاً؟ لكن نشتكى تلوث الهواء بما كسبت أيدي الناس، أمّا حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان، نجد الهواء نقياً كما خلقه الله.

الحق سبحانه تكفَّل لنا بالغذاء فقال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا . . .﴾ [فصلت: ١٠] لكننا نشتكى أزمة طعام، لماذا؟ لأن الطعام يحتاج إلى عمل، ونحن تكاسلنا، وأسأنا التصرُّف في الكون، إما بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها، وإما بالأنانية حيث يَضُنُّ الواحد على غير الواحد.

وقد قرأنا مثلاً أن أمريكا تسكب اللبن في البحر، وتعدم الكثير من المحصولات، وفي العالم أناس يموتون جوعاً^(١).

الحقيقة العلمية:

ابتكر أرينوس مصطلح الاحتباس الحراري Global Warning عام ١٨٩٦م، وتوقع أن الوقود الحفري المحترق سيزيد من كميات ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي، وأنه سيؤدي إلى زيادة درجات حرارة الأرض؛ مثلما يُعرف بتأثير دفيئة النبات Greenhouse effect.

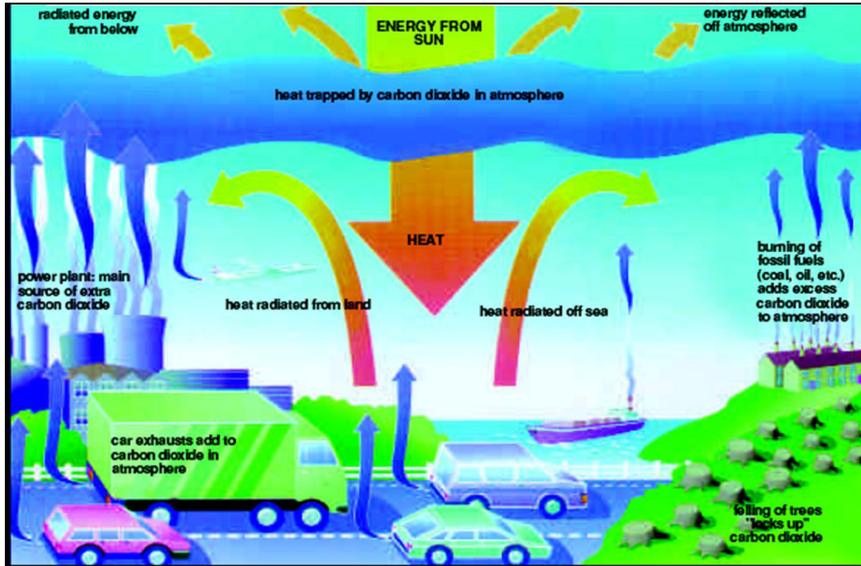
(١) انظر: تفسير الشعراوي - (١ / ٧١٧٧-٧١٧٩).

الفصل الثاني شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة

فإن أشعة الشمس تتغلغل وتسخن الداخل، إلا أن الزجاج يمنعها من الرجوع إلى الهواء المعتدل البرودة في الخارج، واستنتج: أنه في حالة تضاعف تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي فإننا سنشهد ارتفاعا بمعدل ٤ إلى ٥ درجات مئوية في درجة حرارة الكرة الأرضية.

ويقترب ذلك من توقعات اليوم، وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، ظهر اختلال في مكونات الغلاف الجوي؛ نتيجة النشاطات الإنسانية وتقدم الصناعة، ونتيجة لزيادة معدلات العوادم الصناعية ظهرت ظاهرة الدفيئة وتغير المناخ.

فتركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي أصبح أعلى بحوالي ٣٢٪ عما كان عليه تركيزه قبل الثورة الصناعية، وحسب تقرير اللجنة الدولية لمراقبة التغيرات المناخية قد ارتفعت درجة الحرارة ما بين ٤,٠ - ٨,٠ م خلال القرن الماضي.



وقد كشفت دراسة حديثة أن عدد الأعاصير المدمرة مثل كاترينا وأندرو قد تزايد خلال العقود القليلة الماضية، وعزت سبب هذا التزايد إلى ظاهرة الاحتباس الحراري، كما بينت أن عدد الأعاصير الشديدة قد ارتفع من ١١ إعصارا سنويا إبان السبعينيات إلى ١٩ إعصارا منذ العام ١٩٩٠.



كثرة الأعاصير والفيضانات المدمرة أحد آثار ظاهرة الاحتباس الحراري

واستنادا للمبدأ القائل بأن المحيطات هي سبب التغيرات المناخية التي تحدث على اليابسة، قال بيتر وبستر من معهد جورجيا للتكنولوجيا: إن بخار الماء الناتج من ارتفاع درجة حرارة مياه المحيطات هو بمثابة الوقود الذي يعجل من سرعة الأعاصير، وأعلن أن معدل درجة حرارة مياه أسطح البحار قد ارتفعت درجة مئوية بين العامين ١٩٧٠ و٢٠٠٤.

وحذر غريغ هولاند من المركز القومي لأبحاث المناخ، بأن من المحتمل أن تشهد السنوات المقبلة تزايدا في أعاصير تشبه في خطورتها وقوتها الإعصار كاترينا والإعصار أندرو.

وأجمع الباحثون على أن ارتفاع درجات الحرارة على أسطح البحار سببه الرئيس هو الاحتباس الحراري.

وإذا ارتفعت درجة حرارة الكوكب؛ نتيجة لتراكم مخلفات المصانع، خاصة في البلدان المتقدمة تلك، فمن المحتمل أن تزداد حرارة سطح المحيطات في المناطق الاستوائية، فتتضاعف الأعاصير وتزداد عنفا وضراوة، ويذوب جليد القطبين، ويرتفع مستوى سطح البحر ليدمر مدن الشواطئ.

ويتوقع الخبراء: أن يزداد ارتفاع سطح البحر إلى ٨٨ سنتيمتراً بحلول عام ٢١٠٠ الأمر الذي يهدد حياة ١٠٠ مليون إنسان يعيشون على أراض منخفضة، ناهيك عن تزايد الإصابة بالأمراض؛ نتيجة لتزايد البعوض في الجو الحار.

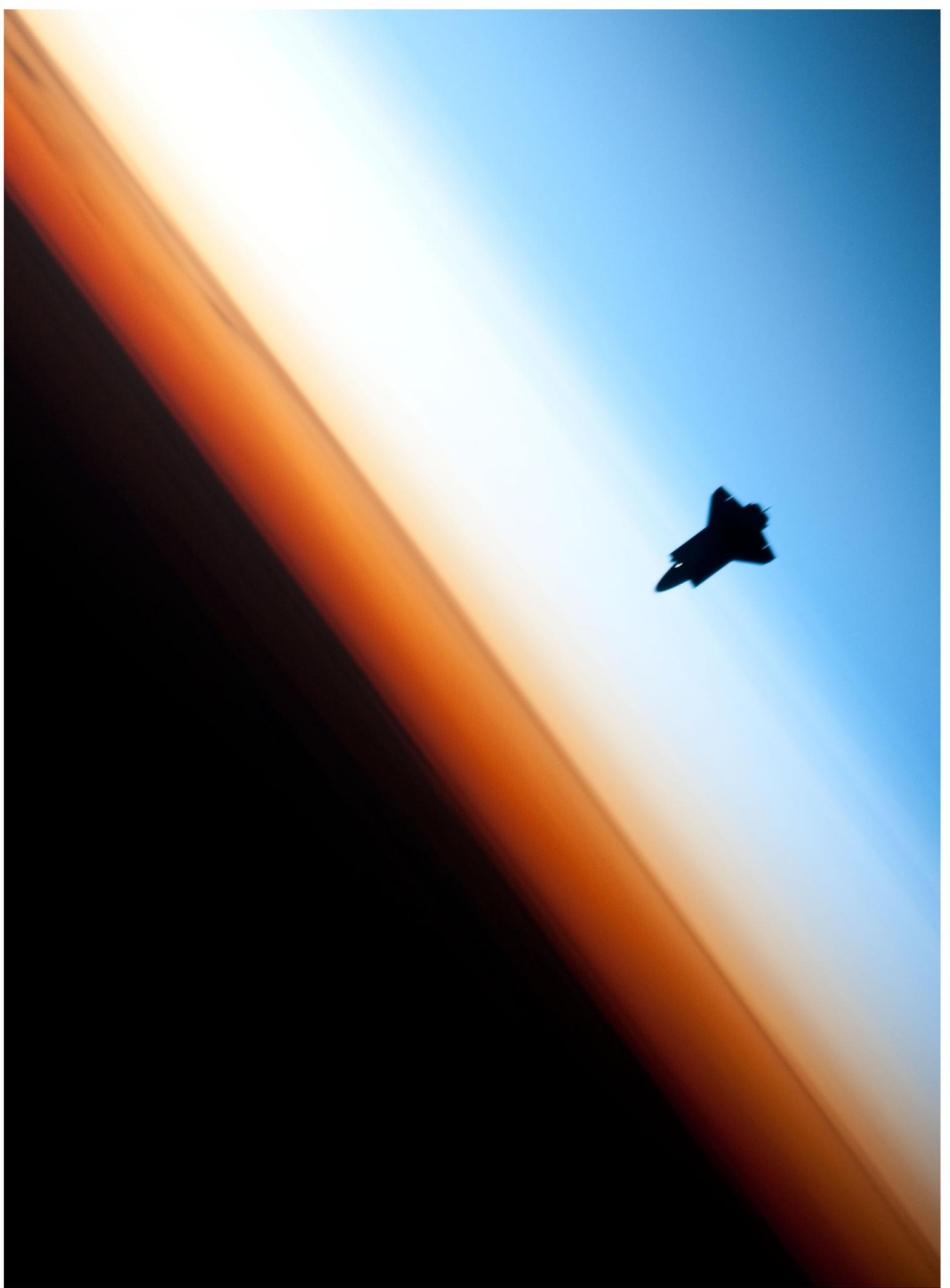
وقد نبهت هذه التحذيرات الدول للتداعي إلى الاجتماع في محاولة لتجنب الخطر من خلال اتفاقيات ملزمة، كان أبرزها معاهدة كيوتو Kyoto Protocol التي وافقت عليها كل الدول الصناعية الكبرى إلا الولايات المتحدة الأمريكية ذات المسؤولية العظمى في تخريب المناخ.

ولكن مع توالي الأعاصير، وتزايد عنفها يوماً بعد آخر يدفع سكانها الأبرياء الثمن، وكل ذي حس إنساني تؤلمه المشاهد المرعبة، ويتطلع إلى تكاتف البشر كلهم للعيش بسلام، ويأمل الاستجابة لتحذيرات الخبراء.

وجه الإعجاز:

لم يكن أحد زمن التنزيل يتصور أن الإنسان يستطيع إفساد النظام البيئي العالمي، في البر والبحر والجو، وأن سوء صنيع الناس سوف يلحق ضرراً عاماً على نحو ما يظهر اليوم، على شكل احتباس حراري، وتلوث في الماء والهواء والتربة، مما يثبت على أن ما حذر منه القرآن الكريم في الآيات السابقة قد تحقق على نطاق واسع لم تعرفه الأزمنة الغابرة.

وهذا يؤكد أن النص القرآني معجز علمياً.



السقف المحفوظ

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وفيه مسائل:

✽ المسألة الأولى: سمي السماء سقفا لأنها للأرض كالسقف للبيت.

✽ المسألة الثانية: في المحفوظ قولان:

أحدهما: أنه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجري مثلهما على سائر السقوف كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

القول الثاني: محفوظ من الشياطين، قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ

رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] ثم هاهنا قولان:

أحدهما: أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين.

والثاني: أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين، والقول الأول أقوى؛ لأن حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما؛ لأنه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين، بخلاف القول الثاني؛ لأنه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن.

❁ المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ معناه: عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها، وكيفية حركاتها، ووجهات حركاتها، ومطالعها، ومغاربها، واتصالات بعضها ببعض، وانفصالاتها على الحساب القويم، والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة.

❁ المسألة الرابعة: قرئ عن آيتها على التوحيد، والمراد الجنس، أي: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض بأمطارها، وهُم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون^(١).

الدلالة العلمية:

الغلاف الجوي للأرض، والذي يمكن تمييزه إلى طبقات بحسب صفات كل طبقة من النواحي الفيزيائية وغير ذلك، يشكل بمجموع مايشتمل عليه درعًا واقياً للأرض؛ حيث إن الكشوف العلمية أثبتت لنا أن الغلاف الجوي يتكون من نُطْق على النحو التالي:

❁ نطاق التغيرات الجوية أو الطبقة المناخية Troposphere :

يتراوح سمكه من ٦ إلى ١٨ كم (٥ ميل عند القطبين و١١ ميل عند خط الاستواء)، ويبلغ متوسط ارتفاعه ١١ كم فوق مستوى سطح البحر، وتنخفض درجة حرارته بمعدل حوالي ٦ درجات مئوية لكل ارتفاع ألف متر، وتصل درجة الحرارة إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمة النطاق.

ويقل ضغط الهواء كلما ارتفعنا لأعلى، ويحوي ٨٥٪ من كتلة الغلاف الجوي، ويتركب من النتروجين (٧٨٪) والأكسجين (٢١٪) والأرجون (٩٣،٠٪) وثنائي

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٢ / ١٤١-١٤٠).

أكسيد الكربون (٠,٠٣ %) وبخار الماء وغيره من الغازات بنسب ضئيلة، وتنشأ فيه الظروف الجوية المختلفة من رياح وسحاب ومطر ورعد وبرق.

✿ طبقة الأستراتوسفير Stratosphere :

يرتفع فوق طبقة التغيرات الجوية، ولذلك توصف بأنها الطبقة فوق المناخية، وبها طبقة الأوزون، وهي تمتد إلى ارتفاع ٥٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وتحوي ما بين ارتفاع ٢٠ و ٣٠ كم فوق مستوى سطح البحر طبقة الأوزون.

ولولا طبقة الأوزون لأصبحت الحياة مستحيلة على الأرض، وتخترق الشهب والنيازك هذا النطاق، وترتفع درجة الحرارة لأعلى؛ نتيجة امتصاص طبقة الأوزون للأشعة فوق البنفسجية، وينخفض الضغط الجوي حتى يصل إلى ٠,٠١ ضغط جوي عند قمة النطاق.

✿ النطاق المتوسط Metosphere :

يعلو إلى حوالي ٨٥ كم فوق مستوى سطح البحر (٥٠-٨٥ كم)، وتخترقه الشهب والنيازك، وهو أقل طبقات الجو في درجة الحرارة، وتنخفض درجة الحرارة كلما اتجهنا نحو الأعلى حتى تصل إلى حوالي ٩٠ درجة مئوية تحت الصفر، وينخفض الضغط الجوي إلى أن يصل على ٤ من مليون من الضغط الجوي.

✿ النطاق الحراري Thermosphere :

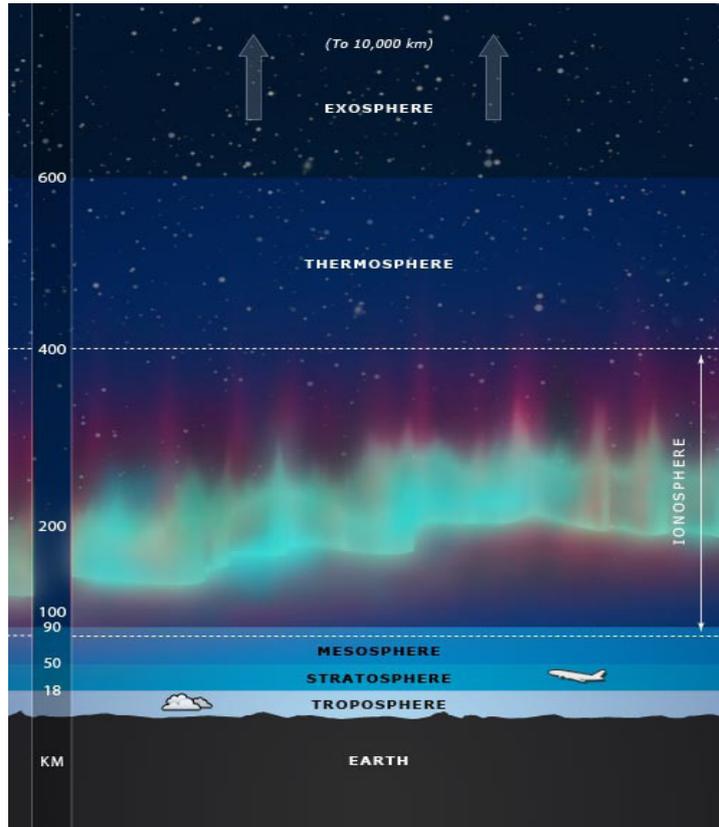
يرتفع فوق النطاق المتوسط بحوالي ٦٠٠ كم (من ٨٥-٧٠٠ كم) فوق مستوى سطح البحر، وترتفع درجة الحرارة إلى ٥٠٠ درجة مئوية عند ارتفاع ١٢٠ كم، ويوجد به نطاق التأين Ionosphere عند ارتفاع ٤٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر، ويحمي الأرض من الأشعة الكونية والرياح الشمسية ويعكس موجات الراديو، ولذا يلعب دورا هاما في الاتصالات اللاسلكية.

✿ النطاق الخارجي Exosphere:

أعلى طبقة في الجو، ويمتد من ٧٠٠ إلى ٣٥٠٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر، ويتكون الهواء غالبا من الغازات الخفيفة، مثل: الهيدروجين والهيليوم والكثافة في غاية الضآلة.

✿ نطاق الماجنيتوسفير Magnetosphere:

يمتد لمسافة ٥٠٠٠٠ كم، ويوجد به زوج من الأحزمة المغناطيسية، ولذلك يطلق على هذا النطاق اسم - الغلاف المغناطيسي - وهذه الأحزمة يزداد سمكها عند خط الاستواء ويقل عند القطبين.



ويقع الحزام الإشعاعي الداخلي على ارتفاع ٢٠٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وهو يمثل مصيدة للجسيمات الذرية عالية الطاقة، القادمة من الفضاء، ولولاه لبادت الحياة على الأرض.

وتتفق دلالة التعبير التصويري «السقف المحفوظ» مع الغلاف الجوي، فهو بالفعل يماثل سقفا فوقنا، يمنع أخطارا غير منظورة أن تصل إلينا إلا أن يشاء الله تعالى، وهو أيضا اليوم محفوظ من التبدد بخلاف ما عانى في بداية التكوين، وكما هو الحال في القمر حيث تبدد كله فأصبح القمر بلا سقف يحميه.

ويلفت الله سبحانه وتعالى في القرآن انتباهنا إلى بعض خصائص الجو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ويتضمن دفع المخاطر وامتناع التبدد.

وهذه الخصائص قد أثبتتها الأبحاث العلمية التي أجريت في القرن العشرين، فالغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يؤدي وظائف ضرورية لاستمرارية الحياة على الأرض، ويدمر الكثير من النيازك، ويمنع معظمها من السقوط على سطح الأرض، وإيذاء الكائنات الحية.

واللافت للنظر، أن الغلاف الجوي لا يسمح بالمرور إلا للإشعاعات غير الضارة، مثل: أشعة الضوء، ويكفي أنه يحمي أهل الأرض من برد الفضاء الذي يصل إلى ٢٧٠ درجة مئوية تحت الصفر.

والأزمة المغناطيسية بمثابة درع يقي من خطر الرياح الشمسية التي تهدد الأحياء على الكوكب، ولولا أن هبأ الله تعالى الغلاف الجوي لسقطت ملايين النيازك على الأرض، وقضت على الحياة في الأرض.

ومن الجائز أن حادثة الديناصورات التي بادت منذ حوالي ٦٥ مليون سنة، قد ترجع إلى الدخان الذي لف الأرض عقب سقوط نيزكي كبير، حجب ضوء الشمس، وقضى على معظم الأحياء على البسيطة، وفي البحار.

وباختصار فإن هناك نظامًا متكاملًا، يعمل فوق الأرض، ولا نشاهده، يحمينا من التهديدات الخارجية بفضل الله تعالى، والعلماء لم يعلموا بوجوده إلا مؤخرًا.

وجه الإعجاز:

إن اكتشاف العلماء في العصور المتأخرة لوجود تلك الحشود الهائلة من الرجوم الفضائية والأشعة الكونية المتنوعة؛ مما لو قُدِّر لها أن تصل إلى الأرض لأحدثت دمارًا وهلاكًا محققًا.

يدلنا بشكل باهر: أن ما ورد في الآية الكريمة، من وقاية السماء لهذه الأرض، وما عليها من الهلاك، فيه الدليل الباهر على أن هذا القرآن الكريم هو كلام خالق هذا الكون؛ لأنه نزل في زمن كان البشر على جهل تام بهذه القضايا، خاصة وأن الرسول الذي يبلغنا هذا القرآن هو أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، وهو مضمون الإعجاز العلمي.



يعج الفضاء بالكثير من الأحجار النيزكية ويتخلص الغلاف الجوي للأرض من معظمها

لو قُدِّر لنيزك بحجم ملعب كرة أن يضرب الأرض فيتوقع أن يسبب دمارا واسعا بسبب الموجة الصادمة على الأرض وموجة التسونامي في البحار.

الشمس سراج والقمر نور

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

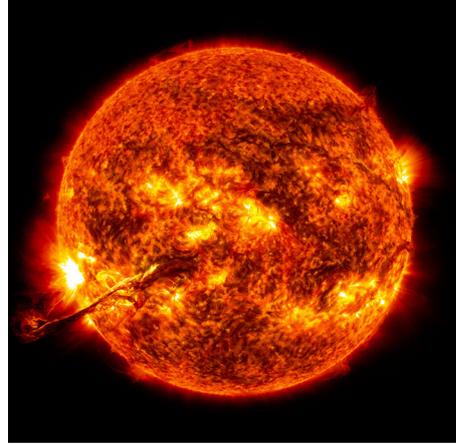
وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا ﴿١٦﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ [النبا: ١٢-١٣].



القمر جسم بارد يعكس ضوء الشمس



الشمس المتوهجة

دلالة هذه النصوص الشريفة:

تصف هذه النصوص الشمس بأنها سراج وضياء، كما تنعت القمر بكونه نورًا يعكس ضياء الشمس، أي: أن الشمس مضيئة بذاتها لكونها متوهجة، وأما القمر فلا يتوهج؛ وإنما يعكس ضوء الشمس فحسب.

الدلالة العلمية :

بعد بحوث مضمينة ومتواصلة توصل علماء الكون إلى حقيقة مفادها: التفريق بين النجم والكوكب؛ وهو ما لم يتوصل إليه علماء الفلك الحديث، إلا بعد اكتشاف المناظير، وإجراء الدراسات الضوئية (الفوتومترية) والطيفية على النجوم وعلى الكواكب خلال القرون القليلة الماضية.

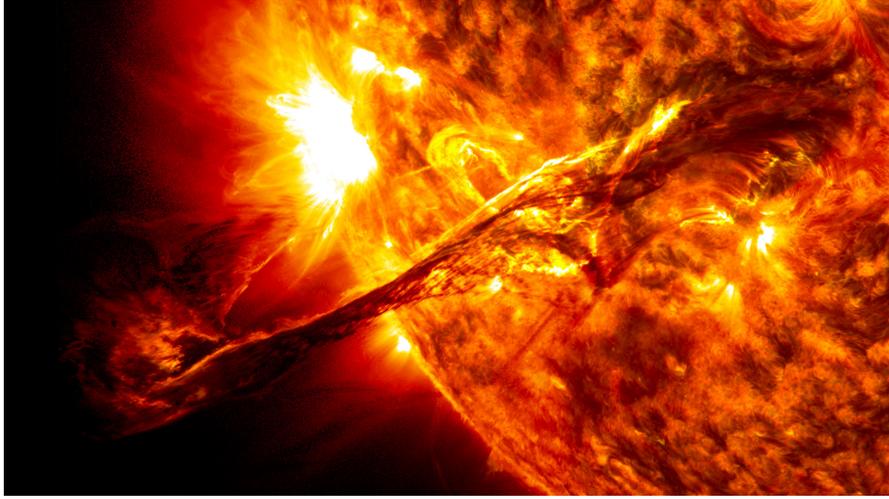
فالنجم: ما هو إلا جسم سماوي متلألئ، يشع الطاقة ذاتياً، بينما الكوكب جسم سماوي ثابت الإضاءة، يعكس الأشعة التي يتلقاها من النجوم والشموس، وينطبق هذا على التوابع الطبيعية للكواكب؛ أي: الأقمار.

وقد ذكر الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾، فلم يعدل عن وصف ما يصدر عن القمر بلفظ النور؛ أي: الخالي من التوهج، والذي يصدر عن جسم ذاتي الإضاءة كالشمس، ووصف الشمس بالتوهج وإصدار الضياء ذاتياً كالسراج. علم فيزياء الشمس هو أحد فروع علم الفلك، وهو يدرس كل ما يتعلق بها، وهنالك العديد من المراكز العلمية لدراستها؛ فضلاً عن عشرات الأقمار الصناعية، وآلاف المراصد الأرضية لرصد وتتبع ظواهر هذا النجم العملاق، الذي يتوسط كواكب مجموعتنا الشمسية، وقد جاءت النتائج لتؤكد أوصافاً أوردها القرآن بلغة تصويرية لا يعسر فهمها حتى على العوام.

وتنتج الشمس طاقتها الإشعاعية باستخدام مكوناتها الأساسية، وهو الهيدروجين كوقود ذري بتحويله إلى هليوم، وإنتاج طاقة هائلة في باطنها لا تكاد تنفذ، وتبلغ درجة الحرارة في باطن الشمس، نتيجة للضغط الهائل حوالي ١٥ مليون درجة، وقد تزيد في نجوم أخرى.

وتؤدي تلك الحرارة إلى حدوث تفاعل نووي، باندماج أربع ذرات هيدروجين لإعطاء ذرة هليوم، ويصدر فارق الكتلة بهيئة إشعاع، وهذا يعني أن الشمس تستمد طاقتها من باطنها، كوقود نتيجة اندماج نووي في ظروف عالية الضغط والكثافة والحرارة، وكأن الشمس مفاعل نووي عملاق، قد سخره الحق تبارك وتعالى ليمد مخلوقاته الحية في الأرض بالنور والدفء والطاقة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾؛ كان كافيا للدلالة على أن الشمس تصدر الضياء ذاتيا أن يمثلها القرآن الكريم بالسراج الذي يحوي فتيلته في باطنه، ولكنه أضاف صفة التوهج للسطح أيضا كأدق وصف للطبقة الخارجية المضيئة للشمس، والمتأججة باللسنة النيران التي تمتد عاليا في كل اتجاه حولها حتى إنها تسمى علميا الطبقة المضيئة Photosphere.



لسان لهب شمسي

وتبلغ درجة حرارة سطح الشمس حوالي ستة آلاف درجة مئوية، وهي نفس درجة حرارة باطن الأرض، ويحمل التوهج معنى التردد؛ وبالفعل تتردد قوة الانبعاثات الشمسية دوريا، كما لو كانت رئة تتنفس كل حوالي ١١ سنة.

وللانفجارات الشمسية تلك تأثير كبير على كوكب الأرض، فهي تؤثر مثلاً على الاتصالات اللاسلكية؛ وحتى السلكية، وعلى مسارات الأقمار الصناعية، وعلى محطات الكهرباء الأرضية، وتحدث تغييرات مرئية للوهج القطبي.

وقد اتخذ تأثير نشاط الشمس على مناخ الأرض أهمية كبيرة مع نهاية القرن العشرين، بعد ثبوت تغير ثابت الإشعاع الشمسي، مع دورة النشاط في الشمس، عن طريق رصد الإشعاع الشمسي بالأقمار الصناعية خارج الغلاف الجوي للأرض، بداية من عام ١٩٧٨؛ وذلك عن طريق القمر الأمريكي المسمى (الهالة ٧) Nimbuv، وما تلاه من أقمار صناعية عديدة حتى الآن.

وأما الرياح الشمسية: فهي سيل عارم من الجسيمات المتأينة، تنطلق من الإكليل الشمسي بسرعة حوالي: ٤٥٠ كم/ث، ويؤكد علماء المناخ: أن تغيراً طفيفاً في قيمة الإشعاع الشمسي، قد يؤدي إلى تغيرات مناخية كبيرة على كوكب الأرض.

وجه الإعجاز:

لقد فرقت الآيات السابقة بين الشمس: باعتبارها نجماً مضيئاً يمكن وصفه بأنه سراج وهاج، وبين القمر: باعتباره كوكباً منيراً؛ يعكس نور غيره، فطابقت دلالة الآيات ما توصل إليه علم الفلك الحديث؛ مما يدل على وجه من الإعجاز العلمي تضمنته تلك الآيات.



السماء ذات الرجوع

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١].

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ١١ ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قيل: رجوع السماء: إعادة ضوء النجوم والشمس والقمر.

وقيل: «الرجع»: الملائكة ترجع بأعمال العباد.

وقيل: «الرجع»: المطر وأرزاق العباد. «والأرض ذات الصدع» قيل: تنشق عن الخلائق يوم البعث. وقيل: تنشق بالنبات.

والذي يشهد له القرآن: أن الرجوع والصدع متقابلان من السماء والأرض: بالمطر والنبات. كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٤٤ ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٥٥ ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾ ٥٦ ﴿فَأَثْبِتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ٥٧ ﴿وَعَيْنًا وَقُضْبًا﴾ [عبس: ٢٤ - ٢٨].
والله تعالى أعلم^(١).

الحقيقة العلمية:

كلمة الرجوع Return تأتي بمعنى الإعادة إلى ما كان منه البدء، فمعناها إرجاع الشيء في اتجاه مصدره مثل صدى الصوت SoundEcho، والسماء هنا مانعة من العبور إلى ما خلفها فيقتصر مدلولها على جو الأرض، والتعبير يفيد وجود غلاف يحيط بها، يردّ إليها كل نافع ويرد عنها كل ضار فأجمل ما كشفه العلم الحديث من خصائص الجو.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٨ / ٤٩٥).

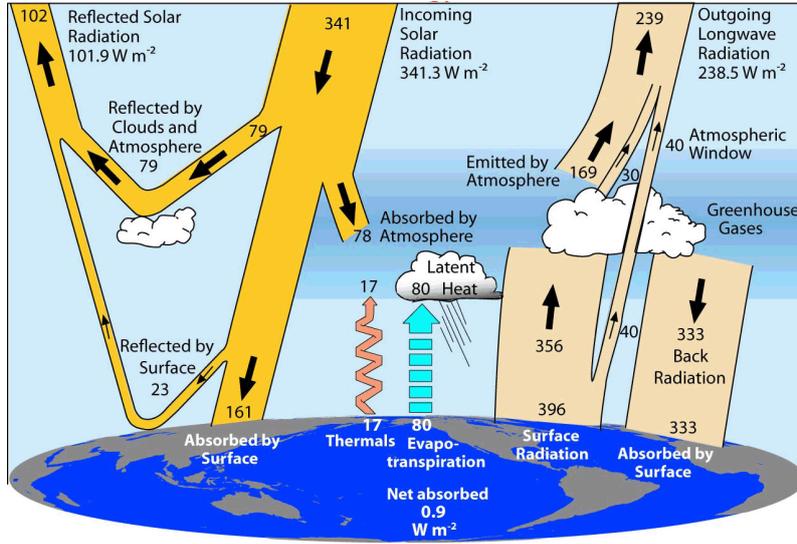
من الحقائق العلمية الثابتة اليوم:

- ✿ يقوم الغلاف الجوي بإرجاع الماء المتبخر بهيئة أمطار.
 - ✿ يرجع الغلاف الجوي للأرض كثيراً من النيازك، ويردها للفضاء الخارجي.
 - ✿ يرد الغلاف المغناطيسي الرياح الشمسية، ويدفعها بعيداً عن الأرض وهي إشعاعات قاتلة للأحياء.
 - ✿ يعكس الغلاف الجوي موجات الراديو القصيرة والمتوسطة إلى الأرض، ولذا يمكن اعتبار الجو أشبه بمرآة عاكسة للأشعة والموجات الكهرومغناطيسية، فهو يعكس أو يرجع ما يبيت إليها من الأمواج اللاسلكية والتلفزيونية التي ترد إذا أرسلت إليها بعد انعكاسها على الطبقات العليا الأيونية (الأيونوسفير)، وهذا هو أساس عمل أجهزة البث الإذاعي والتلفزيوني عبر أرجاء الكرة الأرضية.
 - ✿ الغلاف الجوي: أشبه بمرآة عاكسة للحرارة، فيعمل كدرع واقية من حرارة الشمس أثناء النهار، كما يعمل كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت، ولو اختل هذا التوازن لاستحالت الحياة على الأرض، إما من شدة الحرارة نهاراً، أو شدة البرودة ليلاً.
- الغلاف الجوي إذن يرد إلى الأرض كل نافع للإنسان ويرد عنها كل ضار.

وجه الإعجاز:

لقد رأينا في استعراض الدلالة العلمية ما استقر من حقائق في هذا المجال، ومن ذلك: أن الطبقات العلوية المحيطة بالأرض مما يشمله أصل إطلاق لفظ السماء، وأن تلك الطبقات تقوم بالحفاظ على الحرارة، ونسب الغازات المناسبة للحياة.

كما أنها ترجع الماء المتبخر، وتدفع عن أهل الأرض الرجوم الفضائية من نيازك وغيرها، وكذلك الأشعة الكونية مما ينتظمه لفظ الرجوع، وهو يتفق إذن مع إطلاق لفظ الآية، وهذا التطابق بين عمومات دلالة النص، مع ما استقر علمياً من خصائص تلك الطبقات العليا يعتبر إعجازاً علمياً..





أنواع الرياح

قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [ابراهيم: ١٨].

وقال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

الدلالة النصية:

في هذه الآيات الكريمة ورد ذكر أسماء عدة للهواء في حالته المتحركة بحسب قوة جريانه: ما بين رياح لطيفة طيبة، ورياح عاصفة وقاصفة، وبين هذه وتلك أنواع أخرى.

ومن هذا القبيل نلاحظ كلام ابن جزي الكلبي في كتابه التسهيل - حول قوله تعالى :
 ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَأَلْعِصْفَاتِ عَصْفًا ..﴾ حيث يقول: «إنها الرياح:

سماها المرسلات: لقوله: الله الذي يرسل الرياح.

وسماها العاصفات: عن قوله: ريح عاصف، أي: شديدة.

وسماها الناشرات: لأنها تنشر السحاب في الجو، ومن قوله: يرسل الرياح فتثير سحابا.

وسماها الفارقات: لأنها تفرق بين السحاب، ومنه قوله: فيجعله كسفًا.

وأما الملقيات ذكرا فهم الملائكة، لأنهم يلقون الذكر للأنبياء عليهم السلام. والأظهر من المرسلات والعاصفات أنها الرياح؛ لأن وصف الريح بالعصف حقيقة، والأظهر في الناشرات والفارقات أنها الملائكة^٤.

الدلالة العلمية:

لقد استطاع علماء الأرصاد وغيرهم أن يكتشفوا حديثًا ما يسمى بالرياح النفثة... على ارتفاعات عالية في الجو، وهي متموجة الشكل، وعندما تتكون تلك التيارات فإن العاصفة تتبعها عند التقاء كتل هوائية بارده، وأخرى ساخنة، وتكون قوية بحيث يصدق عليها الوصف بأنها عواصف.

ولقد قام العلماء حديثًا بتصنيف الرياح وفق شدتها وآثارها، وقاسوا قوتها وفق ما يعرف بمقياس بيفورت، وقسمت على النحو التالي:

❁ الريح الساكنة وقوتها صفر.

❁ النسيم الخفيف وقوته ١.

❁ النسيم اللطيف وقوته ٢.

❁ النسيم المعتدل وقوته ٣.

❁ النسيم النشط وقوته ٤ .

❁ النسيم القوي الشديد وقوته ٥ .

❁ العاصفة المعتدلة وقوتها ٦ .

❁ العاصفة الناهضة وقوتها ٧ .

❁ العاصفة الشديدة وقوتها ٨ .

❁ العاصفة الهوجاء وقوتها ٩ .

❁ الزوبعة وقوتها ١٠ .

❁ وأخيرا الإعصار وقوته ١١ .



والمدهش أن القرآن الكريم قد استوعب تصنيف الرياح وذكر كافة الأنواع التي صنفت علميا حديثا:

❁ الريح الساكنة: قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَالِيِ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣]، وتقابل في التقسيم المعاصر الريح الساكنة وقوتها وفق مقياس بيفورت صفر، وسرعتها صفر، وكذلك ضغطها على سطح البحر صفر، وعندها يتصاعد الدخان عموديا ويبدو سطح البحر كالمراة.

❁ الريح الرخاء: قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وتقابل النسيم الخفيف وقوتها ١، حيث يشعر الإنسان بحركة الريح في وجهه، ويتحرك سطح البحر في موجات صغيرة تحت ضغط حوالي ٠,٢ - ٠,٦ كجم/متر^٢.

❁ الريح الطيبة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتِ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ﴾ [يونس: ٢٢]، وتقابل نوعين:

* الأول: النسيم اللطيف: وقوته ٢، حيث تتحرك أوراق الأشجار والأعلام الصغيرة، ويتحرك سطح البحر في موجات كبيرة تحت ضغط حوالي ١ كجم/متر^٢، وتكون سرعتها ٤,٤ متر/ثانية.

* والثاني: النسيم المعتدل: وقوته ٣، حيث يثار الغبار وترفرف الأعلام وتكبر الأمواج الصغيرة، وحينئذ يكون الضغط عند سطح البحر ٤ كجم/متر^٢، وتكون سرعتها ٦,٧ متر/ثانية.

❁ الرياح المبشرات اللواقح: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، وهذا النوع من الرياح تقابل النسيم النشط وقوتها ٤، حيث تهتز الأشجار الصغيرة وتكبر الأمواج المعتدلة، وحينئذ يكون الضغط على سطح البحر ٥ كجم/متر^٢، وتكون سرعتها ٩,٣ متر/ثانية.

❁ الريح الشديدة: قوله تعالى: ﴿كَرَّمَادٍ أَسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وتقابل النسيم القوي الشديد، وقوتها تبلغ ٥، حيث تتحرك أغصان الأشجار، وتشكل الأمواج الكبيرة، وحينئذ يكون الضغط على سطح البحر ٩ كجم/متر^٢، وتكون سرعتها ١٢,٤ متر/ثانية.

❁ الريح القاصف: قوله تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وتقابل الريح القاصف نوعين:

* الأول: العاصفة المعتدلة: وقوتها ٦، حيث تهتز الأشجار بأكملها ويعلو الموج، وحينئذ يكون الضغط على سطح البحر ١٤ كجم/متر^٢، وتكون سرعتها ١٥,٥ متر/ثانية.

* والثاني: العاصفة الناهضة: وقوتها ٧، حيث تتكسر الأغصان الصغيرة، وتعلو الأمواج أكثر، وحينئذ يكون الضغط على سطح البحر ٢٠ كجم/متر^٢ وتكون سرعتها ١٨,٩ متر/ثانية.

✽ الريح العاصف: قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]، وتقابل نوعين كذلك:

* الأول: العاصفة الشديدة: وقوتها ٨، حيث تتلف بعض المنشآت، وتتكون أمواج عالية، وقد يؤثر رذاذ البحر الناجم عنها على مدى الرؤية، وحينئذ يكون الضغط على سطح البحر ٢٧ كجم/متر^٢، وتكون سرعتها ٢٢,٦ متر/ثانية.

* والثاني: العاصفة الهوجاء: وقوتها ٩، حيث تهدم المباني، وتتقوس أعالي الأمواج، فتؤثر أكثر على مدى الرؤية في البحر، وحينئذ يكون الضغط على سطح البحر ٤٠ كجم/متر^٢، وتكون سرعتها ٢٦,٤ متر/ثانية.

✽ الريح الصرصر العاتية: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصِرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، وتقابل الزوبعة، وقوتها ١٠، حيث تتلف مساحات شاسعة، وتتكون أمواج أكثر علوًا، قد تخفي السفن الصغيرة عن النظر الأفقي؛ نتيجة للزبد الشديد، وحينئذ يكون الضغط على سطح البحر ٥٠ كجم/متر^٢، وتكون سرعتها ٣٠,٥ متر/ثانية.

❁ الإعصار: قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]،

وتقابل الإعصار: وقوته ١١، حسب تقسيم بيفورت، حيث يكون هياج البحر على أشده، وحينئذ يكون الضغط على سطح البحر ٦٠ كجم/متر^٢، وتكون سرعته ٨,٣٤ متر/ثانية.

وهكذا ذكرت كلمة ريح في القرآن ثمان عشرة مرة متضمنة مصطلحات: ريح طيبة، ريح رخاء، ريح جارية، ريح فيها صر، ريح صرصر، ريح عاصف، قاصف من الريح، ريح ساكنة، ريح عقيم، ريح عاتية، ريح مصفرة. أما كلمة الرياح فقد وردت عشر مرات، متضمنة الرياح المبشرات، تصريف الرياح، الرياح المثيرة سحابا، الرياح اللوايح، الرياح الذارية. ومن المدهش حقا، ذلك التوافق التام بين التقسيم المعاصر لقوى الرياح، وبين أنواعها التي ذكرها القرآن الكريم باستيعاب تام لا يصدر إلا عن وحي.

وجه الإعجاز:

إن ذكر أنواع الرياح في القرآن الكريم قد جاء مطابقاً لما انتهى إليه علماء الأرصاد، من تقسيم الرياح إلى أنواع، حسب شدتها وآثارها، مع أن ما انتهى إليه إنما كان في الأزمنة المتأخرة، وبما أن البشر كانوا على جهالة تامة بذلك التقسيم تبعاً للتفاوت فيما بينهما، فإن حصول ذلك التطابق بين وصفها في القرآن الكريم وتلك الحقائق فيه إعجاز علمي ظاهر.



تنفس الصبح

قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧-١٨].



الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛ أي: امتد ضوءه وتكامل، فقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] إشارة إلى أول طلوع الصبح^(١).

وهو مثل قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۗ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤] وقوله: والصبح إذا تنفس إشارة إلى تكامل طلوع الصبح فلا يكون فيه تكرار.

وأما قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛ أي: إذا أسفر كقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤] ثم في كيفية المجاز قولان:

أحدهما: أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفسا له على المجاز، وقيل تنفس الصبح.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١ / ٦٩).

والثاني: أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي جلس بحيث لا يتحرك، واجتمع الحزن في قلبه، فإذا تنفس وجد راحة. فههنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وهو استعارة لطيفة^(١).

الدلالة العلمية:

لقد شبهت الآية الكريمة طلوع الصبح بمخلوق حي يتنفس، والتنفس في الإنسان وغيره من الثدييات يتكون من شقين:

❁ (أولاً): الشهيق Inspiration: وهو يتطلب جهداً من جهاز التنفس؛ خاصة العضلات، لإدخال الهواء.

❁ و(ثانياً): الزفير Expiration: وهو عملية تلقائية لإخراجه.

ولولا وجود هذا الغلاف الغازي لارتفعت درجة حرارة سطح الأرض خلال النهار إلى أكثر من (٩٣م)، ولانخفضت أثناء الليل إلى ما دون (١٤٩م) تحت الصفر، علاوة على أنه يحمي الأرض وما عليها من كائنات حية من الإشعاع الشمسي أثناء النهار، ويبطئ من تسرب الحرارة وفقدانها أثناء الليل. وعن طريق المناطق والمناطيد والطائرات والأقمار الصناعية التي اخترعها الإنسان، عرف الكثير عن طبقات الغلاف الجوي.

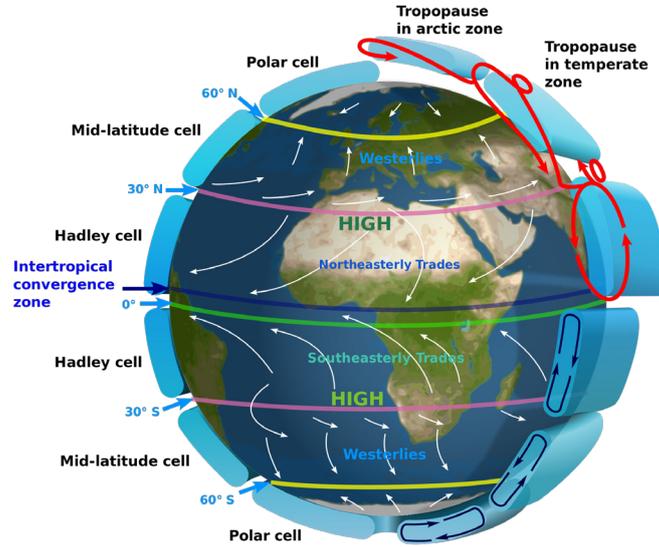
وكما هو معروف لدى المختصين: أن حركة الهواء في الكرة الأرضية تنقسم إلى: حركات أفقية، وأخرى رأسية، وتنتقل الرياح نحو مناطق التخلخل؛ فتخفف من برودة المناطق الباردة، وتقلل من حرارة المناطق الدافئة، وتحفظ التوازن الحراري. وبسبب حركة الأرض من الغرب نحو الشرق تنحرف الرياح إلى يمين اتجاهها في نصف الكرة الشمالي، وتتجه إلى يسار اتجاهها في نصف الكرة الجنوبي، وتشكل حركات الهواء الرأسية أساساً تبعاً للتغيرات الحرارية في الغلاف الجوي.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١ / ٦٨).

وترجع حركة الهواء الرأسية إلى التيارات الهوائية الصاعدة، حيث يتكون ضغط منخفض للهواء الملاصق لسطح الأرض؛ نتيجة ارتفاع حرارة سطح الأرض عند الصباح، تحت تأثير حرارة الشمس، فيتمدد الهواء ويرتفع رأسياً، بينما يحدث العكس أثناء الليل كما لو أن إنساناً يتنفس.

وجه الإعجاز:

إن ورود ما يدل على ظاهرة التنفس في الآية الكريمة (والصبح إذا تنفس) في زمن لم يكن البشر على دراية بحصول الظواهر مع بدء النهار التي تماثل التنفس. ومع تقدم الزمن وفي العصور الأخيرة، وبعد مشاهدات متواصلة ورصد دقيق، استقر لدى العلماء أن هناك ظاهرة تحصل على سطح الأرض مع بداية النهار تضارع ما يحصل للإنسان عند تنفسه، فكان ذلك التوافق بين دلالة النص، وتلك الحقيقة، مثال إعجاز علمي باهر.



حركة الرياح في الكرة الأرضية



تيارات الرياح الجوية النفاثة

قال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَرِيقَاتِ فَرَقًا ۝٤ فَالْمَلَقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥].

الدلالة النصية:

في قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَرِيقَاتِ فَرَقًا ۝٤ فَالْمَلَقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥]؛ قال ابن جزي المتوفى عام ٧٤١هـ (رحمه الله تعالى) (١) "على القول بأنها الرياح.

سماها (المرسلات) لقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾.

وسماها (العاصفات) من قوله (رياح عاصف)؛ أي: شديدة.

وسماها (الناشرات) لأنها تنشر السحاب في الجو؛ ومنه قوله (يرسل الرياح فتثير سحابا).

وسماها (الفارقات) لأنها تفرق بين السحاب؛ ومنه قوله (فيجعله كسفا).

وأما (الملقيات ذكرا) فهم الملائكة؛ لأنهم يلقون الذكر للأنبياء عليهم السلام.

والأظهر في (المرسلات) و(العاصفات) أنها الرياح؛ لأن وصف الرياح بالعصف حقيقة.

والأظهر في (الناشرات) و(الفارقات) أنها الملائكة؛ لأن الوصف بالفارقات أليق بهم من الرياح ولأن (الملقيات) المذكورة بعدها هي الملائكة، ولم يقل أحد

(١) التسهيل (٢٦٧/٣) - لابن جزي الغرناطي الأندلسي.

إنها الرياح ، ولذلك عطف المتجانسين بالفاء ؛ فقال (والمرسلات .. فالعاصفات) ، ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو ؛ فقال (والناشرات) ثم عطف عليه المتجانسين بالفاء (الفارقات) ؟ .

و(العرف) في وصف الرياح يعني التموج ، تمثيلا بعرف الفرس أو الديك ، والتمثيل يعني أيضا الشيء المرتفع لأن الأعراف مرتفعة ؛ ومنه (وعلى الأعراف رجال) ، والقَسْمُ بها ، وتميُّزُها بالمصاحبة مع عواصف تتبعها ، يعني : أنها شديدة وسريعة ، فدل التعبير على تيار رياح خاصة قوية ومرتفعة في الجو وتموجة .

الحقيقة العلمية :

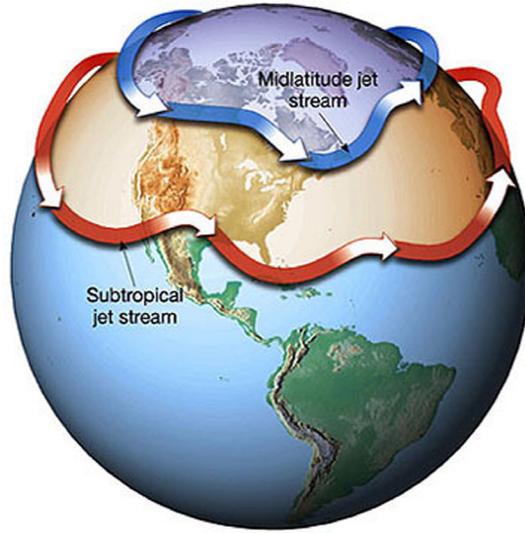
ولم يكن يعلم أحد قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بوجود رياح تطابق الوصف بالقوة والارتفاع والتموج ، حتى وجدت الطائرات المتجهة غربا إعاقه في مواجهة تلك الرياح العاتية ؛ ولم يكن سبيل إلا بتغيير الارتفاع وتجنبها ، وتستفيد الملاحة الجوية اليوم من تلك الظاهرة ، بحيث تكون مدة الرحلة أقل للمتجه شرقا .

فالرياح هي هواء متحرك ، وقد تهب الرياح بلُطف أو قد تهب بسرعة وعُنف لدرجة تجعلها تدمر المباني وتقتلع الأشجار الكبيرة من جذورها ، والرياح القوية يمكنها أن تضرب سطح المحيط وتولد أمواجاً عاتية يمكن أن تحطم السفن وتغمر الأرض لتحطم المنشآت على الشاطئ .

وبإمكان الرياح كعامل مؤثر من عوامل التعرية أن تُبلي الصخر ، وتغير ملامح الأرض على المدى الطويل ، والرياح جزء من الطقس ؛ فالיום الحار الرطب قد يتحول فجأة إلى بارد ، إذا ما هبَّت الرياح من منطقة باردة ، والسحب المُحمَّلة بالمطر والبرق ، قد تتكون حيث يلتقي الهواء البارد بالهواء الحار الرطب .

وتحدث الرياح نتيجة التسخين غير المتساوي للجو عن طريق الطاقة المنبعثة من الشمس ، فالهواء الذي يعلو المناطق الحارة يتمدد ويرتفع ، ويحل محله هواء من المناطق الأبرد ، وتسمى هذه العملية دورة .

وتسمى الدورة فوق الأرض بكاملها بالدورة العامة، بينما تسمى الدورات النسبية الصغرى، والتي يمكن أن تتسبب في حدوث تغيرات في الرياح يوماً بعد يوم بالدورات النسبية الشاملة للرياح، أما الرياح التي من الممكن أن تحدث في مكان واحد فقط، فإنها تُسمى بالرياح المحليّة.



وتحدث الدورة العامة للرياح فوق قطاعات كبيرة من سطح الأرض، وتُسمى هذه الرياح: الرياح السائدة، وتتنوع هذه الرياح باختلاف خط العرض؛ فبالقرب من خط الاستواء يرتفع الهواء الساخن إلى ما يقرب من ١٨ كم، فيتحرك الهواء الأبرد ليحل محل الهواء المرتفع في نطاقين من الرياح السائدة، ويقع هذان النطاقان بين خط الاستواء وخطي عرض ٣٠° شمالاً وجنوباً، وتُسمى الرياح في هذه المناطق بالرياح التجارية.

وسبب التسمية: اعتماد التجار عليها قديماً في إبحار السفن التجارية، ولا تهب الرياح التجارية في اتجاه عمودي تماماً على خط الاستواء؛ بسبب حركة الأرض حول نفسها نحو الشرق، ومعها الغلاف الجوي، وتجر حركة الأرض الجو معها فيتأخر عنها، مما يدفع الهواء المتحرك غرباً في كل من الشمال والجنوب.

ويعود بعض الهواء الذي ارتفع عند خط الاستواء إلى سطح الأرض بين خطي عرض ٣٠. شمالاً وجنوباً من خط الاستواء؛ فتضعف الرياح عند الحزامين؛ لأن حركة الرياح رأسية نحو الأسفل، ويقال: إن سبب تسمية تلك المناطق بعروض الخيل: هو أن عدداً كبيراً من الخيول قد نَفَقَتْ على ظهر السفن الشراعية، التي توقفت عن الحركة فيها؛ بسبب توقف الرياح.

وقد صنف فرانسيس بوفورت Francit Beaufort (١٧٧٤-١٨٥٧) عام ١٨٠٥ الرياح تبعاً لشدتها وتأثيرها على السفن الشراعية إلى درجات، ثم عُدِّلَ الجدول لاحقاً؛ وفقاً لسرعة الرياح، والتأثيرات على اليابسة، ووفقاً لمقياس بيفورت المتدرج 'Beaufort' Scale، المعتمد لدى المنظمة العالمية للأرصاد الجوية World Meteorological Organization، وجد أنه يلتقي مع تصنيفات الرياح التي ذكرها القرآن على نحو مذهل.

فمثلاً درجة ٧: دون الهبوب Near gale السرعة: ٥٢-٦٣ كم/ساعة، ويكاد يجعل السير صعباً في مواجهته، ويقابله قوله تعالى: ﴿فَيُرْسِلْ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء: ٦٩].

ودرجة ٨: هبوب Gale سرعته ٦٣-٧٦ كم/ساعة، ويصعب السير في مواجهته.

ودرجة ٩: هبوب قوي Strong gale سرعته ٧٦-٨٩ كم/ساعة، يجعل الألواح الخشبية تتطاير، ويقابلهما قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢].

ودرجة ١٠: عاصفة Storm سرعتها ٨٩-١٠٤ كم/ساعة، تقتلع الأشجار وتتلغ بعض المباني.

ودرجة ١١: عاصفة عنيفة Violent Storm سرعتها ١٠٤-١١٩ كم/ساعة، وتسبب تلف شديد للمباني، ويقابلهما قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ

عَائِيَّة ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿[الحاقة: ٦-٧].

ودرجة ١٢ : إعصار Hurricane سرعته تزيد عن ١١٩ كم / ساعة، يسبب
دمار متباين الشدة تبعاً لسرعته وربما حرائق، ويقابله قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ
فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ولا يصدر هذا التوافق العجيب بين التقسيم العلمي المعاصر للرياح، وبين
أنواعها التي ذكرها القرآن، إلا عن علم، خاصة أن هذا التنوع مع بيان خصائص
كل نوع وفق شدته وآثاره لا تجده في أي كتاب آخر يُنسب للوحي غير هذا الكتاب
الكريم.

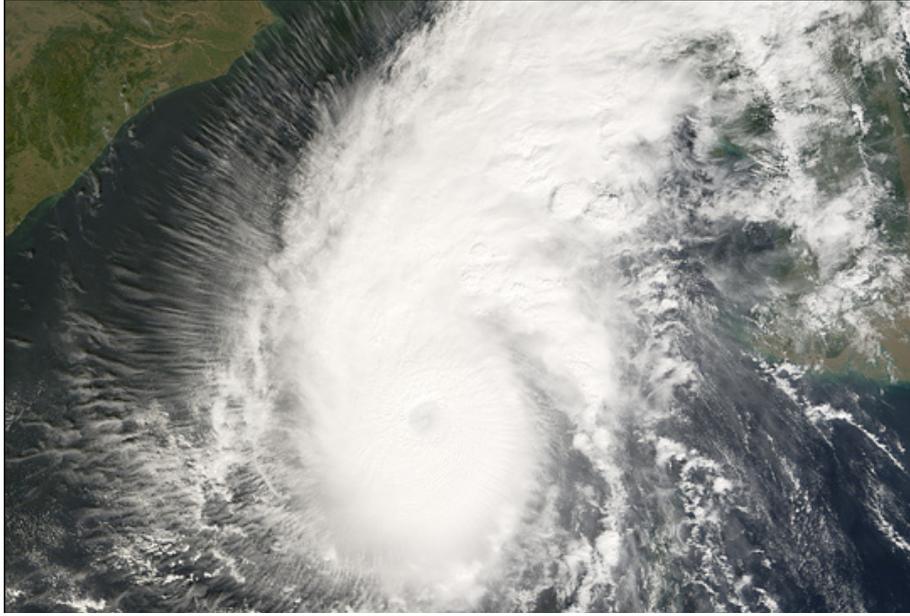
وجه الإعجاز :

لقد اكتشف حديثاً ما يسمى بالرياح النفاثة Jet Stream على ارتفاعات عالية
في الجو متموجة الشكل، وعندما تتكون تلك التيارات فإن العاصفة تتبعها عند
التقاء كتل هوائية باردة وأخرى ساخنة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١ ۝ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ٢ ۝ وَالنَّذِيرَاتِ الذُّرًّا ٣
فَالْفَرِيقَاتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات: ١-٤]؛ والعرف في الأصل هو عرف الفرس أو
الديك، وهو متموج الشكل، ويسمى كل مرتفع عرفاً، كما في قوله تعالى:
﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦].

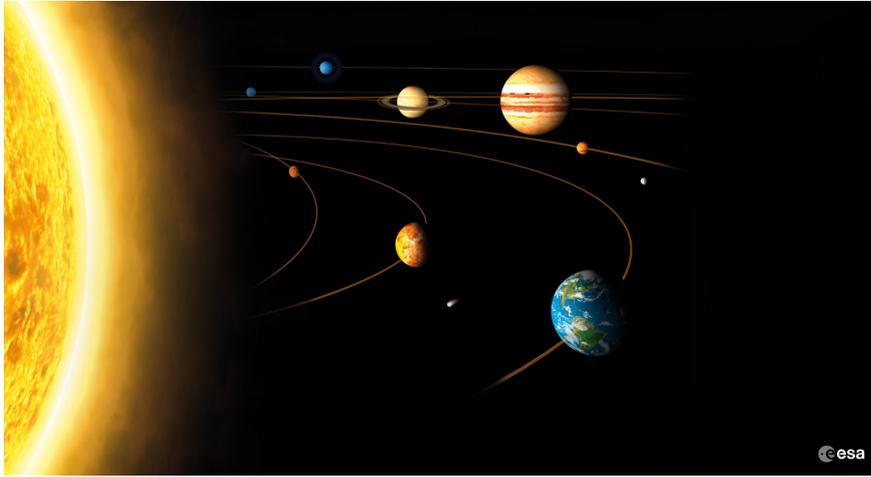
وفي التفسير أن ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ وصف لرياح ترسل متتابعة، وأن
﴿فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا﴾ وصف آخر للرياح يتبع الأول، وهو وصف عجيب، وبيان
مذهل، يلتقي من كل وجه مع المعرفة الحديثة بالرياح النفاثة؛ لأنها قوية، كما
يفيد تمييزها وملازمتها للعواصف، وهي مرتفعة ومتموجة، ويلتقي مع تأثيرها في
نشأة الأعاصير الدوارة.

فالأول: وصف لشكلها المتموج وقوتها وسرعتها وموضعها.
والثاني: بيان لتأثيرها في نشأة الأعاصير؛ وهي رياح أقرب لسطح الأرض
تجعلها الرياح النفاثة عواصف دوارة أو أعاصير، وتلك هي خلاصة كشف علمي
لم يعرفه الباحثون إلا حديثا جدا.
ولا شك أن إشارة القرآن الكريم إلى الرياح النفاثة وغيرها من أنواع الرياح
الأخرى التي سبقت الإشارة إليها دليل أنه معجز علميا.



الحركة الذاتية للأجرام السماوية

- قال تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ [النحل: ١٢].
 وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٤].
 وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد، وفاطر، والزمر].
 وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩].
 وقال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].
 وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].



الدلالة النصية:

تدل هذه الآيات الكريمة على نظام فلكي أجراه الله في هذا الكون، ولذلك فالنجوم مُسَيَّرَاتٌ بتقديره، وكما قال ابن كثير: «النجوم الثوابت والسيارات

في أرجاء السماوات.. كلُّ منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه يسير بحركة مُقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص منها".

الدلالة العلمية:

وفق ظاهر الدلالة التي لا تحتمل تأويلاً: فكل الأجرام السماوية تتحرك في أفلاكها حركة ذاتية مقدرة؛ كل له فلك يخصه ويقطعه في مدة محددة مقدرة؛ بخلاف الوهم السائد إلى القرن السابع عشر: أن النجوم ثابتة لا تتحرك بذاتها، وإنما بحركة أفلاك شفافة قد ثبتت عليها وتدور حول الأرض المسطحة الثابتة.

اعتمد التصور السائد قديماً مبدأ مركزية الأرض وحركة الشمس حولها، وفق الظاهر، وأن النجوم ثابتة على فلك شفاف كالزجاج، لا يُرى، تدور بدورانه، وأن الكواكب بالمثل لا حركة ذاتية لها، وإنما تدور بدوران أفلاكها.

ولكن القرآن قد عارض ذلك الوهم السائد، وقدم مفاهيم جديدة بإعلانه: أن الكون طرائقٌ، وكلُّ الأجرام تتحرك بذاتها، وتجري في مداراتها؛ كل له فلك Orbit، يخصه ويقطعه بسرعة محددة في فترة مقدرة.

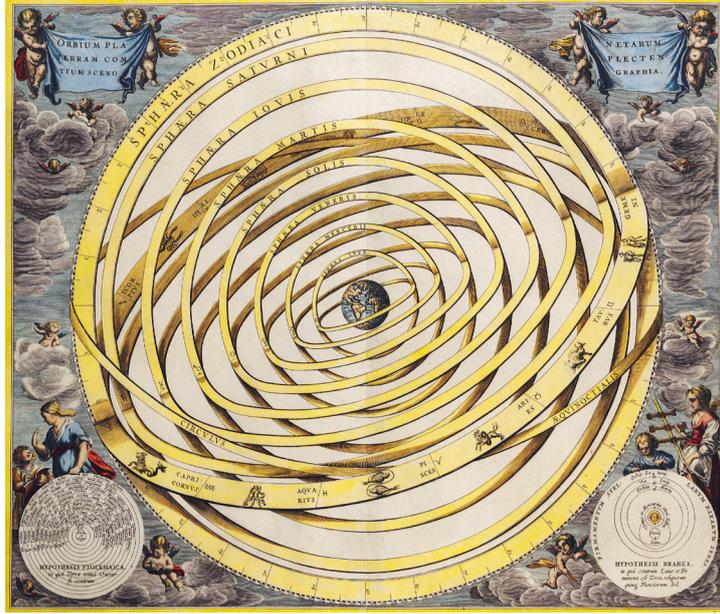
وتجري الشمس بالمثل بحركة ذاتية في فلك أو مدار مقدر الأجل؛ وكذلك القمر، في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢، وفاطر: ١٣، والزمر: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، ولفظ (كُلٌّ) يفيد الجمع ويعمم النبأ: بأن الشمس والقمر حركتهما مقدرة، ليشمل كل الأجرام في الكون؛ وإن لم يُذكر سواهما.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]؛ يعني تعدد الأفلاك، وتعدد آجال قطعها مع وحدتها جميعاً في فلك كوني واحد يضمها، وهذا أبلغ لبيان كمال عظمة الله تعالى، وقدرته ووحدانيته.

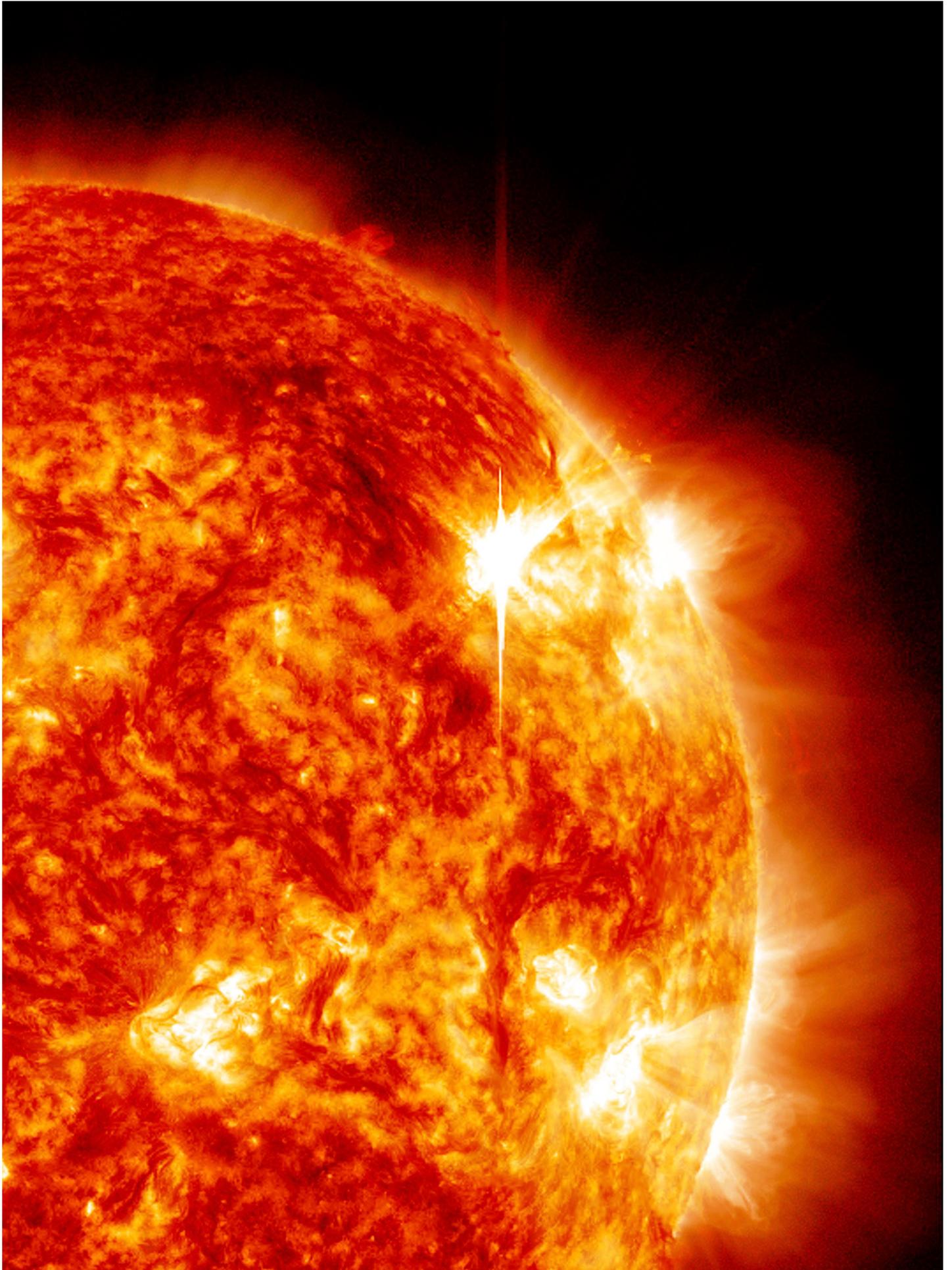
وجه الإعجاز:

إن الآيات الكريمة التي تحدثت عن الكون صرحت بوجود أنظمة دقيقة وثابتة لموجوداته، وهنا نجد تكرار ذكر هذه الحقيقة في الآيات الكريمة، ومع تقدم مسيرة العلم، واكتشاف أجهزة الرصد الفضائية وجد العلماء أنفسهم أمام تلك الحقيقة الصارخة التي تشمل كل هذه العوالم الفلكية.

فالنظام ثابت والحركة دقيقة والعلاقة بين تلك الأجرام منسقة والنظام الذي يشملها على أدق وجه، وهذا التطابق بين دلالة النصوص، وما انتهى إليه العلم في هذا الميدان، يؤكد أن المتحكم هو خالق الكون، وأن المبلغ هو رسول كريم لا ينطق عن الهوى. (إن هو إلا وحي يوحى).



وثيقة قديمة تبين التصور السائد من مركزية الأرض المسطحة يحيط بها بحر وتدور حولها الشمس والقمر والبروج المشكّلة بهيئة حيتان وحيوانات وعمالقة



مدار الشمس

قال تعالى: ﴿وَعَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخْنَا مِنْهُ النَّهَارَ فَاذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى (تجري) الجري حقيقته: السير السريع وهو لذوات الأرجل، وأطلق مجازاً على تنقل الجسم من مكان إلى مكان تنقلاً سريعاً بالنسبة لتنقل أمثال ذلك الجسم، وغلب هذا الإطلاق، فساوى الحقيقة، وأريد به السير في مسافات متباعدة جداً التباعد، فتقطعها في مدة قصيرة، بالنسبة لتباعد الأرض حول الشمس.

وهذا استدلال بآثار ذلك السير المعروفة للناس معرفة إجمالية بما يحسبون من الوقت وامتداد الليل والنهار، وهي المعرفة لأهل المعرفة بمراقبة أحوالها من خاصة الناس، وهم الذين يرقبون منازل تنقلها المسماة بالبروج الاثني عشر، والمعروفة لأهل العلم بالهيئة تفصيلاً واستدلالاً، وكل هؤلاء مخاطبون بالاعتبار بما بلغه علمهم.

والمستقر: مكان الاستقرار، أي القرار أو زمانه، فالسين والتاء فيه للتأكيد مثل: استجاب بمعنى أجب. واللام في (المستقر): يجوز أن تكون لام التعليل على ظاهرها، أي تجري لأجل أن تستقر، أي لأجل أن ينتهي جريها، كما ينتهي سير المسافر

إذا بلغ إلى مكانه فاستقر فيه، وهو متعلق بـ: (تجري) على أنه نهاية له؛ لأن سير الشمس لما كانت نهايته انقطاعه نزل الانقطاع عنه منزلة العلة كما يقال: «لِدُوا لِمَوْتِ وَابْنُوا لِلخِرَابِ» .

وتنزيل النهاية منزلة العلة مستعمل في الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُرَّءَالُ فِرْعَوْنُ لِيَكُونَ لَهْمَ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. والمعنى: أنها تسير سيرا دائما مشاهدا إلى أن تبلغ الاحتجاب عن الأنظار.

ويجوز أن تكون اللام بمعنى (إلى)، أي تجري إلى مكان استقرارها، وهو مكان الغروب، شبه غروبها عن الأبصار بالمستقر، والمأوى الذي يأوي إليه المرء في آخر النهار بعد الأعمال.

وقد ورد تقريب ذلك في حديث أبي ذر الهروي في صحيحي «البخاري» و«مسلم» و«جامع الترمذي» بروايات مختلفة حاصل ترتيبها أنه قال: «كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فسألته (أو فقال): إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها فذلك مستقر لها ومستقرها تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ .

وهذا تمثيل وتقريب لسير الشمس اليومي الذي يتبدىء بشروقها على بعض الكرة الأرضية، وينتهي بغروبها على بعض الكرة الأرضية، في خطوط دقيقة، ويتكرر طلوعها وغروبها تتكون السنة الشمسية.

وقد جعل الموضوع الذي ينتهي إليه سيرها هو المعبر عنه بتحت العرش، وهو سمت معين لا قبل للناس بمعرفته، وهو منتهى مسافة سيرها اليومي، وعنده ينقطع سيرها في إبان انقطاعه، وذلك حين تطلع من مغربها، أي حين ينقطع سير الأرض حول شعاعها لأن حركة الأجرام التابعة لنظامها تنقطع تبعاً لانقطاع حركتها هي، وذلك نهاية بقاء هذا العالم الدنيوي.

واللام في قوله لها لام الاختصاص وهو صفة لمستقر. وعدل عن إضافة مستقر لضمير الشمس المغنية عن إظهار اللام إلى الإتيان باللام ليتأتى تنكير «مستقر» تنكيراً مشعراً بتعظيم ذلك المستقر.

وكلام النبي ﷺ هذا تمثيل لحال الغروب والشروق اليوميين. وجعل سجود الشمس تمثيلاً لتسخيرها، لتسخير الله إياها، كما جعل القول تمثيلاً له في آية ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرِهًا قَالَتْ لَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١٨].

واعلم أن قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ إدماج للتعليم في التذكير وليس من آية الشمس للناس؛ لأن الناس لا يشعرون به فهو كقوله تعالى: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠] عقب الامتنان بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٠].

والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ إلى المذكور: إما من قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ أي ذلك الجري، وإما منه ومن قوله: ﴿وَعَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧] أي ذلك المذكور من تعاقب الليل والنهار.

وذكر صفتي العزيز العليم لمناسبة معناهما للتعلق بنظام سير الكواكب، فالعزة تناسب تسخير هذا الكوكب العظيم، والعلم يناسب النظام البديع الدقيق، وتقدم تفصيله عند قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ في سورة الفرقان [٦٦] (١).

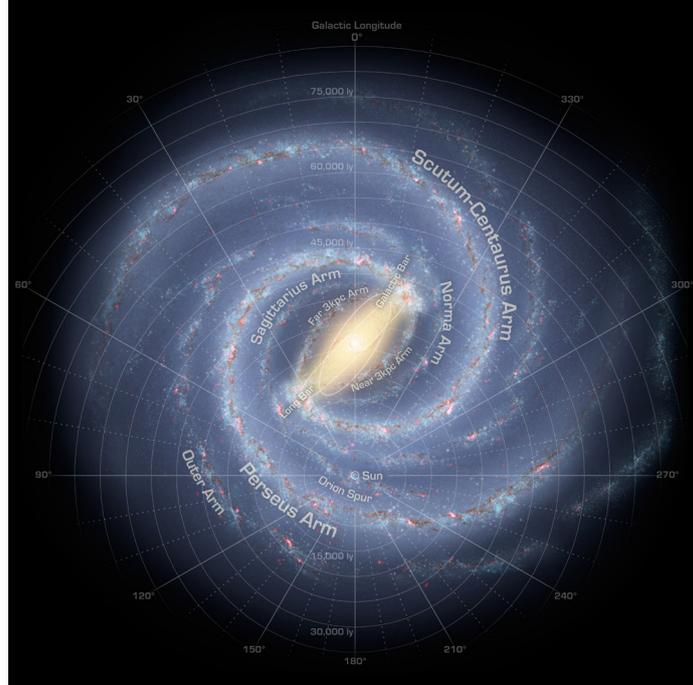
(١) التحرير والتنوير (٢٣/١٩-٢١).

الدلالة العلمية:

في القرن السابع عشر توصل كبلر Kepler إلى أن مدارات الكواكب غير كاملة الاستدارة (إهليلجية) Elliptical.

وفي منتصف القرن التاسع عشر اكتشف كارينغتون Carrington أن الشمس تدور حول نفسها من خلال تتبعه للبقع السوداء على سطحها، وهكذا تقدمت المعرفة شيئاً فشيئاً حتى تأكد اليوم أن الأرض وجميع أجرام السماء في حركة دائبة كل في مدار مقدر يقطعه في أجل محدد.

وتبين أن الشمس تقع في الثلث الخارجي لمجرتنا التي تسمى درب التبانة، أو الطريق اللبني Milky Way، وتقطع الشمس مدارها، ومعها جميع توابعها حول مركز المجرة في حوالي: ٢٥٠ مليون سنة.



صورة لمجرتنا درب التبانة تظهر مكان الشمس ومدارها حول مركز المجرة

بينما قد أعلن القرآن قبل ذلك بحوالي عشرة قرون أن كل الأجرام تجري. أي أن لكل جرم فلكًا يخصه أو مدارًا يقطعه كاملاً في نهاية دورته.

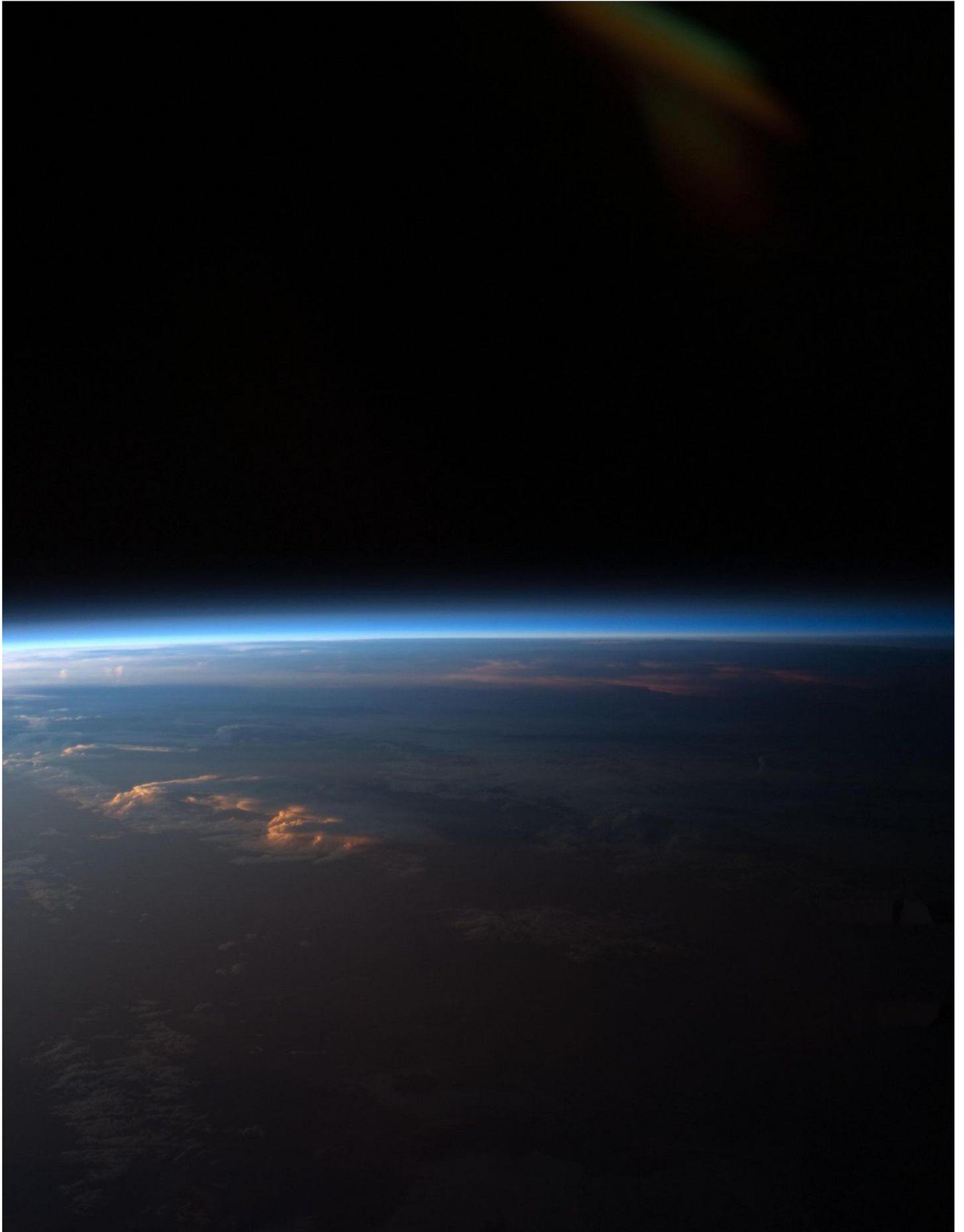
وهكذا ورد الوجه في التفسير بأن معنى (المستقر) هو نهاية أجلها في مدارها، أو موضع بدء تحركها كمسافر ارتحل من دياره، ومر خلال سيره بمنازل قبائل معلومة، كمعالم على الطريق إلى أن عاد إلى مستقره، وكأنه تمثيل لدورة تقطعها الشمس بالنسبة لمجموعات نجوم تبدو لبعدها الشديد ثابتة، ورغم الجري لا تبلغ مستقرها هذا إلا بعد أمد بعيد مقدر لها.

وينسجم هذا الوجه كذلك مع التعقيب، بأن للقمر منازل بالمثل؛ خاصة مع التعميم: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ومع البيان في الآية اللاحقة أن لكل منهما سرعته وأن جهتي الأرض (الليل والنهار) يتسابقان متحاذيان بيانا لحركة الأرض بالمثل.

وينسجم كذلك مع البيان بأن الحركة المدارية لكل من الشمس والقمر، كنموذج لحركة كافة الأجرام، مقدرة بحساب دقيق، لا تصنعه مصادفة في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وبخاصة مع التعقيب نفسه في الآيتين: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وجه الإعجاز:

إن تصريح القرآن في الآيات التي مرت معنا بجريان الشمس وحركتها الدؤوب، في مسار ثابت ومنضبط، وفق نظام دقيق كان مجهولاً وقت التنزيل، وقد جاء الكشف العلمي مبرزاً هذه الحقيقة، ومطابقاً تماماً لدلالة القرآن، قبل أربعة عشر قرناً، فظهر وجه الإعجاز العلمي بشكل جلي لاخفاء فيه.



آيتا الليل والنهار

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

الدلالة العلمية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

فيه وجهان، أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل، وآية النهار للتبيين، كإضافة العدد إلى المعدود، أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة.

والثاني: أن يراد: وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين، يريد الشمس والقمر. فمحونا آية الليل: أي جعلنا الليل ممحوً الضوء مظموسه مظلمًا، لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحو، وجعلنا النهار مبصرًا أي: تبصر فيه الأشياء وتستبان.

أو فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعا كشعاع الشمس، فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوءها كل شيء لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معاشكم.

وَلَتَعْلَمُوا بِاخْتِلَافِ الْجَدِيدِينَ عَدَدَ السِّنِينَ وَجِنْسِ الْحِسَابِ وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْهُ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمَا عَلِمَ أَحَدٌ حِسَابَ الْأَوْقَاتِ، وَلَتَعَطَّلَتِ الْأُمُورُ، وَكُلَّ شَيْءٍ مِمَّا تَفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ، فَصَلَّنَاهُ بَيْنَنَا بِيَانًا غَيْرَ مَلْتَبَسٍ، فَأَزْحَنَا عَلَّكُمْ، وَمَا تَرَكْنَا لَكُمْ حُجَّةَ عَلَيْنَا^(١).

قال الرازي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ قولان:

❁ القول الأول: أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار. والمعنى: أنه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا.

أما في الدين: فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له، مع كونهما متعاقبين على الدوام، من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما، بل لا بد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة.

وأما في الدنيا: فلأن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ وعلى هذا القول: تكون الإضافة في آية الليل والنهار للتبيين، والتقدير: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي نفس النهار مبصرة، ونظيره قولنا: نفس الشيء ذاته، فكذلك آية الليل هي نفس الليل. ويقال أيضا: دخلت بلاد خراسان أي: دخلت البلاد التي هي خراسان، فكذلك هاهنا.

❁ القول الثاني: أن يكون المراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر، فمحونا آية الليل وهي القمر، وفي تفسير محو القمر قولان:

* القول الأول: المراد منه ما يظهر في القمر من الزيادة والنقصان

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢ / ٦٥٢).

في النور، فيبدو في أول الأمر في صورة الهلال، ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصيرَ بدرًا كاملاً، ثم يأخذ في الانتقاص قليلاً قليلاً، وذلك هو المحو، إلى أن يعود إلى المحاق.

* والقول الثاني: المراد من محو القمر الكلف الذي يظهر في وجهه .

يروى أن الشمس والقمر كانا سواء في النور والضوء، فأرسل الله جبريل عليه الصلاة والسلام فأمرَ جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء.

ومعنى المحو في اللغة: إذهاب الأثر، تقول: محوته أمحوه وانمحي وامتحى إذا ذهب أثره، وأقول: حمل المحو في هذه الآية على الوجه الأول أولى، وذلك لأن اللام في قوله: لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب متعلق بما هو مذكور قبل، وهو محو آية الليل.

وجعل آية النهار مبصرة، ومحو آية الليل إنما يؤثر في ابتغاء فضل الله، إذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه، لأن سبب حصول هذه الحالة يختلف بأحوال نور القمر، وأهل التجارب بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه.

مثل أحوال البحار في المد والجزر، ومثل أحوال التجربات على ما تذكره الأطباء في كتبهم، وأيضا بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور، وبسبب معاودة الشهور يحصل السنون العربية المبنية على رؤية الأهلة كما قال: ولتعلموا عدد السنين والحساب، فثبت أن حمل المحو على ما ذكرناه أولى.

أما قوله: وجعلنا آية النهار مبصرة ففيه وجهان:

* الأول: أن معنى كونها مبصرة أي: مضيئة، وذلك لأن الإضاءة سبب لحصول الإبصار، فأطلق اسم الإبصار على الإضاءة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب.

* والثاني: قال أبو عبيدة يقال: قد أبصر النهار إذا صار الناس يبصرون فيه، كقوله: رجل مخبث إذا كان أصحابه خبيثاء، ورجل مضعف إذا كانت ذراريه ضعافا، فكذا قوله: ﴿وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، أي: أهله بصراء.

واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة منافع الليل والنهار، قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠ - ١١].

وقال أيضا: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

ثم قال تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾^(١).

وقال محمد بن كعب القرظي: «كانت شمس بالليل، وشمس بالنهار، فمحيت شمس الليل».

وقال ابن عباس: «كان في الزمان الأول لا يعرف الليل من النهار. فبعث الله جبريل، فمسح جناحه بالقمر، فذهب ضوءه، وبقي علامة جناحه وهو السواد الذي في القمر»، فذلك تفسير قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: وتركنا علامة النهار مضيئة مبينة.

﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: لتطلبوا رزقا من ربكم في النهار.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي: حساب الشهور والأيام.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: بيناه في القرآن^(٢).

الحقيقة العلمية:

اكتشف علماء الفلك بعد صعود الإنسان إلى القمر: أنه كان في الماضي نشيطا

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٠/٣٠٦-٣٠٧).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/٣٠٣-٣٠٤).

بركانيا قبل أن تتصلد قشرته ويتضاءل نشاطه البركاني، فالمعلوم فلكيا أنها تشكلت منذ حوالي ٦, ٤ مليون سنة، وخلال تشكلها تعرضت لضربات النيازك وسادها نشاط بركاني واسع، فاض في مناطق الوهاد خاصة المعروفة بالبحار Maria. وبفعل درجات الحرارة الهائلة، طغت الصهارة على سطحه، ثم برد القمر؛ فتوقف نشاطه البركاني، وانطفأت حِمَمُه، واستقرّ سطحه على ما هو عليه اليوم. وجه الإعجاز:

مما يدعو إلى العجب: أن يتوافق فهم بعض الصحابة الكرام مع الحقيقة العلمية، اعتمادا على دلالة اللغة فحسب، قبل أن يصل الإنسان إلى القمر بقرون. عن عبد الله بن عباس (رضي الله تعالى عنهما) أنه قال: "كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، وهو آية الليل فمُحِيّ؛ فالسواد الذي في القمر أثر ذلك المَحْوِ"، وهذا الفهم مبني على اعتبار أن آية الليل أي: علامته هي القمر، وأن المحو في مقابل تأجج الشمس وإصدارها الضوء هو زوال الالتهاب وإن عبّر عنه بالضوء. وعلى هذا فالآية الكريمة تشير إلى حقيقة علمية، لم تظهر إلا في القرن العشرين، وهي أن سطح القمر كانت تنشط فيه براكين هائلة، خاصة في مناطق الوهاد، خاصة التي تبدو للناظر كبقع سوداء، ولاشك أن تفسير لفظ المحو بزوال براكين القمر التي كانت متأججة قديما يدل على إعجاز علمي تضمنته الآية.





النجم الثاقب

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣].

الدلالة النصية:

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] نجم، وقد بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ومنه قول هند بنت عتبة:

نحنُ بنات طَارِقٍ نمشي على النمارق

تقول: نحن بنات النجم افتخارًا بشرفها، وإنما سمي النجم طارقًا لاختصاصه بالليل، والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقًا، قال الشاعر:

ألا طَرَقْتُ بالليل ما هَجَعُوا هِنْدُ وهنْدُ أتى من، دُونها النَّأْيُ والصَّدِّ

وأصل الطرق الدق، ومنه سميت المطرقة، فسمي قاصد الليل طارقًا لاحتياجه في الوصول إلى الدق.

وفي قوله ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ستة أوجه:

❁ أحدها: المضيء، قاله ابن عباس.

❁ الثاني: المتوهج، قاله مجاهد.

❁ الثالث: المنقصر، قاله عكرمة.

❁ الرابع: أن الثاقب الذي قد ارتفع على النجوم كلها، قاله الفراء.

❁ الخامس: الثاقب: الشياطين حين ترمى، قاله السدي.

❁ السادس: الثاقب في مسيره ومجراه، قاله الضحاك. وفي هذا النجم الثاقب قولان:

* أحدهما: أنه زحل، قاله عليّ.

* الثاني: الثريا، قاله ابن زيد^(١).

❁ التوافق مع العلوم الحديثة:

جاء القسم هنا بنجم سماوي متميز الصفات مجهول زمن التنزيل، كما تفيد العبارة الصريحة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾، فقد جاء مقرونا بالسماء، وهو ثاقب وطارق، ولا تنجلي تلك الأوصاف إلا بمعرفة دقيقة لطبيعة النجوم وأنواعها ومراحل تكونها، فمثل كل الإشارات الكونية في القرآن لا بد من توظيف المعارف العلمية لفهم دلالاتها وفق الإطار اللغوي زمن التنزيل، والنجوم أجرام سماوية ملتهبة ومضيئة بذاتها، وتنطلق منها كميات هائلة من الطاقة نتيجة الاندماج النووي على هيئة عدد من الإشعاعات الكهرومغناطيسية كالضوء والحرارة.

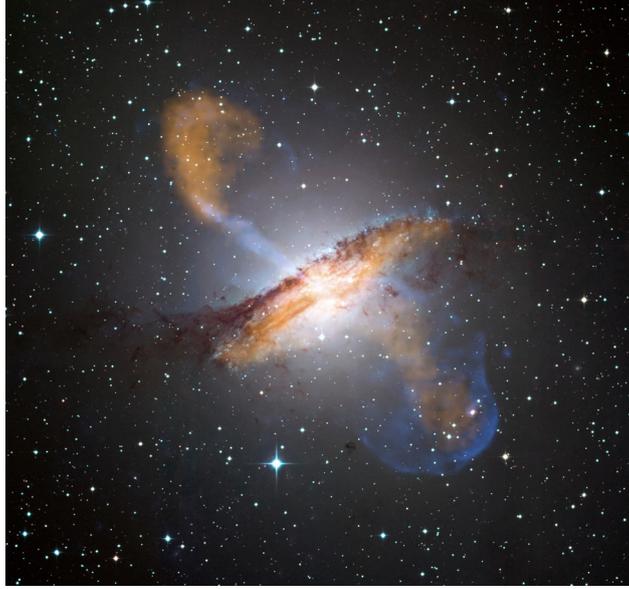
وفي مراحل لاحقة تتوقف عملية الاندماج النووي ويدخل النجم في مرحلة الاحتضار، وتباين النهاية تبعاً لكتلة النجم، فقد يتحول إلى عملاق أحمر، أو قزم أبيض، أو مستعر أعظم، أو ثقب أسود.

فقد يبدأ النجم في الاحتضار بالتوهج الشديد على هيئة عملاق أحمر Red Giant؛ إذا كانت كتلته في حدود كتلة الشمس.

أو ينفجر بهيئة مستعر أعظم Tupernova؛ إذا فاقت كتلته كتلة الشمس بعدة مرات.

(١) تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦ / ٢٤٦).

أما النهاية في حالة النجوم فائقة الكتلة فهي الثقب الأسود Black hole.



مجرة في وسطها ثقب أسود

والمستعر الأعظم تعبير يدل على انفجار نجم تفوق كتلته ٨ مرات كتلة الشمس، مع إصدار إشعاعات شديدة البريق سرعان ما تخبو في غضون أسابيع أو أشهر، وقد تبلغ شدة إضاءة النجم أكثر من مليون مرة قدر إضاءة الشمس.

ومن أهم هذه المراحل المتأخرة في حياة النجوم ما يعرف باسم النجوم النيوترونية النابضة، أو النوابض Pular، وهي نجوم شديدة التضغط ترسل نبضات منتظمة من الأشعة الراديوية المتسارعة في كل جزء من الثانية، أو في كل عدد قليل من الثواني، وقد يصل عدد النبضات إلى ثلاثين نبضة في الثانية، ويعتمد عدد النبضات على سرعة دوران النجم حول محوره.

حيث إنه من المعتقد أن كل دورة كاملة للنجم حول محوره تصاحبها نبضة من نبضات الموجات الراديوية التي تسجلها المقربات (التليسكوبات) الراديوية

بوضوح تام، وتندفع كميات هائلة أثناء الانفجار من الأجسام الشبحية (النيوترينو neutrino) التي يمكنها اختراق الأرض من جانب لآخر.

وقصة اكتشاف النجوم النابضة ترجع إلى عام ١٩٦٨ حينما التقطت طالبة أمريكية إشارات لاسلكية من خارج الأرض، بواسطة جهاز جديد يسمى التلسكوب اللاسلكي Radiotelescope؛ تأتي في شكل نبضات لاسلكية منتظمة.

وفي عام ١٩٨٧ رصد الفلكيون انفجار نجم نابض بجوار مجرة المرأة المسلسلة Andromeda الأقرب لمجرتنا في سحب ماجيلان الكبيرة Large Magellan Cloud.

وجه الإعجاز:

ن وصف القرآن في الآيات السابقة يتطابق تماما مع النجوم النابضة Pu-lating Star؛ فهي نجوم ذات كثافة وجاذبية فائقة، وحجم صغير، وتدور حول محورها بسرعات فائقة مطلقة كميات هائلة من الإشعاعات، ولذا تعرف باسم النباض الراديوية Radio Pular، لأنها ترسل نبضات منتظمة من الأشعة الراديوية، في كل جزء من الثانية، أو في كل عدد قليل من الثواني حسب حجمها وسرعة دورانها حول محورها.

وقد يصل عدد نبضات تلك النجوم إلى ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة، ويعتقد أن النباض الراديوي يطلق نبضة واحدة في كل دورة كاملة حول محوره.

ولا شك أن ما ذكره القرآن الكريم وقت التنزيل بهذا الخصوص يدل على إعجاز علمي تضمنته الآيات، والله أعلم.

مواقع النجوم

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].



مجموعة الدب الأكبر كما تظهر في السماء

الدلالة النصية:

في معنى قوله سبحانه وتعالى (مواقع النجوم) وجوه.

❁ الأول: المشارق والمغارب أو المغارب وحدها، فإن عندها سقوط النجوم.

❁ الثاني: هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها.

❁ الثالث: مواقعها في اتباع الشياطين عند المزاحمة.

❁ الرابع: مواقعها يوم القيامة حين تنتشر النجوم.

❁ الخامس: هل في اختصاص مواقع النجوم للقسم بها فائدة؟ قلنا: نعم فائدة

جليلة، وبيانها أنا قد ذكرنا أن القسم بمواقعها كما هي قسم كذلك هي من الدلائل، وقد بيناه في الذاريات، وفي الطور، وفي النجم، وغيرها.

فنقول: هي هنا أيضا كذلك، وذلك من حيث إن الله تعالى لما ذكر خَلَقَ الْآدَمِيَّ من المنيِّ وموته، بين بإشارته إلى إيجاد الضدين في الأنفس قدرته واختياره، ثم لما ذكر دليلا من دلائل الأنفس ذكر من دلائل الآفاق أيضا قدرته واختياره، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣] ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ﴾ [الواقعة: ٦٨] إلى غير ذلك.

وذكر قدرته على زرعه وجعله حطاما، وخلقه الماء فراتا عذبا، وجعله أجاجا، إشارة إلى أن القادر على الضدين مختار، ولم يكن ذكر من الدلائل السماوية شيئا، فذكر الدليل السماوي في معرض القسم، وقال: مواقع النجوم، فإنها أيضا دليل الاختيار، لأن كون كل واحد في موضع من السماء دون غيره من المواضع مع استواء المواضع في الحقيقة دليل فاعل مختار.

فقال: بمواقع النجوم ليس إلى البراهين النفسية والآفاقية بالذكر كما قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١] ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] حيث ذكر الأنواع الثلاثة كذلك هنا^(١).

يقول ابن عاشور: وبمواقع النجوم جمع موقع يجوز أن يكون مكان الوقوع، أي: محال وقوعها من ثوابت وسيارة. والوقوع يطلق على السقوط، أي:

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩ / ٤٢٦).

الهوي، فمواقع النجوم مواضع غروبها فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].

والقسم بذلك مما شمله قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]. وجعل بمواقع النجوم بهذا المعنى مقسما به؛ لأن تلك المساقط في حال سقوط النجوم عندها تذكر بالنظام البديع، المجمعول لسير الكواكب كل ليلة، لا يختل ولا يتخلف، بعظمة الكواكب، وبتداولها خلفه بعد أخرى، وذلك أمر عظيم يحق القسم به، الراجع إلى القسم بمبدعه.

ويطلق الوقوع على الحلول في المكان، يقال: وقعت الإبل، إذا بركت، ووقعت الغنم في مرايضها، ومنه جاء اسم الواقعة للحادثة كما تقدم، فالمواقع: محال وقوعها وخطوط سيرها فيكون قريبا من قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

والمواقع هي: أفلاك النجوم المضبوطة السير في أفق السماء، وكذلك بروجها ومنازلها.

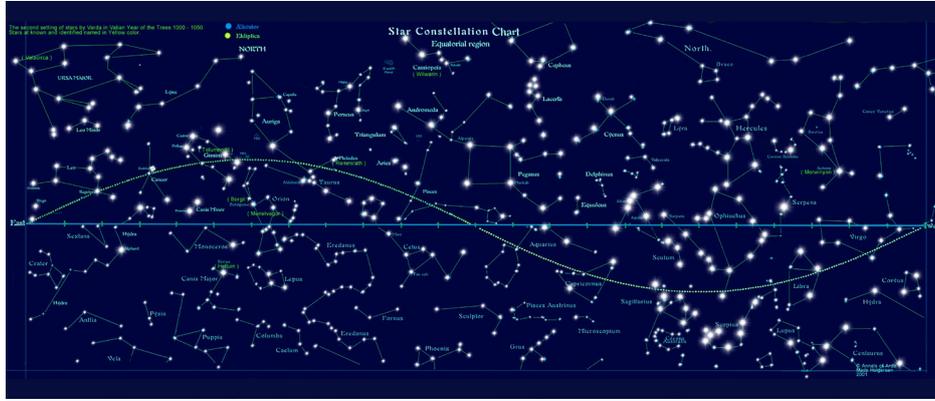
وذكر (مواقع النجوم) على كلا المعنيين تنويه بها وتعظيم لأمرها لدلالة أحوالها على دقائق حكمة الله تعالى، في نظام سيرها وبدائع قدرته على تسخيرها. وتذكر ويجوز أن يكون (مواقع) جمع موقع المصدر الميمي للوقوع^(١).

الحقيقة العلمية:

كان من السائد منذ القدم وحتى القرن السابع عشر أن كل النجوم ثوابت على بعدٍ أو أفقٍ قريبٍ واحدٍ، سمّوه أفق الثوابت، ومع تقدم الكشوفات الفلكية خاصة بعد اختراع المراصد الالكترونية، تبين أن للنجوم حركة دائبة وأماكن تجري فيها بانتظام، وهي محتفظة بمواقعها المحددة.

(١) (التحريير والتنوير (٧/ ٣٣٠-٣٣١).

ومواقع النجوم هي الأماكن التي تمر بها في جريها عبر السماء، وهي محتفظة بعلاقتها المحددة مع غيرها من الأجرام في المجرة الواحدة، وبسرعات جريها ودورانها، وبالأبعاد الفاصلة بينها، وبقوى الجاذبية الرابطة بينها، واللفظة (مواقع) جمع (موقع)، هذه المسافات بين النجوم مذهلة للغاية لضخامة أبعادها، وحركات النجوم عديدة وخاطفة.



خارطة للأبراج والمجموعات الرئيسية للنجوم

ومع ذلك فهي متحركة غير ثابتة، بحيث لا ترى إلا مواقعها التي كانت بها عند صدور ضوئها وهذه الأوصاف العظيمة أقسم بها الله، على إثبات أن القرآن وحي من الله.

وكل ذلك منوط بالجاذبية، وهي قوة لا تُرى، تحكّم الكتلة الهائلة للنجوم، والمسافات الشاسعة التي تفصل بينها، والحركات المتعددة التي تتحرك بها؛ من دورانٍ حول محاورها، وجري في مداراتها المتعددة، وغير ذلك من العوامل التي لم نعلم منها بعد إلا القليل.

وهذا القسّم القرآني بمواقع النجوم يشير إلى سبق القرآن بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون التي تقول: إنه نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل بروج نجوم السماء عن أرضنا، فإن الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبداً، ولكنه يرى مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها.

وعلى ذلك، فهذه المواقع كلها نسبية؛ وليست مطلقة، ليس هذا فقط؛ بل إن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت أن نجومًا قديمة قد خبت أو تلاشت منذ أزمنة بعيدة، والضوء الذي انبثق منها في عدد من المواقع التي مرت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السماء، في كل ليلة من ليالي الأرض إلى اليوم الراهن.

كما أنه نظرًا لانحناء الضوء في صفحة الكون - كما كشفت البحوث العلمية حديثًا حتى شاع وصف الكون بالانحناء - فإن النجوم تبدو لنا في مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية، ومن هنا جاء القسم القرآني العظيم بمواقع النجوم؛ وليس بالنجوم ذاتها.

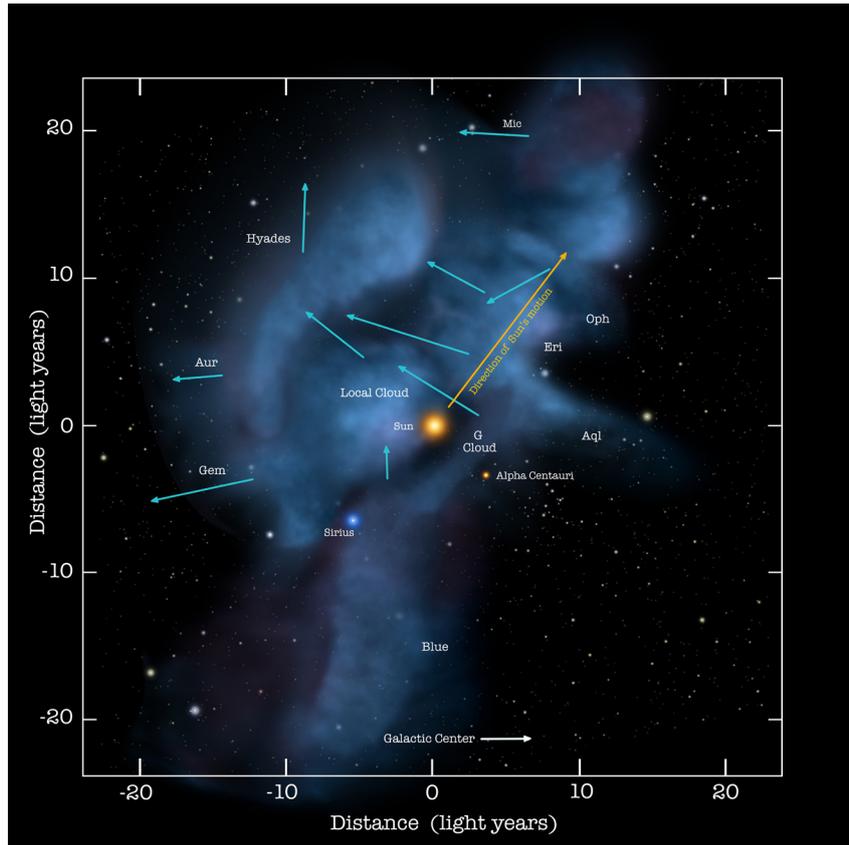
وأقرب كواكب المجموعة الشمسية إلى الشمس، وهو كوكب عطارد، يبعد عنها بحوالي ٥٨ مليون كيلو متر، وأبعدها عن الشمس، وهو كوكب بلوتو، يبعد عنها بحوالي ستة آلاف مليون كيلومتر.

وإذا خرجنا عن نطاق المجموعة الشمسية، فإن هذه المقاييس الأرضية لا تفي بقياس المسافات الشاسعة التي تفصل بقية النجوم عنا، فاتفق العلماء على وحدة قياس كونية، تعرف باسم السنة الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة من سنينا بسرعه المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، وهي مسافة مهولة تقدر بحوالي ٩,٥ مليون مليون كيلو متر.

وأقرب النجوم السماوية إلينا بعد الشمس هو نجم قنطورس القريب أو الأقرب القنطوري Alpha Centauri، وهو يبعد عنا حوالي ٤,٣ سنة ضوئية، بينما يبعد عنا النجم القطبي بحوالي ٤٠٠ سنة ضوئية، ومنكب الجوزاء ١٦٠٠ سنة ضوئية، وأبعد ما تم رصده بالتلسكوبات الراديوية يسمى أشباه النجوم Quasar على أبعاد تزيد عن ١٠ بليون سنة ضوئية.

وجه الإعجاز:

نظرًا لما رأينا من خلال البيان العلمي لحقيقة وجود مدارات للنجوم، فقد انهار الوهم السابق الذين كان مسيطرًا على الناس، والذي مفاده أن النجوم ثابتة في مكانها، حيث استقرت الحقيقة: بأنها متحركة، وبشكل منتظم، وضمن أفلاك محددة، وتنظمها علاقات منسقة، ويحكمها نظام دقيق، وهذا يتطابق مع دلالة النص، وبهذا التطابق بين هذه الحقيقة المستقرة مع دلالة النص نكون أمام مثال آخر في الإعجاز العلمي.



صورة توضح مواقع أقرب النجوم للمجموعة الشمسية واتجاه حركتها بالنسبة لاتجاه حركة الشمس

البرق والرعد

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٣ وَيُسَيِّحُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ لَهُ مِنْ خَيْفَتِهِه وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].



ومضات برق كما تظهر بواسطة القمر الصناعي

الدلالة النصية:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.
في كون رؤية البرق تبعث في الإنسان الخوف والطمع.
قيل: يخاف منه نزول الصَّواعق، ويطمع في نزول الغيث.
وقيل: يخاف المطر من يتضرر به كالمسافر، ومن في جرابه التمر والزبيب،
والحب، ويطمع فيه من له فيه نفع.
وقيل: يخاف منه في غير مكانه، وأمانه، يطمع فيه إذا كان في مكانه وأمانه،
ومن البلدان إذا مطروا، قحطوا، وإذا لم يمطروا خصبوا.
قال ابن الخطيب: «البرقُ جسمٌ مركَّبٌ من أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء
هوائية، ولا شك أنَّ الغالب عليه الأجزاء المائية، والماء جسمٌ باردٌ رطبٌ، والنَّارُ
جسمٌ حارٌ يابسٌ، فُظهورُ الضدِّ من الضدِّ التام على خلافِ العقل، فلا بد من صانع
مختار يظهر الضدَّ من الضدِّ».
ثم قال: «ويُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» بالمطر، ويقال: أنشأ الله السحابة،
فنشأت، أي: أبدأها فبدأت».
قال الزمخشري: «السَّحَابُ: اسم جنس الواحدة سحابة، والثقال: جمع ثقيلة؛
لأنَّك تقول: سحابةٌ ثقيلةٌ وسحابٌ ثِقَالٌ، كما تقول: امرأةٌ كريمةٌ، ونساءٌ كِرَامٌ».
وقال البغوي: «السَّحَابُ جمع، واحدها: سحابة، ويقال في الجمع: سَحُبٌ
وسَحَائِبٌ أيضًا، قال عليٌّ: السحاب غربال الماء».
فصل:

قال ابن الخطيب: «وهذا من دلائل القدرة والحكمة، وذلك لأنَّ هذه الأجزاء
المائية إمَّا أن يقال: حدثت في جو الهواء، أو تصاعدت من وجه الأرض».

فإن كان الأوّل: وجب أن يكون [حدوثها] بإحداث محدث حكيم قادر، وهو المطلوب.

وإن كان الثاني: هو أن يقال: تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض، فلمّا وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت، فثقلت، فرجعت إلى الأرض.

فنقول: هذا باطل؛ لأن الأمطار مختلفة، فتارة تكون القطرات كبيرة، وتارة تكون صغيرة، وتارة تكون متقاربة، وأخرى تكون متباعدة، وتارة تطول مدة نزول المطر، وتارة تقصر.

واختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأرض واحدة، وطبيعة الشمس واحدة، فلا بد أن يكون تخصيص الفاعل المختار.

وأيضاً فالتجربة دلّت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثراً عظيماً، كما في الاستسقاء ومشروعيته، فعلمنا أن المؤثر فيه [قدرة] الفاعل لا الطبيعة، والخاصية^(١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيحُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾.

تحقيق لما دل عليه الكلام السابق: من إعطائه الهدى للعجماوات في شؤونه، وحرمانه إياه فريقاً من العقلاء، فلو كان ذلك جارياً على حسب الاستحقاق، لكان هؤلاء أهدى من الطير في شأنهم.

وتقديم المعمولين للاختصاص، أي: أن التصرف في العوالم لله لا لغيره.

وفي هذا انتقال إلى دلالة أحوال الموجودات على تفرد الله تعالى بالخلق، ولذلك أعقب بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيحُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى

(١) اللباب في علوم الكتاب (١١ / ٢٧٣-٢٧٤).

الْوَدْقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿سورة النور: آية ٤٣﴾.

أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجماوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجمامد، بحيث تسير على السير الذي قدره الله لها سيرا لا يتغير، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى، والنظر في أدلتها، وفي ذلك دلالة على عظم القدرة، وسعة العلم، ووحدانية التصرف.

وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو، حتى آل إلى قوله فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء.

وقد حصل من هذا حسن التخلص للانتقال إلى الاستدلال على عظم القدرة، وسمو الحكمة، وسعة العلم الإلهي.

ويزجي: يسوق. يقال: أزجى الإبل إزجاء.

وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض، بتقدير الله تعالى، الشبيه بالسوق، حتى يصير سحابا كثيفا، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عنه بالتأليف بين أجزائه، بقوله تعالى: ثم يؤلف بينه إلخ.

والركام: مشتق من الركم. والركم: الجمع والضم. ووزن فُعال وفُعالَة يدل على معنى المفعول. فالركام بمعنى المركوم كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ في سورة الطور [٤٤].

فإذا تراكم السحاب بعضه على بعض، حدث فيه ما يسمى في علم حوادث الجو بالسيال الكهربائي وهو البرق.

فقال بعض المفسرين: هو الودق. وأكثر المفسرين على أن الودق هو المطر، وهو الذي اقتضرت عليه دواوين اللغة، والمطر يخرج من خلال السحاب.

والخلال: الفتوق، جمع خَلل كجبل وجبال. وتقدم خلال الديار في سورة الإسراء [٥].

ومعنى ينزل من السماء: يسقط من علو إلى سفلى، أي: ينزل من جو السماء إلى الأرض. والسماء: الجو الذي فوق جهة من الأرض.

وقوله: من جبال بدل من السماء بإعادة حرف الجر العامل في المبدل منه، وهو بدل بعض؛ لأن المراد بالجبال سحب أمثال الجبال.

وإطلاق الجبال في تشبيه الكثرة معروف. يقال: فلان جبل علم، وطود علم.

وفي حديث البخاري من طريق أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان لي مثل أحد ذهباً لسرني أن لا تمر علي ثلاث ليال، وعندى منه شيء إلا شيئاً أرصده لدين».

أي: ما كان يسرني، فالكلام بمعنى النفي، أي: لما سرني. أو لما كان سرني إلخ.

وقوله: فيصيب به من يشاء جعل نزول البرد إصابة؛ لأن الإصابة إذا أطلقت في كلامهم دلت على أنها حلول مكروه. ومن ذلك سميت المصيبة الحادثة المكروهة.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُ﴾ [التوبة: ٥٠]؛ فلأن قوله: حسنة

قرينة من إطلاق الإصابة على مطلق الحدوث إما مجازاً مرسلًا وإما مشتركا لفظياً أو مشتركا معنوياً، فإن (أصاب) مشتق من الصوب وهو النزول، ومنه صوب المطر، فجعل نزول البرد إصابة لأنه يفسد الزرع والثمرة، فضمير به للبرد.

وجملة: يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار وصف ل: سحاباً. وضمير برقه عائد إلى سحاباً.

وفائدة هذه الصفة: تنبيه العقول إلى التدبر في هذه التغيرات، إذ كان شعورُ الناس بحدوث البرق أوضح وأكثر من شعورهم بتكون السحاب وتراكمه ونزول المطر والبرد.

إذ قد يغفل الناس عن ذلك لكثرة حدوثه وتعودهم به بخلاف اشتداد البرق فإنه لا يخلو أحد من أن يكون قد عرض له مرات، فإن أصحاب الأبصار التي حركها خفق البرق يتذكرون تلك الحالة العجيبة الدالة على القدرة. ولهذه النكتة خصصت هذه الحالة من أحوال البرق بالذكر.

والسنا مقصورا: ضوء البرق وضوء النار. وأما السناء الممدود فهو الرفع^(١).

الحقيقة العلمية:

يَصْحُبُ البرق Lightning عادةً السحب الكثيفة المثقلة بالمطر، والممتدة عاليًا كالجبال، والتي تسمى بسحب الرُّكام Cumulu، وقد يَصْحُبُ ظواهر أخرى كالعواصف الرعدية Thunder Storm والعواصف الترابية Dust Storm والثورات البركانية، ويصاحبه دوي أو دمدمة وقعقة تسمى بالرعد Thunder.

والبرق عبارة عن تفريغ شحنة كهربية، قد تقع داخل السحب، أو بين سحابة وأخرى مشحونة بشحنة مخالفة، وقد تقع بين السحب المشحونة والهواء، وإذا بلغ البرق سطح الأرض فهو ينتخب الأجزاء المرتفعة لإفراغ شحنته، مدمرًا كل ما يصادفه من أحياء أو جماد؛ ولذا يسمى حينئذ صاعقة البرق Lightning bolt، أو ضربة الرعد Thunderbolt.

ولم تكن طبيعة البرق معروفة حتى منتصف القرن الثامن عشر، وفي عام ١٧٥٢ أثبت الأمريكي بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin أنه عبارة عن شحنة كهربية، حيث يمكنها توليد شرارة Spark إذا اقتربت من الأرض.

والقصة الشائعة: أنه استخدم طائرة ورقية، أثناء عاصفة رعدية، ربط فيها مفتاحا معدنيا متصلا بطرف قرب سطح الأرض، أثناء طيرانها عاليًا، فلاحظ تولد شرارة كهربية بين الطرف المعدني المتصل بالطائرة وبين الأرض، أعاد غيره

(١) التحرير والتنوير (١٨/٢٦٠-٢٦٢).

التجربة مرات عديدة، وكان بعضها مأسويًا.



تجربة فرانكلين

ففي عام ١٧٥٣ قام الفيزيائي السويدي رتشان Richman بتجربة مماثلة؛ ولكن الشحنة الكهربائية صعقته.

والوسط الذي تتجمع فيه الغيوم يمتلئ بالشحنات الكهربائية، واحتمال تلامس الشحنات المتعاكسة كبير، ولذا فإن البرق الداخلي يمثل ثلاثة أرباع ضربات البرق، وحينئذ يرى المراقب من سطح الأرض توهجًا خافتًا، تحجبه طبقات السحب الكثيفة.

وقد يحدث التفريغ الكهربائي أعلى الغيمة، فتتكشف السحب للناظر بهيئة ظلمات متباينة الإعتام تحجب الوميض.

ويأخذ البرق أشكالًا عديدة؛ بسبب انتشار الشرارة في كتل هوائية متباينة الضغط، ودرجة الرطوبة؛ فقد يظهر بهيئة خط متعرج، أو بهيئة خطوط شبه متوازية، وإذا وصلت ضربة البرق إلى سطح الأرض فيعتمد خطرهما على موضع تفريغ الشحنة.

والأجسام المعدنية التي توضع فوق الأبنية العالية، في المناطق التي تكثر فيها الصواعق، وتسمى بموانع الصواعق، وهي لا تمنعها في الحقيقة، وإنما تقوم بتسريب الشحنة الكهربائية خلال موصلات معدنية نحو الأرض، فتحرف مسارها وتدفع خطرها.

وتتكون العواصف الرعدية نتيجة سخونة سطح الأرض، فيتم تسخين الهواء الملامس له في الطبقة السفلى من الجو؛ فيرتفع عالياً بهيئة دوامات، حاملاً بخار الماء؛ ليتكاثف في المناطق العليا الباردة، ويكون تجمعات من السحب الركامية قد يصل ارتفاعها إلى ١٨ كم.

ويوافق هذا التفسير كثرة العواصف الرعدية في المناطق الاستوائية، وتتميز سحب الركام بنزول المطر الغزير، والبرد، وحدوث البرق والصواعق.

وقد يبلغ حجم حبة البرد حوالي ١٠ سم، ومع ازدياد حجمها تصبح أكثر تدميراً، وتسبب خسائر أكبر للمنشآت والمحاصيل؛ نتيجة زيادة شدة الارتطام، وتبلغ نادراً ١٥ سم في العرض؛ فتزداد قوة تدميرها، وتعرض حيوانات المزارع، وحتى البشر للخطر.

ولم تُكتمل تجريبياً بعد دراسة كافة العوامل المحتملة التأثير، في عملية تكون الشحنات الكهربائية في السحب، والتي تدفع لوقوع البرق عند بلوغ الحد الحرج، فقد تدخل عدة عوامل مثل درجة التشبع بالماء واحتكاك القطرات بالهواء وشدة الرياح؛ وربما يكون للرياح الشمسية المشحونة كهربياً تأثيراً ما، لكن تكون البرق يرجع أساساً إلى تكون البرد Hail في أعلى السحب.

وإن ومضات البرق، ودمدمة الرعد رسائل لا يغيب مغزاها عن الفطين، تشهد بتقدير مُسبق وتدبير واحد، لا تصنعه إلا علة وقدرة، إذا شاءت جعلت النعمة نقمة.

وهي ظاهرة مُحَيَّرَةٌ لم يعرف الإنسان تفسيرها إلا مؤخرًا في عصر العلم، وتعجب أن يكشف القرآن الكريم سترها من بين كل الكتب التي تُنسب سواء للوحي، فأنت موافقة للواقع، كدليل للنبوة الخاتمة.

فالبرق والرعد والصواعق ظواهر كونية، قد تناولها الكتاب الكريم؛ فورد البرق بشيرًا بالمطر، ونذيرًا يشهد للفتين بوحدانية الله تعالى وقدرته وتقديره، وبديع صنعه، وحكيم تدبيره.

وجاء نظم الكتاب شاهدًا بعلمه مُتَحَدِّيًا المُكَابِرِ بدلائل النبوة، يقول العلي القدير: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وجه الإعجاز:

لقد تفرد القرآن الكريم من بين سائر الكتب، التي أنزلها الله تعالى بذكر هذه الظواهر الكونية العظيمة، التي كان البشر على جهالة تامة بكنهها، ومعرفة حقيقتها، وكما أذهل القرآن الكريم أساطين اللغة وفرسان البيان بروائعه من الفصاحة والبيان، فإنه يذهل العلماء الكونيين في عصرنا؛ لما اشتمل عليه من دلالات على حقائق الكون، خاصة بعد وضوح التطابق بين تلك الدلالات وهذه الحقائق، وهو مثال باهر، يدل على أن المتحدث هو الله، والمبلغ رسول الله ﷺ، وهذا هو مضمون الإعجاز العلمي.





حدوث البرق

في صحيح مسلم: «ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين»^(١).

الدلالة النصية:

يخبرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث الشريف، عما يجري لدى رؤيتنا للبرق، حيث يصرح في وصفه له بأنه يرجع في زمن، يعادل زمن مروره؛ فيثبت بذلك طورين رئيسيين لومضة البرق هي: المرور وطور الرجوع.

الحقيقة العلمية:

يحدث البرق في أجزاء من الثانية؛ نتيجة مرور شحنة سالبة، تنطلق من قاعدة السحابة لتشحنها كل بشحنة سالبة، وبمرورها على الأجسام المرتفعة عن الأرض كالأشجار والأعمدة تولد شحنة كهربية موجبة.

ويرجع البرق بهيئة شحنة موجبة نحو قاعدة السحابة، خلال الممر السالب الشحنة، فتحدث شرارة قوية نتيجة لقاء الشحنتين، تصدر وميض البرق، وتسخن الهواء المحيط إلى حد الانفجار؛ فتحدث الدمدمة أو هزيم الرعد عقب مشاهدة الوميض؛ نتيجة سرعة الضوء الأكبر من سرعة الصوت، بحيث يمكن تقدير بعد السحاب.

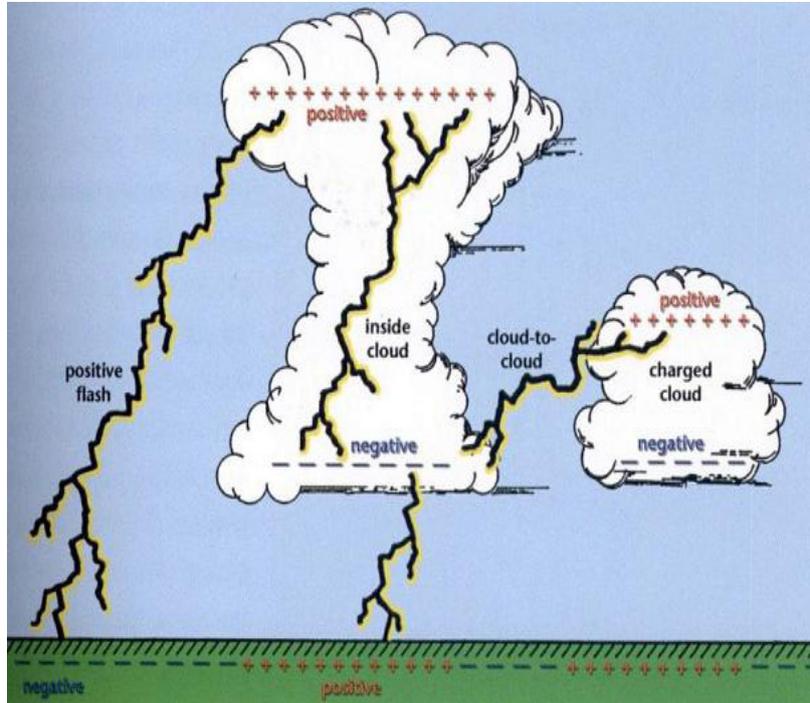
وما كان بوسع بشر زمن التنزيل أن يدرك قبل اكتشاف أدوات التصوير السريع أن البرق يمر من السحاب نحو الأرض، ثم يرجع مُصدراً الوميض إلا بوحى.

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٨٨)، ١ / ٤٤٩.

يتحرك البردُ دورياً داخل السحابة، نحو الأعلى، تحت تأثير تيارات الحمل من الهواء الصاعد، ونحو الأسفل، بزيادة وزنه نتيجة لاكتساب جباته مزيداً من طبقات الجليد في المنطقة العليا، حيث تتدنى درجة الحرارة.

وتكتسب حبات البرد خلال حركته لأعلى إلكترونات سالبة، ويشحن أعلى السحابة بشحنة موجبة، وخلال حركته نحو الأسفل يشحن أسفل السحابة بشحنة سالبة.

وعندما تجتمع الظروف المناسبة، وتنضج السحابة، تسعى الشحنة الكهربائية السالبة في قاعدة السحابة؛ لشحن الجو الرطب دونها بشحنة سالبة، وتتوجه نحو الأرض، يقودها ما يسمى الشعاع القائد Leader لضربة البرق، ويتنقل في خطوات متدرجة كل منها قد يبلغ عشرات الأمتار، وقد تبلغ سرعة الشعاع القائد ٦٠ ألف متر/ثانية.



وعلى بعد عشرات الأمتار من سطح الأرض تقابله الشحنة الموجبة، صاعدةً نحوه؛ نتيجة التجاذب بين الشحنتين، وتمتد نحو السحابة خلال نفس المسار في الهواء الذي مهده الشعاع القائد بتأيين الهواء بالشحنة السالبة؛ ولذا تسمى بالضربة المرتجعة Return Stroke، وهي المسئول الأساس (حوالي ٩٩٪) عن تفريغ الشحنة الكهربائية، وتوليد الوميض الحاد أو لمح البرق Lightning flath.

ونتيجة للشحنة الكهربائية الهائلة التي تشق طريقها في الهواء، يسخن فجأة في أجزاء قليلة من الثانية؛ لتبلغ درجة حرارته حوالي ٢٠ ألف إلى ٣٠ ألف درجة مئوية؛ وهي درجة حرارة هائلة، تزيد عن حوالي ثلاث إلى خمس مرات قدر حرارة سطح الشمس (حوالي ٦ آلاف درجة مئوية).

والتسخين الفجائي للهواء لدرجة الحرارة الهائلة تلك يولد موجة صدمية فوق صوتية Supersonic Thock wave، تُسمع كأصوات عاتية مرعبة متتابعة بهيئة هزيم أو دمدمة أو قعقعة، تسمى بالرعد Thunder؛ نتيجة دوي الانفجار الهائل الذي تصاحبه موجة تمدد الهواء فجأة، والموجة الارتدادية، وترددهما مع صدى الصوت المنعكس على معالم سطح الأرض كالجبال والسحب في المنطقة من الجو وما يجاورها.

ولأن لمح البرق ينتقل في الجو بسرعة الضوء (حوالي ٣٠٠ ألف كم/ثانية) بينما تنتقل موجات الرعد بسرعة الصوت (حوالي ٣٤٣ متر/ثانية عند مستوى سطح البحر) يُمكن تقدير بُعد المصدر بمعرفة الفارق زمنيا بين الحدثين.

وقد يحدث البرق ولا يسمع الرعد لبعد المصدر، وقد يُسمع الرعد ولا يشاهد البرق لوقوعه داخل غيمة السحب.

وليست ضربات البرق خطرًا يمكن تجاهله، حيث يحدث البرق حوالي ١٠٠ مرة كل ثانية، وفي اللحظة الواحدة تحدث حوالي ٢٠٠٠ عاصفة رعدية، وفي العام حوالي ٦ مليون عاصفة برقية Lightning Storm.

ويقوم البرق بتفريغ تيار يبلغ أكثر من مائة مليون فولت على الأقل في كل مرة، وقد يصل إلى ألف مليون فولت، فأنت إذن أمام قوة رهيبية، تدخل في صلب العمليات المقدرّة لتوزيع المطر على سطح الكوكب، وفي ذات الوقت قد تكون تلك القوة الرهيبية مصدرًا لدمار لا يدفعه احتياط.

وفي أقل من نصف ثانية تحدث ٣-٤ ضربات برق نراها كلها في ومضة برق واحدة، ولا ندرك مرور ورجوع البرق، والحقيقة أن الشعاع الكهربائي يرجع فعلا باتجاه الغيمة، لكن سرعة العملية تبدي لنا البرق وكأنه يتجه من الغيمة إلى الأرض فحسب.

وجه الإعجاز:

لقد جاء وصف النبي ﷺ للبرق مثبتًا طورَي المرور والرجوع، في زمن ما كان البشر يدرون شيئًا من ذلك، وبعد تقدم علوم الفلك والفيزياء، وما اخترع من وسائل الرصد والقياس، عرف العلماء على وجه اليقين هذه الحقيقة، وأن ذلك يحصل في زمن قياسي.

حيث يتم في أقل من نصف ثانية، وتحدث من ٣-٤ ضربات برق نراها كلها في ومضة برق واحدة، فتطابقت الحقيقة العلمية مع ما أخبر به رسول الله ﷺ، ودل ذلك على أن ما حدث به رسول الله ﷺ بهذا الخصوص، قبل أربعة عشر قرنًا، هو من قبيل الإعجاز العلمي.



كسوف الشمس

قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يخوف الله بهما عباده، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس، فإذا رأيت منها شيئاً فصلوا وادعوا الله حتى ينكشف ما بكم» رواه مسلم^(١).



الكسوف الشامل للشمس كما يظهر من الفضاء

لقد شهد العالم في نهاية هذا القرن كسوفاً كلياً للشمس وقد رافقه الكثير من ردود الفعل على جميع المستويات، والتي تخللها الكثير من الحذر والخوف والدهشة والاستغراب؛ لذا فقد خَلَّتْ بعضُ الشوارع من الناس، واعتصم البعض في البيوت، ومُنِعَ الأطفال من النزول إلى الشوارع، هذا ما حدث في بعض

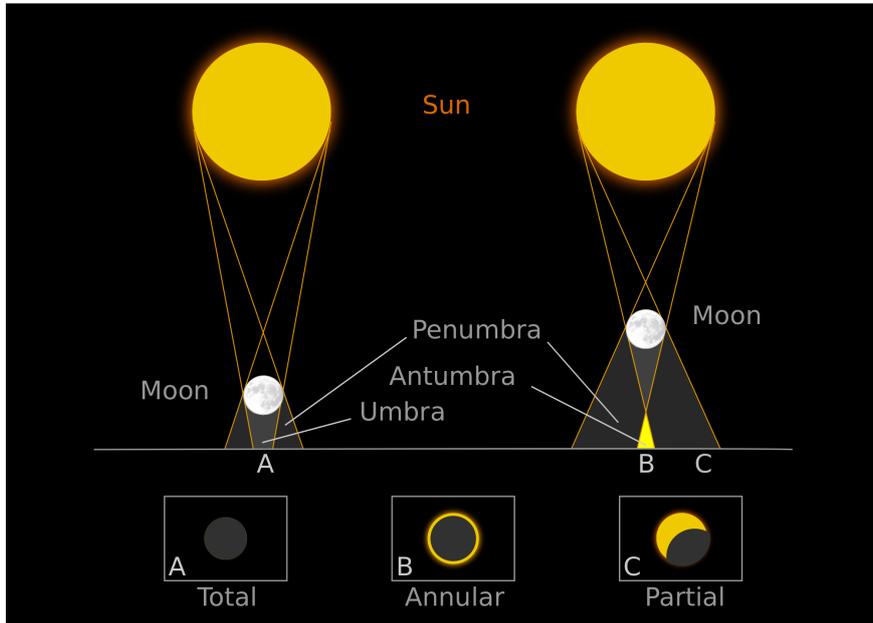
(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٩١١).

المجتمعات، بينما البعض الآخر لم يكثر لهذا واستمرت حياتهم العادية كما هي.

وماذا يعني الكسوف؟ هو حجب القمر لضوء الشمس عنا، فإذا كان كلياً فإن الاحتجاب يكون تاماً، إذ يتحول أثناءه النهار إلى ليل، خلال دقائق معدودة، ويحدث هذا في شريط محدود على سطح الكرة الأرضية.

أما البلدان التي تقع شمال وجنوب هذا الشريط، فإنها تشاهد الكسوف جزئياً ومقدار الجزء المكسوف من الشمس، يعتمد على البعد عن هذا الشريط.

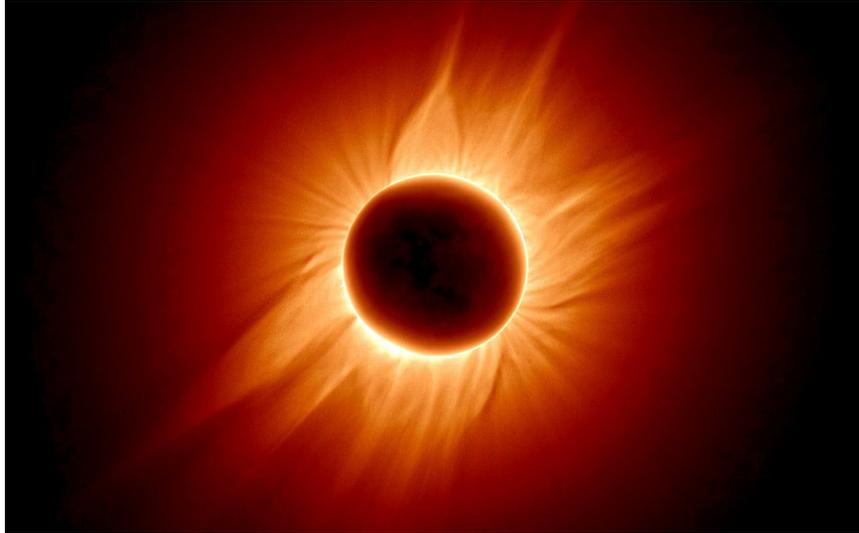
ولا شك أن الحدث نفسه يدل على مدى ضآلة القدرة البشرية أمام ما يحدث بين الأجرام السماوية، وتختلف الانطباعات خلال هذا الحدث من شخص إلى آخر، ومن عصر إلى آخر، حسب المستوى الثقافي والديني.



مراحل ظاهرة كسوف الشمس

وقد ورد في الحديث الشريف بأن الكسوف والخسوف من الآيات التي يخوف الله بهما عباده، وكان لفظ الحديث يدل على الاستمرارية لكل العصور. ففيما مضى كان الناس يخافون الكسوف لحدوثه فجأة، وذلك قبل التوصل عن طريق الحسابات الحديثة إلى إمكانية تحديد وقت حدوثه بدقة متناهية. أما اليوم، وإن قل الخوف نتيجة توفر إمكانية تعيين وقت، ومكان الكسوف والخسوف، إلا أن الخوف منهما بقي أثره في أعماق النفس البشرية. لذا نحاول معرفة بعض الظواهر الطبيعية الهائلة التي لا يمكن أن تُعرف إلا عند حدوث كسوف كليّ للشمس.

سننطلق أولاً مع فرع من فروع الفيزياء الشمسية، وهو ما يتعلق بالطبقة الخارجية من الأغلفة المحيطة بالشمس، والتي تدعى بالهالة الشمسية Corona، والتميزة بالتدني الشديد في كثافتها الذي قد تعجز التقنية الحديثة عن عمل ما يشابه هذا التفريغ في المعامل الأرضية، لكن ما علاقة طبقة الكورونا بالكسوف؟



الهالة الشمسية

نظرًا لكثافة الكرونا المتدنية؛ فإن شدة إضاءتها بالنسبة لقرص الشمس ذي اللّمعان الشديد ضعيفة جدًا؛ لذا فإنه لا يمكن رؤية هذه الطبقة المحيطة بقرص الشمس إلا عندما يغطي قرص الشمس المتوهج، وهذا ما يكون أثناء حدوث الكسوف الكلي للشمس؛ مما يتيح رؤية طبقة الكرونا التي تحيط بالشمس من جميع الجهات.

وبعد التمكن من مشاهدتها، ورصد أشعة الكرونا، أثبتت الدراسات الطيفية الارتفاع الكبير لدرجة حرارة الهالة (الكرونا)، والذي يصل إلى أكثر من مليون درجة، مع العلم بأن سطح الشمس لا يتجاوز ستة آلاف درجة تقريبًا. ولا يزال هذا الأمر لغزًا لدى العلماء؛ لأن المنطقي: هو أن تنخفض الحرارة بالابتعاد عن سطح الشمس.

وقد أطلق القمر الصناعي سوهو عام ١٩٩٥م خصيصًا لدراسة طبقة الكرونا، ومعرفة العوامل التي تسببت في ارتفاع درجة حرارتها.

والمنطق: لا بد أن تنخفض بالابتعاد عن سطح الشمس، وهنا يكمن التساؤل الذي يحظى باهتمام علماء الفيزياء الشمسية، الأمر الذي لازل لغزًا بالنسبة لهم. وفي محاولة للبحث والتوصل لمعرفة أسباب ارتفاع درجة الحرارة؛ فقد كان من متطلبات القمر الصناعي سوهو الذي أطلق سنة ١٩٩٥، والذي يدور حول الشمس - دراسة طبقة الكرونا، ومعرفة العوامل التي تسببت في ارتفاع درجة الحرارة.

والشاهد أنه لولا حدوث الكسوف الكلي؛ لما أمكن التوصل لرؤية ومعرفة الكرونا، والتي تعتبر آية في ضآلة كثافتها، والارتفاع الشديد في حرارتها.

أما الظاهرة الأخرى التي تتعلق بالكسوف الكلي، فهي البدايات الرياضية للنظرية النسبية، التي وضعها أينشتاين في أوائل هذا القرن الميلادي.

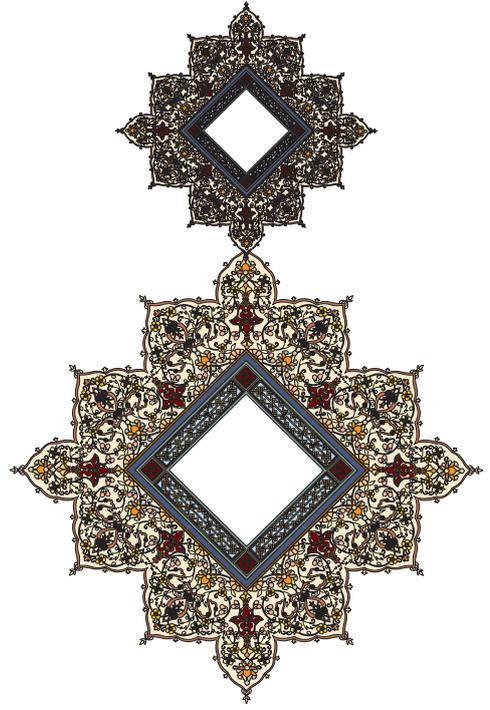
وهي عبارة عن معادلات رياضية بحتة، والتي يصعب تطبيقها على الأرض؛ لحاجتها إلى جسم، ذي كتلة عظيمة، وجاذبية كبيرة جدا، وتتعلق هذه المعادلات بإمكانية تأثر الضوء بالجاذبية الناتجة عن كتلة كبيرة جدا أثناء مروره بالقرب منها. وتعتبر كتلة الشمس أكبر كتلة في المجموعة الشمسية؛ لذا لم يكن أمام العلماء للتحقق من صحة هذه المعادلات إلا استخدام ظاهرة الكسوف الكلي للشمس، واستنباط تأثير كتلة الشمس القوية، وجاذبيتها العظيمة على مواقع النجوم، التي تظهر بالقرب من الشمس، أثناء الكسوف الكلي، وتحول النهار إلى ليل. وبالفعل تم تصوير هذه النجوم نهارا، أثناء الكسوف الكلي الذي حدث سنة ١٩١٩ وتمت مقارنتها بصور نفس المجموعة النجمية، وذلك أثناء ظهورها ليلا أي: قبل حدوث الكسوف بعدة أشهر.

وقد أدت المقارنة إلى صحة العلاقات الرياضية التي استنبطها أينشتاين، وكان هذا الحدث السبب في شهرة أينشتاين.

ولم يقف الأمر عند دراسة تأثر الضوء بجاذبية النجوم، بل تعداه إلى استغلال ظاهرة الكسوف الكلي في دراسة الآفاق السحيقة للكون، والمساعدة في البحث عن المادة غير المرئية، ومنها الثقوب السوداء ويعتبر هذا من المجالات البحثية الحديثة في مجال العلوم الفلكية الحديثة اليوم، والتي ترينا بعض آيات المولى - عز وجل - في الكون.

للتعرف على المزيد من دلائل قدرته، ولعل دراسة ظاهرتي الكسوف والخسوف تكشفان في المستقبل الكثير من الأسرار التي لا تزال البشرية عاجزة عن معرفتها لأجيال قادمة، والله أعلم.





الخاتمة

في هذه الخاتمة ...

سوف أذكر أهم نتائج هذا البحث وتوصياته .

أولاً نتائج البحث:

وتتلخص أهم نتائج البحث في النقاط التالية :

❁ لقد أبرز البحث ما تميزت به حياة الرسول ﷺ من شمول؛ فقد شملت سيرته العطرة شتى جوانب حياته الشخصية، وعلاقاته الأسرية والاجتماعية، وتعاملاته الاقتصادية، وعلاقاته السياسية .

فقد عاش العلاقات الأسرية: بشتى أشكالها، وتحمل تبعاتها زوجها وأبا وصهرا وقريبا .

وكذلك الحال في المجال الاجتماعي : كان جارا ورفيقا وصاحباً .

وفي الجانب الاقتصادي : اشترى وساوم ورهن .

وفي الجانب السياسي: كان قائداً لأول دولة إسلامية، أدارت شؤون رعيته بمقتضى العدل والمساواة، وحفظت مصالحهم، ووفرت لمواطنيها الأمن والأمان، وحمّتهم من الأعداء، ونظمت علاقاتها الداخلية والخارجية.

❁ كان طابع التوازن والاعتدال علامةً واضحةً في حياته ﷺ وتصرفاته كلها، وفي شتى شؤونها؛ فقد أعطى كلّ شيء حقه ومستحقّه، دون أن يطغى جانب على جانب.

فمثلاً لم تصرفه عبادته لربه وتعلقه به، عن الوفاء بالتكاليف الأسرية والحقوق الاجتماعية، ولم يمنعه ثقلُ الدعوة، وأعباء البلاغ، وأداء الرسالة الذي تنوء بحملها الجبال الراسيات، من اتخاذ الأسباب المادية، التي تتطلبها أمور المعاش وما يتعلق بها.

كما لم تثنه قيادة الرجال في مواطن الجهاد - عن ملاطفة الزوجات والأهل والأصحاب، والكبار والصغار ومؤانستهم، وإدخال السرور عليهم.

❁ كانت معاناته ﷺ كبشر تزيد عن المعتاد لدى البشر؛ فقد عانى من المرض ضِعْفَ ما يعانیه غيره، «إِنِّي أُوعِكَ كَمَا يُوعِكَ رَجُلَانِ مِنْكُمْ». متفق عليه. وعانى من الجوع حتى ربط الحجر على بطنه من شدة الجوع.

ولقد اهتم رسول الله ﷺ أشد الاهتمام بأمور الرسالة، وما تستتبعه من دعوة الناس وتبليغهم آيات ربهم، وبلغ حرصه على هداية الناس حدا عاتبه معه ربه قائلاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]

لم يتوان رسول الله ﷺ في استفراغ وسعه في اتخاذ الأسباب البشرية؛ بل بذل كل جهده وطاقته في مواجهة ما يعترض طريقه من معضلات ومشكلات، ولم يتواكل؛ بل عزم وتوكل على الله حق توكله، وكان في ذلك كله قدوة حسنة ﷺ لمن بعده من خلفائه الراشدين وأصحابه، وسائر المسلمين أجمعين.

❁ لقد واجه رسول الله ﷺ العنت والشدة التي لاقاها من قريش عند معارضتها الدعوة بالصبر الجميل والصفح الجميل، ولم يزد اضطراره أتباعه من المشركين إلا ثباتاً على الحق، وكان يوصيهم بالصبر ويواسيهم بأخبار من قبلهم.

فعن خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري.

❁ لقد كانت الهجرة المباركة إلى المدينة فتحاً عظيماً للمستضعفين من المسلمين، ففيها وجدوا الملاذ الآمن عند إخوانهم الأنصار، وفضلاً عن ذلك آوؤهم ونصروهم وآثروهم بالغالي والنفيس.

❁ لقد أدى تأسيس أول دولة إسلامية بالمدينة إلى نشوء علاقات بينية بين مكونات المجتمع المدني، وعقد معاهدات نظمت العلاقات داخل المدينة فيما بين المسلمين ومع غيرهم من أهل الكتاب والوثنيين، وخارجها، كالقبايل التي تقطن قرب المدينة أو على أطرافها.

❁ لقد أعقب صلح الحديبية دخول الناس في دين الله أفواجا، تزايد معه المسلمون، حتى اجتمعوا بأعداد غفيرة في حجة الوداع، على صعيد واحد، في عرفات.

❁ لقد كانت وفاة رسول الله ﷺ حدثاً جليلاً ومصاباً جسيماً، أحزن المسلمين حزناً شديداً، وأصابهم بالذهول، ولم يستفيقوا من هول الصدمة إلا بعد أن ذكرهم أبو بكر الصديق قائلاً: مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

❁ لقد كان في اختيار أبي بكر الصديق خليفةً لرسول ﷺ جَمْعٌ لكلمة المسلمين، ورفْعٌ لمعونياتهم، بعد الذهول الذي أصابهم؛ بفقد رسول الله ﷺ، ولم يلبث أبوبكر حتى اقتفى بهم السيرة، وواصل المسيرة، وثبت على ذلك حتى أتاه اليقين، وانتقل إلى رحمة الله راضياً مرضياً.

❁ يستلزم من كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. أن الناس جميعاً منذ البعثة إلى يوم القيامة هم من أمته على اختلاف مللهم ونحلهم، أي: أمة الدعوة، فمن رضي بدعوته واتبعها فإنه يرتقي ليكون في عداد أمة الاستجابة التي هي خير أمة أخرجت للناس، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومن أعرض عن الإسلام فيبقى في عداد أمة الدعوة.

❁ يتعين على المسلمين اتخاذ سنّته وسيرته مصدرَ الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة، وأن يتخذوا منها الأنموذج الأمثل لتطبيق الدين الإسلامي كله: عقيدة وشريعة وأخلاقاً عملاً بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

❁ وهو الدين الذي ارتضاه الله للناس ولن يقبل منهم سواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

❁ تعتبر سيرة الرسول ﷺ مرجعاً تربوياً على المرئيين أن يستلهموا منها التوجيهات والإرشادات التربوية القيّمة، التي تنشئ الأجيال على الإيمان، ويأخذوا من دررها ما تزكو به النفوس، وتتهذب به الطباع، وما يغرس في الأجيال مكارم الأخلاق وجميل الخصال.

وفي السيرة يوجد أيضا من المواقف النبوية ما يُعين على بناء الشخصية المسلمة المتوازنة التي تتميز بالوسطية والاعتدال في سلوكها وتصرفاتها، وفي تقويمها للأشخاص والأعمال، وفي نظرتها وتقديرها للأمور والأوضاع والأحوال.

❁ في سيرة الحبيب ﷺ ثقافة متكاملة للداعية، ومن ذلك الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر على المدعويين، والترفق بهم وتحمل آذاهم، والتدرج في دعوة الناس وما يقتضيه ذلك من البدء بالأهم فالهمم؛ والدعوة إلى الأصول قبل الدعوة للفروع، ومخاطبة الناس بما يفهمون، وتربية الناس على صغار العلم قبل كباره، وغير ذلك مما يستخلص من دروس وعبر من سيرته الدعوية ﷺ.

❁ الاستفادة من منهج الإصلاح النبوي، والذي أساسه تعريف الناس بما ينفعهم وما يضرهم، وما يصلحهم وما يفسدهم، ثم دعوتهم إلى فعل ما ينفعهم وترك ما يضرهم، وإرشادهم إلى استجلاب ما يصلحهم واستدفاع ما يفسدهم.

وتنبههم عند تراحم - المنافع والمضار، والمصالح والمفاسد، وتداخلها وتعارضها - إلى تغليب جانب المنافع على المضار، وترجيح المصالح على المفاسد، والميل نحو كل ما من شأنه تكثير المصالح، وتقليل المفاسد ما أمكن.

❁ التحذير من المنهج الاستشراقي لدراسة السيرة النبوية، ونتائج السيئة، على الذين يتلقون السيرة عن المستشرقين؛ فهو يؤدي إلى نتائج عكسية لدى القراء.

أقلها: أن يتوقف الأمر بهم عند حدّ الانبهار بشخصية الرسول ﷺ، وتقدير ما حققه من نجاحات، دون محاولة الإيمان به، ومتابعته على أقصى تقدير، - هذا بالنسبة لغير المسلمين -.

أما من تلقى سيرته ﷺ عن كتابات أمثال هؤلاء المستشرقين من المسلمين ، فإنهم في الغالب لا يجدون ما يحمّسهم إلى محاولة سلوك مسلك الرسول ﷺ إن لم يفقدهم - دسّ المستشرقين وتزييفهم للحقائق - الدافع إلى الاقتداء به ﷺ، والاهتداء بهديه ، وهو أمر معلوم ومشاهد.

❁ السعي إلى ترسيخ محبة رسول الله ﷺ في نفس القارئ الكريم من خلال ما يطلع عليه من سيرة المصطفى ﷺ، وما يستتبع ذلك من توقير له ﷺ ومهابة وإجلال وتقدير، وتأدب.

وما يستلزم ذلك من مداومة على الصلاة عليه يقول الله سبحانه وتعالى :
﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقِرُّوهُ وَكُسِّبُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٨-٩].

ويقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

❁ بيان الارتباط بين الإيمان ومحبة رسول الله ﷺ واتباعه ، وذلك ؛ لأن الإيمان ووجود حلاوته منوطان بمحبة رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » متفق عليه.

وقال ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» متفق عليه.

وما يتوجب تبعاً لذلك على كل مسلم من التحلي بحسن الأدب مع رسول الله ﷺ ، وأن يحذر من مخالفة أمره ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

وقال عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١ - ٢].

❁ لن يجد القارئ الكريم قدوةً أفضل من صحابة رسول الله ﷺ، عندما يتعلق الأمر بمحبة رسول الله ﷺ، فقد كانوا مضرب الأمثال في ذلك، وفي سيرهم صور مشرقة، تعبر عن عظيم حبهم لرسول الله ﷺ، ومهابته، وتوقيره، وتقديره، والحياء منه وطاعته، والصلاة عليه.

وللتنبية على هذا الأمر والاعتناء به أوردت في الكتاب من الخصائص النبوية حوالي مائة خصيصة، تبث كلها على محبته ﷺ، وتوقيره واحترامه، ولمن يريد الاستقصاء فليرجع إلى كتب الخصائص والفضائل والشمائل.

كتاب الشمائل المحمدية للترمذي، والشفاء للقاضي عياض، والخصائص الكبرى للسيوطي، والخصائص لابن طولون، وغيرها من المصادر المختصة.

❁ لقد بات واضحاً ما يُلقيه أعداء الإسلام عبر وسائل الإعلام من شبهات بين يدي الشباب المسلم؛ لتشكيكهم في حقائق الدين الإسلامي وبقينياته، مما يجدر معه بالمسلمين في هذا العصر التسلح بالثقافة الإسلامية، وبخاصة ما يجعلهم على دراية بالبراهين والاستدلالات، والحجج الدالة على صدق الرسالة؛ وعلى رأسها الأدلة الدالة على الخالق سبحانه وتعالى. وفي الكتاب تعريف ببعض هذه البراهين.

❁ يعتبر الإعجاز العلمي نوعاً من أنواع الإعجاز القرآني؛ ومداره حول إخبار القرآن الكريم ببعض الحقائق العلمية لم تكن معروفة زمن تنزل الوحي، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: سنظهر لهم

دالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله جل جلاله، على رسوله ﷺ، بدلائل خارجية (في الآفاق)... ودلائل في أنفسهم.

✿ إن الموضوعات العلمية المعاصرة، التي تضمن الكتاب ما يقرب مائة موضوع متنوع منها، فيها من الشواهد والدلائل والإعجاز الباهر ما يؤكد على صدق الرسالة، وما ينطق بأن الإسلام هو دين الله الحق، وأن القرآن هو كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من رب العالمين، لهداية الناس أجمعين إلى يوم الدين.

ثانياً التوصيات:

وأجملها فيما يلي:

✿ أَدْعُو المَختصين بوضع المناهج الدراسية إلى الاجتهاد في عرض السيرة النبوية على شكل مواد دراسية، تركز على التطبيق العملي لأُمُور الدين، بحيث يجد الطالب فيها المنهج الأمثل لتطبيق الإسلام، ويأخذ منها الناشئة الكيفية الصحيحة لممارسة الإسلام في واقع الحياة، ولا يخفى ما عانته الأجيال من غياب هذا المنهج الأمثل .

✿ أَطالِب أجهزَة الإعلام بإنتاج مواد إعلامية، وأفلام تجسد - بما تملكه من مؤثرات فنية - حقائق السيرة النبوية، ومضامينها الجميلة، وقيمها النبيلة؛ ليسهل على الناس فهمها واستيعابها.

✿ يتعين على الباحثين في موضوعات السيرة النبوية أن لا يقفوا عند حد سرد أحداث السيرة ووقائعها؛ بل عليهم أن يولوا الاهتمام باستخلاص الدروس والعبر من أحداث السيرة، وأن يبرزوا جوانب الاقتداء والتأسي بالمصطفى ﷺ باعتبارها مطلباً شرعياً، ولكونها أيضاً تسهم في بناء الشخصية الإسلامية المتوازنة.

❁ إن وقاية المجتمع من الغلو والتطرف ، والإفراط والتفريط ، وحفظ الشباب من الانحراف والجنوح ، والحذر من وقوع الشباب ضحية للأفكار الضالة والأوهام الباطلة ، وكل ما يؤدي إلى اهتزاز الشخصية أو عدم توازنها ، يوجد له في السيرة النبوية الجواب الكافي والدواء الشافي .

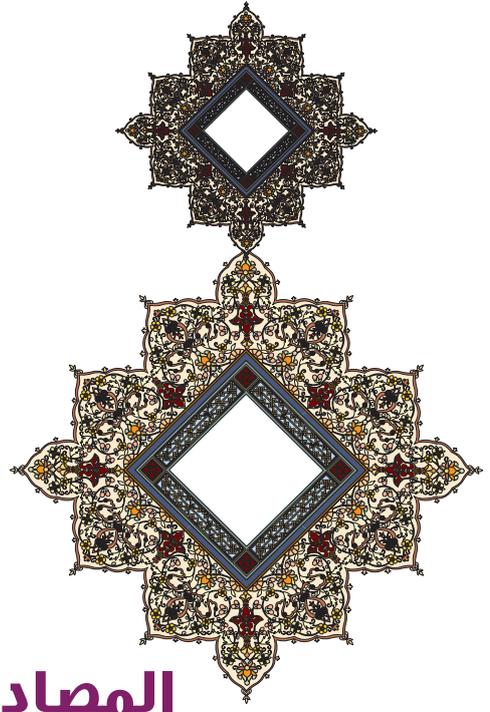
❁ وأؤكد جازماً لكل من يعينهم ما ذكرت بأنهم سوف يجدون في سيرة المصطفى ﷺ وشخصيته ما يحصن المجتمع من كل الآفات التي أشرت إليها ، وخاصة ما يتعلق بمشكلات تدين الشباب ، ولا يتطلب الأمر سوى صياغة منهج عملي - على ضوء السيرة النبوية - يترى عليه الناس صغاراً وكباراً .





بسم الله الرحمن الرحيم

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم



المصادر والمراجع العربية (أبجديًا)

١. أبحاث في العدوى والطب الوقائي، من المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
٢. الأبطال، توماس كارليل.
٣. الأحكام السلطانية، أبو يعلى.
٤. أحكام القرآن، أبو بكر أحمد الجصاص.
٥. أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي.
٦. إحياء علوم الدين، ط ١، دار القلم والدار الشامية، ١٩٩٣.
٧. الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني.
٨. أدب الطبيب، ط ١، مركز الملك فيصل للبحوث، ١٩٩٢م، إسحاق بن علي الرهاوي.
٩. الأدب المفرد، الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري.
١٠. أذى المحيض - مجلة الإعجاز العلمي العدد الأول - محمد عبداللطيف.
١١. الإرهاب والإرهاب المضاد - سهيل الفتلاوي.
١٢. أسد الغابة، ابن الأثير.

١٣. أسرار الكون في القرآن، دار الحرف العربي - مصر - داود سلمان السعدي.
١٤. الإسلام والعرب والمستقبل، أرنولد توينبي.
١٥. الأشباه والنظائر، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م، جلال الدين السيوطي.
١٦. الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ ابن حجر العسقلاني.
١٧. أصل الأنواع، تشارلز داروين.
١٨. أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان.
١٩. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، ١٩٩٥م، بيروت، محمد الأمين الشنقيطي.
٢٠. أطوار الجنين ونفخ الروح، مجلة الإعجاز العلمي العدد الثامن، عبدالجواد الصاوي.
٢١. الإعجاز الطبي في القرآن الكريم تأملات طبية حول ١٠ آيات قرآنية، مطبعة ابن سينا، ١٩٩٢ م، عبد الحميد عبدالعزيز.
٢٢. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبدالرحيم مارديني.
٢٣. الإعجاز العلمي في قيام الليل، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بالكويت (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، د. عطية البقري.
٢٤. الإعجاز العلمي للقرآن والسنة في دلالة: غيض الأرحام-مجلة الإعجاز العلمي- العدد الخامس، د. عبد الجواد محمد الصاوي.
٢٥. إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة - مجلة الإعجاز العلمي العدد الثالث، والوقاية من انتشار الأمراض والأوبئة - مجلة الإعجاز العلمي العدد الرابع، والأمراض الجنسية وباء الإباحية - مجلة الإعجاز العلمي العدد الثاني - عبدالجواد الصاوي.
٢٦. إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، دار الفكر، بيروت، ابن قيم الجوزية.
٢٧. الأم، الإمام محمد بن إدريس الشافعي.
٢٨. إمتاع الأسماع، المقرئزي.

٢٩. الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام.
٣٠. إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار.
٣١. إنها النبوة، د. صالح رضا.
٣٢. أهمية الندى (الطل) كإمدادات مائية للزراعة لإظهار الإعجاز العلمي في القرآن - بحث مقدم للمؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتركيا (١٤٣٢هـ-٢٠١١م)، د. ملوك محمد الخزان.
٣٣. إثبات الحق على الخلق، ط ٢، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ابن الوزير.
٣٤. إيجاد العلاقة بين المطر والسيح السطحي باستخدام نظرية وحدة الهيدروغراف، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بالكويت (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، د. أحمد عامر الدليمي.
٣٥. بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ط ٤، دار المعرفة، ١٩٨٧م.
٣٦. البداية والنهاية، ابن كثير.
٣٧. بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبدالبر، فقيه محروس الخولي.
٣٨. تاج العروس، الزبيدي.
٣٩. تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن.
٤٠. تاريخ الأمم والملوك، الطبري.
٤١. تاريخ الخلفاء، السيوطي.
٤٢. تاريخ المدينة المنورة، عمر بن شبة.
٤٣. تاريخ غزوات العرب، جوزيف رينو.
٤٤. تجارة المدينة، بيضون.
٤٥. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور.
٤٦. تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي - صفى الرحمن المباركفوري
٤٧. تخريج الدلالات السمعية، الخزاعي.
٤٨. التراتيب الإدارية في نظام الحكومة النبوية، الكتاني.

٤٩. التسهيل لعلوم التنزيل ، ابن جزي.
٥٠. تفسير السمعاني ، أبو المظفر السمعاني.
٥١. تفسير القاسمي ، جمال الدين القاسمي.
٥٢. تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت ، ابن كثير .
٥٣. التفسير الكبير ، دار الباز ، مكة المكرمة ، الرازي.
٥٤. تقرير الحالة الاجتماعية الصادر عن الأمم المتحدة.
٥٥. التنبيه والإشراف ، المسعودي.
٥٦. تهذيب الأخلاق ، عبدالحى الندوي.
٥٧. تهذيب الأسماء واللغات ، النووي.
٥٨. تهذيب سيرة ابن هشام - ط ٦ - القاهرة - مط - السنة.
٥٩. الثقات ، ابن حبان.
٦٠. جامع الترمذي ، الإمام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي.
٦١. جامع العلوم والحكم ، ابن رجب.
٦٢. جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي ، تحقيق الدكتور/ يوسف البقاعي ١٩٩٥م ط ١ المطبعة العصرية ، بيروت.
٦٣. الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي.
٦٤. الجانب السياسي في حياة الرسول ، ط ١ ، دار القلم ، ١٤٠٢هـ ، الكويت ، أحمد محمد.
٦٥. الجهاد في سبيل الله في القرآن ، محمد عزة دروزة.
٦٦. الجيش والقتال ، عواد.
٦٧. الحبة السوداء - شفاء من كل داء - مجلة الإعجاز العلمي العدد الرابع عشر - عبدالجواد الصاوي.
٦٨. حديث القرآن عن غزوات الرسول ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، محمد آل عابد.

٦٩. الحرف والصناعات، العمري.
٧٠. حركة الأرض ودورانها، حقيقة علمية أثبتتها القرآن، دار القلم، ١٩٩١ م، محمد علي الصابوني.
٧١. الحصانة الدبلوماسية في الإسلام، مصطفى التازي.
٧٢. حضارة العرب، غوستاف لوبون.
٧٣. حقوق الإنسان، العدد (٢٩) من سلسلة دعوة الحق، حسن عابدين.
٧٤. حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني.
٧٥. حياة الصحابة، الكاندهلوي.
٧٦. حياة محمد، إميل درمنغم.
٧٧. حياة محمد، واشنطنجتون.
٧٨. حياة محمد، وليام موير.
٧٩. الخراج، أبو يوسف.
٨٠. الخصائص الكبرى، جلال الدين السيوطي.
٨١. الخمر في الفقه الإسلامي، ط ١، ١٩٧٧ م، فكري عكار.
٨٢. درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية.
٨٣. دراسة السيرة، عماد الدين خليل.
٨٤. دستور الأخلاق في القرآن، د. دراز.
٨٥. دفاع عن الإسلام، لورافيشيا فاغليري.
٨٦. دلائل النبوة، الإمام البيهقي.
٨٧. دين الإسلام، لايتنر.
٨٨. ديوان أحمد شوقي.
٨٩. رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشي.
٩٠. الرحمة في القرآن، ط ١، مكتبة الرشد، الرياض، موسى عبده عسيري.
٩١. رحمة للعالمين، د. سعد القحطاني.

٩٢. الرحيق المختوم، الشيخ صفى الرحمن المباركفوري
٩٣. الرسول حياة محمد، ر.ف. بودلي.
٩٤. الرسول ﷺ، سعيد حوى.
٩٥. الرسول في عيون الدراسات الاستشراقية المنصفة، محمد شريف الشيباني.
٩٦. الرسول في عيون غربية منصفة، الحسيني معدي.
٩٧. روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة.
٩٨. روح المعاني، الألوسي .
٩٩. الروض الأنف، السهيلي.
١٠٠. زاد المعاد، ابن قيم الجوزية.
١٠١. زيت الزيتون أسرار وإعجاز - مجلة الإعجاز العلمي العدد الثامن، والاعسل
أسرار وإعجاز - مجلة الإعجاز العلمي العدد الخامس عشر، حسان شمسي باشا،
ومقالتين للدكتور رمضان هلال عن العسل وزيت الزيتون.
١٠٢. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد الصالحي الشامي.
١٠٣. السراج المنير شرح الجامع الصغير، علي العزيزي.
١٠٤. السفر إلى الشرق، لامارتين.
١٠٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني.
١٠٦. سنن الدارمي، الإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدرامي.
١٠٧. سنن ابن ماجه، الحافظ محمد بن يزيد القزويني.
١٠٨. سنن أبي داوود، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني.
١٠٩. سنن النسائي، الحافظ أحمد بن شعيب النسائي.
١١٠. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية.
١١١. سيدنا محمد رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، أسعد صاغرجي.
١١٢. سيرة ابن إسحاق.
١١٣. السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفى السباعي.

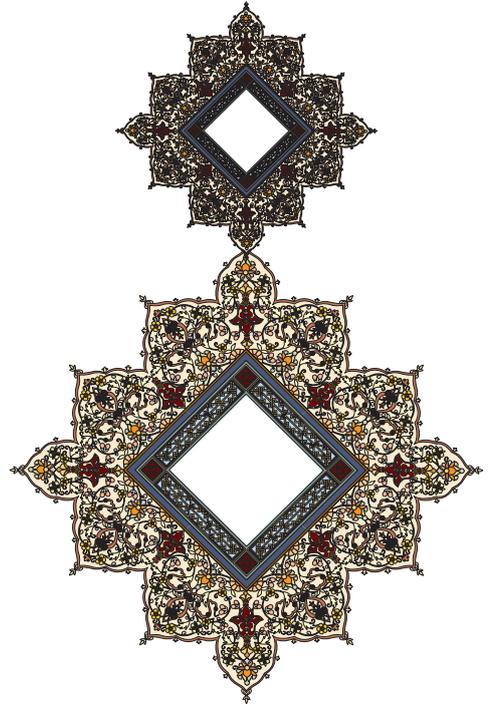
١١٤. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبه.
١١٥. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله.
١١٦. السيرة النبوية، ابن هشام.
١١٧. سيرة النبي محمد، ١٩٩٨م، كارين أرمسترونج.
١١٨. سيرة خمسين صحابياً، د. راتب النابلسي.
١١٩. شرح مسلم، النووي.
١٢٠. الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، القاضي عياض.
١٢١. الشمائل المحمدية، الإمام محمد بن عيسى الترمذي.
١٢٢. الشمس سراج والقمر نور - المؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدبي - ياسين المليكي.
١٢٣. صحيح ابن حبان، لابن حبان.
١٢٤. صحيح ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني.
١٢٥. صحيح البخاري، الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري.
١٢٦. صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني.
١٢٧. صحيح الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني.
١٢٨. صحيح الجامع، محمد ناصر الدين الألباني.
١٢٩. صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني.
١٣٠. صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني.
١٣١. صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري.
١٣٢. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني.
١٣٣. الصيام معجزة علمية - ط ٢ من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي، عبد الجواد الصاوي.
١٣٤. ضوابط البحث في الإعجاز العلمي، د / عبدالله بن عبدالعزيز المصلح.
١٣٥. عالم النبات اختلاط الماء بالأرض الهامدة - طهيئة الإعجاز العلمي - ، قطب عامر فرغلي.

١٣٦. عبقرية محمد، عباس محمود العقاد.
١٣٧. العثمانية، الجاحظ.
١٣٨. العرب، جان ليك.
١٣٩. العلل الكبير، الإمام محمد بن عيسى الترمذي.
١٤٠. علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة - من إصدارات الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
١٤١. عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، أحمد شاكر.
١٤٢. عمرو بن العاص، بسام العسلي.
١٤٣. العواصم من القواصم، أبو بكر بن العربي.
١٤٤. عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، مجلة الإعجاز العلمي العدد السادس، جمال عبدالمنعم الكومي.
١٤٥. غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، محمد ناصر الدين الألباني.
١٤٦. غياث الأمم في التياث الظلم، ط ١، مطابع الدوحة، ١٤٠٠هـ.
١٤٧. الفتاوى الكبرى، شرح العقيدة الأصبهانية، ط ١، دار القلم، بيروت، ١٤٠٧هـ.
١٤٨. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
١٤٩. فتح القدير، الشوكاني.
١٥٠. الفتح الكبير في ضم الزيادات للجامع الصغير، جلال الدين السيوطي، الشيخ يوسف النبهاني.
١٥١. فتوح البلدان، البلاذري.
١٥٢. فقه الزكاة، د. يوسف القرضاوي.
١٥٣. فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي.
١٥٤. فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، د. محمد سعيد البوطي.
١٥٥. في ظلال القرآن، سيد قطب.

١٥٦. قالوا في الإسلام، حسين الظالمي.
١٥٧. القرآن الكريم.
١٥٨. القرار المكين، مأمون شقفة.
١٥٩. القرآن والكون من الانفجار العظيم إلى الانسحاق العظيم، ط ١، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
١٦٠. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار الكتب العلمية.
١٦١. القول التام، السخاوي.
١٦٢. كتاب أبحاث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة الكويت ١٤٢٧هـ - الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
١٦٣. كتاب أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
١٦٤. كتاب بينات الرسول - صنعاء - اليمن، عبدالمجيد الزندان.
١٦٥. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي.
١٦٦. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي.
١٦٧. لسان العرب، ابن منظور.
١٦٨. لماذا حرم الله هذه الأشياء؟ لحم الخنزير، الميتة، الدم - نظرة طبية في محرمات القرآن، مكتبة القرآن، ١٩٨٧ م، محمد كمال عبدالعزيز.
١٦٩. مائة خصلة من خصال الرسول ﷺ، د. خليل ملا خاطر.
١٧٠. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي.
١٧١. المجتمع المدني في عهد النبوة، د. أكرم العمري.
١٧٢. مجلة الثقافة الروسية ج ٧، العدد التاسع (٩).
١٧٣. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي.
١٧٤. المجموع شرح المهذب، إدارة الطباعة المنيرية، الإمام النووي.

١٩٧. الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي.
١٩٨. الموافقات في علم الكلام، عضد الدين الشيرازي.
١٩٩. الموطأ، الإمام مالك بن أنس.
٢٠٠. موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الشبكة العنكبوتية:
www.eajaz.org
٢٠١. النبوة والأنبياء، المهندس اللواء / أحمد عبد الوهاب.
٢٠٢. النظم الدبلوماسية في الإسلام، صلاح الدين المنجد.
٢٠٣. نظم الدر والعقيان، محمد بن عبدالله التنسي.
٢٠٤. نظم المتناثر من الحديث المتواتر، الشيخ محمد بن جعفر الكتاني.
٢٠٥. النقود المتداولة في عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين، سمير شما.
٢٠٦. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير.
٢٠٧. النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، محمد فتح الله كولن.
٢٠٨. هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية.
٢٠٩. هذا الحبيب يا محب، الشيخ / أبو بكر الجزائري.
٢١٠. هذا هو الإسلام، مصطفى السباعي.
٢١١. الوزراء الكتاب، الجهشياري.
٢١٢. وصف التخلق البشري طور العلقة والمضغة - بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م) من كتاب علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة - ط أولى، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، كيث مور، وعبدالمجيد الزنداني ومصطفى أحمد.
٢١٣. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، السمهودي.
٢١٤. وفيات تربوية مع السيرة، أحمد فريد.





المصادر والمراجع الأجنبية

1. «A Radio Pulsar with an 8.5-Second Period that Challenges Emission Models». Nature 2010-04-03.
2. «Biotic Communities of the Colorado Plateau: C. Hart Merriam and the Life Zones Concept». 30 January 2010.
3. «Distribution of land and water on the planet». UN Atlas of the Oceans.
4. «Hipparchus of Rhodes». School of Mathematics and Statistics, University of St Andrews, Scotland. 2007-10-28.
5. «Lowest Elevation: Dead Sea». Extreme Science.
6. «Mosquito-Borne Diseases». The American Mosquito Control Association. October 14, 2008.
7. «Mosquito's Life Cycle». Westchester County Department of Health. April 10, 2010.
8. «Ocean». The Columbia Encyclopedia. 2002. New York: Columbia University Press.
9. «Road Infrastructure Strategic Framework for South Africa». National Department of Transport (South Africa). 24 March 2007.
10. «Salvadora persica». Food and Agriculture Organization of the United Nations. 2009-02-16.

11. «Saudi Arabia». International Monetary Fund. Retrieved 2009-10-01.
12. «Solar system». Merriam Webster Online Dictionary. 2008.
13. «Solar system». Merriam Webster Online Dictionary. 2008.
14. «Sun». World Book at NASA. NASA. http://www.nasa.gov/worldbook/sun_worldbook.html. 2010-03-22. «The sun is one of over 100 billion stars in the Milky Way Galaxy. It is about 25,000 light-years from the center of the galaxy, and it revolves around the galactic center once about every 250 million years.»
15. «Well-mixed Greenhouse Gases». Climate Change 2001: The Scientific Basis. Intergovernmental Panel on Climate , Change. 2001.
16. «What is the difference between a road and a street?». Word FAQ. Lexico Publishing Group. 2007.
17. «World Consumption of Primary Energy by Energy Type and Selected Country Groups , 1980-2004» (XLS). Energy Information Administration. July 31, 2006.
18. . JewishEncyclopedia.com. 2007-06-27.
19. a b c Preuss TM (1995). «Do rats have prefrontal cortex? The Rose-Woolsey-Akert program reconsidered.». The Journal of Cognitive Neuroscience 7 (1): 1 -24.
20. a b c Uylings HB, Groenewegen HJ, Kolb B (November 2003). «Do rats have a prefrontal cortex?». Behavioural Brain Research 146 (1-2): 3 -17.
21. A primer from the CDC on quarantine and its uses against contagious disease spread. Nov. 27, 2009.
22. Aaboe, A. (1974). «Scientific Astronomy in Antiquity». Philosophical Transactions of the Royal Society 276 (1257): 21 -42. 2010-03-09.
23. AB Watts (2001). Isostasy and Flexure of the Lithosphere. Cambridge University Press. About Saudi Arabia: Facts and figures, The Royal Embassy of Saudi Arabia, Washington D.C.
24. Adams JP, Murphy PG (July 2000). «Obesity in anaesthesia and intensive care». Br J Anaesth 85 (1): 91 -108.

25. Adapted from Dewey M. Caron (1999). «House flies». University of Rhode Island Danforth BN, Sipes S, Fang J, Brady SG (October 2006). «The history of early bee diversification based on five genes plus morphology». Proc. Natl. Acad. Sci. U.S.A. 103 (41): 15118 -23.
26. Adushkin, Vitaly (2008). Catastrophic events caused by cosmic objects. Springer. ISBN 1402064519.
27. Alldredge, A. L. &Gotschalk, C. Limnol. Oceanogr. 33, 339-351 (1988).
28. Alldredge, A. L. &Gotschalk, C. Limnol. Oceanogr. 33, 339-351 (1988).
29. Allen, Clabon Walter; Cox, Arthur N. (2000). Allen's Astrophysical Quantities. Springer. p. 294.
30. Almas, Khalid (2002-08-15). «The Effect of Salvadora Persica Extract (Miswak) and Chlorahexidine Gluconate on Human Dentin: A SEM Study». Journal of Contemporary Dental Practice 3 (3): 27 -35. 2009-02-16.
31. Al-Monaes, Walled A. (1991), «Muslim contributions to geography until the end of the 12th century AD».
32. Amro, Soliman; Hatem E. Amin, Mohammed Batwa (May 2007). «Oral hygiene and periodontal status associated with the use of miswak or toothbrush among Saudi adult population». Cairo Dental Journal 23 (2): 159 -166. 2009-02-16.
33. An Introduction to Mirages by Andy Young.
34. Ann Zabludoff (University of Arizona) (Spring 2003). «Lecture 13: The Nebular Theory of the origin of the Solar System».
35. Anthony DeBartolo (June 5, 1986). «Buzz off! The housefly has made a pest of himself for 25 million years». Chicago Tribune.
36. Apel, J. R., 1987, Principles of Ocean Physics, Academic Press, (ISBN 0-12-058866-8)
37. Arthur Wiebe, Project AIMS - Our Wonderful World, Environmental Studies Book 7, Fresno Pacific College, AIMS Education Foundation, 1986.

38. Arthur Wiebe, Project AIMS - Our Wonderful World, Environmental Studies Book 7, Fresno Pacific College, AIMS Education Foundation, 1986.
39. Arthur Wiebe, Project AIMS - Our Wonderful World, Environmental Studies Book 7, Fresno Pacific College, AIMS Education Foundation, 1986.
40. Arthur Wiebe, Project AIMS - Our Wonderful World, Environmental Studies Book 7, Fresno Pacific College, AIMS Education Foundation, 1986.
41. Arthur Wiebe, Project AIMS - Our Wonderful World, Environmental Studies Book 7, Fresno Pacific College, AIMS Education Foundation, 1986.
42. Asper, V. L. Deep Sea Res. 34, 1-17 (1987).
43. Asper, V. L. Deep Sea Res. 34, 1-17 (1987).
44. Aubert G., Lansdorp P.M. (April 2008), «Telomeres and Aging», Physiological Reviews 88 (2): 557 -579.
45. Autoimmunity (1994); 23, 74-165
46. AVISO, 1996: User handbook for merged TOPEX/Poseidon products. AVI-NT-02-101-CN, Edition 3.0, 196 pp.
47. B. Windley: The Evolving Continents. Wiley Press, New York 1984
48. Babcock Institute site on internet .
49. Bassham S, Beam A, Shampay J (January 1998), «Telomere variation in *Xenopus laevis*», Mol. Cell. Biol. 18 (1): 269 -75.
50. BBC. Weather Basics - Jet Streams. 2008-05-08.
51. Beech, M.; Steel, D. I. (September 1995). «On the Definition of the Term Meteoroid». Quarterly Journal of the Royal Astronomical Society 36 (3): 281 -284.
52. Behling, Sophia, and Stefan Behling, in collaboration with Bruno Schindler. Solar power: the evolution of sustainable architecture. New York, Prestel, 2000. 240 p.

53. Belton, MJS (2004). Mitigation of hazardous comets and asteroids. Cambridge University Press. ISBN 0521827647.
54. Berger, Brian (September 14, 2005). «NASA to Unveil Plans to Send 4 Astronauts to Moon in 2018».
55. Blackburn, Susan. Maternal, Fetal, & Neonatal Physiology, p. 80 (Elsevier Health Sciences 2007).
56. Bloom, J. S.; Kulkarni, S. R.; Djorgovski, S. G. (2002). «The Observed Offset Distribution of Gamma-Ray Bursts from Their Host Galaxies: A Robust Clue to the Nature of the Progenitors». The Astronomical Journal 123: 1111.
57. Blyth, S., Groombridge, B., Lysenko, I., Miles, L. & Newton, A. (2009-02-17). «Mountain Watch». UNEP World Conservation Monitoring Centre, Cambridge, UK.
58. Bolton, C. T. (1972). «Identification of Cygnus X-1 with HDE 226868». Nature 235: 271 -273.
59. Bond, Peter (2009-03-11), «Obituary: Lt-Gen Kerim Kerimov», The Independent (London).
60. Borsch Nelson (1994); Text book of pediatric. 15th Ed.
61. Braude, Peter. «Preimplantation Genetic Diagnosis and Embryo Research-Human Developmental Biology in Clinical Practice,» International Journal of Developmental Biology, volume 45, page 607 (2001).
62. Brown, Robert, «A brief account of microscopical observations made in the months of June, July and August, 1827, on the particles contained in the pollen of plants; and on the general existence of active molecules in organic and inorganic bodies,» Phil, Mag, 4, 161 -173, 1828,
63. Brown, Robert, «A brief account of microscopical observations made in the months of June, July and August, 1827, on the particles contained in the pollen of plants; and on the general existence of active molecules in organic and inorganic bodies,» Phil, Mag, 4, 161 -173, 1828,
64. Buchanan, B.; Collard, M.; Edinborough, K. (2008), «Paleoindian demography and the extraterrestrial impact hypothesis».

65. Bulliet, Richard (1990-05-20) [1975]. The Camel and the Wheel. Morning-side Book Series. Columbia University Press. p. 183.
66. Burt, Christopher C., (2004). Extreme Weather, A Guide & Record Book. W. W. Norton & Company.
67. C. Klein, A. Flohn, Contribution to the Knowledge in the Fluctuations of the Dead Sea Level. Theoretical and Applied Climatology, vol. 38, p. 151 -156, 1987
68. Cauna N. Morphological basis of sensation in hairy skin. Prog Brain Res. 1976;43:35 -45.
69. Cavalier-Smith T (2006). «Cell evolution and Earth history: stasis and revolution». Philos Trans R Soc Lond B Biol Sci 361 (1470): 969 -1006.
70. Cecil, Russell (1988). Textbook of Medicine. Philadelphia: Saunders. pp. 1523, 1799.
71. CERSAT, 1995: Altimeter and microwave radiometer ERS products user manual. C2-MUT-A-01-1F, Version 1.2, 128 pp.
72. Charles H. Lineweaver (2001). «An Estimate of the Age Distribution of Terrestrial Planets in the Universe: Quantifying Metallicity as a Selection Effect». Icarus 151: 307.
73. Christian, Eric; Samar, Safi-Harb. «How large is the Milky Way?». 2007-11-28.
74. Clark R. Chapman & David Morrison (January 6, 1994), «Impacts on the Earth by asteroids and comets: assessing the hazard», Nature 367: 33 -40.
75. Clark, P, (1976) «Atomism versus thermodynamics» in Method and appraisal in the physical sciences, Colin Howson (Ed),Cambridge University Press 1976,
76. Cohen, Ronald; Stixrude, Lars. «Crystal at the Center of the Earth». 2007-02-05.
77. Cohn, Norman (1996). Noah's Flood: The Genesis Story in Western Thought. New Haven & London: Yale University Press.
78. Cong YS, Wright WE, Shay JW (September 2002), «Human telomerase and its regulation», Microbiol. Mol. Biol. Rev. 66 (3): 407 -25.

79. Courtland, Rachel. «Pulsar Detected by Gamma Waves Only.» New Scientist, 17 October 2008.
80. Crittenden, M. D., Jr., 1963, Effective viscosity of the earth derived from isostatic loading of Pleistocene Lake Bonneville: Journal of Geophysical Research, v. 68, p. 5517-5530.
81. D. Kapogiannis, A. K. Barbey, M. Su, G. Zamboni, F. Krueger, and J. Grafman, "Cognitive and Neural Foundations of Religious Belief," Proceedings of the National Academy of Sciences USA 106, no. 12 (2009).
82. D.A. Bryant & N.-U. Frigaard (November 2006). «Prokaryotic photosynthesis and phototrophy illuminated». Trends Microbiol 14 (11): 488.
83. Davey, G.C.L. (1994). «The "Disgusting" Spider: The Role of Disease and Illness in the Perpetuation of Fear of Spiders». Society and Animals 2 (1): 17 -25.
84. David R. Cook Jet Stream Behavior. 2008-05-08.
85. David Whitehouse (2005). The Sun: A Biography. John Wiley and Sons.
86. Debbie Williams and Carol Hickson, Aerospace and the Environment, DOT, FAA, U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1978.
87. Debbie Williams and Carol Hickson, Aerospace and the Environment, DOT, FAA, U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1978.
88. Debbie Williams and Carol Hickson, Aerospace and the Environment, DOT, FAA, U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1978.
89. Debbie Williams and Carol Hickson, Aerospace and the Environment, DOT, FAA, U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1978.
90. Debbie Williams and Carol Hickson, Aerospace and the Environment, DOT, FAA, U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1978.
91. Deuser, W. G. Deep Sea Res. 33, 225–246 (1986).
92. Deuser, W. G. Deep Sea Res. 33, 225–246 (1986).
93. Domestication of plants in the Old World (3 ed.). Oxford University Press. 2000. p. 206.

94. Donath S, Amir LH 2000, Rates of breastfeeding in Australia by State and socio-economic status: Evidence from the 1995 National Health Survey. J Paediatr Child Health 36: 164-168.
95. Dr. Kasem Ajram (1992). The Miracle of Islam Science (2nd ed.). Knowledge House Publishers.
96. Durst and Bull (1956). Met. Mag. 85. pp. 237 -242.
97. Durst and Bull (1956). Met. Mag. 85. pp. 237 -242.
98. E Albert reece& others (1994) fundamental of Obsteric& gynecology Uitrasound international ED printice - Hall international Inc. U.S.A .
99. Edward S. Kennedy, Mathematical Geography, p. 193, in (Rashed&Morelon 1996, pp. 185 -201).
100. Edwards GP, Zeng B, Saalfeld WK, Vaarzon-Morel P and McGregor M (Eds). 2008. Managing the impacts of feral camels in Australia: a new way of doing business. DKCRC Report 47.
101. Effect of Nigella Sativa on Isolated Guinea Pig Trachea.
102. Einstein, A, «Investigations on the Theory of Brownian Movement», New York: Dover, 1956,
103. Einstein, A, «Investigations on the Theory of Brownian Movement», New York: Dover, 1956,
104. Eisenacher W. II. Zur Morphologie der Papilla fungiformis einiger Nagetiere. Adv Anat Embryol Cell Biol. 1975;50(6):59 -116.
105. Elsworth, Catherine (July 14, 2009). «US plans to be back on the Moon by 2018». The Daily Telegraph (London).
106. Embryology - History of embryology as a science.» Science Encyclopedia. Web. 06 Nov. 2009.
107. Encyclopædia Britannica, 2008.
108. Encyclopædia Britannica. 2009. Encyclopædia Britannica Online. 06 Nov. 2009.
109. Engel, Michael S. (2001-02-13). «Monophyly and Extensive Extinction of Advanced Eusocial Bees: Insights from an Unexpected Eocene Diversity». PNAS (National Academy of Sciences) 98 (4): 1661 -1664.

110. Engert, Gerald J. (1964) «International Corner» Identification News Vol 14(1).
111. Ewing, Rex A. Power with nature: alternative energy solutions for homeowners. Updated 2nd ed. Masonville, CO, PixyJack Press, c2006. 287 p.
112. F. Gary Cunningham PC . Mac Donald & others (1993) Williams Obstetrics . 19th ED . printice hall Int . Inc .
113. Farrand, W. R., 1962, Postglacial rebound in North America: American Journal of Science, v. 260, p. 181-198.
114. Feeds and feedings book - auther :church .
115. Finger, Stanley (1994). Origins of neuroscience: a history of explorations into brain function. Oxford [Oxfordshire]: Oxford University Pres.
116. Fitzwater, S. E., Knauer, G. A. & Martin, J. H. Limnol. Oceanogr. 27, 544–551 (1982).
117. Fleagle, RG and Businger, JA: An introduction to atmospheric physics, 2nd edition, 1980
118. Freeman Dyson (July 1979). «Time Without End: Physics and Biology in an open universe». Reviews of Modern Physics 51 (3): 447.
119. Freeman Dyson (July 1979). «Time Without End: Physics and Biology in an open universe». Reviews of Modern Physics 51 (3): 447.
120. Futuyma, Douglas J. (2005). Evolution. Sunderland, Massachusetts: Sinauer Associates, Inc.
121. Gao F, Bailes E, Robertson DL, et al. (1999). «Origin of HIV-1 in the Chimpanzee Pan troglodytes troglodytes». Nature 397 (6718): 436 -441.
122. Gavrilov LA, Gavrilova NS (December 2001). «The reliability theory of aging and longevity». Journal of Theoretical Biology 213 (4): 527 -45.
123. Gerald Schubert, Donald L. Turcotte, Peter Olson. (2001). Mantle Convection in the Earth and Planets. Cambridge: Cambridge University Press.
124. Gerrard, A. J. 1990. Mountain Environments.
125. Gerstein H.(1994); Diabetes , Jan ,17, 1, 9-13
126. Giddings, Steven B. (2002). «High energy colliders as black hole factories: The end of short distance physics». Physical Review D 65: 056010.

127. Glossary of Meteorology (2009). «Ageostrophic wind». American Meteorological Society.
128. Glossary of Meteorology (2009). «Geostrophic wind». American Meteorological Society.
129. Glossary of Meteorology (2009). «Hail». American Meteorological Society.
130. Glossary of Meteorology (2009). «Hailstorm». American Meteorological Society.
131. Glossary of Meteorology (2009). «Thermal wind». American Meteorological Society.
132. Gnanadesikan, A., R. D. Slater, P. S. Swathi, and G. K. Vallis, 2005: The energetics of ocean heat transport. *Journal of Climate*, 18, 2604-2616.
133. Google Earth Professional PC software.
134. Gural, Peter S. (1997): «An Operational Autonomous Meteor Detector: Development Issues and Early Results» *WGN Journal of the International Meteor Organization* 25-3, p.136.
135. H. G. Koenig, eds., *Handbook of Religion and Mental Health* (San Diego: Academic Press, 1998).
136. Hansen, J., *Climatic Change*, 68, 269, 2005
137. Haslam DW, James WP (2005). «Obesity». *Lancet* 366 (9492): 1197-209.
138. Hawkes, R.L. (1990): «Constructing a Video-Based Meteor Observatory» *WGN - Journal of the International Meteor Organization* 18-4, p.145.
139. Hawking, S.W. (1974). «Black hole explosions?». *Nature* 248: 30 -31.
140. Hawking, Stephen; Penrose, R. (January 1970). «The Singularities of Gravitational Collapse and Cosmology». *Proceedings of the Royal Society A* 314 (1519): 529 -548.
141. Helgason, Asgeir; Jan Adolfsson, Paul Dickman, Stefan Arver, Mats Fredrikson, Marianne Göthberg and Gunnar Steineck (1996). «Sexual Desire, Erection, Orgasm and Ejaculatory Functions and Their Importance to Elderly Swedish Men: A Population-based Study». *Age and Ageing* (Oxford University Press) 25 (4): 285 -291.

142. Henry Smith, Amazing Air, Walker Books Ltd., Great Britian, 1982.
143. Henry Smith, Amazing Air, Walker Books Ltd., Great Britian, 1982.
144. Henry Smith, Amazing Air, Walker Books Ltd., Great Britian, 1982.
145. Henry Smith, Amazing Air, Walker Books Ltd., Great Britian, 1982.
146. Henry Smith, Amazing Air, Walker Books Ltd., Great Britian, 1982.
147. Hens, J.R. & Wysolmerski, J.J. Key stages of mammary gland development: molecular mechanisms involved in the formation of the embryonic mammary gland. *Breast Cancer Res* 7, 220-4 (2005).
148. Herndon, J. Marvin (1996) Substructure of the inner core of the Earth Vol. 93, Issue 2, 646-648, January 23, 1996.
149. Hicks, G. T. et al (1967): «Meteor Photography with an Image Orthicon System» Symposium Meteor Orbits and Dust 1965, p.95.
150. Hillyard PD (1994). The book of the spider: from arachnophobia to the love of spiders. New York: Random House.
151. Hinman, M.B., Jones J.A., and Lewis, R.W. (September 2000). «Synthetic spider silk: a modular fiber» (PDF). *Trends in Biotechnology* 18 (9): 374-9.
152. Hirsch, EG, Muss-Arnolt, W & Hirschfeld, H (2002). «Jewish Encyclopedia: The Flood». *JewishEncyclopedia.com*. 2007-06-27.
153. Honjo, S., Spencer, D. W. & Farrington, J. W. *Science* 216, 516–518 (1982).
154. Honjo, S., Manganini, S. J. & Cole, J. J. *Deep Sea Res.* 29, 609–625 (1982).
155. Horwood LJ, Darlow BA, Mogridge N 2001, Breast milk feeding and cognitive ability at 7-8 years *Arch Dis Fetal Neonatal* 84: F23-F27.
156. <http://www.extremescience.com/DeadSea.htm>. Retrieved 2007-05-22.
157. Human embryology 4th edition, page 69.
158. Iggo, A. and Muir, A. R. (1969) «The structure and function of a slowly adapting touch corpuscle in hairy skin». *Journal of Physiology (London)* 200:763-796.

159. Imaz I, Martínez-Cervell C, García-Alvarez EE, Sendra-Gutiérrez JM, González-Enríquez J (July 2008). «Safety and effectiveness of the intra-gastric balloon for obesity. A meta-analysis». *Obes Surg* 18 (7): 841 -6.
160. Inagaki S, Kito S. Peptides in the peripheral nervous system. *Prog Brain Res.* 1986.
161. Intergovernmental Panel on Climate Change (1990). IPCC First Assessment Report.1990. UK: Cambridge University Press. table 3.1
162. J. J. Rawal (1986). «Further Considerations on Contracting Solar Nebula» (PDF). *Earth, Moon, and Planets (Springer Netherlands)* 34 (1): 93 -100.
163. J. Schopf: *Earth's Earliest Biosphere: Its Origin and Evolution.* Princeton University Press, Princeton, N.J., 1983
164. J.P Green hill & others (1989) *Modern Practice of Obstetrics . 3rd ED.* W. B Saunders company . Philadelphia .
165. Jeff Paduan ((High - Resolution Ocean Circulation Modeling during MUSE)) [htt : // www.mbari.org](http://www.mbari.org) .
166. JetStream (2008). «Origin of Wind». National Weather Service Southern Region Headquarters.
167. Jickells, T. D., Church, T. M. &Deuser, W. G. *Global biogeochem. Cycles* 1, 117–130 (1987).
168. John M. Hobson (2004), *The Eastern Origins of Western Civilisation*, pp. 29 -30, Cambridge University.
169. John M. Lewis. *Ooishi's Observation: Viewed in the Context of Jet Stream Discovery.* 2008-05-08.
170. John McIahlan (1994) *Medical Embriology 1st E publishing Comp ..* Addeson - Wesly .
171. Kandel E.R., Schwartz, J.H., Jessell, T.M. (2000). *Principles of Neural Science*, 4th ed., pp.433. McGraw-Hill, New York.
172. Keith L. moor (1985) *Developing Human with Islamic Edittion 3rd ED.* Dar Qiblah Jeddah .
173. KEITH. L. Moore. *The Developing Human*, page 54.

174. Kennedy, Edward S. (1962), «Review: The Observatory in Islam and Its Place in the General History of the Observatory by Aydin Sayili».
175. Kiehl, J.T., and Trenberth, K. (1997). «Earth's annual mean global energy budget,» Bulletin of the American Meteorological Society <78> (2), 197-208.
176. Kiessling, Ann. What is an Embryo?" Connecticut Law Review 36 (4): 1051 -93.
177. Kirkwood TB (November 1977). «Evolution of ageing». Nature 270 (5635): 301 -4.
178. Klossner, N. Jayne and Hatfield, Nancy. Introductory Maternity & Pediatric Nursing, p. 107 (Lippincott Williams & Wilkins, 2006).
179. Knauss, J. A., 1996, Introduction to Physical Oceanography, Prentice Hall (ISBN 0-13-238155-9)
180. Kottak, Conrad Phillip. Window on Humanity: A Concise Introduction to Anthropology. New York: The McGraw -Hill Companies, Inc, 2005.
181. Kryza, Frank. T. The power of light: the epic story of man's quest to harness the sun. New York, London, McGraw-Hill, c2003. 298 p.
182. Kushner, Robert (April 5, 2009). Treatment of the Obese Patient (Contemporary Endocrinology). Totowa, NJ: Humana Press. pp. 158.
183. L. G. Jacchia, Revised Static Models of the Thermosphere and Exosphere with Empirical Temperature Profiles, Smithson. Astrophys. Obs. Spec. Rept. No. 332, 1971.
184. L. G. Jacchia, Static Diffusion Models of the Upper Atmosphere with Empirical Temperature Profiles, Smithson. Astrophys. Obs. Spec. Rept. No. 170, Cambridge, Massachusetts, 1964.
185. L. G. Jacchia, Thermospheric Temperature, Density, and Composition: New Models, Smithson. Astrophys. Obs. Spec. Rept. No. 375, 1977.
186. Laplace; see Israel, Werner (1987), «Dark stars: the evolution of an idea», in Hawking, Stephen W. & Israel, Werner, 300 Years of Gravitation, Cambridge University Press.

187. Larraín, Patricia & Salas, Claudio (2008). «House fly (*Musca domestica* L.) (Diptera: Muscidae) development in different types of manure [Desarrollo de la Mosca Doméstica (*Musca domestica* L.) (Díptera: Muscidae) en Distintos Tipos de Estiércol]». *Chilean Journal of Agricultural Research* 68: 192 -197.
188. Lars Stixrude and R. E. Cohen, «High-Pressure Elasticity of Iron and Anisotropy of Earth's Inner Core», *Science* 31 March 1995: Vol. 267. no. 5206, pp. 1972 - 1975 DOI: 10.1126/science.267.5206.1972
189. Lay, Maxwell G (1992). *Ways of the World: A History of the World's Roads and of the Vehicles that Used Them*. Rutgers University Press.
190. Lazarus GS, Cooper DM, Knighton DR et al. Definitions and guidelines for assessment of wounds and evaluation of healing. *Arch Derm* 1994;130(4):489-493.
191. Lewis Wolpert. *Principles of Development*. Oxford University Press, 2006.
192. Lewis, John S. (1996), *Rain of Iron and Ice*, Helix Books (Addison-Wesley), pp. 236.
193. Lohrenz, S. E. et al. *Deep Sea Res.* (in the press).
194. Lohrenz, S. E. et al. *Deep Sea Res.* (in the press).
195. Lutgens, Frederick K. and Edward J. Tarbuck (1995) *The Atmosphere*, Prentice Hall, 6th ed., pp14-17.
196. M. M. Woolfson (1984). «Rotation in the Solar System». *Philosophical Transactions of the Royal Society of London* 313: 5.
197. M. Minnaert; *The Nature of Light and Colour in the Open Air*; 1948.
198. M. Minnaert; *The Nature of Light and Colour in the Open Air*; 1948.
199. Martin A. *Uman lightning* Dover Publications Inc. New York 1984 .
200. Mason bee from Everything.About. 10 March 2009.
201. Masters, W. H., & Johnson, V. E. (1979). *Homosexuality in perspective*. Boston: Little, Brown and Company.

202. Matsakis, D. N.; Taylor, J. H.; Eubanks, T. M. (1997). «A Statistic for Describing Pulsar and Clock Stabilities». *Astronomy and Astrophysics* 326: 924-928. 2010-04-03.
203. McClintock, Jeffrey E.; Remillard, Ronald A. (2006). «Black Hole Binaries». in Lewin, Walter; van der Klis, Michiel. *Compact Stellar X-ray Sources*. Cambridge University Press.
204. McKnight Tom (2004). *Geographica: The complete illustrated Atlas of the world*. New York: Barnes and Noble Books.
205. Medawar PB (1946). «Old age and natural death». *Modern Quarterly* 1: 30 -56.
206. Menassa, R., Zhu, H., Karatzas, C.N., Lazaris, A., Richman, A., and Brandle, J. (June 2004). «Spider dragline silk proteins in transgenic tobacco leaves: accumulation and field production». *Plant Biotechnology Journal* 2 (5): 431 -8.
207. Merriam-Webster dictionary definition of contagious disease. Nov. 27, 2009.
208. Meteoritical Bull», by Wlotzka, F. published in «Meteoritics», 1994.
209. Micah Fink for PBS. «How Lightning Forms». Public Broadcasting System. September 21, 2007.
210. Micheau, Francoise, «The Scientific Institutions in the Medieval Near East», pp. 992 -3.
211. Molavi, Afshin (June 12, 2003). «Africa's Malaria Death Toll Still «Outrageously High»». *National Geographic*. July 27, 2007.
212. Morrow-Tlucak M, Haude RH, Ernhart CB. Breastfeeding and cognitive development in the first 2 years of life. *Soc Sci Med*. 1988;26;635-639
213. Mulkay, Michael. *The Embryo Research Debate*, page 31 (Cambridge University Press 1997).
214. National Center for Atmospheric Research (2008). «Hail». University Corporation for Atmospheric Research.
215. National Weather Service (2007). «Lightning Safety». National Weather Service. September 21, 2007.

216. National Weather Service Forecast Office, Columbia, South Carolina (2009-01-27). «Hail...». National Weather Service Eastern Region Headquarters.
217. National Weather Service JetStream. The Jet Stream. 2008-05-08.
218. Neelson KH, Conrad PG (December 1999). «Life: past, present and future». Philos. Trans. R. Soc. Lond., B, Biol. Sci. 354 (1392): 1923 -39.
219. Nelson, Edward, Dynamical Theories of Brownian Motion (1967),
220. Nelson, Edward, Dynamical Theories of Brownian Motion (1967),
221. Nemy, Enid. «AN AFTERNOON WITH: Masters and Johnson; Divorced, Yes, But Not Split», The New York Times, 2008-12-03.
222. New_International_Encyclopedia. Newberg and B. Lee, “The Neuroscientific Study of Religious and Spiritual Phenomena: Or Why God Doesn’t Use Biostatistics,” Zygon 40, (2005): 469-489.
223. Nigel Henbest (1991). «Birth of the planets: The Earth and its fellow planets may be survivors from a time when planets ricocheted around the Sun like ball bearings on a pinball table». New Scientist.
224. Niinikoski J. Effect of oxygen supply on wound healing and formation of experimental granulation tissue. Acta Physiol Scand 1969; 334:1-72.
225. O’Reilly, Deirdre. “Fetal development,” MedlinePlus Medical Encyclopedia (2007-10-19).
226. Ocean Surface Mixed : ((Modeling Estuarine / Coastal Circulations))
www.hpl.umces.edu/~lzhong/estuary_coastal/estuary
227. Olsen, Robert D., Sr. (1972) “The Chemical Composition of Palmar Sweat”, Fingerprint and Identification Magazine Vol 53(10).
228. Oreskes, Naomi (ed) (2003). Plate Tectonics: An Insider’s History of the Modern Theory of the Earth. Westview.
229. Oscar H. del Brutto, Brutto Et Al, Julio Sotelo, Gustavo C. Román (1998), Neurocysticercosis, Taylor and Francis, p. 3.
230. Panos (2009-02-17). «High Stakes».
231. Pickering, Neil and Evans, Donald. Creating the Child, page 39 (Martinus Nijhoff Publishers 1996).

232. Pinnock, S.; M.D. Hurley, K.P. Shine, T.J. Wallington, and T.J. Smyth (1995). «Radiative forcing of climate by hydrochlorofluorocarbons and hydrofluorocarbons.». J. Geophys. Res. 100 (D11): 23277 -23238
233. Poinar GO, Danforth BN (October 2006). «A fossil bee from Early Cretaceous Burmese amber». Science 314 (5799): 614.
234. Pranab Ghosh, Rotation and accretion powered pulsars. World Scientific, 2007, p.2.
235. Primeau, F., 2005, Characterizing transport between the surface mixed layer and the ocean interior with a forward and adjoint global ocean transport model, Journal of Physical Oceanography, 35, 545-564 Lisitzin, E. (1974) «Sea level changes». Elsevier Oceanography Series, 8.
236. R. Gomes, H. F. Levison, K. Tsiganis, A. Morbidelli (2005). «Origin of the cataclysmic Late Heavy Bombardment period of the terrestrial planets» (PDF). Nature 435 (7041):
237. R. Gomes, H. F. Levison, K. Tsiganis, A. Morbidelli (2005). «Origin of the cataclysmic Late Heavy Bombardment period of the terrestrial planets» (PDF). Nature 435 (7041):
238. R. R. Griffiths, W. A. Richards, U. McCann, and R. Jesse, “Psilocybin Can Occasion Mystical-Type Experiences Having Substantial and Sustained Personal Meaning and Spiritual Significance,” Psychopharmacology 187, (2006): 268 -283.
239. R.J.Oosterbaan, 1997, The energy balance of groundwater flow applied to subsurface drainage in anisotropic soils by pipes or ditches with entrance resistance.
240. R.J.Oosterbaan, 2000, Drainage and hydrology/salinity: water and salt balances.
241. R.J.Oosterbaan, 2002, Subsurface drainage by (tube)wells, 9 pp.
242. Rabiela, M.T., A. Rivas, and A. Flisser. 1989. Morphological types of *Taenia solium* cysticerci. Parasitol. Today 5:357-359.
243. Rakov, Vladimir A. (November 7, 2007). «Lightning Makes Glass». University of Florida, Gainesville.

244. Ralph Harbach (November 2, 2008). «Family Culicidae Meigen, 1818». Mosquito Taxonomic Inventory.
245. Reinecke M, Weihe E, Forssmann WG. Substance P-immunoreactive nerve fibers in the heart. *Neurosci Lett.* 1980 Dec;20(3):265 -269.
246. Richard Monastersky (March 1, 1997), The Call of Catastrophes, *Science News Online*, http://www.sciencenews.org/pages/sn_arc97/75th/rm_essay.htm, retrieved 2007-10-23.
247. Roach, John (July 14, 2009). «NASA Aims for Moon by 2018, Unveils New Ship». *National Geographic*.
248. Rocky Geyer : « where the Rivers Meet the sea - The transition from salt to fresh water is turbulent vulnerable and incredibly bountiful « *WHOI Oceans Magazine Volume 43 No. 2* [http : // www.oceanusmag.whoi.edu](http://www.oceanusmag.whoi.edu)
249. Role Of *Nigella Sativa* In Opioid Dependence.
250. Romer, Alfred Sherwood; Parsons, Thomas S. (1977). *The Vertebrate Body*. Philadelphia, Pennsylvania: Holt-Saunders International. pp. 390 -39.
251. Ronald J. Boain,
252. Ronald J. Boain, The A-B-Cs of Sun Synchronous Orbit Design, *Space Flight Mechanics Conference*, Feb. 2004.
253. Rose JE, Woolsey CN (1948). «The orbitofrontal cortex and its connections with the mediodorsal nucleus in rabbit, sheep and cat». *Research Publications - Association for Research in Nervous and Mental Disease* 27 (1 vol.): 210 -32 Drogin, Bob (August 18, 2009). «Census of Marine Life maps an ocean of species».
254. Saukkonen et al., (1998); *Dialectologies.* Jan., 4, 7, 8-72.
255. Scand J. Immanuel (1998, Feb); 47, 2, 5-131.
256. Scharringhausen, B.. «Curious About Astronomy: What is the difference between astronomy and astrophysics?». 2007-06-20.
257. Schmidt, Gavin A. (2005-04-06). «Water vapour: feedback or forcing?». *RealClimate*.

258. Schödel, R.; Ott, T; Genzel, R; Hofmann, R; Lehnert, M; Eckart, A; Mouawad, N; Alexander, T et al. (2002). «A star in a 15.2-year orbit around the supermassive black hole at the centre of the Milky Way». Nature 419 (6908): 694 -696.
259. Scott F. Gilbert. Developmental Biology. Sinauer, 2003.
260. Scott, Susan, and C. J. Duncan (2004-07-01). Return of the Black Death: The World's Greatest Serial Killer. England: John Wiley & Sons.
261. SDSU.edu, «Atmospheric Optics Glossary» by Andy Young
262. SDSU.edu, «Atmospheric Optics Glossary» by Andy Young
263. Sepkowitz KA (June 2001). «AIDS--the first 20 years». N. Engl. J. Med. 344 (23): 1764 -72.
264. Sheffield, P. Tissue oxygen tension. In: Davis JC, Hunt TK, eds. Problem Wounds: The Role of Oxygen. New York: Elsevier, 1988:17-51.
265. Sheffield, PJ. Tissue oxygen measurements with respect to soft-tissue wound healing with normobaric and hyperbaric oxygen. HBO Rev 1985;6:18-46.
266. Short practice of surgery page102
267. Shu, F. H. (1982). The Physical Universe. Mill Valley, California: University Science Books.
268. Simon Mitton (2005). «Origin of the Chemical Elements». Fred Hoyle: A Life in Science. Aurum. pp. 197 -222.
269. Siutto, Edda. 2000. Taenia solium disease in humans and pigs: an ancient parasitosis disease rooted in developing countries and emerging as a major health problem of global dimensions. Microbes and Infection: 1875-1890.
270. Smith, A. L. (1997). Oxford dictionary of biochemistry and molecular biology. Oxford University Press. pp. 508.
271. Spilhaus first=Athelstan F. Maps of the whole world ocean. 32 (3). American Geographical Society). pp. 431 -5.
272. Staff (2008-09-23). «Useful Constants». International Earth Rotation and Reference Systems Service (IERS).

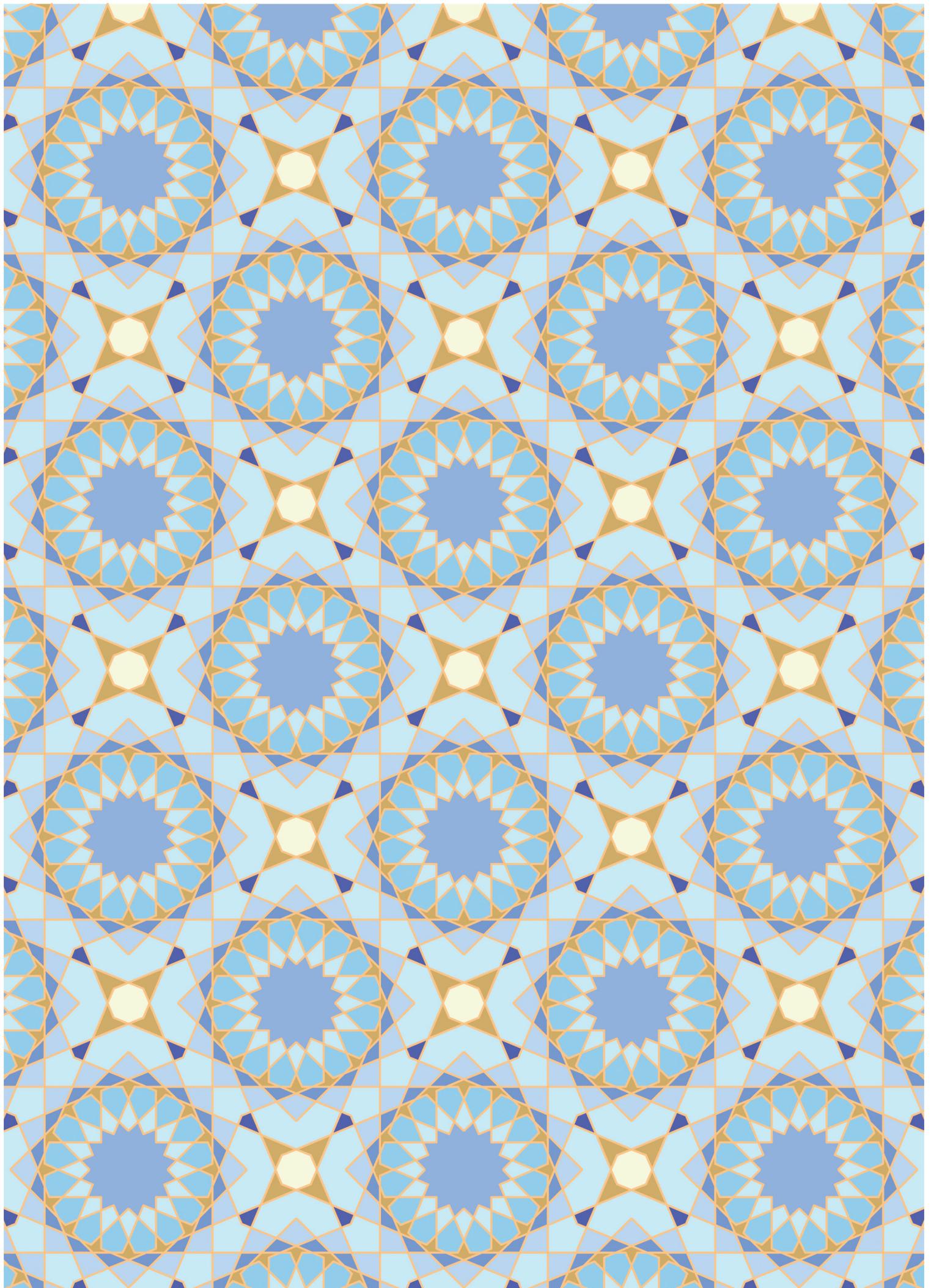
273. Standish, E. Myles; Williams, James C. «Orbital Ephemerides of the Sun, Moon, and Planets». International Astronomical Union Commission 4: (Ephemerides). 2010-04-03.
274. Stanley Steven M (1999). Earth System History. W.H. Freeman. pp. 211 -228.
275. Steinbock, Bonnie. “Life Before Birth,” pages 50 and 214-215 (Oxford University Press 1992).
276. Sternlicht, M.D. Key stages in mammary gland development: the cues that regulate ductal branching morphogenesis. Breast Cancer Res 8, 201 (2006).
277. Sternlicht, M.D., Kouros-Mehr, H., Lu, P. & Werb, Z. Hormonal and local control of mammary branching morphogenesis. Differentiation 74, 365-81 (2006).
278. Stuart M. Bennett (2003). «Housefly».
279. Sun-Synchronous Orbit dictionary entry, from U.S. Centennial of Flight Commission.
280. T. H. Jordan, «Structural Geology of the Earth's Interior», Proceedings of the National Academy of Science, 1979, Sept., 76(9): 4192 -4200.
281. T.J. Chandler, The Air Around Us, Garden City, New York, 1963.
282. T.J. Chandler, The Air Around Us, Garden City, New York, 1963.
283. T.J. Chandler, The Air Around Us, Garden City, New York, 1963.
284. T.J. Chandler, The Air Around Us, Garden City, New York, 1963.
285. T.J. Chandler, The Air Around Us, Garden City, New York, 1963.
286. T.J. Chandler, The Air Around Us, Garden City, New York, 1963.
287. The Developing Human (Prof. Keith Moor & Prof. T. Persaud) Edition 6 - 1998.
288. The Oxford Illustrated Dictionary. 1976. Second Edition. Oxford University Press. page 533.
289. Thierry Montmerle, Jean-Charles Augereau, Marc Chaussidon (2006). «Solar System Formation and Early Evolution: the First 100 Million Years». Earth, Moon, and Planets (Springer) 98: 39 -95.

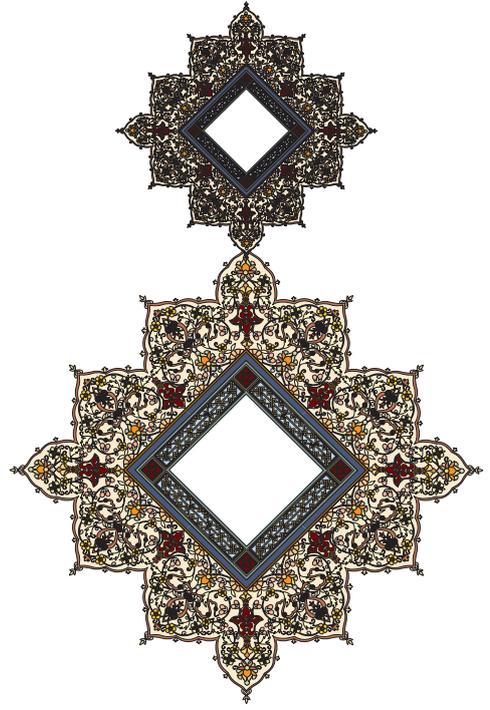
290. Thierry Montmerle, Jean-Charles Augereau, Marc Chaussidon (2006). «Solar System Formation and Early Evolution: the First 100 Million Years». *Earth, Moon, and Planets* (Springer) 98: 39 -95.
291. Thurston, H., *Early Astronomy*. Springer, 1994. p.2.
292. *Tormenting thoughts and secret rituals by : IAN OSBORN M.D DATE :* 1998 ISBN : 0-440-50847-9
293. *Traditional herbal medicine kills pancreatic cancer cells, researchers report»Salvadora persica»*. World Agroforestry Centre. 2009-02-16.
294. *U.S. Standard Atmosphere, 1962*, U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1962.
295. Uddman R, Ekblad E, Edvinsson L, Håkanson R, Sundler F. Neuropeptide Y-like immunoreactivity in perivascular nerve fibres of the guinea-pig. *Regul Pept*. 1985.
296. Unsöld, Albrecht; Baschek, Bodo; Brewer, W.D. (translator) (2001). *The New Cosmos: An Introduction to Astronomy and Astrophysics*. Berlin, New York: Springer.
297. USGS (September 21, 2007). «Bench collapse sparks lightning, roiling clouds». United States Geological Society.
298. Vannithone S, Davidson A (1999). «Camel». *The Oxford companion to food*. Oxford Oxfordshire: Oxford University Press. p. 127.
299. Veizer in B. F. Windley (ed.), *The Early History of the Earth*, John Wiley and Sons, London, p. 569., 1976
300. W. M. Irvine (1983). «The chemical composition of the pre-solar nebula». in T. I. Gombosi (ed.). *Cometary Exploration*. pp. 3 -12.
301. W. Wayt Gibbs . *Nanoantibodies*. *Scientific American Magazine* . august 2005 .
302. Wadia, NH, Singh, G. «Taenia Solium: A Historical Note» *Taenia Solium Cysticercosis: From Basic to Clinical Science* CABI Publishing, 2002. 157-168.
303. Walsh T (2006). «Combinatorial genetic evolution of multiresistance». *Curr. Opin. Microbiol*. 9 (5): 476 -82.

304. Watson, C.J. & Khaled, W.T. Mammary development in the embryo and adult: a journey of morphogenesis and commitment. *Development* 135, 995-1003 (2008).
305. Webster, B.L.; Murdin, P. (1972). «Cygnus X-1—a Spectroscopic Binary with a Heavy Companion ?». *Nature* 235: 37 -38.
306. Weiss RA (May 1993). «How does HIV cause AIDS?». *Science (journal)* 260 (5112): 1273 -9.
307. Wharton J, Polak JM, Probert L, De Mey J, McGregor GP, Bryant MG, Bloom SR. Peptide containing nerves in the ureter of the guinea-pig and cat. *Neuroscience*. 1981.
308. What secrets lie within the camel's hump?, Lund University, Sweden. 7 January 2008.
309. Williams, David R. (2007-03-17). «Earth Fact Sheet». NASA.
310. Williams, G.C. (1957). Pleiotropy, Natural Selection, and the Evolution of Senescence. *Evolution*. 11: 398-411.
311. Willson, R. C., and A. V. Mordvinov (2003), Secular total solar irradiance trend during solar cycles 21 -23, *Geophys*.
312. Winter, Lisa M.; Mushotzky, Richard F.; Reynolds, Christopher S. (2006). «XMM-Newton Archival Study of the Ultraluminous X-Ray Population in Nearby Galaxies». *The Astrophysical Journal* 649: 730.
313. Witzany, G (2008), «). The Viral Origins of Telomeres and Telomerases and their Important Role in Eukaryogenesis and Genome Maintenance.»., *Biosemiotics” Contagious Disease Control, The Lazaretto»*. City of Philadelphia. 2007-11-21.
314. Wood, R.W. (1909) «Note on the Theory of the Greenhouse,» *Philosophical Magazine*, 17, pp 319 -320.
315. Xavier Romero-Frias, *The Maldive Islanders, A Study of the Popular Culture of an Ancient Ocean Kingdom*. 1999.
316. Y. Wang, D. L. Lau and L. G. Hassebrook (2010) «Fit-sphere unwrapping and performance analysis of 3D Fingerprints», *Applied Optics*, Vol. 49, Issue 4, pp. 592-600, Feb. 2010.

317. Y. Wang, Q. Hao, A. Fatehpuria, D. L. Lau and L. G. Hasebrook (2009)
«Data Acquisition and Quality Analysis of 3-Dimensional Fingerprints»
IEEE conference on Biometrics, Identity and Security, Florida.
318. Zetterstrom R 1999, Breastfeeding and infant -mother interaction. Acta
Paediatr S430: 1-6







فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثالثة	٥
القسم الأول : تأملات في سيرة نبي الرحمة ﷺ	١٩
الفصل الأول: تأملات في سيرة نبي الرحمة ﷺ	٢١
توطئة	٢٣
المبحث الأول: نظرة على حياته ﷺ	٢٧
المبحث الثاني: جهاد الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى	٣٢
المبحث الثالث: هجرة النبي ﷺ إلى المدينة	٤٨
أبعاد التأخي بين المسلمين	٥٤
الفصل الثاني: نظرة على شخصيته ﷺ	٦٣
المبحث الأول: صفاته ﷺ	٦٥
المبحث الثاني: أخلاقه ﷺ	٧٢
المبحث الثالث: توازن شخصية الرسول ﷺ واعتدالها	٧٨
المبحث الرابع: مظاهر رحمته ﷺ	٨٩
المبحث الخامس: غزوات الرسول ﷺ وسراياه	١١٦

الصفحة

الموضوع

المبحث السادس: نظرة على علاقته ﷺ بالمسلمين	١٤٧
المبحث السابع: نظرة على علاقته ﷺ بغير المسلمين	١٨٥
المبحث الثامن: شهادة غير المسلمين بفضله ﷺ	٢٠٧
الفصل الثالث: محمد ﷺ الرسول والقائد	٢٢٧
المبحث الأول: كبار مساعدي رسول الله ﷺ في إدارة الدولة	٢٢٩
المبحث الثاني: تنظيم شؤون الدولة	٢٤٨
الفصل الرابع: الرسول ﷺ وفن القيادة	٢٦٩
المبحث الأول: الخصائص القيادية للرسول ﷺ	٢٧١
المبحث الثاني: وفاة الرسول ﷺ	٢٨٤
المبحث الثالث: وصايا النبي ﷺ في مرض وفاته	٣٠٢
المبحث الرابع: حقوق الرسول ﷺ على أمته	٣١٨
الفصل الخامس: خصائص المصطفى ﷺ وشمائله	٣٢٧
تمهيد	٣٢٩
القسم الثاني: براهين الرسالة المحمدية وحججها	٣٩٩
تمهيد	٤٠١
الفصل الأول: براهين الإيمان وإقامة الحججة على البشرية	٤٠٩
المبحث الأول: برهان الفطرة	٤١١
المبحث الثاني: برهان العقل المتدبر في ملكوت الله	٤١٤
المبحث الثالث: برهان العناية (كل شي في الكون هادف فلا بد من فاعل قاصد حكيم)	٤٢٢
المبحث الرابع: برهان إرسال الرسل عليهم السلام: يستلزم وجود	
مُرْسِلٍ هو الله الرحمن الرحيم	٤٣١

الصفحة

الموضوع

٤٣٤	المبحث الخامس: برهان إنزال الكتب
٤٣٧	المبحث السادس: برهان تأييد الرسل بالمعجزات الباهرة
٤٤١	أنواع المعجزات التي أعطيت للنبي ﷺ
٤٥٩	الفصل الثاني: شواهد علمية معاصرة على صدق الرسالة
٤٦١	تمهيد
٤٦٣	الطب وعلوم الحياة
٤٦٣	الإيمان نزوع فطري
٤٦٩	النحل
٤٧٥	الخنزير مصدر للأمراض والأوبئة
٤٨١	مراحل تكوّن اللبن
٤٨٩	عواقب الإباحية
٤٩٥	تمام الرضاعة عامين كاملين
٤٩٩	الرضاعة الطبيعية
٥٠٥	تداعي الجسد بالسهر والحمى
٥٠٩	الناصية المدانة بالكذب والخطيئة
٥١٣	بصمات الأصابع
٥١٧	الجلد والإحساس بالألم
٥٢١	ألم الأمعاء
٥٢٥	الذباب
٥٣٣	البعوضة
٥٣٩	الإبل
٥٤٧	الطاعون والحجر الصحي

الصفحة

الموضوع

٥٥٥	الشيخوخة
٥٦٣	الموت المبرمج
٥٦٩	الحبة السوداء شفاء من كل داء
٥٧٥	العنكبوت
٥٧٩	السواك
٥٨٣	الماء أساس الحياة
٥٨٧	الإسراف في الطعام
٥٩٣	وسائل المواصلات
٥٩٧	أطوار خلق الجنين في القرآن الكريم
٦٠١	طور النطفة
٦٠٥	طور العلقة
٦٠٩	طور المضغة
٦١٣	طور العظام واللحم
٦١٧	مرحلة اكتمال الخلقة
٦٢١	القرار المكين
٦٢٣	الصلب والترائب
٦٢٧	غيض الأرحام
٦٣١	وليس الذكر كالأنثى
٦٣٥	الأطعمة المحرمة
٦٤٣	أخطار مخالطة الكلاب
٦٤٧	التمر غذاء وشفاء
٦٥١	الخمير داء وليست بدواء

الصفحة

الموضوع

- ٦٥٧ الزيتون وزيته والطب الحديث
- ٦٦١ الصيام الشرعي سهل ميسور التغييرات الحيوية والفسولوجية خلال الصيام، وحكمة النهي
- ٦٦٧ عن وصال الصيام
- ٦٧١ العسل والطب الحديث
- ٦٧٥ الغضب وآثاره الخطيرة
- ٦٨١ الليل سكن
- ٦٨٥ وجه الإعجاز العلمي في قيام الليل
- ٦٨٩ المخاطر الصحية في وطء الزوجة الحائض
- ٦٩٥ الحكمة الباهرة في تشريع قاعدة النظافة
- ٧٠١ التوجيهات النبوية في وقاية المجتمع من الأوبئة ومنع انتشارها ...
- ٧٠٥ سنن الفطرة وأثرها الوقائي
- ٧٠٩ فذروه في سنبله
- ٧١٣ الإعجاز الطبي في القرآن والسنة
- ٧١٩ نظافة البيئة وأثرها على صحة المجتمع
- ٧٢٣ سبق التقدير في الخلق
- ٧٢٩ الإعجاز العلمي في عجب الذنب
- ٧٣٣ نوم القيلولة
- ٧٣٧ تكوين الحبوب من المادة الخضراء
- ٧٤١ الأرض وعلوم البحار
- ٧٤١ أخفض منطقة على وجه البسيطة
- ٧٤٩ ظلمات البحار العميقة

الصفحة

الموضوع

٧٥٥	البحر المسجور
٧٥٩	الصدوع بين الصفائح القارية
٧٦٥	البرزخ والحاجز بين بحرين
٧٧٣	ستعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا
٧٧٧	قبلة مسجد صنعاء نبوءة نبوية
٧٨١	الجبال الرواسي
٧٨٥	الخشوع والتصدع في الجبال
٧٨٩	الطوفان العظيم
٧٩٣	السراب
٧٩٩	الحاجز المائي بين بحرين
٨٠٥	المياه الجوفية
٨٠٩	اهتزاز التربة وربوها
٨١٥	نزول الحديد
٨٢١	كروية الأرض
٨٢٥	أوتاد الأرض
٨٢٩	الفلك وعلوم الفضاء
٨٢٩	حبك السماء
٨٣٣	ظلمة الفضاء
٨٣٧	الضغط الجوي
٨٤١	مراحل تكون السحاب الانبساطي
٨٤٣	مراحل تكون السحاب الطبقي
٨٤٧	تكوّن المطر

الموضوع	الصفحة
إفساد البيئة.....	٨٥٣
السقف المحفوظ.....	٨٥٩
الشمس سراج والقمر نور.....	٨٦٥
السماء ذات الرجع.....	٨٦٩
أنواع الرياح.....	٨٧٣
تنفس الصبح.....	٨٧٩
تيارات الريح الجوية النفاثة.....	٨٨٣
الحركة الذاتية للأجرام السماوية.....	٨٨٩
مدار الشمس.....	٨٩٣
آيتا الليل والنهار.....	٨٩٩
النجم الثاقب.....	٩٠٥
مواقع النجوم.....	٩٠٩
البرق والرعد.....	٩١٥
حدوث البرق.....	٩٢٥
كسوف الشمس.....	٩٢٩
الخاتمة.....	٩٣٥
المصادر والمراجع العربية (أبجدياً).....	٩٤٥
المصادر والمراجع الأجنبية.....	٩٥٧
فهرس الموضوعات.....	٩٨١



تم بحمد الله